

تفسير القرآن الحكيم

المشهور باسم تفسير المنار

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصرح المعقول ، الذي يبين حكم التشريع ، وسنن الله في الإنسان ، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان ، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها ، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بجملها ، مراعى فيه السهولة في التعبير ، مجتنباً مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون ، بحيث يفهمه العامة ، ولا يستغنى عنه الخاصة وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام

الإسناد الأمام

الشيخ محمد عبده

(رضي الله عنه)

الجزء الأول

(تأليف)

السيد محمد شيرضا

منشئ المنار

(حقوق الطبع والترجمة محفوظة لورثته)

الطبعة الثانية في سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

أصدرتها دار المنار ١٤ شارع الانشاء بالقاهرة

فاتحة تفسير القرآن الحكيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً
لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن
لهم أجراً حسناً ، ما كُتِبَ فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً *
ما لهم به من علم ولا لآبائهم . كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون
إلا كذباً * (١٨ : ٥١)

ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٢ : ١) وإن كنتم
في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من
دون الله إن كنتم صافين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها
الناس والحجارة أعدت للكافرين (٢ : ٢٢ ، ٢٣)

ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق
مصدقا لما بين يديه . وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل
الفرقان (٣ : ١) هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم
الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه
منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في
العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب (٣ : ٥)

أَلَمْ تَرَ . كِتَابًا أُخِيتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ *
 أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنْ نِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
 ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ
 فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
 وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١ : ١ - ٤)

أَلَمْ تَرَ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
 تَعْلَمُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ
 وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (١٢ : ١ - ٣) لقد كان في قصصهم عبرة
 لأولئ الذين ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه
 وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (١٢ : ١١١)

وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون
 به ، ومن هؤلاء من يؤمن به . وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون *
 وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذَا لَارْتَابَ
 الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ
 بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٢٩ : ٤٧ - ٤٩)

كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب (٣٨ :
 ٢٨) أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً
 (٤ : ٨١) الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ، تقشع منه
 جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تكلي جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك

هُدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِّ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ هَادٍ (٣٩ : ٢٣) لَوْ أَنْزَلْنَا
هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضَرْنَا بِهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٩ : ٢١)

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٣٣ : ٥٦) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا لِلَّهِ ذِكْرًا
كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * نَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَقْبُرُونَ سَلَامًا وَأَعَدَّ
لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٣٣ : ٤٠ - ٢٤٤)

أما بعد، فيا أيها المسلمون : إن الله تعالى أنزل عليكم كتابه هدى ونورا ليعلمكم
الكتاب والحكمة ويزكيكم ، ويعدكم لما يعدكم به من سعادة الدنيا والآخرة ،
ولم ينزله قانونا دينويا جافا كقوانين الحكام ، ولا كتابا طبيا لمداواة الاجسام، ولا
تاريخا بشريا لبيان الاحداث والوقائع ، ولا سفرا فنيا لوجوه الكسب والمنافع ،
فان كل ذلك مما جعله تعالى باستطاعتكم ، لا يتوقف على وحى من ربكم . وهذا
بعض مما وصف الله تعالى به كتابه في محكم آياته (١) تدبرها سلفكم الصالح واهتدوا
بها فأنجز لهم ما وعدهم من سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة في مثل قوله (وعد الله
الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين
من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا
يعبدونى لا يشركون بى شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٢٤ : ٥٣)
وفي قوله (وكان حقا علينا نصر المؤمنين (٣٠ : ٤٦) وقوله (ولن يجعل الله

(١) إشارة إلى الآيات السابقة ولما فتوى في حكمة إنزال القرآن أوردنا فيها
٢٤ آية من أمثال هذه الآيات و ١٥ حديثا في معناها فراجع في ص ٢٥٨م ٨ من المنار

للكافرين على المؤمنين سبيلا (٤ : ١٤٠) وقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (٦٣ : ٨) وقوله ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين (٣ : ٣٩) وعدمه الله تعالى هذه الوعود في حالى قلوبهم وضعفهم وفقرمهم وبعدهم عن الملك والسلطان ، وأنجز لهم ما وعدهم بما قضاه وجعله أنرا للاهتمام بالقرآن .

هدى الله بهذا القرآن العرب ، وهدى بدعوتهم إليه أعظم شعوب العجم ، فكانوا به أئمة الامم ، فبالاهتمام به قهروا أعظم دول الأرض المجاورة لهم . دولة الروم (الرومان) ودولة الفرس ، فهذه محوها من لوح الوجود بهم سلطانتها وإسلام شعبها ، وتلك سلبوها ما كان خاضعا لسلطانتها من ممالك الشرق وشعوبه السكثيرة ، ثم فتحوا الكثير من ممالك الشرق والغرب حتى استولوا على بعض بلاد أوربة وألغوا فيها دولة عربية كانت زينة الأرض في العلوم والفنون والحضارة والعمران حاربوا شعوبا كثيرة كانت أقوى منهم في جميع ما يحتاج إليه القتال من عدد وعدد ، وسلاح وكراع ، وحصون وقلاع ، وقتلواها في عقر دارها ، ومستقر قوتها ، وهم بعداء عن بلادهم ، ناهون عن مفر خلافتهم ، وإنما كانوا يفضلون أعداءهم بشيء واحد ، وهو صلاح أرواحهم الذى تبعه صلاح أعمالهم ، والروح البشرى أعظم قوى هذه الارض ، سخر الله تعالى له سائر قواها ومادتها كما قال (٢ : ٧٨) هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا (٤٥ : ١٢) وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه . إن فى ذلك الآيات لقوم يتفكرون)

كان أرقى حكام الروم والفرس وغيرهم علما وفنا وأدبا وسياسة يفسد فى الارض ، ويعبت بالمال والعرض ، أو كما قال الله تعالى (٢ : ٢٠٤) وإذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد) وكان المسلم العربى يتولى حكم بلد أو ولاية ، وهو لا علم عنده بشيء من فنون الدولة ، ولا من قوانين الحكومة ، ولم يمارس أساليب السياسة ، ولا طرق الادارة ، وإنما كل ما عنده من العلم بعض سور من القرآن ، فيصلح من تلك الولاية فسادها ، ويحفظ أنفسها وأموالها وأعراضها ، ولا يستأثر بشيء من حقوقها ، هذا وهو فى حال حرب ، وسياسة فتح ، مضطر لمراعاة تأمين المواصلات مع جيوش أمته وحكومتها ،

وسد الذرائع لانقراض أهلها . وإذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به وتتولى أمره ، فالإنسان سيد هذه الأرض ؛ وصلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده ، وليست الثروة ولا وسائلها من صناعة وزراعة وتجارة هي المعيار لصلاح البشر ، ولا الملك ووسائله من القوة والسياسة ؛ فان البشر قد أوجدوا كل وسائل الملك والحضارة من علوم وفنون وأعمال بعد أن لم تكن - فهي إذاً نابعة من معين الاستعداد الإنساني ؛ تابعة له دون العكس ، ودليل ذلك في العكس كدليله في الطرد ، فإنا نحن المسلمين وكثيراً من الشعوب التي ورثت الملك والحضارة عن سلف أوجدها من العدم ؛ ممن أضاعوها بعد وجودها بفساد أنفسهم .

صلحت أنفس العرب بالقرآن إذ كانوا يتلونه حتى تلاوته في صلواتهم المفروضة وفي تهجدهم وسائر أوقاتهم - فرفع أنفسهم وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس المستعبدة لها ، وهذب أخلاقها وأعلى هممها ، وأرشدتها إلى تسخير هذا الكون الأرضي كله لها ، فطلبت ذلك فأرشدتها طلبه إلى العلم بسننه تعالى فيه من أسباب القوة والضعف ، والغنى والفقر ، والعز والذل ، فهداها ذلك إلى العلوم والفنون والصناعات ، فأحيت مواتها ، وأبدعت فيها مالم يسبقه إليها غيرها . حتى قال صاحب كتاب تطور الأمم من حكماء الغرب : إن ملكة الفنون لا تستحکم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال ، وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد . قد شاهدنا ولا نزال نشاهد في بلانا : أن طلب العلوم والفنون مع إهمال

التربية المصلحة للنفس لم تحل دون استعباد الأجانب لنا ، كما جرى في دولتي الآستانة والقاهرة وغيرهما . ترى الرجل المتعلم المتفهم يتولى ولاية أو وزارة فيكون أول همه منها تأسيس ثروة واسعة لنفسه وولده لأجل التمتع بالشهوات واللذات والزينة ، وهكذا تفعل كل طبقة من رجال الدولة ، يستنزفون ثروة الأمة بالرشي والحيل وأكل السحت ، ويكون كل ما فضل عن شهواتهم بل جل ما ينفقونه عليها نصيب الأجانب ، وقد شرحنا هذه الموضوعات من قبل في مواضعها من المناسر والتفسير فلا نطيل فيها هنا . وإنما طرقتنا هذا الباب لندرككم أيها القارئون لهذه

الفاخرة بوجوب فهم القرآن والاهتمام به ، وبأن فقهه يتوقف على تفسيره لمن لم يوثق من ملكة لغته وذوق أساليبها وروح بلاغتها ومن تاريخ الاسلام وسيرة الرسول ﷺ وهدى السلف الصالح ما يمكنه من فقهه بنفسه .

إنما يفهم القرآن ويتفقه فيه من كان نصب عينه ووجهة قلبه في تلاوته في الصلاة وفي غير الصلاة ما بينه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله ، وفائدة ترتيبه ، وحكمة تدبره من علم ونور ، وهدى ورحمة ، وموعظة ، وعبرة وخشوع وخشية ، وسنن في العالم مطردة . فتلک غاية إنذاره وتبشيره ، ويلزمها عقلا وفطرة : تقوى الله تعالى بترك ما نهى عنه ، وفعل ما أمر به بقدر الاستطاعة ، فإنه كما قال (هدى المتقين) كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العلية ، والهداية السامية ، فنهما ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ، ونكت المعاني ومصطلحات البيان ، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين ، وتخرجات الأصوليين ، واستنباطات الفقهاء المقلدين ، وتأويلات المتصوفين ، وتمصيب الفرق والمذاهب بعضها على بعض ، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات ، وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات ، وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده ، كاهيئة الفيلسوف اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة ، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسما والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان ، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن .

نعم إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن : فنون العربية لا بد منها واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية أيضا ، كقواعد النحو والمعاني ، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه كل ذلك يعين على فهم القرآن وأما الروايات المأثورة عن النبي ﷺ وأصحابه وعلماء التابعين في التفسير فمنها ما هو ضروري أيضا ، لأن ما صحح من المرفوع لا يقدم عليه شيء ، ويليه ما صحح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم ، والصحيح من هذا

وذلك قليل . وأكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والنصارى
ومسلمة أهل الكتاب، كما قال الحافظ ابن كثير ، وجل ذلك في قصص الرسل مع
أقوامهم ، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفي تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف
ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل وعوج بن عنق ، وفي أمور الغيب من
أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها ، وجل ذلك خرافات ومفتريات
صدقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة (رض) ، ولذلك قال الإمام أحمد : ثلاثة
ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي . وكان الواجب جمع الروايات المفيدة
في كتب مستقلة ، كـ بعض كتب الحديث وبيان قيمة أسانيدھا، ثم يذكر في التفسير
ما يصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث في كتب الفقه ، لكن يعزى إلى
مخرجه كما نعمل في تفسيرنا هذا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : والاختلاف في التفسير على
نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك ، والمنقول إما عن المعصوم
أو غيره ، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ومنه ما لا يمكن ذلك ، وهذا
القسم - الذي لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه - عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا
إلى معرفته ، وذلك كاختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف واسمه ، وفي البهض
الذي ضرب به الفتيل من البقرة ، وفي قدر سفينة نوح وخشبها ، وفي اسم الغلام
الذي قتله الخضر ، ونحو ذلك . فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل ، فما كان منها
منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ قبل ، وما لا - بأن نقل عن أهل الكتاب كـ
وهب - وقف عن تصديقه وتكذيبه لقوله ﷺ « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا
تصدقوهم ولا تكذبوهم » وكذا ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه
عن أهل الكتاب ، فتمت اختلاف التابعين لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض .
وما نقل عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين ، لأن
احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن
نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصحابة بما يقوله
كيف يقال : إنه أخذه عن أهل الكتاب ، وقد نهوا عن تصديقهم ؟

«وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه : فهذا موجود كثير والله الحمد وإن قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي . وذلك لأن الغالب عليها المراسيل . وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان» ثم ذكر الجهتين اللتين هما مثار الخطأ (وإحداهما) حمل ألفاظ القرآن على معاني اعتقدوها لتأييدها به - أقول : كجميع مقلدة الفرق والمذاهب في الأصول والفروع المتعصبين لها فانهم قد جعلوا مذاهبهم أصولاً والقرآن فرعاً لها يحمل عليها ، وهذا شر أنواع البدع وتفسير القرآن بالرأى المنموم في الحديث (والثانية) التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن ، وهو الله عز وجل ؛ والمنزل عليه والمحاطب به - وفصل ذلك بما يراجع في محله .

فأنت ترى أن هذا الإمام المحقق جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواية الإسرائيليات ، وهذا في غير ما يقوم الدليل على بطلانه في نفسه . وصرح في هذا المقام بروايات كعب الأخبار ووهب بن منبه مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوا . فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شيء منه ولا حومت حوله ؟ - وكذا ما نقل عن بعض التابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب - يعني بخلاف ما اتفق عليه أهل الرواية من علماء التفسير وغيره منهم ، فإنه يكون أبعد من أن يكون عن أهل الكتاب . وإنما الوقف فيما ينقل نقلاً صحيحاً عن كتب الأنبياء كالطوراة والإنجيل التي عندهم ، لا تصدقهم فيه لاحتمال أنه مما حرفوا فيها ، ولا نكذبهم لاحتمال أنه مما حفظوا منها ، فقد قال تعالى فيهم : إنهم (أوتوا نصيباً من الكتاب)

وأنت ترى أيضاً أنه لم يجزم بما روى عن الصحابة (رض) من ذلك ، وإنما قال إن النفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين . لأن احتمال سماعه من النبي ﷺ أقوى من احتمال سماعه من بعض أهل الكتاب لقلة رواية الصحابة عنهم ، وهذا ينقض قول من أطلق الحكم بأن ما قاله الصحابي الثقة مما لا يعرف بالاستدلال

بل بالنقل له حكم الحديث المرفوع . وقد علم أن بعض علماء الصحابة رووا عن أهل الكتاب، حتى عن كعب الأخبار الذي روى البخارى عن معاوية أنه قال « إن كنا لنبأو عليه الكذب » ومنهم أبو هريرة وابن عباس (رض) ومن الصحابة من روى عن بعض التابعين الذين رووا عن أهل الكتاب فالحق أن كل ما لا يعلم إلا بالنقل عن المعصوم من أخبار الغيب الماضى أو المستقبل وأمثاله لا يقبل في إثباته إلا الحديث الصحيح المرفوع إلى النبي ﷺ وهذه قاعدة الإمام ابن جرير التي يصرح بها كثيراً

هذا وإن كلام ابن تيمية لا ينقض قول الإمام أحمد، فإنه لم يعن به أنه لا يوجد في تلك الثلاثة رواية صحيحة آتية . وإنما يعنى أن أكثرها لا يصح له سند متصل وما صح سنده إلى بعض الصحابة يقل فيه المرفوع الذى يحتاج به

وغرضنا من هذا كله أن أكثر ما روى في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتأليه عن مقاصده العالية المزكية للأُنفس المنورة للمعقول ، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات ، التى لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً ، كما أن المفضلين لسائر التفاسير لهم صوارف أخرى عنه كما تقدم .

فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه ، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح ، وهو ما ترى تفصيل الكلام عليه في المقدمة المتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه . ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر . في سهولة التعبير ، ومراعاة أفهام صنوف الفارثين ، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها ، إلى غير ذلك مما تراه قريباً . وهو ما يسره الله بفضله لهذا العاجز ، وهالك موجزاً من نبأ تيسيره له كنت من قبل اشتغالى بطلب العلم في طرابلس الشام مشتغلاً بالعبادة ميلاً إلى التصوف ، وكنت أنوى بقراءة القرآن الاتماظ بمواعظه لأجل الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا . ولما رأيت نفسى أهلاً لنفع الناس بما حصلت من العلم على قلته صرت أجلس إلى العوام في بلدنا أعظمهم بالقرآن مغلباً الترهيب على الترغيب والخوف على الرجاء ، والإنذار على التبشير ، والزهد في الدنيا على القصد والاعتدال فيها .

فى أثناء هذه الحال الغالبة على ظفرت يدى بنسخ من جريدة العروة الوثقى فى أوراق والذى فلما قرأت مقالاتها فى الدعوة إلى الجماعة الاسلامية وإعادة مجد الاسلام وسلطانه وعزته ، واسترداد ما ذهب من ممالكه ، وتحرير ما استعبد الأجانب من شعوبه - أثرت فى قلبى تأثيراً دخلت به فى طور جديد من حياتى وأعجبت جد الإعجاب بمنهج تلك المقالات فى الاستشهاد والاستدلال على قضاياها بآيات من الكتاب العزيز ، وما تضمنه تفسيرها مما لم يحوم حوله أحد من المفسرين على اختلاف أساليبهم فى الكتابة ، ومداركهم فى الفهم . وأهم ما انفرد به منهج العروة الوثقى فى ذلك ثلاثة أمور :

(أحدها) بيان سنن الله تعالى فى الخلق ونظام الاجتماع البشرى ، وأسباب ترقى الأمم وتدهورها ، وقوتها وضعفها (ثانيها) بيان أن الاسلام دين سيادة وسلطان ، وجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ومقتضى ذلك أنه دين روحانى اجتماعى ، ومدنى عسكري ، وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة ، والهداية العامة ، وعزة الملة ، لا لأجل الإكراه على الدين بالقوة (ثالثها) أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم ، فهم إخوة لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة .

تلك المقالات التى حببت إلى حكيمى الشرق ، ومجدى الاسلام ومصالحى العصر ، السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وهما اللذان أنشأ جريدة العروة الوثقى فى باريس سنة ١٣٠١ عقب احتلال الإنكليز لمصر فى أواخر سنة ١٢٩٩ وكان الكاتب لتلك المقالات العالية فيها هو الثانى ولكن بإرشاد الأول وإدارته وسياسته ، وهو أستاذة فى هذا المنهج ومربيه عليه .

توجهت نفسى بتأثير العروة الوثقى إلى الهجرة إلى السيد جمال والتلقى عنه وكان قد جاء إلى الأستانة فكشفت إليه بترجمتى ورغبتي فى صحبته وأنه لا يصدنى عنها إلا إقامته فى الأستانة لاعتقاده أنه لا يستطيع طول المقام فيها ، وعملت ذلك بقولى « لأن بلاد الشرق أمست كلر يرض الأحقق يأبى الدواء ويعافه لأنه دواء »

وبعد أن توفاه الله تعالى إليه فيها تعلق أملى بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده للوقوف على اختباره وآرائه فى الإصلاح الاسلامى ، وما زلت أترقب الفرص

لذلك حتى سنحت لي في رجب سنة ١٣١٥ وكان ذلك عقب إتمام تحصيلي للعلم في طرابلس ، وأخذ شهادة العالمية أو التدريس من شيوخى فيها . فهاجرت إلى مصر ، وأنشأت المنار للدعوة إلى الإصلاح .

اتصلت بالشيخ فى الضحوة الصغرى لليوم الذى وصلت فى ليله إلى القاهرة فكان اتصالى به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الأخص بتلزمه ، وكان أول اقتراح لى عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينبغى فيه من روحه التى وجدنا روحها ونورها فى مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة ، فقال : إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه ، فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها ما لم يتقنها بعض . ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل . فاقترحت عليه أن يقرأ درساً فى التفسير ، وكان ذلك فى شعبان سنة ١٣١٥ ثم كررت عليه الاقتراح فى رمضان ، يمتد بما أذكر أهمه هنا .

زرته يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لى عبارة من كتاب إفرنسى فى الطعن على الإسلام ، وطفق يرد عليها بعد أن قال : إن هؤلاء الإفرنج يأخذون مطاعنهم فى الإسلام من سوء حال المسلمين ، مع جهلهم بمحقيقة الإسلام . قال إن القرآن نظيف والإسلام نظيف ، وإنما لوثة المسلمون بإعراضهم عن كل ما فى القرآن واشتغالهم بسفساف الأمور . وطفق يتكلم بهذه المناسبة فى تفسير قوله تعالى (هو الذى خلق السموات والأرض جميعاً) وماذا كان ينبغى للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتدوا بها .

ثم ذكر أن الطاعن ادعى أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا أنه حاكم قاهر وسلطان عظيم قد أوجب الفتح على أتباعه لأجل قهر الأمم لا لأجل تربيتها . وقال : فأين هذا من تسمية النصرارى خالقهم بالأب الدال على الرأفة والعطف ؟ ثم طفق الأستاذ يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب وما فيه من معانى التربوية والعطف ، والتفرقة بينه وبين معنى الأب ، وكون طلبه للولد بمقتضى شهوته لا محبة له وغير ذلك من شؤون الوالد التى ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها وأطال فى ذلك وههنا دار بينى وبينه ما أذكر ما خصه كما كتبتة بعد مفارقة ذلك المجلس وهو :

(قلت) لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وتترك

كل ما هو موجود في كتب التفسير وتبين ما أهملوه . . .
 قال : إن الكتب لاتفيد القلوب العمى . فان دكان السيد عمر الخشاب مملوءة
 بالكتب من جميع العلوم، وهي لا تعلم شيئاً منها ، لاتفيد الكتب إلا إذا صادفت
 قلوباً متيقظة عالمة بوجه الحاجة إليها تسعى في نشرها . إذا وصل لأيدى هؤلاء
 العلماء كتاب فيه غير ما يعلون لا يعقلون المراد منه ، وإذا عقلوا منه شيئاً يردونه
 ولا يقبلونه ، وإذا قبلوه حرفوه إلى ما يوافق علمهم ومشر بهم ، كما جروا عليه في
 نصوص الكتاب والسنة التي نريد بيان معناها الصحيح وما تفيد .

« إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن
 نظر المتكلم وحرركاته وإشاراته ولهجته في الكلام - كل ذلك يساعد على فهم
 مراده من كلامه ، وأيضا يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه
 فاذا كان مكتوباً فن يسأل ؟ ان السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم ،
 والقارىء لكلامه يفهم منه ٢٠ في المائة على ما أراد الكاتب . ومع ذلك كنت
 أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر وبعض طلبة المدارس الأميرية ،
 وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج إليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما
 أعلم ، مع أنها كان من حقها أن تكتب ، وما علمت أحداً كتب منها شيئاً خلاتلميذين
 قبطين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعاني في بعض ما يكتبان ، وأما المسلمون فلا
 قرأت تفسير سورة العصر في سبعة أيام ، وكل درس لا يقل عن ساعتين .

أو ساعة ونصف ، بينت فيها وجه كون نوع الإنسان في خسر إلا من استثنى الله
 تعالى ، وما المراد بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، مما لو جمع لكان رسالة
 حسنة في تفسير السورة . وما علمت أحداً كتب من ذلك شيئاً إلا أن يكون عبد العزيز^(١)
 (قلت) إنه يوجد كثير من المنتهين حالة العصر والاسلام في البلاد المتفرقة
 وكثير منهم ما نبههم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم اتنبه التنبيه الذي أنا عليه إلا بها
 (قال) إن بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدررون على الكلام بأى موضوع
 أمام أى انسان ، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا ، وهذه الخاصية كانت موجودة

(١) قرأه بعد ذلك في الجزائر ثم كتبه باقتراحنا ونشرناه في المنار ووحده

عند السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها وأنا كنت أحسده على هذا لأننى تؤثر فى حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له محلاً وهكذا الكتابة ، فانى ربما أتصور أن أكتب بموضوع وعندما أوجه قواى لجمع ما يحسن كتابته تتوارد على فكرى معان كثيرة ووجوه للكلام حجة ، ثم يأتينى خاطر : لمن ألقى هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعانى التى اجتمعت عندى قدامتص بعضها بعضاً حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئاً .

« إن حالة المحاطب تؤثر بى جداً ، ولذلك لا أتكلم بشيء عن حالة الإسلام عندما أجمع بهؤلاء العلماء ، لأن أفكارهم منصرفه عن ذلك بالسكينة ، ولذلك لا يعملون شيئاً مع سعة وقتهم . وعند قراءة التفسير كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين لأننى لأطالع عند ما أقرأ^(١) لكننى ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب فى الاعراب أو كلمة غريبة فى اللغة . فاذا حضر فى جماعة من البلاد الخامل الفكرة أحل لهم المعنى بكلمات قليلة . وإذا كان هناك من يتنبه لما أقول ويلقى له بالافتح على بكلام كثير

(قلت) إن الزمان لا يخلو من يقدر كلام الإصلاح قدره وإن كانوا قليلين وسيزيد عددهم يوماً فيوماً ، فالكتابة تكون مرشداً لهم فى سيرهم . وإن الكلام الحق وإن قل الأخذ به والعارف بشأنه ، لا بد أن يحفظ وينمو بمصادفة المباشرة المناسبة له وهو مقتضى ناموس (أى سنة) الانتخاب الطبيعى ، كما حفظت (العروة الوثقى) فإن أوراوقها الأصلية الضعيفة قد بليت لكن ما فيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت فى الطروس والنفوس . الخ

ولم أزل به حتى أقنعت به قراءة التفسير فى الأزهر فاقتنع وبدأ بالدرس بعد ثلاثة أشهر ونصف أى فى غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منه فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شيء محيطاً) من الآية ١٢٥ من سورة النساء . فقرأها خمسة أجزاء فى ست سنين ، إذ توفى لثمان خلون من جمادى الأولى منها رحمه الله تعالى وأتابه كانت طريقته فى قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه فى كتابة التفسير ، وهو

أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة ، وفي الروايات التي لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرأها أو ينتقد منها ما يراه منتقداً ، ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة .

وكنت أكتب في أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه ، وأمدد بكل ما أتذكره في وقت الفراغ ، ولم ألبث أن اقترح على بعض الراغبين في الاطلاع عليه من قراء المنار في البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الاخوان بمصر أن أنشره في المنار . فشرعت في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨ وذلك في المجلد الثالث من المنار ، وكنت أولاً أطلع الاستاذ الإمام على ما أعده للطبع كما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه . فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات ، ولا أذكر أنه انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضياً بالمكتوب بل معجباً به . على أنه لم يكن كله نقلاً عنه ومعزواً إليه ، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العمالية جل ما استفاد منها ، لذلك كنت أعزو إليه القول المنقول عنه إذا جاء بعد كلامي في بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فإذا انتهى النقل وشرعت بكلام لي بعده قلت في بدئه (أقول) ولم يكن هذا التمييز ملتزماً في أول الامر بل يكثر في الجزء الأول ما لا عزو فيه ، ومنه ما هو مشترك بين ما فهمته منه ومن كتب التفسير الأخرى أو من نص الآية على أنني عبرت عنه بأمالى مقتبسة ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه ، إما قبل طبعه وهو الغالب ، وإما بعده وهو الأقل ، لم أكن أرى حرجاً فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبتة عنه في مذكرات الدرس ، لأن إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو . وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الأمانة أن لأعزوا اليه إلا ما كتبتة عنه أو حفظته حفظاً ، وصرت أكثر أن أقول : قال مامعنا ، أو ما مثله ، أو ما ملخصه ، مثلاً ، على أنني أعتقد أنه لو بقي حياً واطلع عليه لاقره كله .

وقد بدأت في حياته بتجريد تفسير الجزء الثاني من المنار وطبعه على حدته وتوفى قبل طبع نصفه ، فهو قد قرأ ما طبع منه مرتين . وقد اشتد شعوري بعد ذلك بأن عليّ وحدي تبعة تأليف تفسير مستقل وتبعة إيداعه ما تلقينته عن هذا العالم الكبير المشرق البصيرة ، وذى النصيب الوافر من إرث نبي الله داود عليه السلام الذى قال الله تعالى فيه (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وتبعة الأمانة فى النقل بالمعنى أثقل من تبعة تحرى الفهم الصحيح وأدائه ببيان فصيح

وسبب البدء بطبع الجزء الثانى : أن الأول كان مختصراً وغير ملتزم فيه بالالتزمته فيما بعده من تفسير جميع عبارات الآيات وذكر نصوصها ممزوجة فيه . ولذلك اقترحت على الأستاذ أن يعيد النظر فيه ويزيد فيه ما يسنح له من زيادة أو إيضاح ، ولا سيما إيضاح ما انتقد عليه إجماله من الكلام فى الملائكة والشياطين وتأويل قصة آدم . فقرأ النصف الأول منه بعد نسخه له وزاد فيه ما يراه القارىء معزواً إلى خطه ومميزاً بوضعه بين علامتين بهذا الشكل [] وزدت أنا فى جميع الجزء زيادات غير قليلة ضاربها موافقاً لسائر الأجزاء فى أسلوبه وكنت أميز زيادنى الأخيرة عن أقوالى التى أسندتها إلى نفسى أولاً فى حالى حياة الأستاذ بقولى :

وأزيد الآن ، أو وأقول الآن ، ثم تركت ذلك واكتفيت بكلمة (أقول)

هذا وإننى لما استقلت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة ، سواء كان تفسيراً لها أو فى حكمها ، وفى تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفى الاكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة ، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها ، بما يشبههم بهداية دينهم فى هذا العصر ، أو يقوى حججهم على خصومه من الكفار والمبتدعة ، أو يحل بعض المشكلات التى أعيأ حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس ، وأستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطردادية الطويلة وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير ، لتدبر القرآن والاهتداء به فى نفسه ، وفى النهوض بإصلاح أمته ، وتجديد شباب منته : الذى هو المقصود بالذات منه ، وأسأله أن

مقدمة التفسير

﴿ المقتبسة من درس الأستاذ الإمام بالمعنى ، مع البسط والإيضاح ﴾
التكلم فى تفسير القرآن ليس بالأمر السهل ، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها ، وما كل صعب يترك . ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه . ووجوه الصعوبة كثيرة . أهمها : أن القرآن كلام سماوى تنزل من حضرة الربوبية التى لا يكتننه كنهها : على قلب أكل الأنبياء . وهو يشمل على معارف عالية ، ومطالب سامية ، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية ، والمعقول الصافية ، وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال ، الفائضين من حضرة الكمال ، ما يأخذ بتليبيد ، ويكاد يحول دون مطلوبه ، ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه ، لأنه إنما أنزل الكتاب نورا وهدى ، مبينا للناس شرائعه وأحكامه . ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه .

والتفسير الذى نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فإن هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له وداء أو وسيلة لتحصيله

والتفسير له وجوه شتى (أحدها) النظر فى أساليب الكتاب ومعانيه ، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وامتيازته على غيره من القول . سلك هذا المسلك الزمخشري . وقد ألم بشيء من المقاصد

الأخرى ونحنا نحوه آخرون (ثانيها) الاعراب . وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا في بيان وجوهه وما تحتمله الالفاظ منها (ثالثها) تتبع القصص وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن ماشاءوا من كتب التاريخ والاسرائيليات . ولم يعتمدوا على التوراة والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل (رابعها) غريب القرآن (خامسها) الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها . وقد جمع بعضهم آيات الأحكام وفسروها وحدها . ومن أشهرهم أبو بكر ابن العربي . وكل من يغلب عليهم الفقه من المفسرين يعنون بتفسير آيات أحكام العبادات والمعاملات أكثر من عنايتهم بسائر الآيات (سادسها) الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحااجة المختلفين . وللإمام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع (سابعها) المواعظ والرقائق . وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعباد ، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها القرآن (ثامنها) ما يسمونه بالإشارة . وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية . ومن ذلك التفسير الذي يفسرونه للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي . وإنما هو للقاشاني الباطني الشهير . وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز .

وقد عرفت أن الاكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهي وينذهب بهم في مذاهب تنسبهم معناه الحقيقي . لهذا كان الذي نعى به من التفسير هو ما سبق ذكره

أى من فهم الكتاب من حيث هو دين ، وهداية من الله للعالمين ، جامعة بين بيان ما يصلح به أمر الناس في هذه الحياة الدنيا ، وما يكونون به سعداء في الآخرة ، — و يتبعه بلا ريب : بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته — أى عند الحاجة إلى ذلك كالمسائل التى عدوها مشكلة ، وربما نشير أحيانا إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النحو الإصطلاحية ، كما نفعل ذلك فى بعض نكت البلاغة ، أو قواعد الأصول ، حتى لا تكون الاصطلاحات شاغلا للقارىء عن المعانى ، صارفة له عن العبرة .

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر : لاحاجة إلى التفسير والنظر فى القرآن ، لأن الأئمة السابقين نظروا فى الكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام منهما ، فما علينا إلا أن ننظر فى كتبهم ونستغنى بها . هكذا زعم بعضهم . ولو صح هذا الزعم لكان طالب التفسير عبثا ، يضع به الوقت سدى وهو — على ما فيه من تعظيم شأن الفقه — مخالف لإجماع الأمة من النبي صلى الله عليه وسلم إلى آخر واحد من المؤمنين ، ولا أدرى كيف يخطر هذا على بال مسلم ؟

الأحكام العملية التى جرى الإصلاح على تسميتها فقهاً هى أقل ما جاء فى القرآن ، وأن فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة ، وإرشادها الى طريقة الحياة الإجتماعية : ما لا يستغنى عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وما هو أجدر بالدخول فى الفقه الحقيقى ، ولا يوجد هذا الإرشاد إلا فى القرآن ، وفيما أخذ منه ، كإحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب ، ولكن سلطان القرآن

على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره في قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لا يسامه فيه كلام ، كما أن الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ، ولم يفضح عنها علم ولا إمام ، ثم إن أئمة الدين : قالوا إن القرآن سيبقى حجة على كل فرد من أفراد البشر إلى يوم القيامة . ومن أدلة ذلك حديث « والقرآن حجة لك أو عليك » ولا يعقل إلا بفهمه ، والإصابة من حكمته وحكمه .

خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية في أشخاصهم ، بل لأنهم من أفراد النوع الانساني ، الذي أنزل القرآن لهدايته . يقول الله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم » فهل يعقل أنه يرضى منا بأن لانفهم قوله هذا ونكتفى بالنظر في قول ناظر نظر فيه ، لم يأتنا من الله وحى بوجوب اتباعه لاجلته ولا تفضيلا ؟ كلا إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لافرق بين عالم وجاهل . يكفي العامي من فهم قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » الخ : ما يعطيه الظاهر من الآيات ، وأن الذين جمعت أوصافهم في الآيات السريفة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ، ويكفي في معرفة الأوصاف : أن يعرف معنى الخشوع والاعراض عن اللغو ، وما لاخير فيه والإقبال على ما فيه فائدة له دنيوية أو أخروية ، وبذل المال في الزكاة والوفاء بالعهد ، وصدق الوعد ، والعفة عن إتيان الفاحشة ، وأن من فارق هذه الأوصاف إلى أضدادها فهو المعتدى حدود الله ، المتعرض لغضبه ، وفهم هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أي طبقة كان ، ومن أهل أي لغة كان . ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ، ويصرفها عن الشر . فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل

أنواع الضعف الذى نحن عليه . وهناك مرتبة تملو على هذه وهى من فروض الكفاية .

للتفسير . مراتب أدناها : أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير . وهذه هى التى قلنا إنها متيسرة لكل أحد « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ »
وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمر :

(أحدها) فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكثف بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك « لفظ » التأويل : اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى « هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق » فما هذا التأويل ؟^(١) يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة ؛ ليفرق بينها وبين ماورد فى الكتاب . فكثيرا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى^(٢) . فعلى المدقق

(١) لا أتذكر أن الاستاذ الامام ذكر معناه عند التمثيل ، وهو العاقبة ، وما بعد به أى القرآن - من المثوبة والعقوبة ، أى ما يؤول إليه الأمر فى وعدد ووعدده ويراجع تحقيق ذلك فى تفسير التأويل والمتشابهات من أول سورة آل عمران
(٢) من ذلك : لفظ « الولى » معناه فى القرآن غالباً الناصر والمولى . وأولياء الله أنصار دينه من أهل الايمان والتقوى . قد اصطلاحوا بعد ذلك على أن الاولياء =

أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله . والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ماتكرر فى مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ « الهداية » - سيأتى تفسيره فى الفاتحة - وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية . فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه ببعض ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ : موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وأتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

(ثانيها) الأساليب . فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة . وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفتن لنكتته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم إننا لانتسألى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه السكال والتمام . ولكن يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة . ويحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب . ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسددين فى النطق يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع ، أتخسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا ، وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة . ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم ، عند ما اختلطوا بهم . ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة .

(ثالثها) علم أحوال البشر - فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله

صنف من الناس تظهر على أيديهم الحوارق ويتصرفون فى الكون بما وراء الأسباب ولم يعرف الصحابة هذا المعنى

آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه في غيره . بين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم ، والسنن الإلهية في البشر ، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها . فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم ، وأدوارهم ، ومنشأهم ، واختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف . وعز وذل : وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير . علويه وسفليه ، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه .

قال الأستاذ الإمام : أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى « ٢ : ٢١٢ . كان الناس أمة واحدة . فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » الآية - وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ، وكيف تفرقوا ؟ وما معنى تلك الواحدة التي كانوا عليها ؟ وهل كانت نافعة أم ضارة ؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم (*)

أجل القرآن . الكلام عن الأمم ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته في السموات والأرض ، وفي الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عن أحاط بكل شئ - علما ، وأمرنا بالنظر والتفكير ، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكلا ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره . لكننا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة .

(رابعها) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن . فيجب على المفسر

(*) كتب الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى تفسيرا لهذه الآية ، جاء فيه بما لا يوجد في كتاب . ونشر في الجزء الثاني من مجلد المنار الثامن ، أى مجلد سنة ١٣٢٣ ويراجع في الجزء الثاني من التفسير

القائم بهذا الفرض الكفائي : أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم . لأن القرآن ينادى بأن الناس كانوا في شقاء وضلال ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبخته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة ، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه ؟ هل يكتفى من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد . بأن يقولوا تقليداً لغيرهم : إن الناس كانوا على باطل ، وإن القرآن دحض أباطيلهم في الجملة ؟ كلا .

وأقول الآن : يروى عن عمر (رض) أنه قال « إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة : إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية » والمراد أن من نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية الله بحمده مغيراً لأحوال البشر ومخرجاً لهم من الظلمات إلى النور ، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي . كما ترى بعض الذين يتربون في النظافة والنعم يمدون التشديد في الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو . لأنه من ضروريات الحياة عندهم ، ولو اخبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر وتأثير تلك الآداب من أين جاء ؟

(خامسها) العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها .

فعل مما ذكرنا أن التفسير قسمان :

(أحدهما) جافٌ مبعد عن الله وعن كتابه ، وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية . وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً ، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرها .

و (ثابتهما) وهو التفسير الذي قلنا : إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية . هو الذي يستجمع تلك الشروط . لأجل أن تستعمل لغايتها ، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام . على الوجه الذي يجذب الأرواح ، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله « هدى ورحمة » ونحوها من الأوصاف . فالقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط . والغنون : هو الاهتداء بالقرآن .

قال الأستاذ الامام : وهذا هو الغرض الأول الذي أرمى إليه في قراءة التفسير .

وتكلم الأستاذ الامام أيضاً عن التفسير والتأويل في اصطلاح العلماء ثم بين عظيم شأن تفسير القرآن وفهمه بما مثله : مثل الناطقين بالعربية الآن - من العراق إلى نهاية بلاد مراكش - بالنسبة إلى العرب في لغتهم كمثل قوم من الأعاجم المخالطين للعرب ، وجد في كلامهم - بسبب المخالطة - مفردات من العربية . فهؤلاء الأقوام أشد حاجة إلى التفسير ، وفهم القرآن من المسلمين الأولين ، ولا سيما من كانوا في القرن الثالث حيث بدىء بكتابة التفسير وأحسن المسلمون بشدة حاجتهم إليه ، ولا شك أن من يأتي بعدنا يكون أحوج منا إلى ذلك إذا بقينا على تقهقرنا ، ولكن إذا يسر الله لنا نهضة لإحياء لغتنا وديننا فر بما يكون من بعدنا أحسن حالاً منا .

التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون : هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير على ما في كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن (٤ : ٨١) ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر

عليه أفهامهم في العلم بمعاني الكتاب . ثم يبتثونه في الناس ويحملونهم عليه . ولكنهم لم يطلبوا ذلك ، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتقن فيها ، ويمارون فيها من يباريهم في طلبها ، ولا يخرجون لأظهار البراعة في تحصيلها عن حد الإكثار من القول ، واختراع الوجوه من التأويل ، والإغراب في الإبعاد عن مقاصد التنزيل ، إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه وإنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا ، وعن سنة نبيه الذي بين لنا ما نزل إلينا (١٦ : ٤٤) وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) يسألنا هل بلغتكم الرسالة ؟ هل تدبرتم ما بُلِّغتم ؟ هل عقلتم ما عندهم نهيتم وما به أمرتم ؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن ، واهتديتم بهدى النبي واتبعتم سنته ؟ عجباً لنا ننتظر هذا السؤال ونحن في هذا الإعراض عن القرآن وهديه ، فيما للعفلة والغرور .

معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى : أول ما يلحق الوليد عندنا من معرفة الله تعالى ، هو اسم « الله » تبارك وتعالى ، يتعلمه بالإيمان الكاذبة كقوله : والله لقد فعلت كذا وكذا ، والله ما فعلت كذا ، وكذلك القرآن يسمع الصبي ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالى ، ولا يعقل معنى ذلك ، ثم لا يعرف من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم . وذلك بأمرين .

(أحدهما) اعتقاد أن آية كذا إذا كتبت وحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفي ، وأن من حمل القرآن ، لا يقربه جن ولا شيطان ، ويبارك له في كذا وكذا ، إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة ؛ أكثر مما هو معروف للخاصة ، ومع صرف النظر عن صحة هذا

وعدم صحته نقول : إن فيه مبالغة في التعظيم عظيمة جداً ولكنها (ويا للأسف) لا تزيد عن تعظيم التراب الذي يؤخذ من بعض الأضرحة ابتغاء هذه المنافع والقوائد نفسها . أقول : ونحو هذا ما يعلق على الأطفال من التماويذ والتناجيس^(١) كالخرق والعظام والتائمات المشتملة على الطلسمات والكلمات الأعجمية ، المنقولة عن بعض الأمم الوثنية ، هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه - إذا جرينا على سنة القرآن - عبادة للقرآن لا عبادة لله به

(ثانيهما) الهزة والحركة المخصوصة والكلمات المألوفة التي تصدر ممن يسمعون القرآن ، إذا كان القارئ رخيماً الصوت حسن الأداء عارفاً بالتطريب على أصول النغم . والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم ، بل أقوى سبب لذلك هو بعند السامع عن فهم القرآن . وأعنى بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بمجائباتها ، وتملكه مواظبه فتشغله عما بين يديه مما سواه . لا أريد الفهم المسأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذاً جافاً لم يصحبه ذلك الذوق ، وما يتبعه من رقة الشعور ، ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعمق والتأثر ، والفهم والتدبير .

لهذا كله يمكننا أن نقول : إن الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية والضالين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن من أولئك من قال الله تعالى فيهم « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ومعرفة الحق أمر عظيم شريف نعم ربما كان إثم صاحبها مع

(١) التماويذ : جمع تماويذ ، ويقال عوذ جمع عوذة (كغرفة وغرف) وهو الرقية وما يعلق من كتابة وغيرها على الإنسان للوقاية من العين والجن والفرع ، ومثلها التناجيس : جمع تنجيس وتسمى العرب المعوذ الذي يعلق هذه الأشياء المتنجس (بكسر الجيم المشددة) والمعلقة عليه المتنجس (بفتحها)

الجحود أشد، ولكنه يكون دائماً ملوماً من نفسه على الإعراض عن الحق .
وهذا اليوم يترزل ما في نفسه من الإصرار على الباطل .

كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخبر له ساجداً لما عنده من
رقة الإحساس ولطف الشعور ، فهل يقاس هذا بنأى متعلم اليوم ؟ أرايت
أهل جزيرة العرب ، كيف انضوا إلى الإسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم
من دقة الفهم ، التي كانت سبب الانجذاب إلى الحق . وأشبار الأستاذ
الإمام هنا إلى البذات الاعرابية التي فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين
ونهيين وبشارتين . ومجمل الخبر : أن الأصمعي قال : سمعت بنتاً من الأعراب
خماسية أو سداسية تمشد :

أستغفر الله لذنبي كله قتلت إنسانا بغير حله
مثل غزال ناعم في دله وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله ما أفضحك، فقالت: ويحك أيعد هذا فصاحة مع قوله
تعالى (٢٧ : ٧) وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في
اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رآوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فجمع في آية
واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين .

لما رأى علماء المسلمين في الصدر الأول تأثير القرآن في جنب
قلوب الناس إلى الإسلام ، وأن الإسلام لا يحفظ إلا به ، ولما كان العرب
قد اختلطوا بالمعجم ، وفهم من دخل في الإسلام من الأعاجم ما فهمه علماء
العرب أجمع كل على وجوب حفظ اللغة العربية ، ودونوا لها الدرابين
ووضعوا لها الفنون . نعم إن الاشتغال بلغة الأمة وآدابها فضيلة في نفسه
ومادة من مواد حياتها ، ولا حياة لأمة مائت لغتها . ولكن لم يكن هذا وحده هو

الحامل لسلف الأمة على حفظ اللغة بمفرداتها وأصاليها وآدابها ، وإنما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا .

ألف العلامة الاسفرائيني كتاباً في الفرق ختمه بذكر أهل السنة ومزاياهم وعد من فضائلهم التي امتازوا بها على سائر الفرق : التبريز في اللغة وآدابها ، وبين ذلك بأجلى بيان . فأين هذه المزايا اليوم ، وأين آثارها في فهم القرآن ؟ بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ ! وقد بينا وجه الحاجة في التفسير إلى تحصيل ملكة الذوق العربي ، وإلى غير ذلك من الأمور التي يتوقف عليها فهم القرآن اهـ

أقول الآن : إن القرآن هو حجة الله البالغة على دينه الحق ، فلا بقاء للإسلام إلا بفهم القرآن فهما صحيحا ، ولا بقاء لفهمه إلا بحياة اللغة العربية ، فإن كان باقيا في بعض بلاد الأعاجم وإنما بقاؤه بوجود بعض العلماء العارفين من التفسير ما يكفي لرد الشبهات عن القرآن عندهم ، وبقاء ثقة العامة بهم وبما يقولونه تقليداً لهم فيه ، أو بعدم عروض الشبه لهم من دعاة الأديان الأخرى ، مع تأثير الوراثة والتقليد من قبيل ما يسمى في العلم الطبيعي : بحركة الاستمرار ، ولهذا اتفق علماء الإسلام من العرب والعجم على حفظ اللغة العربية ونشرها كما تقدم وكان العلم والدين في أوج القوة ، بحياة اللغة العربية .

كان جميع من دخل في الإسلام يشعر بأنه صار أخاً لجميع المسلمين وأن أمته هي الأمة الإسلامية ، لا العربية ولا الفارسية ولا القبطية ولا التركية . . . كما قال تعالى (٢١ : ٩٢) وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ومن البديهي أن وحدة الأمة لا تتم إلا بوحدة اللغة ، ولا لغة تجمع المسلمين وتربطهم إلا لغة الدين الذي جعلهم بنعمة الله إخواناً ، وهي العربية التي لم تعد خاصة بالجنس العربي إذا نظرنا إلى الأجناس (المعبر عنهم في

إصطلاح المنطق بالأصناف) من جهة أنسابهم وأوطانهم . ولهذا كان يجتهد مسلمو العجم في خدمة هذه اللغة كما يجتهد مسلمو العرب بلا فرق ، ويعدونها لغتهم لأنها لغة القرآن التي تقوم بها حجته ، وهم من أمة القرآن كالعرب بلا فرق . قال تعالى (٤٩ : ١٣) يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفي حديث جابر عند البيهقي وابن مردويه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبة الوداع في وسط أيام التشريق « يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمري ولا لأحمري على أسود إلا بالتقوى » إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ - قالوا : بلى يا رسول الله ، قال - فليبلغ الشاهد الغائب »

ثم حدثت في الإسلام عصبية الجنسية الجاهلية التي حرمها الإسلام وشدد في منعها ، بعد أن ضعف العلم والدين في المسلمين بضعف اللغة العربية فيهم ، حتى قام بعض الأعاجم في هذه السنين الأخيرة يدعون قومهم إلى ترجمة القرآن بلغتهم والاستغناء عن القرآن العربي . زاعماً أن الإسلام دين ليس له لغة . وغلا بعض هؤلاء في بعض العربية فبدعا مساعى قومه إلى الأذان والصلاة والخطبة بلغتهم وقد أجمع المسلمون بالعمل على إقامة هذه الشعائر الإسلامية بلغة الإسلام العربية إلى اليوم ، وكان من عاقبة هذا الضعف في العلم والدين : أن بعض المسلمين في بلاد الأعاجم (كجاوه) التي يقل فيها العلماء المارفون بالدين ولغته ، القادرون على دفع الشبه عن القرآن : صاروا يرتدون عن الإسلام لا يضاع دعاة النصرانية خلالهم ، وسؤالهم الفتنة بالتشكيك في القرآن والطعن فيه . وأين من يفهمه ويدافع عنه هناك ؟ ومنهم من صار

يفخر بسلفه من الوثنيين والجموس حتى يفرعون الذي لعنه الله في جميع كتبه
 أمرنا الله تعالى أن نتدبر القرآن ونعتبر به ونتذكر ونهتدى ، وأن نعلم
 ما نقوله في صلاتنا من آياته وأذكاره ، وأكده هذه المسائل في آيات كثيرة
 والامتثال لها والعمل بها لا يكون إلا بفهم العربية الفصحى . وما لا يتم
 الواجب إلا به واجب . وجعل الله تعالى القرآن معجزاً للبشر ، ولا تقوم
 حجته في هذا عليهم إلا بفهمه ، ولا يمكن فهمه إلا بفهم العربية الفصحى ،
 فعرفة العربية من ضروريات دين الاسلام ، ندعو إليها جميع المسلمين
 بدعائهم إلى القرآن .

وإننا نعتقد أن المسلمين ما ضعفوا وزال ما كان لهم من الملك الواسع
 إلا بإعراضهم عن هداية القرآن ، وأنه لا يعود إليهم شيء مما فقدوا من
 العز والسيادة والكرامة إلا بالرجوع إلى هدايته ، والاعتصام بحبله ،
 كما يرون ذلك مبيناً في تفسير الآيات الكريمة الدالة عليه ، ولا يتم لهم
 ذلك إلا بالاتفاق على إحياء لغته . فالدعاء له دعاء لها (٨ : ٢٤) يأبىها الذين
 آمنوا استجبوا الله وللرسول إذ دعاكم لما يحببكم . واعلموا أن الله يحول
 بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون ٢٥ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين
 ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ٢٦ واذكروا إذ أنتم
 قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فأواكم وأيدكم
 بنصره وورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) وبالشكر تدوم النعم ،
 وكفرها مجلبة النقم ، ولذلك أرشدنا الله في فاتحة كتابه إلى الدعاء بأن
 يهديننا صراط المنعم عليهم من الشاكرين ، وها نحن أولاء نبدأ بالمقصود
 بعون الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

(١)

هذه السورة مكية وآياتها سبع . والفرق بين السور المكية والمدنية : هو أن المكية أكثر إيجازاً لأن المخاطبين بها هم أبلغ العرب وأفصحهم ، وعلى الإيجاز مدار البلاغة عندهم ، ثم إن معظمها تنبيهات وزواجر وبيان لأصول الدين بالإجمال وقد قلت في مقدمة الطبعة الثانية لمجلد المنار الأول في أسلوب السور المكية مانصه : إن أكثر السور المكية لا سيما المنزلة في أوائل البعثة قوارع تصخ الجنان ، وتصعد الوجدان ، وتفزع القلوب إلى استشعار الخوف ، وتدع العقول إلى إطالة الفكر ، في الخطبين الغائب والعتيد ، والخطرين القريب والبعيد ، وهما عذاب الدنيا بالإبادة والاستئصال ، أو الفتح التام بالاستقلال ، وعذاب الآخرة وهو أشد وأقوى ، وأنكى وأخزى ، بكل من هذا وذلك أنذرت السور المكية أولئك المخاطبين إذا أصروا على شركهم ، ولم يرجعوا بدعوة الإسلام عن ضلالهم وإفكهم ، ويأخذوا بتلك الأصول الجملة ، التي هي الحنيفية السمحة السهلة ، وليست بالشىء الذى ينكره العقل ، أو يستثقله الطبع ، وإنما ذلك تقليد الآباء والأجداد ، يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد ،

راجع تلك السور العزيزة ، ولا سيما قصار المفصل منها كالخافق ، والخافق ، والقارعة ، والقارعة ، وإذا وقعت الواقعة ، وإذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت ، وإذا زلزلت الأرض زلزالها ، والذاريات ذروا ، والمرسلات عرفا ، والنازعات غرقا

تلك السور التي كانت بنذرها ، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها ، تفزعهم من سماع القرآن ، حتى يفروا من الداعى (ص) من مكان إلى مكان (٧٤ : ٥٠ كأنهم هم مستنفرة ٥١ فرت من قسورة) - (١١ : ٥ ألا إنهم يشنون صدورهم

ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون وما يعلنون) ثم إلى السور المسكية الطوال ، فلا نجد لها تخرج في الأوامر والنواهي عن حد الاجمال ، كقوله عز وجل (١٧ : ٢٣ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) - إلى ٣٧ منها ، وقوله بعد إباحة الزينة وانكار تحريم الطيبات من الرزق (٧ : ٣٢ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)

وأما السور المدنية ففي أسلوبها شيء من الاسهاب ، ولا سيما في مخاطبة أهل الكتاب ، لأنهم أقل بلاغة وفهما من العرب الأصلاء ، ولا سيما قریش ، وما فيها من الكلام في أصول الدين أكثره محاجة لهم - لأهل الكتاب - ونعى عليهم ، وإثبات لتحريم يفهم ما نزل إليهم ، وابتداعهم فيه وإعراضهم عن هدايته ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به ، ودعوة لهم إلى التوحيد الخالص توحيد الألوهية والربوبية ، وبيان لسكون الإسلام الذي جاء به القرآن ، هودين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وفي هذه السور المدنية أيضا بيان لما لا بد منه من الأحكام العملية في العبادات

والمعاملات ، الشخصية والمدنية والسياسية والحربية ، ولأصول الحكومة الإسلامية والتشريع فيها ، كما تراه في طوال المفصل منها ، كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة .

وقد اختلف العلماء في المسكى والمدنى من السور . فقيل : المسكى ما نزل في شأن أهل مكة ، وإن كان نزوله في أهل المدينة . والمدنى غيره ، وقيل المسكى : ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، كالذى نزل في عام الفتح وفي حجة الوداع ، والصحيح الذى عليه الجمهور : أن المسكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها ، سواء نزل بالمدينة نفسها أو ضواحيها أو في مكة عام الفتح و عام حجة الوداع ، أو في غزوة من الغزوات . فالسور المسكية : هي التى نزلت في أول الاسلام لأجل الدعوة إليه ، ولبيان أساس الدين وكيانته ، من الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین ، ومن ترك الشرور والمعاصي والمنكرات المعروفة للناس بقولهم وفطرتهم ، وفعل الخيرات والمعروف بحسب الرأى والاجتهاد الموكول إلى القلوب والضمائر . والسور المدنية هي التى

نزلت بعد الهجرة وكثرة المسلمين وتكون جماعتهم ببيان الأحكام التفصيلية كما قلنا آنفاً، وسترى ذلك مفصلاً في القسمين تفصيلاً

والسورة : طائفة من القرآن مؤلفة من ثلاث آيات فأكثر، لها اسم معروف بالتوقيف والرواية الثابتة بالأحاديث والآثار ، قيل إن اسمها مشتق من السور

الذي يحيط بالبلد . وقيل : من السور المهموز ، ومعناه البقية ، وبقية كل شيء جزء منه فلما راد بها جزء معين من القرآن . وقيل : من التسور ، وهو العلو والارتفاع

وقد رويت أسماء السور عن الصحابة مرفوعة وموقوفة ، ولكنهم لم يكتبوها في مصاحفهم لأنهم لم يكتبوها فيها إلا ألفاظ التنزيل ، لئلا يتوهم أحد من الناس

إذا هم زادوا شيئاً - كأسماء السور أو لفظ « آمين » بعد الفاتحة - أنه من التنزيل هذا - ولفظ « الفاتحة » صفة مؤنث الفاتح . قال الأستاذ الإمام : سميت الفاتحة

فاتحة لأنها أول القرآن في هذا الترتيب (وتكلم عن لفظ الفاتحة وعن التاء فيه) وتسمى أم الكتاب . وقالوا إن حديث النهي عن تسميتها هذا الاسم موضوع .

ثم قال : يتكلمون عند الكلام عن السور على المسكى والمدنى ، وهو يفيد في معرفة الناسخ والمنسوخ ، وهي مكية خلافاً لمجاهد ، فالإجماع على أن الصلاة كانت

بالفاتحة لأول فرضيتها . ولا ريب أن ذلك كان في مكة . وقالوا هي المراد بالسبع المثاني في قوله تعالى (١٥ : ٨٧) ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم)

وهو مكي بالنص . وقال بعضهم : إنها نزلت مرتين ، مرة بمكة عند فرضية الصلاة ، وأخرى بالمدينة حين حولت القبلة ، وكأن صاحب هذا القول أراد الجمع

بين القولين . وليس بشيء . وقال كثيرون إنها أول سورة أنزلت بتامها . أقول الآن : ذكر الحافظ السيوطي في الاتقان أربعة أقوال في أول ما أنزل

(أحدها) « ٩٦ اقرأ باسم ربك » رواه الشيخان وغيرهما من حديث عائشة (ثانيها) « ٧٤ يا أيها المدثر » رواه الشيخان عن سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن

عبد الله . وجمعوا بين القولين بأن الأول هو أول ما نزل على الإطلاق ، وهو صدر سورة اقرأ . والثاني أول سورة نزلت بتامها أو الثاني أول ما نزل بعد فترة الوحي أمراً

بتبليغ الرسالة . وقيل في الجمع غير ذلك كما في الاتقان (ثلثها) سورة الفاتحة قال

في الكشاف: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت (اقرأ) وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب (قال السيوطي) وقال ابن حجر والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول . وأما الذي نسبته إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول . وحجته ما أخرجه البيهقي في الدلائل والواحدى من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة « أنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء ، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً . فقالت معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث » — وفي الحديث أنه أخبر ورقة بذلك ، وأن ورقة أشار عليه بأن يثبت ويسمع النداء وأنه ^{صلى الله عليه وسلم} لما خلا ناداه — أى الملك — « يا محمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين — حتى تبلغ — ولا الضالين » قال السيوطي في الحديث : هذا مرسل رجاله ثقات ، ونقل عن البيهقي احتمال أن هذا بعد نزول صدر « اقرأ باسم ربك »

هذا — وأما الأستاذ الإمام فقد رجح أنها أول ما نزل على الاطلاق ، ولم يستثن قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » ونزع في الاستدلال على ذلك منزاعاً ريباً في حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله .

ومن آية ذلك : أن السنة الإلهية في هذا الكون — سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع — أن يظهر سبحانه الشئ بمجلائم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً ، وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البندرة والشجرة العظيمة ، فهي في بدايتها مادة حياة تحتوى على جميع أصولها ثم تنمو بالتدرج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوجتها ثم تجود عليك بشمرها . والفاتحة مشتملة على مجمل مافى القرآن ، وكل ما فيه تفصيل للاصول التي وضعت فيها . ولست أعنى بهذا ما يبرون عنه بالاشارة ودلالة الحروف ، كقولهم إن أسرار القرآن في الفاتحة ، وأسرار الفاتحة في البسملة ، وأسرار البسملة في الباء وأسرار الباء في نقطتها . فان هذا لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم

الرضوان ولا هو معقول في نفسه وإتما هو من مختبرات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصته وهي البيان

(قال) و بيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور (أحدها) التوحيد لأن الناس كانوا كلهم وثنيين وإن كان بعضهم يدعى التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة ووعيد من لم يأخذ به وانذاره بشوء العقوبة . والوعد يشمل مالامة وما للأفراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهم والوعيد كذلك يشمل تقههما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف في الأرض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد المخالفين بالخزى والشقاء في الدنيا كما وعد بالجنة والتعيم وأوعد بنار الجحيم في الآخرة (ثالثها) العبادة التي تحبي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة (خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تمدوا حدوده ونبدوا أحكام دينه ظهر بالأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر

هذه هي الأمور التي احتوى عليها القرآن وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما شك ولا ريب فأما التوحيد ففي قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والايجاد والتربية والتنمية ولم يكنف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط بل فيه معنى التربية والانماء وهو صريح بأن كل نعمة يراها الانسان في نفسه وفي الآفاق منه عز وجل فليس في الكون متصرف بالايجاد ولا بالاشقاء والاسعاد سواد

التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين ولذلك لم يكنف في الفاتحة بمجرد الإشارة إليه بل استكمله بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الأمم وهي اتخاذ أولياء من دن الله تعتمد لهم

السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا ويتقرب بهم إلى الله زلفى وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الاجمال

وأما الوعد والوعيد : فالأول منها مطوى في « بسم الله الرحمن الرحيم » فذكر الرحمة في أول الكتاب — وهي التي وسعت كل شيء — وعد بالاحسان وقد كررها مرة ثانية تنبيها لنا على أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معاً لأن معنى الدين الخضوع أى أن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها لاحقيقة ولا ادعاء وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء وذلك وعد ووعد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذي من سلكه فاز ومن تنكبته هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد

وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) أوضح معناها بعض الإيضاح في بيان الأمر الرابع الذي يشملها ويشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى (إهدنا الصراط المستقيم) أى أنه قد وضع لنا صراطاً سيبينه ويحدده وتكون السعادة في الاستقامة عليه ، والشقاوة في الانحراف عنه ، وهذه الاستقامة عليه هي روح العبادة ويشبه هذا قوله تعالى « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها وروح العبادة هي إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكيفية وحركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكفوا هذه الأعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلاً ما وإنما الحركات

والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة ، ومخ العبادة الفكر والعبارة
وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) تصریح
بأن هناك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهذا يتهم . وصاح يصيح الأفاظروا
في الشؤون العامة التي كانوا عليها واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيه يدعو إلى
الافتداء بمن كان قبله من الأنبياء « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »
حيث بين أن القصص إنما هي للعظة والاعتبار . وفي قوله تعالى (غير المغضوب
عليهم ولا الضالين) تصریح بأن غير المنعم عليهم فريقان فريق ضل عن
صراط الله وفريق جاحده وعاند من يدعو إليه فكان محفوظا بال غضب الإلهي
والخزي في هذه الحياة الدنيا . و باقي القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم هذا الاجمال
على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عنادا ،
والذين ضلوا فيه ضلالا ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله .
فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت اجمالا على الأصول التي
يفصلها القرآن تفصيلا فكان إنزالها أولا موافقا لسنة الله تعالى في الابداع . وعلى
هذا تكون الفاتحة جذيرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول إن النواة أم النخلة
فان النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال بعضهم إن المعنى في
ذلك أن الأم تكون أولا ويأتي بعدها الأولاد

وأقول الآن : هذا ما قاله الأستاذ الإمام مبسوطا موضحا ويمكن أن يقال إن
نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحكم التي بينها لأنه تمهيد للوحي
المجمل والمفصل خاص بحال النبي ﷺ وإعلام له بأنه يكون وهو أمي قارئاً بعناية
الله تعالى ومخرجا للأميين من أميهم إلى العلم بانقلم أي الكتابة وفي ذلك استجابة
لدعوة إبراهيم (٢: ١٢٨) ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم
الكتاب والحكمة ويذكهم) فسر الأستاذ الإمام الكتاب بالكتابة ثم كانت الفاتحة
أول سورة نزلت كاملة وأمر النبي بجعلها أول القرآن وانمقد على ذلك الاجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢) اِحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٤) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ
 (٥) اِيْدِيكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٦) اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٧) صِرَاطَ
 الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

لأذكر ما قاله الأستاذ الإمام في البسمة من حيث لفظها وإعرابها وهل هي آية أو جزء آية من الفاتحة أو ليست منها فإن الخلاف في ذلك مشهور وقد اختصر الأستاذ القول فيه اختصاراً وقال : إنها على كل حال من القرآن فنتكلم عليها كسائر الآيات .

وأقول الآن : أجمع المسلمون على أن البسمة من القرآن وأنها جزء آية من سورة النمل . واختلفوا في مكانها من سائر السور فذهب إلى أنها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة فقهاءهم وقراءهم ومنهم ابن كثير ، وأهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائي من القراء ، وبعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة والشافعي في الجديد واتباعه والثوري وأحمد في أحد قوليه والإمامية ومن المروى عنهم ذلك من علماء الصحابة على وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة ومن علماء التابعين سعيد بن جبير وعطاء والزهرى وابن المبارك ، وأقوى حججهم في ذلك إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة سوى سورة براءة (التوبة) مع الأمر بتعريد القرآن عن كل ما ليس منه ، ولذلك لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة ، وأحاديث منها ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنزلت على آنفأ سورة فقراً :

بسم الله الرحمن الرحيم » وروى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة - وفي رواية انقضاء السورة - حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم . وأخرجه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط الشيخين . وروى الدارقطني من حديث أبي هريرة قال « قال رسول الله ﷺ إذا قرأتم الحمد لله (أى سورة الحمد لله) فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم فانها أم القرآن والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها » وذهب مالك وغيره من علماء المدينة والأوزاعي وغيره من علماء الشام وأبو عمرو ويعقوب من قراء البصرة إلى أنها آية مفردة أنزلت لبيان رموس السور والفصل بينها وعليه الحنفية ، وقال حمزة من قراء الكوفة وروى عن أحمد أنها آية من الفاتحة دون غيرها ، وثمة أقوال أخرى شاذة

هذا - وقد قال الأستاذ الإمام : القرآن إيماننا وقدوتنا فانتحاه بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بما فاما معنى هذا ؟ ليس معناه أن نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به بل أن نقول

هذه العبارة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فانها مطلوبة لذاتها

أقول الآن : الاسم هو اللفظ الذي يدل على ذات من الذوات كحجر وخشب وزيد أو معنى من المعاني كالعلم والفرح . وقال ابن سيده هو اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض . وقال الراغب الاسم ما يعرف به ذات الشيء وأصله . وقال كثيرون أنه مشتق من السمو وأن أصله سمو لأن تصغيره سمي وجمعه أسماء . والسمو العلو كأن الاسم يعلو مسماه بكونه عنوانا له ودليلا عليه . وقال آخرون إنه من السمة وهي العلامة وأصله وسم . وقال بعض الباحثين في الكلام والفلسفة إن الاسم يطلق على نفس الذات والحقيقة والوجود والعين وهي عندهم أسماء مترادفة . وهذا القول ليس من اللغة في شيء ولا هو من الفلسفة النافعة بل من الفلسفة الضارة وإن قتل الألوسي بعد نقله عن ابن فورك والسهيلي « وهما ممن يعرض عليه بالتواجد » بل لا ينبغي أن يذكر مثل هذا القول إلا لأجل انهى عن إضاعة الوقت في قراءة ما بنى عليه من السفسطة في إثبات قول القائلين إن

الاسم عين المسمى وقد كتبوا لغواً كثيراً في هذه المسألة ولما ترى أحداً رضى كلام غيره فيها ولكن قد يرضيه كلام نفسه الذى يؤيد به ما لم يفهمه من كلام غيره والحق أن الاسم هو اللفظ الذى ينطق به لسانك ويكتبه قلبك كقولك : الشمس أو زيد أو مكة . والمسمى هو الكوكب المعروف أو الشخص المعين أو البلد المحدد ، وقد يكون بعيداً عنك عند إطلاق الاسم . ولفظ « اسم » اسم لهذا النوع من اللفظ الذى يدل على الجواهر والاعراض دون الاحداث التى تسمى فى النحو أفعالاً . ومدلوله مثل مدلول لفظ إنسان يطلق على أفراد كثيرة كلفظ « الشمس » الذى تنطق به وتكتبه ، ولفظ « زيد » ولفظ مكة ، وغير ذلك من أسماء الموجودات . فالاسم غير المسمى فى اللغة وقد أخطأ من نسب إلى سيويوه غير هذا كما قال ابن القيم بل قال فى كتابه (بدائع الفوائد) ما قال نحوى قط ولا عربى أن الاسم عين المسمى ، وذكر بعض من قال بانحاد الاسم والمسمى بالتسمية وبين الخطأ فى ذلك . وأن معنى « سبح اسم ربك الأعلى » سبح ربك ذا كراً اسمه الأعلى ومعنى « سبح باسم ربك » سبحه ناطقاً باسمه العظيم .

ومنشأ الاشتباه عند بعضهم أن الله تعالى أمرنا بذكره وتسبيحه فى آيات و يذكر اسمه وتسبيح اسمه فى آيات أخرى ؛ فقال تعالى (٧٣ : ٨) واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً * ٧٦ : ٢٣ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً * ٢٢ : ٤٠ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ٦ : ١١٨ فكأوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ١١٩ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه * ٢٢ : ٣٦ فاذكروا اسم الله عليها صواف) أى البدن عند نحرها ؛ وقال تعالى (٣٣ : ٤٠) يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ٤١ وسبحوه بكرة وأصيلاً * ٢ : ١٢٧ فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم — فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكراً * ٣ : ١٩٠ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض * ٤ : ١٠٢ فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) وقال تعالى فى التسبيح (٧ : ٢٠٥) إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته

و يسبحونه وله يسجدون) أى يسبحون ربك فعدى التسبيح بنفسه إلى ضمير الرب كما عدّاه بنفسه إلى اسم الرب في قوله تعالى (٨٧ : ١ سبح اسم ربك الأعلى) وبالياء في قوله (٥٦ : ٩٦ فسبح باسم ربك العظيم) وقال (٥٧ : ١ سبح لله ما في السموات والأرض) ومثله كثير . وقال تعالى (فتبارك الله * ٢٥ : ١ تبارك الذى نزل الفرقان) كما قال (٥٥ : ٧٨ تبارك اسم ربك)

رأى بعضهم أن يجمع بين هذه الآيات بجعل الاسم عين المسمى ، وأن ذكر الله وذكر اسمه وتسبيحه وتسبيح اسمه واحد ، لأن اسمه عين ذاته ، وأن هذا خير من القول بأن لفظ « اسم » مقم زائد . والصواب أن الذكر في اللغة ضد النسيان وهو ذكر القلب ولذلك قرنه بالتفكير في سورة آل عمران (٣ : ١٩٠) وهما عبادتان قلبيتان ، وقال (١٨ : ٢٤) واذا ذكر ربك إذا نسيت) ويطلق الذكر أيضا على النطق باللسان لأنه دليل على ذكر القلب وعنوان وسبب له ، وإنما يذكر اللسان اسم الله تعالى كما يذكر من كل الأشياء أسماءها ، دون ذوات مسميات ، فإذا قال نار لا يقع جسم النار على لسانه فيحرقه ، وإذا قال الظمآن « ماء » لا يحصل مسمى هذا اللفظ في فيه فينقم غلته ، فذكر الله تعالى في القلب هو تذكر عظمته وجلاله وجماله ونعمه ، وورد التصريح بالأمر بذكر نعمة الله وآلاء الله . وذكره باللسان هو ذكر أسمائه الحسنى وإسناد الحمد والشكر والثناء إليها ، وكذلك تسبيحه تعالى ، فالقلب يسبحه باعتقاد كاله وتذكر تنزيهه عما لا يليق به ، واللسان يسبحه بإضافة التسبيح إلى أسمائه من غير ذكر للفظ الاسم . روى أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم في مستدرکه وابن حبان في صحيحه عن عقبه بن عامر قال : لما نزلت « فسبح اسم ربك العظيم » قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجعلوها في ركوعكم » فلما نزلت « سبح اسم ربك الأعلى » قال « اجعلوها في سجودكم » والمراد أن يقولوا « سبحان ربى العظيم » « لا سبحان اسم ربى العظيم » فقد روى أحمد وأصحاب السنن الأربعة وصححه الترمذى عن حذيفة قال صليت مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه « سبحان ربى العظيم » وفي سجوده « سبحان ربى الأعلى » . ولهذا ورد في الكلام عن الذبائح ذكر اسم الله عليها « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » وتقدم أنفا

ذكر عدة آيات في هذا - فعلم من هذا التحقيق أن الاسم غير المسمى وأن ذكر الاسم مشروع ، و ذكر المسمى مشروع ، والفرق بينهما ظاهر كالصبح ، وكذلك التسييح والتبارك ، فكما يعظم الله يعظم اسمه الكريم ، فيذكر مقرونا بالحمد والشكر والثناء والتقديس . وقد صرحوا بأن تعمد إهانة أسماء الله تعالى في اللفظ والكتابة كفر لأنه لا يمكن أن يأتي من مؤمن أه ما زده الآن

وقال الأستاذ الامام مامعناه : عند ما تقول إنني أذكر اسم الله تعالى كالعزيز والحكيم لا تعنى أنك تذكر لفظ « اسم » فلو كان قولهم إن المراد من الابتداء بالكلمة « بسم الله » التبرك باسم الله : هو الصواب لكان ينبغي أن يكون قولك « بالله الرحمن الرحيم » مثل « بسم الله الرحمن الرحيم » وقوله تعالى « باسم الله مجراها ومرساها » وقد قال بعضهم إن الإضافة ههنا للبيان أى أفتتح كلامي باسم الله ولكن يقتضى أن يكون لفظ « الرحمن الرحيم » واردا على اللفظ وهو غير صحيح . وإرادة أن الأسماء الثلاثة هي المبيدة للفظ الاسم تحمل ظاهر فما المقصود إذا من هذا التعبير ؟

مثل هذا التعبير مأخوذ عند جميع الأمم ومنهم العرب وهو أن الواحد منهم إذا أراد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته إليه ومنسلخاً عنه ، يقول أعمله باسم فلان ويذكر اسم ذلك الأمير أو السلطان لأن اسم الشيء دليل وعنوان عليه ، فإذا كنت أعمل عملاً لا يكون له وجود ولا أثر ، لولا السلطان الذى به أمر ، أقول إن عملي هذا باسم السلطان ، أى إنه معنون باسمه ولولاه لما عملته . فعنى ابتدئ عملي (بسم الله الرحمن الرحيم) أننى أعمله بأمره وله لالى ولا أعمله باسمى مستقلاً به على أننى فلان . فكأننى أقول إن هذا العمل لله لالخط نفسى . وفيه وجه آخر وهو أن القدرة التى أنشأت بها العمل هى من الله تعالى فلولا ما منحنى منها لم أعمل شيئاً ، فلم يصدر عنى هذا العمل إلا باسم الله ولم يكن باسمى إذ لولا ما آتانى من القوة عليه لم أستطع أن آتبه . وقد تم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر . وحاصل المعنى أننى أعمل عملي متبرئاً من أن يكون باسمى بل هو باسمه تعالى لأننى أستمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه

عليه ، فلولا لم أقدر عليه ولم أعمله ، بل وما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله فلفظ الإسم معناه مراد ، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضا ، وكذلك كل من لفظ الرحمن الرحيم . وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات . وأقر به اليك اليوم ما ترونه في المحاكم النظامية حيث يتبدون الأحكام قولا وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديو فلان .

ومعنى البسملة في الفتاحة أن جميع ما يقرره في القرآن من الأحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه ليس لأحد غير الله فيه شيء . اهـ

أقول هذا صفة مآقرره في متعلق «باسم الله» ومعناها وههنا نظر آخر فيه وهو أن القرآن كان وحيا يلقيه الروح الأمين في قلب النبي ﷺ وكل سورة منه مبتدأة ببسملة ، فتعلق البسملة من ملك الوحي تعلم من أول آية نزل بها وهي قوله تعالى «اقرأ باسم ربك» فعنى البسملة الذي كان يفهمه النبي ﷺ من روح الوحي : اقرأ يا محمد هذه السورة باسم الله الرحمن الرحيم على عباده أي اقرأها على أنها منه تعالى لا منك فإنه برحمته بهم أنزلها عليك تهديهم بها إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة . وعلى هذا كان يقصد النبي ﷺ من متعلق البسملة إنني اقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي وعلى أنها منه لا مني فإنما أنا مبلغ عنه عز وجل (٢٨ : ٩١) وأمرت أن أكون أول المسلمين ٩٢ وأن أتلو القرآن (الحج

اختصر الأستاذ الإمام في الكلام على لفظ اسم ولفظ الجلالة لأن الكلام فيهما مشهور . وقد تكلمنا على اللفظ الأول وهالك جملة سالحة في اللفظ الآخر العظيم :

لفظ الجلالة (الله) علم على ذات واجب الوجود قال : ابن مالك وضع معرفة وقيل أصله «إله» فحذفت همزته وأدخلت عليه الألف واللام ، وقيل أصله الإله ، والإله في اللغة يطلق على كل معبود ولذلك جمعوه على آلهة وما كل معبود سموه إله يطلقون عليه اسم (الله) فإن هذا الاسم الكريم كان خاصا في لغتهم بخالق السموات والأرض وكل شيء . فالتعريف فيه خصصه بالواحد الفرد الكامل كما جعلوا لفظ «النجم» بالتعريف خاصا بالثريا ، فكان العربي في الجاهلية إذا سئل من خلقك أو من خلق السموات والأرض ؟ يقول «الله» وإذا سئل عن بعض

آلهتهم : هل خلقت اللات أو العزى شيئاً من هذه الموجودات ؟ يقول « لا » وقد احتج القرآن عليهم باعتمادهم هذا كما يأتي في محله . وإنما كانوا يتوسلون بها إلى الله ويعتقدون شفاعتها عنده .

قال بعض العلماء إن لفظ « إله » من أله بمعنى عبد فهو بمعنى معبود ككتاب بمعنى مكتوب ، يقال أله يألوه الإلهة والوهة والوهية كما يقال عبد يعبد عبادة وعبودية وعبودية فهو صفة بمعنى اسم المفعول ، وقيل هو من أله بمعنى تحير وقيل من ولا بمعنى تحير . وهو إذا استشكل من جهة اللفظ لأنه تعالى منزه عن الخيرة يصح أن يقال من جهة المعنى ، والمراد أنه سبب الخيرة . لأن الناظرين إذا ارتقوا في سبب أسباب التكوّن يذهبون عند درجة الخيرة في معرفة الموجد الأول الذي هو موجود بنفسه لا بسبب ولا علة سابقة عليه ، وبه وجد كل ما عده ، لا يستطيعون الوصول إلى حقيقة هذا الموجود العظيم الذي لا يعقل وجود هذه الكائنات الممكنة إلا بوجوده ، حتى إن الملاحدة الماديين لما بحثوا في أصل الموجودات ، وارتقوا إلى معرفة البسائط التي تركبت منها الكائنات ، قالوا إنه لا بد أن يكون لها منشأ وحدة مجهول الذات ، ذو قوة وحيّة

والحاصل أن اسم الجلالة « الله » علم على ذات الباري سبحانه وتعالى تجرى عليه الصفات ولا يوصف به . ولفظ « الإله » صفة . والجمهور على أن معناه الشرعي المعبود بحق ، ولذلك أنكر القرآن عليهم تسمية أصنامهم آلهة ، والتحقيق أنه أنكر عليهم تأليها وعبادتها ، لا مجرد تسميتها ، وقد سماها هو آلهة في قوله (١١ : ١٠٢ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنزيب) ولا يظهر في هذه الآية قصد الحكاية وما يترتب على قولنا أن لفظ الجلالة (الله) علم يوصف ولا يوصف به أن أسماء الله الحسنى صفات تجرى على هذا الاسم العظيم ، ولكونها صفات وصفت بالحسنى . قال تعالى (٧٩ : ٧) والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه) وتسند إليه تعالى أفعال هذه الصفات فيقال : رحم الله فلانا ، ويرحمه الله ، والاهم ارحم فلانا ، وتضاف إليه مصادرها فيقال رحمة الله وربوبيته ومغفرته

(إن رحمة الله قريب من المحسنين) وهذه الأسماء المشتقة كل منها يدل على ذات الله تعالى وعلى الصفة التي اشتق منها بما بالمطابقة ، وعلى الذات وحدها أو الصفة بالنضمن ، ولكل منها لوازم يدل عليها بالالتزام ، كدلالة الرحمن على الاحسان والانعام ، ودلالة الحكيم على الاتقان والنظام ، ودلالة الرب على البعث والجزاء ، لأن الرب الكامل لا يترك مر بوبه سدى ، ومن عرف الأسماء الحسني ، والصفات العليا ، عرف أن اسم الجلالة الأعظم (الله) يدل عليها كلها وعلى لوازمها الكماله وعلى تنزهه عن أضدادها السلبية ، فدل هذا الاسم الأعلى على اتصاف مسماه بجميع صفات الكمال ، وتنزهه عن جميع النقائص ، فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، اه ما أحببت زيادته الآن .

قال الأستاذ الامام مامعناه : والرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وهي معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الاحسان إلى غيره ، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر ، لأنه في البشر ألم في النفس شفاؤه الاحسان والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات ، فلفظي المقصود بالنسبة إليه من الرحمة أثرها وهو الاحسان . وقد مشى الجلال في تفسيره وتبعه الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد ، وأن الثاني تأكيد للأول . ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم وماهى إلا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها .

(قال) : وأنا لا أجزئ لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه ان في القرآن كلمة تغاير أخرى ثم تأتي مجردة تأكيد غيرها بدون أن يكون لها في نفسها معنى تستقل به . نعم قد يكون في معنى الكلمة ما يزيد معنى الأخرى تفريرا أو إيضاحا ولكن الذي لا أجزئده هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة ، ثم يؤتى بها مجردة التأكيد لا غير بحيث تكون من قبيل ما يسمى بالترادف في عرف أهل اللغة . فان ذلك لا يقع إلا في كلام من يرمى في لفظه إلى مجرد التتميق والتزويق . وفي العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها وأماما يسمونه بالحرف الزائد الذي يأتي للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ومعناه هو التأكيد وليس معناه معنى الكلمة التي يؤكد بها . فإلهاء في قوله تعالى « وكنى بالله شهيدا » تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب

الله جل شانه بذاتها ومعناها الذي وضعت له ، ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك في الإعراب وكذلك معنى « من » في قوله « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » ونحو ذلك . أما التكرار للتأكيد أو التقرير أو التهويل فأمر سائغ في أبلغ الكلام عند ما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة فبأى آلاء ربكما تكذبان « ونحوها عقب ذكر كل نعمة . وهي عند التأمل ليست مكررة ، فان معناها عند ذكر كل نعمة : أفبهذه النعمة تكذبان . وهكذا كل ما جاء في القرآن على هذا النحو والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بإحسان النعم ، ومعنى الرحيم المنعم بدقائمه ، وبعضهم يقول إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين . وكل هذا تحكم في اللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقا فصيغة الرحمن تدل على كثرة الإحسان الذي يعطيه سواء كان جليلا أو دقيقا . وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفا أعظم من أفراد الاحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفا ، فهو غير معنى ولا مراد . وقد قارب من قال ان معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنّه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين . ولعل الذي حمل من قال ان الثاني مؤكّد للأول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه .

قال الأستاذ الامام : والذي أقول إن صيغة فعلان تدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة كفعال وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان وأما صيغة فاعيل فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس كعلمهم وحكيم وحليم وحميل . والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تعلق عن مماثلة صفات المخلوقين . فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والاحسان ؛ ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والاحسان وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثاني مؤكداً للأول ، فاذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا لا يعتقد

منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً . لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيراً ، فعندما يسمع لفظ الرحيم بكل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى و يرضيه سبحانه ، و يعلم أن لله صفة ثابتة هي الرحمة التي عنها يكون أثرها ، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه اهـ

أقول قد سبق العلامة ابن القيم إلى مثل هذه التفرقة ولكنه عكس في دلالة الاسمين الكريمين . قال : وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى بديع ، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الأول الوصف ، والثاني الفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفة أي صفة ذات له سبحانه والثاني دال على أنه يرحم خالقه برحمته ، أي صفة فعل له سبحانه ، فاذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيماً * إنه بهم رءوف رحيم) ولم يجيء قط رحمن بهم ، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته ، (قال رحمه الله تعالى) هذه النسكتة لا تكاد تجدها في كتاب ، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها .

وقال في كتاب آخر عند ذكر الاسمين الكريمين : وكرر أذانا (أي إعلاماً) بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته ، فالرحمن الذي الرحمة وصفه ، والرحيم الراحم لعباده ، ولهذا يقول تعالى (وكان بالمؤمنين رحيماً * إنه بهم رءوف رحيم) ولم يجيء رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين ، مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن (فعلان) من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه للموصوف به . ألا ترى أنهم يقولون غضبان الغتلىء غضباً وندمان وحيران وسكران ولطفان لمن ملئء بذلك فبناء فعلان للسعة والشمول اهـ المراد منه .

أقول إن هذه الأمثلة تؤيد ما قاله الاستاذ الامام من أن صيغة (فعلان) تدل على الصفة العارضة ولا تدل على الدائمة فاحتجج إلى صيغة أخرى تدل على الصفة الثابتة الدائمة وهي صيغة (فعيل) فهذا أقوى ما قيل في نسكتة الجمع بين الاسمين الكريمين بالصيغتين . ويليه دلالة أحدها على الرحمة بالقوة والآخر دلالة

عليها بالفعل . وهذا معنى آخر ألمّ به هُذَان الامامان ، ولسكن ابن القيم جعل لفظ الرحيم هو الدال على الرحمة بالفعل بدليل الآيتين اللتين أوردتهما ، ولفظ الرحمن هو الدال عليها بالقوة لعدم تعلق مثل ذلك الظرف به ، وهو قوى . وعكس مجد عبده وجعل ذلك من مدلول الصيغة باللزام .

﴿ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

قالوا : إن معنى الحمد الثناء باللسان ، وقيدوه بالجميل لأن كلمة « ثناء » تستعمل في المدح والذم جميعا ، يقال : أتى عليه شراً ، كما يقال أتى عليه خيراً . ويقولون إن « أل » التي في الحمد هي للجنس في أي فرد من أفراده لاللاستغراق ولا للعهد المخصوص ، لأنه لا يصار إلى كل منهما في فهم الكلام إلا بدليل وهو غير موجود في الآية ، ومعنى كون الحمد لله تعالى بأي نوع من أنواعه هو أن أي شيء يصح الحمد عليه فهو مصدره وإليه مرجعه فالحمد له على كل حال .

وهذه الجملة خبرية ولسكنها استعملت لإنشاء الحمد - فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل في أي أنواعه تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع إليه ، لأنه متصف بكل ما محمد عليه الخامدون . فصفاته أجل الصفات ، وإحسانه عم جميع الكائنات ، ولأن جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه فهو منه جل ثناؤه ، إذ هو مصدر الكون كله ، فيكون له ذلك الحمد أولاً وبالذات . والخلاصة أن أي حمد يتوجه إلى محمود ما فهو لله تعالى سواء لاحظته الخامد أو لم يلاحظه . وأما معنى الانشائية فهو أن الخامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء إلى الله تعالى في الحال هذا ملخص مقاله الأستاذ الامام ، وأقول الآن : التعريف المشهور بين العلماء للحمد أنه الثناء باللسان على الجميل الاختياري ، أي الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره أي سواء أسدى هذا الجميل إلى الخامد أم لا . اهـ وأزيد عليهم أنه قد يحمد غير الفاعل المختار تنزيلاً له منزلة الفاعل في نفعه ، ومنه : إنما يحمد السوق من ربح . وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة . وحذف بعضهم قيد الاختيار ليدخل

في الحمد الثناء على صفات الكمال ولذلك وصف بعضهم الجليل الاختياري بقوله :
سواء كان من الفضائل - أى الصفات الكمالية لصاحبها - أو الفواضل - وهى
ما يتعدى أثره من الفضل إلى غير صاحب الفضل . والظاهر أن الحمد على الفضائل وصفات
الكمال إنما يكون باعتبار ما يترتب عليهما من الأفعال الاختيارية وما عدا هذا من الثناء
تسميه العرب مدحا . يقال : مدح الرياض ومدح المال ومدح الجمال ولا يطلق الحمد
على مثل هذه الأشياء ، وقيل هما مترادفان . والمقام المحمود للنبي صلى الله عليه وسلم
هو ما يحمد فيه لما يناله الناس كلهم من خير دعائه وشفاعته على المشهور . وسيأتى
تفسيره فى موضعه إن شاء الله تعالى . وقد يقال : إن ما ذكر هو الحمد الذى يكون
من بعض الناس لبعض ، وأما الله عز وجل فإنه يحمد لذاته باعتبار أنها مصدر جميع
الوجود الممكن وما فيه من الخيرات والنعم ، أو مطلقا خصوصية له ، إذ ليست ذات
أحد من الخلق كذاته . ويحمد لصفاته باعتبار تملؤها وآثارها كما سترى بيانه فى
تفسير الرب والرحمن والرحيم

﴿ رب العالمين ﴾ يشعر هذا الوصف ببيان وجه الثناء المطلق ومعنى الرب السيد
المربى الذى يسوس مسوده ويرببه ويدبره ولفظ «العالمين» جمع عالم بفتح اللام جمع
جمع المذكر العاقل تغليبا وأر يديه جميع الكائنات الممكنة ، أى إنه رب كل ما يدخل
فى مفهوم لفظ العالم . وما جمعت العرب لفظ العالم هذا الجمع إلا لنكتة تلاحظها فيه
وهى أن هذا اللفظ لا يطلق عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والعراب
وإنما يطلقونه على كل جملة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل الذى جمعت
جمعه ، إن لم تكن منه ، فيقال عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات . ونحن نرى
أن هذه الأشياء هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يعطيه لفظ «رب» لأن فيها
مبدأها وهو الحياة والتغذى والتولد ، وهذا ظاهر فى الحيوان ، ولقد كان السيد (أى
جمال الدين الأفغانى) رحمه الله تعالى يقول : الحيوان شجرة قطعت رجلها من
الأرض فهى تمشى ، والشجرة حيوان ساخت رجلاه فى الأرض فهو قائم فى
مكانه يأكل ويشرب ، وإن كان لا ينام ولا ينفل .
هذا ملخص مقاله الأستاذ الإمام . وأزيد الآن أن بعض العلماء قال إن

المراد بالعالمين هنا أهل العلم والإدراك من الملائكة والإنس والجن ، ويؤثر عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه الرضوان . أن المراد به الناس فقط كما يدل على هذا وذلك استعمال القرآن في مثل « أتأتون الذكران من العالمين » أى الناس ومثل « ليكون للعالمين نذيراً » ويرى بعضهم أنه على هذا مشتق من العلم . ومن قال يعلم جميع أجناس المخلوقات يرى أنه مشتق من العلامة ، ورؤية الله للناس تظهر بتربيته إياهم ، وهذه التربية قسمان : تربية خلقية بما يكون به نموهم وكل أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية - وتربية شرعية تعليمية وهي ما يوجهه الى أفرادهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل إذا اهتموا به . فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه بغير إذن منه تعالى .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ تقدم معناها وبقى الكلام في اعادتهما والنكتة فيها ظاهرة وهي أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه . وثم نكتة أخرى وهي أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لها، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزال أبداً . فكان الله تعالى أراد أن يتحبيب إلى عباده فعرّفهم أن ربو بيته ربو بية رحمة واحسان ليعلموا أن هذه الصفة هي التي ربما يرجع إليها معنى الصفات ، وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته ، مفرحة صدورهم ، مطمئنة قلوبهم ، ولا ينافي عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا ، وما أعده من العذاب في الآخرة ، للذين يتعدون الحدود ، وينتهكون الحرمات ، فإنه وإن سُمي قهراً بالنسبة لصورته ومظهره ، فهو في حقيقته وغايته من الرحمة ، لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية ، وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم ، وفي الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم ، والوالد الرؤوف يربي ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان عليه إذا قام به ، وربما لجأ إلى التهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال ، والله المثل الأعلى لا إله إلا هو وإليه يرجعون .

أقول الآن : إنني لا أرى وجها للبحث في عدد ذكر « الرحمن الرحيم » في سورة الفاتحة تكراراً أو إعادة مطلقاً . أما على القول بأن البسملة ليست آية منها فظاهر ، وأما على القول بأنها آية منها فيحتاج إلى بيان ، وهو أن جملها آية منها ومن كل سورة يراد به ما تقدم شرحه آنفاً من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلقنها ويبلغها للناس على أنها (أى السورة) منزلة من عند الله تعالى أنزلها برحمته لهذا آية خلقه وأنه صلى الله عليه وسلم لا كسب له فيها ولا صنع ، وإتمامه مبلغ لها بأمر الله تعالى . فهي مقدمة للسور كلها إلا سورة براءة المنزلة بالسيف وكشف الستار عن نفاق المنافقين ، فهي بلاء على من أنزل أكثرها في شأنهم لارحمة بهم . وإذا كان المراد ببدء الفاتحة بالبسملة أنها منزلة من الله رحمة بعباده فلا ينافي ذلك أن يكون من موضوع هذه السورة بيان رحمة الله تعالى مع بيان ربوبيته للعالمين ، وكونه الملك الذى يملك وحده جزاء العاملين على أعمالهم ، وأنه يهذه الأسماء والصفات كان مستحقاً للحمد من عباده ، كما أنه مستحق له في ذاته ، ولهذا نسب الحمد إلى اسم الذات ، الموصوف بهذه الصفات .

والحاصل أن معنى الرحمة في بسملة كل سورة هو أن السورة منزلة برحمة الله وفضله فلا يعد ما عساه يكون في أول السورة أو أثنائها من ذكر الرحمة مكرراً مع ماقى البسملة ، وإن كان مقروناً بذكر التنزيل كأول سورة فصلت (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) لأن الرحمة في البسملة للمعنى العام في الوحي والتنزيل ، وفي السور للمعنى الخاص الذى تبينه السورة . وقد لاحظ هذا المعنى من قال إن البسملة آية مستقلة فاصلة بين السور . وأما من قال إنها آية من كل سورة فمراده أنها تقرأ عند الشروع في قراءتها ، وأن من حلف ليقرآن سورة كذا لا يبرأ إلا إذا قرأ البسملة معها ، وأن الصلاة لا تضح إلا بقراءتها أيضاً .

هذا - وأما حظ العبد من وصف الله بالربوبية فهو أن بحمده تعالى عليه وبشكره له باستعمال نعمه التى تترى بها القوى الجسدية والعقلية فيما خلقت لأجله فليحسن تربية نفسه وتربية من يوكل إليه تربيته من أهل وولد ومريد وتلميذ ، وباستعمال نعمته بهداية الدين في تربية نفسه الروحية والاجتماعية وكذا تربية من

يوكل إليه تربيتهم . وأن لا يبغي كما بغي فرعون فيدسى أنه رب الناس ، وكما بغي فراغنة كثيرون ولا يزالون ييغنون بجمل أنفسهم شارعين يتحكّمون في دين الناس بوضع العبادات التي لم ينزلها الله تعالى ، ويقولهم هذا حلال ، وهذا حرام من عند أنفسهم أو من عند أمثالهم ، فيجعلون أنفسهم شركاء لله في ربوبيته . قال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وفسر النبي صلى الله عليه وسلم اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابا بمثل هذا .

وأما حظ العبد من وصف الله بالرحمة فهو أن يطالب نفسه بأن يكون رحيمًا بكل من يراه مستحقًا للرحمة من خلق الله تعالى حتى الحيوان الأعمى ، وأن يتذكر دائمًا أنه يستحق بذلك رحمة الله تعالى . قال صلى الله عليه وسلم « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح . وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم . من حديث ابن عمر . ورويناه مسننًا بالأولية من طريق الشيخ أبي المحاسن عبد القادر عجي الطرابلسي الشامي . وقال صلى الله عليه وسلم « من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة » رواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني عن أبي أمامة وأشار السيوطي في الجامع الصغير إلى صحته ، ومما يدل على الترغيب في رحمة الحيوان والرفق به بغير لفظ الرحمة . حديث « في كل ذات كبد حرى أجر » رواه أحمد وابن ماجه عن سراقه بن مالك ، وأحمد أيضًا عن عبد الله ابن عمرو . وهو حديث صحيح .

ومن مباحث اللغة أن لفظ الرحمن خاص بالله تعالى كلفظ الجلالة . قالوا لم يسمع عن أحد من العرب أنه أطلقه على غير الله تعالى ، وكذلك لفظ «رحمن» غير معروف ، قالوا لم يرد إطلاقه على غير الله تعالى إلا في شعر لبعض الذين فتنوا بمسيلة الكذاب قال فيه * وأنت غيث الورى لازلت رحمانا * وقيل إن هذا تعنت وغلو لا من الاستعمال المعروف عند العرب . وأما العرب فكانت تطلق لفظ رب على الناس يقولون : رب الدار ورب هذه الأنعام مثلاً لا رب الأنعام مطلقاً . قال عبد المطلب في يوم الغيل : أما الإبل فأتنا ربها وأما البيت فإن له ربا يحمينه . وقال

تعالى في حكاية قول يوسف عليه السلام في مولاة عزيز مصر « إنه ربي أحسن مثواي » و يرى بعض العلماء أن هذا الاستعمال ممنوع في الاسلام واستدل بالنهي في الحديث عن قول المملوك لسيدته « ربي » والصواب أن يمنع ماورد النص به كهذا الاستعمال وما من شأنه ألا يقال إلا في الباري تعالى كلفظ الرب بالتعريف مطلقاً ولفظ رب الناس رب الخلوقات رب العالمين وما أشبه ذلك .

﴿ مالك يوم الدين ﴾

قرأ عاصم والكسائي ويعقوب « مالك » والباقون « ملك » وعليها أهل الحجاز والفرق بينهما أن المالك ذو المالك بكسر الميم والمملك ذو الملك بضمها ، والقرآن يشهد للأولى بمثل قوله « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً » والثانية بقوله « لمن الملك اليوم » قال بعضهم إن قراءة ملك أبلغ لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبير . وقال آخرون إن القراءة الأخرى أبلغ لأن الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرف له بشيء من شؤونهم الخاصة والمالك سلطته أعم . قال الأستاذ الإمام : وإنما تظهر هذه التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان ، فلا ريب أن مالكة هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه .

وأقول الآن الظاهر أن قراءة « ملك » أبلغ لأن معناها المتصرف في أمور العقلاء المختارين بالأمر والنهي والجزاء ولهذا يقال « ملك الناس » ولا يقال ملك الأشياء . قاله الراغب . وقال في « ملك يوم الدين » تقديره الملك في يوم الدين لقوله « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » اهـ وإنما كان هذا أبلغ لأن السياق يدلنا على أن المراد بالآية تذكير المسكفين بما ينتظرهم من الجزاء على أعمالهم رجاء أن تستقيم أحوالهم . ومعنى « مالك يوم الدين » قد يستفاد من قوله « رب العالمين » على أن مجموع القراءتين يدل على المعنيين فكلاهما ثابت ولكن القراءة في الصلاة بملك يوم الدين تنير من الخشوع مما لا تنيره القراءة الأخرى التي يفضلها بعضهم لأنها تزيد حرقاً في النطق ، وورد في الحديث أن للقاريء بكل حرف كذا حسنة ولكن فاتهم أن حسنة واحدة تكون أكبر تأثيراً في القلب خير من مائة حسنة يكن دونها في التأثير

و (الدين) يطلق في اللغة على الحساب وعلى المكافأة وورد « كما تدين تدان » وقال الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ن دنّاهم كادانوا
وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة ، وعلى الطاعة ، وعلى الإخضاع
وعلى السياسة يقال : دنته ، ودنّته فلانا (بالتشديد) أى وليتسه سياسته وهو
قريب من معنى الإخضاع ، وعلى الشريعة وما يؤخذ العباد به من التكاليف .
والمناسب هنا من هذه المعاني الجزاء والخضوع . وإنما قال « يوم الدين » ولم يقل
« الدين » لتعريفنا بأن الدين يوماً ممتازاً عن سائر الأيام ، وهو اليوم الذى يلقى
فيه كل عامل عمله ويوفى جزاءه .

ولسائل أن يسأل : أليست كل الأيام أيام جزاء . وكل ما يلاقيه الناس في
هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفریطهم فى أداء الحقوق والقيام بالواجبات
التي عليهم؟ والجواب بلى إن أيامنا التي نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا
ولكن ربما لا يظهر لأربابه إلا على بعضها دون جميعها . والجزاء على التفریط فى
العمل الواجب إنما يظهر فى الدنيا ظهوراً تاماً بالنسبة إلى مجموع الأمة لا إلى كل
فرد من الأفراد ، فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سننه فى
خليقته إلا وأحل بها العدل الإلهى ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة
والسلطة . وأما الأفراد فأننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم
منغمسين فى الشهوات واللذات ، نعم إن ضائرتهم توبخهم أحياناً وإنهم لا يسمعون
من المنغصات ، وقد يصيبهم النقص فى أموالهم ، وعافية أبدانهم ، وقوة عقولهم .
ولكن هذا كله لا يقابل بعض أعمالهم القبيحة ، لاسباب الملوك والأمراء الذين تشقى
بأعمالهم السيئة أم وشعوب . كذلك نرى من الحسنيين فى أنفسهم وللناس من يبتلى
بهمضم حقوقه ، ولا ينال الجزاء الذى يستحقه على عمله ، فان كان قد ينال رضاء
نفسه وسلامة أخلاقه وصحة ملكاته ، فما ذلك كل ما يستحق ، وفى ذلك اليوم
يوفى كل فرد من أفراد العالمين جزاءه كاملاً لا يظلم شيئاً منه ، كما قال تعالى « فمن
يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

علمنا الله أنه رحيم رحيم ليجذب قلوبنا إليه ، ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فيمنجذبوا إليه الانجذاب المطلوب ؟ أليس فينا من يسلك كل سبيل لا يبالي بمستقيم ومعوج ؟ بلى ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين ، فعرفنا أنه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم ، فكان من رحمته بعباده أن رباهم بنوع التربية كليهما : الترغيب والترهيب ، كما تشهد بذلك آيات القرآن الكريمة « نبيء عبادي أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم »

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

ماهى العبادة ؟ يقولون هى الطاعة مع غاية الخضوع ، وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل ، وبحليله للأفهام واضحاً لا يقبل التأويل ، فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتبون أحياناً بالتعريف اللفظى ويبينون الحكمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة ، التى شرحوا بها معنى العبادة ، فان فيها إجمالاً وتساهلاً . وإنما إذا تتبعنا أى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها ويقاربهها فى المعنى - كخضع وخنع وأطاع وذل - نجد أنه لاشئ من هذه الألفاظ يضاهى « عبد » وبحل محلها ويقع موقعها ، ولذلك قالوا : إن لفظ « العباد » مأخوذ من العبادة فتكثر إضافته إلى الله تعالى ، ولفظ « العبيد » تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى . ومن هنا قال بعض العلماء إن العبادة لا تكون فى اللغة إلا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه يغفلوا العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفنى هواه فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء . فترى من خضوعهم لهم وتحريم مرضاتهم مالا تراه من المتحشيشين القانتين ، دع سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة ، فما هى العبادة إذا ؟

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربى الصراح على أن العبادة ضرب

من الخضوع بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطه لا يدرك كنهها وماهيتها . وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطه به ولكنها فوق ادراكه ، فمن ينتهي إلى أقصى الذل للملك من الملوك لا يقال انه عبده ، وإن قبل موطنه أقدامه ، مادام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعبود ، أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملائكة الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهرًا ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد ، إلى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدهم عبادة حقيقية .

للعبادة صور كثيرة في كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى الذي هو روح العبادة وسرها ، ولتكنل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه ، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع ، فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة ، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنساناً

خذ إليك عبادة الصلاة مثلاً وانظر كيف أمر الله بإقامتها ، دون مجرد الإتيان بها . وإقامة الشيء هي الإتيان به مقوماً كاملاً يصدر عن علمته وتصدر عنه آثاره . وآثار الصلاة ونتائجها هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله عز وجل « إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين » وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدى إلى غايتها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم براءون ويمنعون الماعون » فبما هم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب إلى الله تعالى المذكور بحشيتها ، والمشعر للقلوب

بعظم سلطانه ، ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الاستاذ الامام أن الرياء ضربان : رياء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس ، ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ، ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب إليه به ، وهو ما عليه أكثر الناس ، فان صلاة أحدهم في طور الرشد والعقل هي عين ما كان يحاكي به أباه في طور الطفولية عندما يراه يصلى . يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل ، وليس لله شيء في هذه الصلاة . وقد ورد في بعض الأحاديث أن من لم تنبهه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً وأنها تلف كما يلف الثوب البالي ويضرب بها وجهه . وأما الماعون فهو المعونة والخير الذي تقدم في الآية الأخرى أن من شأن الإنسان أن يكون منوعاً له إلا المصلين .

والاستعانة طلب المعونة وهي إزالة العجز والمساعدة على اتمام العمل الذي يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه

ثم تكلم الاستاذ الإمام على حصر العبادة والاستعانة في الله تعالى الذي دل عليه تقديم المفعول (إياك) على الفعل (نعبد) و (نستعين) فقال ما مثاله

أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره ؛ لأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد فيعظم تعظيم العبادة ، وأمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضاً وهذا يحتاج إلى البيان لأنه أمرنا أيضاً في آيات أخرى بالتعاون (٢:٥) وتعاونوا على البر والتقوى) فما معنى حصر الاستعانة به مع ذلك؟ الجواب أن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف بره ونجاحه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية اليه ، وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد يمكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ، ونبتذل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ، ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر على كل شيء ، ونلجأ اليه وحده ، ونطلب المعونة المتممة للعمل

والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه ، إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب المنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب ، ورب الأرباب ، فقوله تعالى « وإياك نستعين » منم لمعنى قوله « إياك نعبد » لأن الاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب إلى الله وتعلق من النفس به ، وذلك منح العبادة ، فاذا توجه العبد بها إلى غير الله تعالى كان ضرباً من ضروب العبادة الوثنية التي كانت دائمة في زمن التنزيل وقبله ، وخصت بالذكر لثلاثيهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذهم أولياء من دون الله ، واستعانوا بهم فيما وراء الأسباب المكتسبة لعامة الناس ؛ هي كالاستعانة بسائر الناس في الأسباب العامة ، فأراد الحق جل شأنه أن يرفع هذا اللبس عن عباده ببيان أن الاستعانة بالناس فيها وفي استطاعة الناس أما هو ضرب من استعمال الأسباب المسنونة ، وما منزلتها الا كمنزلة الآلات فيما هي آلات له ، بخلاف الاستعانة بهم ، في شؤون تفوق القدر والقوى الموهوبة لهم ، والأسباب المشتركة بينهم ، كالاستعانة في شفاء المرض بما وراء الدواء ، وعلى غلبة العدو بما وراء العدة والعدة ، فان ذلك مما لا يجوز الفزع والتوجه فيه إلى غير الله تعالى صاحب السلطان الأعظم ، على ما لا يصل إليه سلطان أحد من العالم .

ضرب الأستياذ الإمام مثلاً لذلك الزارع يبذل جهده في الحرث والعنق وتسميد الأرض وربها ، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية ، ومثل بالتاجر يحنق في اختيار الأصناف ويمهر في صناعة الترويج ، ثم يتكفل على الله فيما بعد ذلك . ثم قال : ومن هنا تمهون أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم ، وتيسير أمورهم ، وشفاء أمراضهم ، ونماء حرثهم وزرعهم ، وهلاك أعدائهم ، وغير ذلك من المصالح ، هم عن صراط التوحيد ناكبون ، وعن ذكر الله معرضون

أرشدتنا هذه الحكمة أنوجهة « وإياك نستعين » إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة . (أحدهما) أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا ، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم

يوفه حقه ، أو يخشى أن لا يتنجح فيه ، فيطلب المعونة على اتمامه وكاله ، فمن وقع من يده القلم على المكتوب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه ، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز على النهوض به وحده ، يطلب المعونة من غيره على رفعه ، ولكن بعد استفراغ القوة في الاستقلال به ، وهذا الأمر هو مرعاة السعادة الدنيوية ، وركن من أركان السعادة الآخروية . (وثانيتها) ما افاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين وكل التوحيد الخالص ، الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ، ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين ، والشيوخ الدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد الميهمين الكاذبين ، من الأحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً وسيداً كريماً ، ومع الله عبداً خاضعاً « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً »

وأقول أيضاً: إن عبادة الله تعالى هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيته، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيته ، أما الأول فظاهر لأنه هو الإله الحق فلا يعبد بحق سواه ، وأما الثاني: فلأنه هو المربي للعباد الذي وهب لهم جميع ما تكمل به تربيتهم الصورية والمعنوية . ومن هنا تعلم أن إيراد ذكر العبادة والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الأعظم ، واسم الرب الأكرم ، إنما هو لترتيبهما عليهما . من قبيل ترتيب النشر على الف . والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحمل محله ، وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة . ولذلك جمع القرآن بينهما في مثل قوله تعالى (والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه) فهذه الاستعانة هي ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة ، فان من معني العبادة: الشعور بأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب العامة ، الموهوبة من الله تعالى لعباده كافة ، هي لله وحده ، كما تنطق به الآية التي استشهدنا بها آنفاً على قرن العبادة بالتوكل ، فمن كان موحداً خالصاً لا يستعين بغير الله تعالى قط ، فما كان من أنواع المعونة داخلها في حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلباً من الله تعالى ، ولكنه يحتاج في تحقق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبي ، وما كان غير

داخل فيها يتوجه في طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب، وبهذا البيان تعلم أنه لا منافاة بين التوحيد والتوكل وبين الأخذ بالأسباب وإقامة سنن الله تعالى فيها، بل الكمال والأدب في الجميع بينهما، فالسيد المالك إذا نصب لعبده وخدمه مائة يأكلون منها غدوا وعشيا، وجعل لهم أخداما يقومون بأمرها، لا يكون طلب الطعام منه إلا بالاختلاف إلى المائدة، وإنما ينبغي أن لا يغفلوا بها وبخدمها عن ذكر صاحب الفضل الذي أنشأها، بالله وسخر أولئك الخدم الأكملين عليها، ولا عن حمده وشكره، فهذا مثال مائة الكون بأسبابه ومسبباته. والعبد إذا احتاج شيئا من الأشياء التي لم يجعلها سيده مبدولة لجميع عبيده في كل وقت، طلبه منه دون سواه، فإن أظهر الحاجة إلى غيره كان ذلك من قلة ثقته بمولاه، وجعل ذلك الغير في مرتبته أو أجدر منه بالفضل. هذا في العبيد مع السادة الذين لهم نظراء وأنداد، فكيف إذا كان العبد الذي يتوجه إلى غير مولاه، لا يجدم يتوجه إليه سواه، إلا أمثاله من العبيد المحتاجين إلى المولى مثله، لأنه هو السيد الصمد، الذي ليس له كفؤ أحد؟.

ثم إن لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى الإعانة على شيء له فيه كسب ليعينه على القيام به، وفي هذا تكريم للإنسان يجعل عمله أصلا في كل ما يحتاج إليه لإتمام تربية نفسه وتزكيتها، وإرشاد له إلى أن ترك العمل والكسب، ليس من سنة الفطرة ولا من هدى الشريعة، فمن تركه كان كسولا مذموما لا متوكلا محمودا. ويتذكيره من جهة أخرى بضعفه لكيلا يفتر فيتهم أنه مستغن بكسبه عن رعاية ربه، فيكون من الهالكين في عاقبة أمره.

إذا تدبرت هذا فهمت منه نكتة من نكت تقديم العبادة على الاستعانة، وهي أن الثانية ثمرة للأولى. ولا ينافي هذا أن العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للآتيان بها على الوجه المرضي له عز وجل. لا منافاة بين الأمرين لأن الثمرة التي تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التي تخرج منها شجرة أخرى. فالعبادة تكون سببا للمعونة من وجه، والمعونة تكون سببا للعبادة من وجه آخر، كذلك الأعمال تكون الأخلاق التي هي مناشيء الأعمال، فكل منهما سبب ومسبب

وعلة ومعلول، والجهة مختلفة فلا دور في المسألة

وأقول: أيضا إن نكتة تقديم «إياك» على الفعلين «تعبد، ونستعين» هي إفادة الاختصاص والحصر على المشهور الذي جرى عليه الأستاذ الإمام كغيره فالمعنى إذاً: تعبدك ولا تعبد غيرك ونستعينك ولا نستعين بسواك. وقد استخرج له بعض الغواصين على المعاني نكتة أخرى (منها) أن «إياك» ضمير راجع إلى الله تعالى وقيل إن «إيّا» اسم ظاهر مضاف إلى الضمير الذي هو الكاف، فتقدمه على الوجهين يؤذن بالاهتمام به الذي هو العلة الأصلية العامة للتقديم في هذه اللغة (ومنها) أنه من الأدب أيضا (ومنها) أن إفادة الحصر بهذا الاسم «أو الضمير» المقدم على الفعل أبلغ من إفادة الحصر بالضمير المتصل الذي يقرب به ما يدل على ذلك من السكلم، كقولك: إنما تعبدك وإنما نستعينك، أو نستعين بك وحدك، وإعادة إياك مع الفعل الثاني يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات. فلا يستلزم كل منهما الآخر. ذلك بأن الاستعانة بالله تعالى يجب أن تكون عامة في كل شيء ومن الناس من لا يستعين بالله على شيء من أعماله الاختيارية، زعما منهم أنهم يستقلون بذلك بدون إغاثة خاصة منه تعالى كالقدرية. وأفضل الاستعانة بما كان على الطاعة والخير. وقد أخذ النبي (ص) بيد معاذ يوما وقال «والله إني لأحبك. أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». وقد روينا هذا المعنى في الأحاديث المسلسلة. قال لي شيخنا أبو المحاسن محمد القاوقجي في طرابلس الشام: «إني أحبك، فقل اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» قال لي شيخنا محمد عابد السندي في الحرم النبوي الشريف «إني أحبك» الخ. وذكر سنده إلى النبي (ص)

﴿ (٥) إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

ذكر الأستاذ الإمام أولا ما قالوه في معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب، ثم بين أنواعها ومراتبها فقال ما مثاله: منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته (أولها) هداية الوجدان الطبيعي والالهام الفطري، وتكون للاطفال منذ ولادتهم، فإن الطفل بعد ما يولد

يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالباً له بفطرتة، وعندما يصل الشدى إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه (الثانية) هداية الحواس والمشاعر وهي متممة للهداية الأولى في الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم ، بل هو فيهما أكل من الانسان ، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل ، بخلاف الانسان فان ذلك يكمل فيه بالندرج في زمن غير قصير ، ألا تراه عقب الولادة لا تظهر عليه علامات ادراك الأصوات والمرئيات ، ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات ، فيحسب البعيد قر يما فيمد يديه إليه ليتناوله وإن كان قر السماء ، ولا يزال يغلط حسه حتى في طور السكال

(الهداية الثالثة: العقل) خلق الله الانسان ليعيش مجتمعاً ولم يعط من الالهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل فان الله قدم منحهم من الالهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجمعها، ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد أما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام ، فبإيه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والالهام، وهي العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه ، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً ، ويرى العود المستقيم في الماء معوجاً ، والصفراوى ينوق الحلومرا . والعقل هو الذي يحكم بفساد مثل هذا الإدراك .

(الهداية الرابعة : الدين) يغلط العقل في إدراكه كما تغلط الحواس ، وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال ، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى تورده موارد الهلكة . فاذا وقعت المشاعر في مزالق الزلل ، واسترقت الحظوظ والأهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الخيل ، فكيف يتسنى للانسان مع ذلك أن يعيش سعيداً ؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده ، وما هو بعائش وحده ، وكثيراً ما تتناول به إلى مافى يدغيره ، فهي لهذا تقتضى أن يعدو بعض أفرادها على بعض ، فيتنازعون ويتدافعون ، ويتجادلون ويتجادلون ، ويتواثبون ويتناهبون

حتى يقنى بعضهم بعضا ، ولا تقنى عنهم تلك الهدايات شيئا ؟ فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم في ظلمات أهوائهم ، إذا هي غلبت على عقولهم ، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ، ويكفوا أيديهم عما وراءها . ثم إن مما أودع في غرائز الانسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل ما لا يعرف له سببا . لأنها هي الواهبة كل موجود مابه قوام وجوده ، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذى خلقه وسواه ، ووجهه هذه الهدايات وغيرها ، وما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية ؟ كلا إنه في أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة - الدين - وقد منحه الله تعالى إياها أشار القرآن إلى أنواع الهداية التى وهبها الله تعالى للانسان فى آيات كثيرة منها قوله تعالى « وهديناهم للنجدين » أى طريق السعادة والشقاوة والخير والشر . قال الاستاذ الإمام : وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين . ومنها قوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » أى دللتهم على طريق الخير والشر ، فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما فى معناهما ، ثم قال :

بقى معنا هداية أخرى وهى المعبر عنها بقوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره ، فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى الدلالة ، وهى بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين الممهلك والمنجى ، مع بيان ما يؤدى إليه كل منهما ، وهى مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر . وأما هذه الهداية فهى أخص من تلك والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير فى طريق الخير والنجاة مع الدلالة ، وهى لم تكن ممتوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين ^(١)

(١) هذا الفرق بين معنى الهداية معروف فى اللغة وبه حجاب عن التناقض الظاهرى فى قوله تعالى (٥٦:٢٨) وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وقوله تعالى (٤٢:٥٣) انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وقوله تعالى (٢٧٢:٢) ليس عليك هداية ولكن الله يهدى من يشاء) فالهداية التى أنبتها للنبي ﷺ وهى الدلالة على الخير والحق ، واتى نفاها عنه هى الثانية التى بمعنى الإعانة والتوفيق

ولما كان الانسان عرضة للخطأ والضللا في فهم الدين وفي استعمال الحواس والعقل على ما تدننا كان محتاجا إلى المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه في قوله « إهدنا الصراط المستقيم » فمضى « إهدنا الصراط المستقيم » دلالة تصحبها معونة غيبية من لديك تحفظنا بها من الضلال والخطأ . وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه ، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه ، ثم بين معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقراءة الصراط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو ما في كتب اللغة والتفسير ، ومعنى المستقيم وهو ضد المعوج وقال : ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التمعج والتعارج بل المراد كل ما فيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي سالكها إليها . والمستقيم في عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين ، وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداية . وإنما قلنا إن المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خطى تعارج ، لأن هذا الأخير قد يصل إلى الغاية بعد زمن طويل . ولكن الأول لا يصل إليها أبدا . بل يزداد عنها بعدا كلما أوغل في السير وانهمك فيه .

وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل أو الحدود ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . لم سمي الموصل إلى السعادة من ذلك صراطا وطريقا ؟ خذ الحق مثلا وهو العلم الصحيح بالله و بالنبوة و بأحوال الكون والناس ثم معنى الصراط فيه واضحا ، لأن السبيل أو الصراط ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها كذلك الحق الذي يبين إلى الواقع الثابت في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المنفرقة المفضلة فالطريق الواضح للحس ، يشبه الحق للعقل والنفس ، سير حسى ، وسير معنوى ، كذلك إذا اعتبرت هذا المعنى في الحدود والأحكام تجده واضحا . قسمت أحكام الأعمال إلى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا مرجحا لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا ، فبيان الأحكام بالهداية الكبرى

وهي الدين كالطريق الواضح يسلك بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجمها إلى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يريدون . وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه . وضرب الاستاذ الإمام لذلك مثلاً أحد الشيوخ المتفقهين سرق كتاباً من وقف أخذ الأروقة في الأزهر مستحلاً له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو يحصل بوجود الكتاب عنده وأنه قد يفوت النفع ببقائه في الرواق حيث وضعه الواقف إذ لا يوجد فيه من يفهمه مثله بزعمه !! واستحلال المحرمات يمثل هذا التأويل ليس بقليل ولذلك كان الإنسان محتاجاً أشد الاحتياج إلى العناية الالهية الخاصة لاجل الاستقامة والسير في تلك الهدايات الأربع سيرا مستقيماً يوصل إلى السعادة . لهذا نهبنا الله جل شأنه أن نلجأ إليه ونسأله الهداية ليكون عوناً لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا ، وأن تكون استعانتنا في ذلك به لا بسواه ، بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد في معرفة ما نزل إلينا من الشريعة والأحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك . وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على خبري الدنيا والآخرة . فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة في قوله « وإياك نستعين »

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(قال الاستاذ) الصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الحق ولكنه تعالى ما بينه بذلك كما بينه في نحو سورة العصر^(١) وإنما بينه بإضافته إلى من سلك هذا الصراط كما قال في سورة الانعام « فبهدهم اقتده » وقد قلنا إن الفاتحة مشتملة على اجمال ما فصل في القرآن حتى من الاخبار ، التي هي مثل الذكرى والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها تنطوي في اجمال هذه الآية

(قال) فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود والضالين بانصاري . ونحن نقول ان الفاتحة أول سورة نزلت كما قال الامام على رضى الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره ، لأنه تربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم وأول من

(١) قد فسر الاستاذ الامام سورة العصر تفسيراً يظهر به صدق قول الامام الشافعي لوم نزل غير هذه السورة لكفت الناس - تفسير التاج مثله في كتاب . وقد طبعناه على حديثه

آمن به ، وإن لم تكن أول سورة على الإطلاق فلا خلاف في أنها من أوائل السور (كما مر في المقدمة) ولم يكن المسلمون في أول نزول الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وما هدهم إلا من الوحي ، ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذه السبيل سبيل من أنعم الله عليهم من قبلهم ، فأولئك غيرهم ، وإنما المراد بهذا ما جاء في قوله تعالى « فبهدهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة . فقد أحال على معلوم أجمله في الفاتحة وفصله في سائر القرآن بقدر الحاجة . فثلاثة أرباع القرآن تقرّيباً قصص ، وتوجيه للأخبار إلى الاعتبار بأحوال الأمم ، في كفرهم وإيمانهم ، وشقاوتهم وسعادتهم ، ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع . فاذا امتثلنا الأمر والإرشاد ، ونظرنا في أحوال الأمم السالفة ، وأسباب عافهم وجهلهم ، وقوتهم وضعفهم ، وعزهم وذلمهم ، وغير ذلك مما يعرض للأمم - كان لهذا النظر أثر في نفوسنا يحملنا على حسن الأسوة والافتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكين في الأرض ، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار . ومن هنا ينجلي للعاقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات ، وتأخذ الدهشة والحيرة إذا سمع أن كثيراً من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ، ويرغبون عنه ، ويقولون إنه لا حاجة إليه ولا فائدة له . وكيف لا يدهش ويحار والقرآن ينادى بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو إليه هذا الدين ؟ « ويستعجلونك بالسيرة قبل الحسنه وقد خلت من قبلهم المثلات »

وههنا سؤال وهو : كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم ، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم ، وأصلح لزماننا وما بعده ؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الأمم واحد ، وإنما تختلف الأحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان ، وأما الأصول فلا خلاف فيها . قال تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم » الآية وقال تعالى « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » الآية . فالإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر ، وترك الشر وعمل البر :

والتخلق بالأخلاق الفاضلة، مستوفى الجميع . وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا اليه ، لنقتدى بهم في القيام على أصول الخير . وهو أمر يتضمن الدليل على أن في ذلك الخير والسعادة . على حسب طريقة القرآن في قرن الدليل بالمدلول والعللة بالمعلول ، والجمع بين السبب والمسبب . وتفصيل الأحكام التي هذه كلياتها بالاجمال نعرفه من شرعنا وهدى نديننا عليه الصلاة والسلام اه بتفصيل وإيضاح وأزيد هنا أن في الإسلام من ضروب الهداية ما قد يعد من الأصول الخاصة بالإسلام ، ويرى أنه مما يستدرك على ماقرره الأستاذ الامام ، كبناء العقائد في القرآن على البراهين العقلية والكونية ، وبناء الأحكام الأدبية والعلمية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار والمفاسد ، وكيان أن للكون سناً مطردة تجري عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة ، وكلث على النظر في الأكوان ، للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والأسرار ، التي يرتقى بها العقل وتتسع بها أبواب المنافع للإنسان ، وكل ذلك مما امتاز به القرآن . والجواب عن هذا أنه تكميل لأصول الدين الثلاث التي بعث بها كل نبي مرسل لجعل بسائه رضىنا مناسباً لارتقاء الإنسان . وأما تلك الأصول وهي الايمان الصحيح وعبادة الله تعالى وحده وحسن المعاملة مع الناس فهي التي لا خلاف فيها

وأما وصفه تعالى الذين أنعم عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فالختار فيه أن المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه ، انصرفوا عن الدليل ، ورضاء بما ورثوه من القيل ، ووقوفاً عند التقليد ، وعكوفاً على هوى غير رشيد ، وغضب الله يفئسرونه بلازمه وهو العقاب ، ووافقهم الأستاذ الامام ، والذي ينطبق على مذهب السلف أن يقال أنه شأن من شؤونه تعالى يترتب عليه عقوبته وانتقامه . وأن الضالين هم الذين لم يعرفوا الحق البتة ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح الذي يقرن به العمل كما سيأتي تفصيله . وقرن المعطوف في قوله «ولا الضالين» بلا ما في «غير» من معنى النفي أي وغير الضالين ففيه تأكيد للنفي . وهو يدل على أن الطوائف ثلاث : المنعم عليهم ، والمغضوب عليهم والضالون . ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضاً لأنهم

بفبذهم الحق وراء ظهورهم قد استبدروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها فلا يصلون منها إلى مطلوب ، ولا يهتدون فيها إلى مرغوب ، ولكن فرقا بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم ، وبين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدى إلى الجادة الموصلة منها ، وهم من لم تبلفهم الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق ، فبؤلاء هم أحق باسم الضالين ، فان الضال حقيقة هو التائه الواقع في عماية لا يهتدى معها إلى المطلوب ، والعماية في الدين هي الشبهات التي تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ

الأستاذ الامام : انضالون على أقسام (الأول) من لم تبلفهم الدعوة إلى الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر . فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل ، وحرموا رشد الدين ، فان لم يضلوا في شؤونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما تطلب به نجاة الأرواح وسعادتها في الحياة الأخرى . على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة مابه يسمعون في الدنيا والآخرة معاً ، فن حرم الدين حرم السعادتين ، وظهر أثر التخبط والاضطراب في أعماله المعاشية ، وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخطب عادة ، سنة الله في هذا العالم ولن تجد لسنة تبديلاً . أما أمرهم في الآخرة فعلى أنهم ان يساؤوا المهتدين في منازلهم ، وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد

وأزيد في إيضاح كلام الأستاذ أن الذين حرموا هداية الدين لا يعقل أن يؤاخذوا في الآخرة على ترك شيء مما لا يعرف إلا بهته الهداية . وهذا هو معنى كونهم غير مكلفين ، وعليه جمهور المتكلمين ، لقوله تعالى في سورة الاسراء « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ومن قال إنهم مكلفون بالعقل لا يظهر وجه لقوله إلا إذا أراد أن حالهم في الآخرة تكون على حسب ارتقاء أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة إذ لا شك أن من لم يبعث فيهم رسول يتفاوتون في إدراكهم وأعمالهم بتفاوت استعدادهم الفطري وما يصادفون من حسن التربية وقبحها . وبهذا يجمع بين القولين في تكليفهم وعدمه أو يفصل بينها . وما يعطيهم الله تعالى إياه في الآخرة على حسب حالهم في الخير والشر والفضيلة والرذيلة - يكون جزاء عادلا

على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله إن شاء . وسأفصل هذا المعنى في تفسير الآيات المنزلة فيه إن شاء الله تعالى . وأعود الآن إلى اتمام سياق الأستاذ ، قال :

(القسم الثاني) من بلغت الدعوة على وجه يبعث على النظر ، فساق همته إليه ، واستفرغ جهده فيه ، ولكن لم يوفق إلى الإيمان بما دعى إليه ، وانقضى عمره وهو في الطلب ، وهذا القسم لا يكون إلا أفراد متفرقة في الأمم ولا يعم حاله شعباً من الشعوب ، فلا يظهر له أثر في أحوالها العامة ، وما يكون لها من سعادة وشقاء في حياتها الدنيا . أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الأشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى ، وينقل صاحب هذا الرأي مثله عن أبي الحسن الأشعري . وأما على رأى الجمهور فلا ريب في أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذي أنكر التنزيل ، واستعصى على الدليل ، وكفر بنعمة العقل ، ورضى بحظه من الجول ،

(القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها ، بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها ، فاتبعوا أهواءهم في فهم ما جاءت به من أصول العقائد ، وهؤلاء هم المبتدعة في كل دين ، ومنهم المبتدعون في دين الاسلام ، وهم المنحرفون في اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول ، ففرقوا الأمة إلى مشارب ، يغض بمائها الوارد ، ولا يرتوى منها الشارب ، (قال) واني أشير إلى طرف من آثارهم في الناس : يأتي الرجل إلى دوائر القضاء فيستحلف بالله العلي العظيم ، أو بالمصحف الكريم ، وهو كلام الله القديم ، أنه ما فعل كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه ، فيأتيه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد لهم الولاية ، فيتغير لونه ، وتضطرب أركانه ، ثم يرجع في آيته ، ويقول الحق ، ويقر بأنه فعل ما حلف أولاً أنه لم يفعله ، تكرماً لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة ، إذا حلف باسمه كاذباً . فهذا ضلال في أصول العقيدة يرجع إلى الضلال في الإيمان بالله تعالى وما يجب له من الواجبات في الافعال ، ولو أردنا أن نسردها ما وقع فيه الماسمون من الضلال في العقائد الاصلية بسبب البدع التي عرضت على دين الاسلام لطلال المقال ، واحتيج إلى وضع مجلدات في وجوه الضلال ، ومن أشنعها أثراً ، وأشدّها ضرراً ،

خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر، والاختيار والجبر، وتحقيق الوعد والوعيد، وتموين مخالفة الله على نفوس العبيد.

إذا وزنا ما في أدمعتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها أولاً فيه يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين . وأما إذا أدخلنا ما في أدمعتنا في القرن وحشرناها فيه أولاً فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان. فلا يدري ما هو الموزون من الموزون به - أريد أن يكون القرآن أصلاً يحمل عليه المذاهب والآراء في الدين، لأن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذي يحمل عليها، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جرى عليه المخدولون، وتاه فيه الضالون .

(القسم الرابع) ضلال في الأعمال، وتحريف للأحكام عما وضعت له، كالخطأ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات، والخطأ في فهم الأحكام التي جاءت في المعاملات، ولنضرب لذلك مثلاً: الاحتيال في الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضي قليل من الحول الثاني، حتى لا تجب الزكاة فيه، ويظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة، ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية، ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركناً من أهم أركان دينه، وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به ويمحو أثره، وهو محال عليه جل شأنه -

ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الأمم فنختل قوى الإدراك فيها، وتفسد الأخلاق، وتضطرب الأعمال، ويحل بها الشقاء، عقوبة من الله لا بد من نزولها بهم، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة تحويلاً. وبعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته في عقائدها وأعمالها مما يخالف سنته، ولا يتبع فيه سنته . لهذا غلبنا الله تعالى كيف ندعوه بأن يهدينا طريق الدين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده، وتقويم العقول والأعمال بفهم ما هدانا إليه، وأن يجنبنا طرق أولئك

الذين ظهرت فيهم آثار نعمة بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمداً وعناداً ،
أو غواية وجهلاً

إذا ضلّت الأمة سبيل الحق ولعب الباطل بأهوائها، ففسدت أخلاقها واعتلت
أعمالها، وقعت في الشقاء والمحالة، وسلط الله عليها من يستذلها ويستأثر بشؤونها،
ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب ، وإن كانت ستلقى نصيبها منه أيضاً ،
فإذا تنادى بها الفنى وصل بها إلى الهلاك ، ومحى أثرها من الوجود، لهذا علمنا الله
تعالى كيف تنظر في أحوال من سبقنا ، ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم
لنعتبر وتميز بين مابه تسعد الأرواح ومابه تشقى . أما في الأفراد فلم يجر سنة الله
بإزوم العقوبة لكل ضال في هذه الحياة الدنيا ، فقد يستدرج الضال من حيث
لا يعلم ، ويدرك الموت قبل أن نزول النعمة عنه ، وإنما يلحق جزاءه «يوم لا تأمك
نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » اه

فوائد في تفسير الفاتحة

كان غرضنا الأول من كتابة تفسير الفاتحة ونشره في المنار هو بيان ما نستفيد من
دروس شيخنا الأستاذ الإمام، مع شئ مما يفتح الله به علينا بالاختصار فذلك اختصرنا
فيما كتبناه أولاً ، ثم لما طبعنا تفسير الفاتحة على حدته مرة ثانية زدنا فيه بعض
زيادات . وكان بدا لنا أن نجعل هذا التفسير مطولاً مستوفياً . ولهذا زدنا في
تفسير الفاتحة هنا زيادات كثيرة كما نبهنا على ذلك في المقدمة . وبعد الفراغ من
طبعه رأينا أن نمرزه بالفوائد الآتية :

(حكمة ايتار ذكر الربوبية والرحمة في أول الفاتحة على سائر الصفات)

قد علمت أن اسم الجلالة (الله) هو اسم الذات الجامع لمعاني الصفات العليا
وسائر الأسماء الحسنى ، والأصول من هذه الأسماء والصفات التي يرجع إليها
غيرها تعود إليهما ما نبهوا ولو بطريق اللزوم أربعة. اثنان منها ذاتيان وهما (الحق القيوم)

والاثنتان الآخران فعليان وهما الرب والرحمن والرحيم ، وبتعبير أظهر أو أصح اثنتان منهما لا يتعلقتان بتدبير الخلق واثنتان يتعلقتان به ، فالحى ذو الحياة وهى بأعم معانيها الصفة الوجودية التى هى الأصل فى معقولتنا لجميع صفات الكمال فى الوجود من صفات ذات وصفات أفعال كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وهى الصفات التى يسميها علماء الكلام صفات المعانى ويجمعون عليها مدار معرفة الله تعالى مع الصفات السلبية التى يراد بها تنزيهه سبحانه وتعالى عما لا يليق من النقص ومثابته الخلق وكالرحمة والحلم والغضب والعدل والعزة والخالقية والرازقية الحى وكال الحياة يستلزم الاتصاف بهذه الصفات وبغيرها من صفات الكمال .

والحياة فى الخلق قسمان : حسية ومعنوية ، فالأولى الحياة النباتية ، والحياة الحيوانية ، ولكل منهما صفات لازمة لها أعلاها فى الحياة الثانية حياة الإنسان التى من خواصها العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك مما يفقده بالموت . والثانية الحياة العقلية والعلمية والروحية الدقيقة . ومن الشواهد القرآنية على هذه الحياة قوله تعالى (لينذر من كان حياً) وقوله (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحيبكم) وكال هذه الحياة للبشر لا يكون إلا فى الآخرة وإنما يكون الاستعداد له فى الدنيا بتزكية النفس بالعلم والعمل .

وحياة الخالق تعالى أعلى وأكمل من حياة جميع خلقه من الجن والإنس والملائكة وهى لاتشبهها (ليس كمثل شئ) وإنما نفهم من إطلاقها اللغوى مع التنزيه أنها الصفة الذاتية الواجبة الأزلية الأبدية التى يلزمها اتصافه بما وصف به نفسه من صفات الكمال بدونها فهى لا يتوقف تعقلها على غيرها من الصفات ويتوقف تعقل جميع الصفات عليها وغير عنها بعضهم بأنها تصحح له الاتصاف بصفات المعانى .

وأما القيوم فأحسن ما قيل فى تفسيره ما فى معجم (لسان العرب) وهو القائم

(أى الثابت المتحقق) بنفسه مطلقاً لا بغيره وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور وجود شئ ولا دوام وجوده إلا به اه . وسبقه إلى مثله غيره . وقولهم « القائم بنفسه » بمعنى قول المتكلمين « واجب الوجود » أى الذى وجوده ثابت بذاته غير مستمد من وجود آخر فهو يستلزم القدم الذى لا أول له والبقاء

الذى لا آخر له (هو الأول والآخر) وقولهم الذى يقوم به كل موجود معناه أنه لا وجود لشيء غيره ابتداء ولا بقاء إلا به ، فكل وجود سواه مستمد منه وابق بإبقائه إياه (٣٥ : ٤١ إن الله يمكس السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) ومن كان هذا وصفه كان بالضرورة قادراً مريداً عليهما حكماً ، فإذا كانت الحياة تصحح اصحابها الاتصاف بهذه الصفات وغيرها وتدل عليها بقيد الكمال دلالة التزام ، فالقيومية تدل عليها دلالة تضمن بغير قيد .

ولجمع هذين الاسمين الكريهين هذه المعاني وغيرها من معانى الكمال الأعلى كان القول بأتهما مع اسم الجلالة - ما يبر عنه بالاسم الأعظم هو القول الراجح المختار عندنا . وإنما فسرنا الاسمين الكريهين هنا وذكروهما استطرادى لا يدخل فى تفسير الفاتحة لأن أكثر القراء لا يفهم معانيهما التى يدل عليها لفظهما بطرق الدلالة الثلاث . المطابقة والتضمن والالتزام .

وأما صفتا الربوبية والرحمة فهما الصفتان الدالتان على أن الله تعالى هو المالك المدبر لأمور العالم كلها ، وعلى أن رحمته تعالى تغلب غضبه وإحسانه الذى هو أثر رحمته يغلب انتقامه ، ومعنى الانتقام لغة الجزاء على السيئات ، فإن كان جزاء على السيئة يمثلها كان انتقام حق وعدل ، وإن كان بأكثر من ذلك كان انتقام باطل وجور ، والله تعالى منزّه عن الباطل والجور (ولا يظلم ربك أحداً) بل يتجاوز عن بعض السيئات ، ويضاعف جزاء الحسنات (٤٢ : ٢٥ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبتم أيديكم ويعفو عن كثير * ٤ : ٤٠ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدهن أجرأ عظيماً) والآيات فى الجزاء على السيئة يمثلها وعلى الحسنات يضاعفها أمثالها معروفة ، وكذا آية المضاعفة سبعمائة ضعف وما شاء الله تعالى . فمن شأن الرب المالك للعباد المدبر لأمورهم المربى لهم أن يجازى كل عامل بعمله ، وينتقم للمظلوم من ظالمه . والجزاء بالعدل خفيف لأكثر الناس بل لجميع الناس ، فإنه مامن أحد إلا ويقصر فيما يجب عليه لربه ولنفسه ولأهله وولده آية من دونهم حقاً عليه ومكانة عنده ، ومن حقههم أن يغلب الخوف على الرجاء فى

قلوبهم ، ولذلك قرن سبحانه صفة الربوبية بصفة الرحمة وعبر عنها باسمين لا باسم واحد : اسم الرحمن الدال على منتهى الكمال في اتصافه بها ، واسم الرحيم الدال على أنها من الصفات النفسية المعنوية مع تعلقها بالخلق تعلقاً تنجيزياً بكقوله تعالى (٤ : ٢٨ ان الله كان بكم رحيماً * ٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنين رحيماً) وبهذا التفسير ضمنناى التفرقة بين الاسمين ما قاله المحقق ابن القيم إلى ما قاله شيخنا رحمهما الله .

وأما دلالة صفتى الربوبية والرحمة على جميع معانى صفات الافعال الالهية فظاهر فان رب العباد هو الذى يسدى إليهم كل ما يتعلق بخلقهم ورزقهم وتدبير شؤونهم من فعل دلت عليه أسماءه الحسنى كالخالق البارى المنصور القهار الوهاب الرزاق الفتاح القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم الرقيب المتقن الباعث الشهيد المحصى المبدى المعيد المحي المميت المقدم المؤخر المعنى مانع الضار النافع وأمثالها . والرحمن فى ذاته الرحيم بعباده لا بد أن يكون تواباً غفوراً عفواً رؤوفاً شكوراً حلماً وهاياً

إذا علمنا هذا تجلت لنا حكمة وصف الله تعالى فى أول فاتحة الكتاب العزيز بالربوبية والرحمة الدالتين على جميع صفات الافعال دون الحياة والقيومية الدالتين على صفات الذات وغيرها - وهى والله أعلم بمراده أن الفاتحة ينظر فيها من وجهين (أحدهما) ما دل عليه اسمها هذا أعنى كونها فاتحة ومبدأ للقرآن (وثانيهما) أنها قد شرعت للقراءة فى الصلوات كل يوم ، وكل منهما يناسبه البدء بذكر ربوبية الله ورحمته ذلك بأن القرآن كما قال الله فى أول سورة البقرة (هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) الخ الآيات . فهم الذين يتلونه حق تلاوته ، وهم الذين يتدبرونه ويتعظون به ، وهم (الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) فللمناسب فى حقهم أن تكون السورة الأولى وهى المثانى التى يتدونها دائماً فى صلاتهم وفى بدء أورادهم القرآنية المسبابة بالخطات مبدوءة بذكر الصفتين الجامعتين لمعانى الصفات التى تتعلق بتدبير الله سبحانه لشؤونهم ، وبعده فى الحكم بينهم فيما يختصمون فيه ، وبإجازاتهم على أعمالهم ، ورحمتهم وإحسانه إليهم ،

الدالتين على ما يجب عليهم من شكره وتخصيصه بالعبادة والاستعانة ، والتوجه إليه في طلب كمال الهداية ، وهاتان الصفتان هما الربوبية والرحمة . فبدء فاتحة القرآن بذكرهما في البسملة ثم في أثناء السورة مرشد لما ذكر ، مذكر للمصلي وللتألي به . وكذا بدء كل سورة منه بالبسملة التي لم يوصف اسم الذات (الله) فيها بغير الرحمة الكاملة الشاملة . هو إعلام منه سبحانه بأنه أنزله رحمة للعالمين ، كما قال مخاطباً لمن أنزله عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ولذلك لم تنزل البسملة في أول سورة التوبة التي فضحت آياتها المنافقين ، وبدئت بنبيذ عهد المشركين ، وشرع فيها القتال بصفة أعم مما أنزل فيما قبلها من أحكامه

وهذا الذي شرحناه يفند زعم بعض المتعصبين الغلاة في ذم الاسلام بالهوى الباطل أن رب المسلمين رب غضوب منتقم قهار ، ودينهم دين رعب وخوف ، بخلاف دين النصرانية الذي يسمى الرب أباً للإعلام بأنه يعامل عباده كعاملمة الأب لأولاده . وقد أشار شيخنا إلى هذا الزعم وقنده في تفسير اسم الرب . وسنذكر في فائدة أخرى المقابلة بين صلاة المسلمين بقراءة الفاتحة وصلاة النصارى بالصيغة المعروفة عندهم بالصلاة الربانية ، وثبت في الحديث الصحيح إن الرب أرحم بعباده من الأم بولدها الرضيع ، وإن جميع ما أودعه في قلوب خلقه من الرحمة جزء من مائة جزء من رحمته تبارك وتعالى ويمجد القارىء . تفضيل القول في سعة الرحمة الالهية في تفسير قوله عز وجل (٧ : ١٥٦ . ورحمتي وسعت كل شيء) من سورة الأعراف

✽ تفسير صفة الرحمة على مذهب السلف ✽

ما نقلناه عن شيخنا في معنى الرحمة (ص ٤٦) تبع فيه متكلمي الاشاعرة والمعتزلة ومفسريهم كالزحشري والبيضاوي ذهولا . ومحصله أن الرحمة ليست من صفات الذات أو صفات المعاني القائمة بذاته تعالى لاستحالة معناها اللغوي عليه فيجب تأويلها بلازمها وهو الاحسان فتكون من صفات الأفعال كالخالق الرازق . وقال بعضهم يمكن تأويلها بإرادة الاحسان فترجع إلى صفة الإرادة فلا تكون صفة مستقلة . وهذا القول من فلسفة المتكلمين الباطلة المخالفة لهدى السلف الصالح .

والتحقيق أن صفة الرحمة كصفة العلم والارادة والقدرة وسائر ما يسميه الاشاعرة صفات المعاني ويقولون إنها صفات قائمة بذاته تعالى خلافا للمعتزلة . فان معاني هذه الصفات كلها بحسب مدلولها اللغوي واستعمالها في البشر محال على الله تعالى إذ العلم بحسب مدلوله اللغوي هو صورة المعلومات في الذهن ، التي استفادها من إدراك الحواس أو من الفكر ، وهي بهذا المعنى محال على الله تعالى ، فان علمه تعالى قديم بقدمه غير عرض منتزع من صور المعلومات . وكذلك يقال في سمعه تعالى

و بصره وقد عدوها من صفات المعاني القائمة بنفسه ، والرحمة مثلها في هذا . فقاعدة السلف في جميع الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله أن نثبتها له ونمرها كما جاءت مع التنزيه عن صفات الخلق الثابت عقلا ونقلا بقوله عز وجل (ليس كمثل شيء) فنقول إن لله علما حقيقيا هو وصف له ولكن لا يشبه علمنا ، وان له سمعا حقيقيا هو وصف له لا يشبه سمعنا ، وإن له رحمة حقيقية هي صفة له لا تشبه رحمتنا التي هي انفعال في النفس وهكذا نقول في سائر صفاته تعالى فنجمع بذلك بين النقل والعقل . وأما التحكم بتأويل بعض الصفات وجعل إطلاقها من المجاز المرسل أو الاستعارة التمثيلية كما قالوا في الرحمة والغضب وأمثالها دون العلم والسمع والبصر وأمثالها فهو تحكم في صفات الله وإلحاد فيها ، فاما أن يجعل كلها من باب الحقيقة مع الاعتراف بالعجز عن إدراك كنه هذه الحقيقة والاكتفاء بالايمان بمعنى الصفة العام مع التنزيه عن التشبيه . وإما أن يجعل كلها من باب المجاز اللغوي باعتبار أن واضع اللغة وضع هذه الالفاظ لصفات الخلقين فاستعملها الشرع في الصفات الالهية المناسبة لها مع العلم بعدم شبهها بها من باب التجوز .

وقد عبر الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى عن هذا المعنى أفصح تعبير فقال في كتاب الشكر من الاحياء : ان الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة يصدر عنها الخلق والاختراع ، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلحقها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنهه جلالها وخصوص حقيقةها فلم يكن لها في العالم عبارة لعل شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى

مبادئ إشراقها ، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس ، لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم للملاحظة جلاها إلى أن يستعبروا من حضيض عالم المتناقضين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسم القدرة ، فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق قتلنا إن لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع اهـ

وقد رجع الامام أبو الحسن الأشعري شيخ المتكلمين والنظار إلى مذهب السلف في نهاية أمره وصرح في آخر كتبه وهو (الابانة) بذلك وأنه متبع للامام احمد بن حنبل شيخ السنة والمدافع عنها ، رحمهم الله أجمعين .

﴿ معارضة نصرانية سخيفة ، للفاتحة الشريفة ﴾

عرف كل من ذاق طعم البلاغة العربية من مؤمن وكافر أن القرآن أبلغ الكلام وأفصحه ، لم يكابر في ذلك مكابر ، ولم يجادل فيه مجادل ، وإن الفاتحة من أعلاء فصاحة و بلاغة وجمماً للمعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة ، واشتمالاً على مهمات الدين من صفات الله التي تجذب قلب من تدبرها إلى حبه ، وتنطق لسانه بحمده ، وتعلي همته بتوحيده ، وتهذب نفسه بمعاني أسمائه وصفاته ، واحاطة ربوبيته وملكوته ، وتذكره يوم الدين الذي يجزي فيه على عمله ، وتوجه وجهه إلى السير على الصراط المستقيم في خاصة نفسه ، وفي معاملة الله ومعاملة خلقه ، وتذكره بالقدرة الصالحة في ذلك بإضافة الصراط الذي يتحرى الاستقامة عليه ، ويسأل الله توفيقه دائماً له ، إلى من أسبغ الله عليهم نعمه ، ومنحهم رضوانه ، وجمع لهم هداية خلقه بأقوالهم ، وأسوتهم الحسنة في أفعالهم ، ومثل السكال في آدابهم وأخلاقهم ، من النبيين والصدّيقين ، والشهداء ، والصالحين ، وتحذره من شرار الخلق الذين يؤثرون الباطل على الحق ، ويفضلون الشر على الخير ، على علم منهم بذلك ، وهم المغضوب عليهم ، — أو على جهل به كالذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهم الضالون . وهذا التحذير يتضمن حث

المسلم المتمعد بالفاتحة المكرر لها في صلواته على العناية بتكميل نفسه بتجرى التزام الحق وعمل الخير ، بأحكام العلم وتربية النفس والتمرن على العمل الصالح .

هذه السورة الجليلة التي ذكرناك أيها القارىء بمجمل مما فصلناه في تفسيرها يزعم أحد دعاة النصرانية في هذا العصر أنها بمعزل من البلاغة بأن كل ما بعد الصراط المستقيم فيها « حشو وتحصيل حاصل » وما قبله يمكن اختصاره بما لا يضيع شيئاً من معناه ، كما فعله بعضهم - قال هذا القول داعية من المبشرين الماجورين من قبل جمعيات التبشير الإنكليزية والاميركانية في كتاب لفقّه في إبطال إعجاز القرآن بزعمه ، بل أنكر بلاغته من أصلها قال :

« وما أحسن قول بعضهم أنه لو قال : الحمد للرحمن ، رب الأكوان ، الملك الديان ، لك العبادة وبك المستعان ، أهدنا صراط الإيمان . لأوجز وجمع كل المعنى وتخلص من ضعف التأليف والحشو والخروج عن الردىء كما بين الرحيم ونستمين » اهـ

أقول لقد كان خيراً لهذا المتعصب الماجور لإضلال عوام المسلمين على شرط أن لا يذكر اسمه في كتيبه ، ولا يفضح نفسه بين قومه ، أن يختصر لمستأجره آهتهم وكتيبهم التي صدت جميع مستقلى الفكر من أقوامهم وشعوبهم عن دينهم بل صدت بعضهم عن كل دين ، فان اختصار الدرارى السبع في السماء ، أهون من اختصار آيات الفاتحة السبع في الأرض . وحسب العالم من فضيخته إيراد سخافته هذه وتشهير بها لو كان حياً يمشى بين الناس .

وأما العامى الجاهل ، الذى قد يفتخر بقول كل قائل ، ولا سيما إذا كان في الطعن بغير دينه ، فربما يحتاج إلى التنبيه لبعض فضائح هذا الاختصار ، وإن كانت لا تخفى على أولى الأبصار ، ونسكتفى منه بما يلي :

(١) إن أول شيء اختصره هذا الجاهل المتعصب وجعل ذكره مطمئناً في فاتحة القرآن اسم الجلالة الأعظم (الله) الذى لا يفنى عنه سرد جميع أسماء الله الحسنى ! فانه هو اسم الذات ، الملاحظ معه انصاف تلك الذات بجميع صفات الكمال إجمالاً (٢) إنه اختصر اسم الرحيم وقد بينا فائدته وأن اسم الرحمن لا يفنى عنه ،

وأنى لمثله أن يعلمه ؟ ويراجع الفرق بينهما فيما تقدم .

(٣) انه استبدال الأكوان بالعالمين وليس في هذا اختصار ، وإنما فيه استبدال الذى هو أدنى ، بالذى هو خير وأولى ، فان الأكوان جمع كون وهو فى الأصل مصدر لا يجمع ، وله معان لا يصح إضافة اسم الرب اليها منها الحدث والصورورة والكفالة ، ويطلقه عرب الجزيرة على الحرب لعلمهم لا يستعملونه فى غيرها ، وأما العالمون فجمع عالم وفى اشتقاقه التذكير بكونه علامة ودليلا على وجود خالقه ، وفى جمعه جمع العقلاء تذكير للقارىء بما فى كلمة الرب من معنى تربيته جل جلاله وعم نواله للأحياء ولاسيما الناس ، وكونهم يشكرونه عليها بقدر استعمال عقولهم . ولذلك قال بعض الأعلام إن لفظ العالمين عام يستعمل هنا فى الخاص وهو عالم البشر ، وراجع سائر تفسيره المتقدم .

(٤) انه استبدال « كلمة » الديان بكلمة (يوم الدين) وهى لا تقوم مقامها ، ولا تفيد ما فيها من المعانى المطلوبة لذاتها ، فان للديان فى اللغة معانى منها القاضى والحاسب أو المحاسب والقاهر . . . وغاية ما يفيد وصف الرب بأنه حاكم يدين عباده ويمجز بهم . وأما يوم الدين فانه اسم ليوم معين موصوف فى كتاب الله بأوصاف عظيمة هائلة ، يحاسب الله فيه الخلائق ويحكم بينهم ويمجزهم ، والايان بهذا اليوم ركن من أركان الدين ، وإضافة ملك ومالك إليه تفيد أن الأمر كله فى ذلك اليوم له وحده فلا يملك أحد لأحد فيه شيئا من نفع ولا من كشف ضرر كما تقدم تفصيله فى تفسير الآية . فاستحضر هذه المعانى فى النفس له من التأثير المقوى لعقيدة التوحيد المرغيب فى العمل الصالح المرهب الزاجر عن الشر ، ما ليس لاسم الديان وحده ، ويكفى الانسان فى الجزم بهذا مشاورة فكره ، ومراجعة وجدانه ، وإن لم يكن يعلم من فنون البلاغة شيئا ، وهل لهذا المبشر المتعصب فكر ووجدان ، يهديه إلى ما يجهل من بلاغة القرآن ؟

(٦٥٥) انه اختصر قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) بقوله هو : لك العبادة وبك المستعان ، وهو أغرب ما جاء به وسماه إيجازاً ، فانه استبدال أربعا بأربع ، ولكنها أطول منها بزيادة حرف ، وتنقص عنها فى المعنى ، فأين الإيجاز ؟ إنه مفقود لفظا ومعنى

إذا أراد بقوله : لك العبادة - أنبا كلها له تعالى في الواقع ونفس الأمر، فالجملة غير صحيحة . لأن الذين لا يعبدونه وحده من البشر هم الأكثرون، ومنهم النصارى قوم الطاعن في دين التوحيد وكتاب التوحيد الأعظم (القرآن) المبدلين لآية التوحيد البليغة. وإن أراد أن العبادة مستحقة لله تعالى وحده فالعنى صحيح ، ولكنه لا يدل على أن القارىء ، ولا واضع الجملة من القائم بهذا الحق له تعالى . وأما « إياك نعبد » فإنها تفيد عرض عبادة القارىء مع عبادة جميع المؤمنين الموحدين عليه جل جلاله ، وتقربهم إليه بأنهم يعبدونه ولا يعبدون غيره

وأحيلك في الفرق بين تأثير هذا وذلك على الوجدان الذى ذكرتك به في النقد الذى قبله . دع مافى عرض المؤمن عبادته واستعانتة على ربه فى ضمن عبادة جميع المؤمنين واستعانتهم ، من ملاحظة أخوة الإيمان وتكافل أهله ، ومن هضم الفرد لنفسه ، ورجاء القبول فى ضمن الجماعة ، وغير ذلك مما يعلم من تفسير الآية . ومثل هذا يقال فى مسألة الاستعانة ، ويمكن الزيادة عليه من جهة المعنى ومن جهة اللفظ ، ومنه اختياره المصدر الميمى الذى هو صيغة إسم المفعول (المستعان) على المصدر الأصيل وهو الاستعانة المناسب للفظ العبادة ، ومن جهة ارتباطه بما بعده ، فان طلبنا للهداية من الاستعانة التى أسندناها إلى أنفسنا .

(٧) استبداله « صراط الإيمان » بالصراط المستقيم ، وهذا أعم منه وأشمل ، لأنه يشمل الإيمان والإسلام والإحسان ، من العقائد والعبادات والآداب ، مع وصفه بالمستقيم الذى لا عوج فيه ، فان بعض الطرق الموصلة إلى المقاصد التى يسمى سالكها مهتديا إلى مقصده فى الجملة ، قد يكون فيها عوج يعوق هذا السالك ، والمستقيم هو أقرب موصل بين طرفين ، فسالكه يصل إلى مقصده فى أسرع وقت ، كذلك الطرق المعنوية ، منها الموصل إلى الغاية وغير الموصل ، ومن الموصل ما يوصل بسرعة لعدم العائق ، وما يعترى سالكه الموانع واقتحام العقبات واتقاء العثرات

(٨) أن وصف الصراط المستقيم بكونه الصراط الذى سلكه خيار عباد الله المفلحين ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، مذكر لقارئه بأولئك

الائمة الوارثين ، الذين يجب التأسي بهم ، والسعي للانتظام في سبلهم ، والتصريح
بكونه غير صراط المغضوب عليهم من المعاندين للحق ، وغير الضالين الزائعين
عن القصد ، مذكر للقارىء . بوجوب اجتناب سبلهم ، لئلا يتردى في هاويهم .

أين من هذه المقاصد السامية ، الهادية إلى تزكية النفس وإعدادها لسعادة
الدنيا والآخرة ، صيغة الصلاة في هلة هذا المختصر المستأجر ، وهي كما في النجيل متى
(٦ : ٩ - ١٣) « أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ،
لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ،
وأغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ، ولا تدخلنا فى تجربة ، ولكن
نجنا من الشرير أمين » اه زاد فى نسخة الأميركان « لأن لك الملك والقوة والمجد
إلى الأبد » وجعلوا هذه الزيادة بين علامتى الكلام الدخيل هكذا ()
فن ذا الذى زادها على كلام المسيح ؟

وقد يقول لهم من لا يؤمن بأن هذه الصيغة منقولة نقلاً صحيحاً عن المسيح
عليه السلام ، أو من لا يؤمن به نفسه : إنها صلاة ليس فيها من الثناء على الله تعالى
ما فى فاتحة المسلمين ولا بعضه ، وطلب تقديس اسم الأب وإتيان ملكوته تحصيل
حاصل ، فهو لغو لا يليق بالعاقل ، وذكره بصيغة الأمر باللام غير لائق ، —
إن لم نقل فى انتقاده ما هو أشد من ذلك وأبعد من ذلك عن اللياقة والأدب
مع الرب تبارك وتعالى : طلب كون مشيئته على الأرض كشئته فى السماء ، وكونها
بصيغة الأمر باللام أيضاً ، فشئته تعالى نافذة فى جميع خلقه من سمائه وأرضه
بالضرورة ، فلا معنى لطلبها ، وطلب المساواة بين السماء والأرض فيها إن أريد
به من كل وجه ، فهو تحكيم لا يخفى ما يترتب عليه .

وأما طلب الخبز الكفاف فى كل يوم بصيغة الحصر فهو يفيد أن كل همهم
وكل مطلبهم من ربهم ولو لدنياهم هو الخبز الذى يكفهم ، فأين هذا من طلب
الهداية إلى الصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة على أكمل وجه ،
لكونه نفس صراط خيار الناس دون شرارهم .

وأما طلب المغفرة - فهو على كونه يليق أن يطلب منه تعالى - ينتقد منه تشبيهها بمغفرة الطالب للذنب المسمى إليه من وجهين (أحدهما) أن مغفرة الله لعبده أجل وأعظم وأعم من مغفرة العبد لمثله (ثانيهما) أن الذي يغفر لجميع المسيئين إليه نادر ؛ ومن المشاهد أن أكثر الناس يجزون على السيئة إما بعثها ، وإما بأكثر منها ، فكيف يكلف هؤلاء بمخاطبة ربهم بالكذب عليه ، الذي حاصله أنهم يطلبون أن لا يغفر لهم ؛ لأنهم لا يغفرون للمسيئين إليهم .

قد يقولون : نعم نحن نلتزم هذا ، لأن ديننا يوجب علينا أن نغفر لجميع من أذنب وأساء إلينا ، ونعتقد أن ربنا لا يغفر لنا إذا لم نغفر لهم ؛ لأن من علمنا هذه الصلاة قال بعدها (متى ٦ : ١٤) فإنه إن غفرتُم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي ١٥ وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم)

فنقول : هذا التعبير يدل على وجوب مغفرة جميع الذنوب لجميع الناس عامة كانت أو خاصة ، فأين منكم يامعشر النصارى من يفعل ذلك ؟ وهل يوجد في الألف أو الألوف منكم واحد كذلك ؟ السنا نرى أكثركم ومن تعدونهم أرقام وتفتخرون بهم كالافرنج لا يغفرون لأحد أدنى زلة ، بل لا يكتفون بعقاب من يسيء إلى أحد منهم إذا كان من غيرهم يمثل ذنبه ، وإنما يضاعفون له العقاب أضعافاً بل ينتقمون من أمته كلها إذا كانت ضعيفة لا يمكنها أن تصدم بالقوة ، فهم لا يمنعون من أجزاء على السيئة بأضعافها من السيئات ولا من ابتداء الظلم والعدوان إلا المعجز

(وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة ، والبسملة منها)

في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة أحاديث قولية صحيحة صريحة ، وجرى عليها العمل من أول الإسلام إلى اليوم ، وإن تنازع بعض أهل اختلاف والجدل في تسمية هذا الواجب قرصاً وعده شرطاً ، وأصح ماورد وأصرحه فيه ما رواه الجماعة كلهم من حديث عبادة بن الصامت (رض) أن النبي ﷺ قال « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وفي لفظ رواه الدارقطني بإسناد صحيح « لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وهو تفسير للفظ الجماعة ؛ فإن نفي الصلاة فيه نفي صحتها

ووجهه : أن الحقيقة المولفة من عدة أركان ذاتية تنتفي بانتفاء ركن منها ، كقولك : لا وضوء لمن لم يغسل يديه إلى المرفقين ، وقد أجمع المسلمون على العمل بهذا ، فلم يصل النبي ﷺ ولا خلفاؤه وأصحابه ولا التابعون ولا غيرهم من الخلفاء وأئمة العلم صلاة بدون قراءة الفاتحة فيها ، وإنما بحث الحنفية في تسمية قراءتها فرضاً وعدها ركناً بناء على اصطلاحات لم ردها الجمهور بأدلة صحيحة لا محل لتلخيصها هنا ، وأجابوا عن شبهاتهم النقلية بأجوبة سديدة وأقواها قوله ﷺ للمسيء صلواته « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » قالوا في الجواب عنه : إنه ثبت في رواية أخرى أنه قال له « ثم اقرأ بأمر القرآن » فهذا مفسر لما تيسر من القرآن ، وأن الفاتحة هي التي كانت متيسرة لجميع المسلمين ، لأنهم كانوا يلتقونها كل من يدخل في الإسلام ، وقال بعضهم : المراد بما يتيسر منه هنا ما زاد عن الفاتحة ، وفي البخاري عن أبي قتادة « أن النبي ﷺ كان يقرأ الفاتحة في كل ركعة » والأحاديث المصرحة بأنه كان يقرأ في الركعة الأولى أم القرآن وسورة كذا - وفي الثانية بعد أم القرآن كذا في صلاة كذا : كثيرة .

وأما كون البسمة آية من الفاتحة ، فأقوى الحجج المثبتة له : كتابتها في المصحف الامام الرسمي الذي ورع نسخه الخليفة الثالث على الامصار برأى الصحابة وأجمعت عليه الأمة ، وكذا جميع المصاحف المتواترة إلى اليوم ، وانخط حجة علمية كما قال العلامة العضد ، وعليه جميع شعوب العلم والمدنية في هذا العصر لا حجة عندهم أقوى من حجة الكتابة الرسمية ، ثم إجماع القراء على قراءتها في أول الفاتحة وإن زعم بعضهم أنها آية مستقلة ، فإن هذا رأي ، والمعبرة بالعمل ، وهو إذا كان عاماً مطرداً من أقوى الحجج . على أن تواترها عن واحد منهم تقوم ما به الحجة على باقيهم وعن سائر الناس ، فانه إثبات بالتواتر لا يعارضه نفي ما . وقد ذكرنا هذه المسألة وآراء أهل الخلاف فيها وزيدها إيضاحاً فنقول :

قد وردت أحاديث آحادية في إثبات ذلك ونفيه ترتب عليها اختلاف الفقهاء الذين جعلوا المسألة مسألة مذاهب ، ينصر كل حزب منهم أهل المذهب الذي ينسبون إليه (كل حزب بما لديهم فرحون) ولولا ذلك لانفقوا ، لأن اثبات

البسمة في أول الفاتحة في جميع المصاحف المجمع عليها المتواترة حجة قطعية لا تعارض بأحاديث الأحاد وإن صح سندها .

وأصرح الأحاديث التي استدلوا بها على كون البسمة ليست آية من الفاتحة :
مارواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج » يقوله ثلاثاً - أى كلمة « فهو خداج » أى ناقصة غير تامة كالناقة تلد لغير التام - فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها في نفسك ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله : حمدني عبدي فإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله : أثنى عليّ عبدي . فإذا قال (مالك يوم الدين) قال : مجدني عبدي . وقال مرة : فوض إلى عبدي . وإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدى ما سأل . فإذا قال (اهتدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل »

قال النافون : إن الحديث يدل على أن البسمة ليست من الفاتحة لأنها لو كانت منها لذكرت في الحديث ، وهو استدلال سلبي لا يعارض القطعي المتواتر وهو إثباتها في المصحف وإجماع القراء على قراءتها معها عند البدء بالخطبات ، وثبوت التواتر بذلك ، على أن عدم ذكرها في الحديث قد يكون لسبب اقتضى ذلك . ومما يخطر في البال بداية : أنه كما اكتفى من قسمة الصلاة بالفاتحة دون سائر التلاوة والأذكار والأفعال اكتفى من الفاتحة بما لا يشاركها فيه غيرها من السور ، إذ البسمة آية من كل سورة غير (براءة) على التحقيق الذي يدل عليه خط المصحف ، وتم سبب آخر لعدم ذكر البسمة في القسمة : وهو أنه ليس فيها إلا الثناء على الله تعالى بوصفه بالرحمة ، وهو معنى مكرر في الفاتحة وذكر في القسمة . والعمدة في عدم المعارضة أن دلالة الحديث ظنية سلمية وإثبات البسمة إيجابى وقطعي كاتقدم وإذا كان من علل الحديث المذمومة من وصفه بالصحة : مخالفة راويه لغيره من

الثقات فمخالفة القطعي من القرآن المتواتر أولى بسلب وصف الصحة عنه. على أن هذا الحديث هو المعارض بالأحاديث المثبتة لكون البسملة من الفاتحة .

واستدلوا أيضاً بحديث أبي هريرة المرفوع عند أحمد وأصحاب السنن . قال « إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي « تبارك الذي بيده الملك » قالوا: وإنما هي ثلاثون بدون البسملة. وأجيب بمثل ماقلناه أنفاً من أن عدد آيات السور باعتبار ما هو خاص بالسورة وهو مادون البسملة . ويؤيده ما روى عن أبي هريرة من أن سورة الكوثر ثلاث آيات . وقد روى أحمد ومسلم والنسائي من حديث أنس قال « بيننا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: نزلت عليّ آناً سورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) * إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر) وهذا الحديث ناطق بأن البسملة من سورة الكوثر مع عدم عدها من آياتها لما ذكرنا، فكونها آية من الفاتحة أولى وهو أصح من حديث أبي هريرة في سورة الملك ، لأن البخاري أعله بأن عباساً الجشمي راويه لا يعرف سماعه من أبي هريرة .

واستدلوا بالأحاديث الواردة في عدم قراءة النبي ﷺ وخلفائه لها في الصلاة . وأصرحها: قول عبد الله بن مغفل « صليت مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر ، ومع عمر ، ومع عثمان . فلم أسمع أحداً منهم يقوها » يعني البسملة . رواه أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه عن ابن عبد الله بن مغفل وهو مجهول، وقد كان له سبعة أولاد وهذه علة تمنع صحة الحديث. قالوا: وقد تفرد به الجريري وقيل: إنه قد اختلط بأخرة . وقد يفسر بما ترى فيما قالوه في الحديث الذي بعده .

وفي معناه حديث أنس في إحدى الروايات قال « صليت مع النبي ﷺ وأبي بكر ، وعمر ، وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) رواه أحمد ومسلم . قال في المنتقى: وفي لفظ « صليت خلف النبي ﷺ وخلف أبي بكر وعمر وعثمان فكانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم » رواه أحمد والنسائي بإسناد على شرط الصحيح . ولاحمد ومسلم « صليت خلف النبي ﷺ

وأبي بكر وعمر وعثمان ، وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون
بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا آخرها « ولعبد الله بن أحمد في مسند
أبيه عن شعبة عن قتادة عن أنس قال « صليت خلف رسول الله وخلف أبي بكر
وعمر وعثمان فلم يكونوا يستفتحون القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم » قال شعبة
قلت لقتادة: أنت سمعته من أنس؟ قال: نعم نحن سألناه عنه. وللنسائي عن منصور
ابن زازان عن أنس قال « صلى بنا رسول الله ﷺ فلم يسمنا قراءة بسم الله
الرحمن الرحيم، وصلى بنا أبو بكر وعمر فلم نسمها منهما » اهـ

قال الشوكاني في شرح الحديث : ورواية « فكانوا لا يجهرون » أخرجها
أيضاً ابن حبان والدارقطني ، والطحاوي والطبراني. وفي لفظ لابن خزيمة « كانوا
يسرون » - وقوله « كانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين » هذا متفق عليه .
وإنما انفرد مسلم بزيادة « لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم » وقد أعل هذا اللفظ
بالاضطراب ، وفسر بأن جماعة من أصحاب شعبة رووه عنه به، وجماعة رووه عنه
بلفظ : فلم أسمع أحداً منهم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ثم نقل عن الحافظ
أن بعضهم رواه باللفظين ومن خرج كل رواية.

أقول وقد جمعوا بين الروايات بأن المراد بالاستفتاح بالحمد لله الاستفتاح
بهذه السورة فقد صح التعبير عنها في حديث آخر بجملة الحمد لله . . . وبأن عدم
سماعها سببه عدم الجهر بها، وقد يكون له سبب آخر وهو البعد عن أول الصف
ومن العادة أن يكون صوت القارئ خافتاً في أول القراءة . وسبب ثالث وهو
اشتغال المأموم عن السماع بالتحرم ودعاء الافتتاح .

وقد عورض وأعل حديث أنس على اضطراب متنه بما يأتي عنه من مخالفته
له في صفة قراءة النبي ﷺ و بما رواه الدارقطني وصححه عن أبي سلمة . قال: سألت
أنس بن مالك « أكان رسول الله ﷺ يستفتح بالحمد لله رب العالمين، أو ببسم
الله رب الرحمن الرحيم ؟ فقال إنك سألتني عن شيء ما أحفظه وما سألتني عنه أحد
قبلك . فقلت : أكان رسول الله ﷺ يصلي في التعمين؟ قال نعم » قالوا : وعروض
الذسيان في مثل هذا غير مستنكر فقد حكى الحازمي عن نفسه أنه حضر جامعاً

وحضره جماعة من أهل التمييز المواطنين في ذلك الجامع ، فسألهم عن حال إمامهم في الجهر والإخفات — قال : وكان صيغاً يملأ صوته الجامع — فاختلّفوا في ذلك فقال بعضهم : يجهر ، وقال بعضهم : يخفت اهـ

أقول : ولم يختلف هؤلاء المصلون في صلاة واحدة ، بل في جميع الصلوات ، وسبب ذلك الغفلة والناس عرضة لها ، ولا سيما الغفلة عن أول صلاة الإمام ، إذ يكون المأمومون مشغولين بمثل ما يشغله من الدخول فيها وقراءة دعاء الافتتاح كما تقدم آنفاً .

وأما أحاديث إثبات كون البسملة من الفاتحة ، فمنها : ما رواه البخاري عن قتادة قال : سئل أنس « كيف كانت قراءة النبي ﷺ ؟ فقال : كانت مدّاً ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ويمدّ بالرحمن ويمدّ بالرحيم وروى عنه الدارقطني من طريقين « أن النبي ﷺ كان يجهر بالبسملة » .

ومنها : حديث أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت « كان يقطع قراءته آية آية : بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » رواه أحمد وأبو داود بهذا اللفظ وغيرها .

ومنها ما رواه النسائي وغيره عن نعيم الحمر . قال « صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ثم قرأ بأم القرآن — وفيه يقول إذا سلم : والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والحاكم ، وقال : على شرط البخاري ومسلم وأقره الحافظ الذهبي . وقال البيهقي : صحيح الإسناد وله شواهد . وقال أبو بكر الخطيب فيه : ثابت صحيح لا يتوجه عليه تعليل ، وروى عن أبي هريرة حديثان آخران بمعناه ، وثق بعضهم جميع رجالها وتكلم بعضهم في بعضهم .

ومنها : حديث علي (رض) سئل عن السبع المثاني فقال (الحمد لله رب العالمين) قيل إنما هي ست فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) رواه الدارقطني وإسناده كلهم ثقات لم يطعنوا في أحد منهم . وله حديثان آخران عنه وعن عمار ابن ياسر في إثبات جهر النبي ﷺ بالبسملة في صلاته قد تكلموا في سندهما .

ومنها : حديث أنس « سمعت رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم » رواه الحاكم وقال : ورواه عن آخرهم ثقات ، وأقره الحافظ الذهبي .
وقد أورد الشوكاني في نيل الأوطار هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها من الروايات الضعيفة الأسانيد الصحيحة المتون ، وذكر حمل الروايات الصحيحة من أحاديث النفي المعارضة لها على عدم الجهر بالبسملة من باب حمل المطلق على المقيد وهو ترك الجهر ، ثم قال :

« وإذا كان محصل أحاديث نفي البسملة هو نفي الجهر بها ، فمتى وجدت رواية فيها إثبات الجهر قدمت على نفيه . قال الحافظ - ابن حجر - لا بمجرد تقديم رواية المثبت على النافي - أي كما هي القاعدة - لأن أنساً يبعد جداً أن يصحب النبي ﷺ مدة عشر سنين ويصحب أبا بكر وعمر وعثمان خمساً وعشرين سنة فلا يسمع منهم الجهر بها في صلاة واحدة ، بل لكون أنس اعترف بأنه لا يحفظ هذا الحكم ، كأنه ليمد عهده به لم يذكر منه إلا الجزم بالافتتاح بالحمد لله جهراً ، يستحضر الجهر بالبسملة ، فيتمين الأخذ بحديث من أثبت الجهر اه .

أقول : وقد تقدم نص الرواية عنه بنسيان هذا الحكم آنفاً فمدحديته مضطرباً لا يحتج به . قال الحافظ ابن عبد البر بعد سرده روايات حديثه : في الاستدكار : هذا الاضطراب لا تقوم معه حجة . . . وقد سئل عن ذلك أنس فقال : كبرت سني ونسيت . اه

وقد زوى الطبراني في الكبير والأوسط في سبب ترك النبي ﷺ للجهر بالبسملة في الصلاة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس « أنه ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، وكان المشركون يهزؤون بمكاه وتصديقه ، ويقولون : محمد يذكر إله اليمامة - وكان مسيلاً الكذاب يسمى رحمن - فأنزل الله (ولا تجهر بصلاتك) فسمع المشركين فيهمزوا بك (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تسمعهم . وقد قال في مجمع الزوائد : إن رجاله موثقون . وقال الحكيم الترمذي . فبقى ذلك إلى يومنا هذا على ذكر الرسم وإن زالت العلة . وجمع به الفرطبي بين الروايات .

وقال ابن القيم في زاد المعاد «إن النبي ﷺ كان يجهر باسم الله الرحمن الرحيم تارة ويخفيها أكثر مما يجهر بها الخ . وهذا القول معقول ، وإذا صح أن سببه مارواه الطبراني واعتمده القرطبي والنيسابوري والحكيم الترمذي يكون ترك الجهر في أول الإسلام بمكة وأوائل الهجرة والجهر فيما بعده ، وقد علمت ما في حديثي أنس وأبي قتادة المخالفين لهذا .

ولا يفرق أحداً قول العلماء أن منكر كون البسملة من الفاتحة أو من كل سورة لا يكفر ومثبتها لا يكفر فيظن أن سبب هذا عدم ثبوتها بالدليل القطعي ، كلا إنها ثابتة ولكن منكرها لا يكفر لتأويله الدليل القطعي بشبهة المعارضة التي تقدمت وبيننا ضعفها ، وسنزيده بيانا والشبهة تدراً حد الردة .

وجملة القول أن اختلاف الروايات الأحادية في الاستمرار بالبسملة والجهر بها قوى ، وأما الاختلاف في كونها من الفاتحة أو ليست منها فضعيف جداً جداً وإن قال به بعض كبار العلماء ذهولا عن رسم المصحف الإمام القطعي المتواتر والقراءات المتواترة التي لا يصح أن تعارض بروايات آحادية ، أو بنظريات جدلية وأصحاب الجدل يجمعون بين الغث والسمين وبين الضدين والناقضين ، وصاحب الحق منهم يشته به غيره ، وربما يظهر عليه المبطل بخلافته ، إذا كان الحن بحجته .

وقد ذكر الرازي في تفسيره سبع عشرة حجة على إثبات كون البسملة من الفاتحة منها القوية والضعيفة وتصدى له الألويسي محاولاً دحضها تعصباً لمذهبه الذي تنحله في الكبر إذ كان شافعيًا فتحول حنفيًا تقريباً إلى الدولة وصرح بهذا التعصب إذ قال هنا «على المرء نصرته مذهبه والذب عنه» الخ وهذه كبرى زلانه ، المثبتة لعدم استقلاله بعدم طلبه الحق لذاته . حتى إنه مارى في حجة إثبات البسملة في أولها بخط المصحف المتواتر فجعلها دليلاً على كونها من القرآن دون كونها من الفاتحة ، وهو من تحمل الجدل فلا معنى لكونها آية مستقلة في القرآن ألحقت بسوره كلها إلا واحدة وليست في شيء منها ولا في فاتحته التي اقتدوا بها في بدء كتبهم كما ، إنه لقولوا تبطله عبادتهم وسيرتهم ، وينبذه ذوقهم ، لولا فتنة الروايات والتقليد فتعارض الروايات اغتر به أفراد مستقلون ، وبالتقليد قن كثيرون ، والله في خلقه شئون .

على أن الألوسى حكم وجدانه واستغنى قلبه في بعض فروع المسألة ، فأفناه
بوجوب قراءة الفاتحة والبسمة في الصلاة ، وخانه في كونها آية منها ، وأورد في
حاشية تفسيره على ذلك إشكالا استكبره جد الاستكبار وما هو بأكبر ، فنحن
ندكر عبارتيه ، ونفق عليهما بالرد عليه ، قال في تفسيره روح المعاني :

« وبالجملة يسكاد أن يكون اعتقاد كون البسمة جزءاً من سورة ^(١) من
الفطريات (!!) كما لا يخفى على من سلم له وجدانه (!!) فهي آية من القرآن مستقلة
ولا ينبغي لمن وقف على الأحاديث أن يتوقف في قرآنيتها ، أو ينكر وجوب
قراءتها ويقول بسنيتها ، فوالله لو ملئت لى الأرض ذهباً لا أذهب إلى هذا القول
وإن أمكننى بفضل الله توجيهه (!!) كيف وكتب الأحاديث ملأى بما يدل على
خلافه . وهو الذى صح عندى عن الإمام - يعنى إمامه الجديد أبا حنيفة رحمه الله
تعالى - والقول بأنه لم ينص بشيء ليس بشيء ، وكيف لا ينص إلى آخر عمره في
مثل هذا الأمر الخطير الدائر عليه أمر الصلاة من صحتها أو استحالتها ، ويمكن
أن يناط به بعض الأحكام الشرعية ، وأمور الديانات كالطلاق والحلف والعتق .
وهو الإمام الأعظم ، والمجتهد الأقدم ، رضى الله عنه ؟

وكتب في حاشيته عند قوله : فهي آية من القرآن مستقلة ما نصه :

استشكل بعضهم الإثبات والنفي ؛ فان القرآن لا يثبت بالظن ولا ينفى به .
وهو إشكال كالجلبل العظيم (?) وأجيب عنه أن حكم البسمة في ذلك حكم الحروف
المختلف فيها بين القراء السبعة قطعية الاثبات والنفي معاً (!!) ولهذا قرأ بعضهم
بإثباتها وبعضهم بإسقاطها ، وإن اجتمعت المصاحف على الاثبات ، فإن من
القراءات ما جاء على خلاف خطها كالصراط ومصيطر فانها قرئتا بالسين ولم يكتبتا
إلا بالصاد (وما هو على الغيب بضنين) تقرأ بالظاء ولم تكتب إلا بالاضاد ففي

(١) كذا في الأصل المطبوع في المطبعة الأميرية عن نسخته الخطية . وهو
تعبير ركيك كترى ، والجزء يصدق ببعض الآية كالذى في سورة النمل وهو لا خلاف
فيه ولا معنى لجملة من قبيل الفطريات . وإنما الذى يقرب منها كونها آية من كل
سورة إلا براءة . وأقوى منه كونها آية من الفاتحة .

البسملة التخيير . وتتحتم قراءتها في الفاتحة عند الشافعي احتياطاً (!!) وخروجاً من عهدة الصلاة الواجبة بيقين لتوقف صحتها على ما سماه الشرع فاتحة الكتاب . فافهم والله أعلم بالصواب » اهـ

أقول : نعم إن الله أعلم بالصواب ، وقد وفق لعلمه أولى الألباب ، وهم (الذين يستمعون القول : فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب) دون الذين يستمعون القول فيتبعون منه ماوافق رواية فلان ، ورأى فلان ، ويوجبون على أنفسهم نصره ولو بتأويل مامضت به السنة العملية وثبت بنص القرآن ، ولولا عصبية المذاهب عند المقلدين ، والغرور بظواهر بعض الروايات عند الاثريين ، لما اختلف أحد من الفريقين في هذه المسألة ونحمد الله تعالى أن اختلافهم فيها قولى جدلى لاعلى .

سبحان الله ! ما أعجب صنع الله في عقول البشر ! أيقول السيد محمود الألويسى العالم الذكى النزاع إلى استقلال الفكر في كثير من مسائل التفسير ، بالرغم من رضائه بمهانة جهالة التقليد : إن استشكل الجمع بين الإثبات والنفي القطعيين في مسألة البسملة « إشكال كالجبل العظيم » ؟ ثم يرضى بالجواب عنه بما يقرر به الجمع بين الإثبات والنفي القطعيين .

سبحان الله ! إن الجمع بين النفي والإثبات هو التناقض الحقيقي الذى يعز إيراد مثال للمحال العقلى مثله ، فكيف يصدر القول به عن عالم أو عن عاقل ؟

إن الاشكال الذى نظر إليه المفسر يعينى التقليد العميائون فرآه كالجبل العظيم : هو في نفسه صغير حقير ضئيل قبيح ، خفي كالذرة من الهباء ، أو كالجزء لا يتجزأ من حيث كونه لا يرى ولا يشبث إلا بطريقة الفرض ، أو كعدم المحض والجواب الحق : أنه لم ينف أحد من القراء كون البسملة من الفاتحة نفيًا حقيقيًا

برواية متواترة عن المعصوم عليه السلام تصرح بأنها ليست من الفاتحة - كما يقول بعض الناس بشبهة عدم رواية بعض القراء لها ، وشبهة تعارض الروايات الأحادية التي ذكرنا أقواها والخرج منها - أو ليست إلا جزء آية من سورة النمل ، كما زعم من لاشبهة لهم على النفي تستحق أن يجاب عنها

وإنما أثبت بعض القراء بالروايات المتواترة أن البسمة آية من الفاتحة وبعضهم لم يرو ذلك بأسانيد المتواترة ، وعدم نقل الإثبات للشيء ليس نفيًا لذلك الشيء ، لا رواية ولا دراية . وأعم من هذا : ما قاله العلماء من أن بين عدم إثبات الشيء وبين إثبات عدمه بونا بعيداً كما هو معلوم بالضرورة . ولو فرضنا أن بعضهم روى التصريح بالنفي لجزمنا بأن روايته باطلة سببها أن بعض رجال سندها اشتبه عليه عدم الإثبات بإثبات النفي ، إذ يستحيل عقلاً أن يكون الأمران المتناقضان قطعيين معاً ، ورواية الإثبات لا يمكن الطعن فيها ، وناهيك وقد عززت بخط المصحف الذي هو بتواتره خطأً وتلقيناً أقوى من جميع الروايات القولية وأعصى على التأويل والاحتمال ، وأما القول بأنها آية مستقلة بين كل سورتين للفصل بينهما ما عدا الفصل بين سورتي الأنفال وبراءة ، فما هو إلا رأى للجمع بين الروايات الأحادية الظنية المتعارضة ، ويمكن الجمع بغيره مما لا إشكال فيه ، إذ لو كانت البسمة للفصل بين السور لم توضع في أول الفاتحة ولم تحذف من أول براءة للعلة التي ذكرناها عنهم في هذا البحث فهي لا تتحقق إلا إذا كانت البسمة من السورة ، وزد على ذلك ما أوردناه من المعاني والحكم في بدء القرآن بها ، وما صح مرفوعاً من كونها هي السبع المثاني وأما الجواب الذي نقله الألويسي وأرتضاه فلا يستغرب صدوره ولا إقراره ممن يثبت الجمع بين النقيضين المنطقيين ويفتخر بأنه يمكنه توجيه ما يعتقد بطلانه . على أنه جواب عن إشكال غير وارد ، وبعبارة أخرى ليس جواباً عن إشكال إذ لا إشكال . واختلاف بين القراء في مثل السراط والصراط ومسيطر ومصيطر ، وضمنين ، وظنين ، ليس خلافاً بين النفي والإثبات كسألة البسمة بل هي قراءات ثابتة بالتواتر ، فأما ضمنين وظنين فهما قراءتان متواترتان - كالك ومالك في الفاتحة - كتبت قراءة الضاد في مصحف أبي وهو الذي وزع في الأمصار وقرأ بها الجمهور ، وقرأه الظاء في مصحف عبد الله بن مسعود وقرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي . ولكل منهما معنى وليستمان قبيل تسهيل القراءة لقرب الخرج كما سيأتي في بيان الفرق بين مخرجي الحرفين قريبا ، وأما السراط والصراط ومسيطر ومصيطر فلا فرق بينهما إلا تفخيم السين وترقيقه وبكل منهما نطق بعض العرب وثبت به النص فهو من قبيل ما

صح من تحقيق الهزمة وتسهيلها، ومن الامالة وعدمها، فلا تنافي بين هذه القراءات فيعد إثبات إحداهما نفيًا لمقابلتها كما هو بديهي. على أن خط المصحف أقوى الحجج فلو فرضنا تعارض هذه القراءات لكان هو المرجح، ولكن لا تعارض والله الحمد نكتفي بهذا ردًا لما في كلام الألويسي وأمثاله من الخطأ فان غيره لا يعيننا في موضوعنا ولا سيما ما رجحه عن إمامه وخالف فيه غيره، وعمله باطلاقهم عليه لقب الامام الأعظم، وزيادته هو عليهم لقب المجتهد الاقدم، مع علمه بأن علماء الصحابة والتابعين اقدم منه اجتهادًا، وأن هذه الألقاب وإن صح معناها لا تقتضي عدم الخطأ ولا عدم النسيان ولا إهمال بعض المسائل المهمة. ونحن يسرنا أن يصح ما ذكره، وأن يخطئ من أنكره، فان من المصائب أن يوجد في المسلمين عالم ينكر ما ثبت في خط المصحف المتواتر ككتابة ورواية. وقد نقل الرازي أن أبا حنيفة ليس له نص في المسألة « وإنما قال: يقرأ بالبسمة ويسربها، ولم يقل إنها آية من أول السورة أم لا. (قال الرازي) ومثل محمد بن الحسن عن بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال: ما بين الدفتين كلام الله. قال (أى السائل له) فلم تسره؟ قال فلم يجبني. وقال الكرخي: لا أعرف هذه المسألة بعينها لمتقدمي أصحابنا، إلا أن أمرهم بإخفائها يدل على أنها ليست من السورة. وقال بعض فقهاء الحنفية: توزع أبو حنيفة وأصحابه عن الوقوع في هذه المسألة لأن الخوض في أن البسمة من القرآن أو ليست منه أمر عظيم، فالأولى السكوت عنه اه

أقول: من الخطأ البين الاستدلال بأمر بعض الفقهاء بإخفاء البسمة على كونها ليست من القرآن، مع الاجماع على أن ما بين دفتي المصحف قرآن منزل من الله. على أن الروايات الصحيحة في الأحاديث فيها الجهر بالبسمة والاسرار وروايات الجهر أقوى وأبعد عن التعليل والتأويل

وصفة القول: أن دلالة المصحف أقوى الدلالات، ترجح على كل ما عارضها من الروايات، ودلالاتها قطعية، تؤيدها الروايات المتواترة في إثباتها والاجماع العملي على قراءتها، ولا ينافيها عدم رواية بعضهم لها. فالمسألة قطعية في نفسها، واتجاجلوا اجتهادية باختلاف الروايات الأحادية في قراءتها، وقد علمت ما فيها والله الموفق للصواب

﴿ فضل الفاتحة وكونها هي السبع المثاني ﴾

قال الله تعالى في سورة الحجر مخاطباً لخاتم النبيين والمرسلين (١٥: ٧٥) ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) وقد ثبت في الحديث الصحيح والآثار الصحيحة عن الصحابة والتابعين ان السبع المثاني هي سورة الفاتحة ، ومعنى كونها مثاني أنها تثنى وتعاد في كل ركعة من الصلاة لفرضيتها فيها كما تقدم ، وقيل معناه أنها يثني فيها على الله تعالى بما أمر وقيل غير ذلك

فأما الحديث المرفوع في تفضيلها وكونها هي المرادة بالسبع المثاني فهو مارواه البخارى في مواضع من صحيحه وأصحاب السنن عن أبي سعيد بن المعلى وروى نحوه مالك والترمذى والحاكم من حديث أبي هريرة . ذكر أبو سعيد بن المعلى أن النبي ﷺ قال له وهما في المسجد « لأعلمتك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن نخرج من المسجد - وفي رواية قبل أن أخرج - (قال) ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل « لأعلمتك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ » فقال « الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته » وفي حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال لأبي بن كعب « أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الفرقان مثالها ؟ قال أبى ثم أخذ بيدي يحدثنى وأنا أتبسط مخافة أن يبلغ الباب قبل أن ينتضى الحديث ولما سأله عن السورة قال « كيف تقرأ فى الصلاة ؟ » فقراءت عليه أم الكتاب فقال « انبأ السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته » وفيه إزالة إشكال في حديث أبي سعيد بن المعلى وهو أن ظاهره يوم أنه لم يكن يعرف الفاتحة مع أنه كان يصلى في ذلك اليوم وقبله فهو من الأنصار - وقد علم من حديث أبى هريرة ان المراد بتعليمه هذه السورة تعليمه ما فيها من الفضيلة على غيرها وكونها هي المرادة بآية سورة الحجر . وأما عطف القرآن على سبعاً من المثاني فهو من عطف الكل على الجزء أو العام على الخاص ، وقيل في توجيهه غير ذلك .

وقد تعلق برواية « الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني » من قالوا إن البسملة ليست من الفاتحة وعكس الآخرون قائلين إن المراد بالجملة الأولى لفظها على أنه اسم

السورة وإلا لما صح قوله هي السبع المثاني لأنها آية واحدة وإنما السبع المثاني هي آيات الفاتحة السبع وهي ليست سبعة إلا بعد البسملة آية منها ، فكونها منها ثابت بالقرآن أى بآية سورة الحجر كما فسرها أعلم الناس به وهو الرسول الذى أنزله الله عليه ، وكبار أصحابه والتابعين والحديث يدل على تسميتها بالحمد لله رب العالمين ، إذ لا يصح معناه إلا بذلك

وأما الآثار فقد فصلها السيوطى فى الدر المنثور وأجملها الحافظ فى الفتح مع بيان درجة أسانيدھا بقوله : وقد روى الطبرى بإسنادين جيدين عن عمر ثم عن على قال : السبع المثاني فاتحة الكتاب - زاد عن عمر «تثنى فى كل ركعة» وإسناد منقطع عن ابن مسعود مثله ، وإسناد حسن عن ابن عباس أنه قرأ الفاتحة ثم قال (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) قال هي فاتحة الكتاب ، وبسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة - ومن طريق جماعة من التابعين : السبع المثاني فاتحة الكتاب . ومن طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال السبع المثاني فاتحة الكتاب قلت للربيع إنهم يقولون : إنها السبع الطول (جمع طولى مؤنث أطول) قال لقد أنزلت هذه الآية وما نزل من الطول شيء . اهـ

يقول محمد رشيد : يعنى أن سورة الحجر التى فيها هذه الآية قد نزلت بمكة قبل النور السبع الطول وهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة - المدنيات - والأنعام والأعراف ويونس المكيات ، كذا قال بعضهم فى السابعة إنها سورة يونس ، وقال آخرون هي الأنفال وبراءة - وعدهما سورة واحدة - وقال بعضهم إن الراوى نسي السابعة عن ابن عباس

والقول بأنها السبع الطول ، رواه النسائى والطبرى والحاكم عن ابن عباس بإسناد قوى كما قال الحافظ . ولا حاجة إلى التفصيل فيه فإنه مردود لمخالفته للحديث الصحيح المرفوع ، ولا قول لأحد مع قول الرسول ﷺ ومنه يعلم أن قوة الإسناد لا قيمة لها تجاه الدليل القوى على بطلان متن الرواية

﴿ استدراك على تفسير المغضوب عليهم والضالين ﴾

ورد في الحديث المرفوع تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى ، رواه أحمد والترمذى وحسنه وابن حبان وصححه وغيرهم ، ونقلنا عن شيخنا الاستاذ الامام (ص ٦٦) عزوه إلى بعضهم ، أى بعض المفسرين ، وهو يريد أن بعض المفسرين اختار أن هذا هو المعنى المراد ، وهو لم يكن يجمل أن هذا روى مرفوعا ولكنه كان يعلم مع هذا أن أكثر المفسرين فسروا اللفظين بما يدلان عليه لغة حتى بعض أهل الحديث منهم ، وكأنهم لم يروا أن الحديث صحيح ، فقد قال البغوى الملقب يعجبى السنة في تفسيره (معالم التنزيل) بعد تفسيرهما بدلولهما اللغوى : وقيل : المغضوب عليهم هم اليهود ، والضالون هم النصارى ، لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب فقال (من لعنه الله وغضب عليه) وحكم على النصارى بالضلال فقال (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) وقال سهل بن عبد الله : غير المغضوب عليهم بالبدعة ، ولا الضالين عن السنة . اهـ فعبّر عن هذا القول بقيل الدال على ضعفه عنده ولم يستدل عليه بالحديث .

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعملوا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يبتدون إلى الحق . وأكّد الكلام بـ « لا » ليدل على أن ثم مسلّكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى اهـ .

وبعد كلام طويل في إعراب « غير » و « لا » قال : إنما جيء به بلا لتأكيد النفي لئلا يتوهم أنه معطوف على (الذين أنعمت عليهم) والفرق بين الطريقتين لتجنب كل واحدة منهما ، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ^(١) ، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى — واستشهد بالآيتين اللتين استشهد بهما البغوى ، ثم ذكر

(١) يعنى علم الدين وأساسه التوحيد

الحديث ورواياته وهو عند أحمد والترمذي ، وكذا ابن حبان من طريق سماك ابن حرب عن عدى بن حاتم قال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه . وسماك ضعفه جماعة ووثقه آخرون ، واتفقوا على أنه تغير في آخر عمره بل خرف ، فما رواه في هذه الحال فلا جدال في رده بالاتفاق ، وأخرجه ابن مردويه عن أبي ذر أيضا بسند قال الحافظ في الفتح : إنه حسن . وقال ابن أبي حاتم : إنه لا يعرف في تفسيرهما بما ذكر خلافاً يعني في المأثور . ومع هذا نقول إن ما ذكره المحققون من الوجوه الأخرى لا يعد مخالفة للمأثور الذي هو من قبيل تفسير العام ببعض أفراده من قبيل التمثيل لا التخصيص ، ولا الحصر بالأولى

﴿ التأمين بعد الفاتحة ﴾

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال ابن شهاب : كان رسول الله ﷺ يقول « آمين » رواه الجماعة إلا أن الترمذي لم يذكر قول ابن شهاب . وفي رواية « إذا قال الإمام (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فتولوا : آمين ، فإن الملائكة تقول آمين ، وإن الإمام يقول آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه أحمد والنسائي . وعن أبي هريرة قال « كان رسول الله ﷺ إذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال : آمين . حتى يسمع من يليه من الصف الأول » رواه أبو داود وابن ماجه وقال « حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتجح بها المسجد » وعن وائل بن حجر قال « سمعت رسول الله ﷺ قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقال : آمين . يمد بها صوته » رواه أحمد وأبو داود والترمذي اه منتنى الأخبار

وهذه الأحاديث كلها صحيحة وأخرجها غير من ذكر ، وزاد أبو داود في الأخير منها « ورفع بها صوته » قال الحافظ ابن حجر : وسنده صحيح . وخطأ ابن القطان في إعلانه إياه بجمالة حجر بن عديس وقال إنه ثقة معروف قيل : إن له صحبة وهنالك أحاديث أخرى في المسألة تبلغ مع هذه سبعة عشر حديثاً . وهذه أصحها

قال الشوكافى فى نيل الأوطار عند شرح حديث أبى هريرة الأول: والحديث يدل على مشروعية التأمين. قال الحافظ: وهذا الأمر عند الجمهور للندب، وحكى ابن بزيرة عن بعض أهل العلم وجوبه عملاً بظاهر الأمر، وأوجبته الظاهرية على كل من يصلى، والظاهر من الحديث: وجوبه على المأموم فقط، لكن لا مطلقاً بل مقيداً بأن يؤمن الإمام، وأما الإمام والمنفرد فنندوب فقط

(قال) وحكى المهدي فى البحر عن العترة جميعاً أن التأمين بدعة - وقد عرفت ثبوته عن على رضى الله عنه من فعله وروايته عن النبي ﷺ فى كتب أهل البيت وغيرهم - على أنه قد حكى السيد العلامة الامام محمد بن ابراهيم الوزير عن الامام المهدي محمد بن المطهر وهو أحد أئمتهم المشاهير أنه قال فى كتابه الرياض الندية (إن روة التأمين جم غفير - قال - وهو مذهب زيد بن على وأحمد ابن عيسى اه وقد استدلل صاحب البحر على أن التأمين بدعة بحديث معاوية ابن الحكم السلمى « إن هذه صلاتنا لا يصلح فيها شىء من كلام الناس » ولا شك أن أحاديث التأمين خاصة وهذا عام، وإن كانت أحاديثه الواردة عن جمع من الصحابة لا يقوى بعضها على تخصيص حديث واحد من الصحابة - مع أنها مندرجة تحت تلك العمومات القاضية بمشروعية مطلق الدعاء فى الصلاة لأن التأمين دعاء، فليس فى الصلاة تشهد، وقد أثبتته العترة، فاهو جوابهم فى إيجابته فهو الجواب فى إثبات ذلك. على أن المراد بكلام الناس فى الحديث هو تكليمهم لأنه اسم مصدر كلم لا تكلم ويدل على ذلك السبب المذكور فى الحديث اه والمراد بقوله السبب المذكور فى الحديث هو أن معاوية بن الحكم السلمى شتم عاطساً فى الصلاة مع النبي ﷺ فرماه القوم بأبصارهم فقال: واثكل أماء مالكم تنظرون إلى؟ الخ. وجملة القول: أن التأمين فى الصلاة مشروع بنص الأحاديث الصحيحة الصريحة. فلا وجه لمنعه بعموم أحاديث أخرى لاتناهاها، ولو عارضتها لوجب ترجيحها عليها

واختلف فى موضعه بالنسبة إلى المأموم هل هو بعد قول الامام (ولا الضالين) أم عند قوله « آمين » وهو مبني على أن بين الحديثين، فى ذلك تعارضاً وهو غفلة

عن كون الامام إنما يؤمن بعد قوله (ولا الضالين) كما صرح به في رواية أحمد والنسائي لحديث أبي هريرة فعنى الحديثين متفق ، وقوله ﷺ « إذا أمرن الامام فأمنا » مبنى على أن من شأن الامام أن يؤمن عقب إتمام الفاتحة اتباعاً للسنة فلا مفهوم للشرط فيه .

﴿ فائدة في مخرجي الضاد والظاء وحكم تحريف الأول ﴾

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره . والصحيح من مذاهب العلماء أنه يقتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما ، وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة؛ فلهدا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك ، والله أعلم . وأما حديث : أنا أفصح من نطق بالضاد - فلا أصل له اه وأقول : إن أكثر أهل الامصار العربية قد أرادوا الفرار من جعل الضاد ظاء كما يفعل الترك وغيرهم من الأعاجم فجلوها أقرب إلى الظاء منها إلى الضاد حتى القراء المجو دون منهم . إلا أهل العراق وأهل تونس فهم على ما نعلم أفصح أهل الامصار نطقاً بالضاد ، وإننا نجد أعزاب الشام وما حولها ينطقون بالضاد فيحسبها السامع ظاء لشدة قربها منها وشبهها بها . وهذا هو المحفوظ عن فصحاء العرب الأولين حتى اشتبه نقلة العربية عنهم في مفردات كثيرة قالوا إنها سمعت بالحرفين وجمعها بمضمم في مصنف مستقل . والأشبه أنه قد اشتبه عليهم أداؤها منهم فلم يفرقوا ، والفرق ظاهر ولكن غير بعيد

وقد قرىء قوله تعالى في سورة التكوير (وما هو على الغيب بضنين) بكل من الضاد والظاء ، والضنين البخيل . والظنين المتهم ، وفائدتهما في كل من البخل والتهمة . والمعنى ما هو ببخيل في تبليغه فيكم ، ولا بمتهم في كذب . قال في الكشف : وهو في مصحف عبد الله بالظاء ، وفي مصحف أبي بالضاد ، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما . واتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ، ومعرفة مخرجيهما مما لا بد

منه للقارىء ، فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين ، وإن فرقوا ففرقا غير صواب و بينهما يون بعيد ، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الاضراس من يمين اللسان ويساره ، وكان عمر بن الخطاب (رض) أضبط يعمل بكلتا يديه ، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه ، وهى أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين . وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا . وهى أحد الأحرف الذوقية ، أخت الذال والشاء . ولو استوى الحرفان ، لما ثبتت فى هذه الكلمة قراءتان اثنتان ، واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب اهـ

وأقول : صدق أبو قاسم الزجاجى فى تحقيقه هذا كله إلا قوله : إن البون بين الحرفين بعيد ، فالفرق ثابت ولكنه قريب ، وهو يحصل باخراج طرف اللسان بالظاء من بين الثنايا كأخيه الشاء والذال ، ولا شركة بينه وبينهما إلا فى هذا

﴿ التوسع فى الاستنباط من معنى الفاتحة ﴾

إن ما أوردناه أولا فى تفسير الفاتحة من تلخيص لما فهمناه من دروس شيخنا وما قرأناه فى الكتب ، ثم ما زدناه عليه فى أصله وفى هذه الفوائد الزوائد فالغرض منه التفقه فى معانى القرآن والاهتداء به . وقد اقتصدنا فيه فاقصرنا على ما لا يشغل القارىء عن المقصد . وقد أطال الفخر الرازى فى استطرادات عديدة ، ومسائل مستنبطة من لوازم للمعنى قريبة أو بعيدة ، ولكنها تشغل مرید الاهتداء بالقرآن ، وأطال ابن القيم فى أول كتابه (مدارج السالكين) القول فى استنباط المسائل منها من طريق الدلالات الثلاث : المطابقة والتضمن والالتزام . وأخذ الثالثة باللزم البين بالمعنى الأعم وبالمعنى الأخص وباللزم غير البين أيضا ، بل سعى كتابه : مدارج السالكين ، بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) وأجل ذلك بقوله فى خطبة الكتاب : إنه ينبى «على بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب ، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال ، وما تضمنته من منازل السائرين ، ومقامات المسافرين ، والفرق بين وسائلها . وغاياتها ، وموآهبها

وكسببائها ، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدّها ، ولذلك لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها « ا هـ

ومما ذكره في تفصيل ذلك : فصول في الرد على أهل الوحدة والجوس والقدرية والجهمية والجيرية ومنكري النبوات والقائدين بقدم العالم والفرق بين هذه المستنبطات ومستنبطات الرازي أن أكثر تلك في

المصطلحات العربية والعقلية والكلامية والفقهية ، وأكثر هذه في المقاصد الروحية التعبدية لتلك المصطلحات والعلوم ، فهي تزيد قارئها ديناً وإيماناً وتقوى ، ولكن لا يصح أن يسمى شيء منها تفسيراً للفاتحة ، ولو كنا نعدده تفسيراً لاقتبسناه أو لخصناه في هذه الفوائد

والصوفية منازع فيها أبعد عن اللغة والنقل والعقل من كل ذلك ، جرأت مثل الدجال ميرزا غلام أحمد القادياني الذي ادعى النبوة والوحى في هذا العصر وزعم أنه المسيح الذي ينتظره أهل الملل في آخر الزمان ، جرأته على ادعاء دلالة البسالة على دعواه الباطلة !! (وقد فندنا شبهة أمثال هؤلاء في تفسير قوله تعالى (٦ : ٣٨ مافرطنا في الكتاب من شيء)

وقد ذهب بعض المعاصرين مذهباً أبعد من هذا وذلك في تفسير الفاتحة وغيرها من القرآن ، فهو يرى أن تفسير لفظ العالمين (مثلاً) يقتضى بيان كل ما وصل إليه علم البشر من مدلول هذا اللفظ ، وأن تفسير لفظي (الرحمن والرحيم) يقتضى بيان كل ما يعرف من نعم الله وإحسانه بخلقه وإلى خلقه من كل وجه ، فاتساع هذا المذهب في تفسير الفاتحة أو آية أو كلمة منها لا يكمل إلا بكتابة ألاف من المجلدات يدون فيها كل ما وصل إليه علم جميع علماء الأرض في أعيان العالم وصفاتها وأحوالها من أدنى الحشرات إلى أرقى البشر من حكماء الصديقين ، والأنبياء المرسلين ، وإن عدم مثل هذا من التفسير إضلال عن القرآن ، وإنما يحسن في التفسير تكبير المؤمن بأن لا يقفل عن ذكر الله والتفكير في آياته ورحمته ونعمه في كل نوع من مخلوقاته ، عند النظر فيها ، والتفكير في آيات الله الدالة عليها

وتزعم بعض الدجالين والخرفين منزعاً آخر سبقهم إليه اليهود وهو استنباط المعاني من أعداد حروف الهجاء بحسب الجمل ، قال بعضهم : إن القرآن يدل على

أن قيام الساعة سيكون في سنة ١٤٠٧ للهجرة وهو عدد حروف « بقتة » من قوله تعالى « لا تأتكم إلا بقتة » وهؤلاء في الحروف المقطعة في أوائل السور وفي أعدادها ضلالات لا نضعيق الوقت بكتابتها ، فلدلالة الألفاظ على المعاني طرق في اللغة لا تخرج عنها ، وليس هذا منها .

﴿ ما ينبغي تدبره واستحضاره من معاني الفاتحة وغيرها في الصلاة ﴾

إذا اقتربنا المسلم إلى الصلاة فوجه كل قلبك فيها إلى استحضار كل ما يتحرك به لسانك من ذكر وتلاوة .

فاذا قلت « الله أكبر » فحسبك أن تذكر في قلبك أن الله تعالى أعظم من كل عظيم ، وأكبر من كل شيء . فلا يصح أن يشغلك عن الصلاة له أو فيها شيء دونه ، وكل شيء دونه .

وإذا قرأت ماورد في ذكر الافتتاح فلا تشغل نفسك بغير معناه وهو ظاهر وإذا استعدت بالله تعالى قبل القراءة عملاً بعموم قوله تعالى (١٦ : ٩٨ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) فتصور من معنى صيغة الاستعاذة أنك تلجأ إلى الله تعالى وتعتصم به من وسوسة الشيطان الشاغلة عن الصلاة وما يجب فيها من التدبر لكتابه والخشوع والإخلاص له تعالى .

وإذا قرأت البسملة فاستحضر من معناها : إني أصلي (باسم الله) والله الذي شرع الصلاة وأقدرني عليها (الرحمن الرحيم) ذي الرحمة العامة التي وسعت كل شيء والخاصة بمن شاء من عباده المخلصين .

وإذا قلت (الحمد لله رب العالمين) فاستحضر من معناها أن كل ثناء جميل بالحق فهو لله تعالى استحقاقاً وفعلاً ، من حيث إنه الرب خالق العالمين ومدبر جميع أمورهم . . . (الرحمن) في نفسه (الرحيم) بخلقه (مالك يوم الدين) ذي الملك والتصرف دون غيره يوم محاسبة الخلق ومجازاتهم بأعمالهم فلا يرجى غيره . وإذا قلت (إياك نعبد) الخ فتذكر أنك تخاطب هذا الرب العظيم كفاحاً بما يجب أن

تكون صادقا فيه ، ومعناه : نعبدك وحدك دون سواك بدعائك والتوجه إليك (وإياك نستعين) نطلب معونتك وحدك على عبادتك وعلى جميع شؤوننا ، بالعمل بما أعطيتنا من الأسباب ، وبالتوكل عليك وحدك عند العجز عنها (اهدنا الصراط المستقيم) دلنا وأوصلنا بتوفيقك ومعونتك إلى طريق الحق في العلم والعمل ، الذي لا عوج فيه ولا زلل (صراط الذين أنعمت عليهم) بالإيمان الصحيح والعمل الصالح وثمرتهما وهي سعادة الدارين ، وتذكر إجمالاً أولئك المنعم عليهم « من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين » وأن حظك من هذه الهداية لصراتهم إنما يكون بالناسى والاقتداء بهم في الدنيا ، ومرافقتهم في الآخرة « وحسن أولئك رفيقا » صراط الدين أنعمت عليهم فضلا وإحسانا منك (غير المغضوب عليهم) بإيثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشر على الخير (ولا الضالين) عن طريق الحق والخير بجهلهم « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

وأنصح لك أيها التالى للقرآن في الصلاة وفي غير الصلاة أن تقرأه على مكث وتمهل ، بخشوع وتدبير ، وأن تقف على رهوس الآيات ، وتعطى القراءة حقه من التجويد والنغمات ، مع اجتناب التكلف والتطريب ، واتقاء الاشتغال بالألفاظ عن المعانى ، فان قراءة آية واحدة مع التدبير والخشوع ، خير لك من قراءة ختمة مع الغفلة . ومن المحربات : أن تغميض العينين في الصلاة يثير الخواطر ، ولذلك كان مكروهاً وأن رفع الصوت المعتدل في الصلاة الجهرية ولا سيما صلاة الليل يطرد الغفلة ، ويوقظ راقداً الخشية ، وإعطاء كل أسلوب حقه من الأداء والصوت يعين على

الفهم ، ويستفيض ماغاض بطول الغفلة من شأبيب الدمع

(وراجع بحث تأثير التلاوة في أول تفسير)

سورة الأعراف في الكلام

على الحروف المفردة



سورة البقرة ٢

(جميعها مدنية بالإجماع ، ومنها آية نزلت على ما قيل في حجة الوداع ، وروى أنها آخر آي القرآن نزولا وهي (٢٨١) واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الخ ومعظمها نزل في أول الهجرة . وهي أطول جميع سور القرآن ، فأياتها مائتان وثمانون وسبع آيات أو ست وعليه عدد المصاحف المشهورة الآن . ولا حاجة إلى بيان التناسب بينها وبين الفاتحة ، وإن كان التناسب ظاهراً ، فإنها لم توضع بعدها لأجله ، وإنما وضعت في أول القرآن بعد فاتحته (التي كانت فاتحته بما لها من الخصائص التي بينها في تفسيرها) لأنها أطول سورة وتليها بقية السبع الطوال بتقديم المدني منها على المكي ، لا الطولي فالطولي ، فإن الأنعام أطول من المائدة وهي بعدها ، والاعراف أطول من الأنعام وقد أخرجت عنها ، وقدمت الأنفال على التوبة وهي أقصر منها ، وكلتاها مدينتان ، وإنما روعي الطول في ترتيب سور القرآن في الجملة لا في كل الأفراد . وروعي التناسب في ترتيب ذلك ، ويراه القاريء في محله من كل منها . ثم مزج المدني بالمكي في سائر السور ، لأن اختلاف أسلوبيهما ومسائلهما أدنى إلى تشبيط القاريء ، وأثنى به عن الملل من التلاوة . وهذا من خصائص القرآن .

وقد رأينا أن نستدرك قبل الشروع في تفسيرها ما فاتنا في آخره من تلخيص ما اشتملت عليه من الدعوة إلى الإسلام ، وما فيها من العقائد والأحكام ، وقواعد الدين وأصول التشريع ، فنقول :

﴿ خلاصة سورة البقرة وما فيها من دعوة الإسلام وأحكامه وقواعده ﴾

دعوة الإسلام العامة :

بدأ الله عز وجل سورة البقرة بدعوة القرآن ، وكونه حقاً لا مجال فيه لشك ولا ارتياب ، وجعل الناس تجاه هدايته ثلاثة أقسام :

(١) المؤمنون وهم قسمان : الذين يؤمنون بالغيب بمجر دسلامة الفطرة و يقيمون ركني الدين : البدني الروحي ، والمالي الاجتماعي ، والذين يؤمنون به بتأثير إيمانهم بما أنزل من

قبله من كتب الرسل ، إذ يروونه أكمل منها هداية وأصح رواية ، وأقوى دلالة .
ثم فصل هذه الأصول للإيمان في آية (١٧٦ ليس البر الخ) وآيتي (٢٨٤ و ٢٨٥)
الله ماني السموات وما في الأرض) الخ
(٢) الكافرون الراسخون في الكفر وطاعة الهوى ، الذين فقدوا الاستعداد
للإيمان والهدى

(٣) المنافقون الذين يظهرون غير ما يخفون ، ويقولون ما لا يفعلون (فهذه
آياتها الأولى إلى ٢٠ آية)

وقف على هذا بدعوة الناس جميعا إلى عبادة ربهم وحده ، وعدم اتخاذ
الأتداد له ، الذين يحبون من جنس حبه ، ويذكرون معه في مقامات ذكره ،
ويشركون معه في مخ العبادة - الدعاء - أو يدعون من دونه (أنظر الآيتين
٢١ و ٢٢ وآيات الإسلام في قصة ابراهيم واسماعيل ووصية ابراهيم ويعقوب
لأبنائهم من ١٢٤ - ١٣٨ كما يأتي ، والآيات التي سنشير إليها في خطاب أمة
الإجابة من ١٦٣ - ١٧١

ثم نثي دعوة التوحيد بدعوة الوحي والرسالة واحتج على حقيقة هذه الدعوة
بهذا الكتاب المنزل على عبده محمد ﷺ بتحدى الناس كافة بالآيتين بسورة
من مثله ، مع التصريح القطعي بمعجزهم أجمعين ، ورتب على هذا إنذار الكافرين
بالنار ، وتبشير المؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار ، ووقف على هذا ببيان
بعض الأدلة العقلية على الإيمان ، وبخلاصة النشأة الآدمية وعداوة الشيطان
للإنسان . وتم ذلك بالآية ٣٩

ثم خص بني اسرائيل بالدعوة ، تاليا عليهم ما لم يكن يعلمه محمد لولا وحيه تعالى
له ، فذكرهم بشممه ، وأمرهم أن يؤمنوا بما أنزله على خاتم رسله ، ونهاهم أن يكون
المعاصرون له منهم أول كافر به ، وحاجهم في الدين بتذكيرهم بأيام الله ، وبأهم
الوقائع التي كانت لسلفهم مع كلمته ، من كفر وإيمان ، وطاعة وعصيان ، ثم
بالتذكير لهم وللعرب بهدى جدهم ابراهيم الخليل ، وبشأنه لبيت الله الحرام
مع ولده إسماعيل ، ودعاهما إياه تعالى أن يبعث في الأميين رسولا منهم ،

و بأن علماءهم يعرفون أن محمداً هو الرسول الذي دعا به ابراهيم و بشر به موسى كما يعرفون أبناءهم ، و بأن فريقاً منهم يكتفون الحق وهم يعلمون ، أى والفريق الآخر يؤمنون به ، و يعترفون بوعد الله ل ابراهيم ثم لموسى بقيام نبي من أبناء اخوتهم مثله بديء . هذا السياق بالآية ٤٠ من السورة (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) الخ وانتهى بالآية ١٤٢ منها ، وتخلله بعض الآيات الموجهة للمؤمنين للاعتبار بما فيه من شؤون أهل الكتاب السابقين والحاضرين من اليهود بالتفصيل ومن النصارى بالأجمال ، إذ لم يكن أحد منهم مجاوراً ولا مخالطاً للمسلمين فى تلك الحال ، فإن نزول البقرة كان فى أول عهد الهجرة . وما تقدم يناهز نصف السورة ، وهو شرطها الخاص بأمة الدعوة ، والشطر الثانى قد وجه لأمة الإجابة

خطاب أمة الاجابة بموضوع الدعوة العام :

كان الانتقال من خطاب أهل الكتاب من أمة الدعوة إلى خطاب أهل القرآن من أمة الإجابة بذكر ما هو مشترك بين قوم موسى وقوم محمد من نسب ابراهيم والاتفاق على فضله وهدايته ، وكان العرب فى الجاهلية يعترفون بذلك إجمالاً للمسلمين ، ثم بذكر أول مسألة عملية اختلف فيها القومان وهى مسألة القبلة ، فقد كان النبي ﷺ يصلى بمكة إلى الكعبة المشرفة من جهة الشمال حيث تكون بينه وبين بيت المقدس فى بلاد الشام ، وهو قبلة بنى إسرائيل ؛ فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بين استقبال الكعبة التى هى فى جنوبها ، وبيت المقدس الذى هو فى شمالها ، فأعطى الله خاتم رساله سؤاله بأمره بالتوجه إلى الكعبة وحدها ومسألة القبلة من شعائر الملة وخصائصها الدينية الاجتماعية ، حتى إن النصارى وهم فى الأصل مع رسولهم (عيسى المسيح عليه السلام) من أتباع شريعة التوراة قد ميزوا أنفسهم دون اليهود بابتداع قبلة خاصة بهم غير قبلة عيسى رسولهم الذى اتخذوه إلهاً لهم وهى صخرة بيت المقدس .

بعد تأكيد أمر القبلة ، وأنه من إتمام النعمة على هذه الأمة بين وظائف الرسول ﷺ وهى كما فى دعاء ابراهيم تبليغ القرآن وتربية الأمة ، وتعليمها الكتابة

والحكمة ، ومالم تكن تعلم من القضاء والسياسة وأمور الدولة . فقال تعالى (١٥١)
 كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة
 ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) ثم أمرهم بذكره وشكره تعالى ، وبالاستعانة بالصبر
 والصلاة على النهوض بمهمات الأمور ، وذكر التطواف والسعي بين الصفا والمروة
 لمناسبة اقتضاها المقام ، ولعن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى بعد
 تبينه للناس في الكتاب ، واستثنى من تاب وأصلح وبين وأناب ، وسجل
 اللعنة على من مات على كفره ، وكونهم خالدين في النار لا يخفف عنهم العذاب .
 ثم ذكر الأساس الأعظم للدين ، وهو توحيد الألوية ، بتخصيص الخالق سبحانه
 بالعبودية ، وهو قوله تعالى (١٦٣) وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وقرن
 ذلك بالتذكير بآياته الكثيرة الدالة عليه في السموات والأرض وما بينهما ثم ذكر ما يقابل
 هذا التوحيد مقابلة التضاد ، وهو الشرك بأخذ الأنداد ، والاعتماد فيه على تقليد
 الآباء والأجداد ، وشنع على المقلدين والذين يدعون غير الله تعالى من المشركين ،
 فجردهم من حلية العقل ، وشبههم بالصم البكم العمى . وانتهى هذا بالآية ١٧١ .
 ثم أوجب على المؤمنين الأكل من أجناس جميع الطيبات وأمرهم بالشكر له
 عليها ، وحصر محرمات الطعام عليهم في الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به
 لغير الله ، واستثنى من اضطر إليها ، وانما ذكر هذا في سياق كليات الدين المجملة
 لا بطلان ما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من التحليل والتجريم فيها الذي
 هو حق الله تعالى بتحكيم الأهواء ، ووقفى على هذا كله بوعيد الذين يكتمون ما أنزل
 الله ، ايذانا بوجود الدعوة وبيان الحق على كل من آمن بالله ، وتحذيراً مما وقع بين
 أهل الكتاب من الاختلاف والشقاق والتحريف والنسيان لحظ عظيم مما أنزله الله
 وختم هذا السياق العام ببيان أصول البر ومجمعه في الآية المعجزة الجامعة
 لكليات العقائد والآداب والأعمال : (١٧٦) ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل
 المشرق والمغرب — الخ)

وقفى عليه بسياق طويل في الأحكام الشرعية الفرعية بدى بأحكام القصاص
 في القتلى من آية (١٧٧) وانتهى بأحكام القتال وما تقضيه من أمور الاجتماع

وقواعده في آخر الجزء الثاني من تجزئة القرآن الثلاثينية وسنذكر أنواعها
ثم عاد الكلام على بدئه في العقائد العامة من الرسالة والتوحيد وحججه والبعث ،
وفي الأحكام والآداب العامة التي هي سياج الدين ونظام الدنيا ، ورأسها الانفاق
في سبيل الله ، وهي طريق الحق والخير وسعادة الدارين ، والاخلاص فيه وفي سائر
الأعمال . ثم عاد إلى الاحكام الفرعية العملية إلى ما قبل ختم السورة كلها بالدعاء
المعروف . وهاك بيان مافي السورة من أنواع أحكام الفروع العملية :

خطاب أمة الاجابة بالفروع العملية

كانت الاحكام الشرعية العملية منها تنزل على النبي (ص) عند استعداد الأمة
لها بالنسبة إلى العبادات ، وعند الحاجة اليها في العمل بالنسبة إلى المعاملات ،
والمذكور منها في سورة البقرة أنواع ، نلخصها فيما يلي :

(١) إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بمدح أهلها في الآية ٣ والأمر بهما في الآية ١١٠
(٢) تحريم السحر ، وكونه فتنة وكفراً أو مستلزماً للكفر .

(٣) أحكام القصاص في القتلى وهو المساواة فيها وحكمته (آيتا ١٧٨ و ١٧٩)
(٤) الوصية للوالدين والأقربين (آيتا ١٨١ و ١٨٢)

(٥) أحكام الصيام مفصلة وقد نزلت في السنة الثانية للهجرة (آيات ١٨٣-١٨٧)
(٦) تحريم أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها إلى الحكم للاستعانة بهم

على أكل فريق منها بالأنم كما هو الفاشي في هذه الازمنة (آية ١٨٨)
(٧) جعل الأشهر الهلالية هي المعتمد عليها في المواقيت الدينية للناس ، ومنها

الصيام والحج وعدة النساء ومدة الايلاء (آية ١٨٩)
(٨) أحكام القتال وكونه ضرورة مقيدة بقتال من يقاتلنا ويهدد حرية ديننا

دون غيرهم وبتحريم الاعتداء فيه ، وغايته منع الفتنة في الدين وهو الاكراه
فيه والتعذيب والايذاء للصدعنه ، والمراد ما يسمى في عرف هذا العصر

بحرية الاعتقاد والوجدان ، ومنه أحكام القتال في الشهر الحرام (آيات ١٩٠
- ١٩٥ ، ٢١٦ - ٢١٨ . ثم ٢٢٤ - ٢٥٢)

(٩) الأمر بانفاق المال في سبيل الله لأنه وسيلة للوقاية من التهلكة ، وهذا يتناول الانفاق للاستعداد للقتال الذي يرجى أن يكون سبباً للسلم ومنع القتال ، والسلامة من الهلاك ، ويتناول غير ذلك كمنع العدوان العام والخاص ، والنظم الضارة بالاجتماع (آية ١٩٥) ثم الامر بالانفاق لأجل السلامة من هلاك الآخرة (في الآية ٢٥٤) ثم الترغيب في الانفاق والوعد بمضاعفة الأجر عليه بسبعمائة ضعف وأكثر وبين شرط قبوله وآدابه وضرب الامثال للاخلاص والرياء فيه في سياق طويل (من آية ١٩٦ - ٢٠٣)

(١٠) أحكام الحج والعمرة (من آية ١٩٦ - ٢٠٣)

(١١) النفقات والمستحقون لها من الناس (٢١٥ و ٢١٩ و ٢٢٣)

(١٢) تحريم الخمر والميسر تحريماً ظنياً اجتهادياً راجحاً غير قطعي تمهيداً للتحريم الصريح بالنص القطعي (٢١٩)

(١٣) معاملة اليتامى ومخالطتهم في المعيشة (٢٢٠)

(١٤) تحريم نكاح المؤمنين المشركات ، وانكاح المشركين المؤمنات (٢٢١)

(١٥) تحريم إتيان النساء في الحيض وفي غير مكان الجرح ووجوب إتيانهن من حيث أمر الله بأي صفة كانت (٢٢٢ و ٢٢٣)

(١٦) بعض أحكام الأيمان بالله ، كجعلها مانعة من البر والتقوى والاصلاح ، وعدم المؤاخنة بيمين اللغو (٢٢٤ و ٢٢٥)

(١٧) حكم الايلاء من النساء (٢٢٦ و ٢٢٧)

(١٨) أحكام الزوجية من الطلاق والرضاعة والعدة وخطبة المعتدة ونفقتها ومتمة المطلقة (٢٢٨ - ٣٧ و ٢٤١)

(١٩) حظر الربا والامر بترك ما بقى منه والاكتفاء بزموس الاموال منه وإيجاب إنظار المعسر ، أى أمهاله إلى ميسرة (٢٧٥ - ٢٨٠)

(٢٠) أحكام الدين من كتابة وإشهاد وشهادة وحكم النساء والرجل فيها والرهان ووجوب أداء الأمانة وتحريم كتمان الشهادة (٢٨٢ و ٢٨٣)

(٢١) خاتمة الأحكام العملية : الدعاء العظيم في خاتمة السورة

﴿الأصول والقواعد الشرعية العامة في سورة البقرة﴾

(القاعدة الأولى) إن اتباع هدى الله المنزل على رسله وهو الدين موجب للسعادة بأن أصحابه لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهذا وعد يشمل الدنيا والآخرة لاطلاقه ، ولكنه في الدنيا إضافي مطرد في الأمم وإضافي مقيد غير مطرد في الافراد ، وفي الآخرة حقيقي مطرد للجميع ، وموجب لشقاء من أعرض عنه بعد بلوغ دعوته على وجهها . على نسبة مقابلة في الدارين والشاهد عليه قوله تعالى لآدم ومن معه (تلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدى - الآية ٣٨ والتي بعدها ٣٩ - وراجع معناها في سورة طه (فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) الآية (٢٠ : ١٢٣) وما بعدها إلى ١٢٨ فهي موضحة لما أردنا هنا .

(القاعدة الثانية) قوله تعالى (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) الآية ٤٠ وهي مقيدة لسعادة الدين بأنها إنما تحصل بإقامته . فالله يقول (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) في باب الاطلاق ، ويقول في باب التقييد (إن تنصروا الله ينصركم) وهذا شاهد على التقييد الذي ذكرناه في القاعدة الأولى ، ومثله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا) راجع الآيات ٨٤ - ٨٦ .

(القاعدة الثالثة) قوله تعالى (٤٤) أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون) وهي صريحة في أن هذا مخالف للمنقول الشرعي وهو الكتاب ، وللمعقول الفطري ، إذ لا يخفى على عاقل قبيح عمل من يأمر غيره بالخير وهو يتركه ، أو ينهيه عن فعل ما يضره من الشر وهو يفعله ، وأنه يقيم بذلك الحججة على نفسه ، ولا يكون أهلاً لأن يمثل أمره ونهيه .

(القاعدة الرابعة) قوله تعالى في مقام الإنكار على بني إسرائيل (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟) صريح في وجوب ترجيح الأعلى على الأدنى وإيثار الخير على الشر ، والارشاد إلى طلب ما هو خير وأفضل مما يقابله وفي طلب المعالي والكمال في أمور الدنيا والآخرة . وفي معناه قوله تعالى (١٣٠) ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه)

(القاعدة الخامسة) قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا - الآية ٦٢ صريح في أن أصول دين الله تعالى على السنة جميع رسله هذه الثلاثة : الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من الجزاء ، والعمل الصالح - ومنه ما ذكر في آية ٨٣ من ميثاق بني إسرائيل ، فتمرة الإيمان منوطة بالثلاثة .

(القاعدة السادسة) أن الجزاء على الإيمان والعمل معاً ، لأن الدين إيمان وعمل . ومن الفرور أن يظن المنتهى إلى دين نبي من الأنبياء ، أنه ينجو من الخلود في النار بمجرد الانتماء ، والشاهد عليه ما حكاه الله لنا عن بني إسرائيل من غرورهم بدينهم ومارد به عليهم حتى لا تتبع سنتهم فيه ، وهو (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة - آية ٨٠ - ٨٢ وما حكاه عن اليهود والنصارى جميعاً من قولهم (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم) الخ الآيتين ١١١ و ١١٢ ولكننا قد اتبعنا سنتهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع مصداقاً لما ورد في الحديث الصحيح . وإنما نمتاز عليهم بأن المتبعين لهم بعض الأمة لأكملها ، ويحفظ نص كتابنا كله وضبط سنة نبينا في بيانه ، وبأن حجة أهل العلم والهدى منا قائمة إلى يوم القيامة .

(القاعدة السابعة) أن شرط الإيمان : الإذعان النفسى لكل ما جاء به الرسول الذى يلزمه العمل عند انتفاء المانع ، ومأخذه قوله تعالى (٨٣) وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل (إلى آخر آية ٨٦ وقوله (١٠٠) أو كلما عاهدوا عهداً) الآية ، فمن ترك بعض العمل بجهالة فهو فاسق إلى أن يتوب . ومن تركه لعدم الإذعان له كان كافراً به ، والكفر ببعض الكفر بالكل والشاهد عليه قوله تعالى (أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) الآية . وليس هذا من الكفر العملى الذى لا يخرج به صاحبه من الملة الذى استشهد به المحدث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » الخ كما قال بعض العلماء لأن هذا النوع هو من عمل الأفراد الذى تغلبهم عليه داعية طبيعية كالشهوة والغضب - وما نحن فيه عبارة عن عدم العمل بالشرع الآلى لعدم الإذعان له ، كاستباحة قتل فريق من الأمة ونفى فريق آخر من وطنه بحض اتباع الهوى والطمع في عرض الدنيا ، لا بجهالة تعارضة يغلب فيها الفرد على أمره ثم يشوب اليه رشده فيتوب إلى ربه

(القاعدة الثامنة) النسخ أو الانساء للآيات الإلهية التي يؤيد الله بها رسله كما يقتضيه سياق قوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها) أقرأها وما بعدها (١٠٦ و ١٠٧) أو للآيات التشريعية كما فهم الجمهور كلاهما من رحمة الله بجعل البديل خيراً من الأصل ، أو مثله على الأقل ، وتكون الخيرية في المثل التنوع وكثرة الآيات (القاعدة التاسعة) قوله تعالى (١٢٠) وان ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) آية للنبي كاشفة عن حال أهل الملتين في عصره ، ولانزال مطردة في أمته من بعده ، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الإسلامية فحاولوا إرضاء بعض الدول بمادون اتباع ملتهم من الكافر فلم يرضوا عنهم ، ولو اتبعوا ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها ، حتى لا يبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم .

(القاعدة العاشرة) أن الولاية العامة الشرعية حق أهل الإيمان والعدل ، وأن الله تعالى لن يعهد بإمامة الناس وتولى أمورهم للظالمين ، فكل حاكم ظالم فهو ناقض لعهد الله تعالى - راجع قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام بعد ابتلائه مما ظهر به استحقاقه للإمامة (١٢٣) قال إني جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتي . قال لا ينال عهدي الظالمين)

(القاعدة الحادية عشرة) إن الإيمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل كما أنزله يقتضى الوحدة والاتفاق ، وترك الاهتداء به يورث الاختلاف والشقاق ، وشواهد من السورة قوله تعالى (١٣٧) فان آمنوا يمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فاننا هم في شقاق) وقوله (١٧٦) ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) وقوله (٢١٣) كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين الخ .

(القاعدة الثانية عشرة) الاستعانة على النهوض بمهمات الأمور بالصبر والصلاة قال تعالى ٤٥ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقوله عز وجل (١٥٣) يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع

الصابرين) وهذه قاعدة جلية راجع تفصيلها في تفسيرنا للآيتين وأمثالها

(القاعدة الثالثة عشرة) بطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء ، لأنه جهل وعصبية جاهلية ، والشواهد عليه في هذه السورة وغيرها عديدة أظهرها هنا ضاحكاه تعالى لنا عن تبرؤ المتبوعين من الاتباع يوم القيامة في آيتي (١٦٦ و ١٦٧) وقوله عز وجل (١٧٠) وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وإن في تحريم التقليد وتصريح الكتاب العزيز بأن الله تعالى لا يقبله ولا يعذر صاحبه به في الآخرة لتأكيداً شديداً لإيجاب العلم الاستقلالي الاستدلالي في الدين ، وهو لا يقتضى الاجتهاد المطلق في جميع مسائل التشريع ، أعني - الاستنباط العام بوضع الأحكام لكل ما يحتاج إليه الأفراد والحكام - وإن في إطلاق مقلدة المصنفين من خلف القرون الوسطى القول بإيجاب تقليد المجتهدين في أمور الدين ، وتحريم الأخذ بالدليل فيه - لاشتراطهم فيه استعداد كل مستدل مستقل للتشريع لاقتياتنا على دين الله ، ونسخا لكتاب الله ، وشرعاً لم يأذن به الله ، خلاصته تحريم العلم وإيجاب الجهل ، وهذا منتهى الافساد للفطرة والعقل ، وهو أقطع المدى لأوصال الاسلام ، وأفعال المعاول في هدم قواعد الإيمان ، وعلّة العمل لاقتشار البدع التي ذهبت بهداية الدين ، واستبدلت بها الخرافات ودجل الدجالين -

(القاعدة الرابعة عشر) إباحة جميع طيبات المطعم الطبيعية بحسب أفرائها وإيجاب الأكل منها بحسب جنسها ، وامتناع التحريم الديني العام لما لم يحرم الله تعالى منها ، وذلك قوله تعالى (١٦٨) يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) وقوله (١٧٢) يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) الآية . وقوله بعدها (١٧٣) إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) فخصر الحرمات في هذه الأربعة . ومثله في سورة الانعام والنحل من السور المبكية ، وفي سورة المائدة المدنية تفصيل في الميتة يجعل المنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكلة السبع منها ، إذا ماتت بذلك ولم تدرك تدكيثها . وقيدت آية الانعام الدم بالنسفوح (القاعدة الخامسة عشرة) إباحة المحرمات للمضطر اليها بشرط أن يكون غير باغها ولا عاد فيها بتجاوز قدر الضرورة أو الحاجة منها وذلك قوله تعالى في تنمة الآية الأخيرة

من شواهد القاعدة التي قبل هذه (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) وليست القاعدة مقصورة على محرمات الطعام بل عامة لكل ما يتحقق الاضطرار إليه لأجل الحياة وبقاء الهلاك ولم يعارضه مثله أو ما هو أقوى منه . فالزنا ليس مما يضطر الناس إليه لذلك كما قال العلماء ، ومن اضطر إلى رغيف مضطر مثله فليس له أن يرجع نفسه على صاحب اليد وهو مالك الرغيف

(القاعدة السادسة عشرة) بناء الدين عباداته وغيرها على أساس اليسر ، ورفع الحرج والعسر - كما عمل سبحانه به رخصة الفطر في رمضان بقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ومثله تعليل رخصة التيمم برفع الحرج كما في سورة المائدة . وهذه القاعدة أوسع مما قبلها ، لأن هذه في ترك الواجب ، إلى بدل عاجل أو آجل ، وتلك في استباحة المحرم ولو مؤقتا ، فإن ترك الواجبات أهون من فعل المنهيات ، لقوله ﷺ « فاذا أمرتم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » رواه الشيخان وهذا اللفظ لمسلم وهو من أثناء حديث . وسبب هذا أن الترك أهون على غير المضطر من الفعل لأن الأصل عدمه :

(القاعدة السابعة عشرة) عدم تكليف ما لا يطاق وهذه أصل لثنتين قبلها والنص فيها قوله تعالى في آخر الآية من السورة (٢٨٦ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) ووسع الإنسان ما لا حرج فيه عليه ولا عسر ، لأنه ضد الضيق ، ولذلك كانت هذه أوسع مما قبلها وأصلها ، فالله لم يكلفنا في دينه وشرعه ما لا طاقة لنا به ، ولا يدخل في وسعنا أمثاله بغير عسر ولا حرج ، فإذا عرض العسر عروضا بأسبابه العادية كالاضطرار لأكل الميتة والدم المسفوح والمرض والسفر اللذين يشق فيهما الصوم واستعمال الماء في الغسل والوضوء أو يضر ترك الأول بنية القضاء ، والثاني إلى التيمم المبيح للصلاة ، ولا تترك الصلاة نفسها لعسر أحد شروطها وعدم عسرها في نفسها ، وهي لا تعسر من حيث هي توجه إلى الله تعالى ومناجاة له بكتابه وذكره ودعائه ، فإن شق على المصلي بعض أفعالها كالقيام استبدل به القعود فإن شق عليه القعود صلى مضطجعا أو مستلقيا .

(القاعدة الثامنة عشرة) حظر التعرض للهلكة ، في قوله تعالى (١٩٥) ولا تلقوا

بأيديكم إلى التهلكة) فلا يجوز للمؤمنين ولا سيما جماعتهم أن يعتمدوا إلقاء أنفسهم إلى الهلاك بسعيهم واختيارهم - ويلزمه وجوب اجتناب أسباب التهلكة من فعلية وتركية - وبمعبر المناطق من سلمية وإيجابية - ويدل عليه ذكر هذا النهى عقب الأمر بالإفناق في سبيل الله لما يحتاج إليه الدافع من النفقات الكثيرة ، ولا سيما في هذا العصر الذي تعددت فيه آلات القتال ووسائله وعظمت نفقاتها فاصارت الأمم العزيزة تنفق الملايين من الجنهات على وسائل الحرب البرية والبحرية والجوية . وفروع هذه القاعدة كثيرة .

(القاعدة التاسعة عشرة) إتيان البيوت من أبوابها لا من ظهورها ، أى طلب الأشياء بأسبابها دون غيرها ، فلا يجعل العادة عبادة ، ولا العبادة عادة ، ولا تطلب فنون الدنيا من نصوص الدين (أنتم أعلم بأمر دنياكم) كما قال خاتم النبيين ، وأصل هذه القاعدة ما يدل عليه قوله تعالى (١٨٩) وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها والسكن البر من اتقى واءتوا البيوت من أبوابها) فللزراعة والتجارة والصناعة وفنون الحرب وآلاته وأسلحته أبواب لا يوصل إليها إلا من يدخل منها ، ولعمقائد الدين وعباداته وآدابه وحلاله وحرامه أبواب معروفة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولأصول تشريعه السياسي أبواب من النصوص والاجتهاد معروفة أيضاً ، فما اعتيد في هذه القرون الأخيرة من قراءة صحيح البخارى في المساجد لأجل النصر على الأعداء مخالف لهذه القاعدة ، وليس من المخالف لها الدعاء وتوجه المقاتلة إلى الله لنصرهم بعد إغداد ما استطاعوا من القوة لعدوهم ، فإن الدعاء من أسباب القوة المعنوية (القاعدة العشرون) حرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الدينى ولو بالقتال حتى يكون الدين كله لله ومنع الإكراه على الدين . وذلك قوله تعالى (١٩٣) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) الفتنة اضطهاد الإنسان لأجل دينه بالتعذيب والقتل والنفي كما فعل المشركون بالمسلمين في صدر الاسلام ولذلك قال في آيات القتال التي نزلت قبل هذه في سورة الحج (٣٩:٢٢) أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ٤٠ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) الخ

ولذلك مهد لهذه الغاية هنا بقوله قبلها (١٩١) وأقتلوهم حيث تقتلهم وهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) ثم قفى عليها بقوله (٢١٧ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) الآية .
وأما النهى عن الإكراه فى الدين حتى الإسلام فقوله تعالى (٢٥٦ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي) وقد ذكرنا فى تفسيرها مارواه المحدثون ومصنفوا التفسير المأثور من سبب نزولها .

وملخصه : أنه كان لدى بنى النضير من يهود المدينة أولاد من أبناء الصحابة ريوهم وهودوهم فلما أمر النبي ﷺ باجلائهم لتواتر إيذائهم أراذ المسلمين أن يأخذوا أبناءهم منهم ويكرهوهم على الإسلام فنزلت الآية . فقال النبي ﷺ « قد خير الله أصحابكم ، فإن اختاروهم فهم منهم ، وإن اختاروكم فهم منكم »
ومع هذه النصوص لا يزال يوجد حتى فى المسلمين من يصدق افتراء أعداء الإسلام بأنه قام بالسيف والإكراه على الدين ، وأن النبي ﷺ هو الذى كان يبدأ المشركين بالقتال ؟

﴿ القاعدة الحادية والعشرون ﴾ أن القتال شرع فى الإسلام لمصلحتين أو ثلاث « الأولى » الدفاع عن المسلمين وأوطانهم ، فإن المشركين أخرجوا النبى ومن كان آمن معه من أهل مكة ثم بدأهم بالقتال وساعدهم عليهم أهل الكتاب وما زالوا يبدؤونهم ويقاثلونهم حتى عجزوا ؛ وذلك قوله تعالى (١٩٠) وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تمتدوا إن الله لا يحب المعتدين) « الثانية » تأمين حرية الدين ومنع الاضطهاد فيه وهو قوله (١٩٣) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن ائتموا فلا عدوان إلا على الظالمين) هذا ما نزل فى هذه السورة « الثالثة » ما فى سورة التوبة من تأمين سلطان الإسلام وسيادته بدفع المخالفين له للجزية .

﴿ القاعدة الثانية والعشرون ﴾ أن من شأن المسلمين طلب ما هو أثر لازم للإسلام من سعادة الدنيا والآخرة معاً ، كما تقدم فى القاعدة الأولى ، وإنما تتحقق

الغايات ولوازم الأمور بطلبها والسعى لها .
فليس من هديه أن يترك المسلمون الدنيا ومعايشها وسياستها ويكونوا فقراء
أذلاء ، ناعمين للمخالفين لهم من الأقوياء - ولا أن يكونوا كالأنعام لا هم لهم إلا
في شهواتهم البدنية ، وكالوحوش التي يقترب قوبها ضعيفا . وهذا الجمع بين الأمرين
مقتضى الفطرة ، والاسلام دين الفطرة ، وذلك هو ما أرشدنا الله إليه بقوله (٢٠٠)
فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ٢٠١ ومنهم
من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار الخ
﴿القاعدة الثالثة والعشرون﴾ أن الأحكام الاجتهادية التي لم تثبت بالنص
القطعي الصريح رواية ودلالة لا تجعل تشريعا عاما إلزاميا بل تفوض إلى اجتهاد
الأفراد في العبادات الشخصية والتحرير الديني الخاص بهم - وإلى اجتهاد أولى
الأمر من الحكام وأهل الحل والعقد في الأمور السياسية والقضائية والادارية
وماخذ آية (٢١٩) يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس
وإثمهما أكبر من نفعهما) ووجهه: أن هذه الآية تدل على تحريم الخمر والميسر بضرب
من الاجتهاد في الاستدلال ، وهو أن ما كان إنعده وضرره أكبر من نفعه فهو محرم
يجب اجتنابه ، وذلك ما فهمه بعض الصحابة فامتنعوا من الخمر والميسر . ولكن
النبي ﷺ لم يلزم الأمة هذا ، بل أقر من تركهما ومن لم يتركهما على اجتهادها
إلى أن نزل النص القطعي الصريح في تحريمهما والأمر باجتنابهما في سورة المائدة
فحينئذ بطل الاجتهاد فيهما ، وأهرق كل واحد من الصحابة ما كان عنده من الخمر
وصار النبي ﷺ يعاقب من شربها .

وبناء على هذه القاعدة كان يعذر كل أحد من سلف الأمة من خلفه أو خالف
بعض الأخبار والآثار الاجتهادية غير القطعية رواية ودلالة ، ولم يوجبوا على أحد
أن يتبع أحداً في اجتهاده كما يفعل الخلف المقلدون .

وبناء على هذه القاعدة لم يقبل الإمام مالك رحمه الله تعالى من المنصور أولا
ولا من هارون الرشيد ثانياً أن يحمل المسلمين على العمل بكتبه ولا بالموطأ الذي
هو أصح ما رواه من الأخبار المرفوعة وآثار الصحابة وواظمه عليه جمهور من علماء عصره

﴿القاعدة الرابعة والعشرون -- إلى السابعة والعشرين﴾ بناء أمور الزوجية والبيوت وتربية الأولاد على أربع دعائم :

(١) قيام النساء بالأمور التي تقتضيها وظيفةهن كالرضاعة وغيرها من أمور تربية الأطفال ، ويقوم الزوج بالنفقة كلها

(٢) أن لا يكلف كل منهما ما ليس في وسعه مما يدخل في حدود وظيفته والواجب عليه

(٣) لا يضر أحد منهما بالولد، ولا يغيره بالأولى ، والمضارة دون تكليف ما ليس في الوسع

(٤) إبرام الأمور غير القطعية بالتراضي والتشاور

وهذه القواعد ظاهرة صريحة في آية (٢٣٣) والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضارَّ والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فان أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) ولو عمل المسنون بهذه القواعد وأمثالها من أحكام الكتاب والسنة لسكانوا أسعد الأمم في بيوتهم ، ولما وجد من أعدائهم ولا من زنادقتهم من يهذى باسناد ظلم النساء إلى الاسلام ، أو حاجة المسلمين إلى تقليد غيرهم في شيء من اصلاح البيوت (العائلات)

﴿القاعدة الثامنة والعشرون﴾ جعل سد ذرائع الفساد والشر وتقرير المصالح وإقامة الحق والعدل في تنازع الناس بعضهم مع بعض - مناطا للتشريع وأصلا من أصول الأحكام الاجتهادية ، وذلك أن الله تعالى علل به شرعه للقتال ، ومنته على نبيه داود وجنده بالنصر على عدوهم ، وما ترتب عليه من إيثائه الحكيم والنبوة إذ قال (٢٥١) فهزموهم يأذن الله وقتل داود جالوت وآناه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين) وفي معناه تعليل الاذن للمسلمين في القتال أول مرة بآيات سورة الحج التي استشهدنا بها في القاعدة العشرين (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)

وما هنا أعم ، لأنه يشمل دره هذه المفسدة في الدين وغيرها من الفساد الديني والديني ، وهو المتأخر في النزول

(القاعدة التاسعة والعشرون) أن الإيمان بقاء الله تعالى في الآخرة والاعتصام بالصبر الذي هو من أركان البر وكاله من ثمرات الإيمان سببان من أسباب نصر العدد التقليل على العدد الكثير وذلك قوله عز وجل (٢٥٠) قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

﴿ القاعدة الثلاثون ﴾ تحريم أكل أموال الناس بالباطل في « آية ١٨٨ » وهي أصل لكل المحرمات ومن أدلتها تعميل تحريم الربا بعد الأمر بترك ما كان باقياً لأصحابه منه لدى المدينين بقوله تعالى (٢٨١) فان تبتم فلم كفره وس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) فان الذي كان يقرض المحتاج بالربا إلى أجل اذا حل قال له : إما أن تقضى وإما أن تربي . فان لم يجد ما يقضى به أنبأ له في الدين إلى أجل آخر يمثل الربا الأول فاذا حل الأجل الثاني قال له . إما أن تقضى وإما أن تربي - وهلم جرا - فكل ما يأخذ من هذه الزيادات باطل لا مقابل له وهو ظلم . وأما العقود والمعاملات التي لا ظلم فيها بأكل مال أحد المتعاقدين بالباطل فليست من الربا

﴿ القاعدة الحادية والثلاثون ﴾ أن عمل كل إنسان له أو عليه لا يجزى إلا به ولا يجزى به سواء ، فلا ينفعه عمل غيره ولا يضره ، وذلك قوله تعالى في خاتمة هذه السورة « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ويعززها قوله تعالى في الآية التي وردتها آخر آية نزلت من القرآن ، وأمر النبي ﷺ وضعها بعد آيات الربا من هذه السورة وهي (٢٨١) واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وان لم ترد بصيغة الحصر ، وفيه آيات كثيرة . فقد سبق بيان هذه القاعدة من قواعد العقائد في بعض السور المنكية التي نزلت قبلها ، كقوله تعالى في سورة النجم (٥٣ : ٣٨) ألا تزر وازرة وزر أخرى ٣٩ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) الخ وكقوله في سورة الانعام (٦ : ١٦٥) ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) ويجد القارىء في تفسير هذه الآية من الجزء الثامن ما يؤيد هذه القاعدة من الشواهد وما جعلوه معارضاً لها مخصصاً لعمومها

(البقرة . س ٢) نفى الشفاعة الشركية وكون الدين مبنيا على ادراك العقل ١٢١

من انتفاع الميت والحي بعمل غيره وما يصح منه وما لا يصح ، وكون الصحيح منه لا ينافي عموم القاعدة

(القاعدة الثانية والثلاثون) بيان بطلان الشفاعة الوثنية التي كانت أساس شرك العرب ومن قبلهم وهي التقرب إلى غير الله تعالى بالدعاء وغيره ليشفعوا لهم عند الله تعالى فيكشف ما بهم من ضر ، ويؤتيهم ما طلبوا من نفع ، وزاد عليهم مشركو أهل الكتاب والمؤمنين بالبعث الاعتماد على الشفعاء بالنجاة من عذاب الآخرة قال تعالى (١٠:١٨) ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله (الآية وقد نفى الله تعالى هذه الشفاعة بقوله من هذه السورة خطابا لهذه الأمة (٢٥٣) يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقوله في خطاب بني إسرائيل (٤٧) واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) وفي معناها آية ١٢٢ . وأما الشفاعة الثابتة في الأحاديث فهي غير هذه ولا تنافي التوحيد وكون الشفاعة لله جميعا وسيأتي بيانها

(القاعدة الثالثة والثلاثون) بناء أصول الدين في العقائد وحكمة التشريع على إدراك العقل لها واستنباطها ما فيها من الحق والعدل ومصالح العباد ، وسد ذرائع الفساد ، والشاهد عليه من هذه السورة قوله تعالى في الاستدلال على توحيده بآياته في السموات والأرض وما بينهما (١٦٤) إن في خلق السموات والأرض - إلى قوله - آيات لقوم يعقلون) ثم قوله في إبطال التقليد (١٧٠) وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟) وكذلك قال تعالى بعد ذكر طائفة من الأحكام العملية (٢٤٢) كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون)

﴿ يقول محمد رشيد ﴾ هذا ما فتح الله به عليّ بتصفح صحائف السورة دون تلاوتها ، ويمكن الزيادة عليه بالتأمل فيها وتدبرها ، وإيماننا وعدنا بتأخيصها بالأجمال دون التفصيل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) السَّم (٢) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ

(الم) هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به ، ولا يضر وضع الاسم الواحد ك(ألم) لعدة سور، لأنه من المشترك الذي يعين معناه اتصاله بسماء .. وحكمة التسمية والاختلاف في (الم) و(المص) نفوض الأمر فيها إلى المسمى سبحانه وتعالى . [ويسعدنا في ذلك ماوسع صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم ، وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطم فيخترع مايشاء من العلل ، التي قلما يسلم مخترعها من الزلل .]

هذا ملخص ماقاله شيخنا الأستاذ الامام . وأقول الآن - أولاً - إن هذه الحروف تقراً مقطعة بذكر أسمائها لامسمياتها، فنقول : أَلِفٌ ، لَامٌ ، مِيمٌ ، ساكنة الأواخر لأنها غير داخلية في تركيب الكلام فتعرب بالحركات - ثانياً - إن عدم إعرابها يرجع أن حكمة افتتاح بعض السور المحصورة بها للتنبيه لما يأتي بعدها مباشرة من وصف القرآن والإشارة إلى إعجازه، لأن المكي منها كان يتلى على المشركين للدعوة إلى الاسلام ، ومثل هذه السورة وما بعدها ندعوة أهل الكتاب إليه وإقامة الحجج عليهم به ، وسيأتي توضيح ذلك بالتفصيل في تفسير أول سورة (المص - الأعراف) - ثالثاً - اقتصر على جعل حكمة الإشارة إلى إعجاز القرآن بعض المحققين من علماء اللغة وفنونها كالفرء وقطرب والمبرد والزنجشري وبعض علماء الحديث ، كشيخ الإسلام أحمد تقى الدين ابن تيمية والحافظ المزني ، وأطال الزنجشري في بيانه وتوجيهه بما يراجع في كشفه ، وفي تفسير البيضاوي وغيره - رابعاً - إن أضعف ما قيل في هذه الحروف وأسخفه أن المراد بها الإشارة بأعدادها في حساب الجمل إلى مدة هذه الامة أو ما يشابه ذلك . وروى ابن إسحق

حديثاً في ذلك عن بعض اليهود عن النبي ﷺ وهو ضعيف من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله - خامساً - يقرب من هذا ما عني به بعض الشيعة من حذف المكرر من هذه الحروف وصياغة جعل مما بقي منها في مدح على المرتضى رضى الله عنه أو تفضيله وترجيح خلافته وقبولها بجملة أخرى مثلها تنقض ذلك كما وضعناه في مقالنا (المصلح والمقلد) - سادساً - انه لا يزال يوجد في الناس حتى علماء التاريخ واللغات منهم من يرى أن في هذه الحروف رموزاً إلى بعض الحقائق الدينية والتاريخية ستظهره الأيام .

* (ذلك الكتاب) الكتاب بمعنى المكتوب وهو اسم جنس لما يكتب . والمراد بالكتاب هذه الرقوم والنقوش ذات المعاني . والإشارة تفيد التعمين الشخصي أو النوعي . وليس المراد هنا نوعاً من أنواع الكتب بل المراد كتاب معروف معروف لليهود للنبي ﷺ بوصفه . وذلك العهد مبني على صدق الوعد من الله بأنه يؤيده بكتاب * [تام كامل كافل لطلاب الحق بالهداية والارشاد ، في جميع شؤون المعاش والمعاد] فأشار بذلك إليه . ولا يضر أنه لم يكن موجوداً [كله وقت نزول أمثال هذه الإشارة ، فقد يكفي في صحتها وجود البعض . وقد كان نزل من القرآن جملة عظيمة قبل نزول أول هذه السورة وأمر النبي ﷺ بكتابتها فكتبت وحفظت ، فالإشارة إليها إشارة إليه] بل يكفي في صحة الإشارة أن يشار إلى سورة البقرة نفسها لأنه يصح فيها وصف «هدى للمتقين» والأول أشبه ، والإشارة إلى الكتاب كله عند نزول بعضه إشارة إلى أن الله تعالى منجز وعده للنبي ﷺ بإكمال الكتاب كله ومن حكمة الإشارة إليه بهذا الكتاب (أي المكتوب المرقوم) ان النبي ﷺ أمر بكتابتها دون غيره فهو الكتاب وحده ، ولا يضر أنه عند النزول لم يكن مكتوباً بالفعل لأنك تقول: أنا أملي كتابه ، أو هم أمل عليك كتاباً . والإشارة البعيدة بالكاف يراد بها بعد مرتبته في الكمال ، وعلوها عن متناول قريحة شاعر أو مقول خطيب قوال ، والبعد والقرب في الخطاب الإلهي إنما هو بالنسبة إلى

* (كل ما وضع بين هاتين العلامتين) [فهو زيادة كتبها شيخنا بخطه في حواشي المصنف الأول من هذا الجزء كما تقدم في فاتحتنا

المخلوقين ، ولا يقال : إن شيئاً بعيداً عنه تعالى أو قريباً منه في المكان الحسى لأن كل الأشياء بالنسبة إليه تعالى سواء . وإنما القرب منه والبعد عنه تعالى معنوي وهو أقرب إلينا من أنفسنا بعلمه .

﴿ لاريب فيه ﴾ الريب والريبة الشك والظنة (التهمة) والمعنى : أن ذلك الكتاب مبرأ من وصيات العيب فلا شك فيه ، ولا ريبة تعتريه ، لا من جهة كونه من عند الله تعالى ، ولا في كونه هادياً مرشداً ، ويصح أن يقال : إنه في قوة آياته ، ونصوح بيناته ، بحيث لا يرتاب عاقل منصف ، غير متعنت ولا متعسف ، في كونه هداية مفاضة من سماء الحق ، مهداة إلى الخلق ، على لسان أمي لم يسبق له قبله الاشتغال بشيء من عفوهم ، ولا الاتيان بكلام يقرب منه في بلاغته ، ولا في أسلوبه حتى بعد نبوته ، - ولهذا قال فيما يأتي قريباً (٢٢) وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاطمئنا بسورة من مثله (وحاصله : أنه كذلك في كل من نظمه وأسلوبه وبلاغته ، ومن معانيه وعلومه وتأثيره في الهداية - لا يمكن أن توجه إليه الشبهة ، أو تحوم حوله الريبة ، سواء أشك في ذلك أحد بحجج الله وعى بصيرته - أو بتكلفه ذلك عناداً أو تقليداً - أم لا

﴿ هدى للمتقين ﴾ خير بعد خير^(١) والهدى مصدر في الأصل كالنقي والسمري . والمراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم مع المعونة الخاصة والأخذ باليد على ما تقدم في تفسير المراد من (اهدنا الصراط) لأن كونه هادياً للمتقين بالفعل غير كونه هادياً - دالاً - لسائر الناس من غير مراعاة أخذهم بدلالته ، واستقامتهم على طريقته ، وكلمة « المتقين » من الاتقاء والاسم التقوى وأصل المادة : وفي يقي : والوقاية معروفة المعنى ، وهو البعد أو التباعد عن المضر أو مدافعة ، ولكن نجد هذا الحرف مستعملاً بالنسبة إلى الله تعالى كقوله (فإياي فاتقون - واتقوا الله - واتقون يا أولى الألباب للمك تفلحون) فمعنى اتقاء الله

« ١ » بعض القراء يقف على لفظ « ريب » ويجعل « فيه هدى للمتقين » جملة مستقلة ، وهو ضعيف خلاف المتبادر من النظم . ويرجى قراءة الجمهور وتفسيرهم أول سورة السجدة (ألم . تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين)

تعالى اتقاء عذابه وعقابه ، وإنما تضاف التقوى إلى الله تعالى تعظيما لأمر عذابه وعقابه ، وإلا فلا يمكن لأحد أن يتقى ذات الله تعالى ولا تأثير قدرته ، ولا الخضوع الفطرى لمشيئته .

ومدافعة عذاب الله تعالى تكون باجتناب ما نهى ، واتباع ما أمر ، وذلك يحصل بالخوف من العذاب ومن المعذب ، فالخوف يكون ابتداء من العذاب وفى الحقيقة من مصدره ، فالتقى هو من يحجى نفسه من العقاب - ولا بد فى ذلك أن يكون عنده نظر ورشد يعرف بهما أسباب العقاب والآلام فيمتقيها .

وأقول الآن : إن العقاب الإلهى الذى يجب على الناس اتقاؤه قسمان : دنيوى وأخروى : وكل منهما يتقى باتقاء أسبابه ، وهى نوعان : مخالفة دين الله وشرعه . ومخالفة سننه فى نظام خلقه . فأما عقاب الآخرة فيتقى بالإيمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، والعمل الصالح ، واجتناب ما ينافى ذلك من الشرك والكفر والمعاصى والردائل ، وذلك مبين فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأفضل ما يستعان به على فهمهما واتباعهما سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول وعماء الأمصار ، وأما عقاب الدنيا فيجب أن يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى فى هذا العالم ، ولا سيما سنن اعتدال المزاج وصحة الأبدان ، وأمثلتها ظاهرة ، وسنن الاجتماع البشرى ، فاتقاء الفشل والخللان فى القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها ، وإتقان آلاتها وأسلحتها ، التى ارتقت فى هذا العصر ارتقاء عجيبا . وهو المشار إليه بقوله تعالى (٨ : ٦٠) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده (٨ : ٤٥) يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ٤٦ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فى أمركم فانفسلوا وتذهب ربكم واصبروا إن الله مع الصابرين) ونحن نبين معنى التقوى فى القرآن فى كل موضوع بما يناسبه كالتقوى فى الأكل من الطيبات فى سورة المائدة (٥ : ٩١) ومثله فى سياق تحريم الخمر منها (آية ٩٠) وغير ذلك فيراجع كل شىء فى موضعه . وقال شيخنا فى بيان المراد بهؤلاء المتقين ما معناه :

كان من الجاهليين من مقت عبادة الأصنام ، وأدرك أن فاطر السموات والأرض لا يرضيه الخضوع لها ، وأن الآله الحق يحب الخير ، ويبغض الشر . فكان منهم من اعتزل الناس لذلك . وكانوا لا يعرفون من عبادة الله إلا الالتجاء والابتهاال وتعظيم جانب الر بوبية ، وذلك ما كان يسمى صلاة في لسانهم - وبعض الخيرات التي يبتدى إليها العقل في معاملات الخلق .

وكان من أهل الكتاب من وصفهم الله تعالى بمثل قوله (٣ : ١١٣) من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ١١٤ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) وقوله (٥ : ٨٢) ولتجدن أقر بهم مودة الذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى : ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون * ٨٣ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتمبنا مع الشاهدين) فأمثال هؤلاء من الفرقين هم المراد بالمتقين . ولا حاجة إلى تخصيص ما جاء في وصفهم بالمؤمنين منهم بعد الإسلام أو بالمسلمين ، بل أولئك هم الذين كان في قلوبهم اشتزاز بما عليه أقوامهم ، وفي نفوسهم شيء من التشوف إلى هداية يهتدون بها ، ويشعرون باستعدادهم لها ، إذا جاءهم شيء من عند الله تعالى . فالمتقون في هذه الآية إذن هم الذين سلمت فطرتهم فأصاب عقولهم ضرباً من الرشاد ووجد في أنفسهم شيء من الاستعداد لتلقى نور الحق يحملكهم على توقي سخط الله تعالى والسعي في مرضاته ، بحسب ما وصل إليه علمهم ، وأداهم إليه نظرهم واجتهادهم .

(٤) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ

الايان هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها . وآيته العمل بما يقتضيه الايمان عند عدم الصارف الذي يختلف باختلاف درجات المؤمنين في اليقين . والغيب ما غاب علمه عنهم ، كذات الله تعالى وملائكته والدار

الآخرة . وإقامة الصلاة : الايمان بهذه العبادة الروحية البدنية على أكل وجه ممكن . وللصلاة صورة وروح ، فصورتها عبادة الأعضاء ، وروحها عبادة القلب ، كما يعلم مما أتى ، وجمهور المفسرين على أن هذه الآية في المسلمين من العرب أو مطلقاً ، وما بعدها فيمن أسلم من أهل الكتاب خاصة . وفسرهما شيخنا تفسيراً هو أقرب إلى مدلول النظم ، وإن كان أبعد عن الروايات فقال مأماله :

الناس قسمان مادي لا يؤمن إلا بالحسيات ، وغير مادي يؤمن بما لا يدركه الحس ، أى بما غاب عن المشاعر متى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم . ولا شك أن الايمان بالله ، وملائكته . وهى جنود غائبة لها مزايا وخواص يعلمها سبحانه وتعالى . وباليوم الآخر : إيمان بالغيب . ومن لا يؤمن بالله لا يمكن أن يهتدى بالقرآن ، ومن يتصدى له دايته لا بد له أن يقم الحجة العقلية على أن لهذا العالم إلهاً متصفاً بصفات الكمال التى لا تتحقق الألوهية إلا بها ثم يقنعه بأن هذا القرآن هداية من لدنه تعالى لذلك وصف الله المتقين الذين يهتدون بالقرآن بقوله : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ والايان بالغيب هو الاعتقاد بوجود وراء المحسوس . وقد كتب الأستاذ الامام فى صاحبه ما نصه - :

[وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد وقائم على أول النهج ، لا يحتاج إلا الى من يده على المسلك ، ويأخذ بيده إلى الغاية . فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل ، وإن كانت لا يأتى عليها الحس ، إذا أثقت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض المستعمل عن المادة ولواحقها ، المتصف بما وصف به نفسه على السنة رسله ، سهل عليه التصديق وخف عليه النظر فى جلى المقدمات وخفيها ، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التى استأثر الله بعلمها ، كعالم الملائكة مثلاً يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة . لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف فى مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون فى القرآن هدى لهم .

[وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس ويظن أن لاشئ وراء المحسوسات وما اشتملت عليه ، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده ،

وقلما نجد السبيل إلى قلبه إذا بدأت به بدعواك ، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان في إيراد المقدمات البعيدة ، والأخذ به في الطرق المختلفة ، إلى تقرّيبه مما تطلب ، ولكن هيهات أن ينصرك الصبر ، أو يخضعه القهر ، حتى يتم لك منه الأمر ، فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه ، ولم يجمل من نفسه وقعه فكيف يجد فيه هداية ، أو منقداً من غواية ؟

[ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر في الأفعال ، لأنه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذي يسمونه إيماناً لا يفيد في إعداد القلب للاهتمام بالقرآن - لما كان هذا شأنهم من الله علينا ببيان يشعر بحقيقة ما أرادته تعالى من معنى الإيمان] فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية القرآن بالجل الآتية ، قال ، ﴿ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ الخ . الصلاة اظهر الحاجة والافتقار إلى المعبود بالقول أو العمل أو كليهما ، وهو المراد بقولهم « الصلاة معناها الدعاء » لأن إظهار الحاجة إلى العظيم الكريم ولو بالفعل فقط التماس للحاجة واستدرار للنعمة ، أو طلب لدفع النقمة ، أرايتم أولئك الذين يقفون بين أيدي الملوك ناكسي ره وسهم حاني ظهورهم ، وتارة يقعون على أقدامهم يقبلونها ، أليس الباعث على هذا العمل إما خوف من عقوبة يطلبون به دفعها ، وإما حذر على نعمة يتوقون سلبها ورفعها ، فيلتمسون بقاءها ، ويرجون زيادتها ونماءها ؟

هذه الصلاة كانت توجد عند بعض الجاهليين وهم الذين كانوا يعرفون بالحنيفيين والحنفاء ، وعند بعض أهل الكتاب . وكتب الأستاذ في وصفها ما نصه : [والصلاة بالمعنى الذي ذكرناه قد ظهر في الإسلام في أفضل أشكاله ، وهو تلك الصلاة التي فرضها الله على المسلمين ، فإن هذه الأقوال والأفعال المفتوحة بالتكبير والاحتئمة بالتسليم على النحو الذي جاءت به السنة المتواترة من أفضل ما يعبر به عن الاجساس بالحاجة إلى المعبود ، وشعور الانفس بعظمته لو أقامها المصلون وأتوا بها على وجهها] ولذلك قال (و يقيمون الصلاة) ولم يقل يصلون

وفرق بينهما ، فان الصلاة متى حددت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤديها بتلك الكيفية : إنه صلى ، وإن كان عمله هذا خلواً من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئة الظاهرة ، فاحتيج إلى لفظ يدل على هذا المعنى الذى به قوام الصلاة ، وهو ما عبر عنه القرآن بلفظ الإقامة . وقد قالوا إن إقامة الصلاة عبارة عن الإتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة ، واستيفاء الأركان والسنن . وهو لا يبدو ووصف الصورة الظاهرة ، وإنما قوام الصلاة الذى يحصل بالإقامة : هو التوجه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقى له ، والإحساس بالحاجة إليه تعالى .

وكتب شيخنا عند تفسير الصلاة هنا بما تقدم أخذاً عنه مانصه :

[فإذا خلت صورة الصلاة من هذا المعنى لم يصدق على المصلى أنه أقام الصلاة فإنه قد هدمها بإخلائها من عمادها ، وقتلها بسلبها روحها ، ومن غريب مزاعم من يسمون أنفسهم بالمسلمين : أن حضور القلب فى جميع أجزاء الصلاة واستشعار الخشية من أصعب ما تتجشمة النفس ، بل يكاد يكون مستحيلاً ، لغلبة الخواطر على ذهن المصلى . هذا وأخشى أن يكون هذا جحوداً لمعنى الصلاة ، وإنما عرض لهم هذا الوهم الباطل من شدة الغفلة ، واستحكام العلة ، وإنى أدلهم على طريقة لو أخذوا بها لشغلوا بمعنى الصلاة حتى عن الصلاة نفسها ، تلك الطريقة : هى أن لا ينطق المصلى بلفظ إلا وهو يستورد معناه على ذهنه ، فإذا قال (الحمد لله رب العالمين) يستحضر معنى الحمد وإضافته إلى ذات الله تعالى ، مع وصفه بالربوبية لجميع الأكوان العلوية والسفلية ، وإذا قال مثل (مالك يوم الدين) تصور معنى الملك وتعلقه بذلك اليوم يوم الجزاء ، وهكذا — فإذا أخذ المصلى على نفسه أن يتصور المعانى من ألفاظها التى ينطق بها فقد أقام الصلاة ، أما وهو ينطق ولا يفقه ولا يلحظ بذهنه معنى لفظ ما يقول ، فكيف يزعم أنه يصلى ، فضلاً عن أنه يقيم الصلاة ؟]

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أقول : الرزق فى اللغة النصيب والعطاء و يطلق على

الحسبى والمعنوى ، كالمال والولد والعلم والتقوى . ويخص بأمور المعاش بقريضة حالية أو لفظية ، وقال علماء أهل السنة : الرزق ما انتفع به ، حلالاً كان أو حراماً ، وخصه

المعتزلة بالحلال . ونفاق الشيء كنفاده . وأنفقه جعله ينفق بصرفه وإخراجه من يده . وقال الجمهور: إن الانفاق هنا يشمل النفقة الواجبة على الأهل والولد وذى القربى وصدقه التطوع ، إذ الآية نزلت قبل فرض الزكاة المعينة . وقوله تعالى (ومما رزقناهم) يدل على أن النفقة المشروعة تكون بعض ما يملك الإنسان لا كل ما يملك — فهو ركن من أركان الاقتصاد . والانفاق في سبيل الله أظهر آيات الايمان الصحيح . وقال شيخنا شارحاً ذلك على طريقته بما مثاله :

هذا الوصف من أقوى أمارات الايمان بالغيب ، لأن كثيراً من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم ، ومتى عرض لهم ما يقتضى بذل شيء من المال لله تعالى يمسكون ولا تسمح أنفسهم بالبذل ، وليس المراد بالانفاق هنا ما يكرن على الأهل والولد ، ولا ما يسمونه بالجوود والكرم ، كقرى الضيوف ابتغاء عوض كالشهرة والجاه ، أو الأناس بالأصحاب ، لأن هذا ليس من آثار الايمان بالغيب ، وإنما هو الإنفاق الناشئ عن شعور بأن الله تعالى هو الذى رزقه وأنعم عليه به ، وأن الفقير المحروم عبد لله مثله ، وأنه حرم من سعة العيش لضعف أو حرمان من الاسباب التى توصل إلى الرزق [أو عن إحساس بأن مصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافعهم العامة لا تقوم أو لا تصل إليهم الا ببذل المال ، وقد أوجب الله على من أوتي المال أن ينفق منه في ذلك السبيل وهو أفضل سبل الله] فمن يجد من نفسه داعية لبذل أحب الأشياء إليه - وهو ماله - ابتغاء مرضاة الله تعالى وقياماً بشكره ، ورحمة لأهل العوز والباسين من خاتمه ، فهو لاشك مستعد لقبول هداية القرآن أتم الاستعداد ، حتى إذا ما دعى إليه لبي وأجاب ، وأسلم إلى الله تعالى وأتاب .

فهذا بيان حال الفرقة الأولى ممن يهتدى بالقرآن فعلاً ويشملها العظ المتقين بالمعنى السابق ، وكان منهم بعض العرب الخنفاء ، و بعض أهل الكتاب الصالحاء كما سبق بيانه . والمراد من كون القرآن هدى لهذه الفرقة أنها مستعدة لقبوله ، ومهيأة للاسترشاد به ، لأن الايمان الاجمالي بالله وبجياة أخرى بعد هذه الحياة يوفى الناس فيها أجورهم بحسب أعمالهم البدنية والنفسية ، واتقاء ما يحول دون

السعادة في هذه الحياة بحسب الاجتهاد الناقص والتعليم الذي لم يقتنع به العقل . ولم تسكن إليه النفس ، قد هياهم لقبول القرآن وأن يقتبسوا من نوره ما يذهب بظلمات الجهل والحيرة ، ويمتج الأرواح ما تتشوف إليه بمقتضى الفطرة .
وبعد أن بين حال هذه الفرقة التي يكون الكتاب هدى لها [يخرجها من ظلمات الشك إلى نور اليقين ، وينكب بها عن مهاب رياح الفكر إلى مستقر السكينة . ومستكن الطائفة ، بما تعرفه النفس من جانب القدس -] عطف عليها بيان حال الفرقة التي اهتدت به فعلا ، وصار إماما لها تتبعه في جميع أعمالها ، دون أن تغض عينها عنه . بعد أن أضاء لها ما أضاء منه ، فقال عز من قائل .

(٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

أقول: روى عن ابن عباس (رض) أن المراد بالمؤمنين هنا من يؤمن بالنبي والقرآن من أهل الكتاب ، وبالمؤمنين فيما قبلها من يؤمن من مشركي العرب . واختاره ابن جرير وآخرون . وعن مجاهد وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة أن المؤمنين في الآيتين قسم واحد، وهو كل مؤمن وإنما تعدد ما يؤمنون به . فالعطف فيهما عطف الصفات لا عطف الموصوفين . وثم قول ثالث شاذ، وهو أن الآيتين في مؤمنى أهل الكتاب . وقد بينا قول شيخنا وسيأتي شرحه . والمراد على كل رأى من قوله تعالى ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ الإيمان التفصيلي بكل ما أنزله الله تعالى في القرآن . وأما قوله ﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ فيكون فيه الإيمان الإجمالي . وقال شيخنا ما مثاله :

هذه هي الطبقة الثانية من المتقين وأعيد لفظ (الذين) لتحقيق التمايز بين الطبقتين . وهذه الطبقة أرق من الطبقة الأولى، لأن أوصافها تقتضى الأوصاف التي أجريت على تلك وزيادة ، فالقرآن يكون هدى لها بالأولى ، ومعنى كونه هدى لها : أنه يكون إمامها في أعمالها وأحوالها ، لا نحيدها عن النهج الذي نهجه لها ، كما ذكرنا .

ما كل من أظهر الإيمان بما ذكر مهتد بالقرآن . فالمؤمنون بالقرآن على ضروب شتى ، ونرى بيننا كثيرين ممن إذا سئل عن القرآن قال : هو كلام الله ولا شك ولكن إذا عرضت أعماله وأحواله على القرآن تراها مباينة له كل المباينة . القرآن ينهى عن الغيبة والنميمة والكذب ، وهو يفتاب ويسعى بالنيمة ولا يتأثم من الكذب . القرآن يأمر بالفكر والتدبر، وهو كما وصف القرآن المكذبين بقوله تعالى فيهم : (٥١ : ١١ الذين هم في غمرة ساهون) لا يفكر في أمر آخرته ، ولا في مستقبله ولا مستقبل أمته ، ولا يتدبر الآيات والنذر ، ولا الحوادث والعبر .

إن المؤمن الموقن المذكور في الآية الكريمة هو الذى يزين أعماله وأخلاقه باستكمال ما هدى إليه من القرآن دائماً ، ويجعله معياراً يعرض عليه تلك الأعمال والأخلاق ، ليتبين : هل هو مهتد به أم لا ؟ مثال ذلك : الصلاة . يصفها القرآن بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقال فى المصلين (٧٠ : ٢٩ - ٢٣) إن الإنسان خلق هلوعاً * إدامسه الشر جروحاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين (

فيبين أن الصلاة تقتلع الصفات الذميمة الراسخة التى تمكاد تكون فطرية . فمن لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر ، ولم تقتلع من نفسه جذور الجبن والهلوع . وتصطم جرائم البخل والطمع ، فليعلم أنه ليس مصلياً فى عرف القرآن ، ولا مستحقاً لما وعد عباده الرحمن .

أما لفظ «الإنزال» فالمراد به ماورد من جانب الربوبية الرفيع الأعلى ، وأوحى إلى العباد من الإرشاد الألهى الأسمى ، وسعى إنزالاً لما فى جانب الألوهية من ذلك العلو . علو الرب على المربوب ، والخالق على المخلوقين ، الذين لا يخرجون بالتكريم والاصطفاء عن كونهم عبيدا خاضعين . وقد سعى القرآن غير الوحي من إهداء النعم الالهية إنزالاً فقال (٥٧ : ٢٥) وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس فنكتفى بهذا من معنى الإنزال ، وهو ما يفهمه كل عربى ، من حاضر وبدوى .

وأقول الآن : إننى كنت اكتفيت بهذا القدر فى تفسير الإنزال ، تحامياً لما فى المسألة من خلاف وجدال ، ولكننى عدت فى التفسير إلى فصل المقال فى مسائل النزاع ، فأزيد عليه أن إنزال الحديد فيه أقوال أخرى للسلف والخلف ، كقوله تعالى

(٦:٣٩) وأُنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج) أوضحها أن المراد إنزال الاحكام المتعلقة بها . وقيل : إن الحديد نزل من الجنة مع آدم . ومن المعلوم أن الانزال في أصل اللغة وهو نقل الشيء من مكان على إلى مادونه ، ويطلق العلو مجازاً في الأمور المعنوية ، فهو علو مكان وعلو مكانة . ومن الثانی (٨٣.١٠) وإن فرعون لعالم في الارض) والتحقيق أن علو المكان الحسى أمر نسبي يختلف باختلاف موقع الناس من الأشياء ، والجهات كلها أمور نسبية لاحقيقية ، وأن الله سبحانه وتعالى فوق جميع خلقه بأن منهم ، بلا تشبيه ولا تمثيل ، لا متصل بشيء ولا حال فيه ، مستوعب عرشه بالمعنى الذى أراد ، وهذا وجه تسمية ما يأتى من لدنه إنزالاً ، فلك الوحي كان يتلقى الوحي منه عز وجل وينزل به من السماء إلى الأرض فيتلقاه منه النبي ﷺ ولا تعلم صفة تلقى الملك عن الله تعالى لأنه من الغيب الذى تؤمن به مجمل كما بلغناه ، ولا صفة تلقى النبي ﷺ من جبريل لأنه من شأن النبوة ولسنا بأنبياء ، وهو من الصلة بين عالم الغيب والشهادة . ولكن الله وصف لنا تكليمه للبشر بقوله (٥١:٤٢) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) الآية - وقوله (٢٦ : ١٩٣) نزل به الروح الأمين ١٩٤ على قلبك لتكون من المنذرين ١٩٥ بلسان عربى مبين) ووصفه لنا رسوله (ص) فى جوابه لمن سأله عنه ، وهو الحارث بن هاشم الخزومى فقال « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفضم عنى وقد وعيت ما قال . وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول » رواه الشيخان من حديث عائشة (رض) ثم قال تعالى :

﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ أما لفظ (الآخرة) فقد ورد فى القرآن كثيراً والمراد به الحياة الآخرة أو الدار الآخرة حيث الجزاء على الأعمال ، ويتضمن كل ماوردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء على الأعمال ، ويتضمن كل ماوردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء بالجنة والنار

وأما اليقين فهو الاعتقاد المطابق للواقع الذى لا يقبل الشك ولا الزوال ، فهو اعتقادان - اعتقاد أن الشيء كذا ، واعتقاد أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا .

وأقول الآن : هذا مقاله شيخنا فى الدرس ، وهو عرف علماء المعقول من المنطقيين والمتكلمين وقد جاريناه عليه فى مواضع ، وأما اليقين فى اللغة فهو

الاعتقاد الجازم في غير الحسيات والضروريات كما صرحوا به ، فالجزم بخبر الصادق والاعتقاد المبني على الأدلة والامارات يسمى يقيناً إذا كان ثابتاً لا شك فيه . وفي لسان العرب : أن اليقين العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر ، وهو نقيض الشك ، والعلم نقيض الجهل . فالإيمان الشرعي يشترط فيه اليقين اللغوي فقط وهو التصديق الجازم الذي لا شك فيه ولا تردد ، ولا ملاحظة طرف راجح على طرف مرجوح فان هذا هو الظن . واليقين المنطقي أكل . وهو ما بني عليه شيخنا ما يأتي مبسوطاً لاملخصاً ، قال مامعناه :

[وصفهم بأنهم موقنون بالآخرة لأنهم مؤمنون بالقرآن ، ولم يصف بهذا الوصف الطائفة الأولى لأنها وإن كانت تؤمن بالغيب وتتوجه إلى الله تعالى بالصلاة المخصوصة بها وتتفق ممارزتها الله ، فذلك لا ينافي أنها في حيرة من أمر البعث والجزاء ، وكذلك كانت قبل الإيمان بالقرآن . وكان من هداية القرآن لها : أن خرج بها من غمرات تلك الحيرة

لا يعتمد بما دون اليقين في الإيمان . وقد قال الله تعالى في اعتقاد قوم (٥٣ : ٢٨) ومالم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) وإذا لم يكن الظان موقناً وعلى نور من ربه في اعتقاده ، فما حال من هو دونه من الشاكين والمرتابين ؟ ويعرف اليقين في الإيمان بالله واليوم الآخر بآثاره في الاعمال .

إننا نرى الرجل يأتي إلى المحكمة بدعوى زور يريد أن يأكل بها حق أخيه بالباطل أو يجامل آخر بشهادة زور ، أو ينتقم بها من ثالث ، وهو يعلم أنه مزور ومبطل ، فيقال له : اتق الله أن أمامك يوماً (يعض الظالم فيه على يديه) فيقول أعوذ بالله أنا أعلم أن أمامي يوماً ، وأن أمامي شبراً من الأرض - يعني القبر - والدنيا لا تغني عن الآخرة . ويحلف اليمين الغموس باسم الله تعالى أنه محق في دعواه أو في شهادته ، ثم يظهر التحقيق أنه مزور ، ويضطره إلى الاعتراف والاقرار بذلك ، فكان الإيمان بالله واليوم الآخر عنده خيال يلوح في ذهنه عند ما يريد الخلاية والخداع لأجل أكل الحقوق أو إرضاء الهوى ، ولا يظهر له أثر في أعماله وأحواله كأثر الاعتقاد

ببعض المشايخ الميتين ، كما بينا ذلك من قبل]

[فثبُل هذا الإيمان - وإن تعارف الناس على تسميته تلك - ليس من الإيمان الذي يقوم على ذلك المعنى من الايقان ، ويظهر أثره في الجوارح والأركان]
ثم قال بعد كلام في آثار اليقين : اليقين إيمانك بالشئ ، والاحساس به من طريق وجدانك كأنك تراه [بأن يكون قد بلغ بك العلم به أن صار مالكاً لنفسك مصراً لها في أعمالها ، ولا يكون العلم محققاً للإيمان على هذا الوجه حتى تكون قد أصبته من إحدى طريقتين (الأولى) النظر الصحيح فيما يحتاج فيه إلى النظر كالإيقان بوجود الله ورسالة الرسل ، وذلك بتخليص المقدمات ، والوصول بها إلى حد الضروريات ، فأنت بعد الوصول إلى ما وصلت إليه كأنك تراه ما استقر رأيك عليه (والطريق الأخرى) خبر الصادق المعصوم بعد أن قامت الدلائل على صدقه وعصمته عندك ، ولا يكون الخبر طريقاً لليقين حتى تكون سمعت الخبر من نفس المعصوم صلى الله عليه وآله أو جاءك عنه من طريق لا يحتمل الريب ، وهي طريق التواترون سواها ، فلا ينبوع لليقين بعد طول الزمن بيننا وبين النبوة إلا سبيل المتواترات التي لم يختلف أحد في وقوعها ، فالإيقان بالمغيبات كالآخرة وأحوالها والملا الأعلى وأوصافه ، وصفات الله التي لا يهتدى إليها النظر ^(١) لا يمكن تحصيله إلا من الكتاب العزيز ، وهو الحق الذي جاءنا من الله لا ريب فيه ؛ فعملينا أن نقف عند ما أنبأ به من غير خلط ولا زيادة ولا قياس .

وأكد الإيقان بالآخرة بقوله (هم) اهتماماً بشأنه وليبين أن الإيقان بالآخرة خاصة من خواص الذين آمنوا بالقرآن وبما أنزل قبله من الكتب لا يشركهم فيه سواهم . وقد علمت أنه لا بد أن يكون الموقن به من أحوال الآخرة قطعياً . فهذه الإضافات التي أضافوها على أخبار الغيب وخلقوا لها الأحاديث بل أضافوا إليها أيضاً أقوال أهل الكتاب وأشياء أخرى نسبوها إلى السلف ، وبعض

(١) يعني أن صفات الربوبية منها ما يعرف بالنظر والاستدلال كعلمه تعالى وقدرته ومشيبته وحكمته ووحدته . ومنها ما لا يعرف به بل يتوقف على الوحي وخبر المعصوم عنه ، ومنها ما جعله المتكلمون من التشابهات كالرضى والغضب والوجه واليد . وسياق بيانه في محله . وراجع تفسير التشابهات في تفسير أوائل سورة آل عمران

غرائب جاءت على لسان المنتسبين للتصوف لا تدخل فيما يتعلق به اليقين ، بل الجهل بالكثير منها خير من العلم به ، فإنما الوصف الذي يمتاز به أهل القرآن هو اليقين ، ولا يكون اليقين إلا حيث يكون القطع . وأما الظن فهو وصف من عابهم القرآن وأزرى بهم ، فلا علاقة له بأجوالهم ^(١)

(٤) أَوْلَيْكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ههنا إشارتان والمشار إليه عند الجمهور واحد وهو مافى الآيتين السابقتين من المؤمنين من غير أهل الكتاب والمؤمنين منهم ، وكرر الإشارة للاعلام بأنه لا بد من تحقق الوصفين لتحقيق الحكم بأنهم على هدى وأنهم هم المفلحون . كذا قال بعضهم وهو تكلف ظاهر ، وكذا قولهم : إن تنكير هدى هنا للتعظيم . وشيخنا قد جعل الإشارتين لنوعى المؤمنين المذكورين فى الآية السابقة بأسلوب اللف والنشر المرتب قال إن الإشارة الأولى (أولئك على هدى من ربهم) فى هذه الآية للفرقة الأولى وهم الذين ينتظرون الحق لأنهم على شىء منه — كما يدل عليه تنكير «هدى» الدال على النوع — وينتظرون بيانا من الله تعالى ليأخذوا به ، ولذلك قبلوه عند ما جاءهم . فقد أشر الله قلوبهم الهداية ، بما آمنوا به من الغيب ، وأقاموا الصلاة بالمعنى الذى سبق ، وأنفقوا مما رزقهم الله ، وأما الفرقة الثانية وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشرك فيه تلك الفرقة الأولى ؛ لكن على وجه أكمل ، لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به . وقوله «على هدى» تعبير يفيد التمكن من الشىء كتمكن المستقر عليه ، كقولهم «ركب هواه» ولقد كان أفراد تلك الفرقة (أى الأولى) على بصيرة وتمكن من نوع الهدى الذى كانوا عليه ، فإن كان هذا غير كاف لإسعادهم وفلاحهم ، فهو كاف لإعذابهم وتأهيلهم لها بالإيمان التفصيلى المنزل ، ولذلك قبلوه عند ما بلغتهم دعوته .

وإلى الفرقة الثانية وقعت الإشارة الثانية ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ كما هو ظاهر ، وهم المفلحون بالفعل لانصاقهم بالإيمان الكامل بالقرآن وبما تقدمه من

(١) بين القطع والظن المنطقيين يقين هو اليقين اللغوى كما تقدم .

الكتب السماوية واليقين بالآخرة - لا مطلق الايمان بالغيب إجمالاً ، ويرشد إلى التباين بين مرجع الاشارتين ترك ضمير الفصل « هم » في الأولى وذكره في الثانية . ولو كان المشار إليه واحداً لذكر الفصل في الأولى ، لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام ، فهو خاص بهم دون سواهم ، لكنه اكتفى عن التخصيص على تمكنهم من الهدى بمحصر الفلاح فيهم . ومادة الفلح تفيده في الأصل معنى الشق والقطع ، ومثلها مادة الفلج بالجم والفلخ بالحاء والفذ والفلح والفلع والفلق ، والفعل والفلم . ويطلق الفلاح والفلج على الفوز بالطلب ، ولكن لا يقال أفلح الرجل إذا فاز مرغوبه عفواً من غير تعب ولا معاناة ، بل لابد في تحقيق المعنى اللغوي لهذه المادة من السعي إلى الرغبة والاجتهاد لا درا كها ، فهؤلاء ما كانوا مفلحين إلا بالايمن بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله . واتباع هذا الايمان بامتثال الأوامر واجتناب النواهي التي نيط بها الوعد والوعيد فيما أنزل إليه ﷺ مع اليقين بالجزاء على جميع ذلك في الآخرة ، ويدخل في هذا كله ترك الكذب والنور وتزكية النفس من سائر الرذائل كالشره والطمع والجهن والهلع والبخل والجور والقسوة وما ينشأ عن هذه الصفات من الأفعال الذميمة ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، والانغماس في ضروب اللذات . كما يدخل فيه الفضائل التي هي أضداد هذه الرذائل المتروكة وجميع ماصحها القرآن عملاً صالحاً من العبادات وحسن المعاملة مع الناس | والسعي في توفير منافعهم العامة والخاصة مع التزام العدل والوقوف عند ماحذه الشرع القويم ؛ والاستقامة على صراطه المستقيم [وجملته القول : أن الايمان بما أنزل إلى النبي ﷺ هو الايمان بالدين الإسلامي جملة وتفصيلاً ، فما علم من ذلك بالضرورة ولم يخالف فيه مخالف يعتمد به ، فلا يسمع أحداً جهله ، فالايمن به إيمان ، والاسلام لله به إسلام ، وإنكاره خروج من الاسلام . وهو الذي يجب أن يكون معقد الارتباط الإسلامي وواسطة الوحدة الإسلامية ، وما كان دون ذلك في الثبوت ودرجة العلم فهو كقول إلى اجتهاد المجتهدين ، ولا يصح أن يكون شيء من ذلك مشاراً لاختلاف في الدين زاد الأستاذ هنا بخطه عند قولنا : اجتهاد المجتهدين مانصه :

[أو ذوق العارفين أو ثقة الناقلين بمن نقلوا عنه ليكون معتمدهم فيما يعتقدون بعد التحري والتحخيص . وليس لهؤلاء أن يلزموا غيرهم ما ثبت عندهم ، فإن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به لا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه في الحال مثل ما للناقل معه ، فلا بد أن يكون عارفاً بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه ، ونحو ذلك ما يطول شرحه ، ويحصل الثقة للنفس بما يقول القائل]
وأقول : معنى هذا أن بعض أحاديث الآحاد تكون حجة على من ثبتت عنده واطمأن قلبه بها ، ولا تكون حجة على غيره يلزم العمل بها ، ولذلك لم يكن الصحابة رضي الله عنهم يكتبون جميع ما سمعوا من الأحاديث ، ويدعون إليها مع دعوتهم إلى اتباع القرآن والعمل به و بالسنة العملية المتبعة المبينة له إلا قليلاً من بيان السنة ، كصحيفة على رضي الله عنه المشتملة على بعض الأحكام كالدية وفكك الأسير وتحريم المدينة كسكة . ولم يرض الامام مالك من الخليفين المنصور والرشيد أن يحملوا الناس على العمل بكتبه حتى الموطأ . وإنما يجب العمل بأحاديث الآحاد على من وثق بها رواية ودلالة . وعلى من وثق برواية أحد وفهمه لشيء منها أن يأخذه عنه ، ولكن لا يجعل ذلك تشريعاً عاماً . وأما ذوق العارفين ، فلا يدخل شيء منه في الدين ، ولا يعد حجة شرعية بالإجماع ، إلا ما كان من استفقاء القلب في الشبهات ، والاحتياط في تعارض البينات .

(٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غَشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

قال الأستاذ : كان الذي تقدم بيانا من الله تعالى لصنفين من الناس لهم في القرآن هداية ولنفسهم إلى الهداء به انبعاث (الأول من الصنفين) أولئك الذين بلغهم لأول مرة ، وهم ممن يخشى الله ويهاب سلطانه ، وفي أصول اعتقادهم الإيمان بما وراء الحس على ما تقدم (والثاني) أولئك الذين آمنوا بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله

[وهذا الصنف قد يجتمع مع الذي قبله فيمن كانوا متقين مؤمنين بالغييب ، ثم آمنوا بالنبي وبما جاء به ، وقد يفترق الصنفان فيمن بقي إلى اليوم لم يتلقه الدعوة ، وهو على تلك الأوصاف ، ومن ولد من آباء مؤمنين ثم صدق إيمانه بعد أن أبلغ رشده وملاك عقله]

أما هاتان الآيتان فقد بينتا حال طائفة ثالثة من الناس ، وهم الكافرون ، ثم يبين قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الخ حال طائفة أخرى أخص منها وهم المنافقون ، الذين يظهر من أقوالهم وفي بعض أفعالهم أنهم مؤمنون ، ولكنهم في حقيقة أمرهم كافرون ، بل شر من الكافرين [فهذه أقسام أربعة ينقسم إليها الناس إذا بلغهم القرآن ونظروا فيه ، ودعوا إلى الإيمان والاخذ بهديه]

بين الله تعالى لنبيه أنه إذا كان يوجد في الناس من لا يؤمن بالقرآن فليس هذا عيباً وتقصيراً في هداية الكتاب ، وإنما العيب فيهم لافي الكتاب ، لأنه هداية كسائر الهدايات الطبيعية التي أعرض الناس وعموا عنها [كهداية العقل والسمع والبصر ونحوها مما أكرم الله به هذا النوع البشري ، وقد يحكم الرجل بأن في العمل مضرة تلحق به ، ومع ذلك يعدل عن حكمه انتهازاً للذة [زينها له حسه أو وهمه ، ويأتي ذلك العمل على ما يعلم من سوء مغيبته ، فاحتقار الرجل لعقل نفسه لا يعد عيباً في تلك الموهبة الالهية ، ولا يحط من شأن النعمة فيها . أنظر إلى رجل يغمض عينيه ويمشي في طريق لا يعرفها فيسقط في حفرة وتتحطم عظامه ، هل ينقص ذلك من قدر بصره ، ويبخس من حق الله في الاحسان به ، على هذا الذي لم يرد أن يستعمله فيما خلق له] ففي الكلام تسلية لأهل الحق ، وسيدم هو النبي ﷺ ، فهو تسلية له أولاً وبالأولى

قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أقول : هذا بيان لحال القسم الثاني من أقسام الناس تجاه هداية القرآن ، وقد قطعه وفصله مما قبله ، فلم يعطفه عليه للإشارة إلى ما بينهما من طول شقة الانفصال وعدم المشاركة في شيء ما ، بخلاف القسم الثالث الآتي ، فإن لهم حظاً منه في الدنيا ولن يتوب منهم حظ في الآخرة أيضاً .

والكفر في اللغة : ستر الشيء وتغطيته وإخفاؤه ، ولذلك وصف به الليل والبحر

والزراع في قوله تعالى (٥٧: ٢٠) كمثل غيث أعجب الكفار نباته) لأنهم يغطون الحب بالتراب - وفعله من باب نصر . وقال الفارابي وتبعه الجوهري من باب ضرب وهو خطأ كما في المصباح - ومن الحجاز: كفر النعمة بعد شكرها وذكرها تنويهاً بها ، وكذا الكفر بالله أو بوحدايته وصفاته ، أو كتبه ورسله وما جاءه وابه عن الله تعالى ، أى إنكاره وعدم التصديق به والاذعان له ولا سيما الشرك في عبادته - كل ذلك من ضروب الستر والتغطية السلبية في الأمور المعنوية ، فهو مجازفة . وحقبة شرعية في معناه الشرعى المشار إليه آنفاً . والمراد بالذين كفروا هنا من علم الله تعالى أن الكفر رسخ في قلوبهم حتى فقدوا الاستعداد للإيمان . وقال شيخنا: الكفر هنا عبارة عن جحود ما صرح الكتاب المنزل أنه من عند الله أو جحود الكتاب نفسه ، أو النبي الذى جاء به ، وبالجملة ما علم من الدين بالضرورة [بعد ما بلغت الجاحد رسالة النبي (ص) بلافاً صحيحاً ، وعرضت عليه الأدلة على صحتها لينظر فيها فأعرض عن شيء من ذلك وجحده عناداً أو تساهلاً واستهزاءً ، نعى بذلك أنه لم يستمر في النظر حتى يؤمن] ولم نسمع أن أحداً من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كفر أحداً بما وراء هذا . فما عداه من الأفاعيل والأقويل المخالفة لبعض ما أسند إلى الدين ولم يصل العلم بأنه منه إلى حد الضرورة - أى لم يكن سنده قطعياً كسند الكتاب - فلا يعد منكراً كافراً إلا إذا قصد بالإنكار تكذيب النبي ﷺ فمضى كان للمنكر سند من الدين يستند إليه فلا يكفر [وإن ضعفت شبهة في الاستناد إليه مادام صادق النية فيما يعتقد ، ولم يستهن بشيء مما ثبت بالقطع وروده عن المعصوم ﷺ]

وقد تجرأ بعض المتأخرين على تكفير من يتناول بعض الظنيات ، أو يخالف شيئاً مما سبق الاجتهاد فيه ، أو ينكر بعض المسائل الخلافية ، تجرأوا الناس على هذا الأمر العظيم ، حتى صاروا يكفرون من يخالفهم في بعض العادات ، وإن كانت من البدع المحظورات [ثم هم على عقائد الكافرين ، وأخلاق المنافقين ، ويعملون أعمال المشركين ، ويصفون أنفسهم بالمؤمنين الصادقين]

الكافرون أقسام: (منهم) من يعرف الحق وينكره عناداً ، وهؤلاء هم الأقلون

(البقرة س : ٢) الكفار الذين غلبتهم هموم الشهوات والأوهام على الحق ١٤١

ولا ثبات لهم ولا قوام ، وكان منهم في زمن النبي ﷺ جماعة من المشركين واليهود ولم يلبثوا أن انقرضوا

قال الاستاذ : كنت قلت في هذا المعنى كلمة جديدة بأن تحفظ وهي « إن جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم ^(١) كلاهما قليل في الناس »

(ومنهم) من لا يعرف الحق ولا يريد ولا يجب أن يعرفه وهم الذي قال الله تعالى فيهم (٨: ٢٢، ٢٣) إن شر الذواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (فهؤلاء كلما صاح بهم صاح الحق فزعوا ونفروا ، وأعرضوا واستكبروا ، ففي أنفسهم شعور بالحق ولكنهم يجدون فيها ذنبا ، كلما لاح لهم شعاعه يوجبونه عن أعينهم بأيديهم ، وسبب ذلك : أنهم لم يستعملوا أنظارهم في فهم الحق ، ويخافون لو استعملوها أن ينقصهم شيء مما يظنونه خيراً ، ويتوهمون معقوداً بعقائدهم التي وجدوا عليها آباءهم وساداتهم

[ومنهم : من مهضت نفسه واعتل وجدانه ، فلا يذوق للحق لذة ، ولا يجد نفسه فيه رغبة ، بل انصرف عنه إلى هموم أخر ملكت قلبه وأسرت فؤاده ، كالهوم التي غلبت أغلب الناس اليوم على دينهم وعقولهم ، وهي ما استغرقت كل ما توفر لديهم من عقل وإدراك ، واستنفدت كل ما يملكون من حول وقوة ، في سبيل كسب مال أو توفير لذة جسمانية ، أو قضاء شهوة وهمية ، فعسى عليهم كل سبيل سوى سبيل ما استهلكوا فيه ، فاذا عرض عليهم حق أو ناداهم إليه مناد ، رأيتهم لا يفهمون ما يقول الداعي ، ولا يميزون بين ما يدعوا إليه ، وبين ما هم عليه ، فيكون حظ الحق منهم الاستهزاء والاستهانة بأمره ، فاذا وعدهم أو وعدهم النذير ، قالوا لا نصدق ولا نكذب ، حتى تنتهي إلى ذلك المصير ، وهذا القسم كالذي قبله كثير العدد في الناس في كل زمان ومكان ، خصوصاً في الأمم التي يفشو فيها الجهل ، وتنطمس من أفرادها أعين الفطرة ، وتنضب من أنفسهم ينابيع الفضائل ، فيصبحون كالبيائم السائمة ، لا هم لهم إلا فيما يملأ بطونهم ، أو يداعب أوهامهم ،

(١) يعني اليقين المتطقي الذي ينتهي العلم به إلى حد الضرورة ، كما تقدم .

واشراطه في الإيمان الشرعي يقتضى قلة المؤمنين في كل زمان .

ويصح جمع هذين القسمين تحت قسم واحد وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين ، والقسم الأول هو قسم المعاندين المنكابين [

فكل من هذه الفرق سواء عليهم أن نذرتهم^(١) أم لم تنذرهم* الانذار الاخبار والاعلام بالشيء المقترن بالتخويف مما يقرب عليه من فعل يتضمن ذمه وطلب تركه أو ترك الأمر يتضمن مدحه وطلب فعله، نصاً أو اقتضاء ، والسواء اسم مصدر بمعنى الاستواء . والمعنى : أن الذين كفروا ولم يدخلوا في قسم المستعدين للايمان فرسوخهم في الكفر ، يستوى الانذار وعدمه بالنسبة إليهم في الواقع ، فالذي يعرض عن النور مع العلم به ويغمض عينيه كيلا يراه بغضاً له لذاته أو تأدياً به ، أو عناداً وعدواة لمن دعاه إليه - ماذا يفيد النور ، وماذا يعيب النور من إعراضه ؟ والذي لا يعرف النور ولا يجب أن يعرفه لأن فساد طبيعته وخبث تربيته أنه عنه وأبعده ، وجعله يألف الظلمة كالخفاش ، [أو أفسد الجهل وجدانه فأصبح لا يميز بين نور وظلمة ، ولا بين نافع وضار ، ولا بين لذيد ومؤلم ، ماذا عساه يفيد النور مهما سطع ، أو يؤثر فيه الضوء مهما ارتفع ؟]

* لا يؤمنون* أقول: هذه جملة مفسرة لتساوى الانذار وعدمه في حقهم لا في حقه صلوات الله وحق دعاه دينه ، فهم يدعون كل كافر إلى دين الله الحق ، لأنهم لا يميزون بين المستعد للايمان وغير المستعد له ، إذا هو أمر لا يعلمه إلا الله تعالى ثم وصف سبحانه فقدّم لهذا الاستعداد ، ورسوخهم في الكفر الذي لم يبق

(١) في اجتماع مثل هاتين الهمزتين قرأت تتعلق بالأداء دون المعنى: قرأها الكوفيون وابن ذكوان بتحقيق الهمزتين ، وهي لغة بني تميم ، وأهل الحجاز يخففون فقرأ الحرميان من القراء وأبو عمرو وهشام بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية وأبو عمرو وقاتلون واسماعيل عن نافع وهشام يدخلون بينهما ألفاً في هذه الحالة ، وابن كثير لا يدخل . وروى عن هشام تحقيقهما مع إدخال ألف بينهما . وعن ورش كابين كثير وكفألون إبدال الثانية ألفاً فيلتقي بها كتمان على غير حده ، وفاقاً للكوفيين وخلافاً للبصريين . والبصريون إنما ينعون جملة قياساً ولكنهم لا يستطيعون رد ما ثبت بالتواتر سهاواً ولا سيما القرآن .

معه محل لغيره بهذا التعبير البليغ ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى
أبصارهم غشاوة ﴾ قال الراغب : الختم والطبع يقال على وجهين : مصدر ختمت
وطبعت ، وهو تأثير الشيء كتنقش الخاتم والطابع (والثاني) الأثر الحاصل عن
النقش ، وينجوز بذلك تارة في الاستيشاق من الشيء والمنع منه اعتباراً بما يحصل
من المنع بالختم على الكتب والأبواب نحو (ختم الله على قلوبهم * وختم على قلبه
وسمعه) - إلى أن قال - فقوله (ختم الله على قلوبهم) ... إشارة إلى ما أجرى
الله به العادة أن الانسان إذا تناهى في اعتقاد باطل وارتكاب محظور - ولا يكون
منه تلفت بوجه إلى الحق - يورثه ذلك هيئة تمرنه على استجسان المعاصي ، وكأنما
يختم بذلك على قلبه . وعلى ذلك (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم
وأبصارهم) اه المراد منه .

وأقول : إن مراده أن هذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر في قلوبهم حتى فقدوا
الدواعي والأسباب التي تعطفهم إلى النظر والفكر في أدلة الايمان ومحاسنه . ختم الله
على قلوبهم فلا يدخلها غير مارسخ فيها ، وعلى أسمعهم فلا يسمعون آيات الله
المنزلة سماع تأمل وتفقه ، وقوله (وعلى أبصارهم غشاوة) جملة معطوفة على جملة (ختم)
والغشاوة ما يغطي به الشيء ، ومعنى هذه المادة : غشى - التغطية . والمراد أن أبصارهم
لا تدرك آيات الله المبصرة الدالة على الايمان ، فكل من الفريقين لا يرجي إيمانه
وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلى الله تعالى لأنه بيان لسنته تعالى في
أمثالهم ، وعبر عنه بالمضى للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه ، وهو لا يدل على أنهم
مجبورون على الكفر ، ولا على منع الله تعالى إياهم منه بالقهر ، وإنما هو تمثيل لسنته
تعالى في تأخير تمرنهم على الكفر وأعماله في قلوبهم بأنه استحوذ عليها وملك أمرها
حتى لم يعد فيها استعداد لغيره ، كما تقدم مثله عن الراغب . ويوضح ما قلناه : قوله
تعالى في سورة المنافقين (٦٣ : ٣) ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم)
وقوله في اليهود من سورة النساء (٤ : ١٥٤) فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله
وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم : قلوبنا غلف . بل طبع الله عليها بكفرهم ، فلا

يؤمنون إلا قليلا) فذكر أن الطبع على قلوبهم إنما هو بسبب كفرهم وتلك المعاصي التي أسندها إليهم وقوله تعالى في سورة الجاثية (٤٥ . ٢٢) أفأريت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة - فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) فقد ذكر من فعله المسند إليه أنه اتخذ إلهه هواه ومن صار هواه معبوده لا يفيد معه شيء . وقد صرح هنا بأن الغشاوة على بصره من جعل الله تعالى ، ولم يصرح بذلك في آية البقرة التي نفسرها ، والمعنى واحد .
والشيخنا الأستاذ الإمام دقائق في هذه التعبيرات ادخرها الله تعالى له وهي مع هذا تفتيح عن تمارى الأشعرية والمعنزة في الآيات تعصبا لمذاهبهم . قال :

يقولون : إن الختم والطبع والرین . ألفاظ تجري على شيء واحد ، وهو : تغطية الشيء وإخيلولة بينه وبين ما من شأنه أن يدخله ويمسه ، والقلوب مراد بها العقول ، والمراد بالسمع الأسماع ، وإفراده لأن أصله مصدر ومن شأن المصادر أن لا تجمع ، وقد لوحظ هنا الأصل ، والأبصار العميون التي تدرك المبصرات من الأشكال والألوان .

(قال) وأنا أرى في مسألة هذا الجمع والافراد رأياً آخر ، إذ لو صح ما قيل فإن البصر أيضاً مصدر فلماذا جمعه ؟ والذي أراه أن العقل له وجوه كثيرة في إدراك المعقولات ، فليس الناس فيه سواء ، فجمع لاختلاف الناس فيه ، وأنواع تصرفهم في وجوهه ، بخلاف السمع فإن أسماع الناس تتساوى في إدراك المسموغات فلا تشعب تشعب العقول في إدراك المعقولات . وأما الأبصار فهي مثل العقول في التشعب ، وأعظم معين للعقول في إدراكها ، لأن أنواع المبصرات كثيرة فتعطي للعقل مواد كثيرة ، والسمع لا يدرك إلا الصوت ، وليس في الكلام عند النقل طريق من طرق العلم اليقيني إلا التواتر [بخلاف ما نقطع فيه بالضرورة من طريق العقل والبصر ، فهو كثير ، فالأوليات ^(١) كالحكم بأن الجزء أصغر من الكل

(١) الأوليات : هي القضايا الضرورية التي يحكم العقل بها بمجرد توجهه إليها بدون حاجة إلى شيء آخر ، وهي أخص من الضروريات مطلقاً !

وأن التقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، والقضايا التي قياساتها معها^(١) - من المعقولات المحضة . والتجريدات والحدسيات^(٢) يشترك فيها العقل والبصر . والقسم الأعظم من المشاهدات سبيل الإدراك فيه البصر . فالمعقول والابصار بمنزلة ينابيع كثيرة تنبجس من كل منها عيون للعالم مختلفة ، بخلاف السمع فانه ينبوع واحد لا اختلاف فيما يصدر عنه [فالخلاص أن العقول والابصار تتصرف في مدركات كثيرة فكأنها صارت بذلك كثيرة فجمعت ، وأما السمع فلا يدرك إلا شيئاً واحداً فأفرد سألته سائل : كيف هذا ، وقد قالوا : إن السمع أفضل من البصر ؟ فقال : أنا لا أتكلم في التفضيل ، ذلك إلى الله ورسوله ، وإنما أشرح وجوداً وأبين مناسبة اللفظ له ، [وإن المشاهدة قاضية بأن العقل لا منتهى لتصرفه ، وبأن أقل ما قيل في البصر أنه يدرك الألوان ، والأشكال ، والمقادير ، والسمع لا يدرك إلا الأصوات فقط ، كما أن الذوق لا يحس إلا بالمذوقات وحدها ، وإن كان ما يصل من طريق السمع قد يتضمن حكاية عن معقول أو مبصر ، ولكن وروده على الحكاية لا يغير من حقيقته ، فهو معقول أو مبصر ، فمن ذكر لك برهاناً على حقيقة علمية فأنما تسمع منه الأصوات والحروف . وأما فهمك المقدمات ووصولك منها إلى النتائج فهو من طريق عقلك لا من طريق سمعك ، فإن كان حديث الأفضلية يستند إلى أن جميع المدركات قد يمكن أن يعبر عنها بالكلام - وهو مسوع - فقد بينا لك ما فيه ، ويعارضه أن جميع ضروب الكلام يصح أن تكتب وطريق فهمها من الرقم

(١) هي ما يحكم العقل فيه بواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور طرفي القضية كقولنا : الاربعة زوج ، بسبب وسط حاضر في الذهن وهو الاقسام بتساويين
(٢) هي ما يحتاج العقل في الجزم بالحكم فيها إلى تكرار التجربة حتى تثبت بالمشاهدة مرة بعد أخرى . والحدسيات هي ما يجزم العقل بالحكم فيها بسبب تكرار المشاهدة ، كقولنا : بخار الماء ذو قوة ضاغطة رافعة ، ونور القمر مستفاد من نور الشمس ، وكل هذا من اصطلاح علم المنطق ، ونحن نحاشي أمثال هذه الاصطلاحات فيما نقوله وفيما نقله في التفسير ليفهمه جاهل القراء ، ولكن هذا شيء كتبه شيخنا بخطه ، فن الأمانة نقله بحروفه .

إنما هو البصر ، والحق أن الموعول عليه في تعدد الطريق ليس ما يكون من قبيل الحكاية ؛ بل ما يكون من طبيعة القوة .

وأما انطباق الكلام على تلك الأقسام السابقة وبيان حرمانهم وكونهم كما وصفوا - فهو بالنسبة إلى الطائفة التي عانت الحق وهي تعرفه - ظاهر لأنهم لما عاندوا الحق لأنه لم يأت على أيديهم [فقد طبع على قلوبهم بطابع ذلك العناد نفسه ، فإنه قد حيل بين عقولهم وإدراك ما يصيرون إليه بالإصرار على الباطل من ضعف أمر وفساد حال في الدنيا ، وشقاء وخلود في نكال الآخرة ، ثم هم قد حججوا به عن إدراك ما يتبع] ذلك الحق من المعارف والحقائق الأخرى ؛ فقد ختم على قلوبهم بالنسبة إلى ما حججوا عنه .

وأما الختم على سمعهم فلأنهم صموا عن سماع الحق واستماع القول لفهمه ، فمن أعرض عن فهم الحق فهو لم يسمع إلا صوتاً لم ينفذ شيء من معناد إلى موضع الإدراك الحقيقي منه ، فقد ختم على سمعه فلا ينفذ إليه شيء ينتفع به .

وأما الأبصار فإما كانت عليها غشاوات عند هؤلاء الجاحدين ، لأن فائدة البصر ، هي التوقى من الخطر ، والمعبرة بما يبصر ، فمن لم ينظر في الآيات الكونية التي تقع تحت بصره كل يوم كأنه لم يبصر شيئاً منها ، فقد ضرب على بصره بغشاوة . [وأما بالنسبة إلى القسمين الآخرين اللذين جمعا تحت قسم واحد وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين كما سبق فالختم على القلوب والسمع والأبصار ظاهر لأنهم لم ينتفعوا بشيء من هذه القوى حتى في فهم ما يعرض عليهم ، ورؤية ما يقع تحت حواسهم] والكلام كله ضرب من التمثيل يعرفه اللسان وتمهده الافة . والمعنى هو ما بينا والله أعلم : [ولما كان حديث الختم تمثيلاً لفقد حقيقة الفهم والحرمان من فوائد تلك المواهب الإلهية : مواهب العقل والسمع والأبصار - كان إسناده إلى الله تأكيداً لمعنى الحرمان ، وتقديراً لمصيبة الخسران ، لأن ما ختم بيد الله لا تنفضه يد سواه]

وأما النكتة في استعمال الختم مع القلب والسمع ، والغشاوة مع البصر ؛ فهي أن الختم من شأنه أن يكون على الممكنون المستور . وهكذا موضع حس السمع ، وموضع الإدراك من العقل ، والاسماع في ظاهر الخلق ، وأما البصر فالخاسة منه

ظاهرة منكشفة (قال) ومثل هذه الدقائق هي المرادة بقول صاحب التلخيص
« ولكل كلمة مع صاحبها مقام »

﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أقول: العذاب اسم لما يؤلم ويذهب بعنوبة الحياة من ضرب ووجع وجوع وظلماً. قال الراغب: واختلف في أصله، فقال بعضهم: هو من قولهم: عَذَبَ الرجل إذا ترك المأكل (زاد غيره من شدة العطش) والنوم فهو عاذب وعذوب، فالتعذيب في الأصل هو حمل الانسان أن يعذب، أى بجوع وبسهر. وقيل: أصله من العذب، فعذبه: أزلت عذب حياته. على بناء: مرّضته وقذّيته^(١) وقيل أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السوط أى طرفه اه. وقال البيضاوى العذاب كالنكال بناء ومعنى تقول أعذب عن الشيء ونكل عنه إذا أمسك ومنه الماء العذب لأنه يجمع العطش ويردعه، ولذلك يسمى نقاخاً وفراتاً ثم اتسع فأطلق على كل ألم فادح وإن لم يكن عقاباً يردع الجاني عن المعاودة الخ. والعظيم ضد الحقيق فهو فوق الكبير الذى هو ضد الصغير. وتنكير العذاب هنا للإشارة إلى أنه نوع منه مبهم مجهول عند أهل الدنيا، بناء على أن المراد به عذاب الآخرة التى هي من عالم الغيب. وقال شيخنا تبعاً للجمهور: التنكير فيه للتعظيم والتهويل ووصفه مع ذلك بعظيم يدل على أنه بالغ حد العظمة كما وكيفاً، فهو شديد الإيلام، وطويل الزمان. وهل هذا العذاب فى الدنيا أم فى الآخرة؟ قال فى آية أخرى (٤١:٥) لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) فيؤخذ من هذه الآية ومن آيات أخرى أن الاعراض عن هدى الإسلام، وما أرشد إليه من إصلاح المعاش والمعاد، جزاؤه الضنك والضييق وفقد العزة والسلطة فى الدنيا، والعذاب العظيم فى العقبى.

وهنا سألته سائل: هل الآية نص فى التكليف بالحال؟ فقال: لا، وأنا لأحب أن أحشر المسائل الخلافية فى تفسير القرآن بل أحب أن أبين المعنى الذى كان يفهمه الصحابة رضى الله تعالى عنهم، وما كان يحظر على بال أحد منهم التكليف بالحال. على أن الاتفاق واقع بين الأئمة بل بين الأمة على أن التكليف

(١) يقال قذّيته أو قذّيت عينه أى أخرجت القذى منها، فالهمزة لللازلة

بالمحال غير ؟ واقع ، وأن الله (لا يكف نفساً إلا وسعها) كما صرح به الكتاب وتضافرت عليه الأحاديث النبوية ، فما بقي من مواضع الخلاف لا يس نصوص الكتاب العزيز الذي (٤١ : ٤٢) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

- (٨) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ
 (٩) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ
 (١٠) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا . وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

قدمنا أن الكلام من أول السورة في القرآن وأقسام الناس بإزائه ، وذكرنا منهم ثلاث فرق - فرقتان لها فيه هدى (إحداهما) المتقون وبين حالهم بقوله (الذين يؤمنون بالغيب) الخ ، ومنهم الذين كانوا يدعون الحنيفيين والمنصفون من أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون إشراق نور الحق ليهتدوا به كما تقدم . (والثانية) هي المذكورة في قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) الخ وهم كل من آمن بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم على التحقيق . وبيننا أنه يوجد بإزاء هاتين الطائفتين طائفتان أخريان لا ترجى هدايتهما بالقرآن . الأولى منهما هي المشروح حالها في قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) الخ وهي كما قدمنا تنقسم إلى قسمين جاحدين لا يسمعون ، ومماندين يعرفون الحق ولا يدعونون .

وهذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها الآن هي المبينة لحال الفرقة الرابعة وهي فرقة من الناس توجد في كل آن وفي كل عصر . وليست الآيات كما قيل في أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل ، ولذلك قال تعالى في بيان حالهم (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) ولم يقل عنهم إلا أنهم يقولون مع ذلك « وآمنا بك يا محمد » وما كان القرآن ليعتق بأولئك النفر الذين

لم يلبثوا أن انقضوا كل هذه العناية ، ويطيل في بيان حالهم أكثر مما أطال في الأوصاف الثلاثة الذين هم سائر الناس

نعم إن الآيات على عمومها تتناول من كان منهم في عصر التنزيل تناولاً أولياً وتصف حالهم وصفاً مطابقاً ، وهي مع ذلك عبرة عامة شاملة لمن مضى ولمن يجي . من هذا الصنف إلى يوم القيامة ، وقد كان ويكون من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس ومن كل طائفة تدعى إليها على دين . ولم يحك عنهم دعوى الايمان بالانبياء والأعمال الصالحة - مع أن منهم الذين يدعون ذلك - لأن الايمان باليوم الآخر يتضمن ذلك ، فهو إنما يعرف من قبل الانبياء ، وهذا من ضروب إيجاز القرآن التي بلغت حد الإعجاز

قد يقال : كان في أولئك القوم من كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر كمنافقي اليهود ، فلم كذبهم ونفى عنهم الايمان نفيًا مطلقاً مؤكداً بدخول الباء في خبر « ما » . فقال ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ أي بداخلين في جماعة المؤمنين الصادقين البتة . وهو أبلغ من نفي فعل الايمان المطابق للفظهم والمقيد بالايمان بالله وباليوم الآخر ؟ والجواب : أن اعتقادهم التقليدي الضعيف لم يكن له أثر في أخلاقهم ولا في أعمالهم ، فلو حصل ما في صدورهم ، ومحص ما في قلوبهم ، وعرفت مناشئ الأعمال من نفوسهم ، لوجد أن ما كان لهم من عمل صالح كصلاة وصدقة فأنما مبعثه رثاء الناس ، وحب السمعة ، وهم من وراء ذلك منقسمون في الشرور ، كالافساد والكذب والغش والخيانة والطمع وغير ذلك من الرذائل التي حكها عنهم الكتاب ونقلها رواة السنة ، وهذه الأعمال تدل على أنهم لا يؤمنون بالله كما يجب ويرضى أن يؤمن به ، وهو أن يشعر المؤمن بعظيم سلطانه ، ويعلم أن الله سبحانه مطلع على سره وإعلانه ، لأنه مهيم على السرائر ، وعالم بما في الضمائر ، فيرضيه بظاهره وباطنه . بل كانوا يكتبون ببعض ظواهر العبادات يظنون أنهم يرضون الله تعالى بذلك . ولذلك قال فيهم : ﴿ يجادلون الله والذين آمنوا ﴾ أقول : الخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه له لتنزله عما هو بصده من قولهم : خدع الضب إذا توارى في جحره ، وضب خادع - إذا أوهم الصائد إقباله عليه ثم خرج من باب آخر ،

وأصله الإخفاء. هذا ما حرره البيضاوي، وقد جعله الراغب أعم، فلم يعتبر فيما يخفيه الخادع أن يكون مكروهاً، وهذا المعنى لا يمتنع إسناده إلى الله تعالى وإلى المؤمنين وهو ما تدل عليه صيغة المشاركة «يخادعون» وقالوا: إنه محال على الله وغير لائق بالمؤمنين بل يستقبح لأنه عمل المنافقين، وقد جاء في سورة النساء (٤: ١٤٣) إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ولما كان إخفاء شيء عن الله تعالى محالاً فسروا مخادعتهم لله هنا وهناك بأنه خداع في الصورة لا في الحقيقة، وذلك أنه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ولكنهم لا يجزون جزاءهم في الآخرة، بل يكونون في الدرك الأسفل من النار - فماملتهم الظاهرة غير جزائهم المغيب عنهم في الآخرة، كما أن عملهم الظاهر غير كفرهم الخفي في أنفسهم، فالجزاء من جنس العمل، ولكن عملهم خداع - ومقابله حق صورته صورة الخداع، ولكنه لا غش فيه لأن النصوص صريحة في كفر المنافقين - والتحقيق: أن فعل المشاركة هنا خاص بالفاعل المسند إليه فعمله وهم المنافقون، وصيغة «فاعل» لا تطرد فيها المشاركة بالفعل كما قابت اللص، وقد تكون مقدره أو باعتبار الشأن أو القصد، ومن التكلف قول بعضهم إنه عبر عن مخادعتهم للرسول ﷺ بمخادعة الله تعالى

وقال شيخنا: العمل الظاهر الذي لا يصدقه الباطن إذا قصد به إرضاء آخر يسمى في اللغة مداجاة ومداراة ومخادعة، فإن كان يقصد به الخادعة فظاهر، وإلا فيكفي لصحة الاطلاق أن العمل عمل الخادع، لا عمل الطائع الخاضع، وهذا مراد القرآن من مخادعة هؤلاء الذين هم من أهل الكتاب المؤمنين بالله إيماناً ناقصاً، لم يقدروا الله فيه حق قدره، ويستحيل أن يقصد المؤمن بالله تعالى مخادعته، ولكنهم لجهلهم بالله ظنوا به ما سوغ وصفهم بما ذكر عنهم.

قال تعالى ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ أقول: وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (وما يخادعون إلا أنفسهم) وهو دليل على ما قلنا آتفاً في صيغة «فاعل» والمشاركة هنا للإشارة إلى أنهم هم الخادعون المخدوعون، وقرآءة الجمهور (يخدعون) نص في أن مخادعتهم لله والمؤمنين لا تأثير لها فيهما، فهي بالنسبة إليهما صوراً وفي الحقيقة أن القوم يخدعون أنفسهم لأن ضرر عملهم خاص بهم، وعاقبته وبال عليهم

وعدمهم . وقال الاستاذ في الدرس فيها مامثاله :

إذا رجع الانسان إلى نفسه، وأصغى لمناجاة سره، يجد عندما بهم بعمل شيء .
أن في قلبه طريقتين ، وفي نفسه خصمين مختصمين ، أحدهما يأمره بالعمل وسلوك
الطريق الأوج ، وآخر ينهيه عن العوج ، ويأمره بالاستقامة على النهج ، ولا
يترجع عنده باعث الشر ، ولا يجيب داعي السوء ، إلا إذا خدع نفسه بعد
المشاورة والمناكرة المطوية فيها ، وصرفها عن الحق ، وزين لها الباطل ، وهذه
الشؤون النفسية في غاية الخفاء ، تكون المنازعة ثم المحادعة ثم الترجيح ويمر ذلك
كله كلعج البصر ، وربما لا يلتفت إليه الانسان بفكره : ولذلك قال ﴿ وما يشعرون ﴾
فان الشعور هو إدراك ماخفي .

أقول : قال الراغب بعد ذكر الشعر - بفتح الشين وسكون العين وفتحها - من مفرداته
وشعرت أصبت الشعر ، ومنه استعير شعرت كذا أي علمت علماً هو في الدقة كإصابة
الشعر ومنه يسمى الشاعر شاعراً لفظنته ودقة معرفته ، فالشعر في الأصل اسم للعلم
الدقيق في قولهم : آيت شعري . وصار في التعارف اسماً للموزون المقفى من الكلام اه
أقول : ويناسب هذا الشعار - بالكسر - للكساء الباطن الذي يحس شعر
الانسان . والمعروف في كتب اللغة أن شعر به - كنعصر وكرم - يشعر شعراً - بالكسر
والفتح - وشعوراً معناه علم به وفطن له وأدركه . والفظنة تتعلق بالأمر الدقيقة
وأطلق بعض المفسرين : أن الشعور إدراك المشاعر أي الحواس الخمس ، والتحقيق
أنه إدراك مادق من حسي وعقلي ، فلا تقول : شعرت بحلاوة العسل وبصوت
الصاعقة وبألم كية النار ، وإنما تقول : أشعر بحرارة مافي بدني ، وبملوحة أو مرارة
في هذا الماء ، إذا كانت قليلة - وبهينمة وراء الجدار ، وما ورد في القرآن من
هذا الحرف يدل على هذا المعنى أي إدراك مافي دقة وخفاء .

فمضى نفى الشعور عن المناققين في مخادعتهم لله تعالى أنهم يجرون في كذبهم
وتلبيسهم وزيائهم على ما ألفوا وتعودوا ، فلا يحاسبون أنفسهم عليه ، ولا يراقبون
الله فيه ، وما كانوا يؤمنون بوجود الله وإحاطة علمه ، ومن يؤمن بوجوده لم يترب
على خشيته ومراقبته ، ولا يفكر فيما يرضيه وفيما يفضيه ، فهو يعمل عمل المخادع له

وما يشعر بذلك . وأما مخادعتهم للمؤمنين فظاهرة لأنهم اتخذوهم أعداء وهم عاجزون عن إظهار عداوتهم ، فأعمالهم التي يقصدون بها إرضاء المؤمنين كلها خداع ورياء وقد فصل شيخنا سر مخادعتهم وفلسفتها ببيان علمي جلي ، فقال ما معناه :

هؤلاء المغرورون إذا عرض زاجر الدين بينهم وبين شهواتهم قام لهم من أنفسهم ما يسهل لهم أمره من أمل في الغفران ، أو تأويل إلى غير المراد ، أو تحريف إلى ما يخالف القصد من الخطاب ، وذلك بما رسخ في نفوسهم من ملكات السوء ، المشاة بصور من العقائد الملونة بما قد يتجلى للأعين فيما يسمونه إيمانا . وما هم في الحقيقة بمؤمنين ، وإنما هم خادعون مخدوعون ، ولكنهم لما عمى عليهم من أمر أنفسهم ، لا يشعرون ، لأن ذلك يمر في أنفسهم وهم عنه غافلون .

وفرق ظاهر بين ما تستحضره النفس من المعلومات وتستعرضه عند ما تسأل عنه ، وما هو راسخ فيها من تلك المعلومات ، بصيرورته ملكة في النفس متصرفة في الإرادة ، باعثة لها على العمل . فن العلوم ما هو ثابت في النفس ممتزج بها . [على النحو الذي ذكرنا فيتبع امتزاجه هذا تمكن ملكات أخر تصدر عنها الأعمال ، وهي ما يعبر عنه بالأخلاق والصفات الكريمة والشجاعة ونحوها فانها إنما تنطبع في النفس تبعاً للعلم الذي يلائمها] وهو العلم الحقيقي الذي تصدر عنه الأعمال ور بما يفقل الانسان عنه ولا يلاحظه عند ما يعمل . وفارق بين ملاحظة العلم واستحضاره وبين وجوده وتحققه في نفسه .

ومن العلوم ما يلاحظ الانسان أنه عنده فهو صورة عند النفس تستحضره عند المناسبة ويفيق عنها عند عدمها ، لأنه لم يشربه القلب ولم يمتزج بالنفس فيصير صفة من صفاتها الراسخة التي لا تزييلها [وهذا النوع من العلم يتعلق بما تعلق به النوع الأول ، كعلم الحلال والحرام الذي يحصله طلبة الفقه الاسلامي مثلاً . وكعلم مزايا الفضيلة ، ورزايا الرذيلة الذي يخزنه طلاب علوم الآداب والأخلاق والنظار في كتب الأواخر والأوائل . لتغزير مادة العلم وتوسيع مجال القول وتوفير القدرة على حسن المنطق ونحو ذلك ، فهذا العلم كالأداة المنفصلة عن العامل ، يبقى في خزانة الخيال ، تستحضره النفس عند ما تدفعها الشهوة إلى تزيين

ظاهر المقال ، إلى تحسين باطن الحال ، ولن يكون لهذا الضرب من العلم أدنى أثر في عمل من أعمال صاحبه . وتسميته علماً لأنه يدخل في تعريفه العام «صورة من الشيء حاضرة عند النفس» وعند التدقيق لا ترتفع به منزلته إلى أن يندرج في معنى العلم الحقيقي [فاستحضار هذا العلم كاستحضار الكتاب واللوح وإدراك مافيه ، ثم الذهول عنه ونسيانه عند الاشتغال بشيء آخر .

فهؤلاء - الذين يخدعون أنفسهم ويخدعون الله تعالى - عندهم علم حقيقي تنبعث عنه أعمالهم ، وإن كان باطلاً في نفسه ، وهو تصديقهم بما في شهواتهم ، من المصلحة لذواتهم ، وهو الذي رجح عندهم اختيار مافيه قضاؤها أو الانصباب إلى ما تدعو إليه ، وهو ما أنسأهم ما كانوا خزنوا في أنفسهم من صور الاعتقادات الدينية ، فأبعدهم ذلك عن الاعتقاد الحقيقي الذي يعتدبه وجعله رسماً مخزوناً في الخيال ، لا أثر له في الأفعال ، يدعونه بالسنتهم ، وتكذبهم في دعواهم أعمالهم وأحوالهم ، ولذلك نسبهم إلى الدعوى القولية ولم يقل فيهم مقال في ذلك الفريق الأول (الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و يمارزونها بشفقة) فإنه هناك ذكر إيمانهم وقي عليه بذكر العمل الذي يشهد له . ومن هنا يعلم ما الإيمان الذي يعتدبه القرآن وهو يظهر لمن يقرأ القرآن ليحاسب به نفسه ، ويزن إيمانه وأعماله بما حكم به على إيمان من قبله وأعمالهم ، لا لمن يقرؤه على أنه قصة تار يخية مات من يحكى عنها ، واستثنى القارىء نفسه من حكم عليهم فيها فإن كان مات من كانوا سبب النزول فالقرآن حي لا يموت ، ينطق حكمه ويحكم سلطانه على الناس في كل زمان [فكل مؤمن بالله واليوم الآخر ومع ذلك يصدر في عمله عن شهواته ، ولا يمنعه إيمانه عن ركوب خطيئاته ، فاعتقاده إنما هو خيال ، لا يعلو عن لفظ في مقال ، ودعوى عند جدال ، فاذا ركن إلى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه ، مخادع لربه يظن أن علام الغيوب ، لا ينظر إلى مافي القلوب]

﴿ في قلوبهم مرض ﴾ عهد عند العرب التعبير عن العقول بالقلوب والمرض هو ما يطرأ على العقول فيضعف تعقلها وإدراكها ، والشك والوهم من أعراض هذا المرض ، فهو ظلمة تعرض للعقل فتقف بشعاعه أن ينفذ إلى ما وراء التكليف والأحكام من الأسرار والحكم . وهذا النفوذ هو الفقه في الدين الذي يسوق النفس

إلى الأخذ به ظاهراً وباطناً . وقد عبر القرآن عن فقد أمثال هؤلاء بهذا بقوله (٧: ١٧٩) لهم قلوب لا يفقهون بها) وربما كان التعبير عن العقول بالقلوب في مثل هذا المقام ، لأن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذي هو السائق إلى الأعمال [يظهر لك ذلك بما تجده من اضطراب قلبك عند اشتداد الخوف أو اشتداد الفرح ، فانك تحس بزيادة ضرباته وشدة نبضاته] فصورة الاعتقاد إذا تناوَلها العقل من طريق التقليد والتسليم ، فجعلها في زاوية من زوايا الدماغ ، لم يكن لها سلطان على القلب ولا تأثير في الوجدان ، واعتقاد لا يصحبه هذا السلطان ولا يصدر عنه هذا التأثير ، لا يعتد الله تعالى به ولا يستفيد الإنسان منه كما تقدم آنفاً ، فمن لم يطرق الإيمان قلبه بقوة البرهان ولم يحل مذاقه منه في الوجدان ، بحيث يكون هو المصرف له في أعماله لا ينفعه إيمانه ، إلا إذا تمرن على الأعمال الصالحة عن فهم وإخلاص ، حتى يحدث لقلبه الوجدان الصالح ، فأهل اليقين يبعثهم يقينهم على العمل الصالح ، وأهل التقليد تلحقهم أعمالهم الصالحة بأهل اليقين في الانتفاع بإيمانهم ، وهذا الفريق الذي تحكى عنه الآيات ، وتصفه بالكذب والخداع ، قد فقد الأمرين معاً ، ولا صحة للقلب إلا بهما ، فمن فقدهما مرض ولا يلبث مرضه أن يقتله .

قال الأستاذ الامام ما معناه : و ضعف العقل أسباب . منها : ما هو فطري كما هو حال أهل البله والعتة ، وهو الذي لا يكلف صاحبه ولا يلام ، ومنها : ما يكون من فساد التربية العقلية كما هو حال المقلدين الذين لا يستعملون عقولهم ، وإنما يكتفون بما عليه قومهم من الأوهام والخيالات ، ويرين على قلوبهم ما يكسبونه من السيئات ، وما يكونون عليه من التقاليد والعادات ، ولا يعنون بما أمر الله به من تزويق هذه الحجب ، وإزالة هذه السحب ، للوقوف على ما وراءها من مخدرات العرفان ، ونجوم الفرقان وشموس الإيمان ، بل يكتفون بما حكى الله عنهم في قوله (٤٣: ٢٣) إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون (حتى يجيء اليوم الذي يقولون فيه) (٣٣: ٦٧) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل) .

وأقول : إن المرض في أصل اللغة : خروج البدن عن اعتدال مزاجه وصحة أعضائه فيختل به بعض وظائفها وأعمالها ، وتعرض الآلام لها . ويطلق مجازاً

على اختلال مزاج النفس ، وما يخل بكالها من نفاق وجهل ، وارتياب وشك ، وغير ذلك من فساد الاعتقاد الحق ، واضطراب حكم العقل وفساد الخلق ، والمرض هنا من النوع الثاني كما تقدم آنفاً ، وخصه شيخنا بمنافقي اليهود ، فقال مامعناه . كان في قلوبهم مرض قبل مجيء النذير ، وبيان الرشد من الغي ، عند ما كانوا في فترة حظهم من الكتب قراءة ألفاظها ، ومن الأعمال إقامة صورها ؛ ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ بعد ما جاءهم البرهان المنير ببعثة البشير النذير ، ووجدوا منه زعزعة في أنفسهم ، ولكن أخذتهم العزة بالانتم فأبوا الايمان ؛ ونبوا عن القرآن ؛ [وزاد تمسكهم بما كانوا عليه واشتد حرصهم عليه] فكان شعاع النور الذي جاء به الرسول عى في أعينهم ؛ ومرضاً على مرضهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى عذاب مؤلم فوق هذه الأمراض ؛ و« أليم » صيغة فعيل من ألم يألّم فهو أليم وصف به العذاب نفسه ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ [في دعواهم الايمان بالله واليوم الآخر ؛ فانهم لم يصدقوا بأعمالهم ؛ ما يزعمونه من حالهم]

أقول : وأما مرض منافقي المدينة من العرب فهو الشك في نبوته ﷺ كما روى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما وعن الأول : أنه النفاق . وعن بعض تلاميذه : الرياء . وحسبك في زيادة مرضهم قوله تعالى (٩ : ١٢٥) وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أئيم زادته هذه إيماناً ؟ - إلى قوله - وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)

أقول : قرأ عصم وحزمة والكسائي (يكذبون) بالتخفيف أى بسبب كذبهم ؛ وقرأ الباقون (يكذبون) بالتشديد أى ولهم عذاب أليم بسبب تكذيبهم النبي ﷺ . والحكمة في القرائتين : اثبات جمعهم للرديلتين ، أى الكذب في دعوى الايمان ، وتكذيب النبي ﷺ والسلام ، والثانية سبب الأولى ؛ وهم إنما كانوا يكذبونه في أنفسهم ، وفيما بينهم إذا خلوا إلى شياطينهم والعذاب عقوبة عليهما معاً ، أى على التكذيب وهو الكفر وعلى الكذب في دعوى الايمان وهو النفاق . وهؤلاء في باطنهم شر من الذين كفروا عناداً من رؤساء قريش ، فانهم لم يكونوا يكذبونه ﷺ وإنما كانوا يجحدون جحدواستكبار . قال تعالى (٦ : ٣٣) فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

قال شيخنا: والقراءة الأولى هي المشهورة والعذاب فيها مقرون بالكذب لا بالتكذيب. وقد يقال: لم جعل العذاب جزاء الكذب دون الكفر؟ والجواب: أن الكفر داخل في هذا الكذب، وإنما اختير لفظ الكذب في التعبير للتحذير عنه، وبيان فظاعته وعظم جرمه، وليبان أن الكفر من مشتملاته، وينتهي إليه في غايته، ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير، وتوعد عليه أسوأ الوعيد، وما فشا الكذب في قوم إلا فشت فيهم كل جريمة وكبيرة، لأنه ينشأ من دناءة النفس وضعف الحياء والمروءة، ومن كان كذلك لا يترك قبيحاً إلا بالعجز عنه، نعوذ بالله تعالى من عمله ومنه. أه بالمعنى وقد علمت أن السؤال لا يرد إلا على قراءة التشديد

(١١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ
(١٢) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ يُقَالُوا أَلَمْ نَكُنْ آمِنَ السُّفَهَاءِ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ

تنطق هذه الآيات بأن ما عليه هذا الصنف من الغرور بما عنده من التقاليد قدسول له الباطل وزين له سوء عمله فرآه حسناً، وشوه في نظره كل حق لم يأت به على لسان رؤسائه ومقلديه بنصه التفصيلي، فهو يراه قبيحاً، وقد صورت الآيات هذا الغرور بما حكته عن بعض أفرادهم وهو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بما تصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاء، وتنفرون الناس عن اتباع محمد ﷺ والأخذ بما جاء به من الإصلاح، الذي يجتث أصول الفساد، وبصطم جرائم الأداد، ويحيي ما أماتته البدع من إرشاد الدين، ويقم ما قوضته التقاليد من سنن المرسلين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بالتمسك بما استنبطه الرؤساء، وما كان عليه الأخبار والعرفاء، من تعاليم الانبياء، فانهم أعرف بسنتهم، وأدرى بظريقتهم، فكيف ندع ما تلقيناه منهم، ونذر ما يؤثره آبؤنا وشيوخنا عنهم، وتأخذ بشيء جديد، وطارف ليس له تليد؟

هكذا شأن كل مفسد: يدعى أنه مصلح في نفس إفساده ، فان كان على بيته من إفساده عارفاً أنه مصلح - وإنما يكون كذلك إذا كان إفساده لغيره لعداوة منه له - فأنما يدعى ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الافساد بالتقويه والمواربة . وإن كان مسوقاً الى الافساد بسوء التقليد الاعمى الذى لا ميزان فيه لمعرفة الاصلاح من الافساد الا الثقة بالرؤساء المقلدين ، فهو يدعيه عن اعتقاد ولا يريد أن يفهم غير ما تلقاه عنهم . وإن كان أثر تقليدهم ، والسير على طريقهم ، مفسداً للأمة في الواقع ونفس الامر ، لأن الوجود والحقيقة الواقعة لاقيمة لها ولا اعتبار في نظر المقلد ، بل هم لا يعرفون مناشئ الفساد ومصادر الخلل ، ولا مزلق الزلل ، لأنهم عطوا نظرهم الذى يميز ذلك ، وأرادوا أن يوقعوا غيرهم بيده المهالك ، بصددهم عن سبيل الاسلام ، الداعى الى الوحدة والالتئام . فكان ذلك منهم دعاء الى الفرقة والانقسام ، والثبات على عبادة الملائكة أو البشر أو الاصنام . وأى إفساد في الارض أعظم من التنفير عن اتباع الحق ، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين ، والارض إنما تفسد وتصلح بأهلها؟ ولذلك قال تعالى ﴿ الإنهم هم المفسدون ﴾ فابتدأ الكلام مؤكداً لانبات إفسادهم بكلمة « ألا » التى يراد بها التنبيه والايقاظ وتوجيه النظر ، وتدل على اهتمام المتكلم بما يحكيه بعدها ﴿ ولسكن لا يشعرون ﴾ بأن هذا إفساد غرر في طبائعهم ، بما تمكن فيها من الشبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم : وهذا دليل على أنهم لم يكونوا معاندين ولا مزائنين ، وأنهم على اعتقاد ضعيف لا يشهد له العمل كما تقدم في تفسير آية (يخادعون الله)

وإذا كانت الآيات في وصف طائفة من الناس توجد في كل أمة كما قدمنا فليحاسب بها نفسه كل مسلم يعتقد أن القرآن إمامه ، وأن فيه هدى لها فإنها حجة على كثير ممن يدعون الاسلام بالقول ويعملون بخلاف ما جاء به ، ويتبعون غير سبيله . وأقول الآن : هذه جملة ما قرره شيخنا في الدرس واضعاً نصب عينيه منافق اليهود ، ولا سيما فقهاءهم الذين كانوا مجاورين للنبي ﷺ في المدينة ، وشدة الشبه بينهم وبين فقهاء السوء ، ولا سيما فقهاء عصرنا هذا - ولذلك نبه لعموم الآيات وشموها لهم لها عوداً على بدء ، وإتمام اراده بنفى الرياء عنهم أنهم يعتقدون ما قالوا هناه ،

وهو لا ينفي رياءهم في غيره من أقوالهم وأفماهم. وقد كان لأوثك الأحبار والرؤساء من الإفساد غير ما ذكر، ومنه إغراء المشركين بقتال النبي ﷺ والمؤمنين ووعدهم بمساعدتهم عليه، وهذا إفساد كبير في الأرض، وكانوا يستبيحونه بأنه توسل إلى حفظ سلطتهم ورياستهم المهتدة باتباع محمد ﷺ

ولم يذكر فيما كتبت عنه رأيه فيمن سألم وقال لهم ماذا وأجابوه بهذا الجواب، هل هو الله تعالى أو الرسول ﷺ أو المؤمنون؟ وهي الاحتمالات التي ذكرها المفسرون - وزاد بعضهم رابعاً وهو أن يكون بعضهم سأل بعضاً لما كانوا عليه من اختلاف الحال وتباين الآراء، كما قال تعالى فيهم (١٤: ٥٩) جميعاً وقلوبهم شتى) فأى مانع لذهي لبعض لبعض عن نكث ما عاهدتم عليه النبي ﷺ من إقرارهم على دينهم وحفظ أموالهم وأنفسهم بأن لا يؤلبوا عليه المشركين ولا يساعدهم عليه - وأن يقولوا لنا كثنين المفسدين: إن الحرب فساد عظيم لا يؤمن أن يتعدى إلينا شرها فيظير من شرها ما يحترق به، فدعوا تأليب قوم محمد عليه؟ - ثم أى مانع يمنع أن يجيبهم أوثك المفسدون ككعب بن الأشرف: إنما نحن مصلحون بمساعدة قومه عليه، لأننا نخشى منه ما لا نخشى منهم، فقد غشنا معهم أجيالاً لم ينازعنا منهم أحد في صحة ديننا، لأنهم لا يدعون إلى شركهم ولا يحتقرون ما نحن عليه من الدين، بل يروننا فوقهم في العلم، ومنهم من يعطينا أولاده لثريتهم ولا يكرهون أن نلقنهم ديننا، وأما محمد فيقول إننا ضللنا عن ديننا نفسه وبعيننا بتحريف سلفنا وخلفنا لكتابنا، وبما كان من مخازي تاريخنا، كقتل الأنبياء، ونكث العهود، وأكل السحت. فإذا كان له الغلب على مشركي قومه لا نأمن أن يبقى لنا ديننا ومكانتنا السامية في بلاد العرب، وإن هو حفظ عهده لنا، ولم يقدر فيقاتلنا، فكيف إذا هو غدر بنا وقاتلنا بعد الفراغ من قومه؟

هذا أقرب إلى المعقول مما قاله المفسرون في السؤال والسائل، وفيه وجه آخر لعله أقوى، وهو أن السؤال والجواب مفروضان فرضاً، والمراد بيان حالهم في هذا الأمر وما تنطوى عليه جوانبهم بصيغة السؤال والجواب التي هي أقوى أساليب الكلام تنبيهاً للاذهان، وتوجيهاً لها إلى الاحاطة بمعاني الكلام، ولذلك يستعملها العلماء

في بيان مهمات المسائل وحل عويص المشاكل ، يقولون : إذا قيل كذا قلنا كذا ، وإن سئلتنا عن هذا أجبنا بكذا . وأما الفرق بين الشرطين في مثل هذا الأسلوب فالبلاغة تقتضى أن يكون السؤال باذا عما كان سببه قويا من شأنه ألا يسكت عنه ، ويصدر بيان إذا كان سببه ضعيفاً ولكنه محتمل ، فيجانب عنه احتياطاً

نم أقول : إن ما تقدم مبنى على أن السؤال والجواب في بيان حال منافقي اليهود ، وهو المختار عند شيخنا . وقد ورد في التفسير المأثور جملة في بيان حال منافقي المدينة من العرب كهيد الله بن أبي ابن سلول وحرز به . فانهم كانوا يفسدون في الأرض بالتشكيك في الدين ، وبتفريق كلمة المؤمنين ، كما فعلوا في غزوة أحد ثم في غزوة تبوك ، فكان هذا شأنهم وإن كانت الغزوتان بعد نزول هذه السورة . وروى تفسير إفسادهم بالكفر والمعاصي ، وما قلناه منه ولكنه أخص وهو المتبادر . ودعواهم أن هذا إصلاح كدعواهم الإيمان ، وكل مفسد وضال يسمى إفساده وضلاله بأسماء حسنة ، كما يسمون الشرك بالله في زمننا بدعاء غيره : توسلاً . وعن ابن عباس أنهم كانوا يقولون : إنما يريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب ثم صورت الآيات ذلك الجهل والغرور في الفريقين بصورة أخرى أشد تشويهاً مما قبلها ، لأن تلك صورتهم في عملهم ، وهذه صورتهم في جوهر إيمانهم ، وهي ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُم آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ الذين تعقدون كلهم وترون تعظيمهم وإجلالهم ، كإبراهيم وموسى وعيسى وأتباعهم ، الذين كان الإيمان راسخاً في جنانهم ، ومؤثراً في وجدانهم ، ومصرفاً لأبدانهم ، أو كهيد الله بن سلام وأمثاله من علمائكم ، ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ أقول : المراد بالسفهاء وخفة العقل وضعف الرأي . ومن لوازمه سوء التصرف . ومنه قيل : زمام سفیه : كثير الاضطراب لمرح الناقة ومنازعتها إياه - وثوب سفیه : ردىء النسيج ، واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل ، وفي الأمور الدنيوية والآخروية . فقيل سفه نفسه ، ويعنون بالسفهاء أتباع النبي صلى الله عليه وسلم الواقفين عند ما كان عليه ، المعرضين عن غير ما أنزل إليه ، لما تضمنه الأمر من الشهادة لهم بانهم في إيمانهم كأتباع أولئك

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم سلف اليهود الذين كان الكلام معهم ، وكانوا يفتخرون بما يتناقفونه من سيرتهم . فرد الله تعالى عليهم بقوله :

﴿ إلا إنهم هم السفهاء ﴾ أى وحدهم دون من عرضوا بهم ، لأن لهم سلفاً صالحاً تركوا الاقتداء بهم ، زعماً أن المتأخر ، لا يمكن أن يكون على هدى المتقدم لأنه يصعب أو يتعذر عليه اللحاق به ، واحتذاء عمله ، لعلوه في الدرجة ، وبعدد في المنزلة ، وأن حظهم من سلفهم انتظار شفاعتهم ، وإن لم يسيروا على سننهم ، فأى الفريقين أجدر بلقب السفية ، أم أولئك اليهود الذين لهم أسوة صالحة ولكنهم لا يهتدون بها وهذه حالهم من سوء العقيدة وقبح العمل ؟ أم لاسلف له إلا عبدة الأوثان ، وقلبه مع ذلك مطمئن بالآيمان ، وأعماله تشهد له بالاحسان ، كالصحابة الذين هداهم الله بنور الاسلام ، فكانوا كأتباع أولئك الأنبياء الكرام ، بل ربما سبقوهم بالفضائل ، وزادوا عليهم في الفواضل ؟ لاشك أن أولئك المفسدين بعد ما تقدم لهم من سلف صالح ، ودين قيم ، هم السفهاء ، دون هؤلاء المعتلاء

﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ أن السفه محصور فيهم ، ومقتضوهم عليهم ، وإنما عندهم شعور ما بأنهم ركبوا هواهم ، ولم يتبعوا هدى سلفهم ولا هداهم ، يفتحلون له العلل الضعيفة ، ويتمحلون له الاعذار السخيفة ، فهو لم يصل إلى حد العلم الذى تتكيف به النفس . ويكفى في إثبات سفههم أنهم يعرفون حسن حال سلفهم ، ويعترفون به ، ولكن لا يقتدون بهم ، ولا يقتفون أثرهم ، وإنما يعتمدون في نجاحهم وسعادتهم على تلك الأمانى والتعلات ، كقولهم (٣ : ٢٤) لن نمسنا النار إلا أياماً معدودات) وقولهم (٥ : ١٨) نحن أبناء الله وأحباؤه) وشعبه وأصفيائه ، ولا يصح نفي الشعور عنهم في هذا المقام مع ذلك الاعتراف ، وإنما هو نفي العلم الكامل الذى يزيل الشبه ويذهب بالعلل ، ويمسح على الاقتداء بالعمل

وهذا أيضاً حجة على كثير من اللابسين لباس الاسلام ، وهم من هذا الصنف يعتقدون كمال سلفهم ، ولا يقتدون بهم ، وإنما يطعمون في سعادة الدنيا والآخرة بانتمساجهم إلى أولئك السلف العظام ، ولكونهم من أمة النبي عليه الصلاة والسلام وهى خير الامم بشهادة الله في القدم ، ولكنهم لا يعلمون أنها فضلت سواها

بكونها أمة وسطا تقوم على جادة الاعتدال ، في العقائد والأخلاق والأعمال ، وتسعى في إصلاح البشر ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كما سيأتي في تفسير (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وتفسير (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وليس عند هؤلاء السفهاء شيء من هذه الصفات ، إلا الأمانى والتعلات .

وأزيد في هذا السياق الذى شرحت به قول شيخنا في الدرس : تذكير هؤلاء المرضى القلوب من المسلمين ، الذين اتبعوا سنن من قبلهم في هذا كما اتبعوهم في غيره « شبراً بشبر وذراعاً بذراع » كما ورد في حديث الصحيحين - أزيد فيه تذكيرهم بقوله تعالى في أهل الكتاب الآتى في هذه السورة - (لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) وقوله فيهم وفي أفضل سلف هذه الامة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم : (٤ : ١٢٢) ليس بآمانىكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً) الآيات

نم أقول : إن جريان هذا السؤال والجواب في مناقق العرب أظهر مما قبله - فعبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه من مناقق المدينة كانوا أبعدهن الإيمان وأدنى إلى مخادعة الله ورسوله والمؤمنين من مناقق اليهود في أنفسهم وقومهم ومع المؤمنين . ولاشك أنهم كانوا يعدون المؤمنين الصادقين سفهاء الأحلام ، في اتباعهم للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، أما المهاجرون منهم فلائهم عادوا قومهم وأقاربهم وهجروا وطنهم وتركوا ديارهم ليكونوا تابعين له . وأما الأنصار فلائهم شاركوا المهاجرين في ديارهم وأموالهم . وكون هذا من السفه عند غير المؤمن بهذا الرسول ﷺ وما جاء به ظاهر جلى ، ولذلك نفى عنهم الشعور بأنهم هم السفهاء دون المؤمنين ، ويؤيد ما قلته : ما حكاه الله تعالى عنهم في سورتهم بقوله (٦٣ : ٧) هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا . والله خزائن السموات والأرض ، ولكن المناققين لا يفقهون)

هذا - وإننا أشرنا إلى نكتة اختلاف التعبير في نفي الشعور عن المناققين في موضعين ونفى العلم في موضع واحد من هذه الآيات . وأزيد عليه في نكتة نفي العلم الآن ما ينبه الأذهان ، إلى دقة التعبير في القرآن . وهو أن أمر الإيمان لا يتحقق « تفسير القرآن الحكيم » « ١١ » « الجزء الأول »

إلا بالعلم اليقيني ، فوضوعه علمي ، ثم إن ثمرته السعادة في الدنيا والآخرة ، ولا يدرك ذلك إلا من علم حقيقته . فبنى عليهم العلم بأنهم هم السفهاء فيأرموا به المؤمنين بالسفاه ، بشبهة أنهم أخطأوا ومصالحتهم ومصالحة قومهم الأنصار ومصالحة أمتهم العربية في اتباع النبي ﷺ لأن عدم العلم بذلك سببه عدم العلم بكنهه الإيمان وعاقبته . ومن جهل المازوم كان بلوازمه أجهل ، فكأنه قال : ولكن لا يعلمون ما الإيمان ، حتى يعلموا أن المؤمنين سفهاء غاؤون ، أو عقلاء راشدون ، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، وهم جاهلون به ويجهلون أنهم جاهلون

ومن مباحث الأداء في الآيات : ما في اجتماع الهمزتين من آخر السفهاء وأول « ألا » من قراءة تحققةهما بالنطق بهما معا وقرائتي تحقيق الأولى وتلدين الثانية وعكسه ، وقراءة بعضهم بهمزة واحدة وكذلك أمثالها من كل همزتين في كلمتين

(١٤) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيْطَانِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٥) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَيْئِ الْمَأْرُوحَةِ فَحَرَبُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

الآيات التي تقدمت في وصف هذا الصنف من الناس الذي قلنا إنه يوجد في كل أمة وملة وفي كل عصر ، كانت عامة تصور حال أفرادها في كل زمان ومكان وكان أسلوبها ظاهراً في العموم كقوله (بخادعون) الخ ، وقوله : وإذا قيل لهم كذا قالوا كيت وكيت . وأما قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ الآية ، فهو وصف قد يخص ببعض أفراد هذا الصنف ممن كان في عصر التنزيل ، جاء بعد الأوصاف العامة ، وحكي بصيغة الماضي ، ليكون كال تصريح بحبوتو بيخ تلك الفئة من هذا الصنف ، التي بلغت من التهلك في النفاق ، والفساد في الأخلاق ، أن تظهر بوجهين ، وتتكلم بلسانين ، وما بلغ كل أفراد الصنف هذا المبلغ من الفساد والضعف

ولهذه الخصوصية في الآية قال بعض الواهمنين : إن جميع تلك الآيات في منافق ذلك العصر . وقد مرتفئده فلا نعيده . على أن هذه الفئة أيضا توجد في كل عصر وزمان ، يكون فيه لأهل الحق قوة وسلطان ، والحكاية عنها بصيغة الماضي الواقع لا تنافي ذلك . لأن « إذا » تدل على المستقبل ، فعنى الفعل مستقبل ، وإنما اختيرت صيغة الماضي لتوبيخ أولئك الأفراد وإيذائهم بأن بضاعة النفاق والمداجاة ، لاتروج في سوق المؤمنين لأنها مزجاة ، وأن استهزاهم مردود إليهم ، ووباله عائد عليهم .

كان أولئك النفر يدهنون في دينهم ، فاذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا بما أنتم به مؤمنون ، * وإذا خلوا إلى شياطينهم * من دعاة الفتنة وعمال الإفساد وأنصار الباطل ، الذين يصدون عن سبيل الحق بما يقيمون أمامه من عقبات الوسواس والأوهام ، وما يلقون فيه من أشواك المعاييب وتضاريس المدام ، وقال مفسرنا (الجلال) إنهم الرؤساء ، والصواب ما قلنا ، وكم من رئيس مغمول ، لما في نفسه من الضعف والخور ، لا ينصر اعتقاده ، وإن كان معترفا بأن فيه رشاده ، وفي عزته عزه وإسعاده . وكم من مرموس شديد العزيمة ، قوى الشكيمة ، يكون له في نصر ملته ، والمدافعة عن أمته ، ما يعجز عنه الرؤساء ، ولا يأتي على أيدي الأمراء .

والذباية في الجرح المد يد تنال ما قصرت عنه يد الأسد

(قالوا إنا معكم إنا نحن مستهزون) أي إنا معكم على عقيدتكم وعلماكم ، وإنا مستهزون بالمسلمين ، ودينهم ، فكشف القرآن عن هذا اللون وهذه الذبذبة ، وقابلهم عليها بما هم بنياهم ، وفضح همتانهم ، فقال (الله يستهزى بهم) أصل الاستهزاء الاستخفاف وعدم العناية بالشيء في النفس ، وإن أظهر المستخف الاستحسان والرضاهم . وهذا المعنى محال على الله تعالى ، والمحال بذاته يصح إطلاق لازمه ، والمستهزى بإنسان في نحوه مدح لهله واستحسان لعملة مع اعتقاد قبجه ، غير مبال به ولا معتن بعله ولا بعمله ، حيث لم يرجعه عنه ولم يكرهه عليه ، ويلزمه استرسال المستهزأ به في عمله القبيح . فعنى :

الله يستهزئ بهم [أنه يمهلمهم فتطول عليهم نعمته، وتبطل عنهم نعمته] ثم يسقط من أقدارهم ويستدرجهم بما كانوا يعملون ﴿ ويهدم في طغيانهم يعمهون ﴾ والعمه عمى القلب وظلمة البصيرة، وأثره الخيرة والاضطراب، وعدم الاهتداء للصواب .
أقول : هذا ملخص سياق الدرس . وقال الراغب : العمه التردد في الامر من التحير . يقال : عمه فهو عمه وعامه وجمعه عمه (بالتشديد) اه والاستهزاء فعل الهزء بسكون الزاي وضمها - وقصده بالعمل . وهو اسم من اهزئت به ومنه ، وفي لغة هزأت - فهو من بابي تعب ونفع - واستهزأت به أى استخفت به وسخرت منه .
وقال البيضاوى : والاستهزاء السخرية والاستخفاف ، يقال : هزأت به واستهزأت بعنى - كأجبت واستجبت - وأصله الخفة ، من الهزؤ وهو القتل السريع ، يقال : هزأ فلان إذا مات ، وناقته تهزأ به ، أى تسرع وتحف . وقال الراغب : الهزء مزح فى خفية ، وقد يقال لما هو كالمزح . ثم قال : والاستهزاء ارتياد الهزؤ وإن كان قد يعبر به عن تعاطي الهزؤ كالاستجابة فى كونها ارتيادا للاجابة ، وإن كان يجرى مجرى الاجابة . ثم قال بعد ذكر آيات من الشواهد :
والاستهزاء من الله فى الحقيقة لا يصح كما لا يصح من الله اللهم واللعب تعالى الله عنه . وقوله (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) أى يجازيهم جزاء الهزؤ ، ومعناه : أنه أمهلمهم مدة ثم أخذهم مغافصة (أى مفاجأة على غرة) فسمى إمهاله إياهم استهزاء من حيث إنهم أغتروا به اغترارهم بالهزؤ فيكون ذلك كالاستدراج من حيث لا يعمهون . اه . وأشهر الاقوال : أن معناه يجازيهم بالعقاب على استهزائهم أو يعاملهم معاملة المستهزئ بهم (٥٧ : ١٣) يوم يقول المناققون والمناققات للذين آمنوا : أنظرونا نقتبس من نوركم ، قيل أرجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) الآية وقال تعالى (٨٣ : ٢٩ - ٣٥) إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مرأ بهم يتغامزون - الى قوله - فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون) وقيل : إن استهزاه تعالى بهم إجراؤه أحكام المسلمين عليهم فى الدنيا كما مر فى خداعه لهم
والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان . مأخوذ من طغيان الماء وهو تجاوز

فيضانه الحد المألوف . والمدّ الزيادة في الشيء متصلة به ، يقال : مد البحر زاد وارتفع ماؤه وانبسط . ومدّه الله قال تعالى (٣١: ٢٨) والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر) ومد البحر يقابله الجزر ، وهو انحسار مائه عن الساحل ونقصان امتداده . ويسمى السيل مداً من قبيل التسمية بالمصدر ، ومنه المدة من الزمان ، والمدد - بالتحريك - للجيش . يقال مدّه وأمدّه . قال تعالى (١٩ : ٧٥) قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً حتى إذا رأوا ما يوعدون - إما العذاب وإما الساعة - فسيعلمون من هو شرمكناً وأضعف جنداً) وسياقياً مزيد يبين لهذا المعنى في تفسير قوله تعالى من سورة الانعام (٦ : ١٠٩) وتقلب أفئدتهم وأبصارهم . كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون (والمعنى : أن سنة الله تعالى في الذين وصلوا إلى هذه الغاية من فساد الفطرة هو ما بينه بقوله فيهم : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ المشار إليه بأولئك هم الذين بينت حالهم الآيات السابقة بأنهم يقولون : آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين الخ وهو صريح في أن طغيانهم وعمههم من كسبهم ، ولم يجبروا عليه بخلاف ربه . قال الأستاذ : وقد فسروا « اشتروا » باستبدلوا . وهو غير سديد لان بين اللفظين فصلاً في المعنى ، وكلنا نعتقد - والحق ما نعتقد - أن القرآن في أعلى درج البلاغة لا يختار لفظاً على لفظ من شأنه أن يقوم مقامه ، ولا يرجح أسلوباً على أسلوب يمكن تأدية المراد به ، إلا الحكمة في ذلك وخصوصية لا توجد في غير ما اختاره ورجحه . ووجه اختياره « اشتروا » على استبدلوا أن الأول أخص من وجهين :

أحدهما : أن الاستبدال لا يكون شراء إلا إذا كان فيه فائدة يقصدها المستبدل منه ، سواء كانت الفائدة حقيقية أو وهمية

ثانيهما : أن الشراء يكون بين متبايعين بخلاف الاستبدال ، فإذا أخذت ثوباً من ثيابك بدل آخر ، يقال إنك استبدلت ثوباً بثوب ، فالمعنى الذي تؤديه الآية : أن أولئك القوم اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة لهم بازائها يعتقدون الحصول عليها من الناس ، فهو معاوضة بين طرفين يقصد بها الربح ، وهذا هو معنى الاشتراء والشراء ، ومنه البيع والابتيع ، ولا يؤديه مطلق الاستبدال ذلك بأنه كان عندهم كتب سماوية فيها مواعظ وأحكام ، وفيها بشارة بأن الله

يرسل اليهم نبياً يحمل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصر التقاليد ، وأغلال التقيد بارادة العبيد ، ويرعى جميع الامم بقضيب من حديد ، فيرجع للعقول نعمة الاستقلال ، ويجعل إرادة الأفراد هي المصروفة للأعمال فكان عندهم بذلك حظ من هداية العقل والمشاعر وهداية الدين والكتاب ، ولكن نجحت فيهم الاحداث والبدع ، وتحكمت فيهم العادات والتقاليد ، وعلاسلطان ذلك كله على سلطان الدين ، فضل الرؤساء في فهمه ، بتحكيم تقاليدهم في أحكامه وعقائده ، بضروب من التحريف والتأويل . وأهل المرء وسون العقل والنظر في الكتاب يحظر الرؤساء وأثرهم ، فكان الجميع على ضلالة في استعمال العقل وفي فهم الكتاب ، بعد أن كانوا هدايتين ممنوحتين لهم لاسعادهم ، وكانت المعاوضة عند الفريقين في ذلك بالمنافع الدنيوية : للرؤساء المال والجاه والتعظيم والتكريم باسم الدين ، وللمرؤسين الاستعانة بجاه رؤساء الدين على مصالحهم ومنافعهم ، ورفع أثمان التكليف ، بفتاوى التأويل والتحريف . هكذا استحبوا العمى على الهدى — وهو العقل والدين — رغبة في الحطام ، وطمعاً في الجاه الكاذب ﴿ فماربحت تجارتهم ﴾ في الدنيا ، إذ لم تثمر لهم ثمرة حقيقية ، بل خسروا وخابوا باهمالهم النظر الصحيح الذي لا تقوم المصالح ولا تحفظ المنافع إلا به . وإسناد الريح إلى التجارة غربي في غاية الفصاحة لأن الريح هو النماء في التجرة ، وهذه المعاوضة هي التي من شأنها أن تثمر الريح ، فإسناده إليها نفيًا أو إثباتًا إسناد صحيح لا يحتاج إلى التأويل [كأنه قيل فلم يكن نماء في تجارتهم . على أن ذلك التأويل المعروف من أن إسناد الريح إلى التجارة لأنها سببه والوسيلة إليه وأن العبارة من الحجاز العليلي — تأويل يتفق مع البلاغة ولا ينافيها ، ولا زال الحجاز العليلي من أفضل ما يزين البلغاء به كلامهم . ويبلغون به ما يشاءون من تنعيم معانيهم] ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ في ذنبتهم لأنهم لم يأخذوه على وجهه ولم يفهموه حق فهمه أو ما كانوا مهتدين في هذه التجارة لأنهم باعوا فيها ما وهبهم الله من الهدى والنور بظلمات التقاليد وضلالات الأهواء والبدع التي زجوا أنفسهم فيها — أو ما كانوا مهتدين في طور من الاطوار ولا مس الرشد قلوبهم في وقت من الأوقات لأنهم نشؤا على التقليد الاعمى من أول وهلة ولم يستعملوا عقولهم قط في فهم

أسراره ، واقتباس أنواره . ولا يذهبن الوهم إلى أن اشتراء الضلالة بالهدى يفيد أنهم كانوا مهتدين ثم تركوا الهدى للضلالة ، فيتناقض أول الآية مع آخرها ، إذ ليس لكل من منح الهدى يأخذ به فيكون مهتدياً ، وهؤلاء يحملوه ، فباعوه ولم يحملوه ، وينظر إلى هذا الاشتراء ، ويشبهه الاستحباب في قوله تعالى (١٧:٤١) وأما نود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) والله أعلم

ومن مباحث الأداء قراءة حمزة والكسائي (الهدى) بالامالة أي جعل مدها بين الألف والياء ، وهي لغة بني تميم ، وعدم الإمالة لغة قريش وهي الفصحى ، ولما كان يعسر على لسان من اعتادها تركها أذن الله تعالى بها فيما أقرأ جبريل النبي ﷺ

(١٧) مَثُومٌ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٨) صَمٌّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

أقول : المثل بفتح الحين والمثل بالكسر والمثيل كالشبهه والشبهه والشبيه وزناً ومعنى في الجملة ، وهو من مثل الشيء مثولاً إذا انتصب بارزاً فهو مائل . ومثل الشيء - بالتحريك - صفته التي توضحه وتكشف عن حقيقته أو ما يراد ببيانه من نعوته وأحواله . ويكون حقيقةً وبجازاً ، وأبانه : تمثيل المعاني المعقولة بالصورة الحسية وعكسه ومنه الأمثال المضروبة وتسمى الأمثال السائرة ، وسيأتي تحقيق معناها في تفسير (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما) ومنه ما يسميه البيانيون الاستمارة التمثيلية وهو خاص بالمجاز . والتمثيل أمثل أساليب البلاغة وأشدّها تأثيراً في النفس وإقناعاً للعقل ، قال تعالى (٢٩:٤٣) وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وما رأيت أحداً من علماء البلاغة وفاه حقه من البيان المقنع إلا إمامهم الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة) وهالك ما كنت كتبت في تفسير هذا المثل ثم ما بعدة إجمالاً ثم تفصيلاً ، مقتبساً معانيه من دروس أستاذنا الامام: هذا مثل من مثلين ضربهما الله في هذه الآيات للصنف الثالث من الناس الذين قرع القرآن أبواب قلوبهم . وكان من عناية الله تعالى في بيان حاله أن

قمت على ذلك التفصيل في شر فرقه وأطوارهم بضرب المثل الذي يقصد به تجلي المعنى في أتم مجاله ، وتأثر النفوس بما أودع فيه ، ناهيك بما في التنقل في الأساليب من توجيه الذهن إلى سابق القول ودعوة الفكر إلى مراجعة ما مضى منه . ولولا أن بلاء هذا الصنف عظيم ، وداءه دفين ، وعلاجه متعسر — لأنه متولد من الدواء الذي كان يجب أن تكون فيه الصحة ونعمة العافية — لما كان من البلاغة ولا من الحكمة ، أن يعنى بشأنه كل هذه العناية ، كما قلنا في تزييف رأى من ذهب إلى أن الكلام في تلك الشرذمة من المنافقين في عصر التنزيل ضرب الله تعالى لهذا الصنف في مجموعه مثلين ، ينبشان بانقسامه إلى فريقين ، خلافاً لما في أكثر التفاسير في أن المثلين لفريق واحد ، وأن معناهما ووضوعهما واحد

(الأول) من آتاهم الله ديناً وهداية عمل بها سلفهم فحنوا ثمرها ، وصلاح حالهم بها ، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ، آخذين بإرشاد الوحي ، واقفين عند حدود الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم في الأخذ بها ظاهراً وباطناً ، ولم ينظروا في حقائق ما جاءهم ، بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة إنما كان أمراً خصوصاً به ، أو خيراً سبق إليهم ، لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم ، وإن كان ذلك العمل لم يخالف سرائرهم ، ولم تصلح به ضائرهم ، فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع في نفوسهم مجالاً لغيرها ، ولذلك لم يتفكروا قط في كونهم أخرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم ، لأن حفظ الموجود ، أيسر من إيجاد المفقود ، بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذي اقتدى من قبلهم بما فيسه من شمس العرفان ، ونجوم الفرقان ، لزعمهم أن فهمه لا يرتقى إليه إلا أفراد من رؤساء الدين ، يؤخذ بأقوالهم ما وجدوا ، وبكتبهم إذا فقدوا

فمثل هذا الفريق من الصنف الخذول في فقدته لما كان عنده من نور الهداية الدينية ، وحرمانه من الاهتداء بها بالمرّة ، وانطلاس الآثار دونها عنده — مثل من استوقد ناراً الخ . والوجه في التمثيل : أن من يدعى الإيمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يهتدى بها في الشبهات ، ويستضيء

بها في ظلمات الريب والمشكلات، و يبصر على ضوءها ما قد يهجم عليه من مفترسة
الاهواء والشهوات، فلما أضاعت ما حوله بما أودعته من الهدى والرشاد، وكاد بالنظر
فيها يمشى على هداية وسداد — هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث،
وعصب عينيه شيطان الغرور، فذهب عنه ذلك النور، وأطبق عليه جو الضلالة
بل طفيء فيه نور الفطرة، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه، فهم بمنزلة الأعمى
الأصم الذي لا يبصر ولا يسمع .

وأما الفريق الثانى فقد ضرب الله له المثل في قوله (أو كصيب من السماء) الخ،
وهو الذى بقى له بصيص من النور، فله نظرات ترمى إلى ما بين يديه من
الهداية أحياناً، ولعماني التنزيل لمعان يسطم على نفسه الفينة بعد الفينة، ويأتلق
في نظره الحين بعد الحين، عند ما تحركه الفطرة، أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين
يديه، ولكنه من التقليد والبدع في ظلمات حوالمك، ومن الخبط فيها على حال
لا تخلو من المهالك، وهو في تحبطه يسمع قوارع الانذار الإلهي ويبرق في عينيه
نور الهداية، فاذا أضاء له ذلك البرق السماوي سار، وإذا انصرف عنه بشبه
الضلالات الغرارة قام ونجبر لا يدري أين يذهب . ثم إنه ليعرض عن سماع نذر
الكتاب ودعاة الحق، كمن يضع إصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع إرشاد المرشد
ولا نصيح النصيح، يخاف من تلك القوارع أن تقتله، ومن صواعق النذر أن تهلكه
هذا هو شأن فريق هذا الصنف بما يشير إليه المثلان إجمالاً . وفي تفسير
الآيات تفصيل ما أشرنا إليه

قال تعالى ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ العرب تستعمل لفظ «الذى»
في الجمع كلفظي «ما» و«من» ومنه قوله تعالى (٩: ٦٩) وخضتم كالذى خاضوا) وإن شاع
في «الذى» الافراد لأن له جمعاً وقد روى في قوله «استوقد» لفظه، وفي قوله «ذهب»
الله بنورهم» معناه، والفصيح فيه مراعاة اللفظ أولاً، ومراعاة المعنى آخرًا . والتفنن
في إرجاع الضمائر متفرعة ضرب من استعمال البلغاء، يقرر المعنى في الذهن وبهيه
فضل تمكن وتأكيد، بما يحدث فيه من الروية والتوجه إلى الإحاطة بمعاني الختلفات.

أقول : استوقد النار طلب وقودها بفعله أو فعل غيره ، وقالوا : إنه بمعنى أوقدها ويرجع إلى الأول بأنه طلب باضرامها وإيرائها أن تقد . يقال : وقدت النار تقد وتوقدت واتقدت واستوقدت - لازم - ومعنى الجملة في مناقبي اليهود قد تقدم آنفاً بالإجمال ، وسيحىء تفصيله . وأما مناقبو العرب - الذين قال تعالى فيهم من سورتهم (٣: ٦٣) ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا) الآية - فيقال فيهم : مثلهم وصفتهم في إسلامهم أولاً وكفرهم آخرًا . كمثل فريق من الناس أوقد ناراً لينتفع بها في ليلة حالكة الظلام ، وينصر ما حوله مما عساه يضره لينقيه ، أو لينفعه ليحفظه

﴿ فلما أضاءت ما حوله ﴾ يقال أضاءت النار والشمس وأضاءت - لازم - ويقال أضاء المكان

وأضاءته النار أى أظهرته بضوئها . قال العباس (رض) في النوى صلى الله عليه وسلم
وأنت لما ظهرت أشرفت الأَرْضُ ضِضٌ وأضاءت بنورك الأفق
والمعنى المتبادر : فلما أضاءت النار ما حوله من الأمكنة والأشياء وتمكن من الانتفاع بها والاستضاءة بنورها ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ بإطفاء نارهم بنحو مطر شديد نزل عليها ، أو عاصف من الريح حرقها وبددها ، وهذا بالنسبة إلى المثل ، وأما بالنسبة إلى المضروب فيهم المثل من العرب ، فالتنوير للاسلام الذي أضاء قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين (٣٩: ٢٢) أفن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) وذهابه في الدنيا ما عرض لهم من الشك أو الجزم بالكفر حتى لم يعودوا يدركون منافعه وفضائله ، وأما ذهابه بعدها فأوله الموت . فإن المنافق يرى بالموت أو قبيل خروج روحه منزلته بعدها ، وبعده ظلمة القبر أى حياة البرزخ ، وبعدها موقف الحساب والجزاء (٥٧ : ١٣-١٥) يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقبَس من نوركم - قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرِبَ بينهم بسورة له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ، وغررتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله وغرمت بالله الغرور) الخ الآية التالية ، وفي هاتين الآيتين أصدق بيان المراد من ذهاب الله بنورهم ، وكونه ليس إجباراً لهم على الكفر ، ولا عبارة عن تسليمهم التمكن من الإيمان ، وإنما هو تعبير عن سنة الله تعالى في عاقبة فتنهم لأنفسهم الخ

وقال شيخنا في تطبيق المثل على اليهود وأمثالهم من هذه الأمة ما معناه :
استوقدوا بفطرتهم السليمة نار الهداية الآتية بتصديقهم ، فلما أضاءت لهم
بروقها ، ووضح لهم طريقها ، فاجأتهم التقاليد الموروثة ، و باغتتهم العادات المألوفة ،
وشغلهم ما يتوهمونه فيها من المنافع والفوائد ، وما يتوقعونه في الاعراض عنها من
المصارع والمفاسد ، عن الاستعانة بذلك الضوء على سلوك ذلك الصراط المستقيم ،
والتفرقة بين نهارة المشرق وظلمات ليلها البهيم ، بل استبدلوا هذا اللديجور ، بذلك
الضياء والتور ، وهذا هو معنى ذهاب نورهم . وإنما قال (ذهب الله بنورهم) ولم يقل
ذهب نورهم ، أو أذهب الله نورهم . للاشعار بأن الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه
عندما استوقدوا النار فأضاءت ، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التي فطر
الناس عليها ، معتقدين صحة شريعته التي دعا الناس إليها ، وبأنه تخلى عنهم عند
ما نكبوا عن تلك السبيل ، وعاقوا ذلك المورد السلسيل .

ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية في التوجه
إليه وقصد اتباع هدايته ، والاستضاءة بنوره الذي وهبه إياه ، فإذا أعرض عنه
وكله الله إلى نفسه ، وذهب بنوره . وإذا ذهب النور لا يبقى إلا الظلمة ، وما كان
هؤلاء في ظلمة واحدة ، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض ، متمدة بتعدد أنواع
التقاليد التي فتنوا بها ، وبتعدد أنواع الهداية التي أعرضوا عنها ، ولذلك قال :

﴿ وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ شيئا . حذف مفعول يبصرون إربا نأبالعموم ،
أى لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ولا يرون طريقا من طرقها ، لأنه صرف
عنايته عنهم بتركهم سفته ، وإهمالهم هدايته . ووكلمهم إلى أنفسهم . ويأويل من
وكله الله إلى نفسه ، وحرمة توفيقه ، نسأل الله العافية

هذا المثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته ، لأنه سد على نفسه جميع أبواب
الهداية فلا يثق بعقله ولا بجواسه ولا بوجوده إذا خالفت تقاليدته - وعدم الابصار
بذهاب النور غير كاف لتمثيل هذا اليأس والخرمان ، لجواز أن يلوح بارق ، أو يذر شارق ،
أو يصبح طارق ، فتكون الهداية ، وتنكشف الغواية ، ولذلك عقبه بقوله تعالى
﴿ لهم بكم عمى ﴾ أى إنهم فقدوا منفعة السمع الذي يؤدي إلى النفس ما يليق به

المرشدون إليها من الحجج القاطمة ، والدلائل الناصعة ، فلا يصيخون إلى وعظ واعظ ، ولا يصغون لتفسيه منبه ، « فما أضيع البرهان عند المقلد » بل لا يسمعون وإن أصاخوا ، ولا يفقهون إن سمعوا ، فكأنهم صم لم يسمعوا - وقدوا منفعة الاسترشاد بالقول وطلب الحكمة من معاهدها ، فلا يسألون بياناً ، ولا يطلبون برهاناً ، وقدوا خير منافع الأبصار ، وهو نظر الاستفادة والاعتبار ، فلا يرون ما يحل بهم من الفتن فينجزوا ، ولا يبصرون ما تنقلب به أحوال الأمم فيعتبروا ، ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ عن ضلالتهم ، ولا يخرجون من ظلماتهم ، لأن من وقع في أرض فلاة في ليلة مظلمة وفقد فيها جميع حواسه لا يمكنه أن يسمع صوتاً يهتدى به ، ولا أن يصيح هو لينقذه من يسمعه ، ولا أن يرى بارقاً يؤمه ويقصده ، فهو لا يرجع من تيهه ، بل يظل يعمه في الظلمات ، حتى يفترسه سبع ضار ، أو يصل إلى شفاجر ف هار ، فينهار به في شر قراره (وما للظالمين من أنصار)

(١٩) أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (٢٠) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ . وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هذا هو مثل الفريق الثاني من هذا الصنف من الناس ، الذي كان أفراده ولا يزالون فتنه للبشر ، ومرضاً في الامم ، وحجة على الدين ، لأنهم بغرورهم بتقاليدهم التي اكتفوا بها من دينهم الموروث ، يعيشون بعقولهم ؛ ويلهون بخيالاتهم ، ويحجون على مشاعرهم ومداركهم فيضعفونها ، ويضارعون الفطرة الالهية فيصرعونها ؛ حتى يكون بعضهم كالجنادات (صم بكم عى) كما تقدم في المثل الأول ؛ ويألف البعض الآخر الظلمة بطول التقليد ، ويكون أفراده في نور البرهان كالخفافيش في نور الشمس ؛ ولكنهم أمثل من الفريق الذي ضرب له المثل الأول

لأن فيهم بقية من الرجاء ورمقاً من الحياة ؛ ووجههم إلى الاقتباس من نور الهداية
كلما أضاءت لهم بروقها ، والمشى في الجادة كلما استبانوا طريقها ، ولكن تحول دون
ذلك ظلمات التقاليد العارضة ، وتقف في السبيل عقبات البدع المعارضة ، وقد
يعدم لاستماع قوارع الآيات التي تنذرهم بما حرفوا ، وضوادع الحجج التي تبين
لهم كيف انحرفوا ، ولا يصددهم عنها إلا أنها نزعهم إلى ترك ما صنعوا وألفوا ، وهجر
ما أحبوا وألفوا ، وعدم المبالاة بسنة الآباء ، وقلة الاحتفال بعظمة الرؤساء ، فهم
يتراوحون بين الخوف والرجاء ، مذنبين بين أهل الجحود وأهل اليقين (لا إلى
هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء) ، ولا ينقطع منهم الأمل ، حتى ينقطع بهم الأجل .

الأترام عندما يقرع أسماعهم من كتاب ربهم ما يبين فساد سيرتهم ، والتواء
طريقهم ، كقوله تعالى في النعي على أمثالهم : وحكاية مالم يرضه من أقوالهم ، (٤٣ : بل قالوا
إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) الخ : وقوله في بيان ندمهم على
التقليد ، عند ما يحمل بهم الوعيد ، (٣٣ : بنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأولونا السبيلا)
يأخذهم الزلزال ، ويتولاهم الاضطراب والقلق ، وتنشق لهم الظلمة عن فلق ، ويبلغ في
نفوسهم نور الهداية الفطرية فيمشون في خطوات ، ثم تحيط بهم الظلمات ، وينقطع
بهم الطريق كما ألمعنا آنفاً . وأسباب غلبة الظلمات على النور هي موافقة ما عليه
الجمهور ، والاختلال إلى الهوى ؛ وتفضيل عرض هذا الأدنى ؛ وانتظار المغفرة ولو بما
تأولوه في معنى الشفاعة ؛ وتمنى الربح من غير بضاعة (٧ : ١٦٩) يأخذون عرض هذا الأدنى
ويقولون : سيغفر لنا ، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب
أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ؟) بلى هو عندهم مدروس مجذليات
النحو والكلام ، ولكنه دارس الصوى والاعلام ، المنصوبة لهداية القلوب والاحلام
ومقروء بالتجويد والانعام ، ولكنه متروك الحكم والأحكام ، يقرؤه الكسب
الحطام ، لا لمعرفة الحلال والحرام ، ولا يتلونه لاصلاح القلب واللسان ، بتركبة النفس
وتغذية الايمان ، ويكتبونه لشفاء الأبدان من الأسقام ، لا لشفاء ما في الصدور
من الأوهام والآثام ، ولو كان له أنصار يدعون إليه ، وهداة يعتصمون به
ويمولون عليه ، لتبددت الظلمات أمام الانوار ، ومحت آية الليل آية النهار .

تلك الارشادات الالهية بمنزلة المطر الذي ينزل من السماء، والزوال والاضطراب الذي أشرنا إليه بمنزلة الرعد، واستبانة الصراط المستقيم الذي يلعب في أنفسهم من ذلك كالبرق، والعادات والتقاليد والشهوات والخوف من ذم الجماهير عند العمل بما يخالفهم كالظلمات التي تصد عن سلوك الطريق بل تعميه على طاليه وبحجبه عنه، ولذلك قال تعالى في تمثيل حال هذا الفريق ﴿أو كصيب من السماء﴾ أى قوم نزل بهم صيب، ووصفه بأنه من السماء مع العلم بأن الصيب لا يكون إلا من السماء للاشعار بأنه أمر لا يملكون دفعه وليس ملاكه في أيديهم، ومن المعهود عند بلغاء العرب التعبير عما يلم بالناس مما لا دافع له بأنه نزل من السماء، ولا جرم أن تلك السوانح التي تسنح في الأفكار، والالهامات الالهية، لأصحاب الفطرة الزكية، التي يكون من أثرها ما أشار إليه المثل، وتقدم التنبيه عليه، هي أمر وهى واقع، ماله من دافع.

قال تعالى في وصف الصيب ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ الظلمات هي ظلمة الليل وظلمة السحب وظلمة الصيب نفسه، والرعد هو الصوت المعروف الذي يسمع في السحاب عند اجتماعه أحياناً، والبرق هو الضوء الذي يلعب في السحاب في الغالب وقد يلعب من الأفق حيث لا سحاب، وقال مفسرنا الجلال السيوطي: إن الرعد ملك أو صوته، والبرق سوطه يسوق به السحاب، كأن الملك جسم مادي لأن الصوت المسموع بالأذان من خصائص الأجسام، وكان السحاب حمار بليد لا يسير إلا إذا زجر بالصراخ الشديد والضرب المتتابع. وما ذكرناه هو الذي كان يفهمه العرب من اللفظين، وهو الذي يفهمه الناس اليوم، ولا يجوز صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية إلا بدليل صحيح، ولا سيما إذا صرفت عن معاني من عالم الشهادة الذي يعرفه الواضعون والمتكلمون، إلى معاني من عالم الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى. ومن أعلمهم الله تعالى إياها بالوحي، ولكن أكثر المفسرين ولعوا بحشو تفاسيرهم بالموضوعات التي نص المحدثون على كتيبها، كما ولعوا بحشوها بالقصص والاسرائيليات التي تلقفوها من أفواه اليهود وأصقوها بالقرآن لتكون بياناً له وتفسيراً، وجعلوا ذلك ملحفاً بالوحي، والحق الذي لا مريفة فيه: أنه لا يجوز إلحاق شيء بالوحي غير ما تدل

عليه ألفاظه وأساليبه، إلا ما ثبت بالوحي عن المعصوم الذي جاء به ثبوتاً لا يخالطه الريب أقول : هذا ما قاله الأستاذ في الرعد والبرق رداً على الجلال فيما تبع فيه ماروي في التفسير المأثور عن بعض الصحابة والتابعين ، ولا يصح منه شيء ، وأمثلة ما رواه الترمذي بسند ضعيف من سؤال اليهود للنبي ﷺ وقد رأينا السيوطي لم يذكر من هذه الروايات شيئاً في تفسير الآية من كتابه (الدر المنثور) المخصص لنقل المأثور ، وكذلك ابن كثير ، وكأن هذا عنده من الاسرائيليات مع عدم صحة الرواية فيه . وفسرهما البغوي بمفهومها اللغوي . فقال في الرعد « هو الصوت الذي يسمع من السحاب » وفي البرق « هو النار التي تخرج منه » ثم قال : قال علي وابن عباس وأكثر المفسرين : الرعد اسم ملك يسوق السحاب . والبرق لمان سوط من نور يزجر به الملك السحاب . وقيل الصوت زجر السحاب وقيل تسبيح الملك ، وقيل الرعد نطق الملك والبرق ضحكه . وقال مجاهد : الرعد اسم الملك ويقال لصوته أيضاً رعد ، والبرق اسم ملك يسوق السحاب . وقال شهر بن حوشب : الرعد ملك يزجي السحاب فإذا تبددت ضمها ، فإذا اشتد غضبه طارت من فيه النار فهي الصواعق ، وقيل : الرعد انخراق الريح بين السحاب ، والأول أصح اه . ولم يذكر الحديث المرفوع لأنه أضعف عنده مما ذكره فيما يظهر .

أقول : ولا شك عندي في أن هذه الأقوال كلها مما كان يذمه مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه بين المسلمين ، من الصحابة والتابعين ، ولو صح في حديث مرفوع بسمع صحيح لا يمتثل أن يكون من الاسرائيليات لما وقع فيه مثل هذا الخلاف ، ولأمكن حمله على أن المراد به الإشارة إلى أن هذه المظاهر الكونية تقع بفعل ملك موكل بالسحاب ، ولكن لا حاجة إلى ذلك مع عدم صحة شيء في المسألة والملائكة من عالم الغيب ، وهم لا يرام الناس إلا إذا تمثلوا نبي أو ولي على سبيل المعجزة أو الارهاص كتمثل الروح للسيدة مريم عليها السلام ورؤية الصحابة لجبريل في حضرة النبي ﷺ بصورة رجل يسأل عن الإيمان والاسلام والاحسان والبرق من عالم الشهادة لا من عالم الغيب .

وقول البغوي : وقيل الرعد : انخراق الريح بين السحاب - يريد به قول

فلاسة اليونان الذى اغتر به بعض المسلمين ، قال البيضاوى : والرعد صوت يسمع من السحاب . والمشهور أن سببه اضطراب اجرام السحاب واصطكاكها إذا حدثها الريح من الارتعاد اه . وهو قول باطل والسحاب بخارج لا يحدث اضطرابه صوتا .

وقال تعالى فى أصحاب الصيب ﴿ يجملون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ الصاعقة هى ما كان يعرفه العرب ويعرفه كل واحد وهو ما ينزل فى أثناء المطر والبرق والرعد فيصعق ما ينزل به ، بأن يهلك أو يلحقه ضرر ، وما تفسيرنا للبرق والرعد والصاعقة مع كونها معروفة لكل الناس إلا لأن المفسرين صرفوا أفهامهم عن المعروف إلى غيره ، كما حكى عن (ارسطو) حكيم قدماء اليونان أن تلاميذه سأله عن تعريف الحركة ، فقام ومشى ، وما أنطقهم بالسؤال عنها على بدايتها إلا أنهم اعتادوا أن يسمعوها من الفلاسفة أقوالا فى الأمور الخلية . تجعلها غامضة خفية .

وأما حقيقة البرق والرعد والصاعقة وأسباب حدوثها فليس من مباحث القرآن لأنه من علم الطبيعة - أى الخلية - وحوادث الجوائى فى استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم ولا تتوقف على الوحى . وإنما تذكر الظواهر الطبيعية فى القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال ، وصرف العقل إلى البحث الذى يقوى به الفهم والدين ، والعلم بالكون ينمى ويضعف فى الناس ويختلف باختلاف الزمان . فقد كان الناس يعتقدون فى بعض الأزمنة أن الصواعق تحدث من أجسام مادية لما كان يشمونها فى محل نزولها من رائحة الكبريت وغيره ، ورجعوا عن هذا الاعتقاد فى زمن آخر ملاحظين أن تلك الرائحة لا تكون دائما فى محل الصاعقة . وقد ظهر فى هذا الزمان أن فى الكون سيالا يسمونه الكهر بآء ، من آثاره ماترون من التلغراف والتليفون والترامواى . وهذه الأضواء الساطعة فى البيوت والأسواق ، من غير شموع ولا زيت ولا ذبال وإنما تكون باتصال سلكين دقيقين كالخيوط التى تخاط بها الثياب ، أحدهما يحمل أو يوصل السيلال الكهر بآء الذى يسمونه الموجب ، والآخر يوصل السيلال المسمى بالسالب ، و باتصال السلكين ، يتولد النور من تلاقى السيلالين . و باقتطاعهما أو للفصل بينهما ينفصل السيلالان فينقطع الضوء من المصابيح والحركة من الآلات

والكهر بائية موجودة في كل شيء ، والبرق في السحاب يتولد من اتصال نوعيهما الموجب والسالب بقدره الله تعالى ، كما يتولد في الأرض بعمل الانسان . وقد استنزل بعض علماء الكهر بائية قبس الصاعقة من السحاب إلى الأرض ، والصاعقة من أنرا الكهر بائية ، وهي تفرغ السحاب طائفة منها في مكان لجاذب في الأرض يجذبه ، وكثيراً ما حصل الصعق لعمال التلغراف ، لما بين السحاب والاسلاك من الجاذبية . ومعرفة الناس بالسبب الحقيقي للصواعق هدام إلى حفظ الابنية الشاهقة منها باتخاذ القضيبي المعروف الذي يسمى قضيبي الصاعقة ، فلا تنزل الصواعق على بناء رفع فوقه هذا القضيبي ، ولا مجال في تفسير القرآن للتطويل في أمثال هذه المسائل الطبيعية لأنها تطلب من فنونها الخاصة بها ، فلنعد إلى بيان المثل

استحضر حال قوم مشاة في فلاة من الأرض نزل عليهم بعدما أقبل ظلام الليل صيب من السماء قصفت رعوده ، ولملت بروقه ، وتصور كيف يهرون بأصابعهم إلى آذانهم كما حدث قاصف من الرعد ، ليدفعوا شدة وقعه بسد منافذ السمع برعوس الأنامل ، وعبر عن الأنامل بالأصابع هذا التعبير المجازي اللطيف للشعار بشدة عنايتهم بسد آذانهم ، ومبالغتهم في إدخال أناملهم في صم ليخفا ، كأن كل واحد منهم يحاول بمادهم من الخوف أن يفرس إصبه كلها في أذنه ، حتى لا يكون للصوت منفذ إلى سمعه ، لما يجذره على نفسه من الموت الزؤام ، ومعالجة الحمام ، وهذا هو الجبن الخالع ، ومنتهى حدود الخفاقة ، لأن سد الأذان ليس من أسباب الوقاية من أخذ الصاعقة ونزول الموت ، والموت فقد الحياة بمفارقة الروح للبدن ، وخلق الله له عبارة عن تقديره أو عن قبضه للروح وتوفيه للنفس

وقوله تعالى ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ يرشدنا في أثناء شرح المثل وتقريره إلى حال من ضرب فيهم المثل لئلا يذهلنا ما نتصوره من حال المشبه به عن حال المشبه المقصود بالذات . وهو أن التصامم والهروب من سماع آيات الحق والحذر من صواعق براهينه الساطعة أن تذهب بتقاليدهم التي يرون حياتهم المليمة مرتبطة بها لا يفيدهم شيئاً ، لأن الله تعالى محيط بهم ، ومطلع على سرايرهم ، وعالم بما في

« تفسير القرآن الحكيم » « ١٢ » « الجزء الأول »

ضماهم ، وقادر على أخذهم أينما كانوا ، وفي أي طريق سلكوا ، فلا يهربون من برهان إلا ويفاجئهم برهان آخر ، كالغريق يدفعه موج ويتلقاه موج حتى يقذف به إلى ساحل النجاة ، أو يدفعه إلى هاوية العدم ، ولهذا قال (محيط بالكافرين) ولم يقل محيط بهم . أقول : فوضع الاسم المظهر موضع المضمرة للائذان بأنهم إنما كانوا كذلك بكفرهم ، وأن ذلك يرد في أمثالهم . والمراد بالاحاطة هنا إحاطة القدرة ، فمن لم يمته بأخذ الصاعقة أماته بغيرها * تنوعت الاسباب والموت واحد * والمحيط بالشيء لا يمكن أن يفوته وينفلت من قبضته

* يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا * إذا لمع البرق بشدة مفاجئا من هو في ظلمة فانه يؤثر في بصره تأثيراً يكاد يخطفه ، والخطف هو الأخذ بسرعة ، ولكنه يبين به جزءاً من الطريق فيمشي فيه خطوات ثم يعتكر عليه الظلام ، وتستحوذ عليه المخاوف والاهوام ، فيقف في مكانه ، أو يعود البرق إلى لمعانه ، ويحكي هذا من حال الممثل بهم أنه عند ما يدعوهم الداعي إلى أصل الدين ، ويوضح لهم سبب ما هم فيه من البلاء المبين ، ويتلو عليهم الآيات البينة ، ويقيم لهم الحجج القيمة ، على أنهم تنكبوا الصراط السوي ، وأصيبيوا بالداء الدوي ، يظهر لهم الحق فيعزمون على اتباعه ، وتسير أفكارهم في نوره بعض خطوات ، ولكن لا يعتمدون أن تعود إليهم عتمة التقليد وظلمة الشهوات ، وغبسة الأهواء والشبهات ، فتقيد الفكر وإن لم تقف سيره ، وإنما تعود به إلى الخيرة — كما تقدم في أول الكلام — ثم يتكرر النظر في تضاعفها بطريق الالتفات والالمام . وفيه : أنهم على سوء الحال وخطر المسالك ، لم تنقطع منهم الآمال ، كما انقطعت من أصحاب المثل الأول الذين وصفوا بالصم البكم

العمى ولذلك قال فيهم * ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم * حتى لا ينجم فيهم وعظ واعظ ولا تفيدهم هداية هاد ، ولم يقل : إنه ذهب بنورهم كذهب بنور أولئك وسلميهم كل أنواع الهدى والرشاد ، فوقع اليأس من رجوعهم إلى الحق . وقوله تعالى (ولو شاء الله) الخ رجوع إلى بيان حال من ضرب فيهم المثل . لا من تمة المثل ، وقد

كنى عنهم بالضمير هنا لأن المثل قد تم ، بعد ما ذكرهم في قوله (والله محيط بالكافرين) بالوصف الذي اقتضى التمثيل . هذا ما قاله شيخنا ، وهو أحد قوانين المفسرين ، ومنهم من جعله تنمة للمثل نفسه ، والمقصود من ضرب فيهم المثل ، على أن كلاما من المعنيين صحيح لا ينافي الآخر ، وكلام بعضهم يمنع الجمع فقد قال البغوي : ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم الظاهرة . كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة اه وهو خطأ بياني فإن الباطنة هي المقصود من الظاهرة بأسلوب التشبيه البليغ وهو الاستعارة . ومع هذا فقد جعله شيخنا في صنف منهم غير الموصوفين بقوله (سم بكم عمى) وكلامه أظهر

﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ ليس عندي عن أستاذنا شيء في هذه الجملة ومعناها واضح لا يحتاج إلى تفسير ، ولكن قال بعض المفسرين : إن قدير بمعنى قادر ومثله كل صيغة مبالغة في أسمائه تعالى لأنه لا تفاوت فيها . وفيه أن المبالغة في الكلام ، لأجل التأثير في الأفهام ، فقوله (علام الغيوب) أبلغ من قوله (عالم الغيب) ولكل منهما موقع ، وهما لما هدد المنافقين بأنه لو شاء أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ، علله بأنه على كل شيء قدير ، الاعلام بأن تعلق مشيئته يتصل به تعلق قدرته ، فما شاء كان قطعاً لأنه لا يعجزه شيء ، وتأثير الأسباب في مسبباتها منوط بمشيئته تعالى

﴿ تنبيه صادع . في تطبيق القرآن على ما هو واقع ﴾

(وظهور معاني الأمثال المضروبة للمناققين ، في كثير من العلماء والعامه من المسلمين) عتب الأستاذ تفسير هذه الآيات بتنبيه ، ارتاع له الخامل والنبية ، ذلك أنه بين أن القرآن هاد ومرشد إلى يوم القيامة ، وأن معانيه عامة شاملة ، فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أشخاصاً مخصوصون ، وإنما نيط وعده ووعيده وتبشيره وإنذاره بالمعاقب والأخلاق والعادات والأعمال التي توجد في الأمم والشعوب . فلا يفترن أحد بقول بعض المفسرين : إن هذه الآيات نزلت في المنافقين الذين كانوا في عصر النبي ﷺ فيتوهم أنها لا تتناولوه وإن كانت منطبقه عليه . لأنه لم يتخذ القرآن إماماً وهدايا ، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خلقت له ، بل اكتفى

عن ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه ، في كل ما هم فيه ، ذكر ذلك عند بيان وجه الاتصال بين الآيات السابقة وما بعدها ، فقال بعد تلاوة الآية التالية مامعناه :

(٢١) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

في الناس المنادون هنا وجهان : أحدهما . أنهم الذين يقولون : آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ذلك الايمان الذي يملك القلب ويصرف النفس في الأعمال ، وهو المقبول عند الله تعالى ، وإنماهم آخذون بتقاليد ظاهرية ليس لها ذلك الأثر الصالح في أخلاقهم وأعمالهم . فهم يخادعون الله تعالى بالنلبس ببعض صور العبادات والأقوال و « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ^(١) والكلام على هذا لا يزال في الصنف الرابع من أصناف البشر المخاطبين بالقرآن كما تقدم ، فلا حاجة إلى بيان وجه الاتصال بين الآيات (الوجه الثاني) - وهو الراجح - أن الخطاب عام للناس كافة ، ووجه الاتصال بين الآيات على هذا أنه لما بين تعالى في أصناف الناس هذا الصنف الذي احتقر أفرادهم نعم الله تعالى عليهم . واستعظموها وأكبروها على من قبلهم . فرموا أنفسهم من أجل المزايا الانسانية . وأجلوا سلفهم حتى رفعوهم إلى مرتبة الربوبية . خاطب الناس عامة بأن يعبدوه . ملاحظين معنى الربوبية والخالقية التي تشملهم ومن قبلهم من السلف فتنتظمهم جميعاً في سلك العبودية للخالق تعالى شأنه . ولا يكون كذلك الصنف الخاسر الكفور بنعم المشاعر والعقل وهداية الدين . إذ لم يستعملوا عقولهم في فهم ما أنزل عليهم . بل اكتفوا بتقليد بعض

«١» حديث صحيح رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً وفي رواية أخرى لمسلم «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»

رؤسائهم وعلمائهم ، زاعمين أنه لا يقوى على فهم كتاب الله تعالى غيرهم ، كأن الله تعالى أنزل كتبه وخاطب بها نقرأ معدودين في وقت محدود ، ولم يجعله هداية عامة للأمم ، وإنما أزم سائر الناس في سائر الأوقات الاكتفاء باتباع أولئك الرؤساء وأتباعهم وأتباع أتباعهم وهلم جرا (١) ثم تركوا أتباعهم اتكالا على شفاعتهم ، واكتفاء بالانتساب إليهم ، وزعما أن الله أعطاهم ما لا يعطى مثله لأحد سواهم ، وإن عملوا مثل عملهم ، تعالى الله عن الظلم والحماة وهو ذو الرحمة التي لا تنتهي وذو الفضل العظيم

هذا النداء الإلهي المشعر بأن نسبة الناس الأولين إلى الله تعالى كنسبة الآخرين واحدة : هو الخالق وهم المخلوقون ، وهو المستحق للعبادة وهم المأمورون بها أجمعون ، - حجة علينا وعلى جميع من استن بسنة ذلك الصنف من قبلنا (قال شيخنا) وأخص طلاب علوم الدين بالذكر (٢) فينبغي للطالب أن يوجه نفسه إلى فهم القرآن ، ويحملها على الاهتمام به ، فإذا هو فعل ذلك تظهر عليه آداب الإسلام التي أشار إليها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله «أدبني ربي فأحسن تأديبي» (٣) وإنما كان أدبه القرآن (٤) ومن اشتغل بهذا حق الاشتغال وصل إلى معرفة أمراض

(١) مما يرد به عليهم : أن الذين يكتبون ويعلمون كثيرون . فإذا زعم المقدان الله تعالى أمر باتباعهم من غير نظر ولا استدلال وهم غير معينين فلاشك ان اتباع اي مذهب أو دين واجب ، ولا فرق بين سني ومبتدع ولا بين مسلم وكافر

(٢) قد خص طلاب العلوم بالذكر لأنه يرى أن علماء الأزهر وأمثالهم من كبار الشيوخ هم الفريق الميئوس منهم ممن شرح حالهم ، بل قال لي : إن من تطول مدة طلبه للعلم في الأزهر وأمثاله فانه يفقد الاستعداد للعلم

(٣) رواه العسكري في الأمثال من حديث علي رضي الله عنه مرفوعا ، وسنده ضعيف ، ومعناه كما قالوا صحيح

(٤) يشير الأستاذ إلى حديث عائشة عند أحمد ومسلم وغيرهما وقد سألت سعد بن هشام عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت «ألست تقرأ القرآن؟ قال قلت : بلى ، قالت : فان خلق نبي الله كان القرآن»

المسلمين الحاضرة ، ومنابع البدع التي فشت فيهم ، ومثارات الفتن التي فرقهم ، ويعرف علاج ذلك . وأن من ذاق حلوة القرآن لا ينظر في كتاب ولا يتلقى علماً ^(١) إلا ما يفتح له باب الفهم في القرآن أو ما يفتح له باب القرآن فيجده مرآته ، وما عدا ذلك مبعده عنه ، والبعد عن القرآن هو عين البعد عن الله تعالى وذلك هو الضلال البعيد

كل ما أمرنا به القرآن وأرشدنا إلى النظر فيه فلاشغال به اشتغال بالقرآن ، فإذا قال : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) فذلك تنبيه وإرشاد إلى الاعتبار بما خلقنا من الحكم والأسرار ، وينبغي لنا البحث عنها كما قال في آية أخرى : (٥١ : ٢٠ : ٢١ وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وإلى الاعتبار بتاريخ من قبلنا ، كما قال في آية أخرى : (٤٢ : ٣٠ قل سيرا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) وأمثال ذلك كثير لا يتعظ الإنسان بالقرآن فتطمئن نفسه بوعدته وتخشع لوعيده إلا إذا عرف معانيه ، وذاق حلوة أساليبه ، ولا يأتي هذا إلا بمزاولة الكلام العربي البليغ مع النظر في بعض النحو ؛ كنجو ابن هشام وبعض فنون البلاغة كبلاغة عبد القاهر ^(٢) وبعد ذلك يكون له ذوق في فهم اللغة يؤهله لفهم القرآن . قال الامام أبو بكر البقلاني : من زعم أنه يمكنه أن يفهم شيئاً من بلاغة القرآن بدون أن يمارس البلاغة بنفسه فهو كاذب مبطل

(١) قد يقال : إن هذا إنما يصح في العلوم الشرعية ووسائلها من الفنون العربية دون العلوم العقلية والكونية والاجتماعية . والصواب أن هذه العلوم تفتح من باب الفهم في القرآن ما لا يفتحه علم الفقه وعلم الكلام ، وستأتي الإشارة إلى ذلك . (٢) يعني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لأن كلا منهما مصداق جلي لاسمه ، فهو يعلم قارئه البلاغة بعبارة ومباحثه ويعينه على جعلها ملكة في نفسه وذوقاً له بأسلوبه وبلاغته . ولذلك حثنا الأستاذ على طبعهما وقرأهما لطلاب البلاغة في الجامع الأزهر . وأما مختصر السعد ومطوله فلا يتعلم قارئهما إلا الاصطلاحات الحافظة التي تقسد ملكة البيان وتبعد بقارئها عن ذوق البلاغة

فهل يصلح لمسلم بلغ ورشد وطلب العلم أن لا يجعل القرآن إمامه ويتخذهُ نوراً يمشى به في الناس ويهتدى به في ظلمات البدع ؟

أمامنا عقبتان كؤودان لا نرتقى عما نحن فيه إلا باقتحامهما ، وهما الكسل وتسجيل القصور على أنفسنا بجمل قيمة نعم الله تعالى علينا . وصاحب هاتين الخلتين يمقت كل من يرشده إلى الخير ويهديه للحق . لأنه يكافه ضد طبيعه .

فلا يرى مهرباً من الاعتراف بضلاله وغيبه . إلا بالقدح بمشده وناصحه

على كل منا أن ينظر في نفسه وينظر في القرآن العظيم ويزن به ما هو عليه من العقائد والأخلاق والأعمال . فان رجح به ميزانه فهو مسلم حقيق فليحمد الله

تعالى . والا فليسمع فيما يكون به الرجحان .

لا بد لنا من النظر الطويل والفكر القويم فيما نحن فيه . فمن لم يتفكر لم يهتد

إلى الحق . ومن لم يهتد إليه فهو ضال . فماذا بعد الحق إلا الضلال)

هذا ما تذكرناه من التنبيه الذي قلنا إن الأستاذ قفي به على تفسير الآيات التي

وردت في صنفى المنافقين ومرضى القلوب بازاء القرآن ، ووصل به بينها وبين قوله

تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) الآيات . وهاك تفسيرها بالتفصيل

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ أقول : إن الله تعالى قد افتتح هذه السورة

بذكر كتابه القرآن وكونه حقاً لا ريب فيه . وذكر بعد ذلك أصناف البشر تجاهه

من المهتدين به بالقوة وبالفعل . ومن الكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهدى .

ومن المنافقين المذبذبين بين المؤمنين والكافرين . وفيه ما يفهم منه أن هؤلاء

متهافتون ، منهم المستعد للاخلاص في الايمان ومن فقد الاستعداد له . وحكمة بيان

حالة الميؤس من إيمانهم أنهم ليسوا حجة على هداية القرآن بل هو حجة عليهم

بعد هذا التمهيد جاءت هذه الآية والآيات الأربع بعدها مصرحات بدعوة

جميع الناس إلى دين الله تعالى الحق ببيان أصوله وأساسه وهي (١) توحيد الألوهية

بعبادة الله تعالى وحده . مع ملاحظة توحيد الربوبية (٢) القرآن . آيته الكبرى

ودينه التفصيلي (٣) نبوة محمد ﷺ المرسل بهذا القرآن (٤) الجزاء في الآخرة

على الكفر وأعماله بالنار . وعلى الايمان وأعماله بالجنة

تقدم تحقيق معنى العبادة ومعنى الرب في تفسير سورة الفاتحة. وبدء الدعوة بالأمر بعبادة الله تعالى وحده هو سنة جميع المرسلين قال تعالى (١٦: ٣٦) ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكان كل رسول يبدأ دعوته بقوله (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وذلك أن جميع تلك الأمم كانت تؤمن بأن الله خالق الخلق هو ربهم ومدير أمورهم، وإنما كان كفرهم الأعظم بعبادة غير الله تعالى بالدعاء الذي هو ركن العبادة الأعظم في وجدان جميع البشر، وبغير الدعاء والاستغاثة من العبادات العرفية، كالقرب إلى المعبود بالنذور وذبح القرابين أو الطواف والتسبح به، إن كان جسما أو تمثالا لملك أو بشر أو حيوان أو قبرا للإنسان، ومنهم من كان ينكر البعث أيضاً، ولما كان المخاطبون بالدعوة هنا أولا وبالذات في ضمن الدعوة العامة، وهم اليهود والعرب في المدينة وما حولها يؤمنون برب العالمين ووحدايته ويعبدون غيره إما بدعائهم مع الله أو من دون الله وإما بجهله شارعا يتبعونه فيما يصدره من أحكام التعمير أو الحرام والحلال - لما كانوا كذلك احتج على دعوتهم إلى توحيد الله تعالى بالتعبير بلفظ «رب» مضافا إليهم فقال (اعبدوا ربكم) ووصفه بما يدل على انفراده بالرؤية من الصفات المسماة عندهم وهي الخلق والتكوين والرزق فقال ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ إلى آخر الآية التالية - أي إذا كان ربكم هو الذي خلقكم وخلق من قبلكم وهو الذي سخر لكم السماء والأرض لرزقكم ومنافعكم فيجب أن تعبدوه وحده ولا تشركوا بعبادته أحدا من خلقه فتجعلونه مساويا له وتفضلونه على أنفسكم تفضيلا من نوع تفضيل الخالق على الخلق والرب على المربوب - وهاك تفصيل ذلك بما كتبت من سياق درس شيخنا مفصلا له تفصيلا :

يقول تعالى (يا أيها الناس) الذين يدعون الإيمان بالله قولاً بأفواههم ولم يمس الإيمان الحق سواد قلوبهم، ولا كان له سلطان على أرواحهم، ويدعون الإيمان باليوم الآخر ولم يستعدوا له بتهديب أنفسهم واصلاح أعمالهم، وإنما يأتون ببعض صور العبادات بحكم العادات الموروثة، وقلوبهم مشغولة عن الله الذي لا تفيد العبادة عنده إلا بالنوجه إليه وابتغاء مرضاته، والشعور بعظمته وجلاله، فهم يخادعون الله بهذه الظواهر التي لا معنى لها، والصور التي لا روح فيها، وإنما يخدعون في

الحقيقة أنفسهم لأن أعمالهم هذه لا تفيدهم في الدنيا عزة وسعادة ولا تنجيهم في الآخرة
ويا أيها الناس الذين لم يرزقوا بهذا الخذلان ، ولم يبتلوا بهذا الافتتان ، سواء
كانوا من أهل الكفر أو من أهل الإيمان ، (اعبدوا ربكم) جميعا عبادة خشوع
واخلاص وأدب وحضور . كأنكم تنظرون إليه وترويه ، فان لم تكونوا ترويه فانه
يراكم ، وينظر دائما إلى محل الاخلاص منكم وهو قلوبكم ، واستمعينا على إشعار
نفوسكم هذا الخشوع والحضور والاخلاص في العبادة باستحضار معنى الربوبية
فانه هور بكم الذي أنشأكم فيما لناعامون (١٦ : ٧٨) وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
لكم تشكرون) وغذاكم بنعمه ، ونمأكم بكرمه ، كما فعل مثل ذلك بسلفكم الصالح
فشكروه وعبدوه وحده مقرين بهذه التربية ، ومعظمين لهذه المنة ، فليدع ذلك
الصنف احتقار النعم التي هو فيها والاقتصار على تعظيم نعمة الله على السلف فقط
فإن هذا الرب العظيم (الذي خلقكم و) خلق (الذين من قبلكم) قدر بآدم كما
ربي سلفكم ، ووهبكم من الهدايا مثلما وهبهم ، فن شكر منهم ومنكم زاده نعماء
ومن كفر بهذه النعم جعلها عليه نقما . ليكون عبرة ومثلا للآخرين . وذلك من
رحمته بالعالمين . وقد أقسم تعالى على ذلك في كتابه المجيد . فقال (١٤ : ٧) لئن شكرتم
لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) وفي القصص حياة لأولى الألباب .
وما يتذكر إلا من أناب .

هكذا أمر الله تعالى عباده أجمعين . بأن يعبدوه وحده مخلصين له الدين .
وأرشدهم بإعلامه إياهم أنه ساوى بينهم وبين من قبلهم في المواهب الخلقية - الى
الاستقلال بالعمل . وقدر نعمته عليهم قدرها . ليعلموا أن كل النعم التي تنكسب
بالشكر - وهي ماعدا النبوة - مقدورة لهم . كما كانت مقدورة لمن قبلهم .
وأنتهم إذا زادوا على سلفهم شكراً يزدون نعماً . وما الشكر الا استعمال المواهب
والنعم فيما وهبت لأجله . فالذين يقولون إننا لا نقدر على فهم الدين بأنفسنا من
الكتاب والسنة لأن عقولنا وأفهامنا ضعيفة . وانما علينا أن نأخذ بقول من قبلنا
من آبائنا . لأن عقولهم كانت أقوى . وكانوا على فهم الدين أقدر . بل لا يمكن

أن يفهمه غيرهم ، أولئك كافرون بنعمة العقل ، وغير مهتدين بهذه الآية الناطقة بالمساواة في المواهب وسعة الرحمة والفضل . وكذلك الذين يتخذون وسطاء بينهم وبين الله تعالى لأجل التقريب إليه زلفى بغير ما شرعه لهم من الدين وما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم الوسائل في الهداية والارشاد أو لأجل الشفاعة لهم عنده لينالوا جزاء ما شرعه من الدين . من غير طريق العمل به واتباع المرسلين - قد احتقروا نعم الله تعالى ولم يهتدوا بهذه الآية لأنهم قد جعلوا لله أنداداً يبيغون أن ينالوا بأشخاصهم ما حكم الله بأن يطلبه الناس بأيمانهم وأعمالهم . فجعلوا هؤلاء الأنداد شركاء لله يغنونهم عن شريعته . شعروا بذلك أم لم يشعروا

يقول تعالى لجميع عباده : اعبدوني ملاحظين معنى الربوبية . والمساواة في المواهب الخلقية . التي تؤهلكم للسعادة الحقيقية * لعلكم تتقون * فإن العبادة على هذا الوجه هي التي تعدكم للتقوى . ويرجى بها بلوغ غاية الكمال القصى . قال الأستاذ : الشائع أن « لعل » للترجى في ذاتها وإذا وقعت في كلام الله تعالى يكون معناها التحقيق . وغرض القائلين بهذا تنزيه الله سبحانه عن الترجي بمعناه اللغوي الآتى . ولكنه رعى الكلام بدون بيان . وحقيقته أن « لعل » للترجى ولكنها تستعمل للأعداد والتهيئة للشيء . وفي هذا معنى الترجي . فحيث وقعت « لعل » في القرآن فالمراد بها هذا المعنى الأخير كما فسرناها به آنفاً . وهو يستلزم التحقيق [لأن الإعداد بما تاتى « لعل » بعده أمر محقق لا ريبه فيه] فإن العبادة على الوجه الذى أرشدت إليه الآية من ملاحظة معنى الربوبية الخ ما تقدم شرحه تطبع في النفس ملكة خشية الله وتعظيمه ومراقبته . وتعالى همه العابد وتقوى عزيمته وإرادته . فتزكو نفسه وتنفر من المعاصى والذائل . وتألف الطاعات والفضائل . وهذه هي التقوى . وإذا قلنا: إن الرجاء متعلق بالناس فالاعداد فيه ظاهر ومتحقق ، إذ لو لم يخلقهم مستعدين للتقوى لما اتقاه منهم أحد .

ومعنى الترجي في أصل اللغة : توقع حصول الشيء القريب بحصول سببه والاستعداد له . سواء كان الاستعداد كسبياً أو طبيعياً فاستعملنا « لعل » المعبرة عن التوقع في سببه وهو الاستعداد أو الأعداد الذى هو جعل المرء مستعداً .

والتعبير عن المسبب بلفظ السبب شائع في استعمال اللغة ، وقد عدوا الترجيى
والتمنى من الأخبار وصيغهما صيغ انشاء فقط

وأقول : إن ما ذكره من الاعداد صحيح ولكنه غير مطرد والتحقيق أن الترجيى
عبارة عن كون الشيء مأمولاً بما يذكر من سببه غير مقطوع به لذاته بل يتبع قوة
أسبابه مع انتفاء الموانع ويتعلق تارة بالمتكلم وتارة بالمخاطب وتارة بالمتكلم عنه وتارة
بغيرهما ، فتأمل قوله تعالى (٦٥: ١) لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وقوله حكايته عن قوم
موسى (٢٦: ٤٠) لعلنا تتبع السحرة) وقوله (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ
الأسباب) الخ وقوله لموسى وهارون (فتولاه قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى)
وقد علم أن هذا مقطوع بعدم وقوعه عند الله ولكن الرجاء فيه متعلق بموسى
وهارون أى (٢٠: ٤٤) فتولاه قولاً لينا) راجيين به أن يتذكر أو يخشى لا قولاً غليظاً
منقراً. وتأتى «لعل» لاشفاق وإفادة التحذير من أمر وقعت أسبابه فكان بهامظنة
الوقوع كقوله تعالى لرسوله صلوات الله عليه وآله (١٨ : ٦) فلعلمك باخع نفسك) الآية وقوله
(١١: ١١) فلعلمك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك) الآية .

لما ذكر الله عباده بنعمة الایجاد ونعمة المساواة فى المواهب التى تقضى
التقوى وعدم إطرأ السلف برفعهم إلى مقام الربوبية كما وقع من الذين (اتخذوا
أخبارهم وربهاتهم أرباباً من دون الله) ذكرهم ثانياً بعض خصائص الربوبية التى
تقتضى الاختصاص بالعبودية ، فقال ﴿الذى جعل لكم الأرض فراشاً﴾ بمأهدها
وجعلها صالحاً للافتراش والاقامة عليها والارتفاق بها ، أى فهو القادر على جلائل
الفعال ، العظيم الذى يستحق العبادة والاحلال ، المنعم بجميع النعم ، الجدير بأعلى
مراتب الشكر ، جعل الأرض بقدرته فراشاً لأجل منفعتكم ﴿ والسما بناء ﴾
متناسكاً لكيلا تقع على الأرض فتسحقكم . السما مجموع ما فوقنا من العالم والبناء
وضع شيء على شيء بحيث يتكون من ذلك شيء بصورة مخصوصة : وقد كون الله
السما بنظام كنظام البناء . وسوى أجرامها على هذه الصفة المشاهدة وأمسكها بسنة
الجاذبية فلا تقع على الأرض : ولا يصطدم بعضها ببعض ، إلا إذا جاء يوم الوعيد

وبطل نظام هذا العالم ليعود في خلق جديد ، والواجب ملاحظته في هذا المقام :
هو تصور قدرة الله تعالى وعظمته ، وسعة فضله ورحمته

ثم بعد أن امتن بنعمة الایجاد ، ونعمة الفراش والمهاد ، ونعمة السماء ، التي
هي كالبناء ، ذكر نعمة الامداد ، الذي تحفظ به هذه الاجساد ، وهي مادة الغذاء ،

التي بها النمو والبقاء ، فقال ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾
الثمار ما يحصا من النبات نجما كان أو شجراً : يصلح الزارع والغارس الأرض ،

ويبذر البذر ، ويفرس الفسيل ، ويتعاهد ذلك بالسقي والعذق ، فيكون له كسب
في رزقه ، وليكنه ليس له كسب في إنزال المطر الذي يسقي به ، ولا في تغذية

النبات بماء المطر أو النهر المختمع من المطر ، وبأجزاء الأرض وعناصرها الأخر ،
ولا في تولد خلاياه التي بها نموه ولا في إثماره إذا أثمر ، وإنما كل ذلك بيد الله

القدير - فعليننا أن نتفكر في ذلك لتزداد تعظما له واجلالا فلا نعبد معه أحداً
وبعد أن عرفنا الله تعالى بأنفسنا ، وبنعمته علينا وعلى سلفنا . وبعد أن عرفنا

ذاته الكريمه . بأنار رحمته ومننه العظيمة ، وصرنا جديرين بأن نعرف أن العبد
عبد فلا يعبد . وأن الرب رب فلا يشرك به ولا يجحد . قبل تفرعنا وترتيبنا على

ما سبق ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ من سلفكم الخلقين مثلكم تطلبون منهم
ما لا يطلب إلا منه . وهو كل ما تمجرون عنه . ولا يصل كسبكم إليه ، لا تفعلوا

ذلك فانهم في الخلق والعبودية مثلكم
الانداد جمع ند بكسر النون وفسر بالشريك وهو في اللغة المضارع والكف

يقال فلان ند فلان ومن أنداد فلان أي يضارعه ويمائله ولو في بعض الشؤون . والانداد
الذين اتخذوا في جانب الله هم الذين خضع الناس لهم وصمدوا إليهم في بعض

الحاجات ، لمعنى يعتمده فيهم الخاضعون المخاطبون بترك الانداد أولا وبالذات ،
وهم مشركو العرب وأهل الكتاب . فالعرب كانت تسمى ذلك الخضوع والضمود

عبادة إذ لم يكن عندهم وحى ينهاهم عن عبادة غير الله فيتحاموا هذا اللفظ « العبادة »
ويستبدلوا به لفظ التعظيم أو التوسل مثلا تأويل لظاهر نص التنزيل . وأما أهل

الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أنداداً وأربابا فكانوا يؤولون فلا يسمون

هذا اتخاذ عبادة ولا أولئك المعظمين آلهة أو أندادا أو أربابا. وفرق بين اتخاذ بالفعل والتسمية بالقول . والجميع متفقون على أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله وإنما كانوا يسمون دعاءهم غير الله والتقرب إليه توسلا واستشفاعا . ويسمون تشريعهم لهم العبادات وتحليلهم لهم المنكرات . وتحرعهم عليهم بعض الطيبات . فقها واستنباطا من التوراة . إلا أن من النصارى من لا يتحامون التصريح بعبادة السيدة مريم وبعض القديسين استعمالا للفظ في مدلوله اللغوي

وصور العبادة تختلف عند الأمم اختلافا عظيما وأعالها عند المسلمين الأركان الخمسة والدعاء . وقالوا : كل عمل غير محظور تحسن فيه النية لله تعالى فهو عبادة . كأن المعنى الذى يجعل جميع الأعمال عبادة هو التوجه إلى الله تعالى وحده وابتغاء مرضاته ، ولها عند أهل الكتاب صور أخرى . والمؤولون يخصوصون هذه الصور بالله تعالى وإذا ابتدعوا صورة فيها معنى العبادة يسمونها باسم آخر يستحلونها بل يستحبونها به . ولكنهم لا يخرجون بالتسمية أو التأويل عن حيز من يتخذ من دون الله أندادا كما ذكر الله عنهم في قوله (٩: ٣٠) اتخذوا أجباهم ورجبانهم أربابا من دون الله) ولم يكن منهم سوى التوسل بهم والأخذ فى الدين بقولهم تقليداً لهم بدون فهم لما جاء على لسان الوحي ، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ . وقدماء الفرس جعلوا لله نداً فى الخلق والابجاد ، فقالوا : إن للخير إلهها هو الاله الأول . وإن للشر إلهها يضاده . وليس النهى فى الآية عن هذا الند الشريك لأن المخاطبين لا يدينون به كما قلنا وتدل عليه الآيات الكثيرة

الذالك وصل النهى بقوله عز وجل ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أى والحال أنكم تعلمون أنه لا ندله لأنكم إذ سئلتهم : من خلقكم وخلق من قبلكم ؟ تقولون الله . وإذا سئلتهم : من يرزقكم من السموات والأرض ومن يدبر الأمر ؟ تقولون الله . فلماذا تستغيثون إذن بغير الله وتدعون غير الله ؟ ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التى لا تنفع ولا تنفع وإدعيتهم أنهم شفعاؤكم عند الله ؟ ومن أين جاءكم أن التقرب والتوسل إلى الله يكون بغير مباشره من الدين حتى قلتهم (٣: ٣٩) ما عبدهم إلا ليقربونا إلى الله) يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم . وخلق وسائطكم وشفعاءكم .

وأعدكم جميعاً للتقوى التي تقر بكم إليه زاني ، وسأوى بينكم في أنواع المواهب إلا أنه خص الأنبياء عليهم السلام بالوحي ليعلموكم ما اخطأ نظركم ورأيكم فيه ، فعلمكم أن تهتدوا بما جاءوا به ، فإن صد المرؤسين عن ترك تعاليدهم واتباع الوحي من غير زيادة فيه ولا نقصان منه خوفهم الرؤساء . فقد آثروا رؤساءهم على الله وجعلوهم له أنداداً ، وإن صد الرؤساء عن هذا الاتباع توقع زوال المنفعة والجاه لدى المرؤسين فقد اتخذوهم أنداداً ، فالتدهو المكافئ والمثل ، وأنتم بترككم الحق لخوفهم ورجائهم تفضلونهم على الله تعالى وتجهلون أهمل الأنداد تعظيماً ، ففروا رحمكم الله إلى الله ، ولا تخافوا غيره ولا ترجوا سواه ، فعار على من يعرف الله أن يؤثر رضاء أحد على رضاء ، لافرق بين رئيس ومرءوس ، وتابع ومتبوع ، بل هذا لا يقع من مؤمن حقيقي لأن الله تعالى يقول (١٧٥:٣) فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين

(٢٣) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ

مِثْلِهِ وَاذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

(٢٤) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

قلنا: إن الكلام من أول السورة في القرآن وتفصيل أحوال الناس في الإيمان به وعدمه ، وهذه الآية دليل على عدم الخروج عن هذا الموضوع في كل ما تقدم فالآيات متصل بعضها ببعض ، كحبات من الجوهر نظمت في سلك واحد ، فانه بعد ما ذكر المتقين الذين يهتدون بالقرآن وعلاماتهم ، وبين خصائصهم وصفاتهم ، وذكر الجاحدين المعاندين ، وما هم عليه من العمى عن جليلة الحق المبين وما رزقوا به من الصمم المعنوي حتى لا يسمعون الحجج والبراهين ، وما أصدبوا به من البكم بالنسبة لقول الحق أو سؤال المرشدين ، ثم ذكر المذبذبين بين ذلك فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وذكر فرقهم وأصنافهم ، وبين خلائقهم وأوصافهم ، وضرب لهم الأمثال ، ونضلمهم في ميدان الجدال ، بسهام الحجج النافذة ، وسيوف

البراهين القاطعة - بعد هذا كله تحداهم بالكتاب الذى يدعو اليه ويناضل عنه ويكافح دونه (ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه) فقال :

﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ﴾ أى يا أيها الناس عليكم بعد أن تنسلوا من مضايق الوسواس ، وتنسلوا من مآزق الهواجس وتنزعوا ما طوقكم به التقليد من القلائد ، وتكسروا مقاطر ماورثتم من العوائد ، أن تهرعوا إلى الحق فطلبوه ببرهانه ، وأن تبادروا إلى مادعيتهم إليه فتأخذوه بريانه ، فإن خفى عليكم الحق بذاته ، فهذه آية من أظهر آياته ، وهى عجزكم عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن من رجل أمى مثل الذى جاءكم به ، وهو عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ، وإن عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله تساوى سورة فى هدايتها ، وتضارعها فى أسلوبها وبلاغتها ، وأنتم فرسان البلاغة ، وعصركم أرقى عصور الفصاحة ، وقد اشتهر كثيرون منكم بالسبق فى هذا الميدان ولم يكن محمد ﷺ من يسابكم من قبل فى هذا الرهان ، لأنه لم يؤت هذا الاستعداد بنفسه ، ولم يتمرن عليه أو يتكلفه لمباراة أهله - فاعلموا أن ما جاء به بعد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم لم يكن إلا بوحى إلهى ، وإمداد سماوى ، لم يسم عقله إلى علمه ، ولا بيانه إلى أسلوبه ونظمه .

وعبر عن كون الريب بان للايدان بأن من شأن هذا التنزيل أن لا يرتاب فيه ^(١) لأن الحق فيه ظاهر بذاته ، يتلألأ نوره فى كل آية من آياته ، ولكن إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

« ١ » هذا مبنى على قاعدة معروفة فى العربية ، وهى أن شرط « إذا » يقتضى الوقوع ، و شرط « إن » يقتضى عدم الوقوع أو الشك فيه ، وكذا ما شأنه عدم الوقوع لذاته وإن وقع لعارض ، كما فى هذه الآية ، ومرتبوضيح هذا الشأن فى تفسير (لا ريب فيه) ومثله ما شأنه عدم الوقوع أو ما ينزل منزله لا لذاته بل بسبب آخر كالمنوع شرعاً فمن شأنه ألا يقع من مؤمن مدعن للشرع وإن وقع لضعف فى الايمان وتغلب للشهوات كقوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وقوله (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) ويراجع تفصيل هذه القاعدة فى (دلائل الاعجاز) للامام عبد القاهر الجرجانى

والتنزيل من مادة النزول كالإنزال وتقدم تفسيره إلا أن صيغة «التفصيل» الدالة على التدرج أو التكثير. تفيد أن القرآن نزل مجزأ متفرقة وهو الواقع وصيغة أنزل لا تنافيه وقوله تعالى (من مثله) فيه وجهان (أحدهما) أن الضمير في «مثله» للقرآن المعبر عنه بقوله (مما نزلنا) (والثاني) أنه لعبدنا . قال شيخنا وهو أرجح بدليل «من» الداخلة على «مثله» الدالة على النشوء، أي فإن كان أحد ممن يماثل الرسول بالأمية يقدر على الإتيان بسورة فليفعل قال تعالى ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ الذين يشهدون لكم أنكم أتيتم بسورة من مثله، وهؤلاء الشهداء هم غير الله تعالى بالضرورة أي ادعوا كل من تعتمدون عليه ليشهد لكم ﴿ من دون الله ﴾ أو ادعوا كل أحد غير الله تعالى ليؤيد دعواكم ، كما أيد الله تعالى دعوة عبده محمد ﷺ ، وانظروا هل يغنيكم دعاؤكم شيئاً ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في دعواكم [أن عندكم فيه ريباً ، وإنما يصدق المرتاب في ريبه إذا خفيت الحججة ، وغلبت الشبهة ، وكان جاداً في النظر ، فهو يقول: إن كنتم صدقتم في أنكم مرتابون فلديكم ما يخص الحق مجدوا في الفكر ، ولا تتوانوا في النظر ، وتدبروا هذا الكتاب وها هو ذا معروض عليكم ، واتموا بسورة واحدة من مثل هذا النبي الأُمِّي ، فإذا أمكن لكم ذلك فلخاطر الريب أن يمر بنفوسكم ، والافتما وجه إعراضكم عن عودته ، وإطائكم عن تلبينه ؟]

(أقول) هذا محصل سياق الأستاذ في الدرس وقد قرأه بعد كتابتنا له وكتب العبارة الأخيرة لإيضاحه بخطه بعد طبع التفسير في المنار . وترجيحه كون الضمير في مثله للنبي ﷺ خاص بهذه الآية وهو لا ينافي العجز عن الإتيان بسورة مثل سور القرآن من غير الأميين ورجح الجمهور الأول لموافقة الآيات الأخرى في هذا التحدي . وأول ما نزل في هذا المعنى : قوله تعالى في سورة الإسراء (١٧ : ٨٨ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ثم نزل بعدها آية يونس (١٠ : ٣٨ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم آية هود (١١ : ١٣ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من

دون الله ان كنتم صادقين) وهذه السور الثلاث نزلت بمكة متتابعات كما رواه العلماء بهذا الشأن ولكن في رواية عن ابن عباس ان سورة يونس مدنية والرواية الأخرى هي الموافقة لقول الجمهور وأسلوبها فانه أسلوب السور المكية . وقال بعض علماء الكلام ان الله تعالى تحدى الناس أولا بالقرآن في جملته في آية الاسراء ثم تحداهم بعشر سور مثله في آية هود ثم تحداهم بسورة واحدة مثله في آية يونس وكل ذلك بمكة ثم بسورة من مثله في آية البقرة بالمدينة . وهذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول والظاهر أن التحدى في سورتي يونس وهود خاص بيمض أنواع الاعجاز وهى ما يتعلق بالاجزاء كقصص الرسل مع اقوامهم وهو من اخبار الغيب الماضية التي لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه كما قال تعالى عقب قصة نوح من سورة هود (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وكما قال في سورة القصص عقب قصة موسى (٢٨ : ٤٤ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) إلى آخر الآية ٤٦ وكما قال في سورة آل عمران عقب قصة مريم (٣ : ٤٤ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) الآية .

ولعل وجه التحدى بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة هو ارادة نوع خاص من أنواع الاعجاز وهو الاتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة وإزالة شبهة تخطر بالبال بل بعض الناس أوردوا على الاعجاز بالبلاغة والأسلوب رهى أن الجملة أو السورة المشتملة على القصة يمكن التعبير عنها في اللغة بمبارات مختلفة تؤدي المعنى ولا بد أن تكون عبارة منها يفهم إليها حسن البيان مع السلامة من كل عيب لفظي أو معنوي يخل بالفهم أو التأخير المطلوب فمن سبق إلى هذه العبارة أعجز غيره عن الاتيان بمثلها لأن تأليف الكلام في اللغة لا يحتمل ذلك ومن الامثال التي وضحوها بها هذه الشبهة قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟) قالوا ان هذه الجملة تحتمل بالتقديم والتأخير بضعة تراكيب أفصحها وأبلغها وأسلمها من الضعف والابهام تركيب « تفسير القرآن الحكيم » « ١٣ » « الجزء الاول »

الآية . ولكن القرآن عبر عن بعض المعاني وبعض القصص بعبارات مختلفة الاسلوب والنظم من مختصر ومطول ، والنحوى بمثله لا يظهر في قصة مختصرة مفتراة بل لا بد من التمدد الذى يظهر فيه التعبير عن المعنى الواحد والقصة الواحدة بأساليب مختلفة وتراكيب متعددة كما نرى في سورة فتحدهم بعشر سور مثله في هدايتها و بلاغتها وأسلوبها واشتمالها على الحكيم والعبير والاسوة الحسنة المعينة على التربية والتهذيب كما هو شأن القرآن في قصصه . كأنه يقول أدع لكم ما في سور القصص من الاخبار عن الغيب ، واتحداكم انتم وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الايمان بعشر سور مثل سور القرآن في قصصها ، مع السماح لكم بجعلها قصصا مفتراة من حيث موضوعها ، فان جئتم به مثل سورة القصصية ، في سائر مزاياها اللفظية والمعنوية ، فأنا أعتزف لكم بدحض حجتي عليكم

وأما اكتفاؤه في سورة يونس بعدها بالتحدى بسورة واحدة في مقام الرد على قولهم « افتراه » فلا أنه لم يقيده بكونها مفتراة ، لا من باب التخفيف عليهم بالواحدة بعد عجزهم عن العشر ، فيدخل فيه خير الغيب والتزام الصدق .

فعلم من هذا التفصيل ان التحدى بإعجاز القرآن لذاته في جملته والتحدى ببعض انواع إعجاز في عشر سور مثله وبسورة مثله - كلاهما ثابت في السور المكينة قبل نزول آية البقرة وسورتها بعد الهجرة في المدينة المنورة ، ولما كان كفار المدينة الذين يوجه اليهم الاحتجاج اولا وبالذات هم اليهود وهم يعدون اخبار الرسل في القرآن غير دالة على علم الغيب تحدهم بسورة من مثل النبي ﷺ في أميته ليشمل ذلك وغيره مع بقاء التحدى المطلق بسورة واحدة مثله على إطلاقه غير مقيد بكونه من مثل محمد ﷺ وسيأتى بحث وجوه هذا الاعجاز قريبا

ثم قال تعالى ﴿ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ الخ أى فان لم تأتوا بسورة من مثله ، ومجتثوا دليله من أصله ، وما أنتم بفاعلين ، لان هذا ليس في طاقة الخلقين ، فاتقوا النار التي أعدت لامثالكم من الكافرين ، الذين يجحدون الحق بعد البرهان المبين ، وقوله تعالى (ولن تفعلوا) جملة معترضة بين الشرط وجوابه وهي مقصودة هنا في ذاتها لما فيها من تقوية الدليل وتقرير عجزهم بما يشير حميتهم ويعجزهم

بتكاف المعارضة ، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا النفي الاستقبالي المؤكد أو المؤبد من عاقل كالنبي عليه الصلاة والسلام في أمر ممكن عقلا لولا أن أنطقه الله الذي خصه بالوحي ، وهو الذي يعلم غيب السموات والأرض ، بأنه غير ممكن لأحد وعبر عن نفي وقوع الفعل منهم بأن التي يعبر بها عما يشك في شرطه ، أو يحزم المتكلم بعد وقوعه ، ومقتضى القاعدة أن يكون الشرط هنا باذا لأن الحق أنهم لن يفعلوا كما صرحت به الآية مع القطع بأن الله تعالى منزه عن الشك . ولكن القواعد التي تذكر في علم البلاغة قد ينظر فيها إلى حال المخاطب لا حال المتكلم ، والمعول عليه هو ما يقصد المتكلم أن يبلغه من نفس المخاطب ويودعه في ذهنه ، فهنا يخاطب الله المرتابين ، والذين هم في جحودهم وعنادهم كالأوثان الموقنين ، خطابا يؤذن أوله بأن عدم الإتيان بما تحداهم به مشكوك فيه ، ولازمه أن المعارضة جائزة منهم ، وداخلة في حدود إمكانهم ، خاطبهم بهذا مراعاة لظاهر حالهم التي توميء إلى القدرة على المعارضة ، وتشير إلى إمكان الإتيان بالسورة . ثم كر على هذا الايدان بل الايهام بالنقض بلا تليث ولا تراث ، وأبطل مراعاة الظاهر بل حولها إلى تهكم ، بالنفي المؤكد الذي ذهب بذلك الذمء ، واستبدل اليأس بالرجاء ، كأنه يقول إن إعراضكم عن الإيمان ، بعد سماع هذا القرآن . الذي أفاض العلوم على أي لم يترب في معاهد العلم ، وأظهر معجزات البلاغة على من لم تكن يعرف منه التبريز بها في نثر ولا نظم ، يدل على أنكم تدعون استطاعة الاتيان بسورة من مثله وما أنتم بمستطيعين ، ولو استعنتم عليه بجميع العالمين . (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

كان يتعداهم بمثل هذه الآيات الصادقة التي تشير النخوة ، وتهيج الغيرة مع علو كعبهم في البلاغة ورسوخ عرقهم في أساليبها وفنونها ، في عصر ارتقت فيه دولة الكلام ، ارتقاء لم تعرف مثله الأيام ، حتى كانوا يتبارون فيه ويتنافسون . ويباهون ويفاخرون ، ويعقدون لذلك الجماع و يقيمون الأسواق ، ثم يطيطرون باخبارها في الآفاق ، ومع هذا لم يتصد أحد منهم للمعارضة ، ولم ينهض بليغ

من مصافقهم إلى المناهضة (أقول) بل تواتر عنهم ما كان « من الاعراض عن المعارضة بأسلات السننهم ، والفرع إلى المقارعة بأسنة أسلمهم »^(١) وسفك دماهم بأسيافهم ، وتخريب بيوتهم بأيديهم ، أفلم يكن الأجر بمدارة قریش وفجولها . وغرر بني معد وحجولها ، أن يجتمعوا على تأليف سورة يبلاغتهم التي كانوا يقبأرون فيها بسوق عكاظ وغيرها من مجامع مفاخراتهم ويؤثروا هذا على سوق الخميس بعد الخميس من صنأديهم إلى يثرب لقتال محمد ﷺ ومن آمن به « رض » في بدر وأحد ووراء الخندق لو كان ذلك مستطاعاً لهم؟ ومثل هذا يقال في اليهود الذين كانوا بجواره في المدينة فأمنهم على دينهم وأموالهم وأعراضهم ، فأبوا إلا إعانة مشركي قومه عليه حتى اضطروه إلى قتالهم ، وإخراج بقية السيف من ديارهم . فلا شك أن الله تعالى قد رفع هذا الكلام إلى درجة لا يرتقى البشر إليها ، وهو تعالى جده العالم بملبغ استطاعتهم ، والمالك لأعنة قدرتهم .

قال المتكلمون في بلاغة القرآن إننا نجده لم يلنزم شيئاً مما كانوا يلتزمون بسجعهم وإرسالهم ، ورجزهم وأشعارهم ، بل جاء على النظم الفطري ، والأسلوب العادي ، الذي يتسنى لكل إنسان أن يحنوا مثاله ، ولكنهم عجزوا فلم يأتوا ولن يأتى غيرهم بسورة من مثله ، ثم نلاحظ أيضاً أن القرآن بهذا الأسلوب قد تحدى به كل من بلغه من العرب ، على تفرق ديارهم ، وتنأى أقطارهم ، وأرسل الرسول إلى الأطراف يدعو الناس إلى الإيمان به ، فعمت الدعوة وبلغت مبلغها ولم ينبر أحد للمعارضة كما قلنا . ألا يدل هذا على نهاية العجز وعمومه ، وإحساس كل بلبغ بالضعف في نفسه عن الانبراء لميساراته ، والتسأى لمحاكاته ، وعلى أن الله تعالى جماله فوق القدر ، خارقاً لما يعتاد من كسب البشر؟ بلى ، وإن لهذا الإعجاز وجهين . أحدهما : كونه معجزاً بذاته لأنه في مرتبة لا يمكن لبشر أن يرتقى إليها ، وثانيهما : أنه جاء على لسان أمى لبت أربعين سنة لم يوصف بالبلاغه ولم يؤثر عنه شيء من العلم . وقد ذكروا وجوهاً أخرى للإعجاز ينطوى عليها القرآن . منها قوله هنا (ولن تفعلوا) بناء على أن الخبر هو الله تعالى . عالم الغيب وما يكون في

المستقبل . ومن فائدة هذا القول في عهد نزوله . وقبل ظهور تأويله : أن قرعه لسمع من لا يؤمن بالغيب يقتضى أشد التحريض على المعارضة التي يظهر بها العجز ويقوم البرهان . بالاِعجاز المقتضى للإيمان . لولا مكابرة المستكبرين لوجدانهم . وجحود السننهم لما استيقنته قلوبهم . (٢٧: ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وأما من يؤمن بالغيب ويعتقد الخوارق فما عليه إلا أن يفتنى إلى عجزه ويبادر إلى الإيمان به وبرسالة من أنزل عليه . للعالم القطعى بأنه لا يمكن لعاقل أن يجزم بذلك إلا إذا كان مطلعاً على الغيب . فهو خبير عن الله عز وجل .

قال تعالى مخاطباً للفرقيين بعد تسجيل العجز عليهم ﴿ فاتقوا النار ﴾ وهي موطن عذاب الآخرة تؤمن بها لأنها من عالم الغيب الذي أخبر الله تعالى به ولا نبحت عن حقيقتها . ولا نقول أنها شبيهة بنار الدنيا ولا إنها غير شبيهة بها . وإنما ثبت لها جميع الأوصاف التي وصفها الله تعالى بها كقوله ﴿ التي وقودها الناس والحجارة ﴾ المراد بالحجارة الاصنام كما في قوله تعالى (انكم وماتعبدون من دون الله حطب جهنم) ولا يسبقن إلى الفهم أنها لا توجد إلا بوجود الناس والحجارة إذ يصح أن يكونوا وقودها بعد وجودها . والوقود بالفتح ما توقد به النار . وبالضم مصدر وقد . وسمع المصدر بالفتح أيضاً

وقال بعضهم في تفسير « وقودها » إن الناس بأعمالهم وعبادة بعضهم بعضاً وانحرافهم عن صراط الحق المستقيم . والحجارة بعبادة الناس لها - سببان في إيجاد النار وإعدادها لهم . فبذلك كانوا كالوقود الذي تضرم به النار . وفي الكلام تقديم السبب ، وهو الناس والحجارة على السبب ، وهو قوله تعالى (أعدت للكافرين) وبهذا التفسير يظهر الحصر في جملة (وقودها الناس والحجارة) فانها اسمية معرفة الطرفين . وخص الحجارة بالذكر لأنها أظهر المعبودات عند العرب والمراد بالكافرين الذين لا يجيبون دعوة الانبياء عليهم السلام والذين ينحرفون عن أصولها بعد الأخذ بها لبدع يبتدعونها . وتقاليدهم يحدوثونها .

وتأويلات يلققونها . فهؤلاء هم الذين أعدت وهبئت النار لهم لأنهم الذين يستحقون الخلود فيها ، ومن ورد لها وروداً وانتهى إلى موطن آخر فذلك الموطن هو الذي أعد له . وليس بعد الدنيا موطن إلا الجنة جعلنا الله من أهلها بالتوفيق للتقوى ، أو النار نعوذ بالله منها ومما يقرب إليها من قول وعمل

فصل في تحقيق وجوه الإعجاز ، بتمهية الاختصار والإيجاز

إعجاز القرآن: قد ثبت بالفعل ، وتواتر فيه النقل ، وحسبك منه وجود ما لا يحصى من المصاحف في جميع الأقطار التي يسكنها المسلمون ، وكذا في غيرها ووجود الألوف من حفاظه في مشارق الأرض ومغاربها ، وهي تحكى لنا هذه الآيات في التحدى بإعجازه ، ولو وجد له معارض أتى بسورة مثله لتوفرت الدواعي على نقلها بالتواتر أيضاً ، بل لكانت فتنة ارتد بها المسلمون على أدبارهم

ولما كان إعجازه لمزايا فيه تعلمو قدرة الخلق علما وحكما وبيانا للعلم والحكمة حار العلماء في تحديد وجه الإعجاز بعد ثبوته بالعلم اليقيني الذي يبلغ حد الضرورة في ظهوره ، حتى قال بعض علماء المنزلة: إن إعجازه بالصرفة ، يعنون أن الله تعالى صرف قدرة بلغاء العرب الخالص في عصر التنزيل عن التوجه لمعارضته فلم يهتدوا إليها سبيلا ، ثم تسلسل ذلك في غيرهم واستمر إلى عصرنا هذا ، وهذا رأى كسول أحب أن يريح نفسه من عناء البحث وإجالة قدح الفكر في هذا الأمر ، وللباحثين فيه أقوال ، كتبت فيها فصول وألفت فيها رسائل وكتب ، وقد عقدت هذا الفصل عند طبع هذا الجزء من التفسير لبيانها وإيضاحها ، لما علمت من شدة حاجة المسلمين أنفسهم إليها ، دع أمر دعوة غيرهم أو الاحتجاج عليهم بها .

إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه

(الوجه الأول) اشتماله على النظم الغريب ، والوزن العجيب ، والأسلوب الخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب في مطالعه وفواصله ومقاطعته . هذه عباراتهم وأوردوا عليهم شبهتين وأجابوا عنهما ، وحصرنا نظم الكلام منشوره مرسلًا وسجما ، ومنظومه قصيدا ورجزا ، في أربعة أنواع لا يمكن عد نظم القرآن وأسلوبه

واحداً منها ، كما يدل عليه كلام الوليد بن المغيرة من أكبر بلغاء قریش الذين عاندوا النبي ﷺ وعادوه استكباراً ، وجاحدوه استعلاء واستنكاراً . أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس قال « إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال يا عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فانك أتيت محمداً لتعرض لما قبلة ، قال : قد علمت قریش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكروه ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، لا بجزوه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقول للحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغنق أسفله ^(١) وإنه ليعلم وما يعلم ، وإنه ليعظم ما تحته . قال : والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه . قال فدعنى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يآثره عن غيره . وكان هذا سبب نزول قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيداً) الآيات

واعبرى إن مسألة النظم والأسلوب لإحدى الكبر ، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر ، ولم يوفها أحد حقها ، على كثرة ما أبدوا وأعادوا فيها ، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد ، وإنما هو مائة أو أكثر : القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر : من السبع الطول التي تزيد السورة فيه على المائة وعلى المائتين من الآيات — إلى السور المئتين — إلى الوسطى من المفصل إلى ما دونها من العشرات فالآحاد كالثلاث الآيات فما فوقها ، وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتدخين ، المعين على الفهم المفيد للتأثير ، على اختلافها في الفواصل ، وتفاوت آياتها في الطول والقصر ، فمنها المؤلف من كلمة واحدة ومن كلمتين ومن ثلاث ، ومنها المؤلف من سطر أو سطرين أو بضعة أسطر ، ومنها المتفق في أكثر الفواصل أو كلها ، ومنها المختلف في السورة الواحدة منها ، وهى على ما فيها متشابه وغير متشابه في النظم ، متشابهة كلها في مزج المعانى العالية بعضها ببعض ، من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، وآياته في الأنفس والآفاق ، والحكم والمواظظ والأمثال ،

وبيان البعث والمآل ، ودار الأبرار ودار الفجار ، والاعتبار بقصص الرسل والأقوام
وأحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام .

يقول قائل : إن أساليب جميع الفصحاء والبلغاء متفاوتة كذلك ، لا يشبه
أسلوب منها أسلوبا ، ولا يستويان منظوما ولا منثورا ، فمجرد اختلاف الأسلوب
والنظم لا يصح أن يعد معجزا (وتقول) من قال هذا فقد أبعد النجمة ، وأوغل
في مهامه الغفلة . فهما تختلف منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعور المنقولة
عن المتقدمين . والتوشيحيات والأزجال المعروفة عند المولدين . ومهما تختلف
خطب الخطباء والمرسلين من الكتاب . والمؤلفين في العلوم والشرائع والآداب
فلن تعدو أنواع الكلام الأربعة التي بدأنا القول بها . ولا يشبه شيء من هذه ولا
تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها . ولكل منهم نظم وأسلوب خاص
فإن شئت أن تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشرى ونظم
الكلام الإلهي فإت بقارىء حسن الصوت يسمعك بعض أشعار المفلتقين .
وخطب المصافح الموقهين . المتقدمين والمتأخرين . بكل ما يستطيع من نغم
وتحسين . ثم ليتل عليك بعد ذلك بعض سور القرآن المختلفة النظم والأسلوب
كسورة النجم وسورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة وسورة الحديد مثلا . ثم
حكم ذوقك ووجدانك في الفرق بينها في أنفسها . ثم في الفرق بين كل منها وبين
كلام البشر في كل أسلوب من أساليب بلغاتهم . وتأثير كل من الكلامين في
نفسك . بعد اختلاف وقعه في سمعك .

بل تأمل المعنى الواحد من المعاني المكررة في القرآن . لأجل تقريرها في الألفس
ونقشها في الأذهان . كالأعتبار بأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم من مختصر ومطول .
واقطن لاختلاف النظم والأساليب فيها . فمن المختصر ما في سور الداريات والنجم
والقمر والفجر . ومن المطول ما في سور الأعراف والشعراء وطه . لعلك إن
تدبرت هذا تشعر باليون الشاسع بين كلام الخلقين وكلام الخالق . وتحكم بهذا
الضرب من الإعجاز حكما ضروريا وجدانيا لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك .
وإن عجزت عن بيانه بقولك

ومن اللطائف البديعة التي يخالف بها نظم القرآن نظم كلام العرب من شعر ونثر : أنك ترى السور ذات النظم الخاص والفواصل المقفاة تأتي في بعضها فواصل غير مقفاة، فتزيدها حسناً وجمالاً وتأثيراً في القلب . وتأتي في بعض آخر آيات مخالفة لسائر آياتها في فواصلها وزناً وقافية ، فترفع قدرها وتكسوها جلاله وتكسيها روعة وعظمة ، وتجدد من نشاط القارىء وترهف من سمع المستمع ، وكان ينبغي للخطباء والمتوسلين أن يحاكوا هذا النوع من محاسنه ، وإن كانوا يمجزون عن معارضة السورة في جملتها ، أو الصعود إلى أفق بلاغتها ، ومن أعجب هذه السور أوائل سور المفصل بل المفصل كله . قال شيخنا الأستاذ الإمام : كان المعقول أن يحدث القرآن في هذه اللغة من البلاغة في البيان فوق ما أحدثه بدرجات .

إعجاز القرآن ببلاغته

(الوجه الثاني) بلاغته التي تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفي عصر تنزيله وفيما بعده . ولم يختلف أحد من أهل البيان في هذا ، وإنما أورد بعض المخالفين بعض الشبه على كون بلاغة كل سورة من قصار سورته بلغت حد الإعجاز فيه ، والتماثلون به لا يقتصرون إعجاز كل سورة فيه ، ويتحقق التحدى عندهم بإعجاز بعض السور القصيرة بغيره . كأخبار الغيب في سورة الكوثر التي هي أقصر سورة ، على أن مسيلة تصدى لمعارضتها بمحاكاة فواصلها ، فجاء بخزى كان حجة على عجزه وصحة إعجازها ومن الناس من لا يفقه سر هذه البلاغة ويمارى فيما كتب علماء المعاني والبيان من قواعدها ، زاعمين أنه يمكن حمل كل كلام عليها ، وأن الإحالة على الذوق فيها إحالة على مجهول ، لا تقوم به حجة ولا يثبت به مدلول ، لأن الذوق المعنوي كالحسي خاص بصاحبه « من ذاق عرف » وسبب هذا جهلهم باللغة العربية الفصحى نفسها ، فقد مرت القرون في أثر القرون على ترك الناس لمدرسة الكلام البليغ منها واستظهاره واستعماله ، واقتصار مدارس الأمصار على قراءة كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والبدیع وهي أدنى ما وضع في فنونها فصاحة وبيانا ، وأشدها عجمة وتعقيداً ، وهي الكتب التي اقتصر مؤلفوها على

على سرد القواعد بعبارة فنية دقيقة بعيدة عن فصاحة أهل اللغة وعن بيان المتقدمين الواضحين لهذه الفنون ومن بعدهم إلى القرن الخامس، كالخليل وسيبويه وأبي علي وابن جني وعبد القاهر الجرجاني، حتى صار أوسع الناس علماً بهذه الفنون أجهل قراء هذه اللغة بها. وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ منها، بله الاتيان بمثله، فمن لم يقرأ من كتب البلاغة إلا مثل السمرقندية وشرحي جوهر الفنون و عقود اللجان فشرحي التلخيص للسعد التفتازاني وحواشيهما لا يرجي أن يدوق للبلاغة طعمها، أو يقيم للبيان وزناً، فأني يهتدى إلى الإعجاز بهما سبيلاً، أو ينصب عليه دليلاً؟ وإنما يرجي هذا الذوق لمن يقرأ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر فأنهما الكتابان اللذان يحيلانك في قوانين البلاغة على وجدانك، وما تجد من أثر الكلام في قلبك وجدانك، فتري أن علمي البيان شعبة من علم النفس، وأن قواعدهما يشهد لها الشعور والحس، ولكن لا بد مع ذلك من قراءة الكثير من منظوم الكلام البليغ ومنشوره، واستظهار بعضه مع فهمه، كما قرر حكيمنا ابن خلدون في الكلام على علم البيان من مقدمته .

فهذا هو الأصل في تحصيل ملكة البلاغة فهماً وأداءً، والقوانين الموضوعية لها مستنبطة من الكلام البليغ وليس هو مستنبطاً منها، وقد عكست القضية منذ القرون الوسطى حتى ساءت لمستقل الفكر أن يقول في الكتب التي أشرنا إليها وهي التي تقرأ في مدرسة الجامع الأزهر وأمثالها: إن قواعدها تقليدية لا يمكن أن يعلم بها تفاضل الكلام، إذ يمكن حمل كل كلام عليها، ولذلك كان أكثر الناس مزاولة لها أضعفهم بياناً، وأشدهم عيباً وفياهة .

فمعرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يحكمها من الجهة الفنية والدوقية إلا من أوتي حظاً عظيماً من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور، من مرسل ومسجوع، حتى صار ملكة له وذوقاً، واستعان على فهم فلسفته بمثل كتابي عبد القاهر والصناعتين لأبي هلال العسكري والخصائص لابن جني، وأساس البلاغة للزنجشري، ومعنى اللبيب لابن هشام. هذه مقدمات البلاغة ونتيجتها المملكة ولها غاية يمكن العلم بها من التاريخ، وهي ما كان للقرآن من التأثير في الأمة العربية، ثم في من حذقها من الأعاجم أيضاً. الحد الصحيح للبلاغة في الكلام هي أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع باصابة

موضع الإقناع من العقل ، والوجدان من النفس (وقد يعبر عنهما بالقلب) ولم يعرف في تاريخ البشر أن كلاما قارب القرآن في قوة تأثيره في العقول والقلوب ، فهو الذي قلب طباع الأمة العربية وحولها عن عقائدها وتقاليدها ، وصرفها عن عاداتها وعداواتها ، وصدق بها عن أثرها وناراتها ، وبدلها بأمتيتها حكمة وعلمها ، وبجاهليتها أدبا رائعا وحلما ، وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها وعدلها وحضارتها ، وعلومها وفنونها

اهتدى إلى هذا النوع من إعجازه بعض حكماء أوربة مستنبطه من هذه الغاية التاريخية وبينه في الرد على من زعم من دعاة النصرانية أن محمدا ﷺ لم يؤت مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات المعجزة فقال ما معناه : إن محمداً كان يتلو القرآن مولهاً مدهاً ، خشعاً متصدعاً^(١) فيفعل في جذب القلوب إلى الإيمان به ، فوق ما كانت تفعل جميع آيات الأنبياء من قبله .

وقد رأينا وروينا عن بعض أدباء هذه اللغة من غير المسلمين أنهم يذهبون في بعض ليالي رمضان إلى بعض بيوت معارفهم من المسلمين ليسمعوا القرآن ويمتدوا ذوقهم العربي وشعورهم الروحاني الأدبي بسماع آياته المعجزة ، وقد شهد له أهل العلم والانصاف منهم بهذا الإعجاز في النظم والأسلوب ، والبلاغة يفوق تأثيرها في أعماق القلوب ، ولكنهم لم يفقهوا دلالة ذلك على أنه من عند الله عز وجل ، وسنبينه في آخر هذا البحث ولو شئت أن أورد الشواهد على هذا الوجه ، نلحج عن الإختصار الذي التزمته في هذا الفصل ، وإنك لتجد من التنبيه على عجائبها في كل جزء من هذا التفسير ما لا تجده في غيره حتى الدقة في معاني مفرداته ، وتحديد الحقائق في جملة ، ومزج المعاني الكثيرة في أسلوبه ، ولطف التناسب بين آياته وبين سورة . ومن أعجبها ضروب إعجازه التي انفرد بها ، وكثرة تكراره للمعنى الواحد بعبارات لا يعلم أقرىء ولا سامع وقد نبهنا في هذا التفسير على الكثير منها . ومن العجب غفلة أكثر طلاب البلاغة عنها

(١) قوله : مولهاً مدهاً الخ ترجمة للكلمة إقر نسية معناها في حال يؤثر فيها الكلام في نفسه وفي نفس سامع . تأثير إيمالك عليهما أمرهما أي فيكون في قرأته فاعلاماً منفصلاً ، وهادياً مهدياً

إعجاز القرآن بما فيه من علم الغيب

(الوجه الثالث) اشتماله على الاخبار بالغيب من ماض كقصص الرسل مع اقوامهم، وقد تقدم بعض الكلام فيه، ومن حاضر في عصر تنزيله كقوله تعالى (١٠:٣٠-٥ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، الله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله) الآية وفيها خبران عن الغيب ظهر صدقهما بعد بضع سنين من نزول الآية، وكان الصديق رضى الله عنه راهن بعض المشركين على صدق الخبر فربح الرهان، وكقوله تعالى (١٥:٤٨) سيقول الخلفون إذا انطلقتم إلى معانم لتأخذوها: ذرونا نقتبمكم) الآية، وقوله (١٦:٤٨) قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقوله (٢٧:٤٨) لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون) وهذه الثلاثة في سورة الفتح وفيها غيرها أيضاً، وفي سورة التوبة أمثالها من الإخبار عما في قلوب المنافقين وعما سيقولون في بعض المسائل، ومن أظهر هذه الأخبار وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل في قوله (١٠:١٥) إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون) ووعد بحفظ الرسول في قوله (٦٧:٥) والله يعصمك من الناس) دع ما تكرر في عدة سور من وعد الله لرسوله وللمؤمنين، ومن وعيده للكافرين، كقوله تعالى (٥٥:٢٤) ووعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ولجعلن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبيدنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) وكان الأستاذ الإمام يقول: إن الله تعالى لما ينجز لنا وعده هذا كله بل بعضه، ولا بد من إتمامه بسيادة الإسلام في العالم كله حتى أورة المعادية له. وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه في قوله تعالى (٦٥:٦) قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) الآية أنه قال «إنها نبأ غيبى عن يأتى بعد» بل ورد هذا المعنى في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ أيضاً. وتجد بيان ذلك في تفسيرها من سورة الأنعام، ومنه ظهور مصداقها في حرب الأمم الكبرى الأخيرة. فهذه الاخبار الكثيرة بالغيب دليل واضح على نبوة نبينا وكون القرآن من

عند الله تعالى إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه ولا يمكن معارضتها بما يصح بالمصادفة أو القرآن أحياناً من أقرال السكهان والعرافين والمنجمين ، فان كذب هؤلاء أكثر من صدقهم ، ان صح تسمية ما يتفق لهم صدقا منهم ، ولكن الناس لا يحصون عليهم أقوالهم ولا يبيحون عن حيلهم وتلبيساتهم فيها ، وانما يذكرون بعض ذلك إذا اقتضته الحال ، كتشريع أبي تمام على المنجمين في زعمهم أن عمورية لا تفتح إلا عند نضج التين والعنب ، في قصيدته المشهورة التي مطلعها * السيف أصدق إنباء من الكتب * ويقول فيها :

سبعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
وقد قتل في عصرنا وزير من وزراء مصر فوجد الناس في تقويم (نتيجة) تلك السنة لأحد المنجمين نبأ عن قتله ومن شأن هذا التقويم أن يكون طبع قبيل دخول السنة التي قتل فيها ، وقد بحث بعض المدققين في ذلك فتبين له أن صاحب هذا التقويم قد طبع الورقة التي ذكر فيها هذا النبأ بعد وقوع القتل ووضعها فيه موضع ورقة أخرى أخرجها منه فأحرقها ، ولكن كان قد بيع بعض النسخ من التقويم فوجد المدقق المشار إليه بعضها ، على أن دأب هؤلاء المنجمين أن يعبروا عما يتوقعون من أنباء المستقبل بأرائهم وبقرائن الأحوال وأخبار الصحف الدورية برموز وكنائيات وإشارات يفسرون بها الوقائع بأهوائهم ، فان لم يجدها تحتل شيئاً منها كتموها ، وتعذر على غيرهم تكذيبهم فيها ، وأما ما يعرفه الفلكيون بالحساب كالخسوف والكسوف ومطالع الكواكب ومغاريبها فليس من التنجيم ولا من علم الغيب في شيء

إعجاز القرآن بسلامته من الاختلاف

(الوجه الرابع) سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف ، خلافاً لجميع كلام البشر وهو المراد بقوله تعالى (٤: ٧٢) ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وإنا نجد كبار العلماء في كل عصر يصنفون الكتاب فيسودون ، ثم يصححون ويبيضون ، ثم يطبعون وينشرون ، ثم يظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والأغلاط اللفظية والمعنوية ولا سيما إذا طال الزمان ، وهذا أمر مشهور في جميع الأمم

(فان قيل) إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض ، فاضطر علماء المسلمين إلى الجواب عنها بما يزعمون أنه دفع الإيراد، وأظهر بطلان الانتقاد، وإن المسلم يقبل ذلك منهم تقليداً، وإن لم يكن في نفسه سديداً (قلت) إذا كانت عين الرضى متبهة فعين السخط أولى بالتهمة، وإننا إذ لم نانتفت إلى كلام أعداء القرآن الذين يخترعون التهم أو يزينونها بخلاصة القول - ولا إلى المقلدين من المسلمين وعرضنا ما ذكر من ظواهر الاختلاف على فريق المستدلين المستقلين من الفريقين نرى أنه ليس في القرآن تعارض حقيقي معنوي يعد مطمئناً صحيحاً فيه ، ويرى الناظر في تفسيرنا هذا وفي مجملتنا (المنار) بيان كل ما علمناه من ذلك مع الجواب المعقول عنه، ولكن هذا النوع من الإعجاز إنما يظهر في جملة القرآن في السور الطويلة منه لافي كل سورة، فإن سلامة السورة القصيرة من ذلك لا يعد أمراً معجزاً يتحدى به إعجاز القرآن بالعلوم الدينية والتشريع

(الوجه الخامس) اشتماله على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية، وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان ، وبذلك يفضل كل ما سبقه من الكتب السماوية ، ومن الشرائع الوضعية ، ومن الآداب الفلسفية، كما يشهد بذلك أهل العلم المنصفون من جميع الأمم الشرقية والغربية ، من آمن منهم بكونه من عند الله تعالى أنزله على رسوله الأسمى، ومن لم يؤمن بذلك ، حتى كبراء السياسيين من خصوم الدول الإسلامية كلورد كرومر عميد الدولة البريطانية بمصر ، فانه شهد في تقريره السنوي الأخير عن مصر بنجاح الإسلام الباهر في التشريع الديني دون التشريع الاجتماعي والسياسي وعلل الأخير بأن ما وضع منذ أكثر من ألف سنة لا يمكن أن يوافق مصالح جميع الناس الآن وفي كل آن ، فكنتبت إليه يومئذ كتاباً سألته فيه هل يعني بأحكام الشريعة الكتاب والسنة أم الفقه الذي وضعه العلماء ومنجوا فيه آراءهم بما يأخذونه عنهم وخالف فيه بعضهم بعضاً ؟ وأنه إن كان يعني الكتاب والسنة فأنا مستعد لإظهار خطئه له . فكنتبت إلى كتابا قال فيه : « انى عنيت بما كتبت مجموع القوانين

الإسلامية التي تسمونها الفقه لأنها هي التي تجري عليها الأحكام ولم أعن الدين الإسلامي نفسه . « الخ

ولا شك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز، فإن علوم العقائد الإلهية والغيبية والآداب والتشريع الديني والمدني والسياسي هي أعلى العلوم، وقلمًا ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الأفراد القليلون، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً وكلاماً، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئاً منها، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحياً من الله تعالى؟

إعجاز القرآن بعجز الزمان عن إبطال شيء منه

(الوجه السادس) أن القرآن يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والإنسان ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ودرارها ونجومها والأرض والهواء والسحاب والماء من بحار وأنهار وعيون وينابيع، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم، وبيان لطريق التشريع السوي للأمم، وقد حفظ ذلك كله في بكلمة وحروفه منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف، ثم عجزت هذه القرون، التي ارتقت فيها جميع العلوم والفنون، أن تنقض بناء آية من آياته، أو تبطل حكماً من أحكامه، أو تكذب خبراً من أخباره، وهي التي جعلت فلسفة اليونان دكا، ونسخت شرائع الأمم نسخاً، وتركت سائر علوم الاوائل قاعاً صنفصفاً، ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية، ورجعت في تحقيقها إلى ما عثر عليه المنتقبون من الآثار العادية، وحكمت فيها أصول العمران، وما يسمونه سنن الاجتماع، بحيث لم يبق لعلماء الاوائل كتابا غير مدعثر الأعضاء، ساقط العباد وهذا النوع من أنواع الإعجاز، غير ما تقدم من سلامته من التعارض والاختلاف، فتلك في الماضي، وهذه في الحاضر والمستقبل، ذلك الاختلاف يقع من الناس بقلة العرفان، وبضعف البيان، أو بما يطرأ على صاحبه من الذهول والنسيان، يريد بيان شيء فيخونه قلبه ولسانه، ويعوزان بحيط بأطرافه، وأن مجلبة تمام التجلي لقارئ كلامه أو سامعه

ثم يقول فيه قولاً آخر على علم فتواتيه العبارة فيؤدى المراد ، فيختلف ما بدأ مع ما أعاد ، أو يقول القول ثم ينسأه ، فيأتى بما يخالفه في معناه ، أو يتكلم بما لا يعلم ، فيهرف بما لا يعرف ، وذلك عيب في الكلام وضعف في المتكلم هو من شأن البشر إن ما يأخذ الناس من المسائل العلمية والفلسفية بالتسليم في زمانهم ثم يظهر ما يبطل تلك المسلمات ، وينقض ما بذت عليه من النظريات ، لا يعد عيباً في قائله ، ولا ضعفاً في بيانه ، وإن كان موضوعه بيان تلك المسائل نفسها : لأنه مما لا يسلم منه البشر ، وأما من يتكلم في بعض مسائل الموجودات لبيان العبرة فيها ، أو الحث على الاستفادة منها ، لا لبيان حقيقتها في نفسها ، أو صفاتها الفنية عند أهل فنها ، فهو لا يكلف أن يبين تلك الحقيقة أو تلك الصفات التي لا تتعلق بغرضه من الكلام بالاصطلاحات العلمية والفنية ، وقد ينتقد منه هذا إذا كان مما يصرف السامع عن مراده منه ، أو يوجب نقصاً في استفادته منه ، كما هو شأن الذين يعطون دهاء الناس من جميع الطبقات ويضربون لهم الأمثال بآيات الله تعالى ونعمه فيما سخر لهم من الخلق ، فإذا كان هذا النوع من الكلام الذي لا يعاب فيه مخالفته للمسائل الفنية - وقد يعاب فيه تكلف موافقتها - جاء مع ذلك إماماً وافقوا إما غير مخالف لمعارف أهل العصر الذي خوطب أهل به ، ثم تبين أن بعض هذه المعارف كانت جهلاً ، وظهر أنه هو موافق لما تجدد من العلم الحق والتشريع العدل أو غير مخالف له ، فلا شك في أن هذه تعد له من برة خارقة للمعتاد في البشر ، وقد ثبت هذا للقرآن وحده ، فهو كتاب مشتمل على كثير من أمور العالم الكونية والاجتماعية مرت العصور وتقلب أحوال البشر في العلوم والأعمال ولم يظهر فيه خطأ قطعي في شيء منها ، لهذا صح أن يجعل سلامته من هذا الخطأ ضرباً من ضروب إعجازه للبشر ، وإن لم يكن هذا مما تحدى به الرسول ﷺ من عجز البشر عن مثله ، لأنه لم يكن ليظهر إلا من بعده ، فادخر ليكون حجة على أهله

فان قيل : إن الطاعنين في الاسلام من الملاحدة ودعاة النصرانية يزعمون أن العلوم والفنون العصرية ، من طبيعية وفسلكية وتاريخية ، قد نقضت بعض آيات القرآن في موضوعها ، وأن التشريع العصري أقرب إلى مصالح البشر من تشريعه

قلت : إننا قد اطلعنا على أقوالهم في ذلك فألفينا أن بعضهم اجاء من سوء فهمهم

أو فهم بعض المفسرين، ومن جمود الفقهاء المقلدين، وبعضها من التحريف والتضليل. وقد رد دنا نحن وغيرنا ما وقفنا عليه منها. وإنما العبرة بالنقض الذي لا يمكن لأحد أن يمارى فيه مراء ظاهراً مقبولاً، ولو وجد شيء من هذا في القرآن لاضطرب العالم له اضطراباً عظيماً، كأن العبرة في التشريع بما جمع بين المصلحة العامة والفضيلة والرحمة، والتشريع الاسلامى يفضل التشريع الأوربى المادى بهذا أو يسبقه إلى السؤال، وقد سبقه إلى العدل والمساواة

(فإن قيل) إن كهنه أهل الكتاب يدعون مثلكم أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة ويتكلفون مثلكم لرد ما يورده عليهم علماء الكون والمؤرخون مخالفاً لتلك الكتب

(قلت) إن هذا النوع من مخالفة كلام الخالق لكلام المخلوق يجب أن يكون مشتركاً بين القرآن وغيره من الكتب الالهية كالتوراة والانجيل، لو بقيت كما أنزلت من غير تحريف ولا تبديل، ومن المعلوم من التاريخ بالقطع عندنا وعندهم أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في التابوت (صندوق العهد) وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل بحفظها كما هو منصوص في آخر سفر (تثنية الاشتراع) قد فقدت من الوجود عندما غار البابليون على اليهود وأحرقوا هيكل بيت القدس، والتوراة الموجودة الآن يرجع أصلها إلى ما كتبه عزرا الكاهن بأمر أرتخشستا ملك فارس الذي أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى أورشليم، وأذن له أن يكتب لهم كتاباً من شريعة الرب وشريعة الملك، ولذلك تكثر فيها الألفاظ البابلية كثيرة فاحشة، وقد بينا تحقيق ذلك في تفسير أول سورة آل عمران وبعض آيات من سورة النساء والمائدة. كما بينا أن إنجيل المسيح عليه السلام لم يدون في عصره ولم ينقل عنه وعن الحواريين كما نقل القرآن تواتراً بالحفظ والكتابة، ولا كتنقل الحديث بالأسانيد المتصلة. وإنما ظهرت هذه الأناجيل التي هي قصص مختصرة له واشتهرت بعد ثلاثة قرون كما ظهر عشرات غيرها فاعتمد أربعة منها رؤساء الكنيسة التي أسسها قسطنطين ملك الروم الذي تنصر تنصراً سياسياً وأدخل النصرانية في دور جديد ممزوج بالوثنية ورفضوا الباقي، كما بيناه مفصلاً في الآيات التي أشرنا إليها آنفاً في الكلام على التوراة

إعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر

(الوجه السابع) اشتغال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق ، وهذه مرتبة فوق ما ذكرناه في الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشيء مما فيه ، ولا تدخل في المراد من أخبار الغيب المبينة في الوجه الخامس وإن كان لبعضها اتصال بقصص الرسل عليهم السلام ونحن ننبه على كل ما علمناه من هذا النوع في محله من تفسيرنا هذا ، ونشير هنا إلى بعضه فمن ذلك قوله تعالى (١٥ : ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) كانوا يقولون فيه إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب بما يكون سبباً لتزول المطر بتلقيح ذكور الحيوان لإنائه ، ولما اهتدى علماء أوربة إلى هذا وزعموا إنه عالم يسبقوا إليه من العلم صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب إليه . قال مستر (أجنيري) المستشرق الذي كان أستاذاً للغة العربية في مدرسة كسفورد في القرن الماضي . إن أصحاب الأبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوربة بثلاثة عشر قرناً . اه نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الريح تفعل ذلك ، ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز

ومنه قوله تعالى (٢١ : ٣٠ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون؟) أي أكذب الذين كفروا بآياتنا ولم يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة ففتقناهما وخلقنا منها هذه الأجرام السماوية التي تظلمهم ، وهذه الأرض التي تقلبهم ، وهذه المادة هي المبينة في قوله تعالى (٤١ : ١١ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها فالتا أتينا طائعين) الخ وهذا شيء لم يكن يعرفه العرب ولا غيرهم من أهل الأرض . وكذلك خلق كل الأشياء من الماء وهو أوضح في الآية مما قبله ومنه قوله تعالى (٥١ : ٤٩ ومن كل شيء خلقنا زوجين) وقوله (١٣ : ٣) ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وهذه السنة الإلهية في النبات

أصل لسنة التلقيح المذكورة آنفاً فإن المراد بها أن الريح تنقل مادة اللقاح من الذكر إلى الأنثى كما تقدم ، وفي هذا المعنى عدة آيات، أعجمها وأغربها وأعجبها قوله تعالى (٣٦:٣٦) سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) ومنه قوله تعالى (١٥:١٨) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) إن هذه الآية هي أكبر مثال للعجب بهذا التعبير (موزون) فإن علماء الكون الإخصائيين في علوم الكيمياء والنبات قد أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة في كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدره من أعشار الغرام والمليغرام ، وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات ، أعني أن هذا التعبير بلفظ «كل» المضاف إلى لفظ «شيء» الذي هو أعم الألفاظ العربية الموصوف بالموزون - تحقيقاً لمسائل علمية فنية لم يكن شيء منها يخاطر بيبال بشر قبل هذا العصر ، ولا يمكن بيان معناها بالتفصيل إلا بتصنيف كتاب مستقل .

ومنه قوله تعالى (٣٩:٥) يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) تقول العرب كار الإمامة على رأسه إذا أدارها ولفها، وكورها بالتشديد صيغة مبالغة وتكثير ، فتكوير الليل على النهار نص صريح في كروية الأرض وفي بيان حقيقة الليل والنهار على الوجه المعروف في الجغرافية الطبيعية عند أهلها . ومثله قوله تعالى (٧:٥٤) يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٨) والشمس تجري لمستقر لها - إلى قوله - وكل في فلك يسبحون) فهو موافق لما ثبت في الهيئة الفلكية مخالفاً لما كان يقوله المتقدمون ومنه الآيات المتعددة الواردة في خراب العالم عند قيام الساعة وكون ذلك يحصل بقارعة تفرع الأرض قرعاً، وتصحها فترجها رجاً، وتبس جبالها بسا فتكون هباء منبثاً ، وحينئذ تتناثر الكواكب، لبطان ما بينها من سنة التجاذب ، والآيات في هذا وفيما قبله تدل دلالة صريحة على بطلان ما كان يقوله علماء اليونان ومقلدتهم من علماء العرب في الأفلاك والكواكب والنجوم ، وعلى إثبات ما تقرر في الهيئة الفلكية العصرية في ذلك وفي نظام الجاذبية العامة ، ويجد القارئ تفصيل هذا في عدة مواضع من هذا التفسير

فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب. حتى إن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة - فإظهار ترقى العلم لحقيقتها المبينة فيه مما يدل على أنها موحى بها من الله تعالى .

هذه أمثلة من مسائل العلوم الكونية والفنون الطبيعية التي خطرت بالبال عند الكتابة من غير تفكير ولا مراجعة إلا الأعداد الآيات والسور ، ولا بد من تعريتها ببعض الأمثلة الخاصة بالتاريخ ، وليس التاريخ من حيث هو تاريخ حدث من العلوم التي تطلب من الكتاب الإلهي ، ولم يذكر فيه شيء منه بقصد سرد حوادث التاريخ ، وإنما جاء ماجاء فيه من ذكر أمم الرسل للعظة والاعتبار ، وبيان سنن الله تعالى في الأمم والأقوام ، وتثبيت قلب خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام . كما أن ذكر السموات والأرض وما بينهما وما في الأرض من المواليد الثلاثة لم يذكر شيء منه لبيان حقائق الموجودات في أنفسها ، وإنما ذكرت في سياق آيات الله تعالى الدالة على علمه وقدرته وحكمته ورحمته وفضله على عباده الخ وقد تضمن كل من هذا وذاك بدقة التعبير وإعجاز البيان ، آيات أخرى تظهر أننا بعد أن دالة على أنواع من إعجاز القرآن ، وكونه وحياً من الرحمن ، فكتابه تعالى مظهر لقوله (٢٩:٥٥ كل يوم هو في شأن)

أكتفى من هذا النوع الذي له علاقة بالتاريخ بمسألة عظيمة الشأن تشمل على شواهد كثيرة منه ، وهي حكم القرآن الحق على التوراة والإنجيل اللذين كان يدين الله تعالى بهما أعظم شعوب الأرض مكانة في العالم وأوسعهم علماً وحضارة ولا يزال الكثيرون منهم يقدسونهما . مع بيان بعضهم لما نقض العلم منها ، وكذا سائر الكتب التي يعبرون عن مجموعها بالمهدين القديم والجديد .

ما هذا الحكم الذي صدر من عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ، على لسان عبده ورسوله النبي الأمي الذي لم يقرأ في حياته سطوراً ، ولم يحط بشيء من أخبار التاريخ خبيراً ؟ ملخص هذا الحكم . أن أهل الكتاب من

اليهود والنصارى قد أوتوا نصيباً منه وأسوا نصيباً وحظاً منه، فلم يحفظوه كله، ولم يضيئوه كله؛ وأنهم حرفوا ما أوتوه عن مواضعه تحريفاً لفظياً ومعنوياً كما يفيد الإطلاق (١) وأنهم غلوا في دينهم فزادوا فيه ما لم يأذن به الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يحلون لهم ويمرمون عليهم ما لم يشرعه الله، وأنهم قصرُوا في إقامته من جهة أخرى فعملوا بما يوافق أهواءهم منه وتركوا ما يخالفها كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، وأن اليهود قالوا على مريم بهتاناً مبيناً، والنصارى غلوا فيها غلواً عظيماً، فقالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقالوا ثلاث ثلاثة (وما من إله إلا إله واحد) الخ ما نطقت به الآيات التي يجد القارىء في تفسيرنا هذا تفصيلها مع تفسيرها الحق المؤيد بالتاريخ الصحيح الذى حققه علماء أوربة وغيرهم بعد الإسلام المصدق للقرآن الحكيم فى حكمه الذى كان مجهولاً بتفصيله عند جميع الناس (٢) وقد قام فى هذه السنين بعض كبار رجال الدين فى بلاد الانكليز يكتبون فى الجرائد ما قرروه فى جمعيات الكنائس من أن الانجيل لا يثبت الوهية المسيح وقد نشرنا بعض ما اطلعنا عليه فى الجرائد الانكليزية من هذه التحقيقات وسننشر غيره فى مجلتنا الاسلامية (المنار).

وقد ثبت عندنا أن مستقى الفكر من أهل أوربة بين مؤمن بما جاء به القرآن من حقيقة أمر المسيح وهوانه بشر ممتاز بروح قدسية من الله ونبي له ولكن أكثرهم لا يعلمون أنه مما جاء به القرآن - وبين كافر به - وأما عقيدة الكنيسة بربوبيته وأوهيته فهى محصورة فى رجالها وطامة المقلدين لهم، وقد أخبرني قسيس كبير من الكاثوليك حرمة الكنيسة وأخرجته من طغمة كهنتها أن كبار علمائها موحدون كالمسلمين، ولولا خشية ارتداد العوام لصرحوا بالتوحيد وبنى التمثيل كععض قسوس البروتستنت

« ١ » راجع تفسير الآية الثالثة من السورة الثالثة فى الجزء الثالث من التفسير (س ١٥٩ - ١٦٥) وراجع تفسير الآية: ٤٤ من السورة ٤ (ص ١٣٦ من الجزء الرابع) والآية ١٥ من السورة ٥ (ص ٢٨٢ من الجزء ٦)

« ٢ » راجع تفسير سورة المائدة وانظر فى فهرس الجزء السادس من التفسير كلمات: أهل الكتاب، والتوراة، والانجيل

ولا يزال الموحدون يكترون فى أوربة والولايات المتحدة الأميركانية عاماً بعد عام ،
 ويقرّبون من الإيمان بالقرآن الله أكبر الله أكبر ، إنهم سوف يفعلون)
 فمن أين جاءت هذه الحقائق لمحمد بن عبد الله الأحمى بعد ثلاث وأربعين سنة عاش
 معظمها فى عزلة عن العالم وعلومه ، رعى فى أوائلها الغنم فى جبال مكة وشعابها ،
 وتجرّ فى أثنائها سنين قليلة فلما كان يعاشر فيها أحداً ، وهى التى ظل المسلمون
 يجهلون مراد القرآن منها بالتحقيق والتفصيل حتى بعد فتحهم للعالم وإطلاعهم على
 علومه وتواريخه ، إلى أن وصل علم التاريخ وغيره إلى الدرجة المعروفة .
 كان بعض أهل الكتاب والملاحدة من غيرهم يرون أن أكبر الشبهات على
 ما فى القرآن من قصص الرسل وأقوامهم حسيانها مقتبسه من هذه الكتب المقدسة عند
 القوم ومما كانوا عليه من التمايل والمذاهب باحتمال أنه صلى الله عليه وسلم سمع به من بعضهم فى أثناء
 سفره بالتجارة إلى الشام . وكانوا يعدون ما خالف تلك الكتب من آيات القرآن
 خطأ سببه عدم جودة الحفظ أو خطأ ممن سمع النبى صلى الله عليه وسلم ذلك منهم أو تعمداً منهم
 لغشه ، كما غش بعض اليهود الذين ادعوا الاسلام خداعاً بعض الصحابة
 والتابعين بأخبار كثيرة أدخلوها فى تفسير القرآن وكتب الوعظ والرقائق .
 وكان من الأدلة على دحض هذه الشبهة أنه لا يعقل أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم تلقى
 كل هذه القصص عن بعض أهل الكتاب فى رحلته إلى الشام مع عمه أبى طالب
 وهو ابن تسع سنين أو ١٢ سنة ، ولا فى رحلته مع ميسرة مولى خديجة (رض) وهو وإن كان
 فى هذه الرحلة شاباً له ٢٥ سنة إلا أنه لم ينفرد دون ميسرة وسائر تجار قريش
 للدراسة ولا غيرها ، بل لم يلبثوا إلا أياماً فى بلدة (بصرى) باعوا واشتروا
 وعادوا ، ولا يعقل أن يكون سمع فيها أخبار جميع الرسل سراً أو جهرًا ، وحفظها
 من هذه الكتب حفظاً ، ثم لخصها بعد عشرين سنة تقريباً فى هذه السور — ولم
 يجد أهل مكة عليه شبهة فى هذا الباب إلا وقوفه أحياناً على قين (حداد صانع
 للسيوف) رومى كان بمكة ، فقالوا : إنه هو الذى يعلمه ، وهو لم يكن يحسن العربية
 وفيه نزل (١٦ : ٦٠٣) ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر : لسان الذى يلحدون
 إليه أعمى ، وهذا لسان عربى منهن) وقد تقدم فى مسألة اشتغال القرآن على

أخبار الغيب الماضية من هذا البحث تصریح الآيات بأنه ﷺ لم يكن يعلم ما قصته السور منها ولا قومه ، ولم يمكن لأحد من خصومه المشركين أن يكذب أو يمارى في ذلك .

هذا وإن ما لخصناه هنا من حكم القرآن عليها يثبت أنه حكم على نزل من فوق السموات العلى : حكم العليم الحكيم الحكم العدل المهيمن ، وأن تحقيق المحققين من مؤرخى الأمم وتحقيق العقلاء من البشر قد أثبت ما أثبتته هذا الحكم ، وقد نفى ما نفاه ، أليس هذا أنصع برهان على كونه حكم الله ، لا حكم عبده محمد بن عبد الله؟ بلى والله ؛ ثم بلى والله ، ثم بلى والله ، لا يمارى في ذلك إلا متعصب أضله الله ومن قرأ التوراة والإنجيل ثم قرأ ما فى القرآن من أخبار الرسل يرى أمراً آخر ، يرى أن القرآن بين صفوة ما فيهما من صحة عقيدة ، ومن أدب وفضيلة ، ومن عبرة وموعظة ، ومن أسوة بالأخيار حسنة ، وسكت عن كل ما فيهما مما ينافى ذلك ويخل به ، أو يجعل أفضل البشر قدوة سيئة ، وصرح بنقض ما طرأ على أهل الكتاب من نزغات الشرك والوثنية . فإن فرضنا - تنزلاً - أن هذا من صنع محمد بن عبد الله الأسمى ، أفلا يكون برهاناً على أنه هو فى شخصه أرقى من جميع الأنبياء والمرسلين علماً وعقلاً وهداية وإرشاداً؟ بلى ، ولكن كيف يعقل حينئذ أن يكونوا أنبياء مرسلين ، ووحى إليهم من الله أو ملهمين ؟ الحق أن نفى نبوته ﷺ يقتضى نفى النبوة وإبطال الرسالة من أصلها ، لأنها هى التى تعقل لذاتها ، وإنا يظهر ثبوت غيرها بالتبع لثبوتها ، وإننا رأينا بعض الكافرين بالوحى ، من الباحثين المستغلى الفكر ، يفضلون محمداً ﷺ على جميع الخلق ، ومنهم الدكتور شبلى شميل السورى المشهور ، فقد صرح بذلك قولاً وكتابة ، وأثبتته نظماً ونثراً .

وقد آن أن نبين وجه دلالة القرآن على نبوته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، ومن آمن به وشاركهم فى الاهتداء بهديه من بعده إلى يوم القيامة

وجه دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ

(تمهيد) الإيمان بالنبوة والرسالة ، ينبئ على الإيمان بالربوبية والإلهية ، فلا يخاطب بإثباتها والدليل عليها إلا من يؤمن بالله تعالى وصفاته من العلم والحكمة والمشيدة والقدرة وتدبير أمر العالم ، وأكثر البشر يؤمنون بوجود الخالق المدبر صاحب السلطان الغيبي ، لأنه مما أودع في الفطرة البشرية ، ولا يعقل هذا النظام المشاهد في العالم بدونه ، كما هو مقرر في مواضعه ، ولكن الكثيرين يخطئون في فهم صفاته والكلام في تدبيره وتقديره ، لاختلاف أنظاركهم وتقاليدهم في ذلك . والذين حرموا هذا الإيمان قسماً : همج من سكان الغابات الوحشية . وأصحاب شبهات طارئة . ومثل الأول مثل الخداج الذي يولد ناقصاً . ومثل الثاني مثل من يصاب ببعض مشاعره أو أعضائه . ومراكز الإدراك في المخ يصاب بعضها بالمرض أو الضعف دون بعض . فلا يغترن أحد من المتقين بكفر بعض المنتقين لبعض العلوم والفنون ، الذين شغلتهم الصنعة عن الصانع . كما شغل حب لبلي مجنون بنى عامر عن شخصها . حتى قيل : إنها زارته فلم يجعل بها .

وأكثر الذين يؤمنون بالله تعالى يؤمنون بالرسول الذين خصهم الله بنوع من العلم والهدى بغير تعلم ولا كسب . وأيدهم آيات منه دانت لها عقول المستعدين للهداية وخضعت قلوبهم فآمنوا واهتدوا . وكانت حالهم البشرية بعد الإيمان والهدى خيراً مما كانوا عليه هم وآباؤهم قبل ذلك صلاحاً . وقد بعث الله تعالى رسلاً إلى جميع الأمم دعواها إلى أصول الدين الثلاثة المبينة في قوله تعالى (٢ : ٦٢) إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

فالرسول عليهم السلام كانوا متفقين في الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح . وإنما كانوا يختلفون في تفصيل الأعمال الصالحة والشرائع المصلحة بحسب اختلاف استعداداتهم . وقد طرأت على أتباعهم من بعدهم بدع وثنية وخرافية وضاعت أكثر تعاليمهم من الأمم القديمة . وإنما بقيت بقية صالحة منها عند المتأخرين من اليهود والنصارى فيها من الشوائب ما أشرنا إليه آنفاً . وكذلك بقيت في جميع

الأديان القديمة آثار تاريخية تدل على توحيد الله تعالى ، كما براه في تاريخ قدماء المصريين والفرس واليونان ووثني الهند واليابان والصين

ومما حفظ من أخبار أنبياء بني اسرائيل : أن الله تعالى أيدهم بالأخبار عن بعض المغيبات ، وأيد المرسلين منهم ، كوسى وعيسى عليهم السلام أجمعين بآيات أخرى من خوارق العادات ، فقامت بها حججهم على الناس ، فأمن بها المستعدون ، وكابرها المعاندون المتكبرون ، وأعرض عنها المقلدون الجامدون .

﴿المقصد﴾ قد اختلف علماء الكلام في وجه دلالة المعجزة على نبوة من ظهرت على يديه ورسالته - أى على كون ما يدعو إليه من العقائد والفضائل والأعمال الصالحة وحيًا من رب العالمين - فقال بعضهم : إنها دلالة عقلية ، ورجح الآكثرون أنها وضعية ، بمعنى أن تأييد الله تعالى إياه بعد التحدى بها في معنى قوله تعالى « صدق عبدى فيما يبلغ عنى » ومن المعلوم الذى لا مرأى فيه : أن الذين آمنوا بالرسول فى عصرهم وبعد عصرهم من العقلاء والأذكياء وجدوا فى أنفسهم اعتقاداً اضطرابياً بأن ظهور ما لا يقدر عليه غير الله تعالى على أيديهم عقب ادعائهم ما ادعوه وطلبهم من الله تعالى أن يصدقهم ، ويعطيهم آية تدل على تصديقه إياهم فيه - دليل على أنه هو الذى فعله لأجل تصديقهم ، فسمي الدلالة عقلية ، أو سمها وضعية ، أو اجمع بين التسميتين ، إن شئت .

وقال العلماء : إن الله تعالى كان يعطى كل رسول من الآيات ما يناسب حال قومه وأهل عصره . فلما كان قوم فرعون أهل علوم رياضية وطبيعية ، وأولى سحر وصناعة ، آتى رسوله موسى آيات كان العلماء والسحرة أعلم الناس بأنها من عند الله لا من كسب موسى ولا من صناعته ، ولما كان الرومانيون أولى السلطان فى قوم عيسى والسيادة فى بلادهم أهل علم واسع بالطب آتاه من الآيات إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت ، ولما كانت العرب قد ارتقت فى لغتها فصاحة و بلاغة إلى درجة لم تنفق لغيرها ، لأن أذكىها قد رجعوا جميع قواهم العقلية والخيالية إلى إتقانها ، جعل الله تعالى آية محمد الكبرى إليهم كتاباً معجزاً لهم ولسائر الخلق فى نظمه

وأسلوبه وفصاحته وبلاغته ، فقامت عليهم الحجة به بأقوى مما قامت آيات موسى وعيسى على قومهما . وفي هذا القول من التقصير في حجة القرآن ما علمت

والحق الذى يقال فى هذا المقام : أن ما أيد الله تعالى به رسله من الآيات الكونية كان مناسباً لحال زمان كل منهم وأهله ، وقامت الحجة على من شاهد تلك الآيات فى عهده ، ثم على من صدق الخبيرين من بعده ، وقد علم الله تعالى أن سلسلة النقل ستقطع ، وأن ثقة بعض المتأخرين به ولا سيما بعد انقطاع سلسلته ستضعف ، وأن دلائلها على الرسالة ستنكر — فجعل الآية الكبرى على إثبات رسالة خاتم النبيين علمية دائمة لا تنقطع ، وهى هذا الكتاب المعجز للخلق بما فيه من أنواع الإعجاز السبعة التى ذكرناها ، وبيننا أن كل واحد منها آية بيّنة لمن أتى السمع وهو شهيد ، وكان مستقلاً مطلقاً من أسر النظريات المادية وقيود التقليد .

إذ لا يتصور عاقل يؤمن برب العالمين أن يصدر هذا الكتاب المشتمل على هذا القدر السنيح^(١) من المعانى ، فى هذا الأسلوب البديع والنظم المنيع من المبانى ، من رجل أمى ولا متعلم أيضاً ، إلا أن يكون وحياً اختصه به الرب عز وجل ، ناهيك به وقد جزم بعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ، ثم تجداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فهذا التحدى حجة مستقلة على نبوة محمد ﷺ بصرف النظر عن التحدى به ما هو ، وكل نوع من تلك الأنواع السبعة الثابتة للقرآن حجة مستقلة فى نفسها ، وحجة أنهض وأقوى باعتبار أمية من جاء بها ، فإن أمكن تحمل المراء والجدل فى بعض الوجوه التى ذكرنا لإعجازه ، فهل يمكن ذلك فى جملتها أوفى كل منها؟ كلا

سبق لنا أن ضربنا مثلاً لنبوته ﷺ : رجلاً ادعى فى بلاد كثرت فيها الأمراض أنه طبيب وأن دليله على ذلك أنه ألف كتاباً فى علم الطب يداوى المرضى بما دونه فيه فيفرون ، فاطلع عليه الأطباء البارعون فشهدوا بأنه خير الكتب فى هذا العلم وما يتعلق به من عمل ، ثم عرض عليه من لا يحصى عدداً من المرضى وقبلوا ما وصفه لهم من الأدوية فبرقوا من علمهم وصاروا أحسن الناس صحة ، فهل يمكن المراء فى صحة هذه الدعوى مع هذين البرهانين العلى والعملى؟ كلا. وإن

(١) السنيح : هو الجامع بين الطول والحسن ، من صنع سنوحاً وسناعتاً

العلم بطب الأرواح ، أعلى وأعز منالاً من العلم بطب الأجساد ، وأن معالجة أمراض الأخلاق وأدواء الاجتماع ، أعسر من مداواة أعضاء الأفراد ، ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن مشتمل على العقائد الصحيحة ، والآداب العالية ، وأصول التشريع الاجتماعي والمدني ، وأن النبي ﷺ عالج به أمة عريقة في الشقاق وحمية الجاهلية ، غريقة في الجهل والأمية ، ورذائل الوثنية ، فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة ، وسادت الأمم ، من بدو وحضر ، مع أنه كان أمياً لم يتعلم شيئاً من العلوم ، ولم يتمرس بسياسة الشعوب .

كذلك بالعلم في الأُمى معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم

لو استدلل ذلك الطيب الجسداني على صحة دعواه بعمل غير مألوف للناس ، ولكن لا علاقة له بالطب لأمكن المراء في صحة دعواه - كذلك شأن هذا النبي في ادعائه أنه رسل من الله لهداية البشر ، فإن كتابه العلمي المؤيد بنجاح العمل به أدل على كونه وحياً أوحاه الله إليه من جعل عصاه حية ، أو إحيائه ميتاً . لأن هذين علمي غير إيهما ليسا من موضوع الإرشاد والتعليم ، كما أنهما ليسا من موضوع الطب ، فهما إن دلا على صدق الرسول فدلتهما ليست في أنفسهما ، والإتيان بعمل خارق للمألوف في العادة من سنن الكون ، هو دون الإتيان بالعلوم العالية الآسية والتشريعية من غير تعليم ، فكيف بالإتيان بأنباء الغيب الماضي والمستقبل ؟ فكيف بإصلاح حال من عملوا بهذه العلوم دينا ودنيا ؟ فالقرآن إذاً برهان على أن ما فيه الطب الروحاني الاجتماعي وحى من الرب المدبر الحكيم لا يعارض فيه إلا معاند مكابر ، أو مقلد جاهل أما المكابرون الذين يجحدون الحق وهم يعلمون ، فأمثال رؤساء المشركين ورؤساء اليهود في زمن البعثة المحمدية الذين ثقل على أطباعهم ترك رياستهم ، وصيرورتهم أتباعاً مساوين لفقراء المسلمين ومواليهم ، ولا يخلوا هذا العصر من أناس منهم ، وأما المقلدون فعوام أهل الأديان والمذاهب في كل عصر الذين لا ينظرون في دليل ولو كان حسياً . وكذلك المفتونون ببعض شبهات الماديين من الفلاسفة وعلماء الطبيعة الذين قلدوهم في الدفر بالله تعالى كما قال الشاعر في أمثالهم :

عمى القلوب عموا عن كل فائدة لأنهم كفروا بالله تقليداً

فهؤلاء المنكرون لوجود الخالق لا كلام لنا معهم في مسألة النبوة والوحي إلا بعد أن نتكلم معهم أولاً في إثبات وجود الخالق وصفات ربوبيته ، ولكن أكثر منكري النبوة يؤمنون بوجود الله تعالى ، وإنما يستبعدون معنى الوحي ، وليس ببعيد في نظر العقل

الوحي في اللغة : إعلام في خفاء . ووحي الله تعالى إلى أنبيائه علم يخصهم به من غير كسب منهم ولا تعلم من غيرهم ، بل هوشىء يجدونه في أنفسهم من غير تفكر ولا استنباط ، مقترنا بعلم وجداني ضروري بأن الذي ألقاه في قلوبهم هو الرب القادر على كل شيء ، وقد يمثّل لهم ملك فيلقنهم ذلك العلم ، وقد يكون بغير وساطة ملك . قال تعالى (٢٦ : ١٩١) وإنه لتنزيل رب العالمين ١٩٢ نزل به الروح الأمين ١٩٣ على قلبك لتكون من المنذرين) فأى استحالة أو بعد في هذا عند من يؤمن برب العالمين ، وعلمه وحكمته وقدرته في الخلقين ؟

وعرفه شيخنا في رسالة التوحيد « بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين من قبل الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . (قال) ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » ثم بين إمكان هذا ووقوعه وأسباب شك بعض الناس فيه وتقنيد شبهاتهم عليه بما يراجع في الرسالة نفسها

وأما تمثل الملك فكانوا يكتبون في إثماته بقولهم : إنه ممكن في نفسه وقد أخبر به الصادق فوجب تصديقه . ونقول اليوم : إن العلوم الكونية لم تبق شيئاً من أخبار عالم الغيب غريباً ، إلا وقربته إلى العقل ، بل وإلى الحس تقريبا ، بل ظهر من الاختراعات المادية المشاهدة في هذا العصر ، ما كان يمد عند الجماهير محالاً في نظر العقل ، لا غريباً فقط . فإذا كان الإنسان الكيميائي يحلل الأجسام الكشيفة حتى تصير غازات لا ترى من شدة لطفها ، ويكشف العناصر اللطيفة فتكون كالجمادة بطبيعتها ، فكيف يستغرب تكشيف الملك لنفسه ، وهو من الأرواح ذات المرّة والقوة العظيمة يأخذه من مواد العالم المنبثّة فيه هيكل على صورة الانسان مثلاً ؟ دع مخترعات

الكهرواء العجيبة التي لا يوجد شيء مما أخبر به الرسل من عالم الغيب إلا وفيها نظير له يقربه من الحس ، لا من العقل وحده ، وهل الكهرواء إلا قوة مسخرة للملائكة؟ ودع ما يثبتها الألوفا من علماء الأمم كلها من تمثل بعض أرواح البشر لبعض الناس في صور كصور الاجساد ، وهو يوافق المأثور عندنا عن الامام مالك من أئمة الفقهاء في صفة الروح ، ووقائمه عند الصوفية كثيرة ، ومن ينكر ما يحكي من وقوع هذا لا ينكر إمكانه في نفسه ، ولا الرجاء في ثبوته في يوم ما ، بحيث يشاهده جميع الناس .

خلاصة ما تقدم : أن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ لها وجهان :

(أحدهما) ما قيل في دلالة الآيات الكونية لبعض الأنبياء السابقين ، كمنافقة صالح ، وعصا موسى ، وإحياء عيسى للميت ، وهو أن كلا منها أمر جاء على غير المعتاد من مقدور البشر ، واستدل به صاحبه على نبوته ورسالته . فكان تصديقهم الله الله تعالى له ، وتكذيبها وخذلاننا منه تعالى لمن كذبه ، وهذا الوجه من الدلالة خارج عن موضوع النبوة والرسالة . ولذلك اختلف فيه علماء النظر كما تقدم آنفاً

(الوجه الثاني) وهو مجتمع مع الأول . مأخوذ من معنى النبوة والرسالة . وهو أنها هداية عنديا للبشر ، لا تغنيهم عنها هدايات الحواس الظاهرة والباطنة ولا هداية العقل ، فان هذه هدايات شخصية فردية وتلك هداية لنوع الانسان في جملته ، وقد اكتفينا في هذا الاستطراد بتمثيلها بطب الأبدان ليفهمها كل قارئ وسماع ، وإعما يفهمها الفهم التام من طريقه العلمي من يقف على ما اشتمل عليه القرآن من آيات الهداية وكونه أعلى وأكمل من كل ما نقل عن الأنبياء السابقين على ما في نقله من التواتر القطعي ، وما في نقلها من الضعف - ومن طريقه العملي من عرف تاريخ الاسلام وما كان من تأثير القرآن في هداية العرب ثم هداية غيرهم من الأمم ، وعرف تأثير هداية الأنبياء السابقين في أممهم - على ما بين النقلين من التفاوت أيضاً - ولا يمتري أحد من العقلاء في كون العلم الذي موضوعه هداية الأمم والشعوب ونقلها من حال دنوية إلى حال أعلى وأكمل منها هو من العلوم العالية التي يقل في الناس من يحدقها ويكون إماماً مبرراً فيها ، وأن عمل من يتدارسونه في السكتب به أعسر مسلكاً ، وأوعر طريقاً ، وأن فلاح العاملين به المتمرسين بوسائله قلما يتفق إلا

لأفراد أتيج لهم من الأسباب ونفوذ الحكومات مالم يتح لغيرهم ، فما بالك بالجمع بين هذا وبين العلم والعمل في سبيل الهداية الروحية والاستعداد لسعادة الآخرة

والنجاح التام معاً ، على ما فيهما من عدم سبق الاستعداد لها بعلم ولا عمل ؟

وجملة القول : أن موضوع الرسالة : تعليم وإرشاد إلهي يملك الوجدان ، وتدعن له النفس بالإيمان ، فيكون هداية تزرع صاحبها عن الباطل والشر ، وتوجهه إلى الخلق والخير ، وإن القرآن قد بلغ مرتبة الكمال فيها ، فاهتدت به الأمم والشعوب ، فمن كان يؤمن بها على علم بحقيقتها ، لا تقليداً لأبائه وقومه فيها ، لا يسهه أن يؤمن بالنوراة أو الأنجيل أو الفيدا ، أو غيرهن من الكتب المنسوبة إلى المرسلين الأولين

ولا يؤمن بالقرآن ، وهو أكملها في موضوعها ، وأصحها نسباً إلى من جاء به

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيسلاً

لاتذكروا الكتب السوائف عنده طلع الصباح فأطفاً القناديل

ومن كان يؤمن بالله تعالى وأنه هو الرب الخالق للعالم بأكل نظام ، المدير لأموال العباد بالحكمة والاحكام ، وأنه هو الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ، وتأمل في تاريخ النبي ﷺ المنقول نقلاً مستفيضاً ومتواتراً ، فلا يسهه أن يزعم أن بعثة محمد الأُمِّي العربي ، وإتيانه بهذا القرآن ، المشتمل على ما أشرنا إليه من ضروب الإعجاز ، قد كان من أمور التعاليم البشرية الكسبية وما حدث به من الهداية التي قلبت تاريخ البشر كان من الأمور العادية ، بل لا يسهه إذا أنصف إلا أن يؤمن بأن هذه الحادثة الانقلابية في دين الأمم ودنياها ، قد كانت بعناية خاصة من الرب الحكيم العليم ، المدير الرحيم ، وأنه هو الذي أفاض هذا القرآن الحكيم على قلب ذلك الرجل الأُمِّي بعد أربعين سنة ، قضاها في قومه لم يؤثر عنه شئ من مثل علومه ، ولا مما يقرب من أسلوبه وبلاغته

هذا وإن لتحقيق هذه الدلالة العلمية على النبوة والرسالة مقدمات علمية وفلسفية مستنبطة من حاجة البشر - في كالم النوعي في الدنيا وفي استعدادهم للحياة الأبدية - إلى هداية الرسالة ، وقد عقد شيخنا الاستاذ الإمام لهذا البحث فصلاً طويلاً في «رسالة التوحيد» سلك فيه مسلكين (أحدهما) مبني على عقيدة خلود

النفس البشرية وكونها لاترزل من الوجود بالموت الممهود ، وهي عقيدة اتفقت عليها كلمة البشر من الملميين موحدبيهم ووثنيهم والفلاسفة الإقليداس من الماديين الجدليين الذين لا يعتمدون إلا بمدركات الحس (وثانيهما) مأخوذ من طبيعة الإنسان في حياته الاجتماعية بين الاستاذ في الأول ان الإنسان محتاج بمقتضى تلك العقيدة والشعور النوعي العام بالبقاء والانتقال من طور إلى آخر في الحياة إلى هداية يستعد بها للحياة الآخرة الباقية وهي من عالم الغيب الذي لا يدرك من أمره شيئاً فيستقل عقله في العلم بما يجب عليه من الاستعداد له ، فلا بد أن تكون هذه الهداية من عند الله تعالى الذي خلقه للبقاء الذي يعقله في الجملة ، لا للزوال والعدم المحض الذي لا يعقل ولا يتصور ولا يتخيل ، وإنما عاقبة الموت انحلال هذه الصور الجسدية ، وتفريق هذه المركبات المادية . فالله هو العليم بما يصلح به حاله في تلك الحياة ، وثأبى حكمته ورحمته وجوده وابقائه لكل شئ ، خلقه وتزهره عن الباطل والعبث أن يحرمه هذه الهداية و بين في الثاني أن هذه الحياة الاجتماعية الإنسانية لا يستقيم فيها التعاون بين الأفراد ولا بين الجماعات إلا بالأخذ بتعاليم اعتقادية وأدبية وعملية لانتختلف فيها الأهواء والشهوات لأن الوازع فيها نفسى وجدانى لصدورها عن الرب الحكيم العليم ، ووحى أوحاه إلى من اختصه بهذا الفضل العظيم ، ولولا أن طال هذا الاستطراد في تفسير الآية لأوردت هذا الفصل برمته هنا فهو في المسألة الحجة البالغة والحكمة وفصل الخطاب

إلا أننى أقول إن أعلم الحكماء القريبين في هذا العصر قد بينوا في مباحثهم في طبائع البشر ان الإنسان إذا ترك إلى مداركه الحسية ونظرياته العقلية وتسلل من وجدان الدين والإلهام الإلهى بالحياة الأخرى يكون أشقى من جميع انواع الحيوان الأعجم ويكون جل شقائه من نظرياته العقلية ، فهو إذا فكر في هذه الحياة القصيرة التي تساورها الآلام الشخصية من جسدية ونفسية والآلام المتزلية (العائلية) والقومية والوطنية والدولية -- براها عبثاً ثقيلاً ، ويرى من السخف أو الجنون أن يحمل شيئاً منها مختاراً لأجل زوجة أو ولد أو وطن أو أمة -- ويرى أن الطريقة المثلى في الحياة أن لا يتعرض لألم من هذه الآلام فلا يتزوج

ولا يعمل أدنى عمل ولا يتكاف أدنى تعب لأجل غيره ، وأن يطلب لذاته الجسديه من أقرب الطرق إليها ، وينتظر الموت للاستراحة من هذه الحياة ، فإن أبطأ عليه ونزلت به آلام يشق عليها احتمالها من مرض أو فقر مدقع أو ذل مخز فليبضع نفسه ويتعجل الموت انتحاراً

كل فضائل الإنسان من الصبر على المكاره والجهاد في سبيل الزوجة والولد والأمة والوطن ، وإسداء المعروف وسائر أعمال البر لا يبعث النفس عليها إلا الإيمان بالله وبالجزاء على الأعمال في حياة خير من الحياة الدنيا ، كما قرره البرنس بسمارك عظيم أوربة في عصره في بيان البياعث للجندى على بذل نفسه في الحرب وأنه وجدان الدين . وفي قوله عن نفسه : إنه لولا الإيمان لما خدم الأمة الألمانية في ظل عاهلها . وهو يكره الملوك لأنه جمهورى بالطبع - ولئن انتصرت الأفكار المادية على الهداية الدينية انتصاراً تاماً كاملاً ليتحولن جميع ما هتدى إليه البشر من أسرار الكون والفنون والصناعات إلى ذرائع الفتك والتدمير ، وبتس المثوى والمصير ، وهو ماجزم هربرت سبنسر شيخ فلاسفة أوربة الاجتماعيين بأن سيكون عاقبة انتشار الأفكار المادية في أوربة : صرح به لشيخنا عند التقائه به في إنجلترا .

فجملة القول : أن الدين هو الهداية العليا للإنسان التي أفيضت على بعض خواصه وهم الرسل من أفق أعلى من عقله وحواسه فكانت أستاذاً مرشداً له فيهما لكيلا يستعملهما فيما يضره في سيرته الشخصية والاجتماعية ، وهاديا له إلى السعادة الآخروية ، وأن القرآن أكمل الكتب الإلهية التي أوحاها إلى رساله ليلبغوها خلقه ، أكلها هداية وإرشاداً ، وأصحها تاريخاً وإسناداً ، ولذلك كان خاتمة لها ، وكان آية دائمة ومعجزة ثابتة بأسلوب عبارته وبما اشتمل عليه ، مما مرت الإشارة إليه . ولكن ما طرأ على دول خلافته العربية من الضعف والانحلال صد الناس عنه ، وسيرجعون إلى إحياء لغته ، وتعميم دعوته فينقد الله به العالم من مصائبه المادية التي أوشكت أن تودى به (ولتعلمن نبأه بعد حين)

خاتمة البحث فيمن عارضوا القرآن

نختم هذا البحث بكلمة فيمن حاولوا معارضة القرآن ، وقد كان من دأب علماء المسلمين إحصاء كل ما يبلغهم في الدين والعلم والأدب وتدوينه وعزوه

إلى أهله ، حتى إن دعاة النصرانية يقرأون كتب علمائنا وينقلون منها كل طعن في الإسلام ويؤيدونه ، ويكتمون رد علماء المسلمين عليه أو يذكرون منه ما يرونه ضعيفا ويوردونه مورد الهزؤ والسخرية لتنفيذ ضمءاء العلم أو العقل من المسلمين عنه وقد أجمع رءاء الآثار والتاريخ على أن فءول البلفاء من مشركى العرب لم تسم نفس أحد منهم إلى معارضة القرآن مع شءة حرصهم على صد الناس عن الإسلام ، وعن الرسول ﷺ - كما تقدم - اللهم إلا أن بعضهم نقل عن مسيئة الكذاب أنه عارض سورة الكوثر وهى أقصر سورة منه ليثبت لدى فوءائه أنه يوحى إليه كءمء ﷺ فقال كما فى التفسير الكبير للفخر الرازى وغيره :

« إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وهاجر ، إن مبغضك رجل كافر »

وقد تعلق بهذا بعض دعاة النصرانية فى رسالة له فى الطعن على إعجاز القرآن ولكنه أوردها بألفاظ أخرى ، وزعم أنها فصيحة متناسبة المعنى ، بعد أن طعن فى سورة الكوثر وزعم أنه سأل علماء المسلمين عن بلاغتها وإعجازها فلم يستطع أحد أن يجيبه (وهو هو الذى نقلنا عنه معارضة سورة الفاتحة ص ٨٧) وهذه عبارته أو روايته

« إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وهاجر ، ولا تعتمد قول ساحر »

ولا شك أن هذا التغيير جاء من جاهل باللغة العربية الفصيحة ، ولا سيما لغة ذلك العصر ، وهو مع ذلك سخيف العقل ، فمن سخف عقله إتيانه بكلمة الجواهر هنا وترتيب الأمر بالصلاة على إعطائها ، وفرض هذا وحيا لمسيئة المدعى للنبوة ، مع أنه لا يوجد نقل بأن الله أعطاه جواهر معروفة تذكر بلام التعريف ، ولا غير معينة ، فتذكر بلام الجنس ، ثم إنه لا مناسبة للأمر بالجاهرة بالصلاة هنا وهى المشاركة فى جهر الشىء أو الجهر بالقول ، وأما الفقرة الأخيرة فليست مما يقوله عربى فح لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى إذ لم يكن عند العرب أقوال للسحرة تعتمد أو لا تعتمد إن صح أن يقال هذا ، وإنما السحرة أناس مفسدون محتالون فعالون لا قوالون ولو فرضنا أن هذه الألفاظ التى غيرها من السورة صحيحة ومناسبة المقام ومقتضى الحال لما صح أن يكون بها معارضا لها بل تقلداً وناقلاً فهو ضرب من الاقتباس مع التصرف ،

كمن يعير قافية أبيات من الشعر بمعناها أو بمعنى آخره، كقول الشاعر :
 ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طرف من رمقا
 لك أن تبدي لنا حسناً ولنا أن نعمل الحدقا
 قدحت عينك زند هوى في سواد القلب فاحترقا
 غيرت قوافيها لفظا لا معنى بالبداهة فقلت :

ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طرف من مقلا
 لك أن تبدي لنا حسناً ولنا أن نعمل المقلا
 قدحت عينك زند هوى في سواد القلب فاشتملا

«مقل» نظر بمقلته . ثم غيرتها أيضا بكلمات : نظر ، أو بصرا - النظر -
 فاستعرا - فهل أكون بهذا معارضا للأصل ، وفي طبقة صاحبه من غزل الشعر ؟
 إعجاز سورة الكوثر

وأما السورة فهي في أفق أعلى مما قال مسيلمة الكذاب ، ومما عزاه إليه الميثم
 الجاهل الخادع ، حتى لو فرض أنه قال ما قال من تلقاء نفسه .
 «الكوثر» في السورة لا يوجد في اللغة ما يحكيه أو يحل محله فيها ، إذ معناه
 الكثير البالغ منتهى حدود الكثرة في الخير حسياً كان ، كلال والرجال والقدورية
 والاتباع ، أو معنويا ، كالعلم والهدى والصلاح والإصلاح ، ويشمل الكثير من
 خيري الدنيا والآخرة . وهو يطلق على السخي الجواد أيضا .
 وأما موقعه في أول السورة وموقع كلمة «الأبتر» في آخرها اللذان اقتضتهما
 البلاغة وتأبى أن يحل غيرهما محلها فهو أن رؤساء المشركين المستكبرين كانوا
 يحقرون أمر النبي ﷺ لفقره وضعف عصبته ويتربصون به الموت أو غيره من
 الدوائر زاعمين أن ماله من قوة التأثير في الأنفس بتلاوة القرآن يزول بزوال شخصه
 كما قال تعالى (٥٢ : ٣٠) أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ٣١ قل تربصوا
 فإني معكم من المتربصين) وكانوا يقولون عند مارأوا أبناءهم يموتون : بتر محمد ، أو
 صار أبتر ، أي انقطع ذكره بانقطاع ولده وعصبته ، وكانوا يعدون الفقر وانقطاع
 العقب مطعنا في دينه ودليلا على توديع الله له وعدم عنايته به تبعا لاستدلالهم بالعتي

وكثرة الولد على رضا الله تعالى وعنايته كما حكي عنهم سبحانه بقوله (٣٤ : ٣٥) وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعتدين) وقد أبطل الله تعالى بيده السورة شبهتهم ، ودحض حجبتهم ، وجعل فآلم شؤماً عليهم ، بما بين من عاقبة أمرهم وأمره ، قال ما تفسيره بالابحاز .

(إنا) بما لنا من القدرة على كل شيء (أعطيناك) أيها الرسول من خيرى الدنيا والآخرة (الكوثر) الذى لا تحده كثرتة ولا تحصر ، من الدين الحق ، وهداية الخلق ، وما لا يحصى من الاتباع ، ومالا يحصر من الغنائم والنصر على الأعداء ، ومالا ينقطع من الذرية التى تنسب اليك فتذكر بذكرهم ، ويصلى ويسلم عليك وعليهم ، ثم من الشفاعة العظمى يوم الفزع الأكبر ، والحوض الذى يرده المؤمنين فى المحشر ، فلفظ «الكوثر» يشمل كل هذا وغيره ، وإنما يكون كل نوع منه فى وقته . وكان الاخبار به فى أول الاسلام من البشارة ونبا الغيب ، وذكر بلفظ الماضى لتحقق وقوعه كقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أو على معنى الانشاء .. فأين هذا اللفظ فى نفسه وفى موافقته لمقتضى الحال من كلمة «الجواهر» التى استبدلها به مسيله الكنداب ، وهى بالضم الشئ الضخم - أو كلمة «الجواهر» التى ذكرها المبشر المرتاب السباب ، وهى كذب لا مناسبة له ؟

ووصل تعالى هذه البشارة العظمى بالأمر بشكرها فقال (فصل الربك) ومتولى أمرك الذى منّ عليك بهذه النعم وحده مخلصا له الدين (وانحر) ذبائح نسكك له وحده ، - فهو كقولته تعالى (٦ : ٦٦٢) قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) وهذا يدل على أنه سيكون له الغلب على المشركين الذى يتم بفتح مكة وبمحجه ونسكه مع أتباعه - وقد كان - ونحر (ص) فى حجة الوداع مائة ناقة ، فهذه بشارة خاصة بعد تلك البشارة العامة ، وكلاهما من أنباء الغيب ثم قفى على ذلك ببشارة ثالثة هى تمام الرد على أولئك الطغاة المغرورين بأولهم وأولادهم أوردتها مفصولة غير موصولة بالهطف على ما قبلها لأنها جواب عن سؤال تقديرد: وماذا تكون عاقبة شائئيه ومبغضيه الذين رموه بلقب الأبتروتربصوابه الدوائر لما يرجون من انقطاع ذكره واضمحلال دعوته ؟ فأجاب (إن شئت) أى

مبغضك وعائتك بالفقر وقد العقب (هو الأثر) من دونك - وهذا إخبار آخر بالغيب قد صرح وتحقق بعد ذكر السنين ، ولفظ « شأني » مفرد مضاف فعناد عام فهو يشمل العاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأمثالهم ممن نقل عنهم ذلك القول فيه (ص) لفظاً أو موافقة لأخوانهم المجرمين فقد بتروا كلهم وهلكوا ، ثم نسوا كأنهم ما وجدوا ، وزال ما كانوا يرجون من بقاء الذكر بالعظمة والرياسة وكثرة الولد والعصية ، فلم يعد أحد منهم يذكر بخير ، ولا ينسب له عقب .

فأنت ترى أن هذه السورة على إيجازها في منتهى الفصاحة والبلاغة ، وقد جمعت من المعاني الكثيرة الصحيحة ومن أنبياء الغيب التي فسرها الزمان ما تعد به معجزة بينة الإعجاز ، وفيها من المعاني واللائف غير ما ذكرنا ، فيراجع تفسيرها في مقام الغيب وغيره من المطولات .

أنبياء العجم الكاذبون

هذا وإنه قد طهر في القرنين الماضي والحاضر دجالون من إيران فالتند ادعى بعضهم أنه المهدي وبعضهم أنه نبي يوحى إليه وشارع جديد فإنه معبود ، وبعضهم أنه المسيح المنتظر . وقد أُلّف كل منهم رسائل وكتباً عربية ادعى أنها وحى من الله وأنها معجزة للإنام ، على اعترافهم بنبوة محمد (ص) وأن القرآن كتاب الله عز وجل . وقد ضل بكل منهم أناس من الأعاجم الذين لا يفهمون العربية فهما صحيحاً ، ثم تألفت لهم أحزاب وعصبيات بمساعدة الأجانب المستعمرين الطامعين في القضاء على الإسلام والمسلمين وصار لهم ثروة يستميلون بها الناس . وقد ردونا عليهم في المنار ، ورد عليهم غيرنا من العلماء بما ظهر به جهلهم وكذبهم ، وسخافتهم فيما اغتروا به من وحى الشياطين لهم .

وقد كان لأعرضهم دعوى كتاب سماه الكتاب الأقدس حاول فيه محاكاة القرآن في فواصل آياته وفي أنبياء الغيب - ولكن أتباعه الأذكياء لم يجدوا بداً من إخفاء هذا الكتاب ، وجمع ما كان تفرق من نسخه المطبوعة في الأقطار ، وما يدرى إلا الله ماذا يفعلون فيه بعد أن يفتقروا بأنهم استردوا سائر نسخه من تصحيح وتنقيح ، وإبرازه في يوم من الأيام في ثوب جديد وهذا العمل يؤكد

انفراد القرآن بالإعجاز ، وكونه هو حجة الله الباقية إلى آخر الزمان .

(٢٥) وَإِشْرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كَمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلَ ، وَأْتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لما بين تعالى في الآية السابقة ما أعدّه للكافرين الذين قامت عليهم الحجة فوجدوا بها ، أراد أن يبين في هذه الآية نصيب مقابل هؤلاء ، وهم الذين ظهر لهم الدليل فآمنوا ، ولاح لهم نور الهداية فاهتدوا ، فالسكلام متصل ببعضه ببعض . ولذلك عطف الجملة على ما قبلها ، لأنها متممة لفائدتها ، إذ لا بد بعد بيان جزاء الكافرين ، من بيان جزاء المؤمنين ، والإرشاد ترهيب وترغيب ، والخطاب يصح أن يكون للنبي ﷺ خاصة ، وأن يكون عاما لكل من يسمع الأمر من أهله ، وقالوا : إن الأخير هو المعروف في لسان العرب والمفهوم عندهم من أمثال هذا الخطاب ، كقوله تعالى (١٥ : ٤٩ : نبي عبادة) وقوله (٣٦ : ١٣ : واضرب لهم مثلا ...) فهو في عمومه جار مجرى الأمثال ، والمخاطب الأول به هو الرسول على كل حال .

قال تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ ولم يذكر بماذا آمنوا لأن متعلق الإيمان كان معروفا عند المخاطبين ، وهو الله تعالى وصفاته التي ورد بها النقل الصريح . وأثبتها العقل الصحيح ، والوحي ومن جاء به ، والبعث والجزاء . فهذه هي الأصول التي كان يدعو إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمن صدقهم فيها كان مؤمنا ويصدق بما يتبع ذلك من التفصيل (قال الأستاذ) ولا بد في تحقق الايمان من اليقين ، ولا يقين إلا ببرهان قطعي لا يقبل الشك والارتياب ، ولا بد أن يكون البرهان على الألوهية والنبوة عقليا ؛ وإن كان الارشاد إليها سمعيا ، ولكن [لا ينحصر البرهان العقلي المؤدى إلى اليقين في تلك الأدلة التي وضعها المتكلمون وسبقهم إلى كثير منها الفلاسفة الأقدمون ، وقلما تخلص مقدماتها من خلل ، أو

نصح طرقها من عليل ، بل قد يبلغ أمد علم اليقين بنظرة صادقة في ذلك السكون الذي بين يديه ، أو في نفسه إذا تجلت بغرائبها عليه ، وقد رأينا من أولئك الأميين ، مالا يلحقه في يقينه آلاف من أولئك المصنفين ، الذين أفنوا أوقاتهم في تنقيح المقدمات وبناء البراهين ، وهم أسوأ حالا من أدنى المقلدين [

(وأقول) كان الأستاذ قد أطلق اشتراط البرهان العقلي هنا كما أطلقه في مواضع أخرى تقدم بعضها والبحث فيه ثم قيده هنا بما بين به خطأ بعض المتكلمين في اشتراطهم البراهين المنطقية التي سموها قطعية على ما فيها من خلل وعلل . والحق أن اطمئنان القلب بما جاء به الرسول ﷺ من غير تردد ولا اضطراب كاف في النجاة في الآخرة ، وأن أفضل الأدلة ما أرشد إليه القرآن من النظر في آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق ، فبداهة العقل فيه كافية عند سليم الفطرة الذي لم يتبل بشكوك الفلاسفة وجدليات المتكلمين ولا بتقليد المبطلين . هذا وإن إطلاق الايمان وذكر المؤمنين وما أعد لهم من غير وصله بذكر متعلقاته معهود في القرآن لأن المتعلق معلوم للسامعين كما قلنا ، وهو بالنسبة لمن لم يؤمنوا : مادعاهم إليه النبي ﷺ إجمالا من الأصول ، وأما المؤمنون فقد عرفوه مفصلا تفصيلا

ثم وصف المؤمنين الذين يستحقون البشارة بقوله ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وأطلق في هذا أيضا كما أطلق في كثير من الآيات لأن العمل الصالح معروف عند الناس بالإجمال ، وذلك كاف في الترغيب فيه وجعله تابعا للإيمان متصلا به ولازما من لوازمه ، وبين الأعمال الصالحة بالتفصيل في آيات كثيرة كقوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الخ وكلا آيات في أول سورة (المؤمنون) وآخرها وآخر سورة الفرقان وأوائل سورة المعارج وغير ذلك . كأن الله تعالى يقول : إن العمل الصالح معروف عند الناس لأنه أودع في نفوسهم ما يميزون به بين الخير والشر ، ولكن بعضهم يضل بانحراف يطرأ على نفسه فيخرجها عن الاعتدال الفطري ثم يضل بضلاله آخرون ، فتكون التقاليد والعادات الناشئة عن هذا الضلال هي الميزان عند الضالين في معرفة الصلاح والفساد ، والخير والشر لا أصل الهداية الفطرية ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « كل مولود يولد على

الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » رواه الشيخان وغيرهما — يعنى أن الإنسان لو ترك ونفسه لا تهتدى إلى الحق ما دام بعيداً عن التقاليد والعادات وقد بلغ فساد الطباع وانحراف الفطرة في بعض الأمم مبلغاً كادوا يخرجون به عن طور البشر ، كتنطى البراهمة إذ ذهبوا إلى أن كمال الأرواح وسعادتها إنما هو في تعذيب الأبدان وحرمانها من لذاتها . ولذلك جدوا في البعد عن اللذات الجسائية بأنواعها ، فآلوا عن سنن الاعتدال ، ومنوا بأبدانهم وعقولهم بالفساد والاعتلال ، وبعض كفرة العرب وطائفة من البراهمة إذ زعموا أنه لا خير إلا في اللذة البدنية ولا شر إلا في الألم الجسداني ، فالسعادة والكمال عندهم في البعد عن الآلام البدنية ، والتمتع بالشهوات الحسية ، فمثل هؤلاء المرضى النفوس المحرومين من الكمال الروحي والعقلي كمثل من غلبت عليه الصفراء فصار يذوق الخلو مرأً ، وإن من المرضى من يشتهي في طور النقه ما لا يشتهي في حال الصحة والاعتدال وكذلك الجبالى في مدة الوح

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم

فأخبر والشر والصلاح والفساد والحق والباطل والفضيلة والرذيلة كل ذلك معروف في الجملة حتى عند الأشرار ولذلك يدعون الخير والصلاح وينكرون ما هم عليه في إطلاق القول بذكر الأعمال الصالحات ليس مبهما عندهم ، ولا خطاباً بغير مفهوم ، وإنما يحتاج معتل الفطرة إلى التفصيل في ذلك ، وذكر الإمارات والدلائل التي تميز بين الصالحين والفاستقين ، والمحقين والمبطلين ، ولهذا نزلت آيات البيان والتفصيل التي أشرنا إلى بعضها آنفاً ، وبها ينقطع تلبيس الأغبياء ، واعتذار الجهلاء ، وحق القول بأن الذى يستحق هذه البشارة هو من جمع بين الإيمان والعمل الصالح الذى ترشد إليه الفطرة السليمة ، ويهتدى إلى تحديده الكتاب العزيز وسنة الرسول المتبعة بشرهم ﴿ أن لهم جنات ﴾ ورد لفظ الجنة والجنات كثيراً في مقابلة النار ، والجنة في اللغة البستان والجنات جمعها ، وليس المراد بهما مفهومهما الغوى فقط وإنما هما دار الخلود في النشأة الآخرة ، فالجنة دار الأبرار والمتقين ، والنار دار العقاب والفاستقين ، فنؤمن بهما بالغيب ولا نبحث في حقيقة أمرهما ، ولا نزيد

على النصوص القطعية فهما شيئاً لأن عالم الغيب لا يجري فيه القياس
ومما وصف الله تعالى به الجنات قوله ﴿يجرى من تحتها الأنهار﴾ والمناسبة
ظاهرة فان البساتين حياتها بالأنهار . (قال شيخنا) وهل سميت دار النعيم جنة
وجنات على سبيل التشبيه وذكرت الأنهار ترشيحاً له أم سميت بذلك لأنها مشتملة
على الجنات تسمية لسلك باسم البعض ؟ الله أعلم بمراده . وأقول: لو لم يرد في هذا
المقام إلا ذكر الجنة أو الجنات لوجب التفويض وامتنع الترجيح ، أما وقد ذكر
في آيات أخرى أنواع من الشجر المثمر وذكر الثمرات . فقد تمين ترجيح الشق
الثاني ، وإلا كان هر بنا من تشبيه أسرى الألفاظ عالم الغيب بعالم الشهادة من
كل وجه ، إلى تأويلات البياطنية المعطلين لدلالاتها من كل وجه .

ألم تر إلى ربك كيف ذكر من شأن أهل تلك الجنات فيها أنهم ﴿كلما رزقوا
منها من ثمرة رزقا﴾ كلمة «من» الأولى للابتداء والثانية للتمييز ، أي كلما رزقوا من
الجنات رزقا من بعض ثمارها ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي هذا الذي
وعدنا به في الدنيا جزاء على الإيمان والعمل الصالح ، فهو كونه تعالى (٣٩ : ٧٤) وقالوا الحمد
لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء) وذهب الجلال
 وغيره إلى الاختيار أن معناه تشبيه ثمرات الآخرة بثمرات الدنيا لأنها مثلها في اللون

والشكل والرائحة وإن كانت تفضلها في الطعم واللذة فقوله تعالى ﴿وأوتوا به متشابهاً﴾
بيان لسبب القول على هذا التفسير ، أي أوتوا بما ذكر من الرزق في الدنيا والآخرة
متشابهاً بعضه يشبه بعضاً ، ومحصله : أنهم عند ما يؤتون برزق الجنة يبادرون إلى
الحكم بأنه غير ما وعدوا به وأنه عين رزق الدنيا ، لأن التشابه يكون سبب الاشتباه
عليهم ، ولكنهم يعرفون الفرق بعد ذلك بالطعم لأن فرقاً عظيماً بين لذة رزق الدنيا
ورزق الجنة ، والتعبير بكليهما في هذا التفسير لأن الاشتباه إنما يكون في المرة الأولى ،
ثم يعرفون التفاوت معرفة تذهب به وتمنع من الحكم بأن هذا عين ذلك أما بالنسبة
لأفراد النوع الواحد من الثمار فبالاختيار ، وأما بالنسبة لما بعد النوع الأول من
الأنواع فبالقياس عليه . وما ذهب إليه الجلال منافع للبلاغة في المعنى أيضاً لأن

تشابه رزق الدنيا والآخرة في الألوان والروائح واختلافه في الطعم فقط ليس فيه كبير تشويق لأن اللذة في التنقل ، ثم إن أطوار الجنة مخالفة لأطوار الدنيا ، والتشويق للناس إنما يكون بحسب ما عهدوا واعتادوا وألفوا . وإنا نعلم أن الأكل في الدنيا لأجل حفظ البنية من الانحلال ، ولا انحلال في دار الخلد والبقاء ، فلا بد أن يكون الأكل والشرب هناك على ماورد لحكمة أخرى ، أو هو لتحصيل لذة لا نعرفها لأنها من أحوال عالم الغيب ، وإنا نؤمن بماورد ونفوض أمر حقيقته وحكمته إلى الله تعالى . ومما ورد أنه لذة أعلى من لذات الدنيا

أقول : بل قال ابن عباس رضى الله عنهما « ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء » وفي حديث الصحيحين المرفوع عن الله عز وجل « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وهو تفسير قوله تعالى (١٧:٣٢) فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وذهب بعض المفسرين إلى ما قلناه أولاً من أن ذلك الرزق هو عين ما وعدوا به جزاء على أعمالهم ، فكما رزقوا ثمرة منه يدكرون الوعد الإلهي شكراً لله على توفيقهم لذلك العمل الذي له أعد هذا الجزاء ، كما تفيد آية (وقالوا الحمد لله) التي ذكرناها آنفاً ، فهو من قبيل ارتباط الموعود به بالموعد عليه كأن الأعمال عين الجزاء (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يرد * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يرد) وقوله تعالى بعد ذلك (وأتوا به متشابهاً) تأكيد وتقرير لما تضمنته قولهم وهذا هو الراجح الذي اختاره شيخنا ، وهنالك قول ثالث ، وهو أن رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها في صورته ، ويختلف في طعمه ولذته ، وهو المتبادر من اللفظ

ثم قال ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى مبالغ في تطهيرهن وتركيبهن فليس فيهن ما يعاب من حيث جسدى حتى ما هو في الدنيا طبيعى كالحيض والنفس ، ولا نفسى كالسكر والكيد وسائر مساوىء الأخلاق ، لأنهن طهرن كل نوع من أنواع التطهير . ونساء الجنات من المؤمنات الصالحات ، وهن المعروفات في القرآن بالحدود العين ، ومحبة الأزواج في الآخرة كسائر شؤونها الغيبية تؤمن بما أخبر به الله تعالى منها لا يزيد فيه ولا تنقص منه ، ولا تبحث في كيفية ، وإنا نعرف بالاجمال أن أطوار الحياة

الآخرة أعلى وأكمل من أطوار الحياة الدنيا كما تقدم ، ونحن نعلم أن الحكمة في لذة الأزواج بالمصاحبة الزوجية المخصوصة هي التناسل وإتمام النوع ، ولم يرد أن في الآخرة تناسلا ، فلا بد أن تكون لذة المصاحبة الزوجية هناك أعلى ، وحكمتها أسمى وإننا نؤمن بها ولا نبحث في حقيقتها كما تقدم في بحث رزق الجنة

(أقول) هذا ملخص ماقاله الأستاذ على طريقته المثلى في الإيمان بالغيب من غير قياس لعلمه على عالم الشهادة وهو لا ينافي كون الإنسان في الآخرة يكون إنسانا لا ملكا ، وإنما تكون لذاته الإنسانية أكمل مما كان في الدنيا وأسلم من المنغصات ومنها الطعام والشراب والمباشرة الزوجية فتنه ، وثبت في الحديث الصحيح « أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفولون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون . قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، ويلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » رواه مسلم عن جابر بن عبد الله وفي معناه أحاديث أخرى . وفي الصحيح أيضا أن لكل رجل في الجنة زوجين اثنين - قال العلماء إحداهن من نساء الدنيا والأخرى من نساء الجنة وما ورد من كثرتين لا يصح منه شيء . ثم قال : ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ الخلود في اللغة طول المسك ومن كلامهم خلد في السجن كما في الأساس ، وفي الشرع الدوام الأبدى أى لا يخرجون منها ولا هي تفتى بهم فيزولوا بزوالها ، وإنما هي حياة أبدية لا نهاية لها ، وفقنا الله لما يجعلنا من خيار أهلها من العلوم الصحيحة ، والأعمال الصالحة ، التي ترتقى بها الأرواح ، وتستعد لذلك الفلاح

(٢٦) إِنْ لَمْ يَنْتَهِبْ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ يَكْفُلْ لَكُمُ اللَّهُ رِزْقًا كَثِيرًا
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا
يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ

الآيات متصلة بما قبلها لم يختلف النظم ولم يخرج الكلام عن الموضوع الأصلي

وهو الكتاب الذي لا ريب فيه ، وحال الناس في الإيمان به وعدم الإيمان ، ولا فصل في صحة هذا الوصل بين أن يكون الكلام رداً على اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت كما يروى عن ابن عباس ، أو رداً على المنافقين الذين أنكروا الأمثال في الآيات السابقة بمستوقد النار والصيب من السماء زاعمين أنه لا يليق بالله ضرب الأمثال ، أو يكون المراد بانثل القدوة تقريراً لنبوة النبي ﷺ . أما على الأول فيقال : إنه إنما نص هنا على نفي الاستحياء من ضرب أي مثل ، ولم يذكر ذلك هناك عند تمثيل الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله بالذباب والعنكبوت لأن المقام هنا مقام ذكر الاعتراض الموجه على القرآن ، فيكون هذا مقام رد شبه المكابرين عنه ، وأما على الثاني والثالث فهو أظهر . على أنه لا حاجة في فهم الآية إلى ما قالوه في سببها ، فإن لم تكن رداً لما قيل فهي رد لما قد يقال ، أو يجول في خواطر أهل المكابرة والجدال ، والمجاهدة والحال

والاستحياء - قال صاحب الكشاف : إنه من الحياء وهو انكسار وتغير في النفس لم يلم بها إذا نسب إليها أو عرض لها فعل تعتقد قبحه ، وفي الحالة الثانية يكون مانعاً من الفعل الذي يعرض ، يقال : فلان يستحي أن يفعل كذا ، أي إن نفسه تنكسر فتتقضى عن فعله ، ويقال إنه استحي من عمل كذا ، أي إن نفسه انفعلت وتألمت عند ما عرض عليه عمله فرآه شيئاً أو نقصاً . ويقال حيي بهيئنا المعنى ، كأنه أصيب في حياته ، كما يقال : نسي إذا أصيب في نساءه - وهو عرق يسمونه عرق النساء بفتح النون - وحشى إذا أصيب في حشاه . وقالوا : إن الحياء ضعف في الحياة بما يصيب موضعها وهو النفس ، فمعنى عدم استحياء الله تعالى أنه لا يعرض له ذلك الانكسار والانفعال ، ولا يعتريه ذلك التأثير والضعف فيمتنع من ضرب المثل ، بل هو يضرب من الأمثال الهداية والمطابقة لحال الممثل به ما يعلم أنه يحلج الحقائق ويؤثر في القلوب . ولكن صاحب الكشاف وغيره أرادوا أن يجعلوا الآية دليلاً على اتصاف الله تعالى بالحياء ، فقالوا إن النفي خاص ومثله إذا ورد على شيء ، يدل على أن ذلك الشيء قابل للانصاف بالمنفي ، فمن لا قدرة له على شيء لا ينفي عنه ، لا تقول : إن عيني لا تسمع وأذني

لا ترى ، وقالوا : إن معنى نفي الاستحياء هو أن الله تعالى لا يرى من النقص أن يضرب مثلاً بعوضة فما دونها ، لأنه خالق كل شيء ، وقد ورد في الحديث نسبة الحياء إلى الله تعالى ، والناقون له يؤولون ماورد بأثره وذايته

أقول : هدامؤدى ماقاله الاستاذ فى الدرر ، والحديث فى وصفه تعالى بالحياء مرورى عن يعلى بن أمية وعن سلمان الفارسى أخرجها أحمد وأبو داود والأول النسائى والثانى الترمذى وابن ماجه والحاكم وحسنوهما . والتحقيق : أن الحياء انفعال النفس وتألمها من النقص والقبیح بالغريرة الفضلى غريرة حب الكمال فهو كمال لها خلافا لأولى الوقاحة الذين يعدونه ضعفاً ونقصاً . وإنما النقص الافراط فى هذه الصفة بحيث تضعف عن الاقدام على الشىء الحسن النافع اتقاء لدم من لا يعرف حسنه أو لا يعترف به والمثل فى اللغة الشبه والشبيه وضرره عبارة عن إيقاعه وبيانه وهو فى الكلام

أن يذكر لخال من الأحوال ما يناسبها ويشابهها ويظهر من حسننها أو قبحها ما كان خفياً ، ولما كان المراد به بيان الأحوال كان قصة وحكاية ، واختير له لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه ، وينتهى إلى أعماق نفسه ، ولكن فى الكلام قلباً حيث جعل المثل هو المضروب وإنما هو مضروب به . هذا الذى قاله الأستاذ وهو أبلغ فى المعنى من جعل الضرب المثل كضرب القبة والخيمة أو ضرب النقود . وإذا كان الغرض التأثير بالبلاغة تقتضى بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه بحال الأشياء التى جرى العرف بتحقيرها ، واعتادت النفوس النفور منها ، ومثل هذا لا يخفى على بليغ ، ولا على عاقل أيضاً ، ولذلك قال بعضهم : إن المنكرين لم يروا فى القرآن شيئاً يعاب ، فتمحلوا بقولهم هذا :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبقصاً إنه للدميم

وجروا فى ذلك على عادة المتحدلقين المتكيسين^(١) إذ يتحامون ذكر الألفاظ

التي مدلولاتها حقيرة فى العرف ، وإذا اضطروا لذكرها شفعوها بما يشفع لها كقولهم «أجلكم الله» وإذا كان شأن المثل ما ذكرنا وكان ذكر الأشياء التى ينفرد منها من

(١) أى المتكفين للحدق والتكيس وهو الظرف ، يقال تكيس وتكيس

ذكرنا في الأمثال التي يراد منها التنفير ، هو الأبلغ في التأثير الذي هو روح البلاغة وسرها، كان قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ مبينا لشأن من شؤون كاله عز وجل في كتابه العزيز، وقاضياً على الذين يتحامون ذكر البعوضة وأمثالها بنقص العقل، وخسران ميزان الفضل ، والمراد بما فوق البعوضة ما علاها وفاقها في مرتبة الصغر ومنها جنسة النسم (الميكروبات) التي لاترى إلا بالنظارات المكبرة (ميكروسكوب) وكانوا يضربون المثل بمخ الخملة ، وفي كلام بلغاءهم : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشة ، وأعز من مخ البعوضة . والمعنى أن الله تعالى لا يترك ضرب مثل مآ من الأمثال حياء منه سواء كان بعوضة أو أصغر منها حجاً ، وأقل عند الناس شأنًا .

ثم ذكر تعالى أن الناس في ذلك فريقان ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لأنه ليس نقصاً في حد ذاته ، وقد جاء في كلامه تعالى فهو ليس نقصاً في جانبه ، وإنما هو حق لأنه مبين للحق ومقرره ، وسائق إلى الأخذ به ، بما له من التأثير في النفس ، وذلك أن المعاني السلبية تعرض للذهن مجتمعة مبهمه فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرها ، والمثل هو الذي يفصل إجمالها ، ويوضح إبهامها ، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها ، ومشكاة الهداية ونبراسها ، ورحم الله تعالى عبد القاهر الجرجاني إمام البلاغة والواضع الأول لعلمي المعاني والبيان ، ومؤلف أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لتحقيق اعجاز القرآن ، حيث قال في كتابه الأول :

« واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ؛ ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ؛ واستثار لها من أفاصي الأفتدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا .

« فان كان مدحا كان أبهى وأخف ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهزل للعطف وأسرع للألف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على المتمدح ، وأوجب شفاعة للممدوح ، وأفضى له

بغرر المواهب والمناخ ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعاقبة القلوب وأجدر ،
 « وإن كان ذمما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ،
 « وإن كان حجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أظهر ، وبيانه أبهر .
 « وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد .

« وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم
 أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفي عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث .
 وإن كان وعظاً كان أشقى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ،
 وأجدر بأن يجلى الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ، ويشفي الغليل » الخ

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ فيجادلون في الحق بعد ما تبين ، ويمارون بالبرهان
 وقد تعين ، فيخرجون من الموضوع ، ويعرضون عن الحجة ، ويتبعون الكلم
 المفردة ، حتى إذا ظفروا بكلمة لا يستعذبها ذوق المتطرفين ، ولا تدور على السنة
 المتكافين ، أظهروا العجب منها ، وطفقوا يتساءلون عنها ﴿ فيقولون ماذا أراد الله
 بهذا مثلاً ﴾ ولو أنصفوا لعرفوا ، ولكنهم ارتابوا في الحق فانصرفوا (١٨: ٥٤) وكان
 الانسان أكثر شيئاً حدلاً) يذهب به جملة إلى قياس رب العالمين ، بمتنطعي
 المتأدبين . وينكر على ربه المثل والقياس ، ولا ينكره على نفسه وعلى الناس .

قال تعالى في جوابهم ﴿ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ﴾ أي يضل بالمثل
 أو بالكلام المضروب فيه المثل أولئك الذين يجعلونه شبهة على الإنكار والريب ،
 ويهدى به الذين يقدرون الأشياء بقاياتها ، ويحكمون عليها بحسب قائمتها . وأنفع
 الكلام ما جلى الحقائق ، وهدى إلى أقصد الطرائق ، وساق النفوس بقوة التأثير ،
 إلى حسن التصير (٣٠: ٤٣) وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) فهم هؤلاء
 العالمون هم المؤمنون الذين يعلمون أنه الحق من ربهم وهم المهديون به ، وأما الذين قالوا (ماذا
 أراد الله) الخ ، أي الذين يشكرون المثل لكفرهم فهم الضالون به ، وقد بين شأنهم بقوله
 ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ فعرفت علة ضلالهم وهي الفسوق أي الخروج عن
 هداية الله تعالى في سنته في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر ، وبكتابه بالنسبة

إلى الذين أتوه ، وليس المراد بالفاسقين ما هو معروف في الاصطلاحات الشرعية
 وهم العصاة بما دون الكفر من المعاصي ، فانه لا يصح هنا ، وتلك الاصطلاحات حادثة
 بعد التنزيل ، وقد كان التعبير يبطل مشعراً بأن المثل هو منشأ الاضلال والهداية
 بذاته ، فنفي ذلك بهذه الجملة ليبين أن منشأ الضلال راسخ فيهم وفي أعمالهم وأحوالهم
 ثم إن الآية تشعر بأن المهتدين في السكينة كالضالين مع أن هؤلاء أكثر
 وكان الحكمة في التسوية إفادة أن المؤمنين المهتدين على قلوبهم أجل فائدة وأكثر
 نفعاً وأعظم آثاراً من أولئك الكفار الفاسقين الضالين على كثرتهم ، لأن
 المؤمنين كليل * قليل إذا عدوا كثير إذا شدوا * ولذلك جعل الواحد في القتال
 بعشرة في حال القوة والعزيمة ، وبأثنين في حال الضعف ، قيل هو ضعف البدن ،
 وقيل : بل ضعف البصيرة ، ولقد كان من أثر ذلك العدد القليل من المؤمنين الأولين
 أن سادوا جميع العالمين

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى المجد حتى عد ألف بواحد
 إن الكرام كثير في البلاد وإن قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا
 وأما وجه تقديم الاضلال على الهداية فلأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم
 في الوجود ، وإنما جاءت الآيات المبينة بالامثال لآخر أخرجهم مما كانوا فيه من ظلمات
 الباطل إلى نور الحق ، فزادت الفاسقين رجساً على رجسهم ، لأن نور الفطرة قد
 انطفأ من أنفسهم ، بتأديهم في نقض العهد ، وقطع الوصل والافساد في الارض ،
 كما في الآية التالية لهذه . وقد علم بما ذكرنا أن في الآية لفاً ونشراً غير مرتب
 فان الضلال ذكر أولاً ، وهو للفريق الثاني ، والهدى ذكرنا آخراً ، وهو للفريق الاول
 وهذا وإن ما تقدم تقريره في ضرب المثل وضلال قوم به وهداية آخرين ، هو
 مبني على أن المراد به المثل الكلامي كاعليه الجمهور ، أخذاً مما ورد في سبب النزول ،
 وتقدم عن بعضهم أن المراد بالمثل في الآية القدوة الذي يؤتم به ويهتدى بهديه ،
 وهذا المعنى للمثل معروف ، وقد نطق به القرآن في قوله تعالى (٤٣ : ٥٦) فجعلناهم سلفاً
 ومثلاً للآخرين) وقوله (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) وقال
 فيه (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبيبي اسرائيل) فهذه الآية تهدينا

إلى فهم قوله تعالى (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما) أن المراد به دحض شبهة الذين أنكروا نبوة النبي ﷺ وصلاحيته لأن يكون مثلا يقتدى به ، وهي أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وهم المشركون ، والذين أنكروا أن يكون من العرب وهم اليهود .

وقد حكى هذه الشبهة عنهم في آيات كثيرة ، كأنهم يقولون : إذا كان بشراً مثلنا فكيف يدعى أنه رسول من الله يجب اتباعه ، ومثل كامل ضرب للاقتداء به ؟ (أنزل الذكر عليه من بيننا) ولأى شيء لم يرسل الله ملكا ؟ ومنهم من قال (لولا أنزلنا عليه ملك فيكون معه نذيراً) وقد أقام الله الحججة على هؤلاء بقوله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) الخ ، وأتبعها بوعيد من أعرض عن الايمان بعد قيام البرهان ، وهم الكافرون ، وبشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المؤمنون ، وبعد تقرير الحججة وهي تحديدهم بسورة من مثله - كرّ على شبهتهم بالنقض وهي استبعاد أن يكون بشر رسولا من عنده ، ومحصله : أن الله تعالى خالق كل شيء ، فيجعل ما شاء من المنفعة والفائدة فيما شاء ومن شاء من خالفه ويضرب به مثلا للناس يهتدون به ، وليس هذا نقصاً في جانب الالهية فيستحي من ضربها مثلا ، بل من الكمال والفضل أن يجعل في المخلوقات الضعيفة والمحتقرة في العرف كالبعوض فوائد ومنافع ، فكيف يستنكر أن يجعل من الانسان الكامل الذي كرمه وخلقه في أحسن تقويم مثلا وإماما يقتدى به قومه ويهتدون بهديه ؟ وبقية الكلام في الآية على هذا الوجه في معنى المثل هو نحو ما تقدم تقريره وأظاها منه أتم الظهور .

[فان الذين آمنوا يعلمون أن هذا الامام الذي نصبه للناس مهما يكن ضعيفا قبل أن يقويه ببرهانه هو الحق الذي ثبت تأييده من ربهم ، والكافرون يقولون لم لم يبعث إلى الناس من هو خير منه في نظرهم ؟ وماذا يريد بأن يجعل لهم قدوة في أضعفهم وأهونهم ، وهكذا تقول في قوله : يضل به كثيرا] الخ

وقد عهد من أهل البصيرة الاقتداء بالحيوانات والاستفادة من خصالها وأعمالها ، ويجكي عن بعض كبار الصوفية أنه قال : تعلمت المراقبة من القط ، وعن بعض حكماء المسلمين أنه قرأ كتابا نحواً من ثلاثين مرة فلم يفهمه ، فبئس منه وتركه

فرأى خنفسه تتسلق جداراً وتقع فعدَّ عليها الوقوع فزاد على ثلاثين مرة ولم تياس حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه والانهاء إلى حيث أرادت ، فقال : لن أرضى أن تكون هذه الخنفساء أثبت منى وأقوى عزيمة ، فرجع إلى انكتاب فقرأه حتى فهمته . ويقال إن (تيمور لنك) كانت تحسده نفسه بالملك من أول نشأته ، على ما كان من فقره ومهانتة . فسرق مرة غنماً (وكان لصاً) ففطن له الراعى فرماه بسهمين أصابا كتفه ورجله فغطلاهما ، فأوى إلى خربة وجعل يفكر فى مهانتة ويوبخ نفسه على طمعها فى الملك ، ولكنه رأى نملة تحمل تبنه وتصعد إلى السقف وعند ما تبلغه تقع ثم تعود وظلت على ذلك عامة الليل حتى نجحت فى الصباح ، فقال فى نفسه والله لا أرضى بأن أكون أضعف عزيمة وأقل ثباتاً من هذه النملة ، وأصرَّ على عزمه حتى صار ملكاً وكان من أمره ما كان

(٢٧) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

وصف الضالين بالفسوق ثم بين من حال فسوقهم نقض العهد الموثق ، وقطع ما يجب أن يوصل ، والإفساد فى الأرض ، وسجل بذلك عليهم الخسران وحصرهم فى مضيقه ، بحيث لا يسلم منه إلا من رجع عن فسوقه ، (أقول) فعلم بهذا أن المراد بإسناد الاضلال إليه تعالى فى الآية السابقة بيان سنته تعالى فى أصحاب هذه الأعمال من الفساق وهو أنهم يضلون حتى بما هو سبب من أشد أسباب الهداية تأثيراً وهو المثل المذكور بسبب رسوخهم فى الفسق ونقضهم للعهد الخ .

وليس المعنى أنه تعالى خلق الضلال فيهم خلقاً وأجبرهم عليه إجباراً العهد هنا لفظ مجمل لم يتقدم الآيات ما يشعر به ، ولم يتل فيما تلاها ما يبينه ، وكذلك ما أمر الله به أن يوصل ، ليس فى سابق الآيات ولا فى لاحقها ما يفسره ويبين المراد منه ، فما المعنى الذى يتبادر منهما إلى أفهام المخاطبين ، ويصح أن يؤخذ من حال أولئك الفاسقين ، الذين أنكروا على الله أن يضرب مثلاً يقتدى به

من البشر أو من العرب ، أو الذين أنكروا الوحي المحيى الأمثال القولية فيه بما يمد
 حقيراً من الخلوقات في عرف المتكبرين والمتظرفين منهم ؟ دل ذكر العهد والسكوت
 عما يفسره ، وإطلاق ما أمر الله به أن يوصل بدون بيان ما يفصله ، على أن الله
 تعالى ما وصفهم إلا بما هم متصفون به ، ولا حاجة إلى بيان الحمل بالقول إذا كان
 الوجود قد تكفل ببيانه ، والواقع قد فسره بلسانه ، ويرشد إلى فهم العهد الإلهي هنا
 ما قلناه في معنى الفسوق فإن الفاسقين هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه
 فإذا كان معنى الفسوق الخروج عن سنن الله تعالى في خلقه التي هداهم إليها بالعقل
 والمشاعر ، وعن هداية الدين بالنسبة إلى الذين أوتوه خاصة ، فعهد الله تعالى هو
 ما أخذهم به بمنهجهم ما يفهمون به هذه السنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار ،
 والتجربة والاختبار : أو العقل والحواس المرشدة إليها ، وهي عامة ، والحجة بها
 قائمة على كل من وهب نعمة العقل وبلغ سن الرشد سليم الحواس ، ونقضه عبارة
 عن عدم استعمال تلك المواهب استعمالاً صحيحاً حتى كأنهم فقدوها وخرجوا من
 حكمها ، كما قال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم
 آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وكما قال
 فيهم أيضاً (صم بكم عنى فهم لا يعقلون)

هذا هو القسم الأول من العهد الإلهي وهو العام الشامل ، والأساس للقسم
 الثانى المكمل الذى هو الدين ، فالعهد فطرى خلقى ، ودينى شرعى ، فالشركون
 نقضوا الأول ؛ وأهل الكتاب الذين لم يقوموا بحقه نقضوا الأول والثانى جميعاً ،
 وأعنى بالناقضين من أنكروا المثل من الفريقين . والميثاق اسم لما يوثق به الشيء
 ويكون محكماً يعسر نقضه ، والله تعالى قد وثق العهد الفطرى بجعل العقول بهد
 الرشد قابلة لأدراك السنن الإلهية فى الخلق ، ووثق العهد الدينى بما أيد به الأنبياء
 من الآيات البينات ، والأحكام الحكمت ، وقد وثق العهد الأول بالعهد الثانى
 أيضاً ، فمن أنكروا بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سنته فى
 تقويم البنية البشرية وإتمامها ، وإبلاغ قواها ومدكات واحد الكمال الانسانى الممكن لها
 وأما قوله ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ ففيه من الاجمال نحو ما فى نقض العهد .

وليس هو بمعناه على طريق التأكيد . وإنما هو وصف مستقل جاء متمماً لما سبقه . وهذا الأمر نوعان : أمر تكوين وهو ما عليه الخلق من النظام والسنن المحككة ، وقد سمي الله تعالى التكوين أمراً بما عبر عنه بقوله (كن) وأمر تشريع وهو ما أوحاه إلى أنبيائه وأمر الناس بالأخذ به ، ومن النوع الأول ترتيب النتائج على المقدمات . ووصل الأدلة بالمدلولات ، وإفضاء الأسباب إلى المسببات ، ومعرفة المنافع والمضار بالغايات . فمن أنكر نبوة النبي بعد ما قام الدليل على صدقه . أو أنكر سلطان الله على عباده بعد ما شهدت له بها آثاره في خلقه . فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى التكوين الفطرى - وكذلك من أنكر شيئاً مما علم أنه جاء به الرسول . لأنه إن كان من الأصول الاستقادية ففيه القطع بين الدليل والمدلول . وإن كان من الأحكام العملية ففيه القطع بين المبادئ والغايات . لأن كل ما أمر الدين به قطعاً فهو نافع ومنفعته تثبتها التجربة والدليل . وكل ما نهى عنه حتماً فلا بد أن تكون عاقبته مضرة . فالذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه هم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل بغايته . أما بالنسبة إلى الإيمان بالله تعالى وبالنبوة فيقطعون ما أمر به بمقتضى التكوين والنظام الفطرى . وأما بالنسبة إلى الأحكام فيقطعون ما أمر به في كتبه أمر تشريع وتكليف . وصلة الأرحام تدخل في كل من القسمين إذا كان مشركو العرب قد نقضوا عهد الفطرة وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل بمقتضاها بتكذيبهم النبي ﷺ وإيدائه وهو ذو رحم بهم . فالمكذبون من أهل الكتابين قد قطعوا صلوات الأمرين كما نقضوا المهدين : فإن الله تعالى قد بشرهم في الكتب المنزلة على أنبيائهم بالنبي ﷺ لأنه ذكر للبشر به صفات وأعمال وأحوال تنطبق عليه أتم الانطباق فحرفوا وأولوا واجتهدوا في صرفها عنه وهم متعمدون (وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) ومنهم من يحمل تلك الصفات والعلامات على غيره . ومنهم ينتظر مبعوثاً آخر يجيء الزمان به

التعبير بالقطع هنا أبلغ من التعبير بالنقض ولذلك جاء بعده ضمالة . كأن عهد الله تعالى إلى الناس حبل محكم الطاقات . وثق القتل . وكأن هذا الحبل قد وصل بحكمة أمر التكوين وحكم أمر التشريع بين جمع المنافع التي تنفع الناس .

فلم يكتف أولئك الفاسقون المنكرون المثل الذي ضربه الله لعباده بنقض حبل العهد الالهي . وحل طاقاته ونسكت فتاه حتى قطعوه قطعاً . وأفسدوا بذلك نظام الفطرة ونظام الهداية الدينية أصلاً وفرعاً . ولذلك عقب هذا الوصف بقوله ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ . وأى إفساد أكبر من إفساد من أهمل هداية العقل وهداية الدين . وقطع الصلة بين المقدمات والنتائج . وبين المطالب والأدلة والبراهين . من كان هذا شأنه فهو فاسد في نفسه ووجوده في الأرض مفسد لأهلها . لأن شره يتعمد كالآجرب يعمدى السليم . ولذلك ورد في السنة النهي عن قرناء السوء . والمشاهدة والتجربة مؤيدة للسنة ومصدقة لها . خصوصاً إذا قعدوا في سبيل الله يصدون عنها ويبغونها عوجاً . فإن إفسادهم يكون أشد انتشاراً وأشمل خساراً ولما كان إفساد هؤلاء عاملاً للعقائد والأخلاق والأعمال لأن علته فقد الهدايتين هداية الفطرة وهداية الدين — سجل عليهم الخسران وحصره فيهم بقوله ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ بالخزى في الدنيا والعذاب في الآخرة أما خسرانهم في الدنيا فهو ظاهر لأرباب البصائر الضافية . والفضائل السامية . ولكنه يخفى على الأكثرين . بالنسبة إلى الأغنياء من أولئك الخاسرين . يرونهم متمتعين بميزات الدنيا وشهواتها . فيحسبون أنهم مغيوطون سعداء بها . فيكون هذا الحسبان من آلات الافساد . ولو سبروا أغوارهم . وبلوا أخبارهم . لأدركوا أن ما هم فيه من ظلمة النفس وضيق العطن وفساد الأخلاق ينقص عليهم أكثر لذاتهم . ويقذف بهم إلى الافراط الذي يولد الأمراض الجسدية والنفسية . ويشير في نفوسهم كوامن الوسواس . ويجعل عقولهم كالكرة تنفاذفها صوالجة الأوهام . وأن حب الراحة يوقعهم في تعب لانهاية له . وهو تعب البطالة والكل أو العمل الاضطراري ومن لا يذوق لذة العمل الاختياري لا يذوق لذة الراحة الحقيقية . لأن الله تعالى لم يضع الراحة في غير العمل . وإنما سعادة الدنيا بصحة الجسم والعقل وأدب النفس الذي يرشد إليه الدين . فمن فقد هذه الأشياء فقد خسر الدنيا والآخرة (ذلك هو الخسران المبين)

(٢٨) كَيْفَ تَسْفُرُونَ لِلَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٩) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِذَلِكَ شَئِيءٌ عَلِيمٌ

الكلام متصل بما قبله ومرتب به ارتباطاً محكماً والخطاب للفاسقين الذين يضلون بالمثل فإنه وصفهم أولاً بنقص العهد الإلهي الموثق ، وقطع ما أمر به سبحانه أن يوصل ، سواء كان الأمر أمر تكوين وهو السنن الكونية ، أو أمر تشريع وهو الديانة السماوية ، ثم بعد هذا البيان جاء بهذا الاستفهام التعجيبى عن صفة كفرهم مقترناً بالبرهان الناصح على أنه لا وجه له ، ولا شبهة تسوغ الإقامة عليه ، فقال **﴿ كيف تكفرون بالله ﴾** أى بأى صفة من صفات الكفر بالله تعالى تأخذون ، وعلى أية شبهة فيه تعتمدون ، وحالكم فى موتتكم وحياتكم تأبى عليكم ذلك ولا تدع لكم عذراً فيه هو بين هذه الحال بقوله **﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾** أى والحال انكم كنتم قبل هذه النشأة الأولى من حياتكم الدنيا أمواتا منبثة اجزاؤكم فى الأرض ، بعضها فى طبقتها الجامدة و بعضها فى طبقتها السائلة و بعضها فى طبقتها الغازية (الهوائية) لا فرق فى ذلك بينها وبين أجزاء سائر الحيوان والنبات ، فخلقكم أطواراً من سلالة من طين ، فكنتم بالطور الأخير فى أحسن تقويم ، وفضلكم على غيركم بما وهبكم من العقل والادراك ، وما سخر لكم من الكائنات **﴿ ثم يميتكم ﴾** بقبض الروح الحى الذى به نظام حياتكم هذه فتنحل أبدانكم بمفارقتها إياها وتعود إلى أصلها الميت وتنبت فى طبقات الأرض وتدغم فى عوالمها ، حتى ينعدم هذا الوجود الخاص بها **﴿ ثم يحييكم ﴾** حياة ثانية كما أحياكم بعد الموتة الأولى بلا فرق الاماتكون به الحياة الثانية أرقى فى مرتبة الوجود وأكمل لمن يزكون أنفسهم فى تلك ، وأدنى منها وأسفل فيمن يدسونها ويفسدون فطرتها (قد أفلح من زكها وقد خاب من دساها)

﴿ثم إليه ترجعون﴾ فينبشكم بما عملتم ، ويحاسبكم على ما قدمتم ، ويجازيكم به وأقول ان تراخي الارجاع إلى الله تعالى عن حياة البعث عبارة عن تأخير الحساب والجزاء وطول زمن الوقوف والانتظار كما ورد في حديث الشفاعة العظمى وغيره . فاذا كان هذا شأنكم معه وهذا فضله عليكم ، وهذا مبدأكم ، وذلك منتهاكم ، فكيف تكفرون به وتتكبرون عليه أن يضرب لكم مثلاً تهتدون به ، ويبعث فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياته ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من قيام مصالحكم في حياتكم الأولى ، وسعادتكم في حياتكم الأخرى ؟ لا يقال كيف يحتاج عليهم بالحياة الثانية قبل الإيمان بالوحي الذي هو دليلها ومثبتها ؟ لأنه احتجاج على مجموع الناس بما عليه إلا كثيرون منهم ، ولا عبرة بالشذاذ المنكرين للبعث في هذا المقام لأن الاحتجاج بالحياة الأولى بعد الموت الأولى كاف للتعجب من كفرهم بالله وانكارهم عليه أن يضرب مثلاً ما لهداية الناس زعماً أن هذا لا يليق بعظمته ، فان من أوجد هذا الانسان الكريم ، وجعله في أحسن تقويم ، وركب صورته من تلك الذرات الصغيرة ، والنطقة المهينة الخفية ، والعلقة الدموية أو الدودية ، والمضغة اللحمية ، (لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) والكلام مسوق لإبطال شبه منكري المثل والقرآن الذي جاء به ، لا لإبطال شبه منكري البعث بلوابع شبهه ، ثم إن تمثيل إحدى الحياتين بعد الموت بالأخرى داحض لحجة من يزعم عدم إمكان الثانية ، لأن ما جاز في أحد المثلين جاز في الآخر ، والكلام في اثبات الوحي الالهي للنبي المرسل من البشر والإيمان بالبعث تابع له ثم بعد بيان بعض آياته في أنفسهم بذكر المبدأ والمنتهى ذكرهم بآياته في

الآفاق فقال ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ فالكلام على اتصال وترتيبه وانتظام جواهره في سلك أسلوبه ، فليس في قوله كيف تكفرون الخ انتقال لاثبات البعث كما قال بعض المفسرين ، غفلة عن هذا الاتصال المتين ، ولعمري أن وجوه الاتصال بين الآيات ، وما فيها من دقائق المناسبات ، لهي ضرب من ضرب البلاغة ، وفن من فنون الإعجاز ، إذا أمكن للبشر الاشراف عليه ، فلا يمكنهم البلوغ اليه ، والكلام في البعث في القرآن كثير جداً فلا حاجة إلى الاسراع إليه هنا

يصور لنا قوله تعالى (خلق لكم) قدرته الكاملة ، ونعمه الشاملة ، وأى قدرة أكبر من قدرة الخالق ؟ وأى نعمة أكمل من جعل كل مافي الأرض مهيئاً لنا ، ومعداً لمنافعنا ؟ وللانتفاع بالأرض طريقان (أحدهما) الانتفاع بأعيانها في الحياة الجسدية (وثانيهما) النظر والاعتبار بها في الحياة العقلية ، والأرض هي مافي الجهة السفلى ، أى ماتحت أرجلنا ، كما أن المراد بالسماء كل مافي الجهة العليا أى فوق رؤوسنا وإتنا ننتفع بكل مافي الأرض برها وبحرها من حيوان ونبات وجماد ، ومالا تصل إليه أيدينا ننتفع فيه بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته . والتعبير بفي يتناول مافي جوف الأرض من المعادن بالنص الصريح

(وأقول هنا) إن هذه الجملة هي نص الدليل القطعي على القاعدة المعروفة عند الفقهاء « ان الأصل في الأشياء المحفوفة الإباحة » والمراد بإباحة الانتفاع بها أكلها وشربها ولباساً وتداوياً وركوباً وزينة ، وبهذا التفصيل تدخل الأشياء التي يضر استعمالها في بعض الأشياء وينفع في بعض ، كالسموم التي يضر أكلها وشربها وينفع التداوى بها ، وليس لمخلوق حق في تحريم شيء أباحه الرب لعباده تدينابه إلا بوحيه وإذنه (قل ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً * قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) ؟ . وما يحظره الطبيب على المريض من طعام حلال في نفسه وما يمنع الحاكم العادل الناس من التصرف فيه من المباحات لدفع مفسدة أو رعاية مصلحة — فليس من التحريم الديني للشيء ولا يكون دائماً ، وإنما يتبعان في ذلك كما يأمران به بحق وعدل مادامت علمته قائمة

قال تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ يقال استوى إلى الشيء إذا قصد إليه قصداً مستويًا خاصاً به لا يلوى على غيره . وقال الراغب إذا تعدى استوى إلى اقتضى الانتهاء إلى الشيء إما بالذات وإما بالتدبير ، والمراد أن إرادته توجهت إلى مادة السماء كما قال في سورة فصلت (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) الخ ﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ فأنم خلقهن من تلك المادة الدخانية فجعلهن سبع سموات تامات منتظمات الخلق . وهذا الترتيب يوافق ما كان معروفاً عند اليهود عن سيدنا موسى عليه السلام من أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ، ثم

خلق السموات والنور، ولا مانع من الأخذ بظاهر الآية فان الخلق غير التسوية
 ألا ترى أن الإنسان في طور النطفة والعلقة يكون مخلوقا ولكنه لا يكون بشرا
 سويا في أحسن تقويم كما يكون عند نشأته خلقا آخر، وسنين ان شاء الله تعالى
 عند تفسير قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا
 ففتقناهما) أن العالم كان شيئا واحدا ثم فصله الله تعالى بالخلق تفصيلا، وقدره
 تقديرا، فلا مانع إذن من أن يكون خلق الأرض وما فيها سابقا على تسوية
 السماء سبعا، نعم إن هذا من أسرار الخلق التي لا نعرفها وربما يتوهم أن هذه
 الآية تناقض أو تخالف قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء وأنوارها ٧٩ : ٣٠
 والأرض بعد ذلك دحاها) والجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن البعدية
 ليست بعديّة الزمان ولكنها البعدية في الذكر وهي معروفة في كلام العرب وغيرهم
 فلا بعد في أن تقول فعلت كذا لفلان وأخسنت عليه بكنا و بعد ذلك ساعدته
 في عمل كذا كما تقول وزيادة على ذلك ساعدته في عمله، تريد نوعا آخر من أنواع
 الإحسان، من غير ملاحظة التأخر في الزمان (ثانيهما) أن الذي كان بعد خلق
 السماء هو دحو الأرض أي جعلها ممهدة مدجوة قابلة للسكنى والاستعمال لا مجرد
 خلقها وتقدير أوقاتها فيها، وخلق الله وتقديره لم ينقطع من الأرض ولا ينقطع
 منها مادامت وكذلك يقال في غيرها

(وأزيد على ذلك الآن) أن الدحو في أصل اللغة دحرجة الأشياء القابلة
 للدحرجة كالجوز والسكري والحصى ورميها ويسمون المطر الداحي لأنه يدحو الحصى
 وكذا اللاعب بالجوز. وفي حديث أبي رافع كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان
 الله عليهما بالمداحي وهي أحجار أمثال القرصة كانوا يحفرون ويدحون فيها بتلك
 الأحجار، فان وقع الحجر فيها غلب صاحبها وان لم يقع غلب، ذكره في اللسان
 وقال بعده الدحو هو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره. وأقول إن ما ذكره وأعاد
 القول فيه من لعبة الدحو بالحجارة المستديرة كالقرصة لا يزال مألوافا عند الصبيان
 في بلادنا ويسمون له لعب الأكرة، ويحرفها بعضهم فيقول الدكرة. وقال الراغب في
 مفردات القرآن قال تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) أي أزالها عن مقرها

كقوله (يوم ترجف الأرض والجبال) وهو من قولهم دحا المطر الحصى الخ ، ولكن فرقا بين دحا الأرض ودحرجتها من مكانها عند التكوين ، ورجفها قبيل خرابها عند قيام الساعة ، وقد يكون المراد به - والله أعلم - أنه دحاها عند مافتقها هي والسموات من المادة الدخانية التي كانت رتقا وفيه دلالة أو إشارة - على الأقل - إلى أنها كرة أو كائنة في الاستدارة ، ولا يبعد أن يكون المراد بدحرجتها ودحرجتها حركتها بقدرته تعالى في فلكهما (وكل في فلك يسبحون) وهذا لا ينافي ما قيل من أن معناه بسطها أى وسعها ومدفبها ، وأنه سطحها أى جعل لها سطحا واسعاً يعيش عليه الناس وغيرهم ، فمن جعل مسألة كرويتها وسطحها أمرين متعارضين يقول بكل منهما قوم يطعنون في الآخرين فقد ضيقوا من اللغة والدين واسعاً بقلة بضاعتهم فيهما معاً .

وحاصل القول أن الله تعالى خلق هذه الأرض وهذه السموات التي فوقنا بالتدرج وما أشهدنا خلقهن ، وإثما ذكر لنا ما ذكره الاستدلال على قدرته وحكمته وللإمتنان علينا بنعمته ، لا لبيان تاريخ تكوينا بالترتيب ، لأن هذا ليس من مقاصد الدين ، فابتداء الخلق غير معروف ولا ترتيبه إلا أن تسوية السماء سبع سماوات يظهر أنه كان بعد تكوينا الأرض ، ويظهر أن السماء كانت موجودة إلا أنها لم تكن سبعاً ، ولذلك ذكر الاستواء إليها وقال (فسواهن سبع سموات) فتؤمن بأنه فعل ذلك لحكم يعلمها ، وقد عرض علينا ذلك لنتدبر ونتفكر ، فمن أراد أن يزداد علماً فليطلبه من البحث في الكون [وعليه بدراسة ما كتب الباحثون فيه من قبل ، وما اكتشف المحدثون من شؤونه وليأخذ من ذلك بما قام عليه الدليل الصحيح لا بما يتخرص به المتخرصون ، ويخترعونه من الأوهام والظنون] وحسبه أن الكتاب أرشده إلى ذلك وأباحه له .

هذه الاباحة للنظر والبحث في الكون بل هذا الإرشاد إليها بالصيغ التي تبعث الهمم وتثوق النفوس ككون كل ما في الأرض مخلوقاً لنا محبوساً على منافعنا هو مما امتاز به الاسلام في ترقية الإنسان ، فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين أن أهل الكتاب كانوا متفقين في تقاليدهم وسيرتهم العملية على أن العقل والدين ضدان

لا يجتمعان ، والعلم والدين خصمان لا يتفقان ، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجاً عن نص الكتاب فهو باطل .

ولذلك جاء القرآن يبلِّغ أشد الإلحاح بالنظر العقلي ، والتفكير والتدبر والتدبر ، فلا تقرأ منه قليلاً إلا وتراه يعرض عليك الأكوان وبأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها ، واستجلاء حكم اتفانها واختلافها (١٠: ١٠١) قل انظروا ماذا في السموات والأرض ٢٩: ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ٢٢: ٤٦ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ٨٨: ١٧ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً . وإكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به ، ومن فوائد الحث على النظر في الخليفة للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة ، واستخراج علومها لترقية النوع الإنساني الذي خلقت هي لأجله - مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التي كان عليها أهل الكتاب فأودت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به .

كانت أوروبا المسيحية في غمرة من الجهل ، وظلمات من الفتن ، تسيل الدماء فيها أنهاراً لأجل الدين ، وباسم الدين والاكراه على الدين ، ثم فاض طوفان تعصبها على المشرق ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبساً من دين الإسلام وعلوم أهله ، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا إن لنا الحق في أن نتفكر ، وأن نعلم وأن نستدل ، فحاربهم الدين ورجاله حرباً عواناً انتهت بظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله ، وبعده غسل الدماء المسفوكة قام منذ مائتي سنة إلى اليوم رجال منهم يسمون هذه المدنية القائمة على دعائم العلم : المدنية المسيحية ، ويقولون بوجود بحق سائر الأديان ومحوها بعد انهزامها من أمام الدين المسيحي لأنها لا تتفق مع العلم وفي مقدمتها الدين الإسلامي ، وحجتهم على ذلك حال المسلمين ، نعم إن المسلمين أمسوا وراء الأمم كلها في العلم حتى سقطوا في جاهلية أشد جهلاً من الجاهلية الأولى ، فجهلوا الأرض التي هم عليها ، وضعفوا عن استخراج منافعها ، فجاء الأجنبي يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون ، وكتابتهم قائم على صراطه يصبح بهم (هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً وسخر لكم مافي السموات

وما في الأرض جميعا منه - قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا (الآية وأمثال ذلك . ولكنهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون) إلا من رحم الله ، ولو عقولوا آمادوا ، ولو عادوا لاستفادوا ، وبلغوا ما أرادوا ، وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلهم يرجعون ، ولا نياس من روح الله (إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون)

ثم ختم الآية سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أى فهو المحيط بكيفية التكوين وحكمته ، وبما ينفع الناس ببيانه ، وإذا كان العاقل يدرك أن هذا النظام المحكم لا يكون إلا من عليم حكيم فكيف يصح له أن ينكر عليه أن يرسل من يشاء من خلقه هداية من شاء من عباده ؟ فهذا الآخر يتصل بأول الآية في تقر ير رسالة النبي ﷺ وإبطال شبهة الذين أنكروا أن يكون البشر رسولا ؛ والذين أنكروا أن يكون من العرب رسول ، لأن قصارى ذلك كله اعتراض الجاهلين ، على من هو بكل شيء عليم .

(٣٠) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِئِمَّةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(تمهيد للقصة ومذهب السلف والخلف في التشابهات)

إن أمر الخلقة وكيفية التكوين من الشؤون الإلهية التي يعز الوقوف عليها كما هي ، وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر النشأة الإنسانية على نحو ما يؤثر عن أهل الكتاب من قبلنا ، ومثل لنا المعاني في صور محسوسة ، وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار ، كما هي سنته في مخاطبة الخلق ، وبيان الحق ، وقد ذهب الأستاذ إلى أن هذه الآيات من التشابهات التي لا يمكن حملها على ظاهرها ، لأنها بحسب قانون التخاطب إما استشارة وذلك محال على الله تعالى ، وإما اخبار منه سبحانه الملائكة واعتراض منهم ومحاجة وجدال ، وذلك لا يليق بالله تعالى

أيضا ولا بلائكته ، ولا يجامع ماجاء به الدين من وصف الملائكة ككونهم
(لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقد أورد الأستاذ مقدمة تهديدية
لفهم القصة فقال مأمثاله :

أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات (١)
وقد قام البرهان العقلي والبرهان النقلى على هذه العقيدة فكانت هي الأصل المحكم
في الاعتقاد الذي يجب أن يرد إليه غيره ، وهو التنزيه ، فإذا جاء في نصوص
الكتاب أو السنة شيء يناقض ظاهره التنزيه . فالمسلمين فيه طريقتان :

(إحداهما) طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل كقوله تعالى
(ليس كمثل شيء) وقوله عز وجل (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وتفويض
الأمر إلى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك ، مع العلم بأن الله يعلمنا بتضمون كلامه
مانستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ويأتينا في ذلك بما يقرب المعاني من
عقولنا ويصورها لمخيلاتنا .

(والثانية) طريقة الخلف وهي التأويل يقولون : إن قواعد الدين الإسلامي
وضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منها عن المعقول فإذا جزم العقل بشيء
وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي للقاطع قرينة على أن النقل لا يراد به
ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغي طلبه بالتأويل (قال الأستاذ)
وأنا على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته
وعالم الغيب . وانا نسير في فهم الآيات على كلا الطريقتين لأنه لا بد للكلام
من فائدة يحمل عليها ، لأن الله عز وجل لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى

(وأقول) أنا - مؤلف هذا التفسير : إنني والله الحمد على طريقة السلف
وهديهم عليها أحياء وعليها أموت إن شاء الله تعالى وإنما أذكر من كلام شيخنا ومن
كلام غيره ومن تلقاه نفسي بعض التأويلات لما ثبت عندي باختباري الناس أن
ما انتشر في الأمة من نظريات الفلاسفة ومذاهب المبتدعة المتقدمين والمتأخرين جعل
قبول مذهب السلف واعتقاده يتوقف في الغالب على تلقيه من الصغر بالبيان الصحيح

(١) كان الأصل أنه تعالى ليس بجسم ولا يشبه الأجسام - وهو قاصر

وتخطئة ما يخالفه ، أو طول ممارسة الرد عليهم ، ولا نعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل من كتب شيخى الاسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى ، وإبنى أقول عن نفسى : إبنى لم يطمئن قلبي بذهب السلف تفصيلا إلا بممارسة هذه الكتب .

فنحن قد سمعنا بأذانتنا شبهات على بعض الآيات والأحاديث لم يسهل علينا دفعها واقناع أصحابها بصدق كلام الله وكلام رسوله الا بضرب من التأويل وأمثال تقر بها من عقولهم ومعلوماتهم أحسن التقرير ، وقد غلط كثير من علماء الكلام والمفسرين في بيان مذهب السلف وفي معانى التفويض والتأويل ونجد تفصيل ذلك لنا فى أوائل تفسير سورة آل عمران كما أخطأ من قالوا إن الدليل العقلى هو الأصل فيرد اليه الدليل السمعى ويجب تأويله لأجل موافقته مطلقا والحق كقول شيخ الاسلام ابن تيمية : إن كلام الدليلين إما قطعى وإما غير قطعى ، فالتعظيم لا يمكن أن يتعارض حتى ترجح أحدهما على الآخر ، وإذا تعارض ظنى من كل منهما مع قطعى وجب ترجيح القطعى مطلقا ، وإذا تعارض ظنى مع ظنى من كل منهما رجحنا المقول على المعقول لأن ما ندركه بغلبة الظن من كلام الله ورسوله أولى بالاتباع مما ندركه بغلبة الظن من نظرياتنا العقلية التى يكثر فيها الخطأ جدا ، فظواهر الآيات فى خلق آدم مثلا مقدم فى الاعتقاد على النظريات المخالفة لها من أقوال الباحثين فى أسرار الخلق وتعميل أطواره ونظامه مادامت ظنية لم تبلغ درجة القطع وينبغى أن تعلم أيها القارى المؤمن أن من الخبير لك أن تطمئن قلبا بمذهب السلف ولا تحفل بغيره ، فان لم يطمئن قلبك إلا بتأويل يرضاه أسلوب اللغة العربية فلا حرج عليك ، فان الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وأئمة علماء السلف قد تأولوا بعد الظواهر كما فعل الامام أحمد وغيره فى آيات المعية . وآخرون فى غيرها ، والذى عليك قبل كل شىء أن توفق بأن كلام الله كله حق ، وألا تؤول شيئا منه بسوء القصد . وكذا ما صح عن رسوله (ص) من أمر الدين بغير شبهة . والتفسير الموافق للغة العرب لا يسمى تأويلا وإنما يجب معه تنزيه الخالق وعدم تشبيهه عالم الغيب بعالم الشهادة من كل وجه .

إذا تقرر هذا فهناك تفسير هذا السياق بما قرره شيخنا في الأزهر قال مأمثاله :
 أما الملائكة فيقول السلف فيهم : إنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وبيعض
 عليهم فيجب علينا الإيمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم ، فذهوض
 علمنا إلى الله تعالى ، فإذا ورد أن لهم أجنحة تؤمن بذلك ولكننا نقول إنها ليست
 أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور إذ لو كانت كذلك لرأيناها ، وإذا ورد
 أنهم موكولون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار فاننا نستدل بذلك على أن في الكون
 عالماً آخر أظف من هذا العالم المحسوس وأن له علاقة بنظامه وأحكامه ، والعقل
 لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بإمكانه لذاته ، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به
 (قال الأستاذ) وقد بحث أناس في جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن
 من وقفهم الله تعالى على هذا السر قليلون ، والذين إنما شرع للناس كافة ، فكان
 الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته لأن تكليف
 الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق ، ومن خصه الله
 تعالى بزيادة في العلم فذلك فضله يؤتیه من يشاء ، فقد ورد في الصحيح عن أمير
 المؤمنين على كرم الله وجهه في هذا العلم اللدني الخاص وقد سئل «هل خصكم
 رسول الله ﷺ بشيء من العلم ؟ فقال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن
 يؤتى الله عبداً فهم في القرآن الخ» وأما ذلك الحوار في الآيات فهو شأن من شؤون
 الله تعالى مع ملائكته صوره لنا في هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب
 ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا ،
 وأن هناك معاني قصدت إذادتها بهذه العبارات وهي عبارة عن شأن من شؤونه
 تعالى قبل خلق آدم وأنه كان يعد له الكون ، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق
 نوع الانسان ، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله .

وأما الفائدة فيما وراء البحث في حقيقة الملائكة وكيفية الخطاب بينهم وبين
 الله تعالى فهي من وجوه .

(أحدها) أن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن
 حكيمته في صنعه ، وما يخفى عليهم من أسرارته في خلقه ، ولا سيما عند الخيرة ،

والسؤال يكون بالمقال ويكون بالحال والتوجه إلى الله تعالى في استفادة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سنته تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العملي والاستدلال العقلي والالهام الالهي) وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفادة العلم غير معروفة لأحد من البشر فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك (ثانياً) إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا ، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليفة وحكمها لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً .

(ثالثاً) أن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم ، وأجابهم عن سؤاهاهم لإقامة الدليل ، بعد الإرشاد إلى الخضوع والتسليم ، وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون علم آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتي بيانه .

(رابعاً) تسليمة النبي ﷺ عن تكذيب الناس ، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ما جحدوا ، فإذا كان الملائكة قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون ، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين ، وبالأنبيا أن يعلموا كما عامل الله الملائكة المقربين ، أي فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتي أهل الدعوة بسطان مبين ، وهذا الوجه هو الذي يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها . وكون الكلام لا يزال في موضوع الكتاب وكونه لا يرب فيه وفي الرسول وكونه يبلغ وحى الله تعالى ويهدى به عباده وفي اختلاف الناس فيها ، ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها مع كون الجميع في سياق موضوع واحد .

وأما الخلف فمنهم من تكلم في حقيقة الملائكة ووضع لهم تعريفاً ومنهم من أمسك عن ذلك وقد اتفقوا على أنهم يدركون ويعلمون . والقصة على مذهبهم وردت مورد التمثيل لتقرب من أفهام الخلق ما تفيدهم معرفته من حال النشأة الآدمية ، وما لها من المكانة والخصوصية : أخبر الله الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة ، ففهموا من ذلك أن الله يودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة أن يكون

ذا إرادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود ، وأن الترجيح بين ما يتعارض من الأعمال التي تمن له تكون بحسب علمه ، وأن العلم إذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الإرادة إلى خلاف المصلحة والحسنة وذلك هو الفساد ، وهو متعين لازم الوقوع ، لأن العلم المحيط لا يكون إلا لله تعالى ، فعجبوا كيف يخلق الله هذا النوع من الخلق وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون ، أو بلسان الحال والتوجيه إليه لاستفاضة المعرفة بذلك وطلب البيان والحكمة ، وعبر الله عن ذلك بالقول لأنه هو المعهود بالاستسلام والاستفهام عند البشر الذين أنزل القرآن لهذا بينهم ، كما نسب القول إلى السموات والأرض في قوله (قلنا أتينا طائعين) .

فأول ما ألقى إليهم من الإلهام أو غيره من طرق الإعلام هو وجوب الخضوع والتسليم ، لمن هو بكل شيء عليم ، لأن ما يضيق عنه علم أحد وبحار في كنهه يتسع له علم من هو أعلم منه ، ومن شأن الإنسان أن يسلم لمن يعتقد أنه فوقه في العلم ما يتصدى له مهما يكن بعيد الوقوع في اعتقاده ، ومثل الأستاذ لذلك بمشايخ الصوفية مع مريديهم .

ومن ذلك اعتقاد جماهير الناس في بلاد الحضارة والصناعات في هذا العصر إمكان أمور وأعمال لم يكن أحد يتصور إمكانها من قبل إلا بعض كبار علماء النظر ، فإذا قيل إنهم يحاولون عمل كذا فانهم يصدقونهم ، وإن لم يعقلوا كيف يعملونه فإن الذين يصنعون سلكاً لنقل الأخبار بالكهروبا إلى الأماكن البعيدة في دقيقة أو دقائق قليلة يصدقون بأنهم يوصلون تلك الأخبار من غير سلك ، وقد كان ، ويصدقون بإمكان إيجاد آلة تجمع بين نقل الصوت ورؤية المتكلم وهو ما يحاولون الآن ، وإذا قال لنا أهل هذه الصناعة إن ذلك ممكن الحصول صدقناهم فيما يقولون من غير تردد ، وليس تصديقنا تقليداً ولا تسليماً أعمى كما يقال بل هو تصديق عن دليل ركنه قياس ما يكون على ما قد كان بعد العلم بوحدة الوسائل . والملائكة أعلم منا بشأن الله في أفعاله وأنه العليم الحكيم ، فهم وإن فاجأهم العجب من خلق الخليفة يردهم إلى اليقين أدنى التشبيه ، ولذلك كان قوله تعالى (إني أعلم ما لا تعلمون) جواباً مقنماً أي اقناع .

على أن هذا النوع من التسليم للعالم القادر . ربما لا يذهب بالحيرة ولا يزيل الاضطراب من نفس المتعجب ، وإنما تسكن النفس ببروز ذلك الأمر الذي كانت تعجب من بروزه إلى عالم الوجود ووقوفها على أسراره وحكمه بالفعل ، ولذلك تفضل الله تعالى على الملائكة بإكمال علمهم بحكمته في خلق هذا الخليفة الانساني وسره عند طلوع فجره . فعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتي ، فعلموا أن في فطرة هذا الخليفة واستعداده علم ما لم يعلموا ، وتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة في الأرض ، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه ، وناهيك بمقام العلم وفائدته ، وسر العالم وحكمته فعلمنا أن السلف والخلف متفقون على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من شؤون المخلوقين ، وعصمة ملائكته عما لا يليق بهم من الاعتراض أو الانكار . فلا فرق في هذه النتيجة بين تفويض وتسليم ، وتأويل وتفهم ، والله بكل شيء عليم ، وهاك تفسير الآيات بالتفصيل .

قد علمت مما تقدم أن الآيات متصلة بما قبلها من الكلام في الكتاب ومن جاء به ومن دعى إليه ، فهي تجلي حجة الرسول ودعوته من حيث إن الملائكة إذا كانوا محتاجين إلى العلم ويستفيدونه بالتعلم من الله تعالى بالطريقة التي تناسب حالهم فالبشر أولى بالحاجة إلى ذلك منهم لأن طبيعة البشر جبلت على أن يكتسبوا كل شيء اكتساباً ، وهي من جهة أخرى تسلية له صلى الله عليه وسلم ببيان أن البشر أولى من الملائكة بإنكار ما لم يحيطوا بعلمه حتى يعلموا ، وأنهم جبلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد أن يخطئوا ويذنبوا ، وأن الافساد في الأرض وجود الحق ومناسبة الداعي إليه ليس بدعا من قومه ، وإنما هو جيلة أهل الفكر وطبيعة البشر .

ثم إن للمفسرين في (الخليفة) مذهبين : ذهب بعضهم إلى أن هذا اللفظ يشعر بأنه كان في الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق ، وأنه انقرض . وأن هذا الصنف الذي أخبر الله الملائكة بأن سيجمعه خليفة في الأرض سيحل محله ويخلفه ، كما قال تعالى بعد ذكر إهلاك القرون (١٠: ١٤) ثم جعلناكم خلائف في الأرض

من بعدهم) وقالوا : إن ذلك الصنف البائد قد أفسد في الأرض وسفك الدماء وأن الملائكة استنبطوا سؤالهم بالقياس عليه ، لأن الخليفة لا يبد أن يناسب من يخلفه ويكون من قبيله كما يتبادر إلى الفهم ؛ ولكن لما لم يكن دليل على أنه يكون مثله من كل وجه وليس ذلك من مقتضى الخلافة ؛ أجاب الله الملائكة بأنه يعلم ما لا يعلمون مما يمتاز به هذا الخليفة على من قبله ، وما له سبحانه في ذلك من الحكمة البالغة (قال الأستاذ) وإذ اصح هذا القول فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض ، وإنما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه في الذات والمادة ، وتخالفها في بعض الأخلاق والسجايا .

هذا أحسن ما يجلي فيه هذا المذهب وأكثر ما قالوه فيه قد سرى إلى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم ، ومنه أنه كان في الأرض قبل آدم خلق يسمون بالجن والبن ، أو الظم والرم ، والاكثرون على أن الخلق الذين كانوا في الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن ، والقائلون منهم بالجن (بالهمله) والبن قالوا إنهم كانوا قبل الجن ، وقالوا : إن هؤلاء عاثوا في الأرض فساداً ، فأبادهم الله (كما تقدم آنفاً) وقالوا : إن الله تعالى أرسل إليهم إبليس في جند من الملائكة فحارب الجن فدمرهم وفرقهم في الجزائر والبحار . وليس لهم في الإسلام سند يحتاج به على هذه القصص ، ولكن تقاليد الأمم الموروثة في هذه المسألة تنهى بأمر ذي بال ، وهي متفقه فيه بالأجمال ، ألا وهو ما قلناه من أن آدم ليس أول الأحياء العاقلة التي سكنت الأرض .

هذا هو المذهب الأول في تفسير الخليفة ، وذهب الآخرون إلى أن المراد إني جاعل في الأرض خليفة عني ، ولهذا شاع أن الإنسان خليفة الله في أرضه . وقال تعالى (٣٨ : ياد اود اناجعلناك خليفة في الأرض) والظاهر والله أعلم أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته ، ولكن ما معنى هذه الخلافة ، وما المراد من هذا الاستخلاف هل هو استخلاف بعض الانسان على بعض ؛ أم استخلاف البعض على غيره ؟ جرت سنة الله في خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على السنة أناس منهم يصطفهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه

الوضعية (أى الشرعية لأن الشرع وضع إلهي) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما في كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات ، نطق الوحي ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعا مختلفة ، وخص كل نوع غير نوع الانسان بشيء محدود معين لا يتعداه. فأما ما لا نعرفه إلا من طريق الوحي كالملائكة فقد ورد فيها من الآيات والأحاديث ما يدل على أن وظائفه محدودة . قال تعالى (٢٠: ٢١ يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (٢٧ : ١٦٥ وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) (٢٤ : ٣٧) والصفات صفا ، فالزجرات زجرا) (٧٩ : ١ - ٥ والنارعات غرقا ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا) على قول من قال : إن المراد بها الملائكة إلى غير ذلك مما يدل على أنهم طوائف لكل طائفة وظيفة محدودة ، وورد في الأحاديث أن منهم الساجد دائما ، والراكم دائما إلى يوم القيامة .

وأما ما نعرفه بالنظر والاختبار فهو جال المعدن والجماد ولا علم له ولا عمل . وحال النبات وإنما تأثير حياته في نفسه، فلو فرض أن له علما وإرادة فهذا لا أثر لها في جعل عمل النبات مبينا حكم الله وسننه في الخلق ، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها ، فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية فان له استعدادا محدودا ، وعلما إلهاميا محدودا ، وعملا محدودا ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته ، ولا حصر لأحكامه وسننه ، ولا نهاية لأعماله وتصرفه . وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفا . كقَالَ فِي كِتَابِهِ (٢٧ : ٤) وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا) وَخَلَقَهُ جَاهِلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى (١٦ : ٧٠) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) وَلَكِنَّهُ عَلَى ضِعْفِهِ وَجْهَهُ عِبْرَةٌ لِمَنْ يَتَّبِعُهُ ، وَمَوْضِعٌ لِعَجَبِ الْمُتَعَجِّبِ ، لِأَنَّهُ مَعَ ضِعْفِهِ يَتَصَرَّفُ فِي الْأَقْوِيَاءِ ، وَمَعَ جَهْلِهِ فِي نَشْأَتِهِ يَعْلَمُ جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ ، وَيُولَدُ الْحَيَوَانَ عُلَمًا بِالْإِلْهَامِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ ، وَتَكَلُّهُ قَوَاهِ فِي زَمَنِ قَلِيلٍ ، وَيُولَدُ الْإِنْسَانَ وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْإِلْهَامِ إِلَّا الصَّرَاخُ بِالْبَكَاءِ ، ثُمَّ يَحْسُ وَيَشْعُرُ بِالتَّدرِجِ البَطْنِي . بِالنَّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانَ وَيُعْطَى قُوَّةَ أُخْرَى تَتَصَرَّفُ بِشَعُورِهِ وَإِحْسَاسِهِ تَتَصَرَّفُ فَايَكُونُ لَهُ بِهِ السُّلْطَانُ عَلَى هَذِهِ السَّكَّائِنَاتِ ، فَيَسْخَرُهَا وَيُدَلِّهَا بِعَدَدِ ذَلِكَ كَمَا تَشَاءُ تِلْكَ الْقُوَّةُ الْغَرِيبَةُ هِيَ الَّتِي يَسْمُونَهَا

العقل ولا يعقلون سرها ، ولا يدركون حقيقتها وكنهها ، فهي التي تغني الإنسان عن كل ماوهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذي يقيه البرد والحر ، والاعضاء التي يتناول بها غذاءه والتي يدافع بها عن نفسه ويسطو بها على عدوه ، وغير ذلك من المواهب التي يعطاها الحيوان بلا كسب ، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان ، وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان .

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل ، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفاً لا حد له بإذن الله وتصريفه ، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليفته ، وملئكه الأرض وسخر له عوالمها — أعطاه أحكاماً وشرائع حدّ فيها لأعماله وأخلاقه حدّاً يحول دون بغي أفرادها وطوائفها بعضهم على بعض ، فهي تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد ومرب للعقل الذي كان له كل تلك المزايا فلم يداكبه عمله خليفته في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض ونحن نشاهد عجائب صنعه

في المعدن والنبات ، وفي البر والبحر والهواء ، فهو يتقن ويتبدع ، ويكتشف ويخترع ويمجد ويعمل ، حتى غير شكل الأرض فجعل الحزن سهلاً ، والمائل خصباً . والخراب عمراناً ، والبرازي بحاراً أو خلجاناً ، وولد بالتلقيح أزواجاً من النبات لم تكن كالليمون المسمى «يوسف أفندي» فان الله تعالى خلقه بيد الإنسان وأنشأه بكسبه ، وقد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية والتغذية والتوليد ، حتى ظهر التغير في خلقها وخلقتها وأصنافها ، فصار منها الكبير والصغير ، ومنها الأهل والوحش ، وهو يتفجع بكل نوع منها ويسخره لخدمته كما سخر القوى الطبيعية وسائر المخلوقات . أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . أن جعل الانسان بهذه المواهب خليفته في الأرض . يقيم سننه : و يظهر عجائب صنعه ، وأسرار خليفته ، وبدائم حكمه ، ومنافع أحكامه وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم ؟ وإذا كان الإنسان خليفة بهذا المعنى فكيف تعجب الملائكة منه ؟

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ بادروا إلى السؤال واستفهام الاستغراب و﴿قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ فيفعل بذلك عن تسبيحك وتقديسك ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ بلا غفلة ولا فنور؟ لاشك أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة وما يقتضيه من العلم غير المحدود والارادة المطلقة ، وكون هذا العلم المصرف للارادة لا يحصل إلا بالتدرج ، وكون عدم الاحاطة مدعاة للفساد ، والتنازع المفضى إلى سفك الدماء كما تقدم .

نعم إن هذا العلم الواسع لا يعطاه فرد من أفراد الإنسان ولا مجموع النوع دفعة واحدة فيشابه علمه علم الله تعالى ، وكلما أوتي نصيباً منه ظهر له من جهله ما لم يكن يعلم ، وكلما أعطى حظاً من الأدب والعقل ظهر له ضعف عقله ، والله در الشافعي حيث قال :

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي

وإذا ما ازددت علماً زادني علماً بجهولي

فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الالهي إلا قليلاً ، وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الالهي ، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم ، ثم أظهر لهم أن الانسان يكون خليفة بالعلم وما يتبعه فقال :

(٣١) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ

أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٢) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ

لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٣) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ

بِأَسْمَائِهِمْ فَمَا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ غَيْبَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

تقدم في بيان معنى الخليفة أن علم الملائكة وعلمهم محدودان ، وأن علم

الانسان وعمله غير محدودين ، وبهذه الخاصة التي فطر الله الناس عليها كان الانسان أجدر باختلافه من الملائكة ، وهذه هي حجة الله البالغة على الملائكة التي بيدها لهم بعد ما تبهم إلى علمه المحيط بما لا يعلمون فقال ﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾ أى أودع في نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ، فالمراد بالاسماء المسميات عبر عن المدلول بالدليل ، لشدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له ، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر . والعلم الحقيقي انما هو ادراك المعلومات أنفسها ، والالفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجرى بالمواضع والاصطلاح فهي تتغير وتختلف والمعنى لا يتغير فيه ولا اختلاف

قال الأستاذ : ثم إن الاسم قد يطلق اطلاقاً صحيحاً على ما يصل إلى الذهن من المعلوم أى صورة المعلوم في الذهن ، وبعبارة أخرى : ما به يعلم الشئ ، عند العالم ، فاسم الله مثلاً هو ما به عرفناه في أذهاننا ، بحيث يقال : إننا نؤمن بوجوده ، ونسند اليه صفاته ، فالاسماء هي ما به نعلم الأشياء ، وهي العلوم المطابقة للحقائق . والاسم بهذا الاطلاق هو الذي جرى الخلاف في أنه عين المسمى أو غيره ، وقد كان اليونانيون يطلقون على ما في الذهن من المعلوم لفظ الاسم ، والخلاف في أن ما في الذهن من الحقائق هو عينها أو صورتها مشهور كخلاف في أن العلم عين المعلوم أو غير المعلوم ، وأما الخلاف في أن الاسم الذي هو اللفظ عين المسمى أو غيره فهو ما أخطأ فيه الناظرون بعدم الدقة في التمييز بين الاطلاقات لبداهة أن اللفظ غير معناه بالضرورة ، والاسم بذلك الاطلاق الذي ذكرناه هو الذي يتقدس ويقامرك ويتعالى (سبح اسم ربك الأعلى) (تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام) فاسمه جل شأنه ما يمكننا أن نعلم منه ما نعلم من صفاته ، وما يشرق في أنفسنا من بهائه وجلاله ، ولا مانع من أن نزيد من الاسماء هذا المعنى ، وهو لا يختلف في التأويل عما قالوه من إرادة المسميات ولكنه على ما نقول أظهر وأبين

(وأقول) تقدم لنا في أول سورة الفاتحة أن اسم الله تعالى يسبح ويعظم ومنه إسناد التسبيح إليه قولاً وكتابة . وتسبيحه وتعظيمه بدون ذكر اسمه خاص بالقلب . ومن تعمد إهانة اسم الله تعالى يكفر أكن يتعمد إهانة كتابه

ثم إن الذي يتبادر إلى الفهم من صيغة التعليم هو التدرج قال تعالى (٣: ١٥١) ويعلمكم
مالم تكونوا تعلمون) وما كان ذلك إلا تدرجاً وهذا ظاهر في جميع الآيات التي فيها
لفظ التعليم كقوله (٤: ١١٥) وعلمك مالم تكن تعلم) وقوله (٣: ٤٨) ويعلمه الكتاب
والحكمة والتوراة والانجيل) إلى غير ذلك - ولكن المتبادر من تعليم آدم الاسماء :
أنه كان دفعة واحدة إذا أريد بآدم شخصه بالفعل أو بالقوة، ولذلك قال شيخنا :
علم الله آدم كل شيء ولا فرق في ذلك بين أن يكون له هذا العلم في آن واحد
أو في آنات متعددة والله قادر على كل شيء ، ثم إن هذه القوة العلمية عامة
لنوع آدمي كله ، ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبنائه الاسماء من أول يوم فيكفي
في ثبوت هذه القوة لهم معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال ، علم الله آدم الاسماء
على نحو ما بينا * ثم عرضهم على الملائكة * أي أطلعهم اطلاقاً بالالهام
الذي يليق بمجالهم على مجموع تلك الأشياء ولو عرضت على نفوسهم عرضاً تفصيلياً
لعلموها ولم يكن علمهم محدوداً والحال أنه عرضها عليهم وسألهم عنها سؤال تعجيز
* فقال أنبؤوني بأسماء هؤلاء * المسميات والغرض من الانبؤ أسماؤها الابانة عن
معرفة ما ومعنى * إن كنتم صادقين * أي إن كان هناك موقع للدهشة والاستغراب
من جعل الخليفة في الأرض من البشر ، وكان ما طرقت نفوسكم وطراً على أذهانكم
أولاً حالاً محله ، ومصيباً غرضه ، ولما تعرفوا حقيقة ما يمتاز به الخليفة : فأنبؤوني بأسماء
ما عرضته عليكم * قالوا سبحانك * أي تنزيها لك ، فلفظ سبحان مصدر قائم يستعمل
إلاضافاً كعماذ الله ، وهو منصوب بفعل مقدر ، والمعنى تقدست ونزهت أن يكون علمك
قاصراً فتخلق الخليفة عبثاً ، أو تسألنا شيئاً نفيده وأنت تعلم أننا نحيط بعلمه ، ولا تقدر
على الانبؤ به ، وكلمة « سبحانك » تهدي إلى هذا فكأنها جملة وحدها ، وهذه
هي البلاغة مضروب سرادقها ، مثمرة حدائقها ، متجلية حقائقها ، على أن القصة
وردت مورد التمثيل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وبعد تنزيه الباري
تبرؤا من علمهم إلى علمه تعالى وحكمته فقالوا * لا علم لنا إلا ما علمتنا * وهو محدود
لا يتناول جميع الاسماء ولا يحيط بكل المسميات * إنك أنت العليم * بخلفك
* الحكيم * في صنعك

قال الاستاذ: إن هذه التأكيديات^(١) تشعر بأن سؤال الاستغراب الأول كان يتنسم منه شيء، وكذلك الجواب عن (أنبثوني) بقولهم (لاعلم لنا) ولذلك ختموا الجواب بالتهرؤ من كل شيء والثناء على الله تعالى بالعلم الثابت الواجب لذاته العلية، والحكمة البالغة اللازمة له، فقد تقدم في تفسير الفاتحة أن صيغة (فعل) تدل غالباً على الصفات الراسخة اللازمة، فكان جواب الملائكة بهذا مؤذناً بأنهم رجعوا إلى ما كان يجب أن لا يفعل مثلهم عنه، وهو التسليم لسعة علم الله وحكمته حتى يبلغ الكتاب أجله

﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ فكان الانبياء كما أراد الله تعالى وذكره لأجل ترتيب الحكم عليه بقوله ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم قال﴾ الله تعالى الملائكة ﴿الم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئاً سدى ولا يعمل الخليفة في الأرض عبثاً ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ والذي يبدو أنه هو ما يظهر أثره في نفوسهم، وأما ما يكتبون فهو ما يوجد في غرائزهم وتندطوي عليه طبائعهم وقد علم مما تقدم أن كل هذه الأقوال والمرامح والمناظرات يفوض السالف الأمر إلى الله تعالى في معرفة حقيقتها، ويكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتها، وقد تقدم بيان ذلك. وأما الخلف فيلجأون إلى التأويل، وأمثلة طريقه في هذا المقام التمثيل، وقد مضت سنة الله في كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية، في قوالب العبارة اللفظية، ويحلي لنا المعارف المعقولة، بالصور المحسوسة، تقريباً للافهام، وتسهيلاً للاعلام، ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا، وما اودعته فطرتنا، مما تمتاز به على غيرنا من المخلوقات، فعملينا أن نجتهد في تشكيل أنفسنا بالعلوم التي خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق لتظهر حكمة الله فينا، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا، ومعنى سجودهم لأصلنا (٢٤ : ٣٥) ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون)

(١) في التنزيه تأكيد معنوي وكذلك في تقي العلم عن انقسام لذاتها واميات ما أعطها الله فقط، ثم يلي ذلك التأكيد اللفظي بان الجملة الاسمية وضمير الفصل « أنت » والمعنوي بصيغتي المبالغة في العلم والحكمة - المؤلف

(٣٤) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

بعد ما عرف الله الملائكة بمكانة آدم ووجه جعله خليفة في الأرض أمرهم بالخضوع له وعبر عن ذلك بالسجود، فقال ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ وهو سجود لا نعرف صفة، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة إذ لا يعبد إلا الله تعالى، والسجود في اللغة النظام والخضوع والالتقياد، وأعظم مظهره الخرور نحو الأرض للأذقان ووضع الجبهة على التراب، وكان عند بعض القدماء من تحية الناس العوكة والعطاء، ومنه سجود يعقوب وأولاده ليعوسف عليهم السلام. والسجود لله تعالى قسمان، سجود العقلاء المكلفين له تعبدًا على الوجه المشروع - وسجود الخلق كالمقتضى إرادته فيها. قال تعالى (١٣ : ١٥) والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً (الآية وقال (والنجم والشجر يسجدان) وفي معناهما آيات . ﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ أي سجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس وهو فرد من أفراد الملائكة، كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة إلا آية الكهف فانها ناطقة بأنه كان من الجن (١٧ : ٥٠) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه (وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلاً جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر وإنما هو اختلاف أصناف، عند ما تختلف أوصاف، كما ترشد إليه الآيات . فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة، وقد أطلق في القرآن لفظ الجنة على الملائكة على رأى جمهور المفسرين في قوله تعالى (٣٧ : ١٥٨) وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وعلى الشياطين في آخر سورة الناس [وعلى كل حال فجميع هؤلاء المسميات بهذه الاسماء من عالم الغيب لا نعلم حقائقها ولا نبحث عنها ولا نقول بنفسية شيء إليها ما لم يرد لنا فيه نص قطعي عن المعصوم

صلى الله عليه وسلم] وصف الله تعالى إبليس بأنه ﴿ أبى ﴾ السجود والالتقياد ﴿ واستكبر ﴾

فلم يمثل أمر الحق ترفماً عنه ، وزعم بأنه خير من الخليفة عنصراً ، وأزكى جوهرًا ، كما حكى الله تعالى عنه في غير هذه السورة (٧ : ١٦) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) والاستكبار بمعنى التكبر وهو الظهور بصفة الكبرياء التي من آثارها الترفع عن الحق ، كأن السين والتاء للاشعار بأن الكبر ليس من طبيعة إبليس ولكنه مستعده ، ثم قال تعالى بعد وصفه بالاباء والاستكبار ﴿وكان من الكافرين﴾ قال بعض المفسرين كان من حق الترتيب أن يقال : كان من الكافرين واستكبر وأبى لأن الكفر عنده سبب الاستكبار والاستكبار سبب الإباء ، ومثل هذا المفسر يعامل مخالفة الترتيب الطبيعي في النظم برعاية الفاصلة (قال الاستاذ) ولكن نظم الآية جاء على مقتضى الطبيعة في الذكر ، فانه يفيد أن الله تعالى أراد أن يبين الفعل أولاً لانه المقصود بالذات وهو الإباء ثم يذكر سببه وعدلته وهو الاستكبار ثم يأتي بالأصل في العلة والمعلول والسبب والمسبب وهو الكفر .

(أقول) وقال بعض المفسرين : إن «كان» هنا بمعنى صار ، وخطأ ابن فورك وقال إن الاصول تردده ، ووجهه عند قائله : وصار بهذا الإباء والاستكبار من جملة الكافرين ، لما علم من أنه لم يكن قبل هذا العصيان المتضمن للاعتراض على الرب سبحانه من الكافرين ، وقد جعل بعضهم منابط كفره هذا الاعتراض على ربه عز وجل لان المعصية وحدها لا تقتضى الكفر كما تدل عليه النصوص ، وفيه أن ذلك في معصية المسلم ، وهو المدعى لاضر الله ونبيه إذا غلبه غضب أو شهوة فمعصى ، وهو لا يلبث أن يندم ويتوب . وعصيان إبليس رفض اللذان والاستسلام ابتداء وهو كفر بغير نزاع ، ككفر الذين صدقوا الرسل بقلوبهم ولم يتبعوهم عناداً واستكباراً (ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) والجمهور : أن المعنى : وكان في علم الله من الكافرين

ثم إن الاستاذ أعاد هنا ملخص ما تقدم بيانه في وجه اتصال الآيات بما قبلها وكون الكلام في القرآن والرسول الذي جاء به وتسليمته بهذه القصة ثم توسع في الكلام عن الملائكة فقال ما مثاله ملخصاً : تقدم أن الملائكة خلق غيبى لا نعرف حقيقته ، وإنما تؤمن به بأخبار الله تعالى الذي تقف عنده ولا تزيد عليه ، وتقدم أن القرآن ناطق بأن الملائكة أصناف لكل صنف وظيفة وعمل ، ونقول الآن

إن إلهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء في لسان صاحب الوحي (ص) وقد أسندا الى هذه العوالم الغيبية ، وخواطر الخير التي تسمى إلهاما وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محلله الروح فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتمثيل الجثمانية المعروفة لنا [لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا فأنما تتصل بها من طرق أجسامنا ، ونحن لا نحس بشيء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعي الخير من النفس ، فإذن هي من عالم غير عالم الأبدان قطعاً] والواجب على المسلم في مثل الآية: الإيمان بضمونها مع التفويض أو الحمل على أنها حكاية تمثيل ، ثم الاعتبار بها بالنظر في الحكم التي سبقت لها القصة

(وأقول) إن اسناد الوسوسة الى الشياطين معروف في الكتاب والسنة ، وأما اسناد إلهام الحق والخير الى الملائكة فيؤخذ من خطاب الملائكة لترميم عليها السلام ، ومن حديث الشيخين في الحديثين وكون عمر منهم - والمحدثون يفتح الدال وتشديدها الملمومون - ومن حديث الترمذي والنسائي وابن حبان وهو « إن للشيطان لمة بابن آدم والملك لمة . فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتموذ بالله من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) قال الترمذي حسن غريب لا نعله مرفوعاً إلا من حديث أبي الاحوص . والرواية « إيعاد » في الموضعين كما أن الآية من الثلاثي في الموضعين ، فما قالوه في التفرقة بين الوعد والإيعاد أغلبي فيما يظهر ، وإلا فهو غير صحيح . واللمة بالفتح الإلام بالشئ والاصابة .

(قال الاستاذ) وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معنى الملائكة وهو أن مجموع ماورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إتمام نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء الى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن الا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والانسان ، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجادها فأنما قوامه بروح الهى

سمى في لسان الشرع ملكاً، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الامكان إلا ماهو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة . والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقه أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن العاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً لأن هذه الاسماء لم ترد في الشرع - فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الاسماء عن المسميات [وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذي لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها . ولا يعلم الا الله علام يختلف الناس؟ وكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى ادراك كنهه ، وماذا على هذا الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيَّب عنه لو قال: أصدق بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يريد على لسان صاحب الوحي ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟] .

يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهيم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شوري ، فهذا يورد وذاك يدفع ، واحد يقول : افعل وآخر يقول لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ، ونسبناه قوة وفكراً - وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكنته حقيقتها - لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً (أو يسمي أسبابه ملائكة) أو ماشاء من الاسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف بحجر فيها على صاحب الارادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع ؟

(وأقول) إن الامام الغزالي سبق إلى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال انه سمي ملكاً فانه بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومدموم قال « ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث ، ومهما اختلفت

الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب ؛ فمهما استقنرت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً ؛ واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، والذي يتهيأ به لقبول الشر يسمى إغواءً وخذلانا ، فان المعاني المختلفة تحتاج إلى أسامي مختلفة ، « ا ه المراد منه فليراجعه في كتاب شرح عجائب القلب من الاحياء ، ثم قال الأستاذ الإمام مامعناه :

فاذا صح الجرى على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع الخلق لا يتعداه ولا يتعدى ما حدله من الأثر الذي خص به ، وخلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بهام استعداداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض ، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حد له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه . لأنه أكل الموجودات في هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي [لزمها الله بهذا العالم لزاماً وهي التي تميل بالمستعد للكمال او بالكامل إلى النقص وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم أو تقطع سبيل البقاء وتعود بالموجود إلى الفناء أو التي] تعارض في اتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الانسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته فيصل إلى مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعداً للوصول إليها [تلك القوة التي ضللت آثارها قوماً فزعموا أن في العالم إلهاماً يسمى إله الشر . وما هي بالله ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو]

(قال) ولو أن نفساً ماتت إلى قبول هذا التأويل لم تجرد في الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق (وأقول) إن غرض الأستاذ من هذا التأويل الذي عبر عنه بالإيماء وبالإشارة

اقناع منكري الملائكة بوجودهم ، بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، وقد اهتدى به كثيرون ، وضل به آخرون فأنكروه عليه وزعموا أنه جعل الملائكة قوى لا تعقل فرد عليهم كتابته بما نصه بحروفه .

[ولست أحيط علما بما فعلت العادة والتقاليد في أنفس بعض من يظنون أنهم من المتشددين في الدين إذ ينفرون من هذه المعاني كما ينفّر المرضى أو المخدجون من جيد الأطعمة التي لا تضرهم ، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم ، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام ، ويزيد السقام . لا أعرف ما الذي فهموه من لفظ روح أو ملك ، وما الذي يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة ، أليس الروح في الأدعي مثلا هذا الذي يظهر لنا في أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والارادة والعمل ، وإذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له ، فاذا سمي الروح لظهور أثره قوة ، أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا ، فهل يضر ذلك بالدين ، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين؟

ألا لا يسمى الايمان إيمانا ، حتى يكون إذعانا ، ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان ، وتخشع الأركان ، لذلك السلطان الذي تعلق به الايمان ، ولا يكون كذلك حتى يلقي الوهم سلاحه ، ويبلغ العقل فلاحه ، وهبل يستكمل ذلك لمن لا يفهم ما يمكنه فهمه ، ولا يعلم ما يتيسر له علمه؟ كلا إنما يعرف الحق أهله ، ولا يضل سبيله ، ولا يعرف أهل الغفلة . لو أن مسكيننا من عبدة الألقاظ من أشدم ذكاه وأذربهم لسانا ، أخذ بما قيل له إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل^(١)

« ١ » هذا هو التعريف المشهور في كتب الكلام وغيرها وأول ما يعترض به عليه أنه لا يصح فيه معنى الجسم في اللغة ولكنه صار مألوفا وإن لم يكن مقبوما .

ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معني نورانية الأجسام ، وهل النور وحده له قوام يكون به شخصاً ممتازا بدون أن يقوم بجزم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبا للمصباح أو سلك الكهرباء ؟ ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك ؟ ألا يقع في حيرة ، ولو سئل عما يعتقد من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد مالا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة بعد شكاً ؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون أبواب الغيب يظرف لما لا يستطيع النظر إليه ، لكنها حيرة من أخذ بقول لا يفهمه ، وكلف نفسه علم مالا تعلمه . فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة إيماناً صحيحاً ، واطمأنت بإيمانه نفسه ، واذعن له قلبه ، ولم يبق لوهمه سلاح ينزاع به عقله ، كما هو شأن صاحب الايمان الصحيح

فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذي وقر فيها تقاليد حفت باخاوف ، لاعلوم حفت بالسكينة والطمأنينة ، هؤلاء لم يشترق في نفوسهم ذلك السر الذي يعبر عنه بالنور الالهي ، والضيء المملكتي ، والألاء القدسي ، أو مايمثل ذلك من العبارات . لم يسبق لنفوسهم عهد بملاحظة جانباً لحق ، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة إلى مطلع الوجود منه على الخلق ، ولو علموا أن العالم بأسره فان في نفسه ، وأن ليس في الكون باق كان أو يكون إلا وجهه الكريم ، وأن ماكشف من الكون وما لطف ، وما ظهر منه وما بطن ، إنما هو فيض من جوده ، ونسبة إلى وجوده ، وليس الشريف منه الا ما أعلى بذكره منزلته ، ولا الخسيس إلا ما بين لنا بالنظر إلى الأول نسبته ، فان كل مظهر من مظاهر الوجود في نفسه

واقع موقعه ، ليس شيء أعلى ولا أخط منه ، فان كان كذلك ولا بد أن يكون كما قدره - لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لأنفسهم أن تجول في تلك الشؤون حتى تصل إلى مستقر الطائفة حيث لا ينزع العقل شيء من وساوس الوهم ، ولا تجد طائفا من الخوف ، ثم لا يتخرجون من إطلاق لفظ مكان لفظ هذه القوى التي نرى آثارها في كل شيء يقع تحت حواسنا ، وقد خفيت حقائقها عنا ، ولم يصل أدق الباحثين في بحثه عنها إلا إلى آثار تجل إذا كشفت ، وتقل بل تضحل إذا حجبت ، وهي التي يدور عليها كل الوجود ، وبها ينشأ الناشئ ، وبها ينتهي إلى غايته الكمال ، كما لا يخفى على نبيه ولا خامل ، أليست أشعة من ضياء الحق ؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه ؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة ؟ ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها لا ندرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا ؟ ألا تراها توافي بأسرارها ، من ينظر في آثارها ، ويوفيقها حق النظر في نظامها ؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها ، ومعرفة الطريق إلى استدرار منافعها ؟ أليس الوجود الالهي الأعلى من عالم الغيب وآثاره في خلقه من عالم الشهادة ؟ أليس هو الذي وهب تلك القوى خواصها ، وقدر لها آثارها ؟ لم لا نقول أيها الغافل : إنه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها ، ولم قصرت معنى الحياة على ما تراه فيك وفي حيوان مثلك ؟ مع أنك لو سئلت عن هذا الذي تزعم أنك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا ، ولا لفعله تعريفا ؟ لم لا نقول كما قال الله وبه تقول (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ؟

أفلا تزعم أن لله ملائكة في الأرض وملائكة في السماء؟ هل عرفت
أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها، ورسمت مساكنها؟
وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك؟ ومن يكون عن يسارك؟
هل ترى أجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام، أو تؤنسك إذا هجمت
عليك الأوهام؟ فلوركنتم إلى أنهما قوى أو أرواح منبثة فيما حولك، وما بين
يديك وما خلفك، وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك، وبالعبارة
التي تلتفتها عنهم، كيلا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن
إليه نفسك من وجوه تعرفها. أفلا يكون ذلك أرواح لنفسك، وأدعى إلى
طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئاً من وراء حجاب، ووقفت على
سر من أسرار الكتاب؟ فإن لم تجد في نفسك استعداداً لقبول أشعة هذه
الحقائق، وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض في إدراك الحقيقة ويقول (آمنا
به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون
بالكتاب الذي آمنت به، ويؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالته، وهم
في إيمانهم أعلى منك كعباء، وأرضى منك بربهم نفساً، ألا إن مؤمناً لو مالت
نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه على النحو الذي يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان
من دينه في ثقة، ومن فضل ربه في سعة [اهـ

هذا ما كتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب ما يفهمه علماء الكائنات من
لفظ القوى - إلى ما يفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة، ولا يقفه من هؤلاء
إلا من له إلمام بما يقوله أولئك في القوى وإسناد كل أحداث الكائنات وتطوراتها
إليها مع اعترافهم بجبل كنهها، وإلمام أيضاً بما كان يقوله قدماء اليونان من أن لكل
نوع من أنواع الموجودات إلهاً أو رباً مديراً هو المسير لنظامه وكل هذه الآرباب

خاضعة للرب الإله الأكبر الذي يرجع إليه الأمر كله ، فالعنى العام عند الأولين والآخرين هو أن أحداث هذا العالم وتغيراتها وتطوراتها والنظام فيها كلها لا بد له من سبب خفى غير أجزاء مادتها ، فالتعبير عن ذلك عند المتقدمين قد وصل إلينا باصطلاحات تدل على الشرك برب العالمين ، وتعبير الماديين المتأخرين يدل على التعطيل . وتعبير القرآن وما ثبت في السنة هو الذى حرر الحقيقة التى يمكن إذعان العقلاء لها وهى أن الفاعل الحقيقى واحد ، وأن نظام كل شىء قد ناطه سبحانه بموجودات روحية خفية ذات قوى عظيمة جدا سميت الملائكة ، فالأستاذ الامام يقول: إن التسمية وحدها لا تعطى أحدا علم الحقيقة ، وإن من فهم الحقيقة لا يجيبها عنه اختلاف التسمية ، وأراد بهذا أن يحتج على الماديين ويقنعهم بصحة ما جاء به الوحى من طريق علمهم المسلم عندهم ، كما صرح به فيما مر فى صفحة ٢٦٨ فأنكره عليه عباد الألفاظ وهم لا يعقلون مراده ، وهو بمنزلة هذه الأساليب فى الإقناع بحقيقة الدين كان حجة لله فى هذا العصر: حتى قال له أحد نوابغ رجال القضاء الأذكياء: إنك بتفسيرك للقرآن بالبيان الذى يقبله العقل ولا يأباه العلم قد قطعت الطريق على الذين يظنون أنه قد اقترب الوقت الذى يهدمون فيه الدين ويستريحون من قيود وجهل رجاله وجوهرهم .

وإننى أنا قد جرت بهذه الطريقة التى استنكروها عليهما فى إقامة الحجة على بعض المنكرين لوجود الله تعالى فلم يستطيعوا لها دحضاً، ذلك بأن علماءهم إنما ينكرون إله اللاهوتيين وكذا إله المتكلمين لا إله الخليفة . فإذا قلت لهم: هل تقولون أن هذا النظام الدقيق فى كل نوع من المخلوقات ووحدة النظام العام فى مجموعها كلها قد وجدا بالمصادفة وليس لها مصدر وجودى؟ يقولون: لا، بل لا بد لذلك من مصدر لكننا تجهل حقيقته ، حينئذ كنت أقول لهم ، وهذا أس عقيدة الإسلام وهو أننا تجهل كنه رب العالمين ، وإنما نعرفه بأثاره فى خلقه فالفرق بيننا لفظى . ذلك . وإن ترتيب النظم يلتئم مع التأويل الذى أورده الأستاذ الإمام فى السياق فإن هذه المعانى التى وردت بصيغة الحكاية وبرزت فى صورة التمثيل جاءت عقب قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) وبقي شىء واحداً يصرح به

في الدرس وقد سبقت الاشارة إليه، وهو أن كل قوة من قوى هذه الأرض وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعاً للانسان، وخلق الانسان مستعداً لتسخيره لمنفعته إلا قوة الاغراء بالشمر، وناموس الوسوسة بالاغراء الذي يجذب الانسان دائماً إلى شر طبع الحيوان، ويعيقه عن بلوغ كماله الانساني، فالظاهر من الآيات أن الانسان لا يغلب هذه القوة ولا يخضعها مهما ارتقى وكمّل، وقصارى ما يصل إليه الكاملون هو الخدر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها؛ بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل يجعله مسخرها لها وتستعمله بالشرور كما قال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال عز وجل (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ثم زاد الأستاذ هنا قوله: [أما سلطان تلك القوة في الفناء وقطع حركة الوجود إلى الصعود فلا يستطيع إخضاعه لقدرته من البشر كامل، ولا يقاوم نفوذه عامل، وإنما ذلك لله وحده. وهذا حكمها في الكائنات، إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات] فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل التقوى والبصيرة وأن يعيننا من الشيطان الرجيم.

(٣٥) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٦) فَآرَاهُمَا
الشَّيْطَانُ عَنَّا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٧) فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ
رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

مجل الآيات السابقة أن هذا العالم لما استعد لوجود هذا النوع الانساني واقتضت الحكمة الالهية إيجاد واستخلافه في الأرض آذن الله تعالى الأرواح المنبثة في الأشياء لتديرها ونظامها بذلك، وأن تلك الأرواح فهمت من معنى كون الانسان خليفة أنه يفسد النظام ويسفك الدماء، حتى أعلمها الله تعالى بأن

علمها لم يحط بمواقع حكمته ، ولا يصل إلى حيث يصل علمه تعالى . ثم أوجد آدم وفضله بتعليمه الأسماء كلها ، على أن كل صنف من تلك الأرواح لا يعلم إلا طائفة منها ، ولذلك أخضع له تلك الأرواح إلا روحاً واحداً هو مبعث الشر ومصدر الاغواء فقد أوى الخضوع ، واستكبر عن السجود ، لما كان في طبيعته من الاستعداد لذلك . والاستعداد في الشيء إنما يظهر بظهور متعلقه . فلا يقال : إذا كان لكل روح من هذه الأرواح والقوى الغيبية علم محدود فكيف ظهر من الروح الابليسي ما لم يسبق له وهو مخالفة الأمر بالسجود لآدم والنصدي لاغوائه ؟ لا يقال ذلك لأنه كان مستعداً لهذا العصيان والاباء فلما أمر عصى . ولما وجد خلقاً مستعداً للوسوسة اتصل به ووسوس إليه . كما أن ألوان ورق الشجر والزهور موجودة كامنة في البذرة ولكنها لا تظهر إلا عند الاستعداد لها ببلوغ الطور المحدود من النمو .

ومجمل الآيات اللاحقة : أن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكني الجنة والتمتع بها . ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة وأخبرهما أن قربها ظلم . وأن الشيطان أرطها عنها فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم إلى ضده . ثم إن آدم تاب إلى الله من معصيته فقبله . ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع هدى الله وشقاؤه بتركه . وقد تقدم أن الآيات كلها قد سيقت للاعتبار ببيان النظرة الالهية التي فطر عليها الملائكة والبشر . وتسلمية النبي ﷺ عما يلاقى من الانكار . وتقدم وجه ذلك في الآيات السابقة . وأما وجهه في هذه الآيات فظاهر ، وهو أن المعصية من شأن البشر . كأنه يقول : فلا تأس يا محمد على القوم الكافرين ولا تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً [فقد كان الضعف في طباعهم يفتهم إليهم من أول سلف لهم تغلب عليهم الوسوس . وتذهب بصيرهم الدسائس . انظر ما وقع لآدم وما كان منه . وسنة الله مع ذلك لا تتبدل . فقد عوقب آدم على خطيئته باهباطه مما كان فيه . وإن كان قد قبل توبته . وغفر هفوته] فالعصية دائماً مجلبة الشقاء . وقد استقر أمر البشر على أن سعادتهم في اتباع الهداية الالهية وشقاؤهم في الانحراف عن سبيلها .

وأما تفسير هذه الآيات بالتفصيل فقد اختلف علماء المسلمين من أهل السنة

وغيرهم في (الجنة) هل هي البستان أو الممكان الذي تظله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه كما يفهمه أهل اللغة ؟ أم هي الدار الموعود بها في الآخرة ؟ والحققون من أهل السنة على الأول . قال الإمام أبو منصور المازريدي في تفسيره المسمى بالتأويلات : نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ، ولادليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم .

وبهذا التفسير تنحل إشكالات كثيرة وهي (١) إن الله خلق آدم في الأرض ليكون هو ونسله خليفة فيها ، فالخلافة مقصودة منهم بالذات فلا يصح أن تكون نقوبة عارضة (٢) انه لم يذكر أنه بعد خلقه في الأرض عرج به إلى السماء ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم (٣) إن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المؤمنون المتقون ، فكيف دخلها الشيطان الكافر الملعون ؟ (٤) انها ليست محلا للتكليف (٥) إنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها (٦) إنه لا يقع فيها العصيان . وبالجملة إن الأوصاف التي وصفت بها الجنة الموعود بها لا تنطبق على ما كان في جنة آدم ، ومنه كون عطاؤها غير مجذوذ ولا مقطوع وغير ذلك .

(أقول) وقد أجاب بعضهم عن بعض هذه الاشكالات ولكل من الفريقين إشكالات وأجوبة أطال في بيانها ابن القيم في (حادي الأرواح) ولم يرجح شيئاً ولذلك مال بعضهم إلى الوقف وما اختاره شيخنا أقوى . وقد قال به أبو حنيفة وتبعه أبو منصور ، وقد كان ظهر لي عند كتابة تفسير الآيات شيء آخر لم يذكره الاستاذ الامام ولم أراه في كتب التفسير وهو أن القول بأن آدم أسكن جنة الآخرة يقتضى أن تكون الآخرة هي الدار الأولى والدنيا فتكون التسمية للدارين غير صحيحة وينافي أيضاً كون الجنة دار ثواب يدخلها المتقون جزاء بما كانوا يعملون كما ورد في الآيات الكثيرة . وقد قال تعالى ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ ولم يقل (ادخل) ولو انتقل من الأرض التي خلق فيها إلى الجنة لقال هذا أو ما بعناه مما يشير إلى الانتقال فقوله (اسكن) يشير إلى أن الخلق كانت في تلك الجنة أو بالقرب منها ، وقوله ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ إباحة للتمتع بتلك

الجنة والتنعيم بما فيها أى كلا منها أ كلا رغداً واسعاً هنيئاً من أى مكان منها إلا شيئاً واحداً نهأهما عنه بقوله ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ لأنفسكما بالوقوع فيما يترتب على الأكل منها ، ولم يعين الله تعالى لنا هذه الشجرة فلا نقول فى تعيينها شيئاً ، وإنما نعلم أن ذلك الحكمة اقتضته ، ولعل فى خاصية تلك الشجرة ما هو سبب خروجهما من حال إلى حال ، وربما كان فى الأكل منها ضرر ، أو كان النهى ابتلاءً وامتحاناً منه تعالى ليظهر به ما فى استعداد الإنسان من الميل إلى الإشراف على كل شىء واختباره ، وإن كان فى ذلك معصية يترتب عليها ضرر (١)

قال تعالى ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ أى حولها وزحزحها عن الجنة أو حملهما على الزلّة بسبب الشجرة وقرأ حمزة (فأزالها) والشيطان إبليس الذى لم يسجد ولم يخضع وقد وسوس لهما بما ذكر فى سورتي الأعراف وطه حتى أوقعهما فى الزلزل وحملهما على الأكل من الشجرة فأكلا ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ أى من ذلك المكان أو النعيم الذى كانا فيه ، فكان الذنب متصلاً بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب ثم بين الله تعالى كيفية الإخراج بقوله ﴿ وقلنا اهبطوا ﴾ يعنى آدم وزوجه وإبليس فلا حاجة لتقدير إرادة ذرية آدم بالجمع كما فعل مفسرنا (الجلال) فان العداوة فى قوله عز وجل ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ تنافى عدا التقدير فان العداوة بين الإنسان والشيطان لا بين الإنسان وذريته . والأصل فى الهبوط أن يكون من مكان عال إلى أسفل منه ، ولذلك احتج به من قال : إن آدم كان فى السماء ، وقد يستعمل فى مطلق الانتقال أو مع اعتبار العلو والسفل فى المعنى . وقال الراغب : الهبوط الانحدار على سبيل القهر ولا يبعد أن تكون تلك الجنة فى ربوة فسمى الخروج منها هبوطاً أو سعى بذلك لأن ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد ، كقوله تعالى لبني إسرائيل (اهبطوا مصراً)

ثم قال تعالى ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أى إن استقراركم فى الأرض وتمتعكم فيها ينتهيان إلى زمن محدود وليسا بدأئين فى الكلام فائدتان

(١) راجع تفسير المسألة فى سورة الأعراف (ج ٨) تجد فيه ما ليس هنا

(إحداهما) أن الأرض مهيأة ومهيأة للمعيشة فيها والتمتع بها (والثانية) أن طبيعة الحياة فيها تنافي الخلود والدوام ، فليس الهبوط لأجل الإيابة ومحو الآثار ، وليس للخلود كما زعم إبليس بوسوسته إذ سمي الشجرة المنهى عنها (شجرة الخلد وملك لا يبلى) يعني أن الله أخرجهم من جنة الراحة إلى أرض العمل لا ليفنهم ، وعبر عن ذلك بالاستقرار في الأرض ، ولا ليعاقبهم بالحرمان من التمتع بخيرات الأرض ، وعبر عن ذلك بالمنع ، ولا ليجتمع بالخلود وعبر عن ذلك بكون الاستقرار والمنع إلى حين ثم قال ﴿ فلتلق آدم من ربه كلمات ﴾ أي ألهمه الله إياها فأناوب إليه بها وهي كما في سورة الأعراف (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) تاب آدم بذلك وأناوب إلى ربه ﴿ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ أي قبل توبته ، وعاد عليه بفضل ورحمته ، وبين سبب ذلك بأنه تعالى هو التواب أي الذي يقبل التوبة كثيراً ، فهما يذنب العبد ويندم ويتب يتب الرب عليه ، وبأنه هو الرحيم بعباده مهما يسيء أحدهم بما هو سبب لغضبه تعالى ويرجع إليه فإنه يحفه برحمته . وكل ما ورد في هبوط آدم وحواء من تعيين الأمكنة فهو من الاسرائيليات الباطلة

وبقى مما يتعلق بهذا التفسير مسألتان قدأكثر الناس الكلام فيهما وهما مسألة خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم ، ومسئلة عصمة آدم ، فأما الأولى فليس في القرآن نص فيها ولا يلزمنا حمل قوله تعالى (وخلق منها زوجها) على ذلك لأجل مطابفة سفر التكوين ، فإن القصة لم ترد في القرآن كما وردت في التوراة التي في أيدي أهل الكتاب حكاية تاريخية ، وإنما جاء القرآن بموضع العبرة في خلق آدم واستعداد الكون لأن يتكامل به ، وكونه قد أعطى استعداداً في العلم والعمل لانهاية لها ليظهر حكم الله ويقيم سنته في الأرض فيكون خليفة له ، وكونه لا يسلم من داعية الشر والتأثر بالوسوسة التي تحمل على المعصية . ولنكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين ، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره ، لم يبين الزمان والمكان كما بينا في سفر التكوين ، وكان بيانها سبباً لرفض الباحثين في الكون وتاريخ الخليقة لدين

النصرانية ، لأن العلم المبني على الاختبار والمشاهدة أظهر خطأ ما جاء من التاريخ في التوراة ، ووجدت للإنسان آثار في الأرض تدل على أنه أقدم مما حددته التوراة في تاريخ تكويته ، فقسام فريق من أهل الكتاب يركب التعاسيف في التأويل ، وفريق يكفر بالكتاب والتنزيل

(أقول) فإن قلت : إن النبي ﷺ قال في حديث أبي هريرة في الصحيحين في تعليل التوصية بالنساء « فإن المرأة خلقت من ضلع » قلنا : إنه على حد قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) كما قالوا في شرحه . وسيأتى في تفسير القصة من سورة الأعراف . ولم يتعرض شيخنا في الدرس لقوله تعالى (وخلق منها زوجها) ولكنه كتب بعد ذلك وقيل ما استراه عنه في تفسير سورة النساء ما نصه :

[وأما قوله تعالى في سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة و جعل منها زوجها) وفي سورة الأعراف (هو الذي خلقكم من نفس واحدة و جعل منها زوجها ليسكن إليها) فقد قال غير واحد من المفسرين : إن المعنى من جنسها كما قال في سورة الروم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودة ورحمة) فإن المعنى هناك على أنه خلق أزواجا من جنسنا ، ولا يصح أن يراد أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها كما هو ظاهر [(قال) وأما مسألة عصمة آدم فالجري على طريقة السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه ، كسائر ما زرد في القصة مما لا يركن العقل إلى ظاهره ، ولنا أن نقول : إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه (ففسى ولم نجد له عزما) والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة . وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً ، فسمى تفخيماً لأمره عصياناً ، والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة ، فإن جعلنا الكلام كله تمثيلاً لحديث الإخلال بالعصمة مما لا يبر بذهن العاقل

وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه : إن القرآن كثيراً ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب ، أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير ، فهو يدعو بها الأذهان ، إلى ما وراءها من المعاني ،

كقوله تعالى (٣٠:٥٠) يوم نقول لجنهم هل امتلأت؟ وتقول هل من مزيد) فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه ، وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالجرمين مهما كثروا ونحوه وقوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء (١١:٤١) فقال لها والأرض اثنتي عشرة طائفة أو كرهاً قالتا أتينا طائعتين) والمعنى في التمثيل الظاهر (أقول) وهذا الأمر يسمى أمر التكوين ، ويقابله أمر التشريع، وإنما سمي أمر التكوين للتعبير عنه في التنزيل بقوله تعالى (٣٦ : ٨٢) إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فهو تصوير لتعلق إرادة الربوبية باليجاد ، ولا أذكر عن أحد من المفسرين المتبعين للأثر قصر يحاً بأن الأمر في قصة آدم من أمر التكوين إلا للجافظ ابن كثير فإنه ذهب في تفسيره (قال فاهبط منها) من سورة الأعراف إلى أن الأمر فيه أمر قدير كوني ، ومثله ما في معناه من قصة آدم ومن الآيات الأخرى من مخاطبة إبليس للرب وجوابها في شأن اغوائه للبشر وانظاره إلى يوم القيامة (قال الاستاذ الإمام مامنه) وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا : إن أخبار الله الملائكة يجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من مخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض - وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعداداً في العلم والعمل لاحد لها هو تصوير لما في استعداد الانسان لذلك وتعميد لبيان أنه لا ينافي خلافة في الأرض - وتعليم آدم الاسماء كلها بيان لاستعداد الانسان لعلم كل شيء في هذه الأرض وانتفاعه به في استعمالها - وعرض الاسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعالم محدوداً لا يتعدى وظيفته - وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية السكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك - وإبائه إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لجزء الانسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التي هي مثار التنازع والنخاصم، والتمدى والافساد في الأرض - ولولا ذلك لجاء على الانسان زمن يكون فيه

أفراده كالملائكة بل أعظم ، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى هذا ملخص ما تقدم في سابق آيات القصة

وأما التمثيل فيما نحن فيه منها فيصح عليه أن يراد بالجنة الراحة والنعيم ، فإن من شأن الإنسان أن يجد في الجنة التي هي الحديقة ذات الشجر الملتف ما يلذ له من مرأى وما كؤل ومشروب ومشعوم ومسموع ، في ظل ظليل ، وهواء عليل ، وماء سلسيل ، كما قال تعالى في القصة من سورة طه (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظأ فيها ولا تضعي) ويصح أن يعبر عن السعادة بالكون في الجنة وهو مستعمل ، ويصح أن يراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبي القبيلة الأكبر على القبيلة ، فيقال كلب فعلت كذا وجراد قبيلة كلب ، وكان من قریش كذا يعنى القبيلة التي أبوها قریش ، وفي كلام العرب كثير من هذا

ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشرح والمخالفة كما عبر الله تعالى في مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، وفسرت بكلمة الكفر . وفي الحديث تشبيهه المؤمن بشجرة النخل - ويصح أن يكون المراد بالأمر بسكنى الجنة وبالهبوط منها أمر التكوين فقد تقدم أن الأمر الإلهي قسمان : أمر تكوين وأمر تكليف

والمعنى على هذا : أن الله تعالى كون النوع البشرى على ما نشاهد في الأطوار التدرجية التي قال فيها سبحانه (٧١ : ١٤) وقد خلقكم أطواراً) فأولها طور الطفولية (١) وهي لأم فيها ولا كدر ، وإنما هي لعب ولهو ، كأن الطفل دائماً في جنة ملتفة الأشجار ، يانعة الثمار ، جارية الأنهار ، متناغية الأطيوار ، وهذا معنى (اسكن أنت وزوجك الجنة) وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الأدنى للتنبية على الشمول وعلى أن استعداد المرأة لاستعداد الرجل في جميع الشؤون البشرية ، فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين ، أى إنه تعالى خلق البشر ذكوراً وإناثاً هكذا - وأمرهما

(٢) المتبادر من الأطوار في الآية هو خلق الأفراد من سلالة من طين مم جعله نطفة فعلقة مفضغة الخ كما في سورة المؤمنون ، وما ذكره الاستاذ أطوار لنوع الانسان

بالأكل حيث شاءا عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير — والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر ، وأن الفطرة تهدي إلى قبحه ووجوب احتنابه ، وهذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان في الطور الثاني وهو طور التمييز هما المراد بقوله تعالى (٩٠: ١١) وهديناه النجدين) ووسوسة الشيطان وإزاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التي تلبس النفوس البشرية فتقوى فيها داعية الشر ، أي إن إلهام التقوى والخير أقوى في فطرة الإنسان أو هو الأصل ، ولذلك لا يفعل الشر إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته إليه — واخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء باخروج عن الاعتدال الفطري — وأما تلقى آدم الكلمات وتوبته فهو بيان لما عرف في الفطرة السليمة من الاعتبار بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة ، ورجوعه إلى الله تعالى عند الضيق والتجائه إليه في الشدة . وتوبة الله تعالى عليه عبارة عن هدايته إياه إلى الخرج من الضيق ، والتفلمت من شرك البلاء ، بعد ذلك الاعتبار والالتجاء ، وذكر توبة الله على الإنسان ترد ما عليه النصراري من اعتقاد أن الله تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى بنيه إلى أن يأتي عيسى ويخلصهم منها وهو اعتقاد تنبئه الفطرة ، ويرده الوحي المحكم المتواتر

فحاصل القول : أن الأطوار الفطرية للبشر ثلاثة . طور الطفولية وهو طور نعيم وراحة ، وطور التمييز الناقص وفيه يكون الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان ، وطور الرشد والإستواء وهو الذي يعتبر فيه بنتائج الحوادث ، ويلتجئ فيه عند الشدة إلى القوة الغيبية العليا التي منها كل شيء أو إليها يرجع الأمر كله ، فهكذا كان الإنسان في أفرادة مثال للإنسان في مجموعه (قال الأستاذ) كأن تدرج الإنسان في حياته الاجتماعية ابتداءً ساذجا سليم الفطرة ، قويم الوجهة ، مقتصرًا في طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونًا على دفع ما عساه يصيبه من مزعجات الكون وهذا هو العصر الذي يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبي

ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه قد بعض أفراده أيديهم إلى تناول ما ليس لهم ، طاعة للشهوة ، وميلًا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائمًا في نومه سائرهم فنار النزاع ، وعظم الخلاف ، واستنزل الشقاء ، وهذا هو الطور الثاني وهو معروف في تاريخ الأمم

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ، ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود الاعمال تنتهى إليها نزغات الشهوات ، ويقف عندها سير الرغبات ، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله .

(وأقول الآن) إن توبة آدم عليه السلام بناء على تفسير القصة بحمل الكلام على الحقيقة قد كانت بالرجوع إلى الله واعترافه مع حواء بظامهما لأنفسهما وطلبهما المغفرة والرحمة منه تعالى ، لا بمجرد تدبر العقل ووزن الخير والشر بميزان الفكر الخ ماقاله شيخنا هنا تبعاً لبعض علماء الاجتماع من المؤرخين ، وقد بين هو في بحث الحاجة إلى الرسالة من رسالة التوحيد أن عقل البشر لا يستقل بوضع حدود للاعمال تنتهى إليها نزغات الشهوات ، ويقف عندها سير الأهواء والرغبات ، بل لا بد له من تشريع إلهى لذلك ، ولكنه أوجز هنا فترك المسألة مبهمه مظلمه ، وإنما نرى أن طور العقل والفكر قد بلغ في هذا العصر مرتقى لم يعرف في التاريخ ما يقربه ، ووضع علماءه وحكائه شرائع وقوانين لإيقاف التنازع والتخاصم عند حد لا يتفاقم شره ، ثم نرى أعلم هذه الأمم ودولها مبعث الشرور والشقاوة ، والخبث والرياء والحروب والفتن ، فلا هداية إلا هداية الدين الإلهى الذى تدعن له الأنفس بمحض العبودية لله تعالى .

(قال) وبقي طور آخر أعلى من هذه الأطور ، وهو منتهى السكال وأعنى به طور الدين الإلهى والوحي السماوى الذى به كمال الهداية الانسانية . وبيانه فى قوله تعالى

(٣٨) قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

أمرهم الله تعالى بالهبوط مرتين ، فالأولى بيان لحلمهم فى أنفسهم بعد الهبوط من تلك الجنة أو الخروج من ذلك الطور وهو أن حلمهم تقتضى العداوة والاستقرار فى الأرض والتمتع بها ، وعدم الخلود فيها ، والثانية بيان لحلمهم من حيث الطاعة

والمعصية وآثارها ، وهي أن حالة الإنسان في هذا الطور لا تكون عصياناً مستمراً شاملاً ، ولا تكون هدى واجتباء عاماً - كما كان يفهم لو اقتصر على ذكر توبة الله على آدم وهدايته واجتباؤه - وإنما الأمر موكل إلى اجتهاد الإنسان وسعيه ، ومن رحمة الله تعالى به أن يجعل في بعض أفراده الوحي ويعلمهم طرق الهداية ، فمن سلكها فاز وسعد ، ومن تنكبها خسر وشقى ، هذا هو السر في إعادة ذكر الهبوط لأنه أعيد للتأكيد كما زعموا .

قال تعالى ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً ﴾ * أى فقد انتهى طور النعيم الخالص والراحة العامة وادخلوا في طور لكم فيه طريقان : هدى وضلال ، إيمان وكفران ، فلاح وخسران ﴿ فاما يا تينكم منى هدى ﴾ * من رسول مرشد وكتاب مبين ﴿ فن تتبع هداى ﴾ * الذى أشعره ، وسلك صراطى المستقيم الذى أحدهه ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ * من وسوسة الشيطان ، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ * على قوت مطلوب ، أو فقد محبوب ، لأنهم يعلمون بهذه الهداية أن الصبر والتسليم مما يرضى الله تعالى ويوجب ثوابه ، ويفتح للإنسان باب الاعتبار بالحوادث ، ويقويه على مصارعة الكوارث ، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته ، وأفضل تعزية عما فقدته .

قال الأستاذ الإمام مأمثاله : الخوف عبارة عن تألم الإنسان من توقع مكروه يصيبه ، أو توقع حرمان من محبوب يشتمع به أو يطلبه ، والحزن ألم يلم بالإنسان إذا فقد ما يحب ، وقد أعطانا الله جل ثناؤه الطأ نينة التامة في مقابلة ما تحذره كلمة (اهبطوا) من الخوف من سوء المنقلب ، وما تنيرة من كوامن الرعب ، فالمتهدون بهداية الله تعالى لا يخافون مما هو آت ، ولا يحزنون على ما فات ، لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الخيرات ، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته ، يسهل عليه كل ما يستقبله ، ويهون عليه كل ما أصابه أو فقدته ، لأنه موقن بأن الله يخلفه ، فيكون كالتعب في الكسب ، لا يلبث أن يزل بلذة الريح الذى يقع أو يتوقع .

وإذا قال قائل: إن الدين يقيد حرية الإنسان ويمنعه بعض اللذات التي يقدر على التمتع بها، ويحزنه الحرمان منها، فكيف يكون هو المأمّن من الأحران، ويكون أتباعه الفوز وبتركة الحسرة؟ فجوابه: إن الدين لا يمنع من لذة إلا إذا كان في إصابتها ضرر على مصيبتها، أو على أحد إخوانه من أبناء جنسه الذين يفوته من منافع تعارضهم إذا آذاهم أكثر مما يناله بالتلذذ بإيذائهم، ولو تمتلست لمستحل اللذة المحرمة مضارها التي تعقبها في نفسه وفي الناس، وتصور ما لها من التأثير في فساد العمران لو كانت عامة، وكان صحيح العقل معتدل الفطرة، لرجع عنها متمثلاً بقول الشاعر

* لاخير في لذة من بعدها كدر *

فكيف إذا كان مع ذلك يؤمن باليوم الآخر، ويعلم أن هذه المحرمات تدنس الروح فلا تكون أهلاً لدار السكينة في يوم القيامة.

(قال الأستاذ) وليست سعادة الإنسان في حرية البهائم بل في الحرية التي تكون في دائرة الشرع ومحيطه. فمن اتبع هداية الله فلا شك أنه يتمتع تمتعاً حسناً ويتلقى بالصبر كل ما أصابه، وبالطاعة نينة ما يتوقع أن يصيبه، فلا يخاف ولا يحزن يريد أن رجاء الإنسان فيما وراء الطبيعة هو الذي يقيه من تحكم عوادي الطبيعة فيه، وبدون ذلك الرجاء تتحكم فيه أشد ما تتحكم في البهائم التي هي أقوى منه طبيعة (وخلق الإنسان ضعيفاً) فالتمس السعادة بحرية البهائم، هو الشقاء اللازم، وقد صرح بلفظ التمتع الحسن أخذاً من قوله تعالى (١١: ٣) وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) الآية.

فالآيات الدالة على أن سعادة الدنيا معلولة للاهتمام بالدين كثيرة جداً، وقد حجبها عن كثير من المسلمين قولهم في الكافرين: لهم الدنيا ولنا الآخرة، يقالون أنفسهم بحجة القرآن عليهم. وآيات سورة طه في قصة آدم أوضح في المراد من آيات البقرة، وهي قوله عز وجل (٢٠: ١٢٣، ١٢٤) قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) الآيات.

قال تعالى ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ (أقول) الآيات: جمع آية وهي

كما قال الجمهور: العلامة الظاهرة قال الراغب وحقيقته لكل شيء ظاهر ملازم لشيء باطن يعرف به ويدرك بإدراكه حسياً كان كأعلام الطرق ومنازل السفن أو عقلياً كالدلائل المؤلفة من مقدمات ونتيجة أه بالمعنى (قال) واشتقاق الآية إما من أى فانها هي التي تبين أيّاً من أى، والصحيح أنها مشتقة من التأني الذي هو التثبت والاقامة على الشيء أه أقول: بل أصله قصد آية الشيء أى شخصه، ومنه قول الشاعر:

تسأيا الطير غدوته ثقة بالشيخ من جزره

أى تتحرى الطير وتقصد خروجه صباحاً إلى القتال أو الصيد لثقتها بما سبق من التجارب بأن ستشبع مما يترك لها من الفرائس

وأطلقت الآية على كل قسم من الأقسام التي تتألف منها سور القرآن العظيم وتفصله من غيره فاصلة يقف القارىء عندها في تلاوته. ويميزها الكاتب له ببياض أو بنقطة دائرية أو ذات نقش أو بالعدد. والعمدة في معرفة الآيات بفواصلها التوقيف المأثور عن النبي ﷺ وإن كان أكثرها يدرك من النظم، والآيات تطلق في القرآن على هذه وهي الآيات المنزلة من عند الله تعالى لأنها دلائل لفظية على العقائد والحكم والأحكام والآداب التي شرعها لعباده كما تبدل في جملتها على كونها من عند الله تعالى لاشتمالها على ما تقدم بيانه من وجود إعجاز البشر عن مثلها. وتطلق أيضاً على كل ما يدل على وجود الخالق تعالى وقدرته ووحدايته وصفات كانه من هذه المخلوقات، ومن نتائج العقول وبراهينها، أو على غير ذلك من السنن والعبور وهذه الآية مقابل قوله قبله (فمن اتبع هدى) الخ، أى وأما الذين لم يتبعوا

هداى وهم الذين كفروا بنا وكذبوا بآياتنا الميمنة لسبيل ذلك الهدى - كما قال قبل قصة آدم (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) - أو: وأما الذين كفروا بآياتنا اعتقاداً، وكذبوا بها لساناً، فجزاؤهم ما يأتى، والتكذيب كفر، سواء أكان عن اعتقاد بعدم صدق الرسول أم مع اعتقاد صدقه وهو تكذيب الجحود والعدا الذي قال الله لرسوله ﷺ في أهله (٦: ٣٣) فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) كما أن الكفر القلبي قد يوجد مع تصديق اللسان كما هي حال المنافقين. والمعنى كما قرره شيخنا بالاختصار: والذين كفروا وكذبوا بآياتنا

التي تجعلها دلائل الهداية وحجج الإرشاد بأن جحدوا بها وأنكروها ، ولم يدعوا لصدقها ، اتباعاً لخطوات الشيطان وعملاً بوسوسته ، وذهاباً مع إغوائه ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ تقدم تفسير الخلود في آخر الآية ٢٥ وأقول : إن هذه الجملة تدل على الحصر أو الاختصاص الإضافي ، أى أولئك الكافرون المكذبون البعداء هم دون متبعي هداى أصحاب النار وأهلها هم فيها خالدون لا يظعنون عنها . أى وهم في خوف قاهر ، وحزن مساور ، وقد فسر الجلال الآيات بالكتب المنزلة ، وهو يضح في القرآن فانه آية على نفسه ، وعلى صدق من جاء به ، وسائر الكتب محتاج إلى آية تدل على أنها من عند الله تعالى (قال الأستاذ) بعد تفسير الكفر بالجحود ، والتكذيب بالانكار : وكل منهما يأتى في فرق من الناس ، فمنهم من لا تقوى ولا إيمان له وهم الذين لا يؤمنون بالغيب لأنه ليس عندهم أصل للنظر فيما جاءهم ، فهؤلاء منكرون وهم مكذبون لأن التكذيب يشمل عدم الاعتقاد بصدق الدعوى التي جاء بها الرسول واعتقاد كذبها ، والجحود قد يأتى من المعتقد . قال تعالى (٢٧:١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)

فهذا هو الطور الأخير للانسان بعد ما وكل إلى كسبه ، وجعل فلاحه وخسرانه بعمله ، فمن لطف الله به أن أيدته ببداية الدين بعد هداية الحس والوجدان والعقل ، فبهذه الهدايا يرتقى بالتدرج ما شاء الله تعالى

(٤٠) يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤١) وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤٢) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٣) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ

لا يزال الكلام في الكتاب وكونه لا ريب فيه وبيان أحوال الناس وأصنافهم في أمره . وقد قلنا إن التفنن في مسائل مختلفة منتظمة في سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التي لم تسبق لبليغ ، ولن يبلغ شأوه فيها بليغ : ذكر الكتاب أنه لا ريب فيه ، ثم ذكر اختلاف الناس فيه فابتدأ بالمستعدين للإيمان به المنتظرين للهدى الذي يضيء نوره منه ، وثني بالمؤمنين ، وثالث بالكافرين ، ووقف عليهم بالمنافقين . ثم ضرب الأمثال لفرق الصنف الرابع ثم طالب الناس كلهم بعبادته ، ثم أقام البرهان على كون الكتاب منزلاً من الله على عبده محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحمدي المرتابين بما أعجزهم ، ثم حذر وأنذر ، وبشر ووعد ، ثم ذكر المثل والقدوة وهو الرسول ، وذكر اختلاف الناس فيه كما ذكر اختلافهم في الكتاب ، ثم حاج الكافرين ، وجاءهم بأنصع البراهين ، وهو إحيائهم مرتين وإماتتهم مرتين ، وخلق السموات والأرض لمنافعهم ، ثم ذكر خلق الإنسان وبين أطواره ، ثم طفق يخاطب الأمم والشعوب الموجودة في البلاد التي ظهرت فيها النبوة تفصيلاً ، فبدأ في هذه الآيات بذكر اليهود للمعنى الذي نذكره . والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه ، وحسن اتساقه في سبكه ، فهو دائر على قطب واحد في فلكه ، وهو الكتاب ، والمرسل به ، وحاله مع المرسل إليهم . قال تعالى :

﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ (أقول) إسرائيل لقب نبي الله يعقوب ابن نبيه اسحق ابن نبيه وخليله إبراهيم (ع . م) قيل معناه الأمير المجاهد مع الله . والمراد بينه ذريته من أسباطه الإثني عشر ، وأطلق عليهم لقبه في كتبهم وتواريخهم كما تسمى العرب القبيلة كلها باسم جدها الأعلى . ولما كانت سورة البقرة أول السور المدنية الطول وكان جل يهود بلاد العرب في جوارها دعاهم الله تعالى فيها إلى الإسلام وأقام عليهم الحجج والبراهين وبين لهم من حقيقة دينهم وتاريخ سلفهم ما لم يكن يعلمه أحد من قومه المجاورين لهم فضلاً عن أهل وطنه بمكة المكرمة . قال شيخنا في سياق درسه ما مثاله :

« اختص نبي إسرائيل بالخطاب اهتماماً بهم لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب

السماء وربة المؤمنة بالأنبياء المعروفين ، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين ، ولأن
 في دخولهم في الإسلام من الحجج على النصارى وغيرهم أقوى مما في دخول النصارى
 من الحججة عليهم ، وهذه النعمة التي أطلتها في التذكير لعظم شأنها هي نعمة جعل
 النبوة فيهم زمناً طويلاً (أو أعم) ولذلك كانوا يسمون شعب الله كما في كتبهم ؛
 وفي القرآن إن الله اصطفاهم وفضلهم ، ولا شك أن هذه المنقبة نعمة عظيمة من
 الله منحهم إياها بفضله ورحمته فكانوا بها مفضلين على العالمين من الأمم والشعوب
 وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس لله شكراً ، وأشدهم لنعمة ذكره ،
 وذلك بأن يؤمنوا بكل نبي يرسله لهدايتهم ، ولكنهم جعلوا النعمة حجة الإعراض
 عن الإيمان ، وسبب إيداء النبي عليه السلام ، لأنهم زعموا أن فضل الله تعالى
 محصور فيهم ، وأنه لا يبعث نبياً إلا منهم ؛ ولذلك بدأ الله تعالى خطابهم
 بالتذكير بنعمة ، وفتى عليه بالأمر بالوفاء بعهده ، فقال :

﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ عهد الله تعالى إليهم يعرف من الكتاب
 الذى نزله إليهم ، فقد عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يؤمنوا برسله
 متى قامت الأدلة على صدقهم ، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه ، وعهد إليهم أن
 يرسل إليهم نبياً من بنى إخوانهم أى بنى إسماعيل يقيم شعباً جديداً . هذا هو العهد
 الخاص المنصوص ، ويدخل في عموم العهد عهد الله الأكبر الذى أخذه على جميع
 البشر بمقتضى الفطرة وهو التدبير والتروى ، ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر
 الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور ، ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهى
 العام ، أو إلى تلك العهود الخاصة المنصوصة في كتابهم ، لآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوا
 النور الذى أنزل معه وكانوا من المفلحين ، ولا حاجة إلى تخصيص العهد بالإيمان
 بالنبي ﷺ كما فعل مفسرنا (الجلال) فإن الإيمان داخل في العهد العام وهو من
 أفراد العهد الخاص فلا دليل على قصر عموم العهد المضاف عليه

هذا هو عهد الله وأما عهدهم فهو التمكن في الأرض المقدسة والنصر على
 الأمم الكافرة والرفعة في الدنيا وخفض العيش فيها . هذا هو الشائع في التوراة التى
 بين أيديهم ، ولا شك أن الله تعالى قد وعدهم أيضاً بسعادة الآخرة ، ولكن

(البقرة : س ٢) دعوة اليهود إلى الإيمان بالقرآن وأن لا يشتروا به ثمناً قليلاً ٢٩١

لادليل على هذا في التوراة إلا الاشارات ، ولذلك ظنّ بعض الباحثين أن اليهود لا يؤمنون بالبعث ، ومع هذا يقول (الجلال) كغيره إن هذا العهد هو دخول الجنة ويقتصر عليه .

ولما كان من موانع الوفاء بالعهد الذي فشنا تركه في شعب اسرائيل خوف بعضهم من بعض لما بين الرؤساء والمرؤسين من المنافع المشتركة عقب الأمر بالوفاء بقوله ﴿ وإياي فارهبون ﴾ أي إن كنتم تخافون فوت بعض المنافع ، ونزول بعض المضار بكم إذا خالفتهم الجماهير واتبعتم الحق ، فالأولى أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلا من بيده أزمة المنافع كلها ، وهو الله الذي أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى أو النعم كلها ، وهو وحده القادر على سلبها ، وعلى العقوبة على ترك الشكر عليها ، فارهبوه وحده لا ترهبوا سواه .

ثم انتقل من الأمر بالوفاء بعموم العهد إلى العهد الخاص المقصود من السياق فقال تعالى جل شأنه ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ﴾ من تعليم التوراة وكتب الأنبياء كالتوحيد والنهي عن الفواحش والمنكرات والأمر بالمعروف وما يتصل بهذا من الارشاد الموصل إلى السعادة ، فاذا نظرتم في القرآن ووجدتموه مصدقا لما معكم من مقاصد الدين الالهي وأصوله ووعود الأنبياء وعهودهم ، تعلمون أن الروح الذي نزل به هو عين الروح الذي نزل بما سبقه ، وتعلمون أنه لا غرض لهذا النبي الذي يدعوكم إلى مثل مادعاكم إليه موسى والأنبياء إلا تقرير الحق ، وهداية الخلق ، بعد ما طرأ من ضلالة التأويل ، وجهالة التقليد ، فبادروا إلى الإيمان بهذا الكتاب الذي قامت به الحجة عليكم من وجهين (أحدهما) إعجازها (وثانيهما) كونه مصدقا لما معكم ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ أي ولا تبادروا إلى الكفر به والجحود له مع جدارتكم بالسبق إليه ، وهذا الاستعمال معروف في الكلام البليغ لهذا المعنى لا يقصد بالأولية فيه حقيقتها . والخطاب عام لليهود في كل عصر وزمان ثم قال ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ الآيات هي الدلائل التي أيد بها النبي ﷺ وأعظمها القرآن فهو كقوله تعالى (اشتروا الضلالة بالهدى) أي

لا تعرضوا عن الايمان بهذا النبي وما جاء به وتستبدلوا بهديته هذا الثمن القليل وهو ما يستفيد رؤسائكم من المرؤسين من مال وجاه أو قعاهم في الكبر والغرور، وما يتوقعه المرؤسون من الزاني والحظوة بتقليد الرؤساء واتباعهم وما يخشونه إذا خالفهم من المهانة والذلة، وإنما سمي هذا الجزاء قليلاً لأن كل ما عدا الحق قليل وحقير بالنسبة إليه، وكيف لا يكون قليلاً وصاحبه يخسر عقله وروحه قبل كل شيء. لا عراضه عن الآيات البينات، والبراهين الواضحات، ثم إنه يخسر عز الحق وما يكون له من الشأن العظيم وحسن العاقبة، ثم إنه يخسر مرضاة الله تعالى وتحل به نقمه في الدنيا وعقوبته في الآخرة، وختم هذه الآية بشبه ما ختم به ما قبلها وذلك قوله ﴿ وإياي فاتقون ﴾ وليس في هذه مع سابقتها تكرار ولا شبه تكرار كما يتوهم، فقد حل كل من القوانين محله، ولا مندوحة عن واحد منهما لأن استبدال الباطل بالحق إنما كان منهم لاتقاء الرئيس فوت المنفعة من المرءوس، واتقاء المرءوس غضب الرئيس، فدحض هذه الشبهة بالأمر بتقوى الله وحده الذي بيده قلوب العباد وجوارحهم، وهو المستخر لهم في أعمالهم، وبيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير

ثم قال ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ بينت هذه الآية مسلكهم في الغواية والاعواء في سياق النهي عنه. فقد جاء في كتبهم التحذير من أنبياء كذبة يبعثون فيهم ويعملون المعجائب، وجاء فيها أيضاً أنه تعالى يبعث فيهم نبياً من ولد اسماعيل يقيم به أمة، وأنه يكون من ولد الجارية (هاجر) وبين علاماته بما لا لبس فيه ولا اشتباه، ولكن الأحمبار والرؤساء كانوا يلبسون على العمامة الحق بالباطل فيوهمونهم أن النبي ﷺ من الأنبياء الذين نعمتهم الكتب بالكذبة (حاشاه) ويكتمون ما يعرفون من نعوته التي لا تنطبق على سواه، وما يعلمون من صفات الأنبياء الصادقين وما يدعون إليه، وكاه ظاهر فيه عليه الصلاة والسلام بأكل المظاهر.

ومن اللبس أيضاً ما يفتر به الرؤساء والأحمبار فيكون صادراً لهم عن سبيل الله وعن الايمان بنبيه عن ضلال وجهل وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التي زادوها على الكتب المتزلة بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض

المتقدمين وأفعالهم ، فكانوا يحكمون هذه الزيادات في الدين حتى في كتب الأنبياء ويعتدرون بأن الأقدمين أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعاً لهم فهم الوسطة بينهم وبين الأنبياء ، وعلى من بعدهم الأخذ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم ، ولكن الله لم يقبل هذا العذر منهم فأسند إليهم ذلك اللبس وكنان الحق الموجود في التوراة إلى اليوم ، وكذلك لا يقبل الله من بعدهم ترك كتابه لكلام الرؤساء بحجة أنهم أكثر علماً وفهماً ، فكل ما يعلم من كتاب الله تعالى يجب العمل به ، وإنما يسأل الإنسان أهل الفهم عما لا يعلم منه ليعلم فيعمل

ثم قال جل ثناؤه ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ فبعد الدعوة إلى الإيمان اليقيني دعاهم إلى العمل الصالح على الوجه النافع المرضي لله تعالى وكانوا ضلوا عنه بالتمسك بالظواهر والوقوف عند الرسوم فقد كانوا يصلون ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة ، لأن الإقامة هي الإتيان بالشئ مقوماً كاملاً وهي في الصلاة التوجه إلى الله تعالى بالقلب والخشوع بين يديه والاخلاص له في الذكر والدعاء والثناء ، فهذا هو روح الصلاة الذي شرعت لأجله ولم تشرع لهذه الصورة ، فان الصورة تتغير في حكم الله تعالى على السنة أنبيائه لأنها رابطة مذكرة ، فلم تكن للأنبياء صورة واحدة للصلاة ، ولكن هذا الروح لا يتغير فهو واحد لم يختلف فيه نبي ولم ينسخ في دين

ثم أمر بعد الصلاة التي تطهر الروح وتقربها من الله تعالى بالزكاة التي هي عنوان الإيمان ومظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس . وقد عهد في القرآن قرن الأمر بإتيان الزكاة بالأمر بإقامة الصلاة ، ومن أقام الصلاة لا ينسى الله تعالى ولا ينفل عن فضله ، ومن كان كذلك فهو جدير ببذل المال في سبيله ، مواساة لعِياله ومساعدة على مصالحهم التي هي ملاك مصلحته ، فان الانسان إنما يكتسب المال من الناس بمحذقه وعمله معهم فهو لم يكن غنياً إلا بهم ومنهم ، فاذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة في فكره ونفسه أو علة في بدنه ، فيجب على الآخرين الأخذ بيده ، وأن يكونوا عوناً له حفظاً له لجموع الذي ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر ، وشكراً لله على ما ميزهم به من النعمة ، وظاهر أن الغنى في حاجة دائمة

إلى الفقير كما أن الفقير في حاجة إليه ، ولكن النفوس تمرض فتغفل عن المصلحة في بذل المال ومساعدة الفقير والضعيف مبالغة وغلوا في حب المال الذي هو شقيق الروح كما يقولون ، لهذا جعل الله بذل المال والإنفاق في سبيل الخير علامة من علامات الإيمان ، وجعل البخل من آيات النفاق والكفر كما سيأتي في بعض الآيات

قال الاستاذ الإمام : إن البخل - ومنيعه القسوة على عباد الله تعالى والحرص على المال استرسالا في الشهوات ، وميل مع الأهواء - لا يجتمع مع الإيمان الصحيح في قلب واحد قط . وليس لأحد أن يزعم أنه يؤمن بالله وبما أنزل على رساله من الأوامر والنواهي حتى يقوم بما أمر الله فيما طلب منه على ما يحب الله ويرضى

نم أمر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالركوع مع الراكعين ، والركوع صورة الصلاة أو جزء من أجزائها ، وقـ آخره ولم يصله بالصلاة لحكمة جلييلة لارعاية للفاصلة كما زعم بعض المفسرين ، فليس من الجائز أن يكون في القرآن ما يعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة ، بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس فكيف يقع في كلام الله تعالى ؟ وإنما وردت هذه الأوامر الثلاثة مرتبة كما يحب الله تعالى فإقامة الصلاة في المرتبة الأولى من عبادة الله تعالى لأنها روح العبادة والإخلاص له ، ويليهما إيتاء الزكاة لأنها تدل أيضا على زكاء الروح وقوة الإيمان ، وأما الركوع وهو صورة الصلاة البدنية أو بعض صورتها أشير به إليها فهو في المرتبة الثالثة فرض للتذكير بسابقه وما هو بعبادة لذاته ، وإنما كان عبادة لأنه يؤدي امتثالاً لأمر الله تعالى وإظهاراً لخشيته ، والخشوع لعظمته ، ولكنه قد يصير عادة لا يلاحظ فيها امتثال ولا إخلاص فلا يعد عند الله شيئاً ، وإن عده أهل الرسوم كل شيء ، بخلاف إقامة الصلاة بالمعنى الذي ذكرناه وإيتاء الزكاة ، ولا يخفى أن الفضل بين معني الصلاة وصورتها بالزكاة فيه تعظيم لشأن الزكاة . وسنتكم على الزكاة والانفاق في سبيل الله بالتفصيل في تفسير آية أخرى إن شاء الله تعالى .

(٤٤) أَنَا مُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَّوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٥) وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

الْحَشِيمِينَ (٤٦) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

الكلام موجه إلى بني اسرائيل وقد تقدم في الآيات السابقة أن الله ذكرهم بنعمته ، وأمرهم بالوفاء بعهده ، وأن يرهبوه ويتقوه وحده ، وأن يؤمنوا بالقرآن ، ونهاهم أن يكونوا أول كافر به ، وأن يشكروا بآياته نمناً قليلاً ، وأن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموه عمداً . ثم أمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطفق في هذه الآيات يوجههم على سيرتهم المعوجة في الدين ، ويهدبهم إلى طريق الخروج منها اليهود كسائر الملل يدعون الإيمان بكتابين والعمل به ، والمحافظة على أحكامه والقيام بما يوجبه ، ولكن الله تعالى علمنا أن من الإيمان — بل مما يسمى في العرف إيماناً — مالا يعبأ به ، فيكون وجوده كعدمه ، وهو الإيمان الذي لاسلطان له على القلب ، ولا تأثير له في إصلاح العمل ، كما قال (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) وكانت اليهود في عهد بعثته عليه الصلاة والسلام قد وصلوا في البعد عن جوهر الدين إلى هذا الحد . كانوا — ولا يزالون — يتلون الكتاب تلاوة يفهمون بها معاني الألفاظ ، ويجلون أوراقه وجلده ، ولكنهم ما كانوا يتلونه حق تلاوته ، لأن الذين يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به كما قال تعالى وعلى الوجه الذي يرضاه تعالى : يتلون ألقاظه وفيها البشارة بالنبي ﷺ ويأمرون بالعمل بأحكامه وآدابه من البر والتقوى ، ولكن الأحبار القارئين الأمرين الناهين ما كانوا يبينون من الحق إلا ما يوافق أهواءهم وتقاليدهم ، ولا يعملون بما فيه من الأحكام إلا إذا لم يعارض حظوظهم وشهواتهم . فقد عهد الله إليهم في الكتاب أنه يقيم من إخوانهم نبياً يقيم الحق ^(١) وفرض عليهم الزكاة ،

(١) يشير إلى ما في الفصل الثامن عشر من سفر تثمية الاشتراع: ١٧ قال لي الرب أحسنوا فيما تكلموا ١٨ أقيم—وفي ترجمة أخرى «سوف أقيم» لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فم فيكلمهم بكل ما أوصيه به ١٩ ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه « وفي ترجمة أخرى « فانا أكون المنتقم من ذلك » ولم يبعث بعد موسى نبي مثل موسى في نبوته ، أي إنه صاحب شريعة مستقلة غير محمد عليه الصلاة والسلام

ولكنهم كانوا يحرفون البشارة بالنبي ﷺ ، يؤلونها . ويحتالون لمنع الزكاة فيمنعونها ، وجعلت لهم مواسم واحتفالات دينية تذكركم بما آتى الله أنبياءهم من الآيات وما منحهم من النعم لينشطوا إلى إقامة الدين والعمل بالكتاب . ولكن القلوب قست بطول الأمد ففسقت النفوس عن أمر ربها . وهذه التوراة التي بين أيديهم لا تزال حجة عليهم ، فلوسألتهم عما فيها من الأمر بالبر والحث على الخير لا عترفوا وما أنكروا ، ولكن أين العمل الذي يهدي إليه الإيمان ، فيكون عليه أقوى حجة وبرهان .

كذلك كان شأن أجبارة اليهود وعلمائهم في معرفة ظواهر الدين بالتفصيل وكان عامتهم يعرفون من الدين العبادات العامة والاحتفالات الدينية وبعض الأمور الأخرى بالأجمال ، ويرجع المستمسك منهم بدينه في سائر أموره إلى الأجبارة فيقلدهم فيما يأمرونه به ، وكانوا يأمرون بما يرونه صوابا فيما ليس لهم فيه هوى ، وإلا لجأوا إلى التأويل والتحريف والحيلة ليأخذوا من الألفاظ ما يوافق الهوى ويصيب الغرض ، فاذا وجه الخطاب في قوله تعالى ﴿ تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ إلى حملة الكتاب فذاك لأن الأمر والنهي وظيفتهم ، وإذا كان عاما فذاك لأن شأن العامة فيما يعرفون من الدين بالأجمال كشأن الرؤساء فيما يعرفون بالتفصيل ، ولا يكاد يوجد أحد لا يأمر بخير ولا يبحث على بر ، فاذا كان الأمر لا يأمر بما يأمر به فالحجة قائمة عليه بلسانه وبخ الله هؤلاء القوم على أنهم كانوا يأمرون الناس بالبر كالأخذ بالحق ومعرفة لأهله ، وعمل الخير والوعد عليه بالسعادة مع الغفلة عن أنفسهم وعدم تذكيرها بذلك ، وما أجل التعبير عن هذه الحالة بفسيان الأنفس ، فان من شأن الانسان أن لا يفتي نفسه من الخير ولا يجب أن يسبقه أحد إلى السعادة ، كأنه يقول : إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر ووعيده على تركه فكيف نسيت أنفسكم ﴿ وأنتم تتلون الكتاب ﴾ وتأمرون الناس باتباعه وتعرفون منه ما لا يعرفه المأمورون ؟ أفيعلمون مع نقص العلم بفائدة العمل ، ولا تعملون على كمال العلم وسعته ؟ ولما كان هذا غير معقول قفي على استفهام التوبيخ بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ .

يعنى ألا يوجد فيكم عقل يحبسكم عن هذا السفة ؟ فان من له مسكة من العقل لا يدعى كمال العلم بالكتاب والإيمان اليقيني به والقيام بالارشاد اليه : هذا

كتاب الله ، هذه وصايا الله ، هذا أمر الله ، وقد وعد العامل به السعادة في الدنيا أو الآخرة أو كليهما ، فخذوا به واستمسكوا بهراه ، وحافظوا عليه ، — ثم هو لا يعمل ولا يستمسك ؟

مثل من كانت هذه حاله كمثل رجل أمامه طريق مضى؛ نصبت فيه الأعلام والصوى بحيث لا يضل سالكة ، ثم هو يسلك طريقا آخر مظلمًا ظامس الأعلام وكما لقي في طريقه شخصا نصح له أن لا يمشی معه ، وأن يرجع إلى طريق الهدى الذي تركه ، أو مثل ساعب يدعو الناس إلى المائدة الشهية ، ويبيت على الجوع والطوى ، أو صاد يدل العطاش على مورد الماء ولا يرد معهم

إذا كان هذا لا يقع من صحيح العقل فكذلك أمر المؤمن بشعب الإيمان وعدم الائتمار بها ، مع تذكرها وتلاوة كلام الله فيها . فلا بد لتعمل هذا من القول بأن الإيمان بالوعد على البر والوعيد على الفجور غير يقيني عند الأمر المخالف. ويؤيده أن القوم كانوا عقلاء في كسب المال وحفظ الجاه الدنيوى وإنما ضلوا من جهة الدين بأخذة على غير وجهه

الخطاب عام لليهود الذين كان هذا حالهم وعبرة لغيرهم لأنه منبئ عن حال طبيعية للأمم في مثل ذلك الطور الذى كانوا فيه ، ولذلك كان القرآن هداية للعالمين إلى يوم الدين ، لا حكاية تاريخ يقصد بها هجاء الاسرائيليين ، فلتحاسب أمة نفسها فى أفرادها ومجموعها لئلا يكون حالها كحال من ورد النص فيهم فيكون حكما عند الله كحكمهم ، لأن الجزاء على أعمال القلوب والجوارح ، لا للحياة الأشخاص والأقوام أو معاداتهم

(فان قيل) إن من يأمر غيره بالبر وينسى نفسه قد يكون متسكلا فى ترك العمل على الشفاعات المكفرات ، كالأذكار والصدقات ، لأنه يترك لعدم اليقين فى الإيمان ، وإذا أمر غيره بالبر مع هذا فذلك لأنه يلاحظ المكفرات فى شأن نفسه ولا يلاحظها فى شأن غيره (نقول) إن العالم بالدين لا يخفى عليه أن حكم الله تعالى واحد عام ، فكيف يحتم البر على لشيرة ويوهه أنه لا يقربه من رضوان الله

ويبعده من سخطه إلهو، وينسى نفسه فلا يحتم عليها ذلك؟ ثم كيف يجهل أن الشفاعات والأعمال الصالحة التي ورد أنها تكفر السيئات لا يصح أن تكون منبذة عن عمل البر أو سببا لتركه لأنه خلاف المقصود من الدين؟ فهل يكون فرع من فروع الدين هادما لأصوله وسائر فروعه؟ كل ذلك كان ينبغي أن يكون بعيداً عن العالم بالدين الذي يتلو كتاب الله تعالى ولكن هذا الضرب من الخذلان يعرض لأرباب الأديان عند فساد حال الأمم، فنبه الله تعالى عليه بهذا التعبير اللطيف وهو نسيان النفس مع تلاوة الكتاب، فكأن الزاعم أنه مؤمن ولا يعمل عمل الإيمان، نسي أنه هو الذي يزعم الإيمان، وصاحب هذا النسيان يمضي في العمل القبيح من غير فكر ولا روية بل انبماتاً مع الحظوظ والشهوات التي حكها في نفسه، وملكها زمام عقله وحسه، ولكنه لا يلاحظها في غيره عند ما يعرض عليه عمله السيء أو يراه معرضاً عن عمل البر ولذلك يعظه وينبذمه

بعد ما بين سوء حالهم وأن عقولهم لم ينفعهم والكتاب لم يذكرهم، أرشدهم إلى الطريقة المثلى للانتفاع بالكتاب والعقل والعمل بالعلم النافع فان العمل السيء الذي سببه نسيان النفس ليس طبيعياً كالنفس لا يمكن دفعه ومقاومته بل هو اختياري وسببه عارض تمكن إزالته بما أرشد الله إليه في قوله ﴿واستمعوا بالصبر والصلوة﴾ قال الاستاذ الامام: أمر بالصبر وهو كما قال المفسر حبس النفس على ماتكره. ونقول بعبارة أوضح: هو احتمال المسكروه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم، لأنه لو لم يكن كذلك لكان كما يقول العامة في أمثالهم.. وذكر مثلاً بمعنى قول الشاعر:

صبرت ولا والله مالى طاقة
على الصبر، لكنى صبرت على الرغم
والصبر الحقيقي المبني على التسليم يحصل بتذكر وعد الله تعالى بالجزاء الحسن للصابرين على أعمال البر التي تشق على النفس وعن الشهوات المحرمة التي تصبو إليها، وتذكر أن المصائب من فعل الله وتصرفه في خلقه فيجب الخضوع له والتسليم لأمره، ومن عجيب أمر هذا الصبر: أنه يبقى الانسان من الخسران متى حسن في كل شيء كما تفيد سورة (العصر) ويؤيده الاختبار، وقد اشتهر أن «من صبر ظفر» وربما أتينا على شيء من معنى الصبر وأنه قوة من قوى النفس

تدخل النظام في كل عمل من أعمالها - في موضع آخر
الاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الاسباب التي تأفك الناس وتصرفهم
عن صراط الشريعة كاتباع الشهوات ، والولوع باللذات ، والبعد عن المؤلمات ، ثم
بالمقاييس بينها وبين ما رغب الله فيه ، أو أوعد بالعقاب على فعله ، ثم بملاحظة أن ما أوعد
الله تعالى به أولى بأن يتقى ، وما أوعد به أولى بأن يرجى ويطلب ، وضرب
الاستاذ لمن يفقدون الصبر فيقعون في الخسران مثلا: صاحب الحاجة يبرزه الطيش
والتسرع إلى قضاء حاجته ويفقد الصبر على مرارتها فيكذب لاعتقاد أن حاجته
تقضى فيدفع المضرة أو يجلب المنفعة بالكذب ، وأنه بالصدق يفوته هذا ،
فيترف جريمة الكذب لهذا الاعتقاد ، وهو ظان بل واهم ، ومتى أقره مرة هان
عليه فيعود إليه فيكون كذابا [ومتى عرف بذلك ضاعت الثقة به وفسد حاله
وأصبح يجدها الحاجة إلى الصدق أشد مما كان منها إلى الكذب] ويؤيد مقاله
الاستاذ الإمام: حديث «لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند
الله كذابا» رواه الشيخان عن ابن مسعود ، وإذا ذكر مثل هذا الرجل أو تذكر
من تلقاه نفسه الوعيد على الكذب وما ورد في ذلك من آيات في كتاب الله وآثار
عن رسول الله ﷺ وآله وأصحابه ومن تبعهم باحسان ، وما يجلبه لصاحبه من
مقت الله ورضه ، يسبق إلى ذهنه المكفرات (ومثلها الشفاعات وسعة العفو
والمغفرة) كالأستغفار قبل النوم مائة مرة وقول كذا من الذكر بعد صلاة الصبح
كذا وكذا مرة فلا يبقى للوعيد معها أثر ، إذ يدعى بأن ذنبه يغفر لاجمالة ، وينسى
سبب المغفرة الحقيقي وهو التوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى ، وأن العفو عن
غير التائب الأواب إلى الله تعالى مجهول بالنسبة إلى علمنا وإن كان جائزا عقلا ،
فإننا لم نطعم على ما في علم الله تعالى فعلم أننا من يعفو عنهم
[وكيف نترك ما جاء عن الله في كتابه وعلى لسان نبيه من النصوص القاطعة الدالة
على أن لعنة الله مسجلة على الكاذبين وهي بعمومها لا تدع لوهم محالا في نزول سخط الله
بالكاذب ، ثم نتخبر لأنفسنا تعلقنا بتوكأ عليهم في ارتكاب هذه الجريرتون سندها إلى
سعة عفو الله ، أو إلى مجمل من القول لا يبينه إلا تلك النصوص القاطعة ؟ إن هذا إلا

خيال أو تصوير خيال ، أو فقد للإيمان بصحة تلك النصوص القاطعة نعوذ بالله [(وأقول) إنما جعل شيخنا جريمة الكذب مثلاً لاستباحة فاسدى الدين للمعاصي لأنه في معناه العام أكبر الكبائر وشر الرذائل حتى أن الكفر والشرك شعبة منه ، ولأنه ليس مما تغلب المرء عليه سورة غضب أو ثورة شهوة بل يقترف بالتروى والتعمد ، ولأنه مع ذلك عام فاش في جميع طبقات الناس في عصرنا هذا حتى العلماء والوزراء ومن فوقهم . ومن العجائب أننا سمعنا بأذناننا وقرأنا وروينا عن أعداء الإصلاح وأهله من اقتراف الكذب على دعائه مالا تستطيع عقولنا له تأويل إلا بما كتبه شيخنا في هذه العبارة من الخيال في أنفسهم التي فسدت فطرتهم : أو من فقد الإيمان بصحة النصوص إما فقداً تاماً عاماً وإما فقداً خاصاً بالحال التي يقترنون فيها الكذب وغيره من الجرائم على حد ماورد في الحديث المنفق عليه « لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن » الخ على أحد التأويلات له . ووجه العجب والغرابة في هذا النوع من الكذب : أنه بحسب الظاهر انتصار الدين ودفاع عنه وهو هدمه . ثم أقول إن مثل من يقترف السيئات معتمداً على العفو والشفاعة كمثل من يرتكب الجرائم في ملأ من الناس وعلى رهوس الاشهاد متعرضاً لقبض الشرطة عليه وسوقه إلى المحكمة لتحكم عليه بعقوبة الجريمة اعتماداً على أن الامير والسلطان قد يعفو عنه بعد الحكم عليه بالعقوبة ومثل هذا لا يختلف اثنان في حمقه . والله تعالى قد بين لنا شرط نفع الأعمال الصالحة في مغفرة الذنوب وهو اقترانها بالتوبة الصحيحة كقوله في حكاية دعاء الملائكة المؤمنين (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) الآيات وقوله (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) وقوله (وإني لعفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وأما الشفاعة بحسبك قوله فيها (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) مع العزم بأنه تعالى لا يرضى بالكذب ولا بغيره من الجرائم . ومن يأذن تعالى لهم بالشفاعة لا يعلمهم غيره عز وجل

ثم قال الأستاذ الإمام مامعناه : ومن الناس من يكتمى بالاعتذار عن ذنوبه وجرائمه بأنه غير معصوم ، وذكر بعض الشواهد عن يظن أن لهم في الدين قدم صدق ، وقال إن من هذا رأيه يتصور أن الصدق واتباع الحق إنما هو شأن طائفة

معدودة من البشر وهم الأنبياء عليهم السلام ، وكل من عداهم فليس من شأنه أن يثبت على عمل صالح ، ويكتفى بهذه التكاة في تسلية نفسه وتجريتها على الجرائم وكفى بهذا حقاً ، فليس يلزم من كون غير النبي ليس معصوماً أن يكون إلف ماتم ، وحلف جرائم ، وخذن عظام ، ولولزم أن يكون الناس هكذا لكانت الشرائع عبثاً ، والتهديب لغواً ، ولفسدت الأرض وخرب العمران .

أوهل يصح في حكم العقل أن يقال: إن الشرائع والحدود وضروب الوعد والوعيد لم ينعم الله بتشريعيها إلا لأجل المعصومين ؟ وهل يحتاج المعصوم إلى وعد أو وعيد؟ وما فائدتهما بالنسبة إليه ، وقد أيقن بتوفيق الله له وأنه لا يأتي أمراً يخالف ما أمر به ولا يقترب شيئاً مما نهى عنه ؟ ثم كيف لا يكون لغير المعصومين نصيب في الوعد ولا الزجر مع أنهم أحق الناس بالردع وأحوجهم إلى التخويف من سوء العاقبة؟ [وأما الاستعانة بالصلاة فهي أقرب إلى حصول المأمول وإرجاع النفس إلى الله تعالى لما لها من التأثير في الروح ، ولكنها أشق على النفس الأمانة بالسوء .

ولذلك قال تعالى ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ أي لثقيلة شديدة الوقع كقوله (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) إلا على المحبتين المتظامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى . فهوؤلاء هم الذين يستفيدون بالصلاة الصبر وكل الخلائق الحسنة لما تعطيه الصلاة من مراقبة الله تعالى . كما قال عز وجل (إن الإنسان خلق هلوفاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين) فمن خواص الصلاة الصبر ونفي الجزع ، ومن خواصها النهي عن الفحشاء والمنكر . ومن خواصها الجود والسخاء - فالمصلح الحقيقي هو البار الحقيقي الذي لا يترك الحق لأجل شهوة ، ولا لما يعرض له في معاملاته مع الخلق من خوف وخشية . هذا أثر صلاة الخاشعين بالإجمال . ولذلك قال تعالى (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون)

ثم وصف الخاشعين وصفاً يناسب المقام ، ويظهر وجه الاستعانة به فقال ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ أي الذين يتوقعون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء وأنهم إليه راجعون . بعد البعث لامرجع لهم إلى

غيره - قال شيخنا: فالإيمان ببقاء الله تعالى هو الذي يوقف المعتقد عند حدوده . ولو لم يكن الاعتقاد يقينياً ، فإن الذي يغلب على ظنه أن هذا الشيء ضار يجتنبه أو أنه نافع يطلبه ، ولذلك اكتفى هنا بذكر الظن ، وقد فسر الظن مفسرنا (الجلال) باليقين لأنه الاعتقاد المنجى في الآخرة ، وفاته أن الاكتفاء بالظن أبلغ في التبرع والتواضع كأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يقرءون الكتاب لا يصل إيمانهم بالله وبكتابه إلى درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالاحتياط (أقول) بل هو تقليد عادي محض كالمعادن القومية والوطنية فهو لا ينبغي صاحبه في الآخرة

(٤٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ كُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

تقدم تذكير بني إسرائيل بالنعمة في آية قبل هذه الآية - مقرؤنا بالأمر بالوفاء بعمد الله ، وبالوعود بالجزاء عليه ، والأمر بالخشية منه والرهبة له وحده . (وهي آية ٣٩) وتلاها آيات أمرهم فيها بالإيمان بالقرآن ونهائم عن لبس الحق بالباطل وكنائنه . ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم وبجهم على نسيان أنفسهم من البر مع أمرهم للناس به وتلاوتهم الكتاب الداعي إليه ، ودلهم على الطريق التي لو سلكوها عوفوا من هذا النسيان ، تلك الطريق هي الاستعانة بالصبر والصلاة التي فقدوها بفقد روحها وهو الإخلاص والخشوع . وبعد هذا عاد إلى التذكير بالنعمة بنوع من التفصيل ، فإن النعمة في الآية الأولى مجملة والاجمال يئنه الفكر إلى الذكر في الجملة ، فاذا تلاه التفصيل والبيان كان على استعداد تام لكامل الفهم [فيكون التذكر أتم والتأثر أقوى ، والشكر على النعمة أرجى]

ثم طلب منهم أن يذكروا نعمته عليهم ، وتفضيله إياهم على الناس ، إحياء لشعور الكرامة في نفوسهم ، ووصله بالأمر باتقاء يوم الدين والجزاء . وهذا أسلوب حكيم في الوعظ ، فينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف وشعور

الكرامة في نفوس الموعوظين لتستمد بذلك لقبول الموعظة [وتجد من ذلك الإحساس معونة من العزيمة الصادقة التي هي من خصائص النفوس الكريمة على عوامل الهوى والشهوة ، فإن النفس إذا استشعرت كرامتها وعلوها ونظرت إلى مافي الرذائل من الخسة أبن لها ذلك الشعور - شعور العلو والرفعة - أن تنحط إلى تماطى تلك الخسائس ، وكان ذلك من أقوى الوسائل لمساعدة الواعظ على بلوغ قصده من نفس من يوجه إليه وعظه ، ثم إن في الوعظ مسأ يؤلم نفس الموعوظ وجرحا يكاد يحملها على النفرة من تلقينه والاستنكاف من سماعه ، فذكر الواعظ لما يشعر بكرامة المخاطب ورفعة شأنه ، وإباء ما ينسب إليه من الشرف أن يدوم على مثل ما يترقب يقبل بالنفس على القبول كما يقبل الجريح على من يضمه جراحه ويسكن آلامه]
ألا وإن هذا الشعور شعور الشرف والرفعة ملازم للانسان لا يفارقه ولو كئنه قد يضعف حتى لا يظهر له أثر ، وفي تحريك الواعظ له اعتراف ضمنى بكرامة وفضل الموعوظ يشفعان له بما يستلزمه الوعظ من مظنة الإهانة فيسهل احتمالها ويقرب قبوله شعور العزة والكرامة أمر شريف يحببها الإيمان في نفوس المؤمنين الصادقين بل يستلزمه على وجه أكل لأن صاحب الإيمان الصحيح يرى أن له نسبة إلى الرب العظيم خالق السموات والأرض ، وأنه سنده ومجده ، وعند ذلك تملو نفسه وترفع كما قيل :
قوم يخالجهم زهو يسيدم والعبد يزهو على مقدار مولاه
من كان يشعر لنفسه بقيمة أو يجد لها حقاً في أن تعز وتكرم تراه إذا خلا بنفسه وتذكر أنه ألم بتقيصة يتألم ويتململ ، يستعيز بالله من الشيطان الرجيم . وإذا تذكر المؤمن أن قلبه الذي تشرف بعرفة الله تعالى [وأن شرف تلك المعرفة خلصه من العبودية لغيره وصيره مربوباً لرب العالمين وحده فهو في ذلك مع أرفع رفيع وأكرم كريم سواء - إذا ذكر ذلك لم يرم من اللائق بمثل هذا الاختصاص أن يجاوره ما يدنسها من الاستعباد لما ينله ، بل يرى أن ذلك الشعور الطاهر والعرفان الهادي إلى مقامات الكرامة لا ينبغي أن يزاحمه في موطنه من القلب دنس من رجس الرذائل]
فينفر من هذه المزاحمة وتتقل عليه ويسهل عليه التزكي مما ألم به والانابة إلى الله تعالى (قال) لهذا بدأ الله تعالى تذكير نبي إسرائيل بما بدأ وثني بما ثني ،

وهو يتضمن من التفرغ والتوبيخ ما يشعر بغلظ طباعهم وفساد قلوبهم فان من لا يتأدب بإحياء إحساس الكرامة ، يؤدب بالتأنيب والاهانة
العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة

فقوله تعالى ﴿ يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ مؤكداً
لمثله فى الآية ٣٩ وتمهيد لما عطفه عليه من تفضيل الاجمال فى الآية وما بعدها
من الآيات ، وما اقترن به من بيان كفرهم للنعم ، وما تحلها من المواعظ والحجج ،
وأوله وأعله قوله ﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ أى أعطيتكم من الفضل -
وهو الزيادة فيما يحسن - ما لم أعط غيركم من الشعوب حتى ذات المزايا الدنيوية
كالمصر بين وسكان البلاد المقدسة

قال الأستاذ الإمام مامعناه : ناداهم باسم أبيهم الذى هو أصل عزهم وسؤددهم
ومنشأ تفضيلهم ، وأسند النعمة إليهم جميعاً إليه وحده لأن النعمة عممتهم والتفضيل
شملهم ، ثم طفق يفضل النعمة التى ذكرها مجملة فيما سبق بذكر أمهات أنواعها فذكر
تفضيلهم على العالمين بمحض كرمه وفضله ، فإن بنى اسرائيل كغيرهم من البشر .
والتفضيل هو مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل ، لأن الذى يرى نفسه رذلاً
خسيساً ، لا يبالى ما يفعل . ومن يرى نفسه مفضلاً مكرماً ، فانه يترفع عن الدنيا
والخسائس التى تدنس شرفه وتذهب بفضله . والحكمة فى التذكير بالتفضيل : أن
يتذكروا أن الذى فضلهم له أن يفضل غيرهم كمحمد ﷺ وأمه ، وتنبئهم إلى
عدم الذهول عن أنفسهم ليدكروها عند أمر الناس بالبر ، ويعلموا أنهم أولى بأن
يبروا من يأمرهم بالبر ، لأنهم يتلون الكتاب الداعى إليه وهو آية تفضيلهم .
والى أنهم أحق باستعمال الفكر فى الآيات التى أوتيتها النبى ﷺ وأجدر من جميع
الشعوب بالإيمان به ، فإن المفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل هو عليه .
ثم إن الفضل على العالمين إن كان بكثرة الأنبياء فيهم فهو ظاهر على عمومه لأنه
لا يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم فى هذه المزية . ولا تقتضى هذه الفضيلة بأن يكون
كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم ، ولا تنافى أن يفضلهم أحسن الشعوب
- بله غيره - إذا هم انحرفوا عن هدى أنبيائهم وتركوا سنتهم واهتدى إليها

ذلك الشعب الذي كان مفضولاً . وإن كان المراد من التفضيل هو القرب من الله تعالى بمرضاته ، فلا بد من تخصيصه بأولئك الأنبياء والمهتدين بهم من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه ، ومن تقييده بمدة الاستقامة على العمل الذي استحقوا به التفضيل ثم قال تعالى ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ أى واحذروا يوماً عظيماً أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الأحوال ، ومراقبته في جميع الأعمال ، فهو يوم لا تقضى فيه نفس ، مهما يكن قدرها عظيماً عن نفس مهما يكن ذنبها صغيراً شيئاً ما ، كحمل وزرها ، أو تكفير ذنبها (٣٥ : ١٨) ولا تزر وزارة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى (وصف اليوم بهذا الوصف ولم يقل يوم القيامة مثلاً للشعار بأن التصرف في ذلك اليوم والأمر كله لله ، فليس فيه ما اعتاد الناس في هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض . وعبر عن هذا المعنى في أول سورة بقوله (مالك يوم الدين) ثم وصفه هنا بوصف آخر يناسب الأول فقال ﴿ ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (ولا تقبل) بالياء ، والمعنى لا يقبل منها أن تأتي بشفيع يشفع لها ولا يؤخذ منها فداء أو بدل إن هي استطاعت أن تأتي بذلك كما يظن أكثر الكفار ، ولن تستطيع . قال البيضاوى : وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع أحد عن أحد العذاب من كل وجه محتمل ، وفصل هذه الوجوه بما يشمل الثلاث المنفية ، وجملة المعنى : أنه يوم لا تأثير لأحديه ولا كسب ، ولا ينطق فيه أحد إلا بإذن الله تعالى . وقال (الجلال) أى ليس لها شفاعاة فتقبل ، واستدل بقوله تعالى حكاية عن المجرمين في الآخرة (٢٦ : ١٠٠) فما لنا من شافعين) الآية وفسر العدل بالفداء قال ﴿ ولاهم ينصرون ﴾ أى ينعون من عذاب الله . قال الأستاذ الإمام : ولا دليل في هذا على أن المراد ما ذكره في مسألة الشفاعاة وإنما السياق في الآية وأمثالها يدل على أن المراد بيان أن ذلك اليوم يوم تنقطع فيه الأسباب ، وتبطل منفعة الأنساب ، وتتحول فيه سنة هذه الحياة من انطلاق الإنسان في اختياره يدفع عن نفسه بالعدل والفداء ، ويستعين على المدافعة بالشفاعة عند

السلطين والأمرء ، وقد يوجد له فيها أنصار ينصرونه بالحق وبالباطل على سواء . بل يكون له في ذلك اليوم شأن آخر مع ربه تضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاصه في عمله ، قبل حلول أجله ، ورحمة الله العلي الكبير له ، لضعف حوله ، وضيق طوله ، وأنه يوم لا يتحرك فيه عضو إلا بإذن الله ، ولا يقدر أحد أن ينبس بكلمة إلا بإذن الله (١٩: ٨٢) يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) كان اليهود المخاطبون ببيان هذه الحقيقة كغيرهم من أمم الجاهلية وأهل الملل الوثنية كقدماء المصريين واليونان يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا فيتوهمون أنه يمكن التخلص من العقاب بقداء يدفع بدلا وجزاء عنه - كما يستبدل بعض حكامهم منفعة مالية بمقوبة بدنية - أو بشفاعة من بعض المقربين إلى الحاكم يغير بها رأيه ويفسخ إرادته . ولقد اكتسح الإسلام هذه العقائد وآثارها العملية بالتوحيد الخالص ، وأتى ببنائها من القواعد ، ولكن المسلمين لم يسلموا منها فقد دخل في الإسلام أقوام يحملون أوزاراً مما كانوا عليه من الوثنية ، ولم يلقنوا الدين من القرآن ولا كما أرشد القرآن ، ولكنهم تقلدوه ممن لا يعرفه حق المعرفة ، ولقنوه كما ترشد إليه كتب التقليد من مصطلحات مبتدعة ، فكانوا على بقية مما كان عندهم على جهل بالإسلام ، وجاء قوم آخرون تعمدوا الفساد فجعلوا بالتأويل الباطل حقا ، والكذب صدقا وذكر الأستاذ الامام هنا بعض العادات المصرية التي لا تزال يعمل بها باسم الدين وهي من إرث قدماء الوثنيين ، كأعظائهم لغاسل الميت شيئاً من النقد يسمونه « أجرة المعدية » أي أجرة نقله إلى الجنة . وغير ذلك مما يعملونه للأموات ، ولمن يعتقدون فيهم الولاية والقرب من الله ، ومثلهما أكثر تقاليدهم في بناء المقابر واحتفالاتها ثم ذكر المكفرات التي يعتقدها اليهود كقربان الانم وقربان الخطيئة وقربان السلامة والحرق والاكْتفاء ممن لم يجد القربان يحماتين يكفر بهما عن ذنبه . وقال : وكانوا يفهمون أن هذه الأشياء تكفر الذنوب بذاتها . والحق أنها عقوبات لا مكفرات فإن من فهم التوراة حق فهمها يعلم أن المكفر الحقيقي هو التوبة والاقلاع عن الذنب ثم تقديم القربان يكون تربية وعقوبة . وقد أخبرهم الله تعالى في هذه الآية بأن يوم القيامة لا يقبل فيه عدل يفتدى الانسان به . قال : وكانوا يعتقدون أنهم بانقياسهم

للانبياء لا يدخلون النار أو لا تمسهم إلا أياما معدودة ، لأن لهم الجاه والتأثير يوم القيامة ، ولا يرضون أن يتركوا أبناءهم في العذاب ، ثم زادوا على ذلك شفاعة الأحيار لمن ينتسب إليهم . ومتى ضعف الدين يوجد من رؤسائه من يروج هذه العقائد في العامة لما تسوق اليهم من المنافع . وكذلك كان اليهود حتى جاء الاسلام بهذه الآية وأمثالها فحما هذه العقيدة ليعلم المؤمنون به أنه لا ينفع الانسان يوم القيامة إلا مرضاة الله تعالى بالايمان الخالص والعمل الصالح

في القرآن آيات ناطقة بنفي الشفاعة مطلقة، كقوله تعالى في وصف يوم القيامة (لا يبع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وأخرى ناطقة بنفي منعمة الشفاعة ، كقوله عز وجل (٤٨:٧٤) فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وآيات تفيد النفي بمثل قوله (٢:٢٥٥) إلا بإذنه) وقوله (٢٨:٢١) إلا لمن ارتضى) فمن الناس من يحكم الثاني بالأول ومنهم من يرى أنه لا منافاة بينهما فاحتاج إلى حمل أحدهما على الآخر لأن مثل هذا الاستثناء (أى الاستثناء بالإذن والمشية) معهود في أسلوب القرآن في مقام النفي القطعي للشعار بأن ذلك بإذنه ومشيته عز وجل ، كقوله تعالى (٦:٨٨) سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) وقوله (١١:١٠٧) خالدن فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) فليس في

القرآن نص قطعي في وقوع الشفاعة ولكن ورد الحديث بإثباتها فما معناها ؟ الشفاعة المعروفة عند الناس هي أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك كان أراد غيره - حكم به أم لا - فلا تتحقق الشفاعة إلا بترك الارادة وفسخها لأجل الشفيع . فأما الحاكم العادل فانه لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغير علمه بما كان أراد أو حكم به ، كأن كان أخطأ ثم عرف الصواب ورأى أن المصلحة أو العدل في خلاف ما كان يريد أو حكم به . وأما الحاكم المستبد الظالم فانه يقبل شفاعة المقر بين عنده في الشيء ، وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل في خلافه ، ولكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرب منه على العدالة . وكل من النوعين محال على الله تعالى ، لأن إرادته تعالى على حسب علمه وعلمه أزل لا يتغير

(قال شيخنا) فما ورد في إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات وفيه يقضى مذهب السلف بالتفويض والتسليم ، وأنها مزية يختص الله بها من يشاء

يوم القيامة عبر عنها بهذه العبارة « الشفاعة » ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة في لسان التخاطب العرفي
 وأما مذهب الخلف في التأويل فلما أن نحمل الشفاعة فيه على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى (١) والأحاديث الواردة في الشفاعة تدل على هذا ففي رواية الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ يسجد يوم القيامة ويثني على الله تعالى بثناء يلهمه يومئذ فيقال له « ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع » وليس في الشفاعة بهذا المعنى أن الله سبحانه يرجع عن إرادته أن أرادها لأجل الشافع وإنما هي إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الإرادة الأزلية عقيب دعائه ، وليس فيها أيضاً ما يقوى غرور المغرورين الذين يتهاونون بأوامر الدين ونواهيها اعتماداً على شفاعة الشافعين ، بل فيه أن الأمر كله لله ، وأنه لا ينفع أحداً في الآخرة إلا طاعته ورضاه (فاتنهم شفاعة الشافعين * فالهم عن التذكرة معرضين ؟) (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)

(٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
 يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

هذه الآية كالتى قبلها واللواتى بعدها تفصيل لنعمة الله على شعب إسرائيل التى ذكرت من قبل مجملية؛ وابتدىء التفصيل بذكر التفضيل لما تقدم من الحكمة فى ذكره، وهو نهوض الهمة إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة والترفع عن الرضا بما دون المقام الذى رفعهم الله إليه ، وتوطين النفس لقبول الموعدة الخ ما تقدم . ثم ذكرهم بما حل بهم من البلاء والعقوبات جزاء على جرائمهم ، وبلطف الله تعالى بهم وإنجائهم من البلاء وتوبته عليهم المرة بعد المرة ليعرفهم مقدار فضله وعقوبته معاً والآية معطوفة على ما قبلها من سلسلة الذكريات فقوله * وإذ نجيناكم من

آل فرعون * عطف تفصيل على الاجمال فى قوله (اذكروا نعمتى) أى نعمى الكثيرة، لأن الفرد المضاف يفيد العموم ، أى واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون

وفرعون لقب لمن تولى ملك مصر قبل البطالسة ، وآله خاصته ، وقد يطلق على قومه قدماء المصريين . ولما كانت النتيجة لا تكون إلا من ظلم أو شربين ما نجح منه بقوله ﴿ يسوءونكم سوء العذاب ﴾ أى يكفونكم ويبنونكم ما يسوءكم ويذلکم

من العذاب ، ثم بين ذلك بقوله ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ أى يقتلون ذكرا نسلکم ويستبقون إناثه أحياء لاضعافكم وإذلالکم المفضى إلى

قطع نسلکم وإبادتکم ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أى وفى ذلكم العذاب وفى النتيجة منه - فى كل منهما - بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم ، كما قال فى آية أخرى (٧ : ١٦٨) وبلو ناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون)

(قال الأستاذ الامام) فى هذه الآية بعد قراءة عبارة الجلال ما مثاله :

خاطب الذين كانوا فى زمن النبي ﷺ بما كان لآبائهم . لأن الانعام على أمة بعنوان أنها أمة كذا ، هو إنعام شامل للأمة من أصابه ذلك الإنعام من أفرادها ومن لم يصبه ، ويصح الامتنان به على اللاحقين منهم والسابقين . كما يصح الفخر به منهم أجمعين ، كما أن الانعام على شخص بشئ . يختص بعضو من أعضائه كلبوس يلبسه ، أو لذيذ طعام يطعمه ، يكون إنعاماً على الشخص ، ولا يقال : إنه إنعام على لسان فلان ولا على رأسه ، أو يده أو رجله ، ولأن ما وصل إلى مجتمع بعنوان ذلك الاجتماع والرابطة التى ربطت أفرادهم بعضهم ببعض يكون له أثر فى مجموع الأفراد ، لا سيما إذا كان الواصل من نعمة أو نعمة مسبباً عن عمل الأمة . شراً أو خيراً ، ويكون لذلك أثر فى الأمة يورثه السلف الخلف ما بقيت الأمة . وأنواع البلاء التى ذكرها اليهود فى القرآن كانت لشعب إسرائيل من حيث هو شعب إسرائيل لأن الجرائم التى كان البلاء عقوبة عليها إنما كانت من مجموع الشعب . من حيث هو شعب إسرائيل ، ثم إن الله تعالى كان يتوب على الشعب بعد كل بلاء ويفيض عليه النعم . فتكون العقوبة تربية وتعلماً تفيد المعتبرين بها نعمة وسعادة .

لا أقول إن هذا الخطاب إيماء أو إشارة للمخاطبين بأن يستحضروا تاريخ أمتهم الماضى ليتذكروا صنع الله تعالى فيهم فيعتبروا بما أصابهم من نعماء وضرأ . وسعادة وشقاء ، ويتفكروا فيما حل بهم من بعدهم ، وما ينتظر أن يحل بهم ، وإنما

الكلام نص صريح لا يحتاج إلى التأويل . فالروابط الاجتماعية بين أفراد الأمم وجماعاتها كالروابط الحيوية بين أعضاء الشخص الواحد بلا فرق . تعثر الرجل فتخدش أو توثأ ، والألم يلم بالشخص كله من حيث هو شخص حي بحياة واحدة تستوى فيها رجله وسائر أعضائه ، ولذلك يسمى بجملته لإزالة ألم الرجل ويتوق أسباب العثار بعد ذلك مستعيناً بكل أعضائه وقواه .

علمنا الله تعالى هذا بما قص علينا من أخبار الأمم . وأنعم على أمتنا - التي لا تختص بشعب ولا جنس - بهذا القرآن الكريم فكان لهم به نعم لا تحصى تعرف من الكتاب والسنة . منها أنهم كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً ومنها أنهم كانوا مستضعفين فمكّن لهم في الأرض وأوزنهم أرض الشعوب القوية وديارهم وجعل لهم السلطان عليهم ، ومنها أنه جعلهم أمة وسطاً لا تفرط عندها ولا إفراط ، ليكونوا شهداء على الناس الذين غلوا وأفرطوا ، والذين قصروا وفرطوا . ثم لما كفرت بأنعم الله أنزل بها ألواناً من البلاء والنقم بعنوان الأمة . فان التتار إنما نكلوا بها وتبروا ما علوا تتيبيراً لأنها الأمة الإسلامية ، ثم زحف عليها الغربيون أيام حروب الصليب وجاسوا خلال الديار . لأنها الأمة الإسلامية ، ثم إن الفتن لا تزال تحل بديارها ، وتنقصها من أطرافها ، وسوط عذاب الله يصب عليها بعنوان الأمة الإسلامية ، وقد مرت عليها قرون وهي لا تعتبر بما مضى ، ولا تترقب بما حضر ، بل جهلت الماضي فخارت في الحاضر ، لا تعرف سببه ولا المخرج منه .

أليس من العجيب أن الجمهور الأعظم من المشتغلين بالعالم منها هم أهلها يتار يخها ، لا يعرفون شيئاً من ماضيها ولا حاضرها ؟ ولكنهم يعترفون بأن الأمة في بلاء كبير ، ويعتذرون بالقضاء والقدر عن معرفة الأسباب ، ويكونون إلى القضاء والقدر النجاة منه أو البقاء فيه .

إن هذه الأمة أمة واحدة وإن اختلفت ديارها وتعددت أجناسها ، ولا يمكن أن تعرف حقيقتها إلا بعد معرفة تاريخها الماضي ، فلا بد من تتبع السواقي والجداول إلى ينبوع الأول الذي هو الأصل .

كان سلفنا رضى الله تعالى عنهم يضبطون أحوال من قبلهم من أمور الدين والدنيا

بكل اعتناء ودقه، حتى كانوا يروون البيت من الشعر أو النكتة بين العاشق ومعشوقته بالأسانيد المتصلة ، وليست هذه المبالغة مما يؤخذ عليهم فإن الأمة إنما تكون أمة بدينها ولغتها وأخلاقها وعاداتها ، فإذا لم يحفظ خلفها عن سلفها هذه المقومات (١) يحفظ تاريخها تكون عرضة للتغير بتأثير حوادث الزمان وتقلبات شئون الاجتماع مع جهل المتأخر بما كان عليه المتقدم وبكيفية حدوث التغيير الضار للجهل بالتاريخ. بهذا تفعل فواعل السكون بالأمة الجاهلة أفاعيلها حتى تقلب كيانها ، وتقوض بنيانها ، وتقطع عرى الربط العامة بين أفرادها، فلا يكون لهم عمل إلا المصلحة الشخصية، وهي لا حفاظ لها في مجموع الأمة إلا بالمصلحة العامة، فإذا أهملت تكون الأمة من الهالكين .

عنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة فلم تكنف بضبط الوقائع وتلقبها بالرواية كالسنة النبوية ، بل تفننت فيها فصنفت في تاريخ الأشخاص كما صنفت في تاريخ البلاد والشعوب، ثم نوعت تاريخ الأشخاص فجعلت لكل طبقة تاريخاً فترى في المكاتب طبقات المفسرين وطبقات المحدثين وطبقات النحويين وطبقات الأطباء وطبقات الشعراء إلى غير ذلك. ثم اهتدى بعضهم إلى استنباط قواعد العمران وأصول الاجتماع من التاريخ فصنف ابن خلدون في ذلك مقدمة تاريخه . ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد لكننا أتعنا ما بدأ به سلفنا ولكننا تركناه وسبقنا غيرنا إلى إتمامه واستمراره. فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هي فيه من سعة العمران ، وعزة السلطان ، وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم منه، وكان الاعتقاد بوجود حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلى ذلك . فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة أهمل التاريخ بل صار ممقوتاً عند أكثر المشتغلين بعلم الدين ، فإن وجد من يلتفت إليه فإتباعاً يكون متبعاً في ذلك سنة قوم آخرين،

(١) المراد بالمقومات: ما به قوام الأمة من صفاتها التي تفصلها عن غيرها كمقومات الفضول لأنواع الجنس في اصلاح المنطق ، وقد سبقت الى استعمال هذا الاصطلاح في شئون الأمم هنا وفي المنار فيما أعلم ثم استعمله الكتاب

نكتفى الآن بهذا التنبيه ونعود إلى إتمام تفسير الآية التي صرفنا إليه بمخاطبة بنى إسرائيل في زمن تنزيل القرآن بما كان من تعذيب آل فرعون لسلفهم وانعام الله عليهم بالإنجاء من ذلك العذاب.

أول من دخل مصر من بنى إسرائيل هو يوسف عليه السلام وانضم إليه بعد ذلك إخوته ونما نسله ونسلهم فيها وكثر، حتى قيل: إنهم كانوا يوم خرجوا من مصر ستمائة ألف وهذا النمو كان في مدة أربعمائة سنة. وكان المصريون من آل فرعون لا يحبون مساكنة الغرباء ^(١) فلما رأى فرعون نمو شعب إسرائيل خاف مغية الأمر، لأنه كان يعلم أنهم إذا كثروا يتبسطون في الأرض ويتراحون المصريين فطفق يستذلهم ويكلفهم الأعمال الشاقة، كصنع الطوب لبناء الهياكل والبرابي لعله بأن الذل يقلل النسل ويفضي بالأمة إلى الانقراض، ولكنهم ظلوا مع الاستدلال يتناسلون ويكثرون. فلما رآهم الحكام المصريون يزدادون نسلا، وأنهم مع هذا محافظون على عاداتهم وتقاليدهم ولا يعارجون المصريين وعندهم الأثرة والإباء لا اعتقادهم أنهم شعب الله وأفضل خلقه، خافوا أن يقووا بالكثرة فيعدوا عليهم ويغلبوهم على بلادهم كلها أو بعضها، وإنما كانوا يزدادون على الذل نسلا لأن الذل لا يؤثر إلا في الزمن الطويل، ذلك بأن الدليل الذي لا تطلق إرادته في أعماله هو

(١) يوجد في المصريين الآن من يكتب ويخطب لأحياء سنة آل فرعون ببغض المهاجرين إلى مصر ويبغض فيهم وإن كانوا على لغته ومن أتباع حكومته العثمانية، وكذا من أهل الدين الذي ينتمى إليه. ويوجد شذوذة من المصريين تاغظ بلفظ المصريين والدخلاء، اتخذوا بالدعوة إلى السنة الفرعونية التي تبطل إذا نجحت «ولن تنجح» سنة القرآن الذي أرشد إلى أن الله جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا ويتآزروا، وجعل أكرمهم ألقابهم وأنفعهم لعباده، وقد اهتدى فلاسفة أوروبا إلى أن هذه السنة غاية كمال البشر اه من حاشية المنار سنة ١٣٢٠ وأقول الآن عند طبع هذا مستقلا في أوائل سنة ١٣٤٦: إن تلك النزعة قد قويت ووجد من القبط ورتادقة المسلمين من يحملون الجنسية المصرية فوق الاسلام ومنهم من يدعون إلى التقصى من الدين والجنسية العربية وإلى استبدال التفرنج بهما كما فعل الكيليون في الترك.

بمنزلة الشخص الذي يضعف عن تناول الغذاء الذي يمد حياته فهو يذبل ويبدأ رويدا حتى ينحل ويموت . والقوة المعنوية التي تحفظ حياة الأمم هي قوة الأرواح والارادات ، لأن الجسم محمول بالروح . والعمل النافع إنما يكون بالإرادة فتي خذلت النفوس بالتسلط على إرادتها تبهما الجسم فيضعف بضعفها . والضعيف يأتي بفتاح ضعيف ويكون نسل نتاجه أضعف من نسله ، ويتسلل هكذا حتى يكون من لوازم ضعف النسل إسراع الموت إلى صغاره قبل بلوغ سن الرشد . وبهذا ينقرض النسل ، كما حصل لهنود أمريكا وسكان شمالي أستراليا .

استبطناً المصريين أثر الاستدلال في الإسرائيليين فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرائهم واستحياء إناثهم فأمر فرعون القوابل بأن يقتلن كل ذكر لبني إسرائيل عند ولادته؛ لأن من سنة الله في الخلق أن قوام الشعوب والقبائل وحفظ الأجناس إنما يكون بالذكر . وقال مفسرنا (الجلال) تبعا لغيره إن سبب العذاب وتقتيل الأبناء دون البنات هو أن بعض الكهنة أخبر فرعون بأن سيولد من بني اسرائيل ولد ينزع منه ملكه ويكون على يديه هلكه (قال الأستاذ الإمام) وليس لهذا القول سند صحيح ولا يعرف في التاريخ ، وما قلناه هو الذي يعرفه بنو اسرائيل ويتناقلونه في كتبهم المعروفة بالقدسة وغير المقدسة وهو المعقول في نفسه أيضا

(٥٠) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥١) وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ
الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥٢) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
لَكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٣) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ
كَلِمَاتٍ مَهْتَدُونَ

جاء في الآية السابقة ذكر تنجية بني اسرائيل من آل فرعون ، وهو على

كونه تفصيلاً لما قبله من حيث التذكير بالنعم ، مجمل من حيث الانجاء ، فانه يشمل النجاة بجميع أنواعها من ذلك العذاب . وذكر في هذه الآية نعمته في طريق الانجاء بالتفصيل بعد الإجمال لبيان عناية الله تعالى بهم فيها ، إذ جعل وسيلته من خوارق العادات ؛ وجعل في طريقه هلاك عدوم . وقد يقال : إن هذه نعمة مستقلة من نعمه تعالى عليهم ، لا أنها بيان الإجمال في التي قبلها .

لما أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه يدعوهم إلى توحيد الله وإلى أن يخلى بينه وبين شعب إسرائيل بعد إطلاقهم من ذلك الاستعباد والتعذيب لم يزد فرعون إلا تعديداً وتعبيداً . وفي سفر الخروج من تاريخ التوراة أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه يقسى قلب فرعون فلا يخفف العذاب عن بني إسرائيل ولا يرسلهم مع موسى حتى يزيه آياته . وأنه بعد الدعوة زاد ظلماً وعتواً فأمر الذين كانوا يسخرون بني إسرائيل في الأعمال الشاقة بأن يزيدوا في القسوة عليهم وأن يمنوهم التبن الذي كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) ويكلفهم أن يجمعوها للتبن ويعملوا كل ما كانوا يعملونه من اللبن لا يخفف عنهم منه شيء . فأعطى الله تعالى موسى وأخاه هارون الآيات البينات ، فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون علمهم أن ما جاء به ليس من السحر وإنما هو تأييد من الله تعالى ورأى مارأى بعد ذلك من آيات الله لموسى سمح بخروج بني إسرائيل بل طردهم طرداً ، وفي سفر الخروج أنهم خرجوا في شهر أبيب وكانت إقامتهم في مصر ٤٣٠ سنة . ثم أتبعهم فرعون بجنوده فغشهم من اليم ماغشهم وأنجى الله بني إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه ، وذلك قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾ أي واذكروا من نعمنا عليكم إذ فرقنا بكم البحر فجعلنا لكم فيه طريقاً يبساً سلكتموه في هر بكم من فرعون ﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾ بعبوره من جانب إلى آخر ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ إذ عبروا واوراءكم ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ذلك بأعينكم ، ولولاه لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه .

(قال الأستاذ الإمام) فلق البحر كان من معجزات موسى . وقد قلنا في رسالة التوحيد : إن الخوارق الجائرة عقلا أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا

ارتفاعها لامانع من وقوعها بقدره الله تعالى على يد نبي من الانبياء ، ويجب أن تؤمن بها على ظاهرها ، ولا يمنعنا هذا الايمان من الاهتداء بسنن الله تعالى في الخلق واعتقاد أنها لا تتبدل ولا تتحول ، كما قال الله في كتابه الذي ختم به الوحي ، على لسان نبيه الذي ختم به النبيين ، فانتهى بذلك زمن المعجزات ، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد ، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الايمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال ، كما كان في سن الطفولية (النوعية) بل أرشد تعالى بالوحي الأخير (القرآن) إلى استعمال عقله في تحصيل الايمان بالله وبالوحي ، ثم جعل له كل ارشادات الوحي مبينة معللة مدللة حتى في مقام الأدب (كما أوضحنا ذلك في رسالة التوحيد) فإيماننا بما أيد الله تعالى به الانبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان ، لا ينافي كون ديننا هودين العقل والفطرة وكونه ختم علينا الايمان بما يشهد له العيان ، من أن سننه تعالى في الخلق لا تتبدل لها ولا تحوّل .

(أقول) وجملة القول أن الذي يمنعه العقل هو وقوع المحال ، فلا يمكن أن يؤيد نبي بما هو مستحيل عقلا ، لأن المستحيل هو الذي لا يمكن وقوعه وما وقع لا يكون مستحيلا . ولذلك سمي المتكلمون المعجزات « خوارق العادات » ومنهم من يقول : إن لها أسبابا خفية روحية لم يطعم الله الامم عليها ولكنه خص بها الانبياء عليهم السلام . والمشهور : أن الله يخلقها بغير سبب لتدل على أن السنن والنواميس لا تحكم على واضعها ومدبرها ، وإنما هو الحاكم المتصرف بها ، وإنما كان هذا هو المشهور لأنه الظاهر ، والافن ذا الذي يستطيع أن ينفي ذلك النفي المطلق عن عالم الغيب ؟ وقد ذكر القولين الإمام الغزالي وأشار إليهما الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد (قال) وزعم الذين لا يحبون المعجزات من المشهورين أن عبور بنى إسرائيل البحر كان في إبان الجزر ، فإن في البحر الأحمر رقائق إذا كان الجزر الذي عهد هناك شديدا يتيسر للانسان أن يعبر ماشيا ولما اتبعهم فرعون بجنوده ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم وكان المد تفيض نوابه (وهي المياه التي تجيء عقيب الجزر) فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد طغى وعلاحق أغرق المصريين ، تحقق إنعام

الله على بني إسرائيل يتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم ولا ينافي الامتنان به عليهم كونه ليس آية لموسى عليه السلام، فان نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر - كذا قالوا ، قال شيخنا: ولكن يدل على كونه آية له وصف كل فرق منه بالطود العظيم . وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن فإنه يتمسّر تأويل قوله تعالى في سورة الشعراء (فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم) وهو الموافق لما في التوراة . ا هـ

ويقول المؤلفون إنهم لما عبروا انفرق بهم وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض قد جعلوا ذلك الماء الرقارق فرقين عظيمين ممتدين كالطودين وأن هذه الآية تشعر بذلك، فإنه يقول (وإذا فرقنا بكم البحر) ولم يقل : فرقنا لكم البحر : والظاهر أن الباء هنا للآلة، كما تقول قطعت بالسكين : وأما قوله تعالى (٦٣: ٢٦) وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) فإنه لا ينافي أن الانفلاق كان بهم كما في آية البقرة لا بالعصا ، وذلك أن الذي أوحاه الله تعالى إلى موسى هو أن يخوض البحر ببني إسرائيل وقد عهد أن من كان بيده عصا إذا أراد الخوض في ماء كترعة أو نهر فإنه يضرب الماء أولا بعصاه ثم يمشي ، فهذه الآية معبرة عن هذا المعنى أي ألهمه الله عند ما وصل إلى البحر أن يضرب به بعصاه ويمشي ففعل ومشى وراءه بنو إسرائيل بجمعهم الكبير، فانفلق بهم البحر . وأما قوله تعالى (فكان كل فرق كالطود العظيم) فهو تشبيه معهود مثله في مقام المبالغة ، كقوله تعالى (٤٢: ١١) وهي تجرى بهم في موج كالجبال) وقوله (٤٢: ٣٢) ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام) فالأمواج والسفن الجوارى لا تكون كالجبال الشاهقة ، والأعلام الباسقة ، وإنما تقضى البلاغة بمثل هذا التعبير ، لكمال التصوير وإرادة التأثير هنا ما ينتهى إليه تأويل المؤلفين ولم يبسطه الاستاذ الإمام في الدرر ، وإنما قرر أن فرق البحر كان معجزة لموسى عليه السلام، وحكى عن المتهورين من الذين لا يحبون المعجزات خلافه ، وهو أنهم يزعمون أن عبور البحر كان في وقت الجزر وإنما بسطنا تأويلهم لثلاثتهم هو أننا لم نقل به لأننا لم نبتد لتوجيهه مثلهم ، ولا يهجمنا أن ننازعهم في تأويل آية بخصوصها إذا علمنا أنهم يثبتون الآيات الكونية تأييداً

للانبياء عليهم الصلاة والسلام : فاذا كانوا ينفونها كلها فالأولى لهم أن لا يتعبدوا .
 في تأويل جزئياتها ، فان منها ما لا يقبل التأويل بحال من الأحوال ، وحينئذ يكون
 الكلام بيننا وبينهم لاثباتها أولاً في قدرة الله وإرادته ، ثم في إثبات أصل الوحي
 وإرسال الرسل . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . ولنا أن نقول هنا :
 إن الباء في قوله « بكم » سببية أو للملابسة لا للآلة ، وقد أشار البيضاوي إلى ذلك
 كله بقوله : فلقتناه وفضلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت فيه مسالك لسواكم فيه
 أو بسبب إنجائكم أو متلبساً بكم . وأزيد الآن : أني رأيت بعد كتابة ماتقدم
 يوضع سنين جزءاً من تفسير الاصبهاني في خزانة كتب كوبرلي باشا في الأستانة
 فراجعت تفسير هذه الآية فيه فألفيته يذكر في الباء الوجهين ، أي إن فرق البحر
 حصل بهم ، أي بنفس عبورهم أو بسببهم . ومثله قول البغوي : قيل معناه فرقناه
 لكم ، وقيل : فرقنا البحر بدخولكم إياه

قال الاستاذ الامام بعد أن قرر نعمة الانجاء من استعباد الظالمين ، والبعث من
 فتنه القوم الضالين : ذكر النعمة التي وليتها ، وذكرهم بما كان من كفرهم إياها ، فقال
 ﴿ وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وقد كانت هذه المواعدة لاعطائه التوراة . ولما
 ذهب لميثاق ربه استبسطوه فالتجذوا عجلوا من ذهب فعبدوه كاهو مفصل في غير هذه
 السورة ، وسبأني هناك تفسيره ان شاء الله تعالى) والمراد هنا التذكير بالنعمة
 وبيان كفرها ، ليظهر أن تكذيبهم بمحمد ﷺ ومعاندته ليس ببدع من أمرهم ،
 وإنما هو معبود منهم مع رؤية الآيات وبعد اغداق النعم عليهم ، ولذلك اكتفى
 بالإشارة إليه بقوله ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي اتخذتموه إلهاً
 ومعبوداً ، أو بعد أن ذكرهم بذلك الظلم ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة ثم بالعفو
 الذي هو جزاء التوبة فقال ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
 هذه النعمة بدوام التوحيد والطاعة

ثم قفي على هذا بذكر إيتائهم الكتاب وهو المنة الكبرى فقال ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا
 مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ قال المفسر « ابلال » كغيره : إن

الفرقان هو التوراة وقال بعض المفسرين: إن الفرقان هو ما أوتيته موسى من الآيات والمعجزات . وقال الاستاذ الامام بعد حكاية القولين : ولكن ذكره بعد الكتاب معطوفاً عليه دليل على أن المراد به ما في الكتاب من الشرائع والاحكام المفترقة بين الحق والباطل والحلال والحرام ، ومعنى قوله ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أى ليعيدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ويعيدكم بهذه الاحكام والشرائع للاهتمام وتهيئكم للاسترشاد فلا تقعوا في وثنية أخرى ، وإن من كمال الاستعداد للهداية بفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد ﷺ هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذى تفرقوا عنه واختلفوا فيه ، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون ، وجاحده الرؤساء المستكبرون ، والمقلدون الذين لا يعقلون

(٥٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنِّكُم مِّنكُمْ أَنْفُسِكُمْ يَاتِّخِذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٥) وَإِذْ قَلَّمَ بِمُوسَىٰ لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٦) ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٧) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ : كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

في هذه الآيات ضرب من ضروب التذكير غير ماسبقه ، ومن البلاغة والحكمة أن يجيء تالياله ومتأخراً عنه : مهد أولاً للتذكير تمهيداً يسترعى السمع ، ويوجه الفكر ويستميل القلب ، وهو الابتداء بذكر النعمة مجملة والتفضيل على العالمين ولا يرتاح الانسان لحديث كحديث مناقب قومه ومفاخرهم - ثم طفق بفصل النعمة ويشرحها ، فبدأ بذكر فرد من أفرادها لا يفتن به ذكر سيئة من سيئاتهم وهو تنجيهم من ظلم آل فرعون ، ولكن ذكر معه أكبر ضروب ذلك الظلم وهو قتل

الأبناء - : يحفض من عتو تلك النفوس المعجبة المتكبرة التي تعتقد أن الله لا يسود عليهم شعباً آخر ، وهو مع هذا لا ينفرد بها عن الاصغاء والتدبر ، لأنه لم يفاجئها بشيء فيه نسبة التقصير وعمل السوء إليها . ثم ثنى بذكر نعمة خاصة خالصة تسكن النفس إلى ذكرها ، إذ لا يشوب الفخر بها تنغيص من تذكر غضاضة متصل بواقعها ، وهي فرق البحر بهم ، وانجائهم ، واغراق عدوهم .

لا جرم أن نفوس الاسرائيليين كانت تهتز وتأخذها الأريحية عندما تلا عليهم النبي ﷺ هذه الآية لما فيها من الشهادة بعناية الله تعالى بهم ، ولا سيما إذا قارنوا بين هذا التذكير وبين تذكير مشركي العرب بتلك القوارع الشديدة ، لم يتركها بعد هذه الهزة تجمجح في عجبها وفخرها ، وتنادى في إياها وزهوها ، بل عقب عليها فذكر بعد هذه النعمة سيئة لهم هي كبرى السيئات التي ظلموا بها أنفسهم وكفروا نعمة ربهم وهي اتخاذ العجل إلهاً ، وقدم على ذكرها خبر مواعدة موسى وهي من النعم ، وختمها بذكر العفو ، ثم قفى عليها بذكر نعمة إيتائهم الكتاب والفرقان وهذا ما يجعل أنفس السامعين الواعين قلقة يتنازعها شعور اعتراف المذكر الواعظ لها بالشرف ، وشعور رميه إياها بالظلم والسرف .

بعد هذا كله استعدت تلك النفوس لأن تسمع آيات مبدوءة بذكر سيئاتها من غير تهديد ولا توطئة ، فانتقل الكلام إلى هذا الضرب من التذكير مبدوء بقوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ أي واذكر أيها الرسول فيما تلقية على بني اسرائيل وغيرهم إذ قال موسى لقومه الذين أخذوا من حلبيهم عجلاً عبده إذ كان يناجى ربه في الميقاتين الزماني والمكاني ﴿ يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باخذكم العجل إلهاً عبدهم . والقصة مفصلة في سورتي الأعراف وطه المكييتين لأن قصة موسى فيهما مقصودة بالذات ، وأما ما هنا فهو تذكير لبني اسرائيل بما تقدم وجهه في سياق دعوتهم إلى الإسلام ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا انفسكم ﴾ أي فتوبوا إلى خالقكم الذي لا يجوز أن تعبدوا معه إلهاً آخر هو أدنى منكم ، وهو من خلقكم : أي تقديركم وضمنكم ، وذلك بأن يقتل بعضهم بعضاً ، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه ، ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليمنع كل من عبد العجل نفسه انتحارا .

تكلم الأستاذ الامام في التوبة وقال : إنها محو أثر الرغبة في الذنب من لوح القلب ، والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة من عصاه وما له من السلطان عليه في الحال ، وكون مضيره إليه في المآل ، لاجرم أن الشعور بهذا السلطان الالهى بعد مقارفة الذنب يبعث في قلب المؤمن الهيبة والخشية ويحدث في روحه انفعالا مما فعل ونفعا على صدره عنه ، ويزيد هذا الحال في النفس تذكر الوعيد على ذلك الذنب ، وما رتبته الله عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة . هذا أثر التوبة في النفس ، وهذا الأثر يزعمج التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذى تاب منه وتمحو أثره السيئ (١١ : ١١٤ إن الحسنات يذهبن السيئات) فمن علامة التوبة النصح : الإتيان بأعمال تشق على النفس وما كانت لتأنيها لولا ذلك الشعور الذى يحدثه الذنب . وهذه العلامة لا تتخلف عن التوبة سواء كان الذنب مع الله تعالى أو مع الناس . ألا ترى أن أهون ما يكون من إنسان يذنب مع آخر يباهى به أن يجنى ، معتزفا بالذنب معتدراً عنه ؟ وهذا ذل يشق على النفس لا محالة ، وقد أمر بنو اسرائيل بأشق الأعمال في تحقيق التوبة من أكبر الذنوب ، وهو الرغبة عن عبادة من خلقهم وبرأهم إلى عبادة ما عملوا بأيديهم وقد قال (فتوبوا إلى بارئكم) لينبهم إلى أن الاله الحقيقي هو الخالق البارئ . ليتضمن الأمر الاحتجاج عليهم والبرهان على جهلهم . ذلك العمل الذى أمرهم به موسى هو قتل أنفسهم . والقصة في التوراة التى بين أيديهم إلى اليوم : دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب ، فأجابته بنو لاوى فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً ففعلوا ، وقتل في ذلك اليوم « نحو ثلاثة آلاف » وقال مفسرنا (الجلال) كغيره إن الذين قتلوا سبعون ألفاً والقرآن لم يعين العدد ، والعبرة المقصودة من القصة لا تتوقف على تعيينه فتمسك عنه . كذا قال الأستاذ الامام ، وهذا مذهبه في جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعى لا يتعمده ، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواء

قال تعالى ﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ لأنه يطهركم من رجس الشرك الذى دنستم به أنفسكم ويجعلكم أهلاً لما وعدكم به في الدنيا ولثوبته في الآخرة

وقوله ﴿فتاب عليكم﴾ من كلام الله تعالى لانتمة الكلام موسى عليه السلام في الظاهر وهو معطوف على المحذوف تقديره ففعلتم ما أمركم موسى به فتاب عليكم ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ أى إنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها منهم ، وإن تعددت قبلها جرائمهم ، الرحيم بهم ، ولولا رحمته لعجل باهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى ولا سيما الشرك به .

﴿وإذ قلتم يا موسى إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ أى واذا كروا إذ قلتم انبيئكم يا موسى ان نصدق بما جئت به تصديق إذعان واتباع حتى نرى الله عيانا جهرة فيأمرنا بالإيمان لك ﴿فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ أى فأخذت القائمين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم . وسأنى بيان هذا بالتفصيل في سورة الأعراف ، فالقصة هنالك مقصودة بكل ما فيها من فائدة وعبرة ، وإنما المراد بها هنا التذكير كما تقدم .

قال الأستاذ الإمام : سؤال بنى اسرائيل رؤية الله تعالى واقعة مستقلة لاتصل بمسألة عبادة العجل وهي معروفة عند بنى اسرائيل ومنصوصة في كتابهم وذلك أن طائفة منهم قالوا لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله تعالى من دوننا . وانتشر هذا القول في بنى اسرائيل ونجراً جماعة منهم بعد موت هارون وهاجوا على موسى وبنى هارون وقالوا لهم إن نعمة الله على شعب اسرائيل هي لأجل ابراهيم واسحاق فتشمل جميع الشعب ، وقالوا لموسى لست أفضل منا فلا يحق لك أن ترفع وتسود علينا بلا مزية ، وأتينا لنؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين ، وهذه النار هي المعبر عنها هنا بالصاعقة ، وهل نمة من نار غير الاشتعال بالكهرباء وهو ما أحدثته الصاعقة التي تحدث الانشقاق في الأرض أيضاً ؟ وقد أخذ هذا العذاب تلك الطائفة والآخرين ينظرون ، وهكذا كان بنو اسرائيل يتمردون ويعاندون موسى عليه السلام وكان سوط عذاب الله

يصب عليهم، فرموا بالأمراض والأوبئة وسلطت عليهم الهوام وغيرها حتى أماتت منهم خلقا كثيرا . فجاهدتهم ومعاندهم للنبي ﷺ لم تكن بدعا من أعمالهم قال تعالى ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ ذهب الأستاذ الإمام إلى أن المراد بالبعث هو كثرة النسل أى أنه بعد ما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها وظن أن سيدنا قزوين بارك الله في نسلهم ليعمد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها .

والعبرة الاجتماعية في الآيات أن الخطاب في كل ما تقدم كان موجها إلى الذين كانوا في عصر التنزيل ، وأن الكلام عن الأبناء والآباء واحد لم تختلف فيه الضمائر حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار والشكر ، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة واعتبار أن كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم إنما يكون لمعنى موجود فيها يصحح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع به ، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاؤه بشقاؤهم ، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة وإن لم يواقعها هو (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقبها لأنه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين .

بعد هذا ذكر الله تعالى نعمة أخرى بل نعمتين من النعم التي من بها على بني إسرائيل فكفروا بها ولسكنه لم يذكر ما كان به الكفران ، بل طواه وأشار إليه بما ختم به الآية من أنهم لم يظلموا الله تعالى بذلك الذنب المطوى وإنما ظلموا أنفسهم ، وهذا أسلوب آخر من أساليب البيان في التذكير وضرب من ضرب الإيجاز التي هي أقوى دعائم الإعجاز .

أما النعمة الأولى فقوله تعالى ﴿ وظلنا عليكم الغمام ﴾ قال الأستاذ الإمام : هذه نعمة مستقلة متصلة بما قبلها في سياق الذكرى ، منفصلة عنها في الوقوع ، فإن التظليل استمر إلى دخولهم أرض الميعاد ، ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يظلمهم في

التيه لسفعتهم الشمس ولفحت وجوههم . وقال لا معنى لوصف الغمام بالريق كالمفسر (الجلال) وغيره ، بل السياق يقتضى كثافته إذ لا يحصل الظل الظليل الذى يفيد حرق التظليل ، إلا بسحاب كثيف يمنع حر الشمس ووجهها . وكذلك لا تتم النعمة التى بها المنة إلا بالكثيف وهو المنقول المعروف عند الإسرائيليين أنفسهم وأما النعمة الثانية فى قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴾ ما منح من الله تعالى يسمى إيجاده إنزالاً ومنه (وأنزلنا الحديد) على أن المن ينزل كالندى وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر مائة ثم تجمد وتجمد فيجمعها الناس ، ومنها الترنجيبين وبه فسر المن مفسرنا وغيره . وأما السلوى فقد فسروها بالسمانى وهو الطائر المعروف فمعنى النزول يصح فيه على حقيقته أيضا . وظاهر أن قوله تعالى ﴿ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ مقدر فيه القول . وفى (سفر الخروج) أن بنى إسرائيل أكلوا المن أربعين سنة وأن طعمه كالرقيق بالعسل ، وكان لهم بدلا من الخبز وليس المراد أنه لم يكن لهم أكل سواه إلا السلوى فقد كان معهم المواشى ولكنهم كانوا محرومين من النباتات والبقول كما يعلم مما يأتي وفى قوله تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ تقرير لقاعدة مهمة وهى أن كل ما يطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته ، وكل ما ينهاه عنه فإنما يقصد به دفع الضرر عنه ، ولن يبلغ أحد نفع الله فينفعه ، ولن يبلغ أحد ضرره فيضره ، كما ثبت فى الحديث القدسى . فكل عمل ابن آدم له أو عليه (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)

(٥٨) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٩) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

المراد بالقرية المدينة ، وهى فى الأصل اسم لمجتمع الناس ومسكن النمل الذى يبنيه وما داتها تدل على الاجتماع ، ومنها قرى الماء فى الحوض إذا جمته وأطلقت

على الأمة نفسها؛ ثم غلب استعمالها في البلاد الصغيرة ولا يصح هنا فإن الرغد لا يتيسر للإنسان كما يشاء إلا في المدن الواسعة الحضارة، (قال شيخنا) ونسكت عن تعيين القرية كما نسكت القرآن فقد أمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله خاضعين لأمره مستشعرين بعظمته وجلاله ونعمه وإفضاله وهو معنى السجود وروحه المراد هنا .

وأما صورة السجود من وضع الجباه على الأرض فلا يصح أن تكون مرادة لأنها سكون والدخول حركة. وهما لا يجتمعان. والمراد بالحطة الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر النعم. وتبديل القول بغيره عبارة عن المخالفة كأن الذي يؤمر بالشيء فيخالف قد أنكر أنه أمر به وادعى أنه أمر بخلافه. يقال بدلت قولاً غير الذي قيل. أي جئت بذلك القول مكان القول الأول.

وهذا التعبير أدل على المخالفة والعصيان من كل تعبير خلافاً لما يتراءى لغير البليغ من أن الظاهر أن يقال. بدلوا القول بغيره دون أن يقال. غير الذي قيل لهم، فإن محالات أمر سيده قد يخالفه على سبيل التأويل مع الاعتراف به، فكأنه يقول في الآية إنهم خالفوا الأمر خلافاً لا يقبل التأويل، حتى كأنه قيل لهم غير الذي قيل. وليس المعنى أنهم أمروا بحركة يأتونها، وكلمة يقولونها، وتعبدوا بذلك وجعل سبباً لغفران الخطايا عنهم فقالوا غيره وخالفوا الأمر، وكانوا من الفاسقين. وأي شيء أسهل على المكلف من الكلام يحرك به لسانه، وقد اخترع أهل الأديان من ذلك ما لم يكلفوا قوله لسهولة القول على ألسنتهم، فكيف يقال أمر هؤلاء بكلمة يقولونها فمضوا بتركها؟ إنما يعصى العاصي إذا كلف ما يشق على نفسه ويحملها على غير ما اعتادت، وأشق التكليف حمل العقول على أن تفكر في غير ما عرفت، وحث النفوس على أن تتكيف بغير ما تكيفت.

وذهب المفسر (الجلال) إلى ترجيح اللفظ على المعنى والصورة على الروح ففسر السجود ككثير من غيره بالانحناء، وقال إنهم أمروا بأن يقولوا (حطة) فدخلوا زحفاً على أستاذهم وقالوا: حبة في شعيرة: أي أننا نحتاج إلى الأكل. ومنشأ هذه الأقوال الروايات الإسرائيلية لليهود في هذا المقام كلام كثير

وتأويلات خدع بها المفسرون ولا نخبز خشوها في تفسير كلام الله تعالى
وأقول إن ما اختاره الجلال مروى في الصحيح ولكنه لا يخلو من علة اسرائيلية
وسندين ذلك في تفسير المسألة من سورة الأعراف مع المقابلة بين العبارات
المتخلفة في السورتين وبيان وجوهها ، وتحقيق معاني ألفاظها

ويبدل قوله تعالى ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ على أن هذا
العصيان لم يكن من كل بنى إسرائيل ، وأن هذا الرجز كان خاصاً بالظالمين منهم
الذين فسقوا عن الأمر ولم يمتثلوه . وقد أكد هذا المعنى أشد التأكيد بوضع المظهر
موضع المضمرة فقال (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) ولم يقل فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ : ولعل وجه
الحاجة إلى التأكيد الاحتراس من إيهام كون الرجز كان عاما كما هو الغالب فيه ،
ثم أكد بتأكيده آخر وهو قوله ﴿ بَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وفي هذا الضرب من المقابلة
من تعظيم شأن الحسينين ما فيه

وأقول الآن : القاعدة أن ترتيب الحكم على المشتق يدل على أن مصدره علة
له كقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) فالسرقة علة للقطع . والموصول مع
صلته هنا كذلك ، والمعنى (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ) بسبب
ظلمهم ، ثم أكد هذا السبب الخاص العارض المعبر عنه بالفعل الماضي ببيان سبب
عام يشمله ويشمل غيره هم يفعلونه دائما وهو قوله (بَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) أى بسبب
تكرار الفسوق والعصيان منهم واستمرارهم عليه الذى كان هذا الظلم منه

(قال الأستاذ) ونسكت عن تعيين نوع ذلك الرجز كما هو شأننا في كل
ما أيهه القرآن . وقال المفسر وغيره إنه الطاعون ، واحتج بعضهم عليه بقوله
تعالى (من السماء) وهو كما تراه . والرجز هو العذاب وكل نوع منه رجز . وقد
ابتلى الله بنى إسرائيل بالطاعون غير مرة ، وابتلاهم بضروب أخرى من النقم في
إثر كل ضرب من ضروب ظلمهم وفسوقهم ، ومن أشد ذلك تسليط الأمم عليهم ،
وحسبنا ما جاء في القرآن عبرة وتبصرة فنعين ما عينه ، ونبين ما أيهه (والله
يعلم وأنتم لا تعلمون)

(٦٠) وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ : كَلُوا
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

هذا بيان لحال آخر من أحوال بني إسرائيل في هجرتهم وعناية الله تعالى بهم فيها . أصابهم الظأ فعادوا على موسى باللائمة أن أخرجهم من أرض مصر الخصبه المتدفقة بالأمواه ، وكانوا عند كل ضيق يمتنون عليه أن خرجوا معه من مصر ويجهرون بالندم . فاستغاث موسى بربه واستسقاها لقومه كما قصه الله تعالى علينا بقوله ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ أي طلب السقيا لهم من الله تعالى ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ قال الأستاذ الامام : أمره أن يضرب بعصاه حجراً من حجارة تلك الصحراء بتلك العصا التي ضرب بها البحر فضر به ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ﴾ بعدد أسباطهم وذلك قوله عز وجل ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ (قال) وكون هذا الحجر هو الذي روى أنه تدحرج بشوب موسى يوم كان يقتسل كما قال المفسر (الجلال) لا دليل عليه ، وقصة الثوب ليست في القرآن فيحمل تعريف الحجر على أنه المعهود في القصة ، وإنما يفهم التعريف أن الحجر الذي ضرب فتفجرت منه المياه حجر مخصوص له صفات تميزه عندهم ككونه صلباً أو عظيماً تتسع مساحته لتلك العيون ويصلح أن تكون منه موارد لتلك الأمم [أو كونه يقع تحت أعينهم منفرداً عن غيره ليس في محلهم سواء ، وقد يكون التعريف للدلالة على الجنس ليفيدنا بعد المرغوب عن تناول ، وعظمة القدرة الإلهية وأثرها الجليل في تربيته وتحصيله] وعبر عنه في سفر الخروج بالصخرة : ولو علم الله تعالى أن لنا فائدة في أكثر مما دل عليه هذا الخطاب من التعمين لما تركه ثم أراد أن يصور حال بني إسرائيل في هذه النعمة واعتباطهم بما منحهم من العيش الرغد في مهاجرهم فقال ﴿ كَلُوا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ﴾ فمعب عن الحال الماضية

بالامر ليستحضر سامع الخطاب أولئك القوم في ذهنه ويتصور اغتباطهم بما هم فيه حتى كأنهم حاضرون الآن والخطاب يوجه اليهم . وهذا ضرب من ضرب إيجاز القرآن التي لا تجارى ولا تمارى ثم قال ﴿ ولا تعشوا في الأرض مفسدين ﴾ أى لا تنشروا فسادكم في الأرض وتكونوا في الشرور قدوة سيئة للناس . يقال عشا إذا نشر الشر والفساد وأما الخبيث فهو أخص من مطلق الإفساد ولذلك مع كون « مفسدين » حالا من ضمير « تعشوا »

قال الأستاذ الإمام : إن كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية فذكر هنا بعد تلك الوقائع . والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مراراً في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن . وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها وإنما المراد بها الاعتبار والعظة وبيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها . وبيان النقم بعلمها لتتقى من جهتها . ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأخير

إن الباحثين في التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هذا الأسلوب في التقديم والتأخير وقالوا ستأني أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين ، وما كان لها من النتائج والآثار في حال الحاضرين . وقالوا إن الطريق إلى ذلك هو أن ننظر في كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ ، فإن ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار ، بل ربما يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه - فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمى جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الإنسان

هذا ما نقوله إذا سلمنا أن الاستسقاء كان قبل التيه لافيه ولنا أن نقول إن أرض التيه هي الأرض الممتدة على ساحل البحر الأحمر من بيضاء فلسطين ممابلى

حدود مصر وفيها كان الاستسقاء بلا خلاف (وفي سفر الخروج أنه كان في رفيديم التي انتقل اليها بنو اسرائيل من (سين) التي بين إيليم وسيناء . ويطلق التيه على ضلال بنى اسرائيل أربعين سنة في الأرض . والعبرة في القصة على ما يظهر من التوراة أن موسى كان يحاول نزع ما في قلوب قومه من الشرك الذي أشربوا عقائده في مصر ، وما في نفوسهم من الذل الذي طبعه فيها استبداد المصريين وتعبيدهم إياهم ، ليكونوا أعزاء بعبادة الله تعالى وحده ، وأن يدخل بهم أرض الميعاد وهي بلاد الشام التي وعد الله بها آبائهم . وكانوا لطول الإقامة في مصر قد ألفوا الذل وأنسوا بالشعائر والعادات الوثنية ، فكانوا لا يخطون خطوة إلا ويتبعونها بخطئها ، وكلما عرض لهم شيء من مشقات السفر يتبرمون بموسى ويتحسرون على مصر ويتمنون الرجوع اليها (كما سبق القول) ويستبسطون وعد الله فتارة يطلبون منه أن يجعل لهم إلهاً غير الله ، وتارة يصنعون عجلاً ويعبدونه ، وتارة يفسقون عن أمر ربهم ويكفرون نعمه . ولما أمرهم بدخول البلاد المقدسة التي وعدهم الله أبوا واعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين لما استحوذ عليهم من الجبن الذي هو حليف الذل . وكان موسى أرسل كالباً ويوشع بن نون رائدين لينظرا حال البلاد في القوة والضعف وأرسل غيرهما عشرة من بقية أسباط بنى اسرائيل فأخبر هؤلاء بأن في تلك الأرض قوماً جبارين فقال بنو اسرائيل : إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فأخبر يوشع وكالب بأن الأرض كما وعد الله وأن دخولها سهل والظفر مضمون بالاعتماد على الله تعالى والتوكل عليه ، فلم يسمعوا لها بل (قالوا إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها) فغضب الله عليهم التيه أربعين سنة لحكمة بالغة وهي إرادة انقراض أولئك القوم الذين تأشبت في نفوسهم عقائد الوثنية ، وزايلتها صفات الرجولية ، حتى فسد مزاجها ، وتعدت علاجها ، وخروج نشء جديد يترتب على العقائد الصحيحة ، وأخلاق الشهامة والرجولية ، فتأهوا حتى انقراض أولئك المصابون باعتلال الفطرة ، وبقي النشء الجديد وبعض الذين كانوا عند الخروج من مصر صغاراً لا يقدرّون على حمل السلاح ، وقضى الله أمراً كان مفعولاً

(٦١) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُغْنِي الْأَرْضُ مِنْ يَدَيْهَا وَقِثَائِهَا وَفِئْمِهَا وَعَدَسَهَا وَبَصَلَهَا . قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ . وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكِينَةُ وَابْنَاؤُا يَعْصَبُ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ

هذا ضرب آخر مما ذكر الله تعالى به بني اسرائيل في سياق دعوتهم الى الاسلام قال صاحب الكشاف : كانوا قوما فلاحه فنزعوا الى عكرهم فأجروا ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء اه وقال الأستاذ الإمام في تفسيره ونقده وردة مانصه : فلاحه بتشديد اللام جمع فلاح بمعنى الزراع ، وعكرهم بكسر العين أصلهم ، وأجم الطعام من ناب ضرب وعلم كرهه من المداومة عليه . وهو بيان لما بعنهم على أن يسألوا موسى أن يدعو ربه ليخرج لهم تلك الأشياء التي طلبوها والسبب في جهرم بذلك وثورتهم عليه كأنه يقول : إن الحامل لهم على ذلك هو تمكن المادة من نفوسهم فلما خرجوا منها وجاءهم ما لم يكونوا يألفون نزعوا إلى ما كانوا قد غودوه من قبل . ولو كان الأمر كما قال لكان في ذلك التماس عذر لهم ، ولما عد الله هذا القول في خطاياهم ، بل إن السامة من تناول طعام واحد قد يكون من لوازم الطباع البشرية إلا ما شذ منها العادة أو ضرورة ولا يعدمها هو من منازع الطباع جرما إذا لم يسقط ذلك في محذور . وسياق الآيات قبلها وما يلحق بعد ذلك من قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم) الخ كل ذلك يدل على أن ما عدد من أفاعيلهم مع تضايف الآيات بين أيديهم وتوارد نعم الله عليهم كله من خطاياهم ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك فخرج لنا مما

تثبت الأرض من بقلها وقشائها وفومها وعدسها وبصلها * ويؤكد ذلك إيراد تلك العقوبة الشديدة من ضرب الذل والمسكنة واستحقاق غضب الله تعالى عقب مقامهم هذا والذي يقع عليه الفهم من الآية أن النزق قد استولى على طباعهم وملك البطر أهواءهم حتى كانوا يستخفون بذلك الأمر العظيم الذى هياهم الله له من التمكن فى الأرض الموعودة والخروج من الخسف الذى كانوا فيه . ومع كثرة ما شاهدوا من آيات الله القائمة على صدق وعده لهم لم تستيقنه أنفسهم ، بل كانوا على ريب منه ، وكانوا يظنون أن موسى عليه السلام خدعهم بإخراجهم من مصر وجاء بهم فى البرية ليهلكهم ، فلذلك دأبوا على اعناتة والاكثر من الطلب فيما استطاع ومالا استطاع حتى ييأس منهم فيرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة ولهم مطمع فى العيش وأمل فى الخلاص من الهلكة ، فما ذكره الله عنهم فى هذه الآية على حد قولهم (إن تؤمن لك حتى نرى الله جيرة) ويرشد إلى ما فيه من الاعنات قولهم : إن نصبر على طعام واحد . فقد عبر عن مسألتهم بما فيه حرف التنفى الذى يأتى لسلب الفعل فى مستقبل الزمان مع تأكيد كيدته فكأنهم قالوا . اعلم أنه لم يبق لك أمل فى بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد فان كانت لك منزلة عند الله كما تزعم فادعه يخرج لنا ما يمكن معه أن نبقى معك إلى أن يتم الوعد الذى وعدك ووعدتنا . وهم يعلمون أنهم كانوا فى برية غير منبته ، وربما لم يكن قولهم هذا عن سامة ولا أجم من وحدة الطعام ، ولكنهم نزق و بطر كما بينا وطلب للخلاص مما يخشون على أنفسهم . ويؤيد ذلك ما هو معروف فى أخبارهم . ووصفوا الطعام بالواحد مع أنه نوعان . المن والسلوى . لأنهما طعام كل يوم ، والعرب تقول لمن يأ كل كل يوم عدة ألوان لا تتغير : إنه يأ كل من طعام واحد . كأنهم ينظرون إلى أن مجموع الألوان هى غذاؤه الذى لا يتغير فهى غذاء واحد فاذا تغيرت الألوان تغير نوع الغذاء فكان طعاما متعدداً

والبقل من النبات ما ليس بشجر دق ولا جل كما ذكره ابن سيده . وقال أبو حنيفة ما ينبت فى بزة ولا ينبت فى أزومة ثابتة . وفرق ما بين البقل ودق الشجر أن البقل إذا رعى لم يبق له ساق ، والشجر تبقى له سوق وإن دقت .

وأرادوا من البقل ما يطعمه الإنسان من أطيب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما مما يغرى بالقضم ، ويعين على الهضم ، والقثاء هي أخت الخيار تسميها العامة « القثة » والعدس والبصل معروفان ، والقوم هو الخنطة . وقال الكسائي وجماعة : هو الثوم أبدلت الثاء فاء كما في جدث وجدف . وطلبهم للخنطة هو طلبهم للخبز الذي يصنع منها ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام تقر بعالمهم على أشرفهم وإنكاراً لتبرمهم ﴿ أنستبدلون

الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ ﴿ أي أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المن والسلوى ؟ والمن فيه الخلاوة التي تألفها أغلب الطباع البشرية والسلوى من أطيب لحوم الطير وفي مجموعها غذاء تقوم به البنية وليس فيما طلبوه ما يسويهما لذة وتغذية . أقول : والأدنى في اللغة الأقرب ، واستعير للأخس والأدون كما استعير البعد للرفعة . والاستبدال طلب شيء بدلاً من آخر ، والباء

تدخل المبدل منه المراد تركه . ثم قال ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ من الأمصار ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ أي فإنكم إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ما سألتم . أما هذه الأرض التي قضى الله أن تقيموا فيها إلى أجل محدود فليس من شأنها أن تنبت هذه البقول وإن الله جل شأنه لم يقض عليكم بالتيه في هذه البرية إلا الجبنكم وضعف عزائمكم عن مغالبة من دونكم من أهل الأمصار ، فلو صح ما تزعمون من كراهتكم للضمام الواحد فأنتم الذين قضيتم به على أنفسكم بما فرط منكم : فإن أردتم الخلاص مما كرهتم فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الأرض الموعودة ، فإن الله كافل لكم البصر عليهم ، وعند ذلك تجدون طلبتكم فالتمسوا الخير في أنفسكم وفي أفعالكم فإن الله لا يضيع أجر العاملين .

قال تعالى ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ الذلة والذل خلق خبيث من أخلاق نفس الإنسان يضاد الإياء والعزة ، وأصل المادة فيه معنى اللين . فالذل بالكسر اللين وبالضم والكسر ضد الصعوبة ، وإذا تقبعت المادة وجدتها لا تخلو من هذا المعنى . صاحب هذا الخلق لين يتفعل لكل فاعل ، ولا يأتي ضم ضم . غير أن هذا الخلق الذي يهون على النفس قبول كل شيء لا يظهر أثره غالباً على البدن وفي القول إلا عند الاستدلال والقهر ، وكثيراً ما ترى الأذلاء تحسبهم

أعزاء ، يخالون في مشيتهم من الكبرياء ، ويباهون بما لهم من سلف وآباء ، وربما فآخروا من لا يخشون سطوته من الكبراء .

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزلا

ولكن متى شعر الذليل بنية من نفس القاهر أو طاف بذهنه خيال يد تمتد إليه استخذي واستكان ، وظهر السكون على يده ، واشتمل الخشوع على قوله وفعله ، وهذا الأثر الذي يسطع من النفس على البدن هو الذي يسمى المسكنة . وإنما سمي الفقر مسكنة لأن العائل المحتاج تضعف حركته ويذهب نشاطه فهو بعدم ما يسد عوزه كأنه يقرب من عالم الجاد ، فلا تظهر فيه حاجة الأحياء فيسكن والمشاهدة ترشدنا إلى تحقيق ما عليه أهل المسكنة في أوضاع أعضائهم ، وما يبذلوا على وجوههم ، وما طبع في أقوالهم وأعمالهم . فضرب الذلة والمسكنة على اليهود هو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها . أو الصاقهما بطباعهم كما تطابع الطغرى على السكة ﴿ و باؤا بغضب من الله ﴾ أي رجعوا به كما يقال رجع أو عاد بصفة المغبون - إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهى سعيه . وكذلك كان آخر أطوار اليهود في بعثهم أيام ملكهم . والمراد به فقد الملك وما يتبعه . وقال شيخنا استحقوا غضبه ومن استحقه فقد أصابه ، فقد غضب الله عليهم ، وتكبير الغضب

دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ (أقول) أي ذلك العقاب بضرب الذلة والمسكنة وبالغضب الإلهي بسبب ما جروا عليه من الكفر بآيات الله الخ فإنهم بإحراجهم لموسى عليه السلام وإعناتهم له في المطالب ، مع كثرة ما شاهدوا من المعائب ، وما أظهر الله لهم من العرائب ، قد دلوا على أن لا أثر للآيات في نفوسهم ، فهم بها كافرون في الحقيقة . ونسيان الآيات وعدّها كأن لم تكن يعده الكتاب العزيز كفراً كما قال شيخنا ﴿ يقتلون

النبيين بغير الحق ﴾ مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلاً عنهم إلا بحقه المبين فيه ، كل ذلك دل فيهم على طباع بعيدة عن الكرم ، وقلوب غلظ دون الفهم ، ومن كان هذا شأنه فالأجدر به أن يكون ذليلاً مقهوراً ، ثم هو مهبط غضب الله ومحط نقمه ، لأنه أشد الناس كفراً لنعمه ، وقوله (بغير الحق) مع

أن تقتل النبيين لا يكون إلا كذلك يزيد في شناعة حالهم ، ويصرح بأنهم لم يكونوا مخطئين في الفهم ، ولا متأولين للحكم ، بل ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين ، وهم يعلمون أنهم بارتكابه مخالفون لما شرع الله تعالى لهم في كتاب دينهم ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ قال الأستاذ : ذلك الذل وتلك الخلافة بالقبض إنما لزمهم لأنهم عصوا الله فيما أمرهم أن يأخذوا به من الأحكام ، ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التي حدها الله لهم في شرائع أنبيائهم ، وقد كانت تلك الأحكام والحدود هي الوسيلة لإخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم في الأرض الموعودة لأنها كانت الكافلة بنظامهم ، الحافظة لبناء جماعتهم ، فإذا أهملوها فسدت ألفتهم ، وانهدم بناؤهم ، وأسرعت إليهم الذلة التي لم تكن تارقهم ، إلا منهزمة من يدي سلطان الشريعة ، ولم يكن يصددها عنهم إلا معاقل النظام تحت رعايته ، ولزمهم الذلة والمسكنة بعد هذا لزوم الطابع المطبوع .

والمتبادر وعدم الأستاذ احتمالاً أن ترجع الإشارة في (ذلك) إلى الثاني أي الكفر بآيات الله وقتل النبيين . أي إن كفرهم وجرائمهم على النبيين بالقتل إنما منشؤها عصيانهم واعتداؤهم حدود دينهم ، لأن الذي يدين يدين أو شريعة أيًا كانت يتهيب لأول الأمر مخالفتها ، فإذا خالفها لأول مرة تركت المخالفة أثرًا في نفسه ، وضعت هيبه الشريعة في نظره ، فإذا عاد زاد ضعف سلطة الشريعة على إرادته ، ولا يزال كذلك حتى تصير المخالفة طبعاً وريناً ، وينسى مقام على الشريعة من دليل وما كان لها من سيطرة ، ويضرى بالعدوان ، كما يضرى الحيوان بالافتراس وكل عمل يسترسل فيه العامل تقوى ملكته فيه خصوصاً ما اتبع فيه الهوى .

(٦٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مَنْ آمَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ .

أحاط القضاء في الآية السابقة باليهود فلم يدع منهم حاضراً ولا غائباً فالزم

الذلل باطنهم ، وكسا بالمسكنة ظاهرهم ، وبوأهم منازل غضبه ، وجعل أرواحهم مساقط نعمة ، فذلك الله الذى يقول (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأواغبض من الله) سجلت الآية عليهم هذا العذاب الشديد بما كسبت أيديهم واستشعرت قلوبهم من كفر بآيات الله ، وانصراف عن العبادة ، واستعصاء على الموعدة وخروج عن حدود الشريعة واعتداء على أحكامها . اقترب ذلك سلفهم ، وتبعهم عليه خلفهم ، فحقت عليهم كلمة ربك ، فلو قرأ الخطاب عندها ، ولم يتلها من رحمته ما بعدها ، لحق على كل يهودى على وجه الأرض أن ييأس ، وأن لا يبقى عنده للأمل فى عفو الله متنفس ، بل كان ذلك القنوط لازماً لكل عاص ، قابضاً على نفس كل معتد ، لافرق بين اليهود وغيرهم ، فان سبب ما نزل باليهود إنما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ما شرع الله لهم ، وسنن الله فى خلقه لا تتغير وأحكامه العادلة فيهم لا تتبدل ، لهذا جاء قوله تعالى (إن الذين آمنوا) الخ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة وإنما ورد على هذا الأسلوب البديع متضمناً لجميع من تمسك بهدى نبي سابق وانقصب إلى شريعة سماوية ماضية ، وليدل على أن الجزاء السابق - وإن حكى على أنه من خطأ اليهود خاصة ، لم يصحهم إلا الجزية قد تشمل الشعوب عامة وهى الفسوق عن أوامر الله وانتهك حرمانه ، فكل من أجرم كأجرموا سقط عليه من غضب الله ما سقط عليهم ، وعلى أن الله جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم الأمر يختص بهم على أنهم من شعب إسرائيل أو من ملة يهودية (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وأما أنساب الشعوب وماتدين به من دين وماتتخذ من ملة فكل ذلك لا أثر له فى رضاء الله ولا غضبه ، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعفهم ، بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيرى الدنيا والآخرة إنما هو صدق الإيمان بالله تعالى بأن يكون التصديق به سطوعاً على النفس من مشرق البرهان ، أو جيشاناً فى القلب من عين الوجدان ، فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خالياً من شوب التشبيه والتمثيل ، واليقين فى نسبة الأفعال إليه خالصاً من وساوس الوهم والتخييل ويكون المؤمن قد ارتقى بإيمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الإلهي . فاذا رفع بصره إلى الجناب الأرفع أغضى هيبه وأطرق إلى أرض العبودية خشوعاً ، وإذا أطلق نظره

فيما بين يديه ، مماسلطة الله عليه ، شعر في نفسه عزة بالله ، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه . لا يمدوا حداً ضرب له ، ولا يقف دون غاية قدره أن يصل إليها ، فيكون عبد الله وحده : سيدا لكل شيء بعده
كتب ما تقدم الاستاذ بقلمه إذ اقترحت أن يكتب تفسير الآية كما قرره في درسه وأنتى أمه على المنهج الذي جريت عليه فأقول :

هذا هو الإيمان المرضي عند الله تعالى الذي يكون أصلا تهذيب أخلاق صاحبه ، ومصدرا للأعمال الحسنة عنه . وللإيمان اطلاق آخر وهو التصديق بالدين في الجملة أى الإيمان بالله وبأن ماجاء به فلان النبي مثلا هو صحيح غير مكذوب على الله تعالى ويدخل فيه أهل الفرق الضالة من كل دين من الأديان السماوية ، فهو اطلاق صحيح لغة وعرفا كما تقدم في تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) أى إنهم يصدقون بأن للعالم إلها ، وبأن بعد الموت بعشا ، ولكن هذا الإيمان ليس مطابقا في تفصيله للاذعان الذى له السلطان الأعلى على النفوس في تركيتها وتهذيبها وحملها على الأعمال الصالحة ، وهذا الإطلاق هو الذى عناه الاستاذ الامام بقوله : لا أثر له في رضا الله ولا غضبه الخ وهو كون الدين جنسية لمن ينتسب إليه فقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ مراد به المسلمون الذين اتبعوا محمدا ﷺ والذين سيبعونه إلى يوم القيامة ، وكانوا يسمون المؤمنين والذين آمنوا . وقوله ﴿ والذين هادوا والنصارى والصابئين ﴾ يراد به هذه الفرق من الناس التى عرفت بهذه الأسماء أو الألقاب من الذين اتبعوا الأنبياء السابقين ، وأطلق على بعضهم لفظ يهود والذين هادوا ، وعلى بعضهم لفظ النصارى ، وعلى بعضهم لفظ الصابئين ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ﴾ هذا بدل مما قبله أى من آمن منهم بالله إيمانا صحيحا — وتقدم شرحه ووصفه آتفا — وآمن باليوم الآخر كذلك وقد تقدم تفسيرها في أوائل السورة ، وعمل عملا صالحا تصالح به نفسه وشؤونه مع من يعيش معه ، وما العمل الصالح بمجهول في عرف هؤلاء الأقوام ، وقد بينته كتبهم أتم بيان ، ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف

عليهم ولاهم يحزنون ﴿ أي إن حكم الله العادل سواء وهو يعاملهم بسنة واحدة لا يجازي فيها فريقتا يظلم فريقتا. وحكم هذه السنة أن لهم أجرهم المعلوم بوعد الله لهم على لسان رسوله ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار مما يستقبلهم ولا هم يحزنون على شيء فاتهم. وتقدم هذا التعبير في الآية (٣٨) مع تفسيره فالآية بيان لسنة الله تعالى في معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت فهو على حد قوله تعالى (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً) فظهر بذلك أنه لا إشكال في حمل من آمن بالله واليوم الآخر الخ على قوله (إن الذين آمنوا) الخ ولا إشكال في عدم اشتراط الإيمان بالنبي ﷺ ، لأن الكلام في معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحى بخصوصها ؛ الظانة أن فوزها في الآخرة كائن لا محالة لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلاً ، فالله يقول إن الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية وإنما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس ، وعمل يصلح به حال الناس ، ولذلك نفى كون الأمر عند الله بحسب أمانى المسلمين أو أمانى أهل الكتاب ، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح . أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقاتل اليهود للمسلمين : نحن خير منكم : ديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً : وقالت النصارى مثل ذلك . فقال المسلمون كتابنا بعد كتابكم ونبينا ﷺ بعد نبيكم ، وديننا بعد دينكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم ، فنحن خير منكم ، نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا . فانزل الله تعالى (ليس بأمانيتكم) الآية . وروى نحوه عن مسروق وقتادة . وأخرج البخاري في التاريخ من حديث أنس مرفوعاً « ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . إن قوما ألهمهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا ،

لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل. والحكمة في عناية الله تعالى بالنبي على المعتبرين بالانتساب إلى الدين أيا كان ظاهره، فان هذا الغرور هو الذي صرفهم عن العمل به اكتفاء بالانتساب إليه وجعله جنسية فقط. وترك العمل لازم أو ملزوم لعدم الفقه في الدين، أى عدم فهم حكمه وأسراره، وتبع هذا في الأمم السابقة ترك النظر فيما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأن الغرور بما هو فيه لا ينظر فيما سواه نظراً صحيحاً لاسيما إذا كان مخالفاً له.

وذكر الأستاذ الإمام في تفسير هذه الآية مسألة أهل الفترة والخلاف المشهور فيها وهو أن جمهور أهل السنة يقول إنهم ناجون لأنهم لا تكليف إلا بشرع وهؤلاء لم تبلغهم دعوة، ومن قال إن بالعقل يدرك الواجب والمحرم والاعتقاد الصحيح والباطل عدم غير ناجين. وهذا رأى المعتزلة وجماعة من الحنفية، وجمهور الأشاعرة على أنه لا يمكن إدراك ذلك إلا بالشرع، ثم إن محل النظر في أهل الفترة من كان منهم كالعرب الذين كانوا يعتقدون نبوة أنبياء ولا يجدون لديهم شيئاً من أحكام دينهم خالصاً من الشوائب سالماً من النزغات الفاسدة. وأما مثل اليهود فلا يصح أن يسوا أهل فترة فانهم على نسيانهم حظاً مما ذكروا به وتجر يفهم بعض ما حفظوا قد بقى جوهر دينهم معروف لم يقش أحكامه ما يمنع الاهتداء بها والله تعالى يقول (٥: ٤٣) وعندهم التوراة فيها حكم الله) وكذلك المسيحيون لا يسمون أهل فترة لأن عندهم في التوراة ووصايا الأنبياء ما عند اليهود وزيادة مما حفظوا من وصايا المسيح وروح الدعوة موجود عندهم، ولكنهم لا يعملون بهذه الوصايا ولا يأخذون بتلك الأحكام، ولا عذر لهم بحول دون العقوبة. وأما الصابئون فان كانوا فرقة من النصارى كما يظهر من الوفاق بينهما في كثير من التقاليد كالمعمودية والاعتراف وتعظيم يوم الأحد فالأمر ظاهر أن حكمهم كحكمهم وإن كان الخلل عندهم أكثر، والبعد عن الأصل أشد، حتى إنهم اعتقدوا تأثير الكواكب، وأحاطت بهم البدع من كل جانب، على أنهم أقرب إلى روح المسيحية من النصارى فان عندهم الزهد والتواضع اللذين يفيضان من كل كلمة « تفسير القرآن الحكيم » « ٢٢ » « الجزء الأول »

تؤثر عن المسيح عليه السلام ، والنصارى صاروا أشد أمم الأرض عتوا وطمعوا وإسرافوا في حظوظ الدنيا . ويقال إن الصابئة مائة مستقلة يؤمنون بكثير من الأنبياء المعروفين ولكن قد اختلط عليهم الأمر كما اختلط على الخنفاء من العرب إلا أن عندهم من التقاليد والأحكام ما لم يكن عند العرب ، فان كانوا أقرب اليهم فلهم حكمهم وإلا فهم كاليهود والنصارى يسئلون عن العمل بدينهم بعد فهمه كما يجب حتى يأتيهم هدى آخر، كأن تبليغهم دعوة الاسلام فان لم يفعلوا فهم مؤاخذون .

علمنا أن أهل الفترة هم الذين لم تبليغهم دعوة صحيحة تحرك إلى النظر أو بليغهم أن بعض الأنبياء بعثوا ولكن لم يصل اليهم شيء صحيح من شرائعهم ، فهم يؤمنون بهم إيماناً إجمالياً كالخنفاء من العرب الذين كانوا يؤمنون بإبراهيم وإسماعيل ولا يعرفون من دينهما شيئاً خالصاً كما تقدم آنفاً . وحجة الأشاعرة على عدم مؤاخذتهم آيات كقوله تعالى (١٧: ١٥) وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله (٤: ١٦٥) لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وذهب كثير منهم إلى الاكتفاء ببلوغ دعوة أى نبي في ركني الدين الركنين وهما الايمان بالله وباليوم الآخر ، فمن بلغته وجب عليه الايمان بهذين الأصلين ، وإن لم يكن النبي مرسل اليه

وذهب جمهور الحنفية وكذلك المعتزلة إلى أن أصول الاعتقاد تدرك بالعقل فلا تتوقف المؤاخذة عليها على بلوغ دعوة رسول ، وإنما يجيء الرسل مؤكدين لما يفهم العقل موضحين له ومبينين أموراً لا يستقل بإدراكها كأحوال الآخرة وكميقات العبادة التي ترضى الله تعالى . وأولوا آية (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) بأن المراد بالتعذيب هو الاستئصال في الدنيا بإفناء الأمة أو استئصالها ، والذهاب باستقلالها ، وينافيه ما يدل عليه استعمال «وما كنا» من إرادة نفي الشأن الدال على عموم السلب ، ولهم في كتبهم أدلة ومناقشات ليس هذا من مواضعها وعن الامام الغزالي أن الناس في شأن بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصناف ثلاثة - من لم يعلم بها المرة - أى كأهل أمر يكال ذلك العهد - وهؤلاء ناجون حتماً (أى إن لم تكن بليغتهم دعوة أخرى صحيحة) ومن بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر في أدلتها إهمالاً أو عناداً أو استكباراً ، وهؤلاء مؤاخذون حتماً ومن بلغته

على غير وجهها أو مع فقد شرطها وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر ، وهؤلاء في معنى الصنف الأول . هذا معنى عبارته المطابقة لأصول الكلام (وأقول) عبارته في كتاب فيصل التفرقة في هذا الصنف هي : وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نتمه وصفته ، بل سمعوا منذ الصبا أن كذاباً مدلساً اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذاباً يقال له المقفع (لعنه الله) تحدى بالنبوة كاذباً ، فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول فان أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه ، وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه ، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب . اهـ

وأقول في حل معنى الآية على هذا : إن أهل الأديان الإلهية - وهم الذين بلغتهم دعوة نبي على وجهها وبشرطها - إذا آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح الذي بينه نبيهم وعملوا الأعمال الصالحة فهم ناجون ما جورون عند الله تعالى ، وإذا آمنوا على غير الوجه الصحيح كالمشبهة والحلولية والاتحادية وغيرهم فلا ينالهم من هذا الوعد شيء بل يتناولهم الوعيد المذكور في الآيات الأخرى ، وكذلك حال الذين يؤمنون بأقوالهم دون أعمالهم ، فان الإيمان الصحيح هو صاحب السلطان الأعلى على القلب والارادة التي تحرك الأعضاء في الأعمال ، فان نازعه في سلطانه طائف من الشهوة فانه لا يلبث أن يقهره (٧:٢٠١) إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ثم أزيد الآن على ماتقدم ان كل هذه الأقوال والتفصيلات انما هي في المؤاخذة على اتباع دعوة الرسل وعدمها . ولا يعقل أن يكون من لم تبلغهم الدعوة بشرطها أو مطلقاً ناجين على سواء وأن يكونوا كلهم في الجنة كأتباع الرسل في الإيمان الصحيح والعمل الصالح . إذ لو صح هذا لكان بعث الرسل شراً من عدمه بالنسبة إلى أكثر الناس . والمعقول الموافق للنصوص أن الله تعالى يحاسب هؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة ما بحسب ما عقلوا واعتقدوا من الحق والخير ومقابلهما وستجد تفصيل هذا في موضع آخر من هذا التفسير

ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٤) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ قُلُوبًا فَنَزَّلْنَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ

أطعم الله تعالى بالآية السابقة بني اسرائيل في رحمته بعد ما فرقهم بالندرة التي
تسكاد توقع اليأس في قلوبهم ، وبين لهم ولسائر الناس أن المنفذ إلى هذا الطمع
بل الباب الذي يؤدي إلى هذا الرجاء هو الجمع بين الأمرين اللذين بعث لتقريرهما
الأنبياء عليهم السلام وهما الإيمان الصحيح اليقيني والعمل الصالح ، وإشراك غير
بني اسرائيل في هذا الحكم لا يقضى بانتهاء السياق ، بل لا يزال الكلام في بني
اسرائيل ، ولذلك عقب الاطعام بالتذكير ببعض الوقائع التي استحقوا فيها
العقوبة فحالت دين وقوعها الرحمة فقال ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ وهو العهد الذي
أخذه عليهم وتقدم الكلام فيه ، وأما قوله ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ فقد ذكر
المفسرون فيه قصة وهي أن الله تعالى ظلل بني اسرائيل بالطور وهو الجبل المعروف
وخوفهم برفعه فوقهم ليدعوا ويؤمنوا . ثم اعترض عليه بعضهم بأنها إكراه على الإيمان
وإلجاء إليه وذلك ينافي التكليف ، وأجيب بأجوبة منها أن ما يفعل بالا إكراه يعود
اختياريا بعد زوال ما به الإكراه ، ومنها أن مثل هذا الإلجاء والا إكراه كان جائزا
في الأمم السابقة ، ويزيد من قال هذا أن نفي الإكراه في الدين خاص بالاسلام
لقوله تعالى (لا إكراه في الدين) وقوله (أفأنت تكفر بالإنسان حتى يكونوا مؤمنين)
قال الاستاذ الامام : لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه
بأسلوبه الفصيح فهو لا يحتاج في فهمه إلى إضافات ولا ملحقات ، وقد ذكر لنا
مسألة رفع الطور فوق بني اسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان ،
وانما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم فقيل قال تعالى في سورة
الاعراف (وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم
بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) والنتق الزعزعة والهز والجنب والنفض وتنق
الشيء ينثقه وينثقه . من بابي ضرب ونصر - نتقا جذبته واقتلعه وقد يكون ذلك في
الآية بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير بالنتق وهو في الأصل بمعنى الزعزعة

والنفذ والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الايمان وعاهدوا موسى عليه . فرجع
الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأجل أخذ
ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد لأن رؤية الآيات تقوى الايمان، وتحرك الشعور
والوجدان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾
أى تمسكوا به واعملوا بمجد ونشاط ، لا يلابس نفوسكم فيه ضعف ، ولا يصحبها وهن
ولا وهم ، ثم قال ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أى بالمحافظة على العمل به ، فان العمل هو
الذى يجعل العلم راسخاً في النفس مستقراً عندها ، ويؤثر عن أمير المؤمنين على
كرم الله وجهه أنه قال : يهتف العلم بالعمل . فان أجابه وإلا ارتحل . وذلك أن
العلم إنما يحضر في النفس مجلاً غير سالم من إيهام وغموض ، فاذا برز للوجود بالعمل
صار تفصيلاً جلياً ، ثم ينقلب النظرى منه بالتكرار والمواظبة بنهياً ضرورياً .
وبذلك يثبت فلا يفنى . وأما النسيان فانه حليف الكفر وإنه ليصل بالإنسان
إلى حد يساوى فيه من لم تسبق له معرفة بالشئ ، قط لأنه لا أثر له في النفس ولا
في الظاهر . ولا فرق بين من بلغته دعوة الهداية فسلم بها وقبلها ثم ترك العمل بها
حتى نسها ، وبين من لم تبلغه ألبتة ومن بلغته على وجه غير مقنع فلم يؤمن - إلا
بما تكون الحججة به على الأول أظهر ، وكونه بالمواخذة أجدر ، والثاني معذور عند
الجاهير ، وكذلك الثالث إذا استمر على النظر من غير تقصير ، فعلى هذا تكون
منزلة الناسى هي التي تلي منزلة الجاحد المعاند ، وهو خليف بأن يحشر يوم القيامة
أعمى عن طريق النجاة والسمادة ، حتى إذا لقي ربه قال (٢٠: ٢٤) رب لم حشرتني
أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم نفسى)
وأقول : إن في هذا الحججة على قراء القرآن الذين ليس لهم منه إلا التغنى بألفاظه
وأقوالهم هواء لا أثر فيها للقرآن ، وأعمالهم لا تنطبق على ما جاء به القرآن ، وهذا شر
نوعى الإنسان ، وقد ضرب له أبو حامد الغزالي مثل عبيد أقطعهم سيدهم بستانا
وكلفهم إصلاحه وعمارته ، وكتب لهم كتاباً يبين لهم فيه كيف يسبرون في هذا
الإصلاح ، وكيف تكون حياتهم فيه ، ووعدهم على الإحسان بمكافأة وأجر فوق
ما يستفيدونه من ثمرات البستان وغلاته ، وتوعدهم على الإساءة في العمل بالعقوبة

الشديدة وراء ما يفوتهم من خيرات البستان ، وما يدقون من مرارة سوء المعاملة فيما بينهم ، فكان حظهم من الكتاب تعظيم رقه وورقه ، والتغنى بلفظه ، وتكرار تلاوته ، بدون مبالاة بالأمر والنهي ولا اعتبار بالوعد والوعيد فيه ، بل عاثوا في أرض البستان مفسدين فأهلكوا الحرث والنسل ، فبل يكون حظ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجة عليهم ، وقاطع لالسنة العذر منهم ??

أمرهم بالذكر الذي يثبت بالعمل ، ووصله بذكر فائدته وهي إعدادة النفس لتقوى الله عز وجل ، فقال ﴿ لعلكم تتقون ﴾ فان المواظبة على العمل بما يرشد إليه الكتاب تطبع في النفس ملكة مراقبة الله تعالى فتكون بها نقيية نقيية ، راضية مرضية (والعاقبة للتقوى)

وبعد أن ذكر لهم تلك الآية ، وما اتصل بها من الهداية ، ذكرهم بما كان منهم من التولى عن الطاعة والاعراض عن القبول ، ثم امتن عليهم بما عملهم به من الفضل والرحمة ، والصفح عما يستحقونه من المؤاخفة والعقوبة ، فقال : ﴿ ثم توليتهم من بعد ذلك ﴾ أي ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة من بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات التي تؤثر في القلوب ، وتستكين لها النفوس ﴿ فلو لا فضل الله

عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ أي إنكم بتوليكم استحققتم العقاب ، ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم ، ولولا ذلك لخسرتم سعادة الدنيا وهو التمكن في الأرض المقدسة التي تفيض لبناً وعسلاً ، ثم خسرتم سعادة الآخرة وهي خير ثواباً وخيراً أملاً . فمن فضله وإحسانه أن وفقكم للعمل بالميثاق بعد ذلك شايح الأستاذ الامام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية ، أي أنه انتزع من الأرض وصار معلقاً فوقهم في الهواء ، وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق ، وإن لم تكن ألفاظها نصاً فيه ، إذ الرفع والارتفاع هو جعل الشيء — أو أن يكون الشيء — رفيعاً عالياً كما قال تعالى (فيها سرر مرفوعة) وقال (وفرش مرفوعة) فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهي على الأرض . وقوله تعالى في آية الأعراف (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) ليس نصاً أيضاً في كون الجبل رفع في الهواء . فأصل النتق في اللغة الزعزعة والزلزلة كما سبق . قال في حقيقة

الاساس : نتق البعير الرحل زعرعه ، وנתقت الزبد أخرجه بالحض ، وנתق الله الجبل رفعه مزعزعا فوقهم ا ه . والظلة كل ما أظلك سواء كان فوق رأسك أو في جانبك وهو مرتفع له ظل ، فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا ، أى مرتفعاً مزعزعا فظنوا أن سيقع بهم ، وينقض عليهم ، ويجوز أن ذلك كان في أثر زلزال تزعزع له الجبل ، وقد سبق القول ببطلان كون ذلك إرهاباً للاكراه على قبول التوراة ، واذا صح هذا التأويل ، لا يكون منكر ارتفاع الجبل في الهواء مكذبا للقرآن

(٦٥) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٦) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَافَهَا وَمَا عَظَّتْ لِلْمُتَّقِينَ

أباح الله تعالى لبني اسرائيل العمل في ستة أيام من الأسبوع وحظر عليهم العمل في يوم واحد وهو يوم السبت ، وفرض عليهم في هذا اليوم الاجتهاد في الأعمال الدينية إحياء للشعور الديني في قلوبهم ، وإضعافا لشهرهم في جمع الخطام وحبهم للدينا ، فتجاوز طائفة منهم حدود الله في السبت واعتدوها ، فكان جزاؤهم على ذلك جزاء من لم يرض نفسه بأداب الدين ، وجزاء مثله هو الخروج من محيط الكمال الإنساني ، والرتوع في مراتع البهيمية ، كالقرود في نزواته ، والخنزير في شهواته ، وقد سجل الله تعالى عليهم ذلك بحكم سنة الفطرة ، والنواميس التي أقام بها نظام الخليقة ، وذلك قوله عز وجل ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ أى وأقسم أنكم لقد علمتم نبا الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب في ترك العمل الدينى يوم السبت - وسيأتى نبؤهم مفصلا في سورة الاعراف ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ زوى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال : ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فثألوا بالقردة كما ثألوا بالحمار في قوله تعالى (٦٢ : ٥٠) بل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) ومثل هذا قوله تعالى (٥ : ٦٠) وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) والخشوع هو

الطرد والصغار. والأمر للتكوين ، أى فكانوا بحسب سنة الله في طبع الإنسان وأخلاقه كالقردة المستتلة المطرودة من حضرة الناس : والمعنى أن هذا الاعتداء الصريح لحدود هذه الفريضة قد جرأهم على المعاصي والمنكرات بلا خجل ولا حياء حتى صار كرام الناس يحقرونهم ولا يرونهم أهلاً لمجالستهم ومعاملتهم .

وذهب جمهور المفسرين : إلى أن تلك القرية أيلة وقيل طبرية أو مدين وقالوا إن ذلك كان في زمن داود عليه السلام ، والقرآن لم يعين المكان ولا الزمان ، والمعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات ، فالهجة فيما ذكر قائمة على بنى اسرائيل ومبينة أن مجاهدتهم ومعاندتهم للنبي ﷺ ليست بدعا من أمرهم . ثم انها عبرة بيّنة لكل من يفسق عن أمر ربه فينخذل به هواه ويعيش عيشة بهيمية . وذهب الجمهور أيضا إلى أن معنى (كونوا قردة) ان صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيين ، والآية ليست نصا فيه ولم يبق إلا النقل ولو صح لما كان في الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الانسان ، إذ ليس ذلك من سننه في خلقه ، وانما العبرة الكبرى في العلم بأن من سنن الله تعالى في الذين خلوا من قبل : أن من يفسق عن أمر ربه ، ويتنكب الصراط الذى شرعه له ، ينزل عن مرتبة الانسان ويلتحق بمجاثات الحيوان . وسنة الله تعالى واحدة ، فهو يعامل القرون الحاضرة

عقل ماعامل به القرون الخالية ، ولذلك قال ﴿ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ أى جعلنا هذه العقوبة نكالا وهو ما يفعل بشخص من ايناء وإهانة ليعتبر غيره أى عبرة ينكل من يعلم بها أى يمتنع من اعتداء الحدود، ومن هذه المادة (النكل) للقيد أو هو أصلها ومنها النكول عن العين في الشرع وهو الامتناع ، وما بين يديها يراد به من وقعت في زمنهم كما يراد بما خلفها من بعدهم إلى ماشاء الله تعالى . وأما كونها موعظة للمتقين فهو أن المتق يتعظ بها في نفسه بالتباعد عن الحدود التي يخشى اعتداؤها (تلك حدود الله فلا تقربوها) ويعظ بها غيره أيضا ولا يتم كون تلك العقوبة نكالا للمتقدمين والمتأخرين وموعظة للمتقين ، إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة في تربية الأمم وتهذيب الطباع ، وذلك ما هو

معروف لأهل البصائر، ومشهور عند عرفاء الأوائل والآخر [وحديث المسخ والتحويل وأن أولئك قد تحولوا من أناس إلى قرود وخنازير إنما قصده التحويل والاعراب فاختيار مقاله مجاهد هو الأوفق بالعبارة والأجدر بتحريك الفكرة] .
وأقول : إنه ليس في تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبي ﷺ نص فيه على كون ما ذكر مسخا للصورهم وأجسادهم . وقد ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره قول مجاهد في أن المسخ معنوي وقول الآخر بن إنه صوري ، ثم قال والصحيح أنه معنوي صوري . فما مراده بذلك ؟

(٦٧) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً
قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٨) قَالُوا
ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَقَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ
عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا مَا تُمَرُونَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا
مَا لُونَهَا؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْع لُونَهَا تَمَسُّ النَّظْرِينَ
(٧٠) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ شَبَهَ عَائِنَا وَإِنَّا إِن
شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧١) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَأَذْلُولٌ تَشِيرُ الْأَرْضَ
وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَمَّمَةٌ لِأَشِيَّةٍ فِيهَا . قَالُوا أَلَسْنَاهُ جِئْت بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا
وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .

هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بني اسرائيل في قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها . ومن وجوه الاعتبار أن التنطع في الدين والإحفاء في السؤال ، مما يقتضى التشديد في الاحكام ، فمن شدد شدد عليه ، ولذلك نهى الله تعالى هذه الأمة عن كثرة السؤال بقوله (١٠١:٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن

أشياء إن تبدلكم تسوءكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم . عفا الله عنها والله غفور حلیم * قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) وفي الحديث الصحيح « ويكره لكن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » وقد امتثل سلفنا الأمر فلم يشددوا على أنفسهم فكان الدين عندهم فطرياً ساذجاً وحنيفياً سمحاً ، ولكن من خلفنا من عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاماً استنبطها باجتهاده ، وأكثروا منها حتى صار الدين حملاً ثقيلاً على الأمة فسئمته وملت ، وألقته وتخلت .

قال الأستاذ الامام : جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخالص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تدسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة . وإنما فسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، وبمركز الفكر إلى النظر تحريكاً ، ويهز النفس للاعتبار هزاً . وقد راعى في قصص بني اسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى إياها ، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها ، وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات ، وابتلائهم بالحسنات والسيئات ، وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة ، ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة ، ثم يعودون إلى بطرهم ، وينقلبون إلى كفرهم .

كان في الآيات السابقة يذكر النعمة فالمخالفة فالعقوبة فالتوبة فالرحمة كالتمفيض على العالمين ، وأخذ الميثاق ، والانجاء من آل فرعون ، وما كان في أثر ذلك على ما أشرنا الآن وأجلنا ، وأوضحنا من قبل وفصلنا . وفي هذه القصة اختلاف النسق فذكر المخالفة بعد في قوله (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها) ثم المنة في الخلاص منها في قوله (فقلنا اضربوه ببعضها) الخ وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهي ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها [حيث لم يسبق في الكلام عهد لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرة ، فالمنجاة بحكاية ما كان من ذلك الأمر والجidal الذي وقع فيه يشير الشوق في الأنفس إلى معرفة السبب فتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه] إذ الحكمة في أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة

خفية وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها . لاسيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازة للقلوب . وأقول : قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر يقول أهل الشبهات في القرآن : إن بنى إسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذ لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن ؟ ونقول : إن القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بنى إسرائيل المتأخرين : إنهم نسوا حظا مما ذكروا به وأنهم لم يأتوا إلا نصيباً من الكتاب . على أن هذا الحكم منصوص في التوراة وهو أنه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي ، ثم يقولون إن أيدينا لم تسفك هذا الدم ، إغفر لشعبك إسرائيل : و يسمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه . وما هذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن ، ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذي حرفوه أو أضعوه وأظهره الله تعالى . (قال الأستاذ) وقد قلت لكم غير مرة إنه يجب الاحتراس في قصص بنى إسرائيل وغيرهم من الأنبياء وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين . فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا إنه لا يوثق بشيء من تاريخ تلك الأزمنة التي يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحري والبحث واستخراج الآثار فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التي لا يوثق بها لحسن قصدهم ، وليكننا لا نعول على ذلك بل تنهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتمدها ، وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته (وأقول) إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه :

(١) إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتملكها واقعاً في الحقل لا يعلم من قتله

(٢) يخرج شيوخك وقضاةك ويقسون إلى المدن التي حول القليل
(٣) فالمدينة القرية. من القليل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم
يحرق عليها لم تجر بالدير

(٤) وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرق فيه
ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي

(٥) ثم يتقدم السكينة بنى لاوى لأنه إياهم اختار الأب إهلك ليخدموه
ويباركوا باسم الرب ، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة

(٦) ويقسل جميع شيوخ تلك المدينة القرييين من القليل أيديهم على العجلة
المكسورة العنق في الوادي

(٧) ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر

(٨) اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يارب ولا تجعل دم برىء في وسط
شعبك إسرائيل . فيغفر لهم الدم ا هـ

فعلم من هذا أن الأمر بذبح البقرة كان لفصل النزاع في واقعة قتل ويروون
في قصته روايات منها أن القاتل كان أخ المقتول قتله لأجل الارث وأنه اتهم
أهل الحى بالدم وظالمهم به . ومنها أنه كان ابن أخيه . وغير ذلك مما حاجة إليه ،
وكانوا طلبوا من موسى الفصل في المسألة وبيان القاتل ولما أمرهم بذبح البقرة
استغفروا لما فيه من المباينة لما يطلبون ، والبعد بينه وبين ما يريدون ، فذلك قوله
تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أنتخذنا هزوا ﴾
أى سخرية بهزأ بنا ، وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالى
وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتنال ، وإن لم تظهر حكمته بآدى
الرأى ، ولولا ذلك لامتثلوا وانتظروا النتيجة بعد ذلك . ولما كان في جوابهم هذا رمى
لموسى عليه الصلاة والسلام بالسفه والجهالة ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾
أى التحجىء إلى الله وأعتصم بتأديبه إياى من الجهالة والهزء بالناس

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ أى ما الصفات المميزة لها ؟ قال
الأستاذ الإمام : إن السؤال بما هي ليس جاريا هنا على اصطلاح علماء

المنطق من جملة سؤالها عن حقيقة الماهية ، وإنما هو على حسب أسلوب اللغة ،
والعرب يسألون بنوع الصفات التي تميز الشيء في الجملة كالذي ذكره في الجواب
﴿ قال إنها بقرة لا فارض ﴾ أي غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿ ولا بكر ﴾ لم تلد بالمرة
والمراد بها التي لم تلد كثيرا ﴿ عوان بين ذلك ﴾ العوان النصف في السن من النساء
والبهائم أي هي بين ما ذكر من السنين الفارض والبكر فالشار إليه بكلمة ذلك متعددي
المتعدي ومن كان لفظه منفردا . و « بين » من الكلام التي تختص بالمتعدد تقول جلست بينهم
أو بينهم ولا تقول جلست بينه واستعمال الإشارة والضمير المفردين فيما هو بمعنى الجمع على
تقدير التعبير عنه بالمدكور أو « ما ذكر » كثير في كلامهم ومنه قول رؤبة :
فيها خطوط من سواد و بلى * كأنه في الجسم توليع البلق

ذكر هذا الوصف المميز للبقرة في الجملة وقال ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ وكان
يجب عليهم الا اكتفاء به والمبادرة بعده للامتثال ولكنهم أبو الإتنطعا واستقصاء
في السؤال ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء
فاقع لونها أسر الناظرين ﴾ الفاعع الشديد الصفرة في صفاء بحيث لا يخاطه لون
آخر ، وبعض أهل اللغة لا يخصه بالأصفر بل يجعله وصفا لكل لون صاف .
وكان يجب أن يكتبوا بهذه المميزات ولكنهم زادوا تنطعا إذ ﴿ قالوا ادع لنا

ربك يبين لنا ماهي ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمتدون ﴾ وقد أرادوا
بهذا السؤال زيادة التمييز ككونها عاملة أو سائمة ﴿ قال إنها بقرة ﴾ سائمة
﴿ لا ذلول تنبذ الأرض ولا تسقى الحرث ﴾ أي غير منذلة بالعمل في الحرثة ولا
في السقي ﴿ مسلة ﴾ من العيوب أو من سائر الأعمال ﴿ لا شية فيها ﴾ أي ليس
فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة . والشية مصدر كالعدة من وشى الثوب يشيه إذا جعل
فيه خطوطا من غير لونه بنحو تطريز . ولما استوفى جميع المميزات والشخصات ولم يروا

سبيلا إلى سؤال آخر ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبوها وما كادوا يفعلون ﴾
أي وما قاربوا أن يذبوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم ، وانقطع ما كان من تنطعهم
وتعتنتهم . روى ابن جرير في التفسير بسند صحيح عن ابن عباس موقوفا « لذبوها

أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم « وأخرجه سعيد بن منصور في سننه عن عكرمة مرفوعا مرسلا : وههنا يذكر المفسرون قصة في حكمة هذا التشديد وهو المصير إلى بقرة معينة لشخص معين كان باراً بوالديه وقد يكون هذا صحيحا غير أنه لا داعى إليه في التفسير وبيان المعنى . وقد يشتهر بعض الناس فيما ذكر بأن أحكام الله تعالى لا تكون تابعة لأفعال الناس العارضة ويرد هذه الشبهة أن التكليف كثيرا ما يكون عقوبة لأنه تربية للناس وقد وردت الأسئلة والأجوبة في هذه القصة مفصلة غير موصولة بالفاء وذلك ما يقتضيه الأسلوب البليغ فقد تقرر في البلاغة أن القول إذا أشعر بسؤال كان ما يأتي بعده مما يصح أن يكون جوابا للسؤال المقدر مفصولا عما قبله ، وقوله (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة) يشعر بسؤال كأنه قيل ماذا كان منهم بعد الأمر فأجيب عنه بقوله (قالوا أتأخذنا هزوا) وهذا يشعر بسؤال أيضا كأنه قيل ماذا قال موسى إذ قالوا ذلك فأجاب (قال أعوذ بالله) الخ وهكذا ورد غيرها من المراجعات في التنزيل كما ترى في قصة موسى وفرعون

(٧٢) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فآذَارْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ
(٧٣) قَتَلْنَا أَسْرِيَّوَهُ بَعْضُهَا . كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

هذا هو أول القصة المحتوية على المخالفة على ما أشرنا إليه وهى القتل ثم التنازع فى القاتل ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بدمج البقرة وما كان من إلحاحهم فى السؤال على ما سبق . فقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فآذَارْتُمْ فِيهَا ﴾ أسند فيه القتل إلى الأمة وإن كان القاتل واحداً باعتبار ما تقدم من كونها فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد . والتدارؤ تفاعل من الدرء وهو الدفع فعناه التدافع وهو يدل على أنه كان خصام واتهام ، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره ، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها

الحقيقة ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة ﴿وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من الإيقاع بقوم برآءاتهم ومنهم بالقتل لإخفاء القاتل لأنه لا يخفى عليه مكرهم.

وأما قوله ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ فهو بيان لإخراج ما يكتُمون . ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة . قيل إن المراد اضربوا المقول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بدينها ... وقالوا إنهم ضربوه فعادت إليه الحياة وقال : قتلني أخي أو ابن أخي فلان الخ مآلوه ، والآية ليست نصا في مجله فكيف بتفصيله . والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القاتل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره ، فمن غسل يده وفعل مارسم لذلك في الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية . ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أي يحياها بمثل هذه الأحكام . وهذا الإحياء على حد قوله تعالى (٥: ٣٢) ومن أحيها فأكثرا أحياء الناس جميعا) وقوله (ولكم في القصاص حياة) فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين . ثم قال ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ بما يفصل بها في الخصومات ، ويزيل من أسباب القتل والعداوات ، فهو كقوله تعالى (٤: ٥١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير في آيات الله في خلقه الدالة على صدق رساله . وليس عندى شيء عن شيخنا في تفسير هذه الجملة ولكنه قال في تعليقها ما يرجح القول الأول وهو ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة ، فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت ، بل يجب أن تتلوهوا أمر الله في كل وقت بالقبول من غير تعنت : قال تعالى :

(٧٤) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَبِئْسَ مَا كَانْتُمْ تَعْمَلُونَ
وَإِنَّ مِنْ الْجِبَارَةِ لِمَا يُتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَشَقُّ

فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ إِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهَيِّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . وَمَا اللَّهُ بِقَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(أقول) وصفهم الله تعالى بأنه قد طرأ عليهم بعد رؤية تلك الآيات ما أنزال
أثرها من قلوبهم ، وذهب بعبيرتها من عقولهم ، فقال ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك
فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ فالعطف بتم يفيد أن الأولين منهم قد خشعت
قلوبهم لما رأوا في زمن موسى عليه السلام ما رأوا ثم خلف من بعدهم خلف كان أمر
قسوتها ما وصفه عز وجل . والقسوة الصلابة وهي من صفات الأجسام . ووصف
القلوب بالقسوة مجاز تشبيه مما يسمونه الاستعارة بالكناية ، ويصح في «أو»
الترديد والتشكيك وهو بالنسبة إلى المحاطين لا إلى المتكلم باعتبار ما يعهد في التخاطب
العربي كأن عريياً يحدث آخر ويقول له : إن هذه القلوب في قسوتها تشبه الحجارة
أو تزيد عليها . ويصح فيها التقسيم أي إن القسوة عمت قلوبكم فأقلها قسوة يشبه
الحجر الصلد ، ومنها ما هو أشد منه قسوة . وأظهر منهما أن تكون للاضراب على
طريقة المبالغة ، أي بل هي أشد قسوة من الحجارة ، إذ لا شعور فيها يأتي بخير ،
ولا عاطفة تفيض منها بعبرة ، والحجارة ليست كذلك ، لأن منها ما يفيض
بالخيرات ، ومنها ما يكون موضع ظهور آثار القدرة الإلهية في الجمادات .

وصف الحجارة بالثلاث الصفات الآتية بعد أن شبه القلوب بها في الصلابة
المطلقة ، وفرق بين القلوب وبينها بالاضراب والانتقال إلى أن القلوب أشد صلابة ،
وأراد أن يبين بهذه الصفات وجه ضعف الصلابة في الحجارة وشدها في القلوب
مكان الكلام يشبه أن يكون عذراً عن الحجارة دون القلوب ، والمراد بالقلوب
ما اعتبرت عنواناً له وهو الوجدان والعقل ، وأكثر ما تستعمل في الأول لأنه نسائق
الإقناع والإذعان ، ويطلق لفظ القلب على النفس الناطقة لأن من شأن القلب
أن يتأثر مما يتأثر منه الوجدان أو العقل أو الروح مطلقاً . وفي الكلام من المبالغة
أن هذه القلوب فقدت خاصة التأثر والانفعال بما يرد عليها من انواع والآيات
التي هي من خواص الروح الإنساني حتى كأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان

إلى دركة الجراد كالحجارة ، بل نزلوا عن دركة الحجارة أيضاً ، وذلك ما أفاده قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ التفجر تفعل من الفجر وهو الشق الواسع يكون للمطوعة كفجرته فتفجر (بالتشديد فيهما) ويكون لتكرر الفعل وحصوله مرة بعد أخرى ، ومثله التشقق إلا أنه أعم ، ولما في التفجر من معنى السعة عبر به عن خروج الأنهار من الصخور السكبارة وهو معهود في الجبال ، وعبر بالتشقق لخروج الماء الذي يصدق بالقليل منه .

والمعنى أن هذه الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق اللطيف فيشقها وينفذ منها بقلة أو كثرة فيحیی الأرض وينفع النبات والحيوان . وأما هذه القلوب فلم تعد تتأثر بالحكم والنذر ولا بالعظات والعبر ، فالحكم لا تقوى على شتمها والنفوذ منها إلى أعماق الوجدان ، وأنوار الفطنة قد انطفأت فيها فلا يظهر شعاعها على انسان ، ومن الحجارة ما يشقه الماء القليل كماء العيون والينابيع الحجرية ، ومنها ما لا يفجره إلا الماء القوي الغمر الذي يسمى نهراً (وإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) وهو ما ينحط من أعلى الجبل ومن أثنائه بسبب أثر من آثار القهر الإلهي كالبراكين والصواعق التي تهبط بها الصخور وتندك الجبال ، وقد جعل هذا شبيهاً للآيات الإلهية التي أظهرها على يد عبده ونبيه موسى عليه السلام فهي حوادث عظيمة في الكون تفزع بها نفوس المؤمنين إلى الله ، وتخشع لأمره ونبيه ، لعظمتها وخفاء سر إيجادها . كما تفزع النفوس من حوادث البراكين والصواعق التي تندك الصخور وتدمر الحصون ، وقد أصبحت تلك القلوب بعد مشاهدة الآيات لا تتأثر بها ولا تزداد إيماناً .

فلخص التشبيه أن قلوبكم تشبه الحجارة في القسوة بل قد تزيد في القساوة عنها ، فإن الحجارة الصم تتأثر في باطنها بالماء اللطيف النافع بعضها بالقوى منه وبعضها بالضعيف ؛ ولكن قلوبكم لا تتأثر بالحكم والمواعظ التي من شأنها التأثير في الوجدان ، والنفوذ إلى الجنان ، والحجارة تتأثر بالحوادث الهائلة التي يحدثها الله في الكون كالصواعق والزلازل ، ولكن قلوبكم لم تتأثر بتلك الآيات الإلهية

«تفسير القرآن الحكيم» «٢٣» «الجزء الأول»

التي تشبهها ، فلا أفادت فيها المؤثرات الداخلية ولا المؤثرات الخارجية كما أفادت في الأحجار ، فبذلك كانت قلوبكم أشد قسوة ، ثم هددهم بقوله ﴿ وما الله بما تعملون ﴾ أى فهو سير بيكم بضروب النقم ، إذا لم تتوبوا بصنوف النعم .

(٧٥) أَفَنظَنُّونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحَقُونَ بِهِ مِنْ بَعْدِ مَا تَقَالَوْهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٦) وَإِنَّا لَنَرَاهُ الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِ بَعْضِهِمْ قَالُوا أَتُحَدِّثُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٧) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٨) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُنُونَ .

كان النبي ﷺ وأصحابه (رض) يرون أن أولى الناس بالإيمان وأقربهم منه اليهود لأنهم موحدون ومصدقون بالوحي والبعث في الجملة ولذلك كانوا يطمعون بدخولهم في الإسلام أفواجا لأنه مصدق لما معهم في الجملة ومجمل لجميع شبهات الدين وحال لجميع إشكالاته بالتفصيل وواضع له على قواعد لا ترهق الناس عسراً (و يجمل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) كان هذا الطمع في إيمانهم مبنياً على وجه نظرى معقول لولا أنهم اكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية ، ولم يجعلوه هداية روحية ، ولذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء ، ويحرفون كله عن مواضعها بحسب الأهواء ، وما أعذر الله المؤمنين في طمعهم هذا إلا بعد ما قص عليهم من نبي بنى إسرائيل الذين كانوا على عهد التشريع وشاهدوا الآيات ما علم به أنهم في المجاهدة والمعاندة على عرق راسخ ونخيزة موروثه لا يكفي في زلزالها كون القرآن مبنياً في نفسه لا يتطرق إليه ريب ، ولا يتسرب إليه شك ، ولذلك بدأ السورة بوصف الكتاب بهذا وكونه هدى للمتقين من أهل الكتاب وغيرهم . ونفى ببيان أن من الناس

من يعانده ويباهته ، ومنهم المذبذب الذى يميل مع الريحين ، فلا يثبت مع أحد الفريقين ، ثم أفاض فى شرح حال بنى اسرائيل الذين لم يؤمن منهم إلا قليل من أهل العلم والتقوى ، وكان الآكثرون أشد الناس استكباراً عن الإيمان وإيذاء للرسول ولمن اتبعه من المؤمنين . وبعد هذا كله أنكر على المؤمنين ذلك الطمع بدخول اليهود فى دين الله أفواجا ، ووصل الانكار بحجة واقعة ناهضة ، تجعل تلك الحجة النظرية داحضة فعلم بهذا أن الكلام لا يزال متصلا فى موضوع الكتاب وأصناف الناس بالنسبة إلى الإيمان به وعدم الإيمان . كلما بعد العهد جاء ما يذكر به تذكيراً

قال تعالى ﴿ أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ كان الظاهر أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ولكن خاطب المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه فى الألم من إيذائهم والطمع بهدايتهم فأشركهم بالتسليم كما سبق ، ولأن طمع بعض المؤمنين بإيمانهم كان يحملهم على الانبساط معهم فى المعاشرة إلى حد الافضاء إليهم ببعض الشؤون المالية المحضة واتخاذهم بطانة ، وكان يعقب ذلك من الضرر ما يعقب حتى نهاهم الله تعالى عن اتخاذ البطانة من دون المؤمنين إذا كانوا موصوفين بأوصاف هؤلاء ، وذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) والآية الآتية تدل على هذا الافضاء أيضاً

أما الحجة التى وصلها بانكار الطمع بإيمانهم للدلالة على أنه طمع فى غير مطعم فهى تعمد تحريف كلام الله ممن سمعه منهم . وذلك أن موسى اختار بأمر الله سبعين رجلا من قومه لسماع الوحي ومشاهدة الحال التى يكلمه الله تعالى بها وقد سمعوا كلام الله تعالى على الوجه الذى لا نعرفه ، وإنما نعرف أنهم صحبوه إلى حيث كان يتناجى الله تعالى ، وكان من شأن الله تعالى معهم أن صدقوا بأن ماجاء به موسى عليه السلام هو وحي من الله تعالى . والتصديق بذلك لا يتوقف على معرفة كفيته وكنهه فان أكثر ما نصدق به تصديق يقين لا نعرف حقيقته وكنهه ولا كيفية تكوينه وإيجاده . وقد كان من أولئك المختارين أنهم لما رجعوا إلى

قومهم حرفوا كلام الله الذي حضروا وحيه وأذعنوا له بأن صرفوه عن وجهه بالتأويل -- كما حققه ابن جرير الطبري وغيره . وهذا التحريف ثابت عندهم

منصوص في التوراة والتاريخ الديني الذي يسمى التاريخ المقدس

فدل هنا وما سبقه على أن القسوة المانعة من التأثر والتدبر ، ومكابرة الحق

والتفصي من عقال الشريعة ، كان شغششة قديمة فيهم ، ثم تأصل فصار غريزة مطبوعة :

فعارضهم عن القرآن لا يستلزم الطعن عليه ، ولا القول بجواز تسليق شيء من الريب

إليه ، فانهم قد حرفوا وبدلوا ، وعاندوا وجاحدوا ، وهم يشاهدون الآيات

الحسية ، ويؤخذون بالعقوبات المعاشية ، فكيف يستنكر بعد هذا أن يعرضوا عن

دين دلائله عقلية ، وآيته الكبرى معنوية ، وهي القرآن المعجز بما فيه من علوم الهداية ،

ودقائق البلاغة ، وأنباء الغيب على أنه من أمي عاش أربعين سنة لم يؤثر عنه فيها شيء من

العلم ، ولم يزاجم فحول البلاغة في نثر ولا نظم ، وفهم تلك الدلائل انما يكون من ذوى

العقول الحرة والقلوب السليمة ، الذين لطف شعورهم ، ورق جنانهم وصحت أذواقهم .

قال ابن جرير : لو كان المراد بما هنا تحريف كلام التوراة المكتوب لما قال

يسمعون كلام الله ثم يحرفونه فزيادة « يسمعون » هنا لا بد لها من حكمة ولولا

ذلك لجاء الكلام على نسق الآيات الأخرى التي ذكر فيها التحريف كأن يقول

« وقد كان فريق منهم يحرف كلام الله » . وقوله تعالى « من بعد ما عقلوه » نص

في التعمد وسوء القصد ، وإبطال لما عساه يعتذر لهم به من سوء الفهم ، ثم قال

« وهم يملكون » أى كانوا يفعلون فملتهم الشنمء في حال العلم بالصواب واستحضاره

لانهم كانوا على نسيان أو ذهول . وفي هذين القيدين من النسي والتشنيع عليهم

ملا مزيد عليه . وكيف وقد بطل بها عذر الخطأ والنسيان ، وسجل عليهم

تعمد الفسوق والمعصيان .

ثم بعد هذا الاحتجاج انتقل إلى بيان بعض أحوال الذين كانوا في زمن

التنزيل وقد غير الأسلوب هنا فانه كان يحكى سيناتهم مبتدئاً بكلمة (وإذا) لأنه

تذكير بما كان في الزمان الماضي . والابتداء بكلمة (إذا) هنا هو المناسب في

الحكاية عن حال واقعة في الحال ، مستمرة في الاستقبال ، والمراد من حكاية

أحوال الحاضرين ، بيان أنها مساوية لأحوال سلفهم الغابرين ، وأنه لا يرجى من هؤلاء أفضل مما كان من أولئك . قال :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا . وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا :

أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ ﴾

ترشد هذه الآية إلى طور من أطوار البشر في زمن الإصلاح وهي أن جماهير الناس يقعون في الخيرة بين الهداية الجديدة والتقاليد القديمة . لا ينظرون إلى الحق فيتحروا اتباعه أين كان ، ولكنهم يفكرون في منفعتهم الخاصة . يقولون : نخشى أن نجبر بالجديد فيخذل حزبه ويتفرق شمله ، فنكون من الخاسرين . ولا نأمن إن بقينا على القديم أن يتقلص ظله . ويدل أهله ، فنكون مع الضالين . فالحزم أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الآخر إذا هو علم بما كان منا إلى أن نتبين الفوز في أحد الفريقين : فيكونون هكذا مذنبين كما قال تعالى « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم » الخ الضمير في قالوا الثانية غير الضمير في قالوا الأولى كما هو ظاهر من السياق ، ولا لبس فيه ولا اشتباه ، ومثله مستفيض في كلام البلغاء وفي التنزيل أيضا كقوله تعالى (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن) فإن المنهى عن المضل الأولياء لا المطلقون . والكلام في القرآن للمكلفين كافة فيوجه كل كلام إلى صاحبه الذي يتعين أن يكون له بقريئة الحال أو المقال . فاذا وجه الخطاب بالطلاق إلى الأزواج لأنه لا يكون إلا منهم فكذلك يوجه الخطاب بالنهي عن المضل وهو منع المرأة من التزوج - إلى الأولياء لأنه لا يكون إلا منهم . وعنى هذه الطريقة يتخرج قوله (قالوا آمنا) وقوله (قالوا أتحدثونهم) فالكلام في مجموع اليهود ، وبوجه الأول إلى الذين يلاقون المؤمنين (والثاني) إلى الذين يلاقهم هؤلاء من قومهم ويعملونهم على الافضاء إلى المؤمنين بما فتح الله عليهم المراد بالفتح هنا الانعام بالشريعة والأحكام ، والبشارة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، شبه الذي يعطى الشريعة بالمحضور يفتح عليه فيخرج من الضيق . أو معنى (بما فتح الله عليكم) بما حكم به وأخذ به الميثاق عليكم من الإيمان بالنبي

الذي يجيشكم مصدقا لما معكم ونصره ، وقوله (ليحاجوكم به عند ربكم) معناه يقيمون به عليكم الحججة من كتاب ربكم وهو النوراة من حيث إن ما تحدثونهم به موافق لما في القرآن فلمهم أن يقولوا : لولا أن محمداً نبي لما علم بهذا الذي حكاه عنكم وقد كان مثلنا لا يعرف من أمر الكتاب شيئاً : هذا ماجرى عليه المحققون في تفسير (عند ربكم) وهو أنه بمعنى في كتابه فهو كقوله في أهل الافك (فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى في حكمة المبين في كتابه . وذهب مفسرنا (الجلال) إلى أن معناه الحاجة في الآخرة والنظم لا ياباه ، ولكن فيه اعترافاً من اللاتمين المؤيدين بأن المسلمين على الحق الذي لا ينحى عند الله سواء . ومن اعتقد هذا لا يجعله تعليلاً للانكار على من براه من قومه يتحدث المؤمنون بما يوافقهم ويقوى حججهم ، بل فيه أيضاً إن ترك تجدديتهم لا ينجم عنهم في الآخرة . مثل هذه الذبذبة تكون من الأمم في طور الضعف ولا سيما ضعف الإرادة والعلم ، ولو كان لأولئك القوم ارادة قوية لثبتوا ظاهراً على ما يعتقدونه باطلا ولم يصانعوا مخالفيهم من أهل الملة الأولى أو الملة الآخرة ، وقد وبخهم الله تعالى وأنكر عليهم هذا التلون والدهان في الدين ولقاء كل فريق بوجه يظهرون له ما يسرون من أمر الآخر فقال ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ .
يعنى يقول اللاتمون أو المنافقون كلهم ما قالوا ، ويكتُمون من صفات النبي ﷺ ما كتموا ، ويحرفون من كتابهم ما حرفوا ، ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون من كفر وكيد ، وما يعلنون من اظهار إيمان وود ، فان كانوا مؤمنين باحاطة علمه تعالى فلم لا يحفلون باطلاعه على ظواهرهم ، واحاطته بما يحول في أطواء ضمائرهم ، وبما يعترتب على علمه من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة .

قال تعالى ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وان هم الا يظنون ﴾ ذلك الذي تقدم هو شأن علماءهم : يحرفون كتاب الله ويخرجون من حكمة بالتأويل ، وهذا هو شأن علمهم : لا علم لهم بشيء من الكتاب ، ولا معرفة لهم بالأحكام ، وما عندهم من الدين فهو أمانى يتمنونها وتحول صورها في خيالهم ، وهذه الصور هي كل ما عندهم من العلم بدنيهم ، وما هم على نسبة منها ، وانما هم ظنون

يلهون بها . وهذا هو محل الذم لا مجرد كونهم أميين ، فان الأحمى قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات ويعقله عنهم بدليله فيكون علمه صحيحاً وهؤلاء لم يكونوا كذلك . فان قيل : لم سعى ما كانوا عليه من الأمانى ظناً مع أنهم أخذوه عن رؤساء دينهم الموثوق بهم عندهم وسلموه تسليماً فلم يكن في نفوسهم ما يخالفه ومثل هذا يسمى اعتقاداً وعلماً ؟ نقول إنما العلم بالدليل ولا يسمى مثل ذلك علماً إلا من لا يعرف معنى العلم . على أنه لم يكن راجحاً ومسلماً إلا لأن مقابله لم يخطر ببالهم ولو أورد عليهم لتززل ما عندهم ثم زال ، أو ظهر فيه الشك وتطرق إليه الاحتمال ، ويصح أن يقال في مثل هؤلاء إن الظن أو التردد كان نائماً في نفوسهم وهو عرضة لأن يوقظه تقيضه ويذهب به متى طرأ . ونوم الظن لا يصح أن يسمى اعتقاداً

قال الأستاذ الامام : هذه الامانى توجد في كل الأمم في حال الضعف والانهطاط يفتخرون بما بين أيديهم من الشريعة وبسلفهم الذين كانوا مهتدين بها وبما لهم من الآثار التي كانت ثمرة تلك الهداية ، وتسول لهم الامانى أن ذلك كاف في نجاتهم وسعادتهم وفضلهم على سائر الناس . هكذا كان اليهود في زمن التنزيل وقد اتبعنا سنتهم وتولنا تلوم فظهر فينا تأويل الحديث الصحيح «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع» وإنما قرأ أخبارهم ففسخروا منهم ولا تسخر من أنفسنا ، ونعجب لهم كيف رضوا بالامانى ونحن غارقون فيها

ثم إن الآية تدل على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بإيمان صاحبه وقدمضى على هذا إجماع الصدر الأول وأهل القرون الثلاثة وإنما كان الجاهل يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها ، والأحكام بروايتها ، ولا يتقلد رأيه كيفما كان ، من غير بينة ولا برهان ، وفسر بعضهم الامانى بالكاذب ابتداءً ومنهم من فسرها بالقرآت أى أنهم لاحظ لهم من الكتاب الاقراء الفاظة من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرها في العمل : فهو على حد (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الجمار يحمل أسفاراً) وقد ورد التمنى بمعنى القراءة ومنه قول الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل

وهذا النوع من التمنى قد رزفه المسلمون حتى ستموا من قلمهم فقد أمسا

أكثر الأمم تلاوة لكتابتهم وأقلهم فهما له واهتداء به
 قال الاستاذ الإمام: إنما يحسن تفسير هذه الآيات من كان على علم بتاريخ
 اليهود في ذلك العصر ووقوف على حالهم، وإن كانت الأناسخة من حال بعض
 الشعوب الموجودين الآن.... كانوا أكثر الناس مرءاء وجدالا في الحق وإن
 كان بينا باهراء، وأشد الناس كذبا وغرورا وأكلا لأموال الناس بالباطل كالرفاعش
 وعشار تدليس وتلبيس، وكانوا مع ذلك يعتقدون أنهم شعب الله الخاص وأفضل الناس
 كما يعتقد أشباههم في هذا الزمان. فهذه هي الأمانى التي صدرت عن قبول الإسلام
 وأما اللفظ والنظم ففيه أن قوله تعالى «الإمانى» استثناء منقطع والعلم المنفي
 قاصر لا يشمل الأمانى. ويصح أن يكون معنويا والآية على حد قولهم «ما علمت
 فلانا الا فضلا» ويكون المعنى أنهم إنما يعلمون من الكتاب أنه مجموعة أمانى
 يمنونها أنفسهم، فهم لا يأخذون منه الا ما هو لهم ويمدحهم في غرورهم، وأما ما ينهونهم
 على سيئات أعمالهم فكأنه غير معروف لهم من الكتاب. ثم قال جل ثناؤه

(٧٩) قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا
 مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِيلٌ لَهُمْ تَمَّا كَتَبْتَ بِأَيْدِيهِمْ وَقَوْلِيلٌ
 لَهُمْ تَمَّا يَكْسِبُونَ .

قال المفسر (الجلال) إنهم كانوا يكتبون الأحكام على خلاف ما هي عليه
 في الكتاب كآية الرجم ووصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم. وقال الأستاذ
 الإمام لو كان هذا هو المراد من هذه الآية لما بدىء الكلام بالفاء وإنما الآية
 وعيد على أن لبسوا على الناس بالكتابة وتأليف الكتب الدينية وإيهام العامة
 أن كل ما كتبوه فيها مأخوذ من كتاب الله كما يعتقد المقلدون من كل ملة يكتب
 الدين التي يألفها علماءهم في الأصول والفروع حتى أن بعضهم يقول إن اختلافها
 لا ينافي كونها من عند الله خلافا لقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا
 فيه اختلافًا كثيرا). فهذه الكتب هي مشار الأمانى والغرور ولذلك أُنذر على

أصحابها الهلاك بعد ما ذكر أصناف اليهود من منافقين ومحرفين وأميين فقال
﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ أقول :
أي ويل وهلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتب بأيديهم ويودعونها
آراءهم ويحملون الناس على التعبد بها قائلين إن ما فيها من عند الله ويمكن الاستغناء
بها عن كتاب الله الذي نفهم منه ما لا يفهم غيرنا : يخطبون بتلك الكتب
ميل العامة وودهم ويتبعون الجاه عندهم ويأكلون أموالهم بالدين . ولذلك قال
﴿ ليشتروا به ثمنا قليلا ﴾ وكل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل لأن الحق
أتمن الأشياء وأغلاها ، وأرفعها وأعلاها ، ولذلك كرر الوعيد فقال
﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ فالهلاك والويل محيط بهم
من أقطارهم ونازل بهم من جانب الوسيلة ومن جانب المقصد .

قال الأستاذ الإمام : من شاء أن يرى نسخة مما كان عليه أولئك اليهود فليتنظر
فيما بين يديه فانه يراها واضحة جلية . يرى كتباً ألفت في عقائد الدين وأحكامه
حرفوا فيها مقاصده وحولوها إلى ما يفر الناس ويمتنعهم ويفسد عليهم دينهم ،
ويقولون هي من عند الله وما هي من عند الله . وإنما هي صادرة عن النظر في كتاب
الله والاهتداء به . ولا يعمل هذا إلا أحد رجلين : رجل مارق من الدين يتعمد
إفساده ويتوخى إضلال أهله فيلبس لباس الدين ويظهر بمظهر أهل الإصلاح يخادع
بذلك الناس ليقبلوا ما يكتب ويقول . ورجل يتحرى التأويل ويستنبط الحيل
ليسهل على الناس مخالفة الشريعة ابتغاء المال والجاه

ثم ذكر الأستاذ وقائع طابق فيها بين ما كان عليه اليهود من قبل وما عليه
المسلمون الآن - ذكر وقائع للقضاة والمأذونين ، وللعلماء والواعظين ، فسقوا فيها
عن أمر ربهم ، فمنهم من يتأول ويفتر بأنه يقصد نفع أمته كما كان أحبار اليهود
يفتنون بأكل الربا أضغاث مضاعفة ليستغنى شعب إسرائيل ، ومنهم من يفعل ما يفعل
عامداً علماً أنه مبطل ولكن تغره أهوائ الشفاعات والمكفرات

(٨٠) وَقَالُوا لَنْ نَمَسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨١) بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ..

هذا ضرب من ضروب غرورهم عطفه على ما قبله فقال ﴿ وقالوا ابن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ قيل هي أربعون يوما مدة عبادتهم العجل والذي عليه أكثر اليهود أنها سبعة أيام لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة فلا سراييل الذي لا تدركه الشفاعة يمكث في النار سبعة أيام عن كل الف سنة يوم. ومثل هذا الحكم لا يمكن القول به إلا بعهد من الله تعالى مالك يوم الدين والجزاء وإلا كان افتئاتا عليه سبحانه وقولا عليه بغير علم وهذا مارد به عليهم والله الحجة البالغة وأمر رسوله أن يخاطبهم به بقوله ﴿ قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهدا ﴾ أى هل عهد الله إليكم ذلك ووعد به فكان حقا لكم عنده، لأن الله لا يخلف عهده؟ وقال ابن جرير وبعض المفسرين معناه هل اتخذتم عند الله عهدا باتباع شريعته اعتقادا وإثمارا وانتهاء وتخلقا فأنتم وافقون بعهد الله في كتابه إن كان كذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة ومغفرة ما عساه يفرط منه من السيئات أو العقوبة عليه مدة قصيرة؟؟ والاستفهام للانكار أى لستم على عهد من الله تعالى ولذلك كذبهم بقوله ﴿ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ أى أم تقولون على الله شيئا ليس لكم به علم، إذ العلم بمثله لا يكون إلا بوحي منه يبلغه عنه رسله، والقول على الله بغير علم جرأة وافتيات عليه وكفر به والمعنى أنه لا بد من أحد الأمرين إذ لا واسطة بينهما: إما اتخاذ عهد عند الله، وإما القول على الله بغير علم وإذا كان اتخاذ العهد يحصل تعيين أنكم تكذبون على الله بجهدكم وغروركم، ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ الآية بلى مضطلة دعواهم،

وقال الأستاذ : للسيئة هنا إطلاقها وخصها مفسرنا (الجلال) وبعض المفسرين بالشرك ولو صح هذا لما كان لقوله تعالى ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ معنى فان الشرك أكبر السيئات وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان . ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجاً منها . يرى نفسه حراً مطلقاً وهو أسير الشهوات ، وسجين المواقفات ، ورهين الظلمات ؟ وإنما تكون الإحاطة بالاسترسال في الذنوب ، والتماذي على الاصرار ، قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أى من الخطايا والسيئات ففي كلمة « يكسبون » معنى الاسترسال والاستمرار ، وران عليه غطاء وستره أى أن قلوبهم قد أصبحت في غلف من ظلمات المعاصي حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه . ومن أحدث لسكك سيئة يقع فيها توبة نصوحاً وإقلاصاً صحيحاً لا يحيط به الخطايا ولا تزين على قلبه السيئات . روى أحمد والترمذي والحاكم وصحاحه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « إن العبد إذا أذنب ذنباً نكمت في قلبه نكمة سوداء فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن عاد زادت حتى تغلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله تعالى في القرآن (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) لمثل هذا كان السلف يقولون : المعاصي بريد الكفر .

قوله ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ خبر (من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) أى هم أصحاب دار العذاب في الآخرة الاحقاء بها دون من لم يصل إلى درجاتهم في الدنيا وهو من في قلبه شيء من نور الإيمان وتوحيد الله تعالى وما يتبمه من الخير

قال الأستاذ الإمام : ومن المفسرين من ترك السيئة في الآية على إطلاقها فلم يؤولها بالشرك بل سكنهم أولوا جزاءها فقالوا إن المراد بالخلود طول مدة المكث لأن المؤمن لا يتخذ في النار وإن استغرقت المعاصي عمره وأحاطت الخطايا بنفسه فانهمك فيها طول حياته . أولوا هذا التأويل هو ربا من قول الممتزلة : إن أصحاب الكبائر يتخذون في النار ، وتأبيداً لمذهبهم أنفسهم المخالف للممتزلة ، والقرآن فوق

المذاهب يرشد إلى أن من تحيط به خطيئته لا يكون أو لا يبقى مؤمناً
(وأقول) - : ان فتح باب التأويل الخلود يجرى أصحاب استقلال الفكر
في هذا الزمان على الدخول فيه والقول بأن معنى خلود الكافرين في العذاب
طول مكنتهم فيه لأن الرحمن الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه ما كان ليعذب بعض
خلقه عذاباً لا نهاية له لأنهم لم يبتدوا بالدين الذي شرعه لمنفعتهم ولا المنفعة ولكنهم
لم يفتقروا المنفعة ، وإذا كان التقليد مقبولاً عند الله كما يرى فانحو الباب فقد وضع
عذر الأكتين لأنهم مقلدون لعلمائهم - الخ ما يتكلم به الناس ولا سيما في هذا
العصر فإن هذه المسألة قديمة وهي أكبر مشكلات الدين . نعم إن العلماء يحتاجون
عليهم بالاجماع ولو مكتوباً ولكن التأويل باب لا يكاد يسده متى فتح شيء .
ثم ذكر في مقابلة أهل النار أضدادهم أهل الجنة على سنته في كتابه فقال

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وأما الذين جمعوا بين الايمان الصحيح وما
يلزمه من الأعمال الصالحات ﴿ فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أقول
أى أولئك دون غيرهم أصحابها الحقيقيون بها بحسب وعد الله تعالى وفضله هم
خالدون فيها . وفيه دليل على أن الوعد على الايمان والعمل معاً إذ لا ينفك أحدهما
عن الآخر ، إلا من آمن ثبات ولم يتسع له الوقت للعمل فهو من أهله بمقتضى إيمانه
الصحيح وما حال دونه من الاحال عذر لأنه لا ذنب له فيه

(٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ

الآيات السابقة كانت تذكيراً بالنعم التاريخية المليمة وبالتقصير في الشكر
وعواقبه . وذلك كالتمفيض على العاملين الذي يرفع النفس ، والانجاء من آل فرعون
ومن الفرق ، وإيتاء موسى الكتاب والآيات البينات ، وتسهيل المعيشة عليهم في
التيه بما ساق الله إليهم من المن والسوى ، ثم ما كان منهم في أثر كل نعمة وما أعقبه

كفر النعم من النقم . ولم يذكر فيما سبق من الاحكام العملية إلا ما جاء على سبيل التبع لهذه الأصول . وفي هذه الآية وما بعدها التذكير بأهميات الاحكام في العبادات والمعاملات وما كان من إهمالها وترك العمل بها . هذا هو المراد أولاً وبالذات على أن فيما يأتي إعادة الإشارة إلى بعض ماضى قضى بها ما كان عليه اليهود من سوء الفهم وغلظ القلوب وكثرة المشاغبات والماراة فالخطاب معهم دائماً في باب الاطناب قال الاستاذ الامام : لاحظ بعض البلغاء والمفسرين أن القرآن يطنب ويبدى . ويعيد في خطاب اليهود خاصة وذلك لما كانت شغنت به أذهانهم مما يسمى علماً أو فقها فأبدم عن أن يصل شعاع الحق إلى ما وراء ذلك من نفوسهم ، ويكتفى بالايجاز بل بالإشارة الدقيقة في خطاب العرب لما كانوا عليه من سرعة الفهم ورقة الاحساس لقربهم من السداجة الفطرية ، فالإشارة إلى البرهان في ضمن تمثيل ، يعنى عندهم عن الاسهاب والتطويل ، ولذلك خاطبهم بمثل قوله في الأصنام (وان يسلمهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى واذا ذكر أيها الرسول إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل وقد تقدم ذكر أخذ الميثاق عليهم في سياق خطابهم ولم يبينه لهم به وقوله هنا ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ الخ بيان له أى الميثاق لاقول قول محذوف كما قال المفسر . يقال : أخذت عليك عهداً تفعل كذا : كاقول : أن تفعل كذا : سواء . وهو خبر بمعنى النهى المبالغة والتأكيد ، يلاحظ فيه أن الأمر والنهى قد امتثل فيخبر بوقوعه ، أو إنه لتوثيقه والتشديد في تأكيده سيمثل حتماً فيخبر بأنه كائن لا محالة . (أقول) وهذا النهى عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته تعالى ولم يصرح به لأنهم كانوا يعبدون الله وإنما يخشى عليهم الشرك به كما وقع منهم في بعض الأجيال ومن غيرهم من الشعوب ، فالأصل الأول لدين الله على ألسنة جميع رسله هو أن يعبد الله وحده ولا يشرك به عبادة أحد سواه من ملك ولا بشر ولا ما دونهما بدعاء ولا بغيره من أنواع العبادة كما قال (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) فالتوحيد لا يحصل إلا بالجمع بين الأمرين قال تعالى ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أى وتحسنون بالوالدين إحساناً . والاحسان

نهاية البر فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية ، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين في التوراة حتى أنه يوجد فيها الآن أن من يسب والديه يقتل . وقد قرن الأمر بالإحسان بالوالدين إلى الأمر بالتوحيد أو النهي عن الشرك فهو كقوله تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وليست هذه العناية بأمر الوالدين في الكتب السماوية لكونهما سبب وجود الولد كما يقول الناس فإنه لا منة لها على الولد بهذه السببية لأنهم لم تكن إكرامه ولا عناية به ، كيف وهو لم يكن معروفاً أو موجوداً فيكرم ، وإنما كانت بباعث الشهوة وإرضاء النفس ، ومنهم من لم يكن يحظر بياله الولد إلا بعد الزواج بزمن طويل ، ومنهم من كان يود أن لا يولد له ، أو أن يكون له ولد واحد أو ولدان فقط ، فيكون له أكثر . فإذا كان وجوب الإحسان بالوالدين معلولا لإرادتهما الولد فينبغي أن يخص هذا الإحسان بولد لم يكن لها من الزوجية حظ سواء بعينه ، وهو ما لا وجود له . ذلك كلام شعري والعلة الصحيحة في وجوب هذا الإحسان على الولد هي العناية الصادقة التي بدلاها في تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفاً عاجزاً جاهلاً لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يقدر أن يدفع عنها ضرراً ، إذ كانا يحوطانه بالعناية والرعاية ، ويكفلاه حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه ، فهذا هو الإحسان الذي يكون منهما عن علم واختيار ، بل مع الشغف الصحيح والخنان العظيم وماجزاء الإحسان إلا الإحسان ، وإذا وجب على الإنسان أن يشكر لكل من يساعده على أمر عسير فضله ، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال في المساعد وما كانت به المساعدة ، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى وهما اللذان كانا يسعدانه على كل شيء ، أيام كان يتعذر عليه كل شيء ؟ ؟

وكذلك حب الوالدين للولد ليست علمته كما يقول الناس كونه جزءاً منهما وفلذة كبدهما . هذا كلام شعري لا حقيقى أيضاً ، فإن جسم الإنسان مركب من الأغذية النباتية والحيوانية ، فلو كانت العلة صحيحة لكان ينبغي أن يحب الخنطة والغنم أكثر مما يحب والديه . وإنما حب الوالدين الولد متبعان (أحدهما) خنان فطرى أودعه الله تعالى فيهما لإتمام حكمته (وثانيهما) ماجرت به سنة البشر من

التفاخر بالأولاد ومن الأمل بالاستفادة منهم في المستقبل ويمسك الفائدة محصورة في المال والعمول على المعيشة ، وإنما تتناول الشرف والجاه أيضاً

وكم أب قد علا بابن له شرفاً كما علا برسول الله عدنان

ولما كان حب الوالدين للأولاد بمكانة من القوة لا يخشى زوالها ترك النض

على الإحسان بهم وثنى بالإحسان عن دونهم في النسب فقال ﴿ وذى القربى ﴾

الإحسان هو الذى يقوى غرائز الفطرة ويوثق الروابط الطبيعية بين الأقرب بين

حتى تبلغ البيوت فى وحدة المصلحة درجة الكمال . والأمة تتألف من البيوت (المائلات)

فصلاحها صلاحها . وههنا قال الأستاذ كلمة جليدة وهى « من لم يكن له بيت

لا تكون له أمة » وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدها

وأكملهما فى الفطرة بين الوالدين والأولاد ، ثم بين سائر الأقرب بين ، فمن فسدت

فطرته حتى لاخير فيه لأهله فأى خير يرجى منه للبعدهاء والأبعدين ؟ ومن لاخير

فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءاً من بنية أمة ، لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية

التي هى أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس ، فأى لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله

جزءاً منهم يسره ما يسرههم ، ويؤلمه ما يؤلمهم ، ويرى منفعتهم عين منفعته ، ومضرتهم

عين مضرتهم ، وهو ما يجب على كل شخص لأتمه . قضى نظام الفطرة بأن تكون

نعرة القرابة أقوى من كل نعرة وصلتها أمتن من كل صلة ، فجاء الدين يقدم حقوق

الأقرب بين على سائر الحقوق وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص

ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال ﴿ واليتامى والمساكين ﴾

واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير وقد قدم الوصية به على الوصية بالمسكين ولم

يقيدها بفقر ولا مسكنة فعلم أنها مقصودة لذاتها

قال الأستاذ الامام : أكد الله تعالى الوصية باليتيم وفى القرآن والسنة كثير

من هدد الوصايا وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم وشدد الوعيد على أكل

ماله تشديداً خاصاً ولو كان السر في ذلك غلبة المسكنة على اليتامى لا اكتفى هنا

بذكر المساكين . كلا إن السر فى ذلك هو كون اليتيم لا يجرد فى الغالب من

تبعته عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه ، والعناية

بأموره الدينية والدنيوية ، فان الأم إن وجدت تكون في الأغلب عاجزة ولا سيما إذا تزوجت بعد أبيه فأراد الله تعالى - وهو أرحم الراحمين - بما أكد من الوصية بالأيتم أن يكونوا من الناس بمنزلة آبائهم يربونهم تربية دينية دنيوية لتلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم فينتشر الفساد في الأمة فتتحل انحلالا . فالعناية بثرية اليتامى هي الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد . والتربية لا تيسر مع وجود هذه القدوة ، فاهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة .

وأما المساكين فلا يراد بهم هؤلاء السائلون الشحاذون الملهفون الذين يقدرون على كسب ما يفي بحاجاتهم أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتبسوا إلا أنهم اتخذوا السؤال حرفة يبتغون بها الثروة من حيث لا يعملون عملا ينفع الناس ، ولكن المسكين من يعجز عن كسب يكفيه

وأما قوله عز وجل ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ فهو كلام جديد له شأن مخصوص ولذلك تغير فيه الأسلوب فلم يرد على النسق الذي قبله مع دخوله في الميثاق فإنه بين فيما سبق الحقوق العملية وعبر عنها بالاحسان ويستحيل أن يحسن الانسان بالفعل إلى جميع الناس لأنه لا يمكن أن يعامل جميع الناس ، فالذين لا بدله من معاملتهم هم أهل بيته وأقاربه الذين ينشأ فيهم ويتربي بينهم فحاء النص بوجوب الاحسان في معاملتهم لتصلح بذلك حال البيوت . ثم إن اليتامى والمساكين من قومه هم الذين لا يستقنون عن إحسانه وإحسان أمثاله بالفعل ، لأنه لا قيم للأولين ، ولا غناء عند الآخرين ففرض عليه أن يجعل لهم حظا منه . ثم بعد بيان ما به إصلاح البيوت من إعانة الأقربين وما به صلاح بعض العامة من معونة اليتامى والمساكين على إصلاح بيوتهم بقي بيان حقوق سائر الأمة وهي النصيحة لهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم ، فهذا هو معني قوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) وليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجاهلة في الخطاب ؛ فالحسن هو النافع في الدين أو الدنيا ؛ وهو لا يخرج عما ذكرنا ، فلما كان هذا النوع من الحقوق مستقلا بذاته جاء بأسلوب آخر ولا شك أن في القيام بهذه الفرائض إصلاح الأمة كلها جاء الأمر بالعبادة مجملا ليعلم الانسان أنه مكلف بكل فرد من أفرادها

بحسب الطاقة، ولكن من العبادة ملاهتدى إليه الإنسان إلا بهداية إلهية، وأكبر ذلك النوع إقامة الصلاة . لإصلاح نفوس الأفراد ، وإيتاء الزكاة لإصلاح شئون الاجتماع . لذلك قال تعالى بعد ما تقدم ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وإنما إقامة الصلاة بالاخلاص لله والصدق في التوجه إليه والخشوع لعظمته وجلاله والاستكانة لمرز سلطانه ، ولا تكون بمجرد الاتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة ، ولو كان هذا هو المراد لما وصفهم بالتولى والاعراض عنه ، فانهم ما أعرضوا عن صورة الصلاة إلى ذلك اليوم الذى ذكرهم فيه بهذه الآيات وإلى هذا اليوم أيضا . وأما الزكاة فقد كان بعض أخبارهم يزعم أنها تلك المحرقات والقرايين المفروضة لتكفير الخطايا أو شكر الله تعالى على إخراجهم من مصر وغير ذلك من النعم . وليس الأمر كذلك ، فان لهم زكوات مالية، منها مال مخصوص يؤدي لآل هارون وهو إلى الآن فى اللابن . ومنها مال للمساكين . ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض . ومنها سبت الأرض، وهو تركها فى كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع ، وكل ما يخرج منها فى تلك السنة فهو صدقة .

قال تعالى ﴿ ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ﴾ أى تم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذى فيه سعادتكم أن توليتم عن العمل به وأنتم فى حالة الاعراض عنه وعدم الاكتراف له . وقد يتولى الانسان منصفا عن شىء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شىء معرضا عنه وهيملا له على الدوام ، لذلك كان ذكر هذا القيد (وأنتم معرضون) لازماً لابد منه وليس تكراراً كما يتوهم، وإنما هو متم للمعنى ومؤكد للمبالغة فى الترك المستفاد من التولى قال الأستاذ الامام : ولا حاجة إلى مازاده المفسر من قوله : فقبلتم ذلك : ليعطف عليه (ثم توليتم) فالمراد مقام وعيد وزجر وتوبيخ ، وفى كلمة (ثم) نفسها ما يفيد أن التولى لم يكن عقب أخذ الميثاق .

وقد كان سبب ذلك التولى مع الاعراض أن الله أمرهم أن لا يأخذوا الدين إلا من كتابه . فاتخذوا أخبارهم أربابا من دون الله ، يحملون برأيهم ويحرمون .

ويبيحون باجتهادهم ويحظرون ، ويزيدون في الأحكام والشرائع ، ويضعون ماشاءوا من الاحتفالات والشعائر ، فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله . فان الله هو الذي يضع الدين وحده . وإنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه وما شرع على السنة رسله . وقد اتبع سنن اليهود في هذا التشريع جميع من بعدهم من أهل الملل وحكم الجميع عند الله تعالى واحد لا يختلف فهو لا يجازي أحداً (ولا يظلم ربك أحداً) وكذلك كانوا قد قطعوا صلوات القرابة ، واخلوا بالنفقة الواجبة ، وتركوا النهي عن المنكر . وفقدوا روح الصلاة ، ومنعوا الزكاة ، ولعنهم الآن عادوا إلى بعض ما تركوا . ولم يعد الذين تشبهوا بهم ، أو اتبعوا بغير شعور سنتهم ، والأمر لله العلي الكبير وأما قوله ﴿ إلا قليلا منكم ﴾ فهو استثناء لبعض من كانوا في زمن سيدنا موسى عليه السلام أو في كل زمن ، فانه لا تخلو أمه من الأمم من الخالصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم . والحكمة في ذكر هذا الاستثناء عدم بنحس المحسنين حقهم وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهي إذا فشا فيها المنكر وقل المعروف .

لو تدبر جهالتنا هذه الآية لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الأقطاب والأوتاد والأبدال في تحمل البلاء عنهم ، ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم ، ولو فرض أن هؤلاء الأقطاب موجودون حقيقة فإن وجودهم لا يفي عن الأمة شيئا ، وقد عصى الله جماهيرها وتقضوا أميثاقه الذي واثقهم به . فقد جرت سنته تعالى في خلقه بأن بقاء الأمم عزيزة إنما يكون بمحافظه الجماهير فيها على الأخلاق والأعمال التي تكون بها العزة ويحفظ بها الحمد والشرف . ومن لم يعتبر بآيات الله في كتابه ، لا يعتبر بآياته وسنته في خلقه ، فقد فتن المسلمون في دينهم ودنياهم وحل بجميع بلادهم ما حل من البلاء وهم لا يعتبرون (٤٧: ٢٤) أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ (٩: ١٣) أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون

(٨٤) وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ
أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٥) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَطَهَّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ
بِالْإِيمَةِ وَالْعَدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَمَا جَزَاءُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٦) أُولَئِكَ
الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ .

كان التذكير في الآية السابقة بأهم المأمورات التي أخذ الله تعالى الميثاق على
بنى اسرائيل بها بعد توحيد الله تعالى وإفراجه بالعبادة وبيان أنهم نقضوا ميثاق
الله تعالى ولم ياتمروا بها ، وفي هاتين الآيتين التذكير بأهم المنهيات التي أخذ الله
تعالى الميثاق عليهم باجتنابها ، وبيان أنهم نقضوا ميثاقه ولم ينتهوا عنها ، وقد قال
هناك (وإذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) أي الذين نزلت عليهم التوراة ، ثم التفت
إلى خطاب الحاضرين في زمن التنزيل فقال (ثم توليتهم) وقال هنا ﴿وإذا أخذنا
ميثاقكم﴾ تباديا في سياق الالتفات وتذكيرا بوحدة الأمة واعتبارها كالشخص
الواحد يصيب الخلف أثر ما كان عليه السلف من خير وشر ما استنوا بسنتهم .
وجروا على طريقهم ، كما تؤثر أعمال الشخص السابقة في قواه النفسية ، وطبع
ملكاته بعد انحلال مادة تلك الأعضاء التي ابتدأت العمل وحلول مواد أخرى
في محلها تتمرن على مثل ذلك العمل ، فما يفعله الشخص في صغره ، يبقى أثره في
قواه في كبره ، فكذلك الأمم .

وقد أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثراً شريفاً يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فقال ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه

كان كأنه ينجع نفسه وانهجر بيده . وقال ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ على هذا النسق . وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن . فهذه الأحكام لا تزال محفوظة عند الاسرائيليين في الكتاب وإن لم يجروا عليها في العمل ، ولكن العبارة عنها عندهم لا تطاول هذه العبارة التي تدهش صاحب الذوق السليم ، والوجدان الرقيق ، فهذا إرشاد حكيم طلع من ثنايا الأحكام يهدي إلى أسرارها ، ويؤمى إلى مشرق أنوارها ، من تديره علم أنه لا قوام للأمم ، إلا بالتحقق بما تضمنته هذه الحكم ، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم . لا فرق في الاحترام بين الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه وبين الأرواح والدماء التي يحيا بها إخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة والمصالح العامة ، هذا هو الوجه الوجيه في الآية ، وقيل: معناها لا تتركوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار . ويقال في قوله (لا تسفكون) كما قيل قبله في قوله (لا تعبدون إلا الله) من تضمن صيغة الخبر لنا أكد .

وقوله تعالى ﴿ثم أقرتم وأنتم تشهدون﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه الصلاة والسلام . (و ثانيها) أن المراد الحاضرون أنفسهم ، أى أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقرتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم ، ولا تنكرونه بالسفك ، بل تشهدون به وتعلمونه ، فالحجة ناهضة عليكم به .

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه لا ينكرون منه شيئاً ذكر نقضهم إياه فقال ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ الحاضرون الشاهدون المشاهدون

﴿تقتلون أنفسكم﴾ أى يقتل بعضكم بعضاً ، كما كان يفعل من قبلكم مع اعترافكم

بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذاً عليهم : كان بنو قينقاع من اليهود أعداء بنى قريظة إخوانهم في الدين وكان الأولون حلفاء الأوس ، والآخرون مع بنى النضير حلفاء الخزرج . ثم اقتربوا فبقي بنو النضير مع الخزرج وحالف بنو قريظة الأوس ، وكان الأوس والخزرج قبل الاسلام أعداء وكانوا يقتتلون ومع كل حلفاؤه ، فهذا ما احتج الله تعالى على بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم في عصر النزيل . ويتبع هذا

القتال الأسر ، ومن لوازمه الإخراج من الديار ولذلك قال ﴿ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالانتم والعدوان ﴾ والتظاهر التماون وتظاهرون أصله تتظاهرون كما قرأ الجمهور ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بمجذف إحدى التائين للتخفيف وهو مقيس مشهور . كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالانتم كالقتل والسلب ، وبالعدوان كالإخراج من الديار . ومن مشاركات العجب أنهم كانوا إذا اتفقوا على فداء الأسرى يفسد كل

فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ويمتدرون عن هذا بأنهم مأورون في الكتاب بفداء أسرى شعب إسرائيل . فإن كانوا مستمسكين بالكتاب فلم قاتلوا شعب إسرائيل وأخرجوهم من ديارهم وهم منهيون عن ذلك في الكتاب ؟ هذا لعب بالكتاب واستهزاء بالدين ولذلك قال تعالى

﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ بعد أن كنتم أسرتوهم وأخرجتموهم بالتظاهر عليهم مع العرب ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ بميثاق أغاظ من طاب مفاداتهم

﴿ أتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ وهو فداء الأسرى ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ آخر منه وهو النهي عن القتل والإخراج ؟ أليس من الحماقة والهزء والسخرية أن يدعى مدع مثل هذا الإيمان بأهون الأمور مع الكفر بأعظمها ؟ والإيمان لا يتجزأ فالكفر بالبعض كالكفر بالكل

قال الاستاذ الامام : في التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على ما سبق بيانه في معنى قوله تعالى (وأحاطت به خطيئته) فالقرآن يصرح هنا وفي آيات كثيرة بأن من يقدم على الذنب لا تضطرب نفسه قبل إصابته ، ولا يتألم ويندم بعد وقوعه فيرجع إلى الله تعالى تائباً ، بل يسترسل فيه بلا مبالاة ينهى الله تعالى

عنه وتحرر به ، فهو كافر به ، لأن المؤمن بأن هذا شيء حرمه الله تعالى ، المصدق بأنه من أسباب سخطه وموجبات عقوبته ، لا يمكن أن لا يكون لايمان قلبه أثر في نفسه ، فان من الضروريات أن لكل اعتقاد أثراً في النفس ، ولكل أثر في النفس تأثيراً في الأعمال . وهذا هو الوجه في الاحاديث الصحيحة المناطقة بأنه «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن»

سمى الله الذنب ههنا كفراً لما تقدم وتوعد عليه . بوعيد الكفر فقال ﴿فأجزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ الخ أو عدهم الله تعالى كما أوعد من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذي يجمعهم ، والشريعة التي هي مناط وحدتهم ، ورباط جنسيتهم ، بالخزي العاجل ، والعذاب الآجل ، وقد دل المعقول ، وشهد الوجود ، بأنه ما من أمة فسقت عن أمر ربها ، واعتدت حدود شريعتهما ، إلا وانتكت فتلتها ، وتفرقت شملها ، ونزل بها الذل والخوان ، وهو الخزي المراد في القرآن ، وهذه هي سنة الخليفة ذكرها ليعتبر بها من صرفته الغفلة عنها . وأما العذاب الآجل الذي عبر عنه بقوله ﴿وبوم القيامة يردون إلى أشد

العذاب﴾ فهو على كونه من عالم الغيب معقول المعنى ، وهاد إلى حكمة عليا ، ذلك أن النفوس البشرية إذا سجل مريرها ، واختلت بفساد الأخلاق أمورها وكثرت في هذا العالم شرورها ، حتى سلبت ما أعده الله تعالى لمن حافظوا على الحقيقة ، واستقاموا على الطريقة ، تكون جديرة بأن تسلب في الآخرة ما أعده الله تعالى للأرواح العالية ، وما وعد به أصحاب النفوس الزاكية ، فان سعادة الدار الدنيا لم تكن أجراً على أعمال بدنية ، لاتعلق بصلاح النفس في خلق ولا نية ، وإنما هي ثمرة تزكية النفس ، التي يتوسل إليها بعمل الحس ، فاذا كان هذا شأن سعادة الدنيا فكيف يكون نعيم الآخرة جزاء حركات جسدية ، وهي الدار التي تغلب فيها الروحانية ??? (٧:٩١-١٠ ونفس وما سواها * فأنهالها نجورها وتقواها * قد أفلح من زكاه * وقد خاب من دساها)

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو محيط به لا يخفى عليه منه شيء . وقد قرأ عاصم في رواية المفضل (تُردون) بالخطاب لمناسبة قوله (منكم) كما قرأ

الجمهور (يعملون) بالخطاب لذلك ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر ويعقوب (يعملون) على الغيبة لرجوع الضمير إلى (من يفعل)

ثم أكد الله تعالى ذلك الوعيد الشديد وبين سببه بقوله ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أى جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلا من الآخرة بما فرطوا في جنب الله وأهلوا من شريعته حتى لم يقبوعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم ولا يعارض شهواتهم كالحمية التي حملت كل حليف على الانتصار لمخالفة المشرك ، ومظاهرتة إياه على قومه الذين تجمعه بهم رابطة الدين والنسب ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ لأن علتة ذاتية فيهم وهى ظلمة أرواحهم وفساد أخلاقهم ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ بشفاعة شافع أو ولاية ولى من دون الله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وأنى يأذن بالشفاعة لمن سجلت عليهم الشقاء أعمالهم باحاطة الخطايا بهم من كل جانب ، حتى أخذت عليهم طريق الرحمة ، وقطعت عليهم باختيارهم سبيل الرضوان الالهى ؟ فمن الجهل إهالمهم الأمر والنهى ، وتعضهم ميثاق الله تعالى فى أم ماواتهم به ، واعتمادهم مع هذا كله على الشفعاء (٢١ : ٢٨) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون

ومن مباحث الالفاظ فى قوله (وهو محرم عليكم) أن الضمير للشأن عند المفسر والجاهير . وقال الأستاذ الإمام : إن النعمود فى كلام العرب أن الجملة التى تقضى الحال فيها بتقدم الاسم وتأخر الفعل أو ما يشتق منه لا بد أن تصدر بضمير تعتمد عليه ، ولهذا شواهد فى كلام البلغاء يتفق فيها ذوقهم وإن اختلف النحاة فى اعرابها

(٨٧) وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أَفَكُلَّمَا
جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقًا
تَقْتُلُونَ (٨٨) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مِمَّا يَمُنُونَ

عهد في سيرة البشر أن الأمة توعظ وتندبر ، فتمتعظ وتندبر ، فإذا طال عليها الأمد بعد النذير تقسم النلوب ، ويذهب أثر الموعظة من الصدور ، وتفسق عن أمر ربها ، وتنسى ما لم تعمل بهما أنذرت به ، أو تحرفه عن موضعه بضروب التأويل ، وزخرف القال والقيل ، ولقد يكون لتأخر منها بعض المنذر لجهله بما فعل المتقدم وأخذه ما يؤثر عنه بالنسليم لكامل الثقة وحسن الظن

بين الله تعالى هذه السنة الاجتماعية في سورة الحديد بقوله (ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ولهذا كان تعالى يرسل الرسل بعضهم في إثر بعض حتى لا يطول أمد الإنذار على الناس فيفسقوا ويضلوا . ولا يعرف التاريخ شعبا جاءت فيه الرسل تترى كشمع إسرائيل ، لذلك كانوا بعزل عن صحة النذر بطول الأمد على الإنذار . وفي ناحية عما يرجى قبوله من التعلل والاعتذار ، لهذا قال تعالى بعد كل ما تقدم

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ﴾ فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبي مرسل أو أنبياء متعددون يأمرزون وينهون كأنه يقول اعلموا يا بني إسرائيل أنه إن كان لطول الأمد على النبوة وبعد العهد بالرسل يدي تغيير الأوضاع ونسيان الشرائع ، وكان في ذلك وجه لاعتذار بعض المتأخرين ، فان ذلك لا يتناولكم ، فان الرسل قد جاءكم تترى ثم كان من أمركم معهم ما كان ذكر رسل بني إسرائيل بالإجمال لبيان ما ذكر ، ثم خص بالذكر المسيح عليه

السلام فقال ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البيئات وأيدناه بروح القدس ﴾ فأما البيئات فهي ما يتبين به الحق من الحجج القيمة والآيات الباهرة . وقال الأستاذ الامام : المراد بها مادعا إليه من أحكام التوراة . وأما روح القدس فهو روح الوحي الذي يؤيد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم ومعارفهم ، وهو المراد بقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) الآية .

ويطلق عليه روح القدس لأن التعليم الذي يكون به مقدس أو لأنه يقدر النفوس كما يطلق عليه « الروح الأمين » لأن النبي الموحى إليه يكون على بينة من ربه فيه

يؤمن معها التلميس فيما يلقي إليه ، قال تعالى في القرآن (نزل ٢٦ : ١٩٣ ، ١٩٤)
به الروح الامين * على قلبك لتكون من المنذرين)

(ثم قال الاستاذ) : ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بروح القدس الملك
المسمى بجبريل الذي ينزل على الأنبياء ، ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى
وهو على حد قولهم « حاتم الجود » وذكر بعضهم وجها آخر وهو أن المراد بها
روح عيسى نفسه ، ووصفها بالقداسة والطهارة بمعنى إعادته من الشيطان أن يكون
له حظ فيه ، أو لأنه أنزل عليه الانجيل بالتماليم التي تقدر النفوس ، بل قال
بعضهم : إن روح القدس هو الانجيل ، والمراد من الكل واحد ، وهو أن الله تعالى
أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين فيهم بعد موسى وأعطاه ما لم يعط كل
رسول من أولئك الرسل من الوحي أو من قوة الروح ، وزكاه النفس ومكارم
الاخلاق ، ونسخ بعض الأحكام ، وقد كان حفظه مع ذلك منهم كحفظ سابقه
الذين لم يؤتوا من المواهب مثل ما أوتي

ماذا كان حظ أولئك الرسل من بني اسرائيل ؟ كان حظهم منهم ما أفاده
الاستفهام التوبيخي في قوله * أفكما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم *
فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات ، وعصيتم الرسل واحتميمتم عليهم أن أنذروكم
ودعوكم إلى أحكام كتابكم * ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون * كان المعهود في التخاطب
وكلام الناس أن تذكر هذه المساوي ثم يوبخون عليها ، ولكن طواها في الخطاب
وأدجها في الاستفهام لتفاجيء النفوس بقوة التشنيع والتوبيخ ، وتبرز لها في ثوب
الانكار والتوبيخ ، وفي ذلك الابهام إلى أن هذه المعاملة السوءى مما لا يخفى خبرها ،
ولا تغيب عن الانكار صورها ، فلا ينبغي الالتماع إليها ، إلا في سياق تقرير
مجتريها ، وهذا من إيجاز القرآن ، الذي لا يعرج إليه فكر الإنسان ، وانظر كيف
أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة
الفظيمة وتمثيلها للسامع حتى يثقلها في الخيال ، وإن مرت عليها القرون والأحوال
لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها ، ودماء لا تطير رغوتها ، وإن مثل هذا التعبير للمثل

تلك الصورة المشوهة لأن الالفاظ إذا قرعت بالذهن بفهمها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللاتقة به ، فيكون له من التأثير ما يناسبه .

قلوا من الأنبياء المرسلين زكريا ويحيى عليهما السلام ، ويروى أنهم قتلوا في يوم واحد مائة وخمسين نبياً ، فإن صح هذا فالمراد بأولئك الأنبياء من كانت نبوتهم محصورة في الدعوة إلى إقامة التوراة ، ودليلها محصوراً في الإنبياء ببعض المغيبيات وكان هذا الفريق منتشرأ في أسباط بني إسرائيل وكثيراً بكثرتهم .

وفي هذه الآية حجتان للنبي ﷺ — حجة على بني إسرائيل وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به وإحابتهم دعوته ، وبيان أن المجاهدة والمعاندة من شأنهم ومما عرف من شغفتهم ، وناسب بعد هذا أن يذكر ما كانوا يعتذرون به عن الايمان به ، والاهتداء بكتابه ، بعد تقرير الدعوة ، وإقامة الحجج ، فقال **﴿وقالوا قلوبنا غلغ﴾** الغلف بضم وسكون وبضمين جمع أغلف ، وهو ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء . والمراد أننا لانعقل قولك ولا ينقد إلى قلوبنا مفهوم دعوتك فهو . بمعنى قوله تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب)

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال **﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾** أي أن قلوبهم ليست غلغاً لانفهم الحق بطبعها ، وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين ، وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرّفوه اتباعاً لأهوائهم ، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه ، فكان ذلك سبباً في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين . هذا هو معنى اللعن وقد ذكرت معه علمته ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى في الأسباب والمسببات وأن الله لم يظلمهم بهذا ، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذي يستتبع الكفر ، والعصيان الذي يجر إلى التماذى في العصيان ، كما هي السنة في أخلاق الإنسان . ولما ذكر اللعن معللاً بالكفر الذي هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة في أنفسهم ، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين ، بل مؤمنين بالله وكتابه ورسوله إليهم ، استدرك فقال **﴿فقل لا ما يؤمنون﴾** وإنما القلة في الايمان

باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة ، وبالنسبة إلى اليقين في الإيمان ، وتحكيمه في الفكر والوجدان

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة في الجملة وكما تعطيه ظواهر الألفاظ ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلاً ، ولم يفقهوا حكمها وأسرارها ، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم ، ولم تكن هي الحركة لإرادتهم في أعمالهم ، وإنما كان يحركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة ، فالإيمان إنما كان عندهم قولاً باللسان ، ورسمًا يلوح في الخيال ، تكذبه الأعمال ، وتطمسه السجايا الراسخة والخلال ، وهذا هو الإيمان الذي لا قيمة له عند الله تعالى . ومن العجب أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة ، والأساليب المؤثرة ، وأهل القرآن عن ذلك غافلون ، فقليلًا ما يعتبرون ويشدكرون .

ومن مباحث اللفظ في الآية : أن كثيراً من المفسرين يزعمون أن « ما » زائدة وما هي بزائدة وفاق لابن جرير الطبري ، وجل القرآن أن يكون فيه كلم زائدة وإنما تأتي « ما » هذه لإفادة العموم تارة ولتفخيم الشيء تارة ، ويقول ابن جرير إنما يؤتى بها في مثل هذا المقام كبتداء كلام جديد يفيد العموم كأنه قال : فإيماناً قليلاً ذلك الذي يؤمنون به : وأما التي لتفخيم الشيء فكقوله تعالى (٣ : ١٥٩) فما رحمة من الله لنت لهم) أي فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنت لهم على ما لقيت منهم ، وقد بين تعالى هذه الرحمة بقوله في وصفه ﷺ (٩ : ١٢٨) بالمؤمنين رؤوف رحيم) وقوله (٢١ : ١٠٧) وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

هذا ما اختاره الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى (فقليلًا ما يؤمنون) وهناك وجه آخر أورده ابن جرير في تفسيره ، وهو أنه لا يؤمن بالنبي وما جاء به إلا قليل منهم . والاستدراك على هذا الوجه أظهر ، فإنه لما بين أن كفرهم المستقر ، وعصيانهم المستمر ، كانا سبباً في لعنهم وإبعادهم ، كان للوهم أن يذهب إلى أنهم قوم قد سبيل عليهم الشقاء وعمهم حتى لا مطمع في إيمان أحد منهم ، فجاء قوله تعالى (فقليلًا ما يؤمنون) يبين أن هذا الوهم لا يصح أن ينطلق على إطلاقه ، وأن تأثير ما ذكر في مجموع الشعب لم يستغرق أفراد استغراقاً ، وإنما غمر الأكرين ، ويرجى أن

ينجو منه نفر التليل ، وكذلك كان . أقول : وفيه من دقة القرآن في الصدق وتحديد الحق ، لا يعهد في كلام الناس

(٨٩) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٩٠) بِسْمَا أَسْتُرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُرْمَى مِنْ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ فَلِمَ يُقْتَلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟

قال الاستاذ الامام : ان قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم كتاب ﴾ الخ متصل بقوله قبله (قليلا ما يؤمنون) والمعنى ان ايمانهم كان قليلا حال كونهم كانوا ينتظرون نبيا وكتابا مصدقا لما معهم وكانوا يستفتحون به على المشركين فكيف لا يكون قليلا ، أو أقل بعد ما جاء ما كانوا ينتظرون وعرفوا أنه الحق ثم كفروا ؟ فالجمله حالية : ويصيح أيضا هذا الاتصال الذي ذكره على الوجه الثاني في تفسير (قليلا ما يؤمنون) والكتاب هنا القرآن نكره للتفخيم وقوله ﴿ مصدق لما معهم ﴾ معناه أنه موافق له في التوحيد وأصول الدين ومقاصده ، والاستفتاح في قوله ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ معناه طلب الفتح وهو الفصل في الشيء والحكم ويستعمل بمعنى النصر لأنه فصل بين المتحاربين . وكانت اليهود تستفتح على مشركي العرب بالنبي المنتظر يقولون إنه سيظهر فينصر كتابه التوحيد الذي نحن عليه ويخذل الوثنية التي تفتحلونها ويبطلها ، فيكون مؤيدا لدين موسى

(أقول) روى محمد بن اسحاق عن أشياخ من الأنصار أن هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة ، قالوا: كنا قد عدلوناهم قهراً دهرًا في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون إن نبياً سيمبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم الخ وروى الضحاك عن ابن عباس في تفسير (يستفتحون): يستنصرون يقولون نحن نعين محمداً عليهم الخ وتمتته في تفسير الهاد ابن كثير . وشذ بعضهم كالبغوي في تفسيره فقل إنهم كانوا يقولون إذا حزبهم أمر أو دهمهم عدو : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة والإنجيل . فكانوا ينصرون وفيه روايات ضعيفة عن ابن عباس لم يعرج ابن كثير على شيء منها ، ولعله لأنها على ضعف رواياتها ومخالفتها للروايات المعقولة شاذة المعنى يجعل الاستفتاح دعاء بشخص النبي ﷺ وفي بعض الروايات «بحقه» وهذا غير مشروع ولا حق لأحد على الله فيدعى به كما قال الإمام أبو حنيفة وغيره . وكذلك فعل ابن جرير لم يذكر شيئاً من روايات الدعاء بحقه والاستنصار بشخصه ، بل ذكر عدة روايات في أنهم كانوا يدعون الله بأن يبغضه ليقتل المشركين وفي بعضها أنهم كانوا يريدون أن يكون منهم . والكلام هنا في محيى الكتاب لا في محيى الرسول ﷺ الذي يأتي ذكر محيئه قريباً ، على أنهما متلازمان * فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به * أعاد فلما جاءهم وهي عين الأولى لطول الفصل ووصل به الجواب وهو «كفروا به» ذلك أنه راعهم كونه بعث في العرب فحسدوه فحلمهم الحسد على الكفر به جحوداً وبغياً ، فسجلت عليهم اللعنة التي أصابتهم بكفرهم الأول بأن الكفر صار وصفاً لازماً لهم ولذلك قال * فلعنة الله على الكافرين * ولم يقل عليهم لأن المظهر أبلغ وأعم وأشمل ثم ذكر علة هذا الكفر وسببه وبين فساد رأيهم فيه بقوله * بتسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله * أي بتس شيئاً اشتروا به أنفسهم هو كفرهم بما أنزل الله مصداقاً لما معهم ، كما كانوا ينتظرون . شري الشيء واشتراه يستعمل كل منهما بمعنى باع الشيء ، وبمعنى ابتاعه ، لأن الحرف يدل على المعاوضة . وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن « اشتروا » هنا بمعنى باعوا أي إنهم بذلوا أنفسهم وباعوها بما حرصوا عليه من الكفر بغياً وحسداً للنبي ، وحباً في الرياسة واعتزازاً

بالجنسية، وبما كان لكل من الرؤساء والمرموسين من المنافع المتبادلة في المحافظة عليها، فهذا كله يعد ثمنا لأنفسهم التي خسروها بالكفر حتى كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع. وذكر ابن جرير وجه آخر وهو أن «اشترؤا» هنا بمعنى ابتاعوا، أى إنهم جعلوا أنفسهم ثمنا للكفر الذى ذكرت علمته آنفا. وفيه من الزيادة على معنى المعاوضة فى الوجه الأول أنهم قد أفقدوا أنفسهم بذلك الكفر، أى أنهم يزعمون ذلك ويدعون فى الظاهر، وإن كانوا فى الباطن قد عرفوا أن ما جاءهم هو الحق الذى كانوا ينتظرون، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يكتمون.

وقد فهم مما تقدم معنى قوله تعالى ﴿بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ فهو تعليل لكفرهم لا لشرائعهم، أى كفروا به لحض البغى الذى أثاره الحسد كراهة أن ينزل الله الوحي من فضله بمقتضى مشيئته، وأى بغى أقبح من بغى من يريد أن يحجر على فضل الله ويفيد رحمته فلا يرضى منه أن يجعل الوحي فى آل اسماعيل كما جعله فى آل أخيه اسحاق؟ فرأى ابن كثير وأبو عمرو (ينزل) بالتخفيف من الإنزال والباقون بالتشديد من التنزيل. وأما قوله ﴿فبأءوا بغضب على غضب﴾ فهو الغضب الذى استوجبه حديثا بالكفر بالنبي ﷺ فوق ذلك الغضب الذى لحقهم من قبل بإعنات موسى عليه السلام والكفر به، وقد ذكر فى قوله (-: ١١٣) وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأءوا بغضب من الله) ثم توعدهم بعد الغضب المزدوج فقال ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أى مقرون بالاهانة والإذلال، وبذلك صار بمعنى الآية السابقة، فكان الجزاء واحدا تكرر بتكرر الذنب. وقال (وللكافرين) ولم يقل (ولهم) لما فى المظهر من بيان التعليل بالوصف الذى سجله عليهم كما تقدم آنفا وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقد تقدم أن ذنوب الأمم تتبعها عقوباتها فى الدنيا لأنها أثر طبيعى لها، وإنما جعلها الله كذلك لتكون عبرة يتأدب المتأخرون بما أصاب منها المتقدمين. وكذلك الحال فى عقوبة الآخرة بالنسبة إلى الأفراد، فإن عذاب كل شخص إنما يكون بحسب تأمير الجهل فى عقله وفساد الأخلاق وسوء الأعمال فى نفسه.

اعتذر بعض اليهود فى عصر التنزيل عن عدم الإيمان به بأن قلوبهم غلقت

لم تفهم الدعوة ولم تعقل الخطاب ، فرد الله تعالى عليهم ببيان السبب الحقيقي في ترك الإيمان ، وما استحقوه عليه من الغضب والهوان . ثم ذكر اعتذاراً آخر لهم

مقرونا بالرد والإبطال ، وإقامة الحججة عليهم به فقال ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفَنَّا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا ﴾ ضيغة الدعوة تشعر بوجوب الإيمان بما أنزل الله تعالى لأنه هو الذي أنزله لا لأن المنزل عليه فلان . ولذلك لم يقل : آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ . فان ما أنزل عليه لو أنزل على غيره لوجب الإيمان به . فان الوحي هو المقصود بالذات والأنبياء إتمام مبلغون ، فتمقيدهم الخضوع لوحي الله بكونه لا بد أن يكون منزلاً على شخص من شعب كذا بعينه يحكم على الله تعالى وقضاء عليه بأن تكون زحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه . فايراد الدعوة بما ذكر من الإطلاق مع إيراد الجواب مقيداً بيقيد (تؤمن بما أنزل علينا) يشعر بقوة حجة الدعوة ، ووهن ما بني عليه الجواب من الشبهة . ثم صرح بالحقيقة وهي أنهم إنما يدعون هذا الإيمان بالسنتهم ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ من مدلول ولازم لا ينفك عنه كالبشارة برسول من بنى إخوانهم أى ولد إسماعيل ، وكون ما تثبت به نبوة محمد بمساواته لما تثبت به نبوة موسى يستلزم وجوب اتباع محمد كما اتبع موسى لأن المدلول يتبع دليله في كل زمن وكل موضوع . قال : إنهم يكفرون بما وراء المنزل إليهم ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أى والحال أنه الحق الثابت في نفسه بالدليل حال كونه ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ فهو مؤيد عندهم بالمقل والنقل ، وقد كان من مكابرتهم وعنادهم ما كان فلم يبق إلا إلزامهم الحججة بما اقتروا من فحش المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه ليعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم ويحكمون شهواتهم بما أنزل إليهم وما أنزل على محمد ﷺ ، ولذلك قال ﴿ قُلْ فَلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ بما أنزل إليكم وليس فيه الأمر بقتل الأنبياء بل فيه النهي الشديد عن قتل أنفسكم .

ومن مباحث اللفظ أو البلاغة : أنه لجاء بالجملة الحالية في بيان كون ما كفروا به هو الحق لأن الجملة الحالية تدل على تقدم ثبوت مضمونها على حدوث ما جعلت قيداً له ، وما كفروا به كذلك هو الحق من قبل كفرهم . وهذا المعنى للجملة الحالية

هو ما حققه الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، ولم يشر إليه شيخنا هنا لأنه لم يكن عند تفسير هذه الآيات قد قرأ دلائل الإعجاز ، وقوله (مصدقا لما معهم) حال مفردة مؤكدة والأصل فيها المقارنة لما هي قيد له ، وهو يتضمن إثبات كفرهم بالتوراة بالتبع لكفرهم بالقرآن المصدق لها ولو فيما صدقها فيه ، والكفر ببعضه كالكفر به كله كما تقدم بيانه قريبا . ومن مباحث اللفظ أيضا : وضع المضارع (تقتلون) موضع الماضي (قتلتم) لما سبق بيانه في مثل هذا التعبير من إرادة استحضار صورة هذا الجرم الفظيع مبالغة في التقرير ، وإغراقا في التشنيع ، ولما كانت هذه الصيغة تدل على الحال فتوهم أن الذين في زمن التنزيل كانوا لا يزالون يقتربون هذه الجريمة على أنه لم يكن في ذلك العهد أنبياء إلا من يبيحتهم ويحتج عليهم - وصلها بقوله (من قبل) دفعا لذلك الوهم . والفاء في قوله (فلم) واقعة في جواب شرط دل عليه ما بعده .

وقد سبق القول غير مرة بأن خطاب الخائف بإسناد ما كان من سلفهم إليهم مقصود لبيان وحدة الأمة وتكافلها وكونها في الأخلاق والسجايا المشتركة بين أفرادها كالشخص الواحد ، وبيان أن ما تبلى به الأمم من الحسنات والسيئات إنما هو أثر الأخلاق الغالبة عليها والأعمال الفاشية فيها متباعدة عن تلك الأخلاق فما جرى من بني إسرائيل من المسكرات لم يكن من قذافات المصادفة ، وإنما كان عن أخلاق راسخة في الشعب تبع الآخرون فيها الأوائل ، إما بالعمل وإما بالقرار وترك الإنكار . ولو أنكروا المجموع ما كان من بعض الأفراد لما تغافم الأمر ، ولما تمادى واستمر . فالحجة تقوم على الحاضرين بأن العابرين قتلوا الأنبياء فأقرهم من كان معهم ، ولم يعدوا ذلك خروجا من الدين ولا رفضا للشيعة ، وتبعهم من بعدهم على ذلك ، وفاعل الكفر ومجهزه واحد ، وقد سبق تقرير هذا غير مرة .

(٩٢) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ
وَأنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَأُشْرِبُوا فِي

قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٤) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٥) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٦) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يُؤْذُوا أَحَدَهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

سبق التذكير بأخذ العجل في قوله تعالى (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة) ثم أعاده هنا بعبارة وأسلوب آخرين في سياق آخر . أما اختلاف العبارة والأسلوب فظاهر وأما السياق فقد كان أولا في تمداد النعم على بني إسرائيل وبيان ما قابلوها به من الكفران وهو هنا في ذكر الآيات ورد شبهاتهم المانعة بزعمهم من الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فهناك يقول إن النعم التي أسبغها الله عليكم لم يكن لها من شكر عندكم إلا اتخاذ عجل تعبدونه من دونه . وههنا يقول إن الآيات البينات على النبوة والوحدانية ، لم تزكم إلا إيفالا في الشرك وانهما كما في الوثنية ، فكيف تمسذرون عن الإيمان بمحمد بأنكم لا تؤمنون إلا بما أنزل اليكم وهذا شأنكم فيه ؟ ومجموع الآيتين ينبيء بفساد قلوب القوم وفساد عقولهم حتى لا مطمع في هداية أكثرهم من جهة الوجدان ، ولا من ناحية العقل والجنان . وهذه البينات التي ذكرها ههنا قد كانت في مصر قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة وأما النعم التي ذكرها هناك فقد كانت في أرض الميعاد كما تقدم . ووجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها قد علم مما قلناه في السياق وفيه المقابلة بين معاملتهم لموسى عليه السلام ومعاملتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ قالوا : قلوبنا غلف : وادعوا أنهم مأمورون بأن لا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم خاصة . وقد علم من هذه

« تفسير القرآن الحكيم » « ٢٥ » « الجزء الأول »

الحجج كلها بطلان شبههم وكذبهم في دعواهم وأنه لا عذر لهم في ترك الإيمان
قال ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أي من بعد
هذا الحجى . لا من بعد موسى والمراد أنه لم يكن لهم عذر في ذلك الاتخاذ فإنه بعد
بلوغ الدعوة : وقيام الحججة ، ولذلك قال ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ وأي ظلم أعظم من
الشرك بالله تعالى ؟ ولا تغفل عن الإيجاز في قوله (من بعده) وحذف مقبول
(اتخذتم) أي اتخذتموه إلهاً

ثم ذكرهم هنا أيضاً بأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به في آية تقدمت ، وقد
قال هناك (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه) وقال هنا (خذوا ما آتيناكم بقوة
واسمعوا) وأمرهم في تلك بالحفظ وأمرهم في هذه بالفهم والطاعة . وقلنا في تفسير
(واذكروا) إن المراد الحث به على العمل فالعبارتان تتلاقيان في المعنى والمراد .
وفي اختلاف النظم والأسلوب حجة على الذين توهموا أن إعجاز القرآن في
البلاغة إنما هو في السبق إلى العبارة التي يتأدى بها المعنى على أكمل الوجوه الممكنة
في نظم الكلمات العربية . رأى هؤلاء أن المعنى الذي يفيد علماً بشيء ما له كلمات
في اللغة تؤديه بوجوه من النظم وأن الكلمات والوجوه محدودة فمن سبق إلى آتياها
أداء وأبلغها تأثيراً كان كالسابق إلى انتقاء أكرم جوهره من طائفة من الجواهر
أمامه أو إلى أنفس عقيد وأحسنه نظماً من عقود عرضت عليه . مثال ذلك قوله
تعالى (٤٠: ٢٨) وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي
الله) قال علماء هذا الشأن إنه يتألف من هذه الكلمات عشرة ضروب من النظم
بالتقديم والتأخير ، ما من ضرب منها إلا وهو منتقد بالخطأ أو إيهاً خلاف المراد
أو الخطأ في الاعراب إلا نظم الآية فهو الذي يؤدي المعنى على أكمل الوجوه
ولا يتأني نظم آخر يؤدي مؤداه . وزعم بعض الناس أن هذا الإعجاز ليس إلهياً
لو أخذ ما قالوه مسلماً على إطلاقه لكان لنا أن نقول إنه ليس في قدرة أحد
من البشر أن يأتي بكلام طويل يتجلى له في كل جملة منه جميع الكلمات التي تدخل
في تأدية المعنى المراد له وجميع ضروب النظم ووجوه الأساليب الممكنة في ترتيب
تلك الكلمات وتأليفها فيختار الأحسن الأبلغ منها . وإذا لم يكن هذا في قدرة

البشر كما هو ظاهر فلا بد أن يكون من جاء به مؤيداً بعناية من الله تعالى . على أننا لا نسلم بما قالوه على إطلاقه فانه لا يتجه إلا في الفاظ معينة كألفاظ آية (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) الخ وإذا نظرنا إلى المعاني لا سيما الكلية نراها تتجلى في صور كثيرة من النظم الذي تختلف ألفاظه . وأمامنا الآن معنى الآية التي نفسرها وهو أن الله أخذ العهد على بني إسرائيل بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأن يعملوا بشرعته ووصاياه وكان أخذ هذا العهد في موقف رهبة وخشوع يمين على أخذه بالجد والعزيمة إذ كان الجبل مرفوعاً فوقهم بصفة لم يعدهوها حتى ظنوا أنه يريد أن يقع بهم ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الميثاق وتركوا العمل به وعبدوا العجل الذي صاغوه من حلبيهم بأيديهم عن حب متمكن من النفس ، وغالب على العقل والحس ، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في كتابه غير مرة ولكن بعبارات مختلفة كآية التي تقدمت وذ كر هناك أنهم تولوا عن الميثاق بعد الأمر بحفظه والعمل به رجاء التقوى ، وكآية الأعراف (وإذ نقننا الجبل فوقهم كأنه ظلة) وتقدمت الإشارة إليها هناك وكلاهما غاية في البلاغة .

وذ كر هنا بنظم آخر تنتهي إليه البلاغة في سياق آخر فقال ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ ثم التفت عن خطاب الحاضرين إلى الحكاية عن الغابرين فقال ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ أي إنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتاً وتأولوا وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين (سمعنا وعصينا) بل المراد أنهم بمثابة من قال ذلك ، ومثل هذا التجوز معروف في عهد العرب وفي هذا العهد - يعبرون عن حال الانسان وغيره بقول يحكيه عن نفسه حتى حكي مثل ذلك عن الحيوانات والطيور وعن الجمادات أيضاً وهو أسلوب أظن أنه يوجد في كل لغة أو في اللغات الراقية فقط . ثم ذكر أقبح أمثلة هذا العصيان بعبارة مدهشة في بلاغتها فقال ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ هذه الاستعارة من فرائد الاستعارات يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن . وإشرب الشيء الشيء مخالطته إياه وامتزاجه به ،

يقال بياض مشرب بحمرة ، أو هو من الشرب كأن الشيء المحبوب شراب يساغ فهو يسرى في قلب الحب و يمازجه كما يسرى الشراب العذب البارد في لهاته . وقد قدر الأكتيون هنا مضافا محذوفا ، فقالوا المراد « حب العجل » وذهب بعض الجامدين على الظواهر إلى أن المراد بالشرب هنا حقيقته . وزعموا أن موسى لما سحق العجل وذراه في اليم طفقوا يشربون المسحوق مع الماء . وغفل صاحب هذا الزعم عن قوله تعالى (في قلوبهم) والشراب الحقيقي لا يكون في القلب . والشرب غير الإشراب . ولبعض المفسرين مزاعم وقصص في العجل لا يدل عليها وحى منزل ، ولا تاريخ صحيح ينقل ، والباء في قوله (بكفرهم) للسببية أى سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل هو ما كانوا عليه من الوثنية في مصر ، فقد رسخ الكفر في قلوبهم بطول الزمن وورثه الأبناء عن الآباء

وأما السياق الذي وردت فيه هذه الآية بهذا النظم والأسلوب المخالفين لأسلوب تلك الآية مع الاتحاد في المعنى فهو إقامة الحجة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ورد زعمهم أنهم مؤمنون بشريعة لا يظلمهم الله بالإيمان بغيرها كما قلنا في التي قبلها ، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى مخاطباً للنبي عليه الصلاة والسلام

﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعة - والإيمان الحقيقي يقتضى العمل بما له من السلطان على الإرادة - فبئسما يأمركم به ذلك الإيمان من الأعمال التي منها عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق . لكن هذا الزعم مشكوك فيه بل يصح القطع بعدمه ، بدليل الأعمال التي يستحيل أن تكون أثره له . ولا ينسى القارىء ما تقدم من ربط الإيمان بالعمل الصالح في تفسير قوله تعالى (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) الآية هذه حجة عليهم بطبيعة الإيمان وأثره في عمل المؤمن . وتليها حجة أخرى

تتعلق بفائدة الإيمان ومثوبته في الحياة الأخرى ، وهي قوله عز وجل : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ المراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها ، لأن حال الانسان فيها لا يخلو من أحد الأمرين - المثوبة بالنعيم المقيم ، والعقوبة بالمذاب الأليم ، واستغنى

عن التصريح بالنعيم أو الثواب بقوله (لكم) فانه يشعر بالمحذوف . وانما أوجز هنا في خطاب اليهود لأنه يحكى عن شيء يعرفونه في أنفسهم، وقد أوضح المراد بقوله (خالصة من دون الناس) والخالصة هي السالمة من الشوائب .

(قال الاستاذ الامام) فسر مفسرنا (الجلال) الخالصة بالخالصة وقالوا

إنه استعمال لم يعهد في الكلام الفصيح ، والتخصيص مفهوم من قوله (من دون الناس) يقول إن صححت دعواكم وصدق قولكم إنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وأنكم شعب الله المختار فلن تمسك النار إلا أياماً معدودات لاتزيد على أيام عبادة العجل ولا تتجاوز عابديه ، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم ، الذى لامنازع لكم فيه ولا مزاحم ، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين ، إذ لا يعقل أن يرغب الانسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها . والتمنى هو ارتياح النفس وتشوقها إلى الشيء توده وتحب المصير اليه . وروى عن ابن عباس تفسير التمنى بالسؤال والطلب ، وهو غير معروف عن غيره من العرب .

واعله فسر باللازم، فان من تمنى شيئاً طلبه بالقول أو الفعل أو بهما . وقد روى عن كثير من الصحابة عليهم رضوان الله تمنى الموت عند القتال وبعده القتال يعبرون بالسنتهم عما في نفوسهم، وما هو إلا صدق الإيمان بما أعد الله للمؤمنين في الدار الآخرة (أقول) تفسير التمنى بلازمة التولى كما نقل عن ابن عباس أو المعنى كالتعرض للقتل

في سبيل الإيمان كما نقل عن غيره يدفع إيراد من يقول : إذا كان المراد بالتمنى تمنى النفس فلا يظهر صدق قوله تعالى في الآية التى بعد هذه الآية (ولن يتمنوه) وقد ظهر صدقها على الوجه الاول فلم يتمن أحد من المخاطبين الموت ، وقد ورد أنهم لو تمنوا الموت لما أتوا رواه البخارى : وما قاله الاستاذ الإمام في تفسير التمنى بحقيقته يدفع كل إيراد . فقد قال : إن الكلام حجة على مدعى الإيمان واستحقاق ما أعد الله لأهله في الآخرة تقعهم في أنفسهم بأنهم إما صادقون في دعواهم وذلك إذا كانوا يتمنون في أنفسهم الموت والوصول الى الدار الآخرة ويبدلون أرواحهم في سبيل الله بارتياح إذا كان حفظ الحق يقتضى بذلها ، وإما كاذبون فيها ، وذلك إذا كانوا شديدي الحرص على هذه الحياة . وليس المراد به الحجة

الإلزامية أمام الناس. ولذلك كانت العبرة في الآية عامة فهي واردة في سياق الاحتجاج على اليهود ويجب على المسلمين أن يتخذوها ميزانا يزنون به دعواهم اليقين في الإيمان والقيام بحتوقه لأن الله أنزلها لذلك.

لو كان المراد بقوله ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ أنهم لن يقولوا: ياليتنا نموت. أو كلمة هذا معناها لكن الاحتجاج عليهم إنما هو بالتعجيز عن لفظ يحركون به ألسنتهم ولما كان ذلك من الخوارق الكونية ولما صح تعليل نفي التمني بقوله ﴿بما قدمت أيديهم﴾ فإن هذا التعليل صريح بأن المانع لهم من تمني الموت هو أنهم يعرفون من أنفسهم أنهم عاصون مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها العقوبة لأن ألسنتهم عاجزة عن النطق بكلمة تدل على تمني الموت وإن كذبنا، وكثيراً ما كانوا يكذبون، وقد أسند الفعل إلى الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاوُل بها ولذلك جرى عرف اللغة على جعلها كناية عن الشخص باعتبار أنه عامل مطلقاً. وقد ختم الآية بقوله ﴿والله عليم بالظالمين﴾ ليبين أنهم ظالمون في حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم وأن غيرهم من الشعوب محروم منها، وأن كل من كان مثلهم مفتاناً على الله تعالى فهو ظالم مثلهم.

ثم بين حقيقة حالهم في الإخلاق إلى الأرض، والفناء في حب البقاء، وأنهم ليسوا على بينة مما يدعون، ولا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون، فقال ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ كذلك كانوا وكذلك هم الآن. والظاهر من سيرتهم ونظام معيشتهم أنهم كذلك يكونون إلى ما شاء الله وإن كان الظاهر أن الكلام خاص بمن كانوا في عصر التنزيل يحاجهم النبي ﷺ ويشاغبونه وبجاحدونه، معتزٍ بشعبهم معتزٍ بكتابهم، بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد علماءهم فقط. ونكر الحياة للتحقير، كأنه يقول: إنهم شديدو الحرص على الحياة وإن كانت في بؤس وشقاء. ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة وتمني طول البقاء في الدنيا لأنهم لا يؤمنون بحياة بعدها فقال ﴿ومن الذين أشركوا﴾ أي أنهم أحرص الناس من جميع الناس حتى

من الذين أشركوا ، ثم بين مثالا من هذا الحرص مستأنفاً فقال ﴿ يود أحدكم لو يعمر ألف سنة ﴾ أى يمتنى لو يعمره الله ويبقيه ألف سنة ، أو أكثر ، فإن لفظ الألف عند العرب منتهى أسماء العدد فيعبر به عن المبالغة في الكثرة لأنه يعرف من نفسه أنه مخالف لكتابه ويتوقع سحق الله وعقابه فيرى أن الدنيا على ما فيها من المنفصات خير له من الآخرة وما يتوقعه فيها . قال تعالى ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ أى وما تكميره الطويل بمزحزحه أى منحيه ومبعده عن العذاب المعد له ولأنه فإنه ميت مهما طال عمره وكل ماله حد فهو منته إليه ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ لا تخفى عليه خافية من أمرهم ولو عرفوه حق معرفته لعادوا أن طول العمر لا يخرجهم من قبضته ، ولا ينجيهم من عقوبته ، فإن المرجع إليه ، والأمر كله بيديه . ومن مباحث اللفظ أن الضمير فى قوله (وما هو) مبهم يفسره ما بعده كما اختاره الاستاذ الامام وأكثر المفسرين على أن «ما» حجازية والضمير العائد على (أحدم) اسمياً ومزحزحه خبرها ، والباء زائدة فى الأعراب و (أن يعمر) فاعل مزحزحه .

(٩٧) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٨) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٩) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (١٠٠) أَوْ كَلِمًا عَاهِدًا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

الكلام متصل بما قبله من ذكر تميلات اليهود واعتذارهم عن الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام وما جاء به من البينات والهدى - زعموا أنهم مؤمنون بكتاب لا حاجة لهم بهداية فى غيره ، فاحتج عليهم بما ينقض دعواهم ، وزعموا أنهم ناجحون فى الآخرة على كل حال لأنهم شعب الله وأبنائه فأبطل زعمهم ، ثم

ذكر لهم تعة أخرى أغرب مما سبقها ، وفندها كما فند ما قبلها ، وهي أن جبريل الذي ينزل بالوحي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عدوهم فلا يؤمنون بوحى يجيء هو به . وقد جاء في أسباب النزول روايات عنهم في ذلك . منها أن عبد الله بن سوريا من علماءهم سأل النبي ﷺ عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي ؟ فقال : هو جبريل ، فزعم أنه عدو اليهود ، وذكر من عداوته أنه أخذهم خراب بيت المقدس ، فكان . ومنها أن عمر بن عبد الخطاب رضى الله عنه دخل مدراسهم فذكر جبريل ، فقالوا : ذاك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلم : الخ ، وهذا القول هراء ، وخطله بين ، وإنما عني القرآن بذكره ورده لأنه مؤذن بتعننتهم وعنادهم ، وشاهد على فساد تصورهم وعدم تدبرهم ، ليعلم الذين كانوا ينتظرون ما يقول أهل الكتاب وفيه أنه لا قيمة لأقوالهم ، ولا اعتداد بمراءاتهم وجدالهم

قال تعالى ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك باذن الله ﴾
 أى قل لهم أيها الرسول حكاية عن الله تعالى : من كان عدواً لجبريل فإن شأن جبريل كذا - فهو إذاً عدو لوحي الله الذى يشمل التوراة وغيرها ولهداية الله تعالى خلقه وبشراه للمؤمنين ، على ما يأتى في بيان ذلك . قال شيخنا في تقييد تنزيله باذن الله : وإذا كان يناجى روحك ويخاطب قلبك باذن الله ، لا افتياتاً من نفسه ، فعداوته لا يصح أن تصد عن الإيمان بك ، وليس للعاقل أن يتخذها تعة ويتحلها عنراً ، فإن القرآن من عند الله لا من عنده . فقوله (باذن الله) حجة أولى عليهم ، ثم قال ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أى حال كونه موافقاً للكتب التى تقدمته في الأصول التى تدعو إليها من التوحيد واتباع الحق والعمل الصالح وطابقاً لما فيها من البشارات بالنبي الذى يجيء من أبناء إسماعيل ، كأنه يقول : فأمنوا به لهذه المطابقة والموافقة ، لا لأن جبريل واسطة في تبليغه وتنزيله . وهذه حجة ثانية ثم عززها بثالثة وهى قوله ﴿ وهدى ﴾ أى نزله هادياً من الضلالات والبدع التى طرأت على الأديان ، فألقت أهلها في حضيض الهوان ، والعاقل لا يرفض الهداية التى تأتية ، وتتقدمه من ضلال هوفيه ، لأن الواسطة في مجيئها كان عدواً له من

قبل ، فإن هذا الرفض من عمل العبي الجاهل الذي لا يعرف الخير بذاته وإنما يعرفه
 بمن كان سبباً في حصوله . ثم أيد الحجج الثلاث برابعة فقال ﴿ و بشرى للمؤمنين ﴾
 أى إذا كنتم تعادون جبريل لأنه أنذر بخراب بيت المقدس فهو وإنما أنذر المفسدين
 وقد أنزل هذا القرآن على بشرى للمؤمنين فما لكم أن تتركوا هذه البشرى إن
 كنتم من أهل الإيمان ، لأن الذى نزل بها قد نزل بانذار أهل الفساد والظغيان
 ومن مباحث اللفظ فى الآية: أن جبريل اسم أعجمى مركب من « جبر » ومعناه
 بالعبرانية أو السريانية القوة ومن « إيل » ومعناه الإله أى قوة الله وقيل معناه
 عبد الله . وفيه ١٣ لغة منها ثمان لغات قرىء بهن أربع فى المشهورات : جبرئيل
 كسلسبيل قرأ بها حمزة والكسائى وجبريل بفتح الراء وحذف الهمزة قرأ بها ابن كثير
 والحسن وابن محيصن وجبرئيل كججرش قرأ بها عاصم برواية أبى بكر ، وجبريل
 كقنديل قرأ بها الباقون . وأربع فى الشواذ جبريل وجبرائيل وجبرئيل وجبرين .
 ومنها أن قوله (نزله على قلبك) ورد على طريق الالتفات عن التكلم إلى الخطاب
 إذ كان مقتضى السياق أن يقول (نزله على قلبى) وقد قالوا فى نكته إنها حكاية
 ما خاطبه الله تعالى به . ولا أرى صاحب الذوق السليم إلا مستنكراً صيغة التكلم
 فى هذا المقام ، والعلة فى ذلك لا تبعد عن الأفهام ، ومنها أن الضمير المنصوب
 البارز فى (نزله) للقرآن وهو لم يذكر فيما قبلها وإنما عينته قرينة الخال ، وذلك
 يدل على فخامة شأنه ، كأنه لشهرته قد استغنى عن ذكره (قاله البيضاوى)
 أقام الحجج على حماقتهم وسخفهم فى دعوى عداوة جبريل وبيان أنها لا يصح
 أن تكون مانعة من الإيمان بكتاب أنزله الله بتلك الصفات التى طويت فيها الحجج
 ثم بين فى آية أخرى حقيقة حالهم فى هذه العداوة فقال ﴿ من كان عدواً لله ﴾
 بكفره بما ينزله من الهداية ﴿ وملائكته ﴾ برفض الحق والخير الذى فطروا عليه وكرهه
 القيام بما يعهد به إليهم ربه عز وجل ، لأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون
 ما يؤمرون) ﴿ ورسوله ﴾ بتكذيب بعض وقتل بعض ﴿ وجبريل وميكال ﴾ بأن
 الأول ينزل بالآيات والندرة ، ومن كان عدواً لجبريل فهو عدو لميكال لأن

فطرتيما واحدة وحقيقتيما واحدة من مقتها وعادها في أحدهما فقد عادها في الآخر ﴿ فان الله عدو للكافرين ﴾ أي من عادى الله وعادى هؤلاء المقرين من الله الذين جعلهم رحمة خلقه فان الله عدو له ، لأنه كافر بالله ومعاد له ، والله عدو للكافرين أي يعاملهم معاملة الأعداء للاعداء ، وهم الظالمون لأنفسهم إذ دعاهم فلم يقبلوا أن يكونوا مع الأولياء (ميكل) بوزن ميعاد قراءة أبي عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص ، وقرأ نافع ميكايل وحمزة والكسائي وابن عامر ميكايل . وفي الشواذ ميكل وميكايل وميكايل .

(قال الاستاذ الامام) هذا وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التي جاءوا بها وهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم ولكنهم كذلك في نفس الأمر ، فأراد أن يبين حقيقة حالهم في الواقع ، وهي أنهم أعداء الحق وأعداء كل من يمثله وينقله ويدعو إليه ، فالتصريح بعبادة جبريل كالتصريح بعبادة ميكال الذي يزعمون أنهم يحبونه وأنهم كانوا يؤمنون بالنبي لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه . ومعاداة القرآن كعبادة سائر الكتب الالهية ، لأن الغرض من الجميع واحد . ومعاداة محمد ﷺ كعبادة سائر رسل الله لأن وظيفتهم واحدة . فقولهم السابق وحلم يدلان على معاداة كل من ذكر . وهذا من ضروب إيجاز القرآن التي انفرد بها .

وفي قوله تعالى (للكافرين) وضع للمظهر في موضع المضمحل لبيان أن سبب عداوته تعالى لهم هو الكفر ، فان الله لا يعادى قوما لدنواهم ولا لأنسابهم ، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو .

(أقول) وقد تقدم غير مرة أن عذاب الله وانتقامه من الكفرة العنصرة لا يشبه انتقام ملوك الدنيا وزعمائها ، وإنما قضت سنته تعالى بأن يكون لكل عمل يعمله الانسان في ظاهره أو في نفسه وضميره أثراً في نفس العامل يزكيها ويدسيها وسعادة الانسان في الآخرة أو شقاؤه تابع لآثار اعتقاداته وأعماله في نفسه . ولذلك قال تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) .

ثم صرح بأن القرآن منزل من عند الله وحده ، وأنه في نفسه آيات بينات لا يحتاج إلى آية أخرى تبينه وتشهد له ، فان ما كان بيناً في نفسه أولى بالقبول مما

يحتاج في بيانه إلى غيره ، فقال ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ وقد تقدم أن الوحي من الله للنبي يسمى تنزيلاً وانزالاً ونزولاً لبيان علو مرتبة الربوبية لأن هناك نزولاً حسيّاً من مكان مرتفع إلى مكان منخفض .

قال هذا شيخنا : وعلو الله تعالى على خلقه حقيقة أثبتتها لنفسه في كتابه ، لا حاجة إلى تأويلها بعلو مرتبة الربوبية على مرتبة المخلوقين هر با من استلزامها الحصر والتعيز في جهة واحدة ، فإن التنزيه القطعي يبطل اللزوم . ومسألة الجهات نسبية لاحتمالية ، وإذا كان الرب تعالى بائناً من خلقه وهو من ورائهم محيط فهم أينما كانوا يتوجهون إليه إلا أنه فوقهم وإذا كان الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم) فماذا يقال فيمن دونهم ؟ وتوجه البشر إلى ربهم في جهة العلو وقبل السماء فطرى معروف في جميع أهل الملل ، فهو فوق الخلق في جلته وفوق العباد أينما كانوا من أرض أو سماء ، وهناك مقام الاطلاق الذي لا يقيد بقيد ولا يحصر في حين ، وإنما الحيز والحصر من الأمور النسبية والاعتبارية في داخل دائرة الخلق . وضح في الحديث أن الملائكة إذا سمعوا كلام الله في السموات عراهم ماعراهم مما أشير إليه في قوله تعالى (حتى إذا فرغ عن قولهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير) وشيخنا على دعوته إلى مذهب السلف كان لا يزال متأثراً بمذهب الأشعرية . وأما كون آيات القرآن بينات فهي أنها باعجازها البشر وبقرون المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها ، والأحكام الأدبية والعملية بوجوه منافعها ، لا تحتاج إلى دليل آخر يدل على أنها هداية من الله تعالى وأنها جديرة بالاتباع ، بل هي دليل على نفسها عند صاحب الفطرة السليمة كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه . لا يحتاج إلى شيء آخر يظهره ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا في ظلمة التقليد فتركوا طلب الحق بذاته لاعتقادهم أن فطرتهم ناقصة لا استعداد فيها لادراكه بذاته على شدة ظهوره ، وإنما يطلبونه من كلام مقلديهم . وكذا الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسداً لمن ظهر الحق على يديه وعناداً له

بعد هذا كله بين الله تعالى شأنين من شئون أهل الكتاب وهما أنه لا ثقة بهم

في شيء لما عرف عنهم من نقض العهود وأنه لا رجاء في إيمان أكثرهم لأن الضلالة قد ملكت عليهم أمرهم إلا قليلاً منهم ، فمن كان ما تقدم من الأعمال والأقوال قد صدر عن بعضهم - وإن كان نقض العهود قد وقع في كل زمن من فريق منهم دون فريق - فلا يتوهم أحد أن أولئك هم الأفلون ، كلا بل هم الاكثرون ، ولذلك قال ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ همزة الاستفهام التوبيخي داخله على محذوف أي أ كفروا بالآيات وقالوا ما قالوا وكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟. النبذ طرح الشيء وإلقاؤه والمراد باليهود هنا عهودهم للنبي ﷺ ولما كان لفظ «فريق» يوهم العدد القليل وكان الواقع أن الذين كانوا يرون الوفاء له ﷺ قليلون ، والناقضين هم الأكثرون - أضرب عنه وقال ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ فهم لا إيمان لهم لأنهم لا إيمان لهم ، أي لا عهود لهم . وفيه من خبر الغيب أن أكثر اليهود لا يؤمنون بالنبي ﷺ وكذلك كان صدق الله العظيم

(١٠١) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَأَتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانِ عَلَىٰ ثَمَاقٍ سَلِيمَةٍ وَمَا كَفَرُ سَلِيمِينَ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرِ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هُرُوتَ وَمَرُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ، وَلَبَّئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ﴾ تقدم معناه في تفسير الآية ٢١ والآية ٨٩ وقوله ﴿ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ﴾ بيان لحال جديدة من أحوال أهل الكتاب يصح أن تكون علة لجميع ماصدق عنهم من الشناعات في معاداة النبي عليه السلام ومجاهدته ، وهي أن فريقاً منهم قد نبذوا كتاب الله الذي يفاخرون به ويحتجون بأنهم اكتفوا بالهداية به ، وأنه لا حاجة لهم بسواه - نبذوه أن جاءهم رسول مصدق له بحاله وصفاته لأن البشارات التي فيه بالنبي الذي يجي ، من آل اسماعيل لا تنطبق إلا على هذا الرسول ومصدق له بمقاله باعترافه بنبوته موسى عليه السلام وصدقه فيما جاء به من الهدى والشرىعة ، وتوبيخه اليهود على تحريف بعضها ونسيان بعض وترك العمل بما بقي لهم منها (قال الاستاذ الامام) ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته ، وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله ، وإنما المراد أنهم طرحوا جزءاً منه وهو ما يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه ، أى فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيبتذره . وترك الجزء منه كتركه كله لأن ترك البعض يذهب بجرمة الوحي من النفس ويجرى ، على ترك الباقي (٥: ٣٢) من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) (قال) ولا فرق فى هذا الحكم بين اليهود والنصارى فكل منهما مبشر بالنبي عليه الصلاة والسلام فى كتابه ، وكل منهما قد نبذ الكتاب فلم يعمل به . ولم يضر النبي ﷺ هذا الجحود من الفريق الجاحد لأن دعوته قد قبلها الآخرون واهتدى بها من لا يحصى من الامتئين ومن سائر الأمم ، وإنما يضر الجاحدين لأنهم تركوا كتابهم الذى يزعمون أنه المنجى والمخلص لهم وحرموا من هداية خاتم النبيين ، التى هى أكل هداية أنعم الله بها على العالمين

قال تعالى بعد ما ذكر نبذهم الكتاب ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ أى نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب الله ، يريد أنهم بالغوا فى تركه واهماله ، ومن ترك شيئاً من أمر الله وهو يعلم أنه أمره ولكن طاف به طائف من الشيطان فغلب على أمره

فانه لا يلبث أن يعود ، ولكن هذا الفريق الناخذ لكتاب الله تعالى من حيث هو مبشر بالنبي وأمر باتباعه ، يتأدى بهم الزمان ولا يتوبون ولا يرجعون ، وما أحسن التعبير عن ذلك بنفي الخال والاستقبال دون نفي الماضي

مبحث السحر وهاروت وماروت

ثم ذكر تعالى أن أولئك الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم مجاهدة للنبي صلى الله عليه وسلم وحسدًا له قد تبدلوا الكفر بالإيمان وأشتروا الضلالة بالهدى ﴿واتبعوا ما تنالوا الشياطين﴾ من الإنس في قصصها وأساطيرها ، أو من الجن في وسوستها ، أو منها جميعًا ، على حد قوله تعالى (١٦:٦) شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ﴿ على ملك سليمان ﴾ أي ما كانت تنلو على عهده وفي أيام ملكه ، إذ زعموا أن ملكه قام على أساس السحر والطلسمات ، وأنه ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات ﴿وما كفر سليمان﴾ وما سحر ﴿ولكن﴾ أولئك ﴿الشياطين﴾ الذين يستندون إليه ما انتحلوه من السحر ، وما تلبسوا به من الكفر ، هم الذين ﴿كفروا - يعلمون الناس السحر﴾ ليفتنوا به العامة ويضلونهم عن طلب الأشياء من أسبابها الظاهرة ومنهاجها المشروعة هذه الأوهام والأكاذيب على نبي الله سليمان عليه السلام مما اقتجره بعض الدجالين من بنى إسرائيل ووسوسوا به إلى بعض المسلمين فصدقوهم في بعض ما زعموه من حكايات السحر ، وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر ، وإنك لترى دخالة المسلمين إلى اليوم يتلون أقسامًا وعزائم ، ويخطون خطوطًا وطلاسم ويسمون ذلك خاتم سليمان وعهوده ، ويرزعون أنها تقي حاملها من اعتداء الجن ومس العفاريت ، ولقد رأى كاتب هذا التفسير شيئًا من ذلك ، وكان في أيام حداثة يصدق به ويعتقد فأثرت

وقد زعم اليهود أن سليمان سحر ودفن السحر تحت كرسيه ، وأنه أضاع خاتمه الذي كان به ملكه ، فوقع في يد آخر وجلس مجلسه للحكم الخ ما خلطوا فيه التاريخ بالدجل . وروى عنهم أن سليمان هو الذي جمع كتب السحر من الناس ودقها

نحت كرسية ثم استخرجها الناس وتناقلوها . وفي رواية أخرى أنه انما دفن تحت كرسية كتباً أخرى في العلوم فلما استخرجت أشاع الشياطين أنها كتب سحر ، وأنشأ الدجالون بمد ذلك ينتحلون ماشاءوا وينسبونهم إلى تلك الكتب . ولا شك أن ما قالوه على سليمان وملسكه من خبر السحر والكفر مكذوب افتراء أهل الاهواء وقد قصه الله تعالى علينا لنعبر بما افتراه هؤلاء الناس على الأنبياء ، وبترجيح فريق من خلفهم الاشتغال بذلك على الاهتداء بالنبي ﷺ حتى إنهم نبذوا كتبهم الذي بشر به وراء ظهورهم

ومن البديهي أن ذكر القصة في القرآن لا يقتضى أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحاً فذكر السحر في هذه الآيات لا يستلزم اثبات ما يعتقد الناس منه كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التي علمت من النبي لا تستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت في القرآن ولولم يكن ذكرها في سياق النفي

(قال الأستاذ الإمام ماثله) بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ وللحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار ، لأجل الموعظة والاعتبار ، فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية ، ولا بد أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح . وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله (كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) وكقوله (بلغ مطلع الشمس) وهذا الأسلوب مألوف فأننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة نخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لا سيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية . ويقول أهل السواحل غربت الشمس أو سقط قرص الشمس في البحر أو في الماء ، ولا يمتدنون ذلك وإنما يعبرون به عن المرئي

جاء ذكر السحر في مواضع متعددة في القرآن وأكثره في قصة موسى وفرعون

وذكر هنا في الكلام عن اليهود. وإذا أردنا فهمه من عرف اللغة وجدنا أن السحر عند العرب كل ما لطف مأخذه ودق وخفي، وقالوا سحره وسحره بمعنى خدعه وعلله، وقالوا عين ساحرة وعيون سواحر، وفي الحديث الصحيح «إن من البيان سحراً» والسحر بالفتح وبالتحريك الرثة وهي أصل هذه المادة والرثة في الباطن فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لا يهتدى إليه غير أهله فهو باطن خفي ومنه الدواع وهو أن يظهر لك شيئاً غير الواقع في نفس الأمر فالواقع باطن خفي، وتأثير العيون في عشاق الحسان، والكلام البليغ في عشاق البيان، مما يخفي مسلكه ويندق سببه، حتى يعسر على أكثر الناس الوقوف على العلة في تأثيره.

وقد وصف الله السحر في القرآن بأنه تخييل يخدع الأعين فيرهبها ما ليس بكائناتاً فقال (تخييل إليه من سحرهم أنها تسمى) والكلام في حبال السحرة وعصبيهم وفي آية أخرى (فسحروا أعين الناس واسترهبوهم) وفي هذه الآية التي نفسرها أن السحر كان يؤخذ بالتعليم والتاريخ يشهد بهذا، وقد كان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم كما يؤخذ من قوله تعالى (وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك) ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكتزون فيسمون العمل بها سحراً خلفاء سببه ولطف مأخذه، ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الانسانية في نفس أخرى لمثل هذه العلة. وقد قال المؤرخون إن سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين وتخييل أنها تسمى

وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للعاش أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجن وأنهم يحضرون إذا دعوا بها ويكونون مسخرين للداعي. ولمثل هذا الكلام تأثير في إثارة الوهم عرف بالتجربة، وسببه اعتقاد الواهم أن الشياطين يستجيبون لقارئة ويطيعون أمره، ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير وليس فيه خاصية وإنما تلك العقيدة الفاسدة تفعل في النفس الواهمة ما يعني منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته. وهذا هو السبب في اعتقاد الدهماء أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح النكواب

وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء في حقيقة السحر وفي أحكامه وعده بعضهم من خوارق العادات ، وفرقوا بينه وبين المعجزة ، ولم يذكرها في فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل فهو أمر عادي قطعاً بخلاف المعجزة (قال الاستاذ الامام) في قوله تعالى (يعلمون الناس السحر) وجهان (أحدهما) أنه متصل بقوله (ولكن الشياطين كفروا) أى ان الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر (والثانى) وهو الاظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وان الكلام في الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم . وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهوراً في زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم . أى إن فريقاً من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان . وههنا يقول القائل : بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان في رميه بالكفر وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التي كانت تحت كرسيه ؟ فأجاب على طريق الاستئناف البياني (يعلمون الناس السحر) الخ ، ونفى الكفر عن سليمان . وإلصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض فلم أيضاً أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الطريقة أيضاً . وإنما كان القصد إلى وصف اليهود بتعليم السحر لأنه من السيئات التي كانوا متلبسين بها ويضرون بها الناس خداعاً وغبهاً وتلميساً ثم قال ﴿ وما أنزل على الملكين ببابا هاروت وماروت ﴾ فأجل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصة كانوا يتحدثون بها كما أجل في ذكر تعليم السحر فلم يذكر ماهو ؟ أشعوذة وتخييل ، أم خواص طبيعية ، وتأثيرات نفسية ؟ وهذا ضرب من الإعجاز في الإعجاز انفرد به القرآن — يذكر الأمر المشهور بين الناس في وقت من الأوقات لأجل الاعتبار به فينظمه في أسلوب يمكن لكل أحد أن يقبله فيه مهايكن اعتقاده لذلك الشيء في تفصيله ، ألا ترى كيف ذكر السحر هنا وفي مواضع أخرى بأساليب لا يستطيع أن ينكرها من يدعى أن السحر حيلة وشعوذة أو غير ذلك مما ذكرناه ولا يستطيع أن يردّها من يدعى أنه من خوارق العادات ؟

والحكمة في ذلك أن الله عز وجل قد وكل معرفة هذه الحقائق الكونية إلى

بحث الإنسان واشتغاله بالعالم لأنه من الأمور الكسبية ، ولو بين مسائلها بالنص القاطع لجاءت مخالفة لعلم الناس واختبارهم في كل جيل لم يرتق العلم فيه إلى أعلى درجة ، ولكانت تلك المخالفة من أسباب الشك أو التكذيب فانتانرى من الناس من يطعن في كتب الوحي لتفسير بعض تلك الأمور المحملة بما يتراءى لهم وإن لم تكن نصاً ولا ظاهراً فيه ، ويزعمون أن كتاب الدين جاء مخالفاً للعلم وإن كان ذلك الذى يطلقون عليه اسم العلم ظنياً أو فرضياً

في (الملسكين) قراءتان فتح اللام وكسرها ، فالأولى قراءة الجمهور والثانية قراءة ابن عباس والحسن وأبي الأسود والضحاك . وحمل بعضهم قراءة الفتح على قراءة الكسر ويؤيده ما قيل إن المراد بهما داود وسليمان عليهما السلام . وقيل بل هما رجلان صاحبها وقار وسمت فشيهاً بالملائكة ، وكان يؤمها الناس بالخواجج الأهلية ويجلونهما أشد الأجلال فشيهاً بالملوك ، وتلك عادة الناس فيمن ينفرد بالصفات المحمودة يقولون : هذا ملك وليس بإنسان كما يقولون فيمن كان سيدياً عزيزاً يظهر الغنى عن الناس من حيث يحتاجون إليه : هذا سلطان زمانه . جلت حكمة الله في خلقه فقد قد هؤلاء الأدميين من أديم واحد ، كان الناس على عهد هاروت وماروت - اللذين كان يتحدث بخبرهما ولا يحدد تاريخهما - على مثلهم اليوم لا يقصدون للفصل في شؤونهم الأهلية من الجهة الروحانية إلا إلى أهل السمات والوقار اللابسين لباس أهل التقوى والصلاح ، هذا ما نشاهد من عليه في زماننا وهذا ما حكى الله تعالى عنهم في الزمن القديم ، وقال الأستاذ الامام : لعل الله تعالى سماها ملسكين (بفتح اللام) حكاية لاعتقاد الناس فيهما وأجازاً أيضاً كون إطلاق لفظ الملسكين عليهما مجازاً كما قال بعض المفسرين . قال تعالى في اليهود (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملسكين بيابل) والظاهر من العطف أن ما أنزل عليهما هو غير السحر ضم إليه لأنه من جنسه في كون تعليمه سيئة مذمومة أو هو لتغابر الاعتبار أو النوع . وليس معنى الانزال عليهما أنه وحى من الله كوحى للأنبياء فيشكل عده من الشر والباطل الذى يذم تعلمه ، فان كلمة أنزل تستعمل في مواضع لاصلة بينها وبين وحى الأنبياء . قالوا : أنزلت حاجتى على كريم ، وانزل لى عن هذه الآيات :

ويقال : قد أنزل الصبر على قلب فلان : وقال تعالى (٢٥:٥٧) وأنزلنا الحديد) وقال (٢٦:٩) فأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ولعل التعبير عما أوتياه من العلم بالانزال لأنه لم يكن يعرف له مأخذ غيرها يراد أنهما ألماه إلهاما واهتديا إليه من غير أستاذ ولا معلم . ويصح أن يسمى مثل هذا وحيا لغطاء منبعه وليس الوحي وإلهام الخواطر خاصا في عرف اللغة ولا عرف القرآن بالأنبياء ولا بما يكون موضوعه خيرا أو حقا فقد قال تعالى (١٦:٦٨) وأوحى ربك إلى النحل) وقال (٧:٢٨) وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقال (شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وقال الشاعر:

رأس الغواية في العقل السقيم فما فيه فأكثره وحى الشياطين
وذكر ابن جرير الطبري وجها آخر في تفسير (وما أنزل على الملوكين)
ونقله كثير من المفسرين وهو أن (ما) نافيه أي إن اليهود يعلمون الناس السحر
و يرتقون بسنده إلى الملوكين ببابل ، وما أنزل السحر على الملوكين فكيف كانوا
يعلمونه بنى إسرائيل ؟ وقد ضعفوه بأن الثابت في الواقع أن بنى إسرائيل كانوا
يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملوكين . وقد أجاز هذا التضعيف الأستاذ
الإمام . على أنه يمكن أن يراد به نفي الانزال خاصة أي أن ذلك السحر الذي
ينسبونه إلى الملوكين لم ينزل عليهما إنزالا من الله فينظمه اليهود في سلك العلوم
المحمودة ويزعمون أنه حق وإنما هو شيء افتجراه واختراعاه من عند أنفسهما

ثم قال ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر ﴾ أي إن
ما عندنا هو أمر يبتلى به الله الناس ويختبرهم فلا تتعلم ما هو كفر . فان أصر علماء
هذا ما عليه الجمهور واقتصر عليه الأستاذ الإمام في الدرس . وقال البيضاوي : وما
يعلمان أحدا حتى ينصحاه ويقولوا له : إنما نحن ابتلاء من الله فمن تعلم منا وعمل
به كفر ، ومن تعلم وتوق عمله ثبت على الإيمان ، فلا تكفر . باعتقاد جوازه
والعمل به ، وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور وإنما
المنع من اتباعه والعمل به هـ . ويجوز أن يكون المعنى إنما نحن أو لو فتننة ببلوك
ويختبرك أشكر أم تكفر ونصح لك بأن لا تكفر . واعلمهما يقولان هذا للمحافظة

على حسن اعتقاد الناس بفضلهما إذ كانوا يقولون هما ملكان. وإنما تسمع الدجاجة الذين ينتحلون مثل هذا ويوهمون الناس أنهم روحانيون يقولون لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض نوصيك بأن لا تكتب هذا جلب امرأة متزوجة إلى حب رجل غير زوجها، ولا تكتب لأحد الزوجين بأن يبغض الآخر، وأن تخصص هذه الفوائد بالمصلحة كالحب بين الزوجين، والتفريق بين العاشقين الفاسقين، وإنما يقولون هذا ليوهموا الناس أن غلوهم إلهية، وأن صناعتهم روحانية، وأنهم صحبوا النبوة. وقد كان اليهود يستندون سحرهم إل ملكين ببابل ونرى دجاجة المسلمين من المغاربة وغيرهم يستندون خزعبلائهم إلى «دانيال النبي» وهذا المعنى يصحح على القوم بأن قوله «وما أنزل» نفي بحسب توجيهنا السابق وقال البيضاوي إن معناه على وجه النفي: إنما نحن مفتونون فلا تكن مثلنا.

قال تعالى ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ صيغة المضارع في هذه الجملة وما قبلها لتصوير ما كان كأنه كائن فالكلام تصوير للقصة لأحكام مضمونها أي أنهم كانوا يتعلمون منهم ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين وهو نحو ما يسميه الدجاجة الآن «كتاب البغضة» وليس في العبارة ما يدل على أن ما يتعلمونه لهذا الغرض هو مؤثر فيه بطبعه أو بسبب خفي أو بخارقة لا تعقل لها حيلة ولا أنه غير مؤثر، وليس فيها بيان لما يتعلمونه هل هو كتابة تمامًا، أو تلاوة رقي وعزائم، أو أساليب سعاية، أو دسائس تنفير ونكاية، أو تأثير نفساني، أو وسواس شيطاني؟ وأي شيء من ذلك ثبت علمًا كان تفصيلًا لما أجمله القرآن في الواقع. ولا يجوز لنا أن نتحكم بتفصيل ما أجمله القرآن فنحمله على أحد ما ذكر أو على غيره. ولو علم الله أن الخير لنا في بيان ذلك لبينه كما قلناه في مثله مرارًا لم يبين القرآن ذلك الإجمال ولا حقيقة ذلك العلم لأنه موكل إلى بحث البشر وارتقاؤهم في العلم كما تقدم، ولكنه لم يهمل ما يتعلق بالمقائد وبيان الحق فيها ولذلك قال بعد حكاية السحر عنهم ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ أي أنهم ليس لهم قوة غيبية وراء الأسباب التي ربط الله بها المسببات فهم يفعلون بها ما يوهمون الناس أنه فوق استعداد البشر، وفوق ما مندوا من القوى والقدر،

فاذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم فإتاما ذلك بأذن الله أى بسبب من الاسباب التي جرت العادة بان تحصل المسببات من ضر ونفع عند حصولها بأذن الله تعالى. وهذا الحكم التوحيدى هو المقصد الأول من مقاصد الدين فالقرآن لا يترك بيانها عند الحاجة بل يبينه عند كل مناسبة وربما ترد في القرآن قصة مثل هذه القصة لاجل بيان الحق في مسألة اعتقادية كهذه المسألة لان ايراد الاحكام في سياق الوقائع أوقع في النفس وأعصى على التأويل والتحريف

ثم قال بعد نفى القوة التي وراء الاسباب عنهم ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ يضرهم لانه سبب في الاضرار بالناس وهو محرم يعاقب الله تعالى عليه في الآخرة ومن عرف بايذاء الناس بمقتة الناس ويكونون عليه . ولما كان بعض الضار من جهة نافعا من جهة أخرى وربما كانت منفعة أكبر من إيمه نفى المنفعة بعد اثبات المصرة ، فهذا النفي واجب في قانون البلاغة لا بد منه . وقد صدق الله تعالى فاننا نرى منتحلي السحر وما في معناه أفقر الناس وأحقرهم ، ولوعقل السفهاء الذين يختلفون اليهم يلتمسون المنافع لأنفسهم والايقاع بأعدائهم لعلوا أن الشقى في نفسه لا يمكن أن يهب السعادة لغيره ، لان فاقد الشيء لا يعطيه . هذه حالهم في الدنيا فكيف يكونون في الآخرة يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ؟

لاجرم أنها تكون حالا سوءى واليهود يعلمون ذلك كما قال ﴿واقعد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾ أى إنهم يعلمون أن من اختار هذا واستبدله بما آتاه الله من أصول الدين الحق وأحكام الشريعة العسادة الموصولين إلى سعادة الدنيا والآخرة فليس له نصيب في نعيم الآخرة ، وذلك أن التوراة قد حظرت تعليم السحر وجعلته كعبادة الاوثان وشدت العقوبة على فاعله وعلى اتباع الجن والشياطين

والكهان ، ولا ينافى هذا العلم قوله ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ فان العلم علمان - علم تفصيلى متمكن من النفس متسلط على إرادتها يحركها الى العمل : وعلم اجمالى خيالى يلوح في الذهن منبهما عند ما يعرض ما يذكر به ككتاب وإلقاء سؤال ، وهو يقبل التحريف والتأويل ، وليس له منفذ الى الإرادة ولا سبيل ، فقد كانوا يستحلون أكل السحت كالرشوة والربا بالتأويل كما يفعل غيرهم اليوم

وقبل اليوم . ولو كانوا يعلمون حرمة ما ذكر علما تفصيليا يستغرق جميع جزئيات الحرم ويفقهون علة التحريم وسره ويصدقون بما توعد الله من تكبئه من العقوبة في الآخرة تصديقا جازما ويتذكرونه وقت العمل بما للعقيدة من السلطان على الإرادة لما ارتكبوا ما ارتكبوه مع الاصرار عليه ، ولكنهم فقدوا هذا النوع من العلم ولم يفن عنهم تصور أن السحر والخداع كلاهما حرام كالربا والرشوة لان في الكتاب عبارة تدل على ذلك فان العبارة تحتل ضروبا من التأويل ككون النهي خاصا بمعاملة شعب إسرائيل وكانوا يقولون (ليس علينا في الاميين سبيل) إذا أكلنا أموالهم بالباطل ، وكاشتراط الضرر في السحر مع ادعاءه أن ما يأتونه منه نافع غير ضار وغير ذلك وإنا نرى كثيرا من الحرمات قد انتهكت في المسلمين بمثل تلك التأويلات حتى جوز بعض المشتغلين بالفقه هدم ركن من أعظم أركان الاسلام بالحيلة وهو ركن الزكاة الذي يحارب تاركه شرعا ، وترى هذه الحيل قد أثرت في الأمة أسوأ التأثير فلما يوجد فيها غنى يؤدي الزكاة ولا يمتد التمسك بالدين من هؤلاء الاغنياء أنه متعرض لمقت الله وعقوبته ، وأنه قد فسق عن أمرربه ، لانه يمنع الزكاة بحيلة يسميها شرعية ، وقد أخذها عن يسمون فقهاء ، ويفتخرون بأنهم ورثة الانبياء ، ثم إن الحيل على التزوير وأكل أموال الناس بالباطل لها في بعض الكتب وعلى السنة كثيرين من أصحاب العمام مجال واسع وميدان فسيح ، ولها أقبح التأثير في إفساد العامة واستباحتهم المحظورات ، ولقد صارت هذه الحيل على الله عز وجل والتأويلات الباطلة الهادمة لدينه معدودة من علم الدين حتى إنه لياتيها من لانهفة له في إتيانها من يعمدون صالحين ، ومن أعجب ذلك أن بعض أهل العلم الصالحين يشهد الزور بمثل هذه التأويلات ، وقد نقل الثقات أن طالب الشهادة يستعطفه ويستميل قلبه بالشكوى من الظلم وإرادة الاستعانة بشهادته على دفع المظلمة والتخلص من الاذى فيأمر الشيخ بأن تطوى الورقة المشتملة على قول الزور بحيث يحجب سواد الكتابة فلا يراه ويضع توقيعهم وختمه في ذيلها كأنه وضعها على ورقة خالية ، وهو يعلم أنها ليست خالية من الكتابة ، ويعرف ما فيها من الكذب . فهل نقول إنه غير عالم بقوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور) وقوله (إنما يفترى الكتاب الذين لا يؤمنون)

وبما رواه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبي بكره أن النبي ﷺ قال وكان متكثرا « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الاشرار بالله وعقوق الوالدين - ثم قعد فقال - ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .
وبما رواه من حديث أبي هريرة مرفوعا أيضا « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » وفي رواية لغيرها « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إنه مسلم » وذكرهن - بلى إنه عالم بكل ذلك ولكنه التأويل أفسد على كل أهل دين دينهم .

أقول: أشار الاستاذ الامام إلى ما كان من إقدام هذا العالم العابد على شهادة الزور واستحلالها بتلك الحيلة السخيفة وذكر أمثلة أخرى وقد تذكرت عند كتابة الحديث في المناقش أن بعض شيوخ الازهر المعروفين كان وعدنى وعداء وأخلف فسألته به فقال : إن فقهاءنا الحنفية قالوا بأن الوفاء بالوعد غير واجب ، فقلت وقد تميزت من الغيظ : إن من يقول هذا القول بعد ما ورد من النصوص الصريحة في الوفاء وفي الوعيد على تركه فهو مخطئ ، وقوله مردود كما ورد في الصحيح (بل قلت أكثر من هذا) واننى أبرئ الأئمة من القول بحل إخلاف الوعد من غير عذر صحيح ولكننى أعذر الفقهاء إذا قالوا بأنه ليس للقاضى أن يحكم على من وعد بالوفاء ويلزمه ذلك إلزاما ، ولا أعذر من يقول إن الوفاء مستحب وتركه جائز وإن كان هو المعروف فى أكثر كتب الفقه المتداولة .

ولقد صار العالم المسلم عاجزا فى أكثر بلاد المسلمين عن إنكار ما يخالف هدى الكتاب والسنة من كتب الميتين لاسيما إذا اشتهروا باختيار كتبهم للتدريس .
وحجة هؤلاء المقلدين على نصر كتب الميتين وترجيحها على كتاب الله وسنة رسوله هى أن القادرين على الاهتداء بهما قد انقضوا فوجب على المسلمين ترك العمل بهما والاعتماد على كتب العلماء المتأخرين الذين استنبطوا من قواعد أئمتهم جميع مسائل الدين ، فعملينا أن نأخذ بكل ما قالوا ، وأن لا ننظر فى الكتاب والسنة إلا للتبرك بهما ، فان رأينا خلافا بين قول الله ورسوله وقول الفقه لا يمتثل التأويل فعملينا أن نهم عقولنا وأفهامنا وننزه فهم الفقيه الميت وعقله ونعمل بقوله مكابرين

أنفسنا التي سجل عليها الحرمان من فهم الكتاب المبين والسنة البيضاء التي وصفها صاحبها بأن ليلها كنهارها أي لا يشتهب فيها أحد !!! هذا ما علمه جماهير المسلمين ، ولم يبعد من قبلهم عن كتاب ربهم أشد من هذا البعد ، وسيعودون إليه بعد حين ، فقد أخذهم المذاب على تركه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

ثم قال تعالى ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ﴾ أي لو أنهم استبدلوا الإيمان بما جاء به النبي ﷺ بهذا السحرا الخادع واتباع نزغات الشياطين أو لو آمنوا بكتابتهم إيماناً حقيقياً ومنه البشارة بالنبي والامر باتباعه واتقوا بالعمل به والمحافظه على حدوده مغبة ما ينتظره المجرمون من العقوبة على العصيان - لكن ثواب الله لهم على الإيمان الصحيح والعمل الصالح خيراً لهم من جميع ما توهموه في المخالفة من المنافع . ثم قال ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي إنهم في كل ما هم عليه من الاباطيل ، ومن زعمهم أنها ترجع إلى الكتاب بضرور من التأويل ، يتبعون الظنون ويعتمدون على التقليد ، وليسوا على شيء من العلم الصحيح - ولو كانوا يعلمون علماً صحيحاً لظاهر أثره في أعمالهم ولآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوه فكانوا من المفلحين

ومن مباحث اللفظ في الآيات : أن بابل بلدة قديمة كانت في سواد الكوفة (قبل الكوفة) في أشهر أقوال المفسرين ، ويؤخذ من بعض كتب التاريخ أنها كانت في الجانب الشرقي من نهر الفرات بعيدة عنه ، ويقال إن أصل اشتقاقها في العبرانية يدل على الخلط ، إشارة إلى ما يرويه العبرانيون من اختلاط الالسنه هناك . وهاروت وهاروت اسمان أعجميان ، ولو كانا مشتقين من الهرت والمرت كما زعم بعضهم لما منعا من الصرف . و « من » في قوله تعالى (وما يعلمان من أحد) لاستغراق النفي وتأكيده ، وقد شدد الاستاذ الامام كادته الانكار على من قال انها زائده ، وقال إنما الزائده ما يذكر للتحلية ولا يكون له معنى ماوفقا لكثير من المفسرين . والمثوبة الثواب و (المثوبة) خير (لو) قال الاستاذ : أي لكانت مثوبة من الله خيراً . وقد قدروا لها فعلاً قالوا : الأصل لا يثبوا مثوبة ، فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية ليبدل على ثبات المثوبة ، ونكرت لبيان أنها مها قلت فهي خير لهم ، وأصلها الثوب بمعنى الرجوع ، كأن المحسن يثوب إلى من أحسن إليه بعد الاعراض

(١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا زَعْمًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٥) مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ
 يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

أقول: هذا خطاب للمؤمنين في أمر له علاقة بما كان بينهم وبين اليهود فهو متعلق بماضى السياق الخاص ببني إسرائيل ، و بدء انتقال منه إلى سياق مشترك بين المؤمنين واليهود والنصارى جميعا في أمر الدين ، و « راعنا » كلمة كانت تدور على ألسنة الصحابة في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم . والمعنى المتبادر منها لغة هو : راعنا سمعك وهو كأرعا سمعك أى اسمع لنا ما نريد أن نسأل عنه وتراجعك القول فيه لفهمه عنك ، أو راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تلقينه علينا وفهمه . قال في مجاز الأساس : « وراعى الأمر — نظرت إلام يصير . وأنا أراعى فلانا — أنظر ماذا يفعل ، وأرعيته سمى وأرعى سمعك وراعى سمعك اه ولكن الله تعالى نهى المؤمنين عن قول هذه الكلمة والمشهور في كتب التفسير : أن سبب ذلك هو أن اليهود سمعوا فافتروا وصاروا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم لاوين ألسنتهم بها لتوافق كلمة شتم بلسانهم العبرانى قيل : كانوا ينطقون بها « راعينا » وقيل : كانوا يريدون بتعريفها نسبته إلى الرعونة وفي سورة النساء (٤: ٦٤) من الذين هادوا يجرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا — لياً بألسنتهم وطعناً في الدين) الآية (الأستاذ الإمام) إن هذا النهى له صلة وارتباط بشأن اليهود لاحتمال لأن الكلام لا يزال في شؤونهم مع النبي ﷺ والمؤمنين ولكن هذا لا يستلزم أن يكون سبب النهى هو كون الكلمة تستعمل للشتم في العبرانية ولا أقول بهذا إلا بنقل صحيح

عن يعرف هذه اللغة ، وللمفسرين وجوه أخرى في تعليل النهي فمن مجاهد وغيره أن معنى الكلمة « خلاف » والمراد لا تخالفوه كما يفعل أهل الكتاب ، ولكن اعترض على هذا الوجه بأن ليس له شاهد من اللغة . والمعروف في اللغة أن « راعنا » من المراجعة . وهي تقتضى المشاركة في الرعاية أى أرعنا نرعك ، وفي خطاب النبي بذلك من سوء الأدب ما هو ظاهر ، فالنهي عنه تأديب كقوله تعالى (٤٩ : ٢٠ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) كأنه يقول لا تكونوا كهؤلاء الغلاظ القلوب الذين قصصنا عليكم خبرهم أو الذين عرفتم سوء أدبهم مع الأنبياء ، بل اجمعوا بين الطاعة والأدب .

(قال) وههنا وجه آخر وهو أنه يقال في اللغة : راعى الحمار الحر إذا رعى معها ، فيجوز أن اليهود كانوا يحرفون الكلمة بصرفها إلى هذا المعنى فنهى الله المسلمين عن هذه الكلمة وشنع على اليهود بإظهار سوء قصدهم فيها . وقد رضى بصرف اللفظ إلى هذا المعنى وإن كان يتضمن أنهم حمر لأن السبب يسب نفسه كما يسب غيره فهو على حد قول القائل :

أقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً

قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا واسمعوا ﴾ فإنهم تعالى عن كلمة كانوا يقولونها وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها . فكلمة « انظرونا » تفيد معنى كلمة « راعنا » فإن فيها معنى الاظهار والامهال ويؤيد هذا المعنى قراءة « انظرونا » من الاظهار وفيها معنى المراقبة وهو ما يستفاد من النظر بالعين . تقول : نظرت الشيء ونظرت اليه ، إذا وجهت إليه بصرك ورأيتَه وتقول : نظرتَه بمعنى انتظرته ومنه (٣٦ : ٤٩ ما ينظرون إلا صيحة واحدة) أذن الله تعالى لهم بهذه الكلمة « انظرونا » وأمرهم بالسمع للنبي ليدوا عنه ما يقول من الدين وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة . ثم ختم الآية بقوله ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ لبيان أن ما صدر عن اليهود من سوء الأدب في خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذى يعذبون عليه العذاب الموجه أشد الايجاع ، وللتنبية على أن التقصير

في الأدب معه ﷺ ذنب مجاور للكفر يوشك أن يجر إليه فيجب الاحتراس منه بترك الألفاظ الموهمة المساواة ، بله الألفاظ المنافية للأدب .

أقول: لاشك أن من يعامل أستاذة ومرشده معاملته المساواة في القول والعمل يقل احترامه له وتزول هيئته من نفسه حتى تقل الاستفادة منه أو تعدم . وإذا لم تزل الاستفادة منه من حيث كونه معلماً فانها تقل وتزول لاحتمال من حيث كونه مربياً لأن المدار في التربية على التأسي والقدوة ، ومن أراد مثلي لا أرضاه إماماً و قدوة لي . فان رضيت بالمواضعة والتقليد وكذبتني المعاملة فأى قيمة لهذا الرضى والمبرة بما في الواقع ونفس الأمر ، وهو أن من اعتقد أن امرءاً فوّه علماء وكلاً وأنه في حاجة للاستفادة من علمه وإرشاده ومن أخلاقه وآدابه ، فانه لا يستطيع أن يساوى نفسه به في المعاملة القولية والفعلية ، إلا ما يكون من فلتات اللسان ومن اللعم ، وعن مثل هذا نهى الصحابة رضى الله عنهم لئلا يجرهم الانس به وكرم ﷺ وأخلاقه إلى اعتداء حدود الأدب الواجب معه الذى لا تكمل التربية إلا بكالاه ، وهو تعالى يقول (٣٣:٢١) لقد كن لكم فى رسول الله أسوة حسنة (الآية .

(الأستاذ الامام) إنما كان عدم الاصفاء لما يقوله الرسول عليه الصلاة والسلام وخطابه خطاب الاكفاء والنظراء مجاوراً للكفر ، لأنه يتكلم عن الله عز وجل نسعادة من يسمع ويعقل و يأخذ ما يؤمر به بالأدب ويسأل عما لا يفهمه بالأدب ، ومن فاتته هذه السعادة فهو الشقى الذى لا يعدل بشقائه شقاء : ومعنى هذه المجاورة أن سوء الأدب ينحو ما حكى عن اليهود فى سورة النساء هو من الكفر الصريح ولذلك قال بعده (٤:٤٦) ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمعنا وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً) فالألفاظ التى تحاكي الألفاظ التى توعدوا عليها بهذا الوعيد على أنها كفر إذا صدرت من المؤمن غير محرقة ولا مقصوداً بها ما كانوا يقصدون تسمى مجاورة لألفاظ الكفر لأنها موهمة وخارجة عن حدود الأدب اللائق بالمؤمنين .

(قال) إن لمن جاء بعد الرسول حظاً من هذا التأديب ، وليس هو خاصاً

عن كان في عصره من المؤمنين . فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم ، وكان يجب الاستماع له والانصات . لأجل تدبره ، هو الذي يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيء . وهو كلام الله الذي به كان الرسول رسولا تحب طاعته والاهتداء بهديه ، فما هذا الأدب الذي يقابله به الأكترون ؟ إنهم يلغظون في مجلس القرآن ، فلا يستمعون ولا ينصتون ، ومن أنصت واستمع فأنما ينصت طر با بالصوت واستلذاذاً بتوقيع نغمت القارئ ، وإنهم ليقولون في استحسان ذلك واستجادته ما يقولونه في مجالس الغناء ، ويهتزون للتلاوة ويصوتون بأصوات مخصوصة ، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق ، ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه إلا ما يروونه مدعاة لسرورهم في مثل قصة يوسف عليه السلام مع الغفلة عما فيها من العبرة وإعلاء شأن الفضيلة ولا سيما العفة والامانة . أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها ، وتتوعد على تركه بجعله مجاوراً للكفر الذي يسوق صاحبه إلى العذاب الأليم (٢٣ : ٦٨ ، ٦٩ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟)

ثم قال تعالى ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ يقول تعالى للمؤمنين : إن هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة ، لا يلتفت إلى تكذيبهم ولا يبالي بمدوانهم ، ولا يضركم كفرهم وعنادهم ، فهم لحسدكم لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم ، والقرآن أعظم الخيرات ، لأنه النظام الكامل ، والفضل الشامل ، والهداية العظمى . والآية الكبرى ، جمع به شملكم ، ووصل حبلكم ، ووحد شعوبكم وقبائلكم ، وظهر عقولكم من نزغات الوثنية ، وزكى نفوسكم من أدران الجاهلية ، وأقامكم على سنن الفطرة ، وشرع لكم الخفيفة السمحة ، فكيف لا يحرق الحسد عليه أكيادهم ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم ؟

(أقول) الود محبة الشيء . ومعنى وقوعه ، يطلق على كل منهما قصداً ، وعلى الآخر تبعاً . ويكون مفعول الأول مفرداً والثاني جملة ، ونفيه بمعنى الكراهة فالله

(البقرة : س ٢) . رحمة الله وفضله العظيم لإشأن لخلق في منحهما ولا منعهما ٤١٣

ما يجب الذين كفروا من اليهود والنصارى ولا من المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم . أما أهل الكتاب ولا سيما اليهود فلحسدهم للعرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوة وهو ما كانوا يحتكرونها لأنفسهم ، وأما المشركون فلأن في تنزيل القرآن للمرة بعد المرة من قوة الإسلام ورسوخه وانتشاره ما خيب آمالهم في تر بصهم الدوائر بالنبي ﷺ وانتهاء أمره .

ثم إن الله تعالى رد عليهم بما بين جهلهم وجهل جميع الحاسدين فقال ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أي أن الحاسد اغباوته وفساد طويته يكون ساخطاً على الله تعالى ومعتزاً عليه أن أنعم على المحسود بما أنعم ، ولا يضر الله تعالى سخط الساخطين ، ولا يحول مجارى نعمه حسد الحاسدين فالله يختص برحمته من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم - أسند كلاً من هذين الأمرين إلى اسم الذات الأعظم لبيان أنهما حقهما لذاته فليس لأحد من عباده أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما .

(١٠٦) مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِثْلَهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٧) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنَاسِكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٨) أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

قال أئمة اللغة: إن أصل النسخ النقل سواء كان نقل الشيء بذاته، كما يقال: نسخت الشمس الظل: أي نقلته من مكان إلى مكان، أو نقل صورته، كما يقال: نسخت الكتاب: إذا نقلت عنه صورة مثل الأولى، وورد: نسخت الريح الأثر: أي أزالته. وأصل النسيان الترك أو هو غايته اللازمة له، ومنه قوله تعالى (أتنتك

آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى تركتها بترك العمل بها فجزاؤك أن تترك في العذاب فاحفظ المعنى اللغوي .

(الاستاذ الإمام) للمفسرين في تفسير هذه الآية طريقتان . أحدهما: أنها على حد قوله تعالى (١٦: ١٠١) وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) فالنسخ هنا بمعنى التبديل أى إذا جملنا آية بدلا من آية فاننا نجعل هذا البديل خيراً من المبدل منه أو مثله على الأقل، فالآية عند هؤلاء في نسخ التلاوة ، وقالوا إن المراد بالنسيان هو أن يأمر الله تعالى بعدم تلاوة الآية فنسى بلمرة . (قال) وهذا بمعنى التبديل، فما هي الفائدة في عطفه عليه بأو؟ وهل هو إلا تكرار يجلب كلام الله عنه؟

وثانيهما: أن المراد نسخ حكم الآية وهو عام يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة، وهذا هو القول المختار للجمهور، وقالوا في توجيهه: إنه لا معنى لنسخ الآية في ذاتها ولا حاجة إليه وإنما الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، فإذا شرع حكم في وقت لشدة الحاجة إليه ثم زالت الحاجة في وقت آخر فن الحكمة أن ينسخ الحكم ويبدل بما يوافق الوقت الآخر فيكون خيراً من الأول أو مثله في فائدته من حيث قيام المصلحة به . وقالوا إن المراد بالانساء إزالة الآية من ذاكرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد اختلف في هذا أياكون بعد التبليغ أم قبله فقليل؟ بعده كما ورد في أصحاب بئر معونة (*) وقيل

(*) بئر معونة موضع بين الحرمين قيل لهذيل وقيل لسلم وهناك اغتيل جماعة من الصحابة أكثرهم قراء فحزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عليهم ، وروى البخارى وغيره أنه نزل فيهم وحى منه حكاية عنهم « بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه » وليس كل وحى قرآناً فان للقرآن أحكاماً ومزايا مخصوصة وقد ورد في السنة كثير من الأحكام مسندة إلى الوحى ولم يكن النبي (ص) ولا أصحابه يعدونها قرآناً ، بل جميع ماغاله عليه السلام على أنه دين فهو وحى عند الجمهور واستدلوا عليه بقوله (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) وأظهره الأحاديث القدسية . ومن لم يفقه هذه التفرقة من العلماء وقعت لهم أو هام في بعض الأحاديث رواية ودراية توزعموا أنها كانت قرآناً ونسخت

قبله حتى ان السيوطي روى في أسباب النزول ان الآية كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلا فينساها نهاراً فحزن لذلك فنزلت الآية . قال الاستاذ الامام : ولا شك عندي في أن هذه الرواية مكذوبة وان مثل هذا النسيان محال على الانبياء عليهم السلام لانهم معصومون في التبليغ والآيات الكريمة ناطقة بذلك كقوله تعالى (ان علينا جمعه وقرآنه) وقوله (اننا نحن نزلنا الذكر واننا له لحافظون) وقد قال المحدثون والاصوليون : ان من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليا كان أو نقليا كأصول الاعتقاد وهذه المسألة منها فان هذا النسيان ينافي العظمة المجمع عليها

وقالوا في تفسير قوله تعالى بعدما ذكر ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ انه ورد مورد الاستدلال على القدرة على النسخ بالمعنى الذي قالوه أى انه لا يستنكر على الله كما زعم اليهود لانه مما تناله قدرته ثم استدل على ذلك بقوله ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض ﴾ الآية . وان الخطاب في (تعلم) للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد به غيره من المؤمنين الذين ربما كانوا يمتعضون من كلام اليهود وغيرهم من المعترضين على النسخ ، وضعيف الايمان يؤثر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به فيخشى عليه من الركون الى الشبهة أو الحيرة فيها في الكلام تثبت لمن كان كذلك من الضعفاء ودعم لايمانهم ، وتوجيه الكلام الى شخص يراد غيره شائع في كلام العرب والمولدين : ولذلك قال بعض العلماء ، نزل القرآن على طريق قولهم « إياك أعنى واسمعى يا جاره » واذا كان هذا الملك العظيم لله وحده فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ حكما من الاحكام . ومن آية ارادة

الامة بالخطاب الالتفات عن الافراد الى الجمع بقوله ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أى ان وليكم وناصركم هو الله تعالى وحده فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به ، ولا ينبغي أن يستهويكم انكارهم فيميلكم عن دينكم فانه لا قيمة له ولا للمشركين إذ ليس في استطاعتهم أن يضروكم أو ينفعوكم اذا كان الله هو مولاكم وناصركم . واذا أراد الله بكم سوءا فلا يملكون أن يدفعوه عنكم ثم قال تعالى ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾

وهذا كلام جديد منقطع عما قبله وقلوا إن (أم) هنا للاستفهام لا للاضراب لان أم التي تستعمل بمعنى (بل) يقصد بها الاضراب عن الكلام السابق ولا يظهر الاضراب هنا : هذا ما اختاره الاستاذ الامام من قولهم
(قال) واستشهدوا لام الاستفهامية بقول الشاعر :

فوالله لا أدري أهند تقولت أم القوم ، أم كل إلى حبيب ؟
وبعض المفسرين يقولون إن «أم» هذه منقطة للاضراب عن عدم علمهم
بالسابق إلى الاستفهام عن اقتراحهم فهي تتضمن الاضراب والاستفهام معاً ،
وتجد الجلالين يقدران ذلك في تفسيرهما وقد قدرا فيه هنا « بل أتر يدون »
والحاصل أن المعنى هنا أتر يدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرما
واعنائنا ؟ بحذر المسلمين ما فعل أولئك وقد أتمعت التحذير بالوعيد فقال ﴿ ومن يتبدل
الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ أى إن ترك الآيات الموجودة والاعراض
عنها لإعنت النبي ﷺ بسؤال غيرها لتسكون بدلا منها هو من اختيار الكفر على
الايمان واستحباب العمى على الهدى . وبدل وتبدل واستبدل يدل على جعل شئ
في موضع آخر بدلا منه والباء تقرر بالمبدل منه لا بالبدل كما أشرنا إليه في تفسير
(أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير)

(الاستاذ الامام) هذا تقرير ماجرى عليه المفسرون في الآيات . واذا
وازننا بين سياق آية (ما ننسخ) وآية (واذا بدلنا آية مكان آية) نجد أن الاولى
ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير) والثانية بقوله (والله أعلم
بما ينزل قالوا إنما أنت مفتى) ونحن نعلم شدة العناية في أسلوب القرآن بمراعاة هذه
المناسبات . فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء في الآية الثانية يقتضى أن يراد
بالآيات فيها آيات الاحكام

وأما ذكر القدرة والتقرير بها في الآية الاولى فلا يناسب موضوع الاحكام
ونسخها وانما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة فلو قال (ألم تعلم أن الله عليم حكيم)
لكان لنا أن نقول إنه أراد نسخ آيات الاحكام لما اقتضته الحكمة من انتهاء الزمن
أو الحال التي كانت فيها تلك الاحكام موافقة للمصلحة . وقد تحير العلماء في فهم

الإساءة على الوجه الذي ذكره حتى قال بعضهم إن معنى (نفسها) نتركها على ما هي عليه من غير نسخ وأنت ترى أن هذا وإن صح لغة لا يلتزم مع تفسيرهم إذ لا معنى للاتبان بخير منها مع تركها على حالها غير منسوخة (قال) والمعنى الصحيح الذي يلتزم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم أي (ما ننسخ من آية) نقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها أو ننسها للناس لطول العهد بمن جاء بها فانتما بما لنا من القدرة الكاملة والتنصرف في الملك تأتي بخير منها في قوة الافئدة وإثبات النبوة أو مثلها في ذلك . ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة بمنحها جميع أنبيائه . والآية في أصل اللغة هي الدليل والحجة والعلامة على صحة الشيء وسميت جمل القرآن آيات لأنها بأعجازها حجج على صدق النبي ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحي من الله عز وجل ، من قبيل تسمية الخالص باسم العام . ولقد كان من يهود من يشك في رسالته عليه السلام بزعمهم أن النبوة محتكرة لشعب إسرائيل ، ولقد تقدمت الآيات في تفنيدهم هذا وقالوا (لولا أوتى مثلها أوتى موسى) أي من الآيات ، فرد الله تعالى عليهم في مواضع منها قوله عز وجل بعد حكاية قولهم هذا (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) الخ ومنها هذه الآيات والخطاب فيها للمؤمنين الذين كان اليهود يريدون تشكيكهم كأنه يقول إن قدرة الله تعالى ليست محدودة ولا مقيدة بنوع مخصوص من الآيات أو بأحد منها لا نتناول غيرها ، وليست الحجة محصورة في الآيات السابقة لا تتعداها ، بل الله قادر على أن يأتي بخير من الآيات التي أعطاها موسى وعملها ، فانه لا يعجز قدرته شيء ، ولا يخرج عن ما سلكه شيء ، كما أن رحمته ليست محصورة في شعب واحد فيخصه بالنبوة ، ويحصر فيه هداية الرسالة ، كلا إن رحمته وسعت كل شيء ، كما أن قدرته تنصرف بكل شيء من ملك السموات والأرض الذي لا يشاركه فيه مشارك ، ولا ينازعه فيه منازع ، فيكون ولياً ونصيراً لمن كفر بعبادته وانحرف عن سننه أنظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها في هذا المقام فظهر أن ذكر القدرة

وسعة الملك إنما يناسب الآيات بمعنى الدلائل دون معنى الأحكام الشرعية والأقوال الدالة عليها من حيث هي دالة عليها لا من حيث هي دالة على النبوة .
 ويزيد هذا سفورا ووضوحا قوله عقبه (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟) فقد كان بنو إسرائيل لم يكتبوا بما أعطى موسى من الآيات وتجرؤوا على طلب غيرها وقالوا (يا موسى إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وكذلك كان فرعون وقومه كلما رأوا آية طلبوا غيرها حتى رأوا تسع آيات بينات ولم يؤمنوا . وقوله تعالى (كما سئل موسى) يشمل كل ذلك

قد أوردنا الله تعالى بهذا إلى أن التفتن في طلب الآيات وعدم الاذعان لما يجيء به النبي منها والاكتفاء به بعد العجز عن معاوضته هو دأب المطبوعين على الكفر الجامدين على المعاندة والمجاهدة ، فانه قال بعد إنكار هذا الطلب (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سورة السبيل) ويوضح هذا قوله تعالى في آية أخرى (١٧ : ٥٩ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) والمراد الآيات المقترحة ، بدليل السياق ، وهو اتفاق بين المفسرين . ولو كان الموضوع موضوع طاب استبدال أحكام بأحكام تنسخها لما كان للتوعد بالكفر وجه وجيه . وقوله تعالى (فقد ضل سواء السبيل) معناه أنه أخطأ وسط الجادة ومال إلى أحد الجانبين . وتبقى انحراف السائر في سيره عن الوسط يخرج عن المنهج وبيعد عنه كلما أوغل في السير فيهلك دون الوصول إلى المقصد . والمراد بسواء السبيل الحق والخير اللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير في طريقهما ، ومن مال عن الحق وقع في الباطل لاحالة (١٠ : ٢٢ فماذا بد الحق إلا الضلال ؟)

هذا هو التفسير الذي تتصل به الآيات ويلتئم بعضها مع بعض على وجه يتدفق بالبلاغة ، وهو الذي يتقبله العقل ويستحليه الذوق إذ لا يحتاج إلى شيء من التكلف في فهم نظمه ولا في توحيه مفرداته كالإنشاء والقدرة والملك^(١) وقد اضطر القائلون بأن المراد بالنسخ نسخ الأحكام - مع ما عرفت من التكلف - إلى القول بجمو

(١) بعد نشر هذا التحقيق في المنار بزمن طويل علمت ان الشيخ محي الدين بن عربي سبق إلى مثله فذكره مختصراً في تفسيره كنبه على طريق المفسرين دون الصوفية

نسيان الوحي ، وطفقوا يلتمسون الدلائل على ذلك ، حتى أوردوا قوله عز وجل (١٨: ٢٤) واذكر ربك إذا نسيت) وليس من هنا الموضوع ولا المخاطب به النبي ﷺ وإنما جاء على طريق الحكاية^(١) وأما قوله تعالى (٧٨: ٦، ٧) سنقرئك فلا تنسق إلا ماشاء الله) فهو يؤكد عدم النسيان لأن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار كما في قوله تعالى (١١: ١٠٨) خالدن فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجدود (أى غير مقطوع . وقوله (٧: ١٨٨) قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله) والنسبة في الاستثناء بيان هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتها في نفسها ولو شاء الله تعالى أن يغيرها. لفضل ، وهذا الاعتقاد من مهات الدين ، فلا غرو أن أن تزاح عنه الأوهام في كل مقام يمكن أن تعرض فيه. فليس امتناع نسيان الوحي طبيعة لازمة للنبي ، وإنما هو تأييد ومنحة من الله تعالى ، وليس خلود أهل الجنة في الجنة واجب عقلي أو طبيعي ، وإنما هو بإرادة الله تعالى ومشيئته

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو نساها) أى تؤخرها ، ولا يظهر هذا المعنى في مقام نسخ الأحكام كما يظهر في نسخ الآيات والمعجزات المقترحة على الأنبياء فان الآية التي تقترح على نبي لأنها كانت لنبي قبله قد تفسخ بآية جديدة خير منها أو مثلها ، وقد تؤخر بالآية الجديدة ، ثم تعطى في وقت آخر بمد الاقتراح ، ولكن تأخير آيات الأحكام ليس له معنى ظاهر .

(١٠٩) وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١٠) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

بين الله تعالى في الآية الأولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين
لديهم من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم لم يكتبوا بكفرهم بالنبي
ﷺ والسكيد له ونقض ما عاهدتم عليه حسداً له ولقومه على نعمة النبوة بل هم
يزيدون على ذلك ما قصه تعالى بقوله ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ
مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حسداً من عند أنفسهم ﴾ فهو بيان لما يضررونه وماتكنه
صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق وأن وراءها
السعادة في الدارين ، ولسكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يجرموا هذه النعمة
ويرجعوا كفاراً كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو
لم تكن ضارة به ، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من
أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه ، كما كان يتوقع علماء يهود في عصر
التنزيل ، وقد جاء هذا التنبيه نعمة لقوله تعالى قبل آيات (ما يود الذين كفروا من
أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) وقد بين الله
لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين في دينهم كقول
بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره لعل ضعف الإيمان يرجعون
عن الإسلام اقتداء بهم ، كما سيأتي في سورة آل عمران ، وفي هذه الآية وما بعدها
إشارة إلى أن لذلك بعض الأثر في نفوس بعض المسلمين .

وفائدة هذا التنبيه أو التفهيمات أن يعلم المسلمون أن ما يبذرون أهل الكتاب
أحياناً من إلقاء الشبه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر السوء
يبعث عليه الحسد لا النصيح الذي يبعث عليه الاعتقاد . وقال (حسداً من عند
أنفسهم) ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرة على حق يعتقدونه ، وإنما
هو خبث النفوس وفساد الأخلاق والجرود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق ،
ولذلك ففاه بقوله ﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ أي بالآيات التي جاء بها النبي
ﷺ وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما يبعث عنه بما يليق بهم
من محاسن الأخلاق فقال ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ ولم يقل فاعفوا واصفحوا عنهم لارادة

العموم ، أى عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو ، فان هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين (٢٥: ٦٣ الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) أقول : العفو ترك العقاب على الذنب (٩ : ٦٦ إن نغف عن طائفة منكم نغذب طائفة) والصفح الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب .

(قال الأستاذ الإمام) وفي أمره تعالى له بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة . لأن الصّحاح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول : لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فانكأ على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق ، فعاملوهم معاملة القوى العادل ، للقوى الجاهل (قال) وفي إنزال المؤمنين على ضعفهم منزل الأقوياء ، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ، إيدان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية ، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم ، ومهما يتصارع الحق والباطل فان الحق هو الذى يصرع الباطل ، كما قلنا غير مرة ، وإنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه . ثم قال تعالى ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾ فوعدهم بأن سيمدهم بمعونته ، ويؤيدهم بنصره ، ثم أحلهم بقوله ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ على قدرته النافذة التى لا يشذ عنها شيء فى العالمين ، تأييداً للوعد وكشفاً لشبهة من عساه يقول : أنى لهذه الشرذمة القليلة العدد ، الضعيفة القوى ، أن تنجح لنفسها وصف الملوك العالمين ، وتفقد مع الأمم القوية . وقف العاقين قادرين ؟ فجاء الجواب يقول لمثل هذا المشتبه : إن الذى أوقفها هذا الموقف ، ومنحها هذا الوصف ، هو القادر على أن يهبها من القوة ما تتضامل دونه جميع القوى ، وهو ما يؤيد به سبحانه من يقوم بالحق ويثبت عليه (٢٢ : ٤٠) ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وقد فعل .

(أقول) جعل شيخنا الأمر فى الغاية التى قيد بها العفو والصفح واحد الأوامر ، إذ فسره بالنصر وأكثر المفسرين جعلوه واحد الأوامر وهو الأمر بقتالهم ، ويعبر بعضهم بآية السيف ويعنون آية التوبة التى فيها حكم الجزية . وقال بعضهم : المراد هنا الأمر بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير ، وقالوا : إنه توقيت لا يصح أن يسمى منسوخاً أى فى عرف الأصوليين ، وإن روى عن ابن عباس

وغيره . وذلك أن النبي (ص) كان عاهد جميع اليهود المجاورين له في المدينة عهداً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم فغدروا ونقضوا العهد بموالاته المشركين عليه مراراً وكان يمفو عنهم ويصفح حتى أذن الله له بقتالهم وإجلالهم (قال الأستاذ) ثم بعد الوعد بالنصر والإرشاد إلى الاعتماد فيه على القدرة

دلهم على بعض وسائل تحقيقه ، وهي الصلاة التي توثق عروة الإيمان وتعلو الهمة وترفع النفس بمناجاة الله العلي الكبير ، وتؤلف بين القلوب بالاجتماع لها ، والتعارف في مساجدها ، والزكاة التي تصل بين الأغنياء والفقراء فتتكون باتصالهم وحدة الأمة حتى تكون كجسم واحد ، فقال ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ولم تذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في موضع من الكتاب الحكيم إلا والمقام يقتضى الذكر لبيان فائدة خاصة لهذا الأمر لا يمكن أن تستفاد من ذكرهما في موضع آخر .

وقد تقدم أن إقامة الصلاة ليست عبارة عن أداؤها مطلقاً ، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية ذلك بالتوجه إلى الله تعالى ومناجاته والانتطاق إليه عما عداه ، وإشعار القلب بعظمته وكبريائه ، فبهذا الشعور ينمو الإيمان وتقوى الثقة بالله ، وتنزه النفس أن تأتي الفواحش والمنكرات ، وتستنير البصيرة فتكون أقوى نفاذاً في الحق وأشدّ بعداً عن الأهواء ، فنفوس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيها الصلاة من القوة المعنوية ومن الثقة بقدرته الله تعالى ، فإذا كان قوله تعالى بعد الوعد بالنصر (إن الله على كل شيء قدير) دليلاً أيده به الوعد فقوله (وأقيموا الصلاة) هداية إلى طريق الإقناع التام بهذا الدليل حتى يكون وجداناً للنفس لا ترتزله الشبهات ، ولا تؤثر فيه المشاغبات والمجادلات .

وقد مضت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد ، والزكاة لإصلاح شئون الاجتماع ، ثم إن فيها من معنى العبادة ما في الصلاة فان المال — كما يقولون — شقيق الروح ، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله تعالى كان بذاه مزيدياً في إيمانه ، فهي إصلاح روي أيضاً .

وبعد أن أمر بالصلاة والزكاة في سياق كشف شبهة من يشتهه من ضمياء الإيمان في نصر الله المؤمنين ، وجعل السلطان لهم على الكافرين ، وبيان إقامة

هذين الركتين من وسائل النصر والسلطان في الدنيا بين لهم أنها من أسباب السعادة في الآخرة، فقال ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ ولكن البيان جاء في صورة عامة، وهذا من الأساليب التي لا تكاد تجد لها في غير القرآن نظيراً - ينتقل من بيان حكم إلى آخر، فيكون الثاني قائماً بنفسه وشاملاً للأول بعمومه وتكون صلة العموم والخصوص هي الرابط في النظم . وقوله تعالى (تجدوه) هو كقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وقالوا : إن المراد أنه يرى ويجد جزاءه ، ولكن لما كان الجزاء مبنيّاً على أثر العمل في نفس العامل وارتباطها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه . ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الاحسان فيه ويدل على تحققه، فقال ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فلا يخفى عليه منه شيء فتخافوا أن ينقضكم من أجوركم شيئاً

(الاستاذ الامام) هذه الآيات هي آخر ما أدب الله تعالى به المؤمنين في هذا المقام على ما ينحصر البعض منهم وما يعن له من الشبه في مستقبل الاسلام وتأنيده تعالى لنبيه وإعزازه لجزبه ، وكان أولها قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) وكان منشأ تلك الخواطر هو ما يروونه في التنزيل المرة بعد المرة وما يشاهدونه من عمل النبي ﷺ من الجزم بأن الأسباب مقرونة بمسبباتها وأن حوادث الكون جارية على سنن مطردة ، وما كان هذا الفريق من المؤمنين يعلم قبل إعلام الله تعالى إياهم بأن الايمان الصحيح الذي يتوكل صاحبه بعد اتخاذ الاسباب والوسائل - على القدرة الالهية والعناية الغيبية، وعمل الصالحات الذي يصلح النفوس ، ويؤلف مع الاعتقاد بين القلوب ، هما أكبر أسباب القوة، وأقرب وسائل السيادة والسعادة ، وقد جاء هذا الارشاد والتأديب في سياق الكلام على أهل الكتاب، لأن مكرم السوء كان مثاراً لبعض الخواطر في المسلمين حال كلام تأديب المؤمنين ورد على اليهود . ثم انتقل إلى الكلام على أهل الكتاب عامة وما يلام عليه الفريقان منهم - اليهود والنصارى - فقال :

أَمَانِيهِمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١٢) بَلَىٰ مِنْ أَسَامِ
 وَجْهِ اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ (١١٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ
 النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكُتُبَ . كَذَلِكَ قَالَ
 الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
 كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

هذا بيان لحالين آخرين من أحوال أهل الكتاب في غرورهم بدينهم ما كان
 المسلمون قبل نزول الآيات يعرفونها - أما الأولى فما بينه تعالى بقوله ﴿وقالوا ان
 يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وهو عطف على قوله (ود كثير من أهل
 الكتاب) أي قالت اليهود: ان يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى
 كذلك في أنفسهم، وهو اختصار بديع غير مخل. وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم ولا
 ينافي انسحاب حكمها على الآخرين، أن نفرأ من الأولين قالوا ذلك بين يدي
 النبي ﷺ كما روى. وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة له في كتبهم
 المنزلة فقال ﴿تلك أمانيتهم﴾. قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴿والأمانى جمع
 أمنية، وهي ما يتمناه المرء ولا يدركه. وهذا القول ناطق بأمنية واحدة ولكنها
 تتضمن أمانى متعددة هي لوازم لها، كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه
 وحرمانهم من النعيم، ولهذا ذكر الأمانى بالجمع ولم يقل تلك أمانيتهم. وقد انفرد
 بهذا الوجه الاستاذ الامام، وهناك وجوه أخرى وهي أن الإشارة بتلك أمانيتهم
 لقوله (ما يورد الذين كفروا من أهل الكتاب) الآية وقوله (ود كثير) وقوله
 (وقالوا ان يدخل الجنة) وقيل: إن في الكلام مضافاً محذوفاً أي أمثال تلك الأمنية
 أمانيتهم، ثم طالبهم تعالى بالبرهان على دعواهم فقرر لنا قاعدة لا توجد في غير
 القرآن من الكتب السماوية، وهي أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا

يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها ، ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها ولذلك اكتفى منهم بتقليد الأنبياء فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه ، فهم مكلفون أن يفعلوا ما يؤمرون ، سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا ، ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله (١٢: ١٠٧) قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقد فسروا البصيرة بالحجة الواضحة ، ويستدل على قدرة الله وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية ، وهي كثيرة جداً في القرآن ، وبالادلة النظرية والعقلية كقوله (٢١ : ١٠٨) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا) وغير ذلك ، ويستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات والافضاء إلى المنافع . علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة ، لأنه أقامهم على سواء المحجة . وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه . وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل ، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد ، وأمر بالتقليد ، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد ، حتى كأن الاسلام خرج عن حده ، أو انقلب إلى ضده . وصار الذين يعلمون أن الاسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد . وبالمطالبة بالبرهان والدليل ، وعلم الناس استقلال الفكر ، مع المشاورة في الأمور ، يطالبون المسالمين بالرجوع إلى الدليل ، ويعيبون عليهم الأخذ بقول وقيل . وباليته كان الأخذ بقول الله ، وقيل فيما يروى عن رسول الله ، ولكنه الأخذ بقول فلان وقيل عن فلان (٥٣: ٢٣) إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) قال تعالى رداً عليهم ﴿ بلى ﴾ وهي كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق فهي مبطله لقولهم (لن يدخل الجنة) الخ ، أى بلى إنه يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى ، لأن رحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب ، وإنما هي مبدولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها ، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله ﴿ من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ﴾ إسلام الوجه لله هو التوجه إليه وحده وتخصيص

بالعبادة دون سواه، كما أشار إلى ذلك في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وغيرها من الآيات. وقد عبر هنا عن إسلام القلب وصحة التقصد إلى الشيء بإسلام الوجه كما عبر عنه بتوجيه الوجه في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم (٦: ٧٩) إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا بوليته دبره فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة نابغاً بقصدته واشتغال القلب به عبر عنه به وجعل التوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة (وهي القبلة) بأمر الله مذكراً بإقبال القلب على الله الذي لا تحدده الجهات، فالإنسان يتضرع ويسجد لله تعالى بوجهه ومعنى الوجه يظهر أثر الخشوع وظاهر أن المراد من إسلام الوجه لله توحيد بالعبادة والاخلاص له في العمل، بأن لا يجعل العبد بينه وبينه وسطاء يقر بونه إليه زلفي، فانه أقرب إليه من جبل الوريد. ومن هنا يفهم معنى الإسلام الذي يكون به المرء مسلماً.

ذكر التوحيد والإيمان الخالص ولم يحمل عليه الوعد بالأجر عند الله تعالى واستحقاق الكرامة في دار المقامة إلا بعد أن قيده بإحسان العمل فقال (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) وتلك سنة القرآن تقرن الإيمان بعمل الصالحات كقوله (٤: ١٢٣، ١٢٤) ليس بأمينكم ولا أمانى أهل الكتاب: من يعمل سوءاً يجز به، ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) وهذا في معنى الآيات التي نفسرها. نفي أمانى المسلمين كما نفي أمانى أهل الكتاب، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطاً بالإيمان والعمل الصالح معاً. وكقوله (٢١: ٩٤) فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) الآية.

ثم بعد أن أثبت للعالم وجهه إلى الله والمحسن في عمله الأجر عند الله نفي عنه الخوف الذي يرهق الكافرين والمسيئين في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة والحزن الذي يصيبهم فقال ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ولا شك أن الخوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية، وأساءوا أعمالهم بالإعراض عن الهداية الدينية.

ترى أصحاب التزغات الوثنية في خوف دائم مما لا يخيف، لأنهم يعتقدون

بثبوت السلطة الغيبية القاهرة لكل ما يظهر لهم منه عمل لا يهتدون إلى سببه ولا يعرفون تأويله ، يستخفون للدجالين والمشعوذين ، ويرتعدون من حوادث الطبيعة الغريبة ، إذا لاح لهم نجم مذنب تخيلوا أنه منذر يهددهم بالهلاك ، وإذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد توهموا أنها من تصرف بعض العباد ، وترام في جزع وهلع من حدوث الحوادث ، ونزول الكوارث ، لا يصبرون في البأساء والضراء . ولا ينفقون في الرخاء والسرء . (١٩:٧٠-٢٣) إن الانسان خلق هلو عاً* إذا مسه الشر جزوعاً* وإذا مسه الخير منوعاً* إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) هذه حال من فقد التوحيد الخالص وحرّم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا (١٦:٤١) ولعذاب الآخرة أحرزى وهم لا ينصرون) وإنما كان صاحب النزغات الوثنية في خوف مما يستقبله ، وحرز مما ينزل به ، لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير الله التي يحكمها في نفسه ، ويجعلها حججاً بينه وبين ربه ، لا يمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها ، ولا يجد عندها غناء إذا هو لجأ إليها ، وما هو من سلطتها على يقين ، وإنما هو من الظانين أو الواهين

وأما ذو التوحيد الخالص فهو يعلم أنه لا فاعل إلا الله تعالى وأنه من رحمته قد هدى الانسان إلى السنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله ، فإذا أصابه ما يكره بحث في سببه واجتهد في تلافيه من السنة التي سنّها الله تعالى لذلك ، فان كان أمراً لا يرد له سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم ، فلا يجار ولا يضطرب لأن سنده قوى عزيز ، والقوة التي يلجأ إليها كبيرة لا يعجزها شيء ، فإذا نزل به سبب الحزن أو عرض له مقتضى الخوف لا يكون أثرها إلا كما يطيف الخاطر بالبال ، ولا يلبث أن يعرض له الزوال (٢٨:١٣) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فكأنه تعالى يقول لأهل الكتاب : لا تفرنكم الأمانى ولا يخدعنكم الانتساب الباطل إلى الأنبياء ، فهذه هي طريق الجنة ، أسلموا وجوهكم لله تسلموا واعملوا الصالحات تؤجروا ، وقد أفرد الضمير في قوله (فله أجره) مراعاة

للفظ (من) وجمعه في قول (ولا خوف عليهم) الخ مراعاة لمعناها
بعد أن ذكر تزكية كل فريق من أهل الكتاب نفسه وحكمه بجرمان غير

من راحة الله كيفما كانت حاله ذكر طعن كل فريق منهما بالأخر خاصة فقال
 ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ من الدين حقيقى يمتد به ، فالشئى فى
 اللغة هو الموجود المتحقق ، والاعتقادات الخيالية التى لاتنطبق على موجود فى الخارج
 لاتسمى شيئاً ، فكفروا بهيسى وهم يتلون التوراة التى تبشر به وتذكر من العلامات
 ماينطبق عليه ، ولايزال اليهود إلى اليوم تدعى أن المسيح المبشر به فى التوراة
 لما يأت وتنتظر ظهوره وإعادته الملك إلى شعب اسرائيل ﴿وقالت النصارى
 ليست اليهود على شيء﴾ من الدين حقيقى يمتد به لإنكارهم المسيح المتعم لشريعتهم
 يقول كل فريق منهم مايقول ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أى يتلو كل منهم كتابه
 فكتاب الأولين (التوراة) يبشر برسول منهم ظهر ولم يؤمنوا به فهم مخالفون
 لكتبهم ، وكتاب الآخرين (الانجيل) يقول بلسان المسيح : إنه جاء متمماً لماوس
 موسى ، لاناقضاً له ، وهم قد نقضوه ، فدينهم واحد ، ترك بعضهم أوله وبعضهم
 آخره فلم يؤمن به كله أحد منهم ، والكتاب الذى يقرؤون حجة عليهم .

ثم قال تعالى ﴿ كذلك ﴾ أى نحو ذلك السخف والجزاف ﴿ قال الذين
 لايعلمون ﴾ من مشركى العرب وغيرهم من أهل الملل ﴿ مثل قولهم ﴾ تعصب كل
 ملته التى جعلها جنسية وزعم أنها هى المنجية لكل من وسم بها ورضى باسمها
 ولقبها ، والحق وراء جميع المزايم لايتقيد باسماء ولا الألقاب ، وإنما هو إيمان خالص
 وعمل صالح ، ولو اهتدى الناس إلى هذا لما تفرقوا فى الدين واختلفوا فى أصوله
 ولكتبهم تعصبوا وتجزأوا لأهوائهم ، ففترقوا واختلفوا فى آرائهم ﴿ فالله يحكم
 بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فإنه هو العليم بما عليه كل فريق من حق
 وباطل . ولم يبين لنا تعالى هنا بماذا يحكم . وقال بعض المفسرين إنه يكذبهم
 جميعاً ثم يلقئهم فى النار ، ولكن الذى يدل عليه القوآن أنه يحق الحق ويجعل
 أهله فى النعيم ، ويبطل الباطل ويلقى بأهله فى الجحيم .

هذا هو معنى الآية . ويروى فى سبب نزولها أن يهود المدينة تماروا مع وفد
 نصارى نجران عند النبي ﷺ فقال كل فريق منهم ماقال فى إنكار حقيقة دين

الآخر . قال الأستاذ الإمام : إن فهم الآية لا يتوقف على هذه الرواية ، فالآية تحكى لنا اعتقاد كل طائفة بالأخرى سواء قال ذلك من ذكر أو لم يقله . على أن ما يروى في أسباب النزول من مثل ذلك هو من تاريخ الآيات وما فيها من الوقائع ، وما يروى في أسباب النزول عندنا غير كاف في ذلك ، فلا بد لنا من البحث والاطلاع على تاريخ الملل والأمم التي تكلم عنها القرآن لأجل أن نفهمه تمام الفهم ونعرف ما يحكيه عنهم من العقائد والشئون والأعمال ، هل كان عامافهم أو كان في طائفة منهم وأسند إلى الأمة لما نبهنا عليه مراراً من إرادة تكافلها ومواخذة الجميع بما يصدر عن بعض الأفراد لأنهم كلفوا إزالة المنكر والتناهي عنه؟ والعبرة في الآية أن أهل الكتاب في تضليل بعضهم بعضاً واعتقاد كل واحد في الآخر أنه ليس على شيء حقيق من أمر الدين مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى ، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود . قد صاروا إلى حال من التهاوت واتباع الأهواء لا يعتمد معها بقول أحد منهم في نفسه ولا في غيره ، فطمعهم في النبي ﷺ وإعراضهم عن الإيمان به لا ينهض حجة على كونهم علموا أنه مخالف للحق ، بل لا يصلح شبهة على ذلك لأنهم أهل أهواء ، وتعصب للمذاهب المبتدعة والآراء ، فإذا كانت اليهود كفرت بعيسى وأنكرته وهو منهم وهم ينتظرونه لإعادة نجدهم وتجديد عزهم ، وإذا كانت النصارى قد رفضت النوراة وكفرت أهلها وهي حججهم على دينهم ، فكيف يعتمد بكفر هؤلاء وهؤلاء بمحمد ﷺ وهو من شعب غير شعبهم ، وقد جاء بشريعة ناسخة لشرائعهم ، وهم لا يفهمون من الدين إلا أنه جنسية دنيوية لهم ؟

وفي الآية إرشاد إلى بطلان التقليد مؤيد لما في الآية التي تطالب المدعى بالبرهان ، وإلى النفي على التقليد المتعصبين لأرائهم ، المتبعين لأهوائهم ، وإلى التحري في الحكم على الشيء يعتمد الحاكم بطلانه لأنه مخالف لما يعتقد ، فلا ينبغي للماقل أن يحكم على شيء إلا بعد البحث والتحري ومعرفة مكان الخطأ والتزويل بينه وبين ما عساه يكون معه صواباً . ألم تر أن سياق الآيات ناطق بإنكار حكم كل من الفريقين على الآخر من غير بينة ولا برهان ، ولأفضل ولا فرقان ، مع

أن كل واحد منهم على شيء من الحق وشيء من الباطل لأن أصل دينه حق ثم طرأت عليه نزعات الوثنية والبدع وعرض له التحريف والتأويل ، فتمجر يده من كل حق لم يكن إلا تعصباً للتقاليد من غير بيعة ولا تحييص ، وأتى للمقلدين بذلك ؟ وأنظر كيف أُلحق التقليد أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الإلهي بالمشركين الذين لا يعلّمون منه شيئاً ؟ هذا ما فعله التقليد بهم وعن بعدهم لأنه عدو للعلم في كل زمان وكل مكان .

(١١٤) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ
وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ
فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٥) وَلِلَّهِ المَشْرِقُ
والمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٦) وَقَالُوا
اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ كُلُّ لَّهُ
قَاتِنُونَ (١١٧) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

الكلام في أهل الكتاب عامة ومن على شاكلتهم ، فقوله تعالى ﴿ ومن أظلم ﴾
من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ﴿ الآية فيه وجوه
(أحدها) أنه يشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة وهي دخول تيطس
الروماني بيت المقدس وتخریبها حتى صارت المدينة تلامن التراب ، وهدمه هيكل
سليمان عليه السلام حتى لم يبق منه إلا بعض الجدر المدعثة ، وإحراقه ما كان
عند اليهود من نسخ التوراة ، وكان المسيح عليه السلام قد أوعد اليهود بذلك .
وقال بعض المفسرين إن أتباع المسيح هم الذين هيجوا الرومانيين وأغروهم بهذا العمل
قال الأستاذ الإمام : ولا أدري هل يصح هذا الخبر أم لا فإن قائله لم يأتوا
عليه بأدلة ولا بنقول تاريخية ، ولكنني أعلم أن المسيحيين على قلوبهم وتشتتهم

واستخفافهم من اضطهاد اليهود كانوا قد وصلوا إلى (رومية) وكانوا يودون الايقاع باليهود الذين اضطروهم إلى الخروج من بلادهم انتقاماً منهم وتحققاً لوعيد المسيح ، وأن الرومانيين - وإن كانوا وثنيين يرون أن اليهود ليسوا على شيء - لم تكن حروبهم دينية وإنما كانوا يحاربون اليهود وغيرهم لشغبهم وقتنهم أو للطمع في بلادهم وذلك لا يقضى بهم المعبود وإحراق كتب الدين . فهذه قرائن ترجح أنه كان للمسيحيين يد في إغارة تيطس ، ولكن لا يجزم به إلا إذا وجد نقل تاريخي صحيح يؤيد الخبر ومن الغريب : أن ابن جرير الطبري قال في تفسيره : إن الآية في أنحاد المسيحيين مع بختنصر البابلي على تخريب بيت المقدس مع أن حادثة بختنصر كانت قبل وجود المسيح والمسيحية بست مئة وثلاث وثلاثين سنة . ولولم يكن مؤرخاً من أكبر المؤرخين لا لتس له العذر بحمل قوله على حادثة أدرينال الروماني الذي جاء بعد المسيح بمئة وثلاثين سنة ، وبني مدينة على أطلال أورشلين وزينها وجعل فيها الحمامات ، وبني هيكلًا للمشترى على أطلال هيكل سليمان ، وحرّم على اليهود دخول هذه المدينة وجعل جزءاً من يدخلها القتل ، فلذلك كان اليهود يسمونه بختنصر الثاني لشدة ما قاسوا من ظلمه واضطهاده . ولكن هذا لا يصح أن يكون عذراً للمؤرخ (الثاني) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) نزل في منع مشركي العرب النبي وأصحابه . من دخول مكة في قصة عمرة الحديبية ، وقالوا إن حادثة الرومانيين كانت قد طال عليها الأمد فلان مناسبة لارادتها بالآية . واعترض هذا القول بان مشركي العرب ماسعوا في خراب الكعبة ، بل كانوا عمروها في الجاهلية وكانوا يعظمونها ويرونها مناط عزهم ومحل شرفهم ونحرم . وقال (الاستاذ الامام) يصح أن تكون الآية في الأمرين على التوزيع ، فالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم مشركو مكة والذين سعوا في خرابها هم مشركو الرومانيين . ويكون قرن ما عمل المشركون من منع البيت الحرام أن يذكر فيه اسم الله بزيارة النبي وأصحابه بما عمل من قبلهم من مشركي الرومانيين من التخريب من قبيل الإشارة إلى تساوي الفعلين في القبح (الثالث) أن الكلام في أهل الكتاب وأن الآية ليست منبئة بأمر وقع ،

ولكن بأمر سيقع ، وهو ما كان بعد ذلك من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين وصددهم إياهم عن المسجد الأقصى وتخريبهم كثيراً من المساجد (الرابع) وهو مبنى أيضاً على أن الآية منبثه عن أمر سيقع أن المراد بها حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها وهدموا كثيراً من المساجد . كأنه بعد أن ذكر حال أهل الكتاب في طعن اليهود منهم بالنصارى وقولهم فيهم إنهم ليسوا على شيء من الدين وطعن النصارى في اليهود كذلك وبعد قوله في المشركين الذين لا يعلمون الكتاب أنهم قالوا مثل قولهم لم يبق إلا ما سيقع للمسلمين وفي المسلمين فأنبأ الله تعالى بهذه الحادثة من الاخبار بالغيب فوقعت وكانت حادثتهم من أكبر الاحداث في المسلمين فانهم استولوا على جزء كبير من ممالك الاسلام وهدموا المساجد وعاثوا في الارض فساداً ولم يكن في أيام الحروب الصليبية على طولها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة مثلما كان على عهد القرامطة فالآيات على هذا مبينة لأحوال جميع الملل

(قال شيخنا) سواء كانت الآية في حادثة واقعة أو مننظرة أم كانت وعيداً للذين لا يحترمون المعابد على الاطلاق، هي على كل حال ناطقة بوجود احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح وبتحريم السبى في خراب المعابد، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون في خرابها - أي هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها - بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من استنفهم الانكار لان المنع من ذكر الله تعالى وبطل شعائر المعابد التي تذكر به وتشعر القلوب عظمتها انتهاك لحرمة الدين يفرضى إلى نسيان الناس الرقيب المهيم عليهم فيمسون كاهلهم وتفشوا فيهم المنكرات والفواحش ، وانتهاك الحرمات ، وهضم الحقوق ، وسفك الدماء . وعبادة الله تعالى بذكره والصلاة له تنهى بطبيعتها عن الفحشاء والمنكر، ولا يتناقى ذلك ما عساه يظراً على العبادة أو يوجد في المساجد من الاشياء المبتدعة التي لم يأمر بها الكتاب . فمن علم بهذه البدع فعليه أن ينكرها ويسعى في إزالتها ولا يجوز له السبى في إزالة المعابد من الأرض لما في ذلك من الفساد الذي أشرنا إليه . وهذا هو السر في حكم الشريعة الاسلامية باحترام كنائس أهل الكتاب

وبيعهم وصوامعهم وعبادهم واحترام معابد الذين لهم شبهة كتاب أيضا كالمجوس والصابئين ، بل الأستاذ الامام بعد الصابئين من أهل الكتاب . وأما الوثنيون الخالص الذين اتخذوا من دون الله أولياء وبيّنون المساجد لذكر غيره والتقرب إلى سواه فهؤلاء لم يتعرض لذكرهم ولم يتوعد من يمنهم من سخطهم

(أقول) لكن ذكر بعض الفقهاء أنه يجب هدم ما بنى من المساجد والقباب على قبور كثير من الأئمة آل البيت وأئمة الفقه وغيرهم من الصالحين، وارتكبوها فيها المحظورات الكثيرة التي يعد بعضها من الشرك الصريح وبعضها من البدع والمعاصي ، ولا سيما المعاصي التي تفعل تديناً وتقرباً وتوسلاً إلى الله تعالى كما ترى في كتاب الزواجر للفقهاء ابن حجر من فقهاء الشافعية وغيره من كتبهم وفي كثير من كتب الحنابلة و يحتجون بهم النبي صلى الله عليه وسلم والمسجد الضرار، وإنما يعنى شيخنا بتعطيل المساجد هنا ابطال التدين والعبادة مطلقاً كما يعلم مما يأتي لا ابطال البدع التي شوهت الإسلام ثم قال تعالى في شأن المعتدين على المساجد ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها

إلا خائفين ﴾ أى فكيف يدخلونها مفسدين ومخرين ؟ ولا ينبغي للعاقل أن يقدم على أمر إلا بعد النظر فيه والعلم بدرجة نفعه أو ضره . وما كانت عبادة الله تعالى إلا نافعة وما كان تركها إلا ضاراً . وما عساه يوجد في عبادات الأمم من انحرافات الضارة فإنما المكروه منه ما فيه مما يبعد عن عبادة الله تعالى ويوقع في إشراك غيره فيها . على أن العبادة المزوجة بنزغات الوثنية ، أهون من التعطيل القاضى بالوجود المطلق ، لذلك توعد الله تعالى أولئك المعتدين الظالمين بقوله ﴿ لهم في الدنيا

أخرى وهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ فأمّا خزي الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران ، المفضى إلى الذل والهوان ، وناهيك بظلم يحل القيود ، ويهدم الحدود ، ويغرى الناس بالفواحش والمنكرات ، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات ، وهو ظلم ابطال العبادة من المساجد ، والسعى في خراب المعابد ، إذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولاً في حكمه ، والقائم الظالم غير أمين في قنعه ، وإذا أردت

تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين ، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين ، وبماذا انتهى عدوان الصابيين ، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين ، وأما عذاب الآخرة فإله أعلم به ونحن بوعدده ووعدده من المؤمنين ثم قال تعالى ﴿ والله المشرق والمغرب ﴾ ذهب المفسر (الجلال) إلى أن

المراد بالمشرق والمغرب الأرض كلها لأنهما ناحيتاها ، وقال في قوله ﴿ فأينا تولوا ﴾ فتم وجه الله ﴿ أى أى مكان تستقبلونه في صلاتكم فهناك وجه القبلة التي أمر الله بأن يتوجه إليها . ووجه الأستاذ الإمام هذا بقوله : إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، ولما كان سبحانه منزهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيلاً شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إياه ، وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى . ثم قال :

هذه الآية متصلة بما قبلها وهو قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) الخ وأكثر المفسرين على خلاف ما قاله الجلال في تفسير المشرق والمغرب : قالوا إن المراد بهما الجهتان المعلومتان لكل أحد ، ولذلك خصهما بالذكر ، فهو كقوله تعالى (١٧: ٥٥) رب المشرقين ورب المغربين (وهو يستلزم ما قاله الجلال فإن المراد على كل حال : أية جهة استقبلت وتوجهت إليها في صلاتك فأنت متوجه إلى الله تعالى لأن كل الجهات له ﴿ إن الله واسع ﴾ لا يتحدد ولا يحصر فيصح أن يتوجه إليه في كل مكان ﴿ عليهم ﴾ بالتوجه إليه أينما كان ، أى فاعبد الله حينما كنت ، وتوجه إليه أينما حلت ، ولا تنقيد بالامكانة فإن معبودك غير مقيد . أقول : بل هو فوق كل شيء ، بائناً منه . وأزيد على ذلك أن بعض رواة المأثور قالوا إن هذه الآية نزلت قبل الأمر

بالتوجه إلى قبلة معينة . وقال آخرون إنها نزلت في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، ولكن هذا فيه آيات مفصلة ستأتي في أول الجزء الثاني من هذه السورة . وقال بعضهم إنها نزلت في صلاة التطوع في السفر لا يشترط فيها استقبال القبلة . وقال آخرون إنها فيمن يجتهدون في القبلة فيخطئون فإن صلاتهم صحيحة لأن إيجاب استقبال جهة معينة إنما هو المعنى الاجتماعي في الصلاة ووحدانية الأمة فيها . والتعليل يصح في كل قول من هذه الأقوال ، فإنه أينما توجه المصلي في

صلاته الصحيحة فهو متوجه إلى الله تعالى لا يقصد بصلاته غيره وهو تعالى مقبل عليه راض عنه . ومن المعلوم أن أهل الكتاب يلتزمون في صلاتهم جهة معينة كالإتزام النصارى جهة المشرق وأن استقبال المسلمين الكعبة يقتضى أن يصلى أهل كل قطر إلى جهة من الجهات الأربع فهم يصلون إلى جميع الجهات ، ولا ينافى ذلك توجههم إلى الله تعالى والوجه هنا قيل إنه بمعنى الجهة وهو صحيح لغة ، والمعنى : فهناك القبلة التي يرضاها لكم . وقيل إنه على حد (٥٨ : ٧ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) .

ووجه المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها ظاهر على هذا التفسير فإن فيها إبطال ما كان عليه أهل الملل السابقة من اعتقاد أن العبادة لله تعالى لا يصح أن تكون إلا في الهيكل والمعبد المخصوص ، وفي إبطال هذا إزالة ما عساه يتوهم من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه من أنه وعيد على إبطال العبادة في المواضع المخصوصة ، لأنه إبطال لها بالمرّة، إذ لا تصح إلا في تلك المواضع، فهذه الآية تنفي ذلك التوهم من حيث تثبت لنا قاعدة من أهم قواعد الاعتقاد وهي أن الله تعالى لا تحمده الجهات ، ولا تحصره الأماكن ، ولا يتقرب إليه بالبقاع والمعاهد ، ولا تنحصر عبادته في الهيكل والمساجد ، وإنما ذلك الوعيد لا تنهك حرمت الله وإبطال نوع من أنواع عبادته ، وهو العبادة الاجتماعية التي يجتمع لها الناس في أشرف المعاهد على خير الأعمال التي تطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم وهذا الضرب من البيان مما امتاز به القرآن على سائر الكلام ، فانك لترى فيه فنونا من الاستدراك والاحتراس قد جاءت في خلال القصص وسباق الأحكام تقرأ الآية في حكم من الأحكام ، أو عظة من المواضع ، أو واقعة تاريخية فيها عبرة من العبر ، فتراها مستقلة بالبيان ، ولكنها باتصالها بما قبلها قد أزلت وهما أو تمت حكما ، وكان ينبغي لأهل العربية أن يقتبسوا هذه الضروب من البيان ، ويتوسعوا بها في أساليب الكلام ، فإن القرآن قد أطلق لهم اللغة من عقابها ، وعلمهم من الأساليب الرفيعة ما كانت تستحليه أذواقهم ، وتنفعل له قلوبهم ، وتهزل له نفوسهم ، وتتحرك به أريجيتهم ، ولكنهم لم يوفقوا لاقتباس هذه الأساليب

الجديده ، على أن ملكتهم في حسن البيان ، قد ارتفعت بعد نزول القرآن .
(قال الأستاذ الامام) وسنعطى هذا الموضوع حقه من البيان في موضع تكون
مناسبه أقوى من هذه المناسبه

ثم عاد الكتاب إلى النسق السابق في تعداد مخازي أهل الكتاب والمشركون
بعد ما ذكر من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ما ذكر وبين أنه
يعبد في كل مكان ، فقال جل وعز ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ﴾ فهذا عطف على قوله
تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) وقوله (وقالت
اليهود ليست النصرى على شيء) الخ ويصح أن ينسب هذا إلى اليهود والنصارى
والذين لا يعلمون جميعاً ، وإلى فرقة واحدة منهم . ووجه العموم أن الله تعالى
أخبرنا في مواضع من كتابه بأن اليهود قالت : عزير ابن الله : وأن النصرى قالت :
المسيح ابن الله : وأن المشركون قالوا : إن الملائكة بنات الله . ولا فرق في
الأحكام التي تستد إلى الأمم بين كونها صدرت من جميع أفراد الأمة أو صدرت
من بعضهم ، فان مثل هذا الإسناد منبئ بشكافل الأمم كما تقدم غير مرة . وقد نقل
أن كلمة : عزير ابن الله : قالها بعض اليهود لا كلهم ، وكذلك اعتقاد كون الملائكة
بنات الله لم يكن عاما في مشركي العرب ، وإنما عرف عن بعضهم . ثم رد على

مدعى اتخاذ الولد بقوله ﴿ سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون ﴾
نزه تعالى نفسه بكلمة (سبحانه) التي تفيد التنزيه ، مع التعجب مما ينافيه ،
كأن الذي يعرفه تعالى لا ينبغي أن يصدر عنه مثل هذا القول الذي يشعر
بأن له تعالى جنساً يماثله ، فان قائل ذلك لا يكون على علم بالله تعالى وإنما يكون
زاعماً فيه المزاعم وظاناً فيه الظنون : أي تنزيهاً له أن يكون له ولد كما زعم هؤلاء
الجاهلون الظانون بالله غير الحق ، فانه لا جنس له فيكون له ولد منه ، وهذا الولد
الذي نسبوه إليه تعالى لا بد أن يكون من العالم العلوي وهو السماء ، أو من العالم
السفلي وهو الأرض ، ولا يصلح شيء منهما أن يكون مجانساً له عز وجل ، لأن
جميع ما في السموات والأرض ملك له ، فانت لعزته وجلاله ، أي خاضع لتهره
مسخر لمشيئته ، فاذا كانوا سوءاً في كونهم مسخرين له بفطرتهم ، منقادين لإرادته

بطبيعتهم واستمدادهم ، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب اليه وجعله ولدًا مجانسًا له (١٩: ٩٣) إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) نعم إن له سبحانه أن يختص من شاء بما شاء كما اختص الأنبياء بالوحي ولكن هذا التخصيص لا يرتقى بالخلق إلى مرتبة الخالق ، ولا يبرج بالموجود الممكن إلى درجة الوجود الواجب، وإنما يودع سبحانه في فطرة من شاء ما يؤهله لما شاء منه (٢٠: ٥٠) أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وليست شبهة الذين اتخذوا بعض البشر آلهة بأمثل من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة ، إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهر مثلا من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه وقالوا هو ابن الله أو هو الله

وقد غلب في الملكية ما لا يعقل فقال (له ما في السموات) الخ لأن المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، لا التسخير الشرعي المعبر عنه بالتكليف الذي يفعله الكاسب باختياره ، ويستوى في التسخير الطبيعي العاقل وغيره، ولكنه في غير العاقل أظهر . ولما ذكر القنوت له تعالى جمعه بضمير العاقل فغلب فيه العقلاء لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره ، وإن كان لغير العاقل قنوت يليق به . وجملة القول : أن الآية ناطقة بأن ما في السموات والأرض ملك لله تعالى ومسخر لإرادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره ، فقد حكم على الجميع بالملكية والقنوت الذي يراد به التسخير وقبول الإرادة والقدرة ، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالباً في غير العاقل وهي كلمة (ما) لأن المهود في ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل ، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء لأنه من أعمالهم ، ومما يعهد منهم ويسند إليهم لغة وعرفا . وهذا كما نرى من أدق التعبير والطفه ، وأعلى البيان وأشرفه

ثم زاد هذين الحكيمين بيانا وتأكيداً فقال ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ قال المفسرون ، إن البديع بمعنى المبدع فهو مشتق من الرباعي «أبدع» واستشهدوا ببيت من كلام عمرو بن معدى كرب جاء فيه (سميع) بمعنى مسمع ، وقالوا قد تعاقب

فعليل ومفعل في حروف كثيرة، كحكيم ومحكم وقعيد ومقعد وسخين ومسخن .
وقالوا إن الابداع هو إيجاد الشيء ، بصورة مخترعة على غير مثال سبق وهو لا يقتضى
سبق المادة ، وأما الخلق فمعناه التقدير وهو يقتضى شيئاً موجوداً يقع فيه التقدير .
وإذا كان هو المبدع للسموات والأرض والمخترع لهما والموجد لجميع ما فيهما فكيف
يصح أن ينسب إليه شيء منهنما على أنه جنس له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً
وكان الأصمعي ينكر فعيلاً بمعنى مفعول لأن القياس بناؤه من الثلاثي ويقول
إن بديعاً صفة مشبهة بمعنى لا نظير له ، وبديع السموات معناه البديعة سمواته
وفي هذا ترك للقياس الذى قضى فى الصفة المشبهة التى تضاف إلى الفاعل أن تكون
متضمنة ضميراً يعود على الموصوف ، والحق أن تحكيم القياس فيما ثبت من كلام
العرب تحكيم جائز ، فما كان للدخيل فى القوم أن يعمد إلى طائفة من كلامهم
فيضع لها قانوناً يبطل به كلاماً آخر ثبت عنهم ويعمده خارجاً عن لغتهم بعد
ثبوت نطقهم به . فإذا كان كل واحد من الوجهين صحيح المعنى ، حكمنا بصحة كل
منهما ، والأول أظهر ، وشواهد المسموعة أكثر

وأما قوله ﴿ وإذا قضى أمراً فأنما يقول له كن فيكون ﴾ فمعناه أنه إذا أراد
إيجاد أمر وإحداثه فأنما يأمره أن يكون موجوداً فيكون موجوداً ، فكن ويكون من
كان التامة . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا ضرب من التمثيل أى أن تعلق
إرادته تعالى بإيجاد الشيء يعقبه وجوده ، كأمر يصدر فيعقبه الامتنال ، فليس بعد
الإرادة إلا حصول المراد . وقال بعضهم بل هو قول حقيقى . قال الأستاذ الامام
وقد وقع هذا الخلاف من أهل السنة وغيرهم وعجيب وقوعه منهم ، فان عندهم
مذهبتين فى المتشابهات التى يستحيل حملها على ظاهرها وهما مذهب السلف فى
التفويض ، ومذهب الخلف فى التأويل ، وظاهر أن هذا من المتشابهة ، والقاعدة
فى تأويل مثله معروفة ومتفق عليها وهى إرجاع النقل إلى العقلى لأنه الأصل ،
وههنا يقولون : إن الأمر بمعنى تعلق الإرادة وأن معنى (يكون) يوجد

وأقول : إن الأمر بكامة كن هنا هو الأصل فيما يسمونه أمر التكوين ، ويقابله
أمر التشكيل ، فالأول متعلق بصفة الإرادة ، والثانى متعلق بصفة الكلام ،

وأمر التكليف يخاطب به العاقل فيسمى المكلف ، ولا يخاطب به غيره فضلا عن المعلوم ، وأمر التكوين يتوجه إلى المعلوم كما يتوجه إلى الموجود ، إذ المراد به جملة موجوداً ، وإنما يوجه إليه لأنه معلوم فالله تعالى يعلم الشيء قبل وجوده وأنه سيوجد في وقت كذا . فتتعلق إرادته بوجوده على حسب ما في علمه فيوجد . وشيخ الإسلام ابن تيمية يسميه الأمر القدرى الكونى ، ويسمى مقابله الأمر الشرعى . قرأ الجمهور (يكون) في كل موضع بضم النون على تقدير فهم ويكون كأراد قرأه ابن عامر بفتحها في كل موضع إلا في آل عمران والانعام بناء على أن جواب الأمر بالفاء يكون منصوباً ذلك شأنه تعالى في الإيجاد والتكوين وهو أغمض أسرار الألوهية فن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع الأول وذلك ما لا مطمع فيه . وقد عبر عن هذا السر بهذا التعبير الذى يقر به من الفهم ، بما لا يتشعب فيه الوهم ، ولا يوجد في الكلام تعبير آخر أليق به من هذا التعبير: يقول للشيء «كن» فيكون، فالتوالد محال في جانبه تعالى لأن ما يمهّد في حدوث بعض الأشياء وتولدها من بعض فهو لا يمدو طرفين - الاستعداد القهرى الذى لا مجال للاختيار فيه كحدوث الحرارة من النور وتولد العفونة من الماء يتحد بغيره ، والسعى الاختيارى كتولد الناس بالازدواج الذى يساقون إليه مع اختياره والقصد اليه . وإذا كان كل واحد من الأمرين محالاً على الله تعالى وكان تعالى هو المبدع لجميع الكائنات وهى بأسرها ملكة ومسخرة لإرادته فلا معنى لإضافة الولد اليه (٣٧: ١٨٠-١٨٢ سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين)

(١١٨) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلُنَا آيَةً ،
كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ . قَدْ بَيَّنَّا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٩) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا
تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١٢٠) وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا
النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

قلنا إن السياق قد انتقل من الكلام في بنى إسرائيل تجاه القرآن ودعوة الإسلام ورسوله إلى الكلام في شئون المؤمنين معهم ومع النصارى والوثنيين .
وشيخنا لا يزال يجعل السياق واحداً غير ملتفت في التناسب بين الآيات إلى هذا التفصيل لذلك المجمل ، وقد قال هنا ما مثاله :

الكلام لا يزال في القرآن ، وما كان من أمر الناس في الإيمان به وعدم الإيمان ذكر في الآيات المتقدمة آنفاً من شأن أهل الكتاب ماتين به أن عدم إيمانهم بالنبي وما جاء به غير قادح فيه ، ولا ينهض شبهة عليه ، وأن مطاعنهم فيه متهافة منقوضة بطعنهم في أنفسهم ، وتخبطهم في أمر كتبهم ، ثم انتقل إلى ذكر شبهة مشركى العرب وبين أنهم جروا فيها على الأصل المهود من أمثالهم المشركين الذين سبقوهم بالضلال فقال ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ أى الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركى العرب . وقال الجلال إن المراد بالذين لا يعلمون كفار مكة

خاصة ولا دليل على التخصيص ويرجح العموم كون الآية مدنية ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ كما كلم هذا الرسول مع أنه بشر مثلنا ﴿ أو تأتينا آية ﴾ من الآيات التى اقترحناها ، يعنون ما حكاه الله تعالى عنهم بمثل قوله (وقالوا لن نؤمن لك حتى

تفجر لنا من الأرض ينبوعا) الآيات ﴿ كذلك قال الذين خلوا من قبلهم مثل قولهم ﴾ أى مثل هذا القول قال الكفار الذين أرسل الله اليهم الرسل من قبلهم فى معناه وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحى من دونهم واقترحوا عليهم الآيات تعنتاً وعناداً ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ لأن الطغيان قد ساوى بينهم حتى كأنهم نواصوا بما يقولون كما قال فى سورة الطور (أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون) ويشبهه هذا ما ورد من أن الكفر ملة واحدة وذلك أن الحق واحد ومخالفته هى الباطل أو الضلال وهو واحد وإن تعددت طرقة واختلقت وجوهه . وآثار الشىء الواحد الكلى تتشابه فيمن تصدر عنهم وإن اختلفت الجزئيات . والتشابه

هنا إنما هو في مكابر الحق واستبعاد كون واحد من البشر رسولا يوحى إليه واقتراح الآيات تمننًا وعنادًا

ومثال الأخلاف في الجزئيات طلب قوم موسى رؤية الله جبهة ، وطلب قوم محمد أن يرقى في السماء أمامهم فيأتيهم بكتاب يقرأونه . والطلب الذي مصدره العناد والتعنن لا تنفيذ إجابته لأن صاحبه لا يقصد به معرفة الحق ولذلك قال تعالى (١١) (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) والدليل المعقول على هذا أنه ما من نبي إلا وقد جاء بآية أو آيات كونية أو عقلية وكانوا مع ذلك يصفونهم بالسحر ثم يقترحون عليهم الآيات ولذلك قال تعالى بعد حكاية شبهة هؤلاء الجاهلين ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ أى أننا لم ندعك يا محمد بغير آية بل بينا الآيات على يدك بيانًا لا يدع للارباب طريقًا إلى نفس من يعقلها. وقد قال (بيننا الآيات) ولم يقل أعطيناك الآيات للتمفرقة والفصل بين آيات القرآن التي هي من علم الله وكلامه يظهر بها الحق بطريق معقول بين لا يشتبه فيه الفهم ، ولا يحار فيه الذهن ، وبين الآيات الكونية التي هي من صنعه يستخذي لها العقل ويخضع لها لشعوره بأنها من قوة فوق قوته . وللناس فيما يرونه فوق ما يعقلون طريقان معهودان : منهم من يسنده إلى القوة الغيبية العليا سواء كان له سبب خفي في الواقع أم لا ومنهم من يسنده إلى الأسباب الخفية التي يسمونها السحر ، وإن كان فوق قدرة البشر ، ولذلك ضلت الأمم في آيات الانبياء السابقين وليس لأحد أن يضل في آيات القرآن لأنها بينة مقولة ولذلك قال (ذلك الكتاب لا ريب فيه)

نعم إن الآيات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين . ولذلك قال (لقوم يوقنون) قال الأستاذ الإمام . الذين يوقنون هم الذين خلصت نفوسهم من كل رأى وتقليد وتوجهوا إلى طلب الحق في الأمور الاعتقادية ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله وبرهانه ، فهم إذا قام عندهم البرهان اعتقدوا

وأيقنوا إيقاناً، وإنما يتوقع اليقين من مثلهم لا من قوم يعتقدون الشيء أولاً بلا دليل ولا برهان، ثم يلتصمون له الدليل لأن مقاديرهم قالوا بوجود معرفة الدليل فإذا أصابوه موافقاً لما اعتقدوا رضوا به وإن كان ظنيّاً، وإذا نهض لهم مخالفاً لتقاليدهم رفضوه وتعللوا بالتملات المنتحلة، وهؤلاء هم الجماهير من الناس الذين وصفوا في الأثر بأنهم أتباع كل ناعق: والعبرة في خطاب الشرع بأهل اليقين الذين صفت نفوسهم، ومحضت أفكارهم، فساموا من علة العناد والمكابرة المانعين لشعاع الحق أن ينفذ إلى العقول، ولحرارته أن تحترق الصدور إلى القلوب، هؤلاء هم أنصار الحق لأنهم يبقينهم لا يستطيعون المروق منه، ولا السكوت عن الانتصار له، ألم تر أن كبار الصحابة كانوا يراجعون النبي ﷺ فيما لم يظهر لهم دليلاً لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالدليل. هؤلاء هم الناس الذين تنزل الشرائع لأجلهم، ولولا استعدادهم لها لما شرعت أولاً فنجحت^(١) وأما سائر الناس فتبع لهم وعيال عليهم

ثم قال تعالى ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أي بالشيء الثابت المتحقق الذي لا يضل من يأخذ به ولا تعبت به رياح الأباطيل والأوهام، بل يكون الآخذ به سعيداً بالطمأنينة واليقين. قال الأستاذ الإمام إن الحق في هذا المقام يشمل العلوم الاعتقادية وغير عافيه يقول: إنا أرسلناك بالمعائد الحق المطابقة للواقع، والشرائع الصحيحة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿بشيراً﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين ﴿ونذيراً﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزي الآخرة ﴿ولا تسئل عن أصحاب الجحيم﴾ أي فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم لأنك لم تبعث ملزماً لهم ولا جباراً عليهم فيعند عدم إيمانهم تقصيراً منك تسئل عنه، بل بعثت معلماً وهادياً بالبيان والدعوة، وحسن الأسوة، لاهادياً بالفعل ولا ملزماً بالقوة، (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) وفي الآية تسلية للنبي ﷺ لئلا يضيق صدره كما تدل على ذلك آيات أخرى (١) راجع مقالة «الإصلاح والإسعاد على قدر الاستعداد» في مجلد المنار الرابع.

وفي الآية من العبرة أن الأنبياء بعثوا معلمين لأمسيطين ، ولا متصرفين في
الأنفس ولا مكرهين ، فاذا جاهدوا فانما يجاهدون دفاعاً عن الحق لا إكراها عليه
وفيها أن الله تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم الذي يهديهم إلى
معرفة حقوق الله وحقوق العباد وفي قراءة نافع ويعقوب (ولا تسأل عن أصحاب
النجيم) بالنهي ، بالنهي أي لا تسأل عما سيقولون من الانتقام فانه عظيم ، فمثل
هذا النهي مستعمل في النهويل لافي حقيقته وهو استعمال معروف بين الناس حتى اليوم
وزعم بعض المفسرين أن النهي على حقيقته وأنه خاص بنهي النبي ﷺ
عن السؤال عن أبيه ورووا في ذلك أنه سأل جبريل عن قبريهما فقله عليهما
فزارهما ودعا لهما وتمنى لو يعرف حالهما في الآخرة وقال « ليت شمري ما فعل أبوي »
فنزلت الآية في ذلك . والحديث قال الحافظ العراقي إنه لم يقف عليه ، وقال
السيوطي لم يرد في ذلك إلا أثر معضل ضعيف الإسناد . قال الأستاذ الإمام وقد
فشا هذا القول ولولا ذلك لم تذكره ، وإنما نريد بذكره التنبيه على أن الباطل صار
يفشو في المسلمين بضمف العلم والصحيح بهجر وينسى . ولا شك أن مقام النبي
عليه الصلاة والسلام في معرفة أسرار الدين ، وحكم الله في الأولين والآخرين ، ينافي
صدور مثل هذا السؤال عنه ، كما أن أسلوب القرآن يأتي أن يكون هو المراد منه .

ثم قال عز وجل ﴿ وان ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾
فعاد إلى ذكر أهل الكتاب على ما عهدنا في أساليب القرآن من ضروب الانتقال
بالمناسبات الدقيقة . وقد قال الأستاذ الإمام غير مرة إن القرآن لم يأتي على طريقة
المثمنين والمؤلفين الذين يمحضون كل طائفة من الكلام بموضوع معين ويسمونها
فضلاً أو باباً ، ولكن للقرآن أغراضاً يبرزها بصور مختلفة ، فكما لاحظت المناسبة
لذكر شيء منها أو الاحتجاج عليه أو الدفاع عنه ، جاء به يجنب إليه الأذهان ،
ويسارق به خطرات القلوب ، مع مراعاة التناسق ، وحفظ الأسلوب البليغ ، لهذا
يتكرر فيه المعنى الواحد بعبارات متعددة ، ويتجلى الروح الواحد في أشكال متنوعة
فلم يذكر ههنا المشركين إلا لما بينهم وبين أهل الكتاب من التناسب والتقارب
في المجاهدة والمماندة ، فكان ذكرهم من متممات الحجج على أهل الكتاب من حيث

أدى غرضاً مقصوداً في ذاته . ولما كان ذكرهم في عرض الكلام كالجملة الاعترافية كان الرجوع إلى سرد شؤون أهل الكتاب مع النبي عليه السلام رجوعاً إلى أصل الموضوع وقال في معنى الآية : من شأن الانسان أن يتألم من القبيح أشد التألم إذا وقع ممن لا يتوقع منه فكان النبي عليه الصلاة والسلام يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الايمان به وأن لا يري منهم المكابرة والمجاهدة والعناد ، ولهذا كبر عليه أن رأى من إعراض اليهود والنصارى عن إجابة دعوته ، وإسرافهم في مجاحدته أشد مما رأى من مشركي العرب الذين جاء لحو دينهم من الأرض ، مع موافقته لأهل الكتاب في أصل دينهم ومقصده من توحيد الله تعالى والاخلاص له وتقويم عوج الفطرة الانسانية الذي طرأ عليها بسبب التقاليد ، وترقية المعارف الدينية إلى أعلى ما استعد له الانسان من الارتقاء العقلي والأدبي ، ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالى (٦٣:٣) قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم (الآية وغيرها من الآيات . ولقد كان من الصعب لولا إعلام الله تعالى أن تعرف درجة فتك التقليد بعقول أهل الكتاب وإفساد الأهواء لقلوبهم ، لذلك سلى الله تعالى نبيه عما كان يجده من عنادهم وإيذائهم بآيات كثيرة عرفه فيها حقيقة حالهم ، منها هذه الآية الناطقة بأن كلا من اليهود والنصارى على اتحادهم في أصل الدين قد تعصب لتقاليده واتخذ الدين جنسية لا يرضيه من أحد شيء إلا الدخول فيها وقبول لقبها فقوله تعالى (حتى تتبع ملتهم) مراد به ما هم عليه من التقاليد والأهواء التي غيروا بها وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض كما تقدم في الآيات السابقة .

ثم أمره تعالى في مقابلة ذلك بقوله ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ أي اجهر بقول الحق وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذي أنزله على أنبيائه دون ما أضافه اليه اليهود والنصارى بأرائهم وأهوائهم ففرقوا دينهم وكانوا شيئا كل شيعة تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شيء ، أي فإن أردت استرضاءهم فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم ، والذين اتبعوا أهوائهم التي أضافوها على كتبهم ، وجعلوها أصولاً وفروعاً لدينهم ، بعد الذي جاءك من العلم ﴿

اليقين ؛ بالوحي الالهي المبين ، الذي بين ما كان منهم من تحويل القول عن معناه بالتأويل ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به ﴿ مالك من الله ولي ولا نصير ﴾ أى فانك لن تنجح ولن تصل إلى حقتك بمجاراتهم على باطلهم ، لأن الله لا ينصرك على ذلك إذ لا يرضيه أن يكون اتباع الهوى ؛ طريقا إلى الهدى ، والضال لا يرضيه إلا موافقته على ضلاله ، ومجاراته على فساده ، وإذا لم يكن الله هو الذى يتولى شئونك وينصرك بمعونته فمن ذا الذى ينصرك ويتولاك من بعده؟ (أقول) ومفهوم هذا المصرح به فى آيات أخرى أن ثباته على هدى الله المؤيد بالعلم هو الذى يكون سببا لتوليه تعالى له ونصره إياه عليهم . ومن المعلوم أن شرط إن لا يقتضى الوقوع فهو لا يدل على أن اتباع أهوائهم متوقع منه صلى الله عليه وسلم وإنما هو فرض فرض لبيان مضمونه الذى ذكرنا ، وفيه أن من سنن الله تأييد متبعي الهدى على علم صحيح وأنهم هم الغالبون المنصرون ؛ وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع ببقاء الأمتل فى كل تنازع بينه وبين مادونه .

(الأستاذ الامام) من تدبر هذا الانذار الشديد الموجه من الله تعالى إلى نبي الرحمة ، المؤيد منه بالكرامة والعصمة ، علم أن المراد به الوعيد والتشديد على الأمة ، على حد « إياك أعنى واسمعى يا جاره » فان الله تعالى يخاطب الناس كافة فى شخص النبي صلى الله عليه وسلم كما جرى عرف التخاطب مع الرؤساء والزعماء فقد يقال للملك : إذا فعلت هذا كانت عاقبتك كذا ؛ والمراد إذا فعلته دولتك أو أمتك وقد تقدم غير مرة إسناد عمل بعض الأفراد إلى الأمة كلها ولكن قوله (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم) وهو يعلم جل شأنه أنه لا يتبع أهواءهم فى حال من الأحوال ، وقد عصمه من الزيغ والضلال ، إنما جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتى بعده ممن يتبع سنته ويأخذ بهديه . فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم إلى الصدع بالحق والانتصار له ، وعدم المبالاة بمن يخالفه . مهما قوى حزبهم ، واشتد أمرهم ، وإنه لتهديد ترتعد منه فرائص الذين يخشون ربهم ، ولا سيما إذا أنسوا من أنفسهم ضعفا فى الحق كأن تركوا الجهر به أو الدفاع عنه خوفا من إنكار العامة عليهم ، ولغظ الناس بهم ، فمن عرف الحق وعرف

أن الله تعالى ولى أهله وناصرهم ، لا يخاف في تأييده لومة لائم ، ولا يفترن أحد
 بمن يسميهم الناس علماء وعارفين في سكوتهم عن الحق ، ومجاراتهم لأهل الباطل
 فانهم ايسوا على شيء من العلم الحقيقي ؟ وإن هي إلا كلمات يتلقفونها ، وعادات
 يتقلدونها ، لاحجة للأحياء فيها ، سوى قولهم إن الميتين درجوا عليهما (قال)
 « وليس هذا هو العلم الذي جاء به النبي ﷺ وإنما هو شيء كان يلقب بالعلم عند
 الضالين من أهل الكتاب والمشركين كذلك ، وقد نفى عنه كونه علما على الحقيقة
 بمثل قوله (إن يتبعون إلا الظن) وبقوله (لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم
 إلا يظنون) فمن أخذ بقول القائلين ، واتبع ما وجد عليه السابقين ، بدون بيينة
 يعرف بها وجه الحق من ذلك - وكتاب الله بين يديه لا ينظر فيه ولا يرجع إليه
 فقد أتبع الهوى بعد الذي جاء من العلم إلى النبي ﷺ وباء بالخزي في الدنيا
 وبالنكال في الآخرة ولم يكن ولن يكون له من الله ولى ولا نصير ، اللهم أعنا على
 الجهر بالحق بعد ما عرفناه ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا :

(١٢١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ
 يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢٢) يَبْنِي
 إِسْرَائِيلَ إِذْ كُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى
 الْعَالَمِينَ (١٢٣) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا
 يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

الصلة بين قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) الآية وبين ما قبلها واضحة
 جلية وهي أن هذه جاءت في موضع الاستدراك على ما سبقها من إيمانهم النبي
 والمؤمنين من أهل الكتاب . فقد علمنا أن آية (ولن ترضى عنك اليهود ولا
 النصارى) قد سلت ما كان يخالج النفوس من الرجاء بإيمان أهل الكتاب كلهم ، وهذه
 الآية تنطق بأن منهم من يرجي إيمانه وهم الذين وصفهم بما هو علة الرجاء ومناط

الامل وهو تلاوة كتابهم حق تلاوته ، وعدم الجود على الظواهر والتقاليد ،
والا اكتفاء بالأمانى والظنون ، كأنه يقول إن كانت نفسك تحذرك بأن أهل
الكتاب أقرب إلى الإيمان بما جئت به لأنه يشبه ما عندهم ويصدق أنبياءهم
وأصول شرائعهم من حيث يقتناع جذور دين الوثنيين ويمحوه محوا فيكون الوثنيون
أجدر من أهل الكتاب بمعاندتك ومحادثتك فاعلم أن هؤلاء قد أخذوا بدينهم
من التقاليد والمخترعات ، وألصقوا به من البدع والعادات ، ما غرهم في دينهم
بغير فهم ؛ وجعلهم يتمصبون له بغير عقل ، فكانوا بذلك أبعد عن حقيقة الإيمان
من أولئك الذين يعبدون الأوثان ، وذلك أنهم اتخذوا الدين جنسية فليس له
منه إلا الجود على عادات صارت مميزة للمنتسبين إليه ، ولكن لا يزال فيهم نفر
يرجى منهم تدبر الشيء والتمييز بين الحق والباطل وهم ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾
وهم ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ أى يفهمون أسرارهم ويفقهون حكمة تشريعهم ، وقائدة
نوط التكليف به ، لا يتقيدون في ذلك بأراء من سبقهم فيه ، ولا يتحرر يفهم كله عن
مواضعه ﴿ أولئك ﴾ هم الذين يقدرون ما جئت به من الترتي في الدين ، وإقامة
قواعده على الأساس المتين ؛ و ﴿ يؤمنون به ﴾ بعد العلم بأنه الحق الذى يزيل ما
بينهم من الخلاف ويهديهم إلى طريق السعادة فى الدنيا والآخرة ﴿ ومن يكفر به ﴾
من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الاكثرون ، ﴿ فاولئك هم الخاسرون ﴾
لهذه السعادة ، المحرومون مما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة ، سواء كان
كفرهم بتحريفه ليوافق مذاهبهم التقليدية ، أم باهماله اكتفاء بقول علمائهم .
ويجوز أن يكون الضمير فى قوله (به) للهدى الذى ذكر فى الآيات السابقة .

(الاستاذ الامام) عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلى
أن ذلك هو المقصود من التلاوة التى يشترك فيها أهل الاهواء والبدع مع أهل العلم
والفهم . والتعبير يشعر بأن أولئك الذين حكم بنفى رضاهم عن النبي ﷺ نفيًا وكذا
لاحظ لهم من الكتاب الإجمرد التلاوة ونحر يك اللسان بالالفاظ ، لا يعلون عقائده ،
ولا يتدبرون حكمه ومواعظه ، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه ؛ لأنهم استغنوا عنه
بتقليد بعض الرؤساء والا اكتفاء بما يقولون ، فلا حجب إذا أعرضوا عما جاء به

النبي ولا ضرر في إعراضهم . وأما الآخرون فانهم لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين ، وعلمهم بوجود مطابقتها لمصالح المكلفين ، يعقلون ان ماجاء به هو الحق الذي يتفق مع مصلحة البشر في ترقية أرواحهم ، وفي نظام معاشهم ، فيؤمنون به وانما ينتفع بايمان أمثالهم

وجملة القول أن هذا التعبير أفاد حكماً جديداً وإرشاداً عظيماً وهو أن الذي يتلو الكتاب مجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً فلاحظ له من الايمان بالكتاب لأنه لا يفهم أسرارها ولا يعرف هداية الله فيه . وقراءة الألفاظ لاتفيد الهداية وان كان القارىء ، يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها^(١) لأن هذا الفهم من قبيل التصور ، وما التصور إلا خيال يلوح ويتراءى ، ثم يغيب ويتناهى ، وانما الفهم فهم التصديق والإذعان ممن يتدبر الكتاب مستهدياً مسترشداً ملاحظاً أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيمتدى ويرشد ، والمقلدون محرومون من هذا فلا يخطر لهم ببال انهم مطالبون بالاهتداء بكتاب الله تعالى وانما الهداية عندهم محصورة في كلام رؤسائهم الدينيين ، ولا سيما إذا كانوا ميتين .

وإذا كنا نعتبر بما قص الله تعالى علينا من خبر أهل الكتاب، كما قال (لقد

(١) يؤيد هذا ما ذكره الامام الغزالي في بحث التخلي عن مواعظهم القرآن عند التلاوة وهو أن حجب الفهم أربعة (أولها) أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل . (ثانيها) أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجدعاليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع المسموع من غير وصول اليه ببصيرة ومشاهدة ، فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فان لمع برق على بعدو بداله معنى من المعاني التي تخالف مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعه منه ويحترز عن مثله ، ولمثل هذا قالت الصوفية . ان العلم حجاب . وازادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد او بمجرد كلمات جدلية جررها المتعصبون للمذاهب وألقوا بها اليهم « اه المراد منه يقصه (راجع الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن في الاحياء)

كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) فإننا نعرف حكم أهل القرآن عنده تعالى مما ذكره عن أهل التوراة والإنجيل كما نعرفه من مثل قوله عز وجل (٤٧: ٢٣) أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقوله (٣٨: ٢٨) كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) فكل هذه الآيات والعبر لم تحل دون اتباع هذه الأمة سنن من قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما أنبئت للتحذير، والقرآن حجة عليها كما ورد في الحديث «والقرآن حجة لك أو عليك»^(١) ولا شك أن من يتلو ألفاظ القرآن وهو معرض عن هدايته غير معتبر بوعدته ووعيده فهو كالستهزيء به.

سأل سائل من المقلدين حاضري الدرس بأن العلماء قالوا: إن القرآن يتعبد بتلاوته. فقال الأستاذ الإمام: نعم ولكنهم لم يقولوا إنه أنزل لذلك وكيف يقولون ذلك والله الذي أنزله يقول إنه أنزله (ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) فالقرآن وكذلك السنة يصرحان في مواضع كثيرة بخلاف هذا القول إذا أخذ على إطلاقه وجعل معناه أو من معناه أن الله تعالى يطلب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر ولا تذكر. وقد جاء من الأحاديث ما يصف حال قوم يأتون بعد «يقراءون القرآن لا يجاوز تراقيهم» وقد ساهم شرار الخلق، فهؤلاء الأشرار قد اتخذوا القرآن من الأغاني والمطربات، وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالإثم واحتج عليك بكلمة قالها فلان أو حلم رآه فلان، وهكذا انقلب على المسلمين وضع الدين، ثم هم يتعجبون مع ذلك كيف حرموا من وعد الله في قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) وضرب الأستاذ مثلاً رجلاً يرسل كتاباً إلى آخر فيقرأه المرسل إليه هدرمة أو يترنم به ولا يلتفت إلى معناه ولا يكاف نفسه إجابة ما طالب فيه ثم يسأل الرسول أو غيره: ماذا قال صاحب الكتاب فيه وماذا يريد منه؟ أيرضى المرسل من المرسل إليه بهذا أم يراه استهزاء به؟ فالمثل ظاهر وإن كان الحق لا يقاس على الخلق، فإن الكتاب لا يرسل لأجل ورقه، ولا لأجل نقوشه

(١) جملة من حديث رواه مسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً

ولا لأجل أن تكيف الأصوات حروفه وكلمه ولكن ليعلم مراد المرسل منه ويعمل به^(١) (الأستاذ الإمام) إن الاستهداء بالقرآن، واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة ولو قليلة باللغة العربية فإنه يفهم من القرآن ما يهتدى به، ومن كان أمياً أو عجمياً فإنه ينبغي له أن يسأل القارئ أن يقرأوا له القرآن ويفهمه معناه، وقد تقدم التنبيه على هذا في مقدمة تفسير سورة الفاتحة. بل قال الأستاذ في هذا المقام: إنني أعتقد أنه يجب على كل مسلم أن يقرأ القرآن أو يسمعه كله ولو مرة واحدة في عمره، ومن فوائد ذلك أن يأمن من إنكار شيء منه إذا عرض عليه أو سمعه مع التشكيك فيه.

أقام الله تعالى الحجج الدامغة على أهل الكتاب ثم ناداهم ودعاهم إلى ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان فقال ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ وقد سبق التذكير بهذه النعمة في أول المحاجة ثم أعيد هنا للمناسبة الظاهرة، وهي أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به، وذكروهم بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفاراً. فإذا كان ابتداء العظة والدعوة بدكر هذا التفضيل لتتوجه إليها الأنظار وتصفى إليها الأسماع كما تقدم في تفسير الآية الأولى (٤٧) فلا غرو أن يذكر هذا التفضيل ثانياً بعد

(١) سبق الإتيان الغزالي إلى مثل هذا المثل فذكره في الأحياء غير مرة وهذه عبارة فيه قال «مثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرهه مثل من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارته ملكته وهو مشغول بتخريرها ومقتصر على دراسة كتابه فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء والمقت «أه من الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن. ونقول: إن الأحاديث التي وردت في الترغيب بالتلاوة من غير ذكر التدبر تحمل على اعتبار التدبر المعلوم من الآيات والأحاديث الأخرى. على أن حفظ الفاظ القرآن مقصوده لينقل بالتواتر ولا يتأني هذا كونه حجة على القارئ الذي لا يهتدى ولا يعتبر به كما في الحديث الصحيح

التوبيخ والتقريع ، لإزالة ما ربما يحدثه ذلك من الاستياء الذي يتوقع أن يكون من أسباب التنفير عما في الآية التالية ، وليس هذا من التكرار الذي يتحاماه البلغاء وإنما هو من إعادة الشيء لإفادة ما لا يستفاد بدونه . كأن هذه الآية تعهد لما بعدها وهو فذلكتا القصة ، والمقصود من إقامة الحججة

ذلك قوله تعالى ﴿ واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ﴾ فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الاعراض عن فهم كتاب الله بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه ، وإنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن تفهموا وتتدبروا ، فإنه يوم لا يفي في أحد عن أحد شيئاً . ويؤيد الآية حديث الصحيحين «يافاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً» الخ وإذا كان لا يجزى فهم سلفكم عنكم أنكم أعرضتم عن هداية كتابه فلا تنفعكم شفاعتهم أيضاً ، كما أنه لا يقبل منكم عدل ولا فداء تفتنون به وتجعلونه معادلاً لما فرطتم فيه كما قال ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعه ﴾ وكانوا يعتقدون بالكفريات تؤخذ عدلاً عما فرطوا فيه وبشفاعة أنبيائهم فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر ثم قطع جبل رجسهم من كل ناصر ينصرهم فقال ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي إنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ولا من غيرها . وقد تقدم في تفسير الآيات الأولى ما يعني عن الإطالة هنا وليس في هذه زيادة في المعنى إلا أن التعبير قد اختلف تفتناً ، ففي الآية الأولى تقدم ذكر الشفاعة منفية القبول ، وتأخر ذكر العدل غير مأخوذ ، وفي هذه الآية نفي قبول العدل أولاً ثم نفي نفع الشفاعة ثانياً . وكأنه يشير بهذا التفتن إلى أنه لا فرق بين الفداء والشفاعة في الجواز والمنع فمن منع العوض في الآخر لزمه منع الشفاعة فان جوزها جوزها

(١٢٤) وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . قَالَ لَا يَنْتَالُ هُدَىٰ الظَّالِمِينَ

أقول : بعد أن أقام الله الحججة على أهل الكتاب وبين شؤونهم في الكفر

بالنبي الذي كانوا ينتظرونه لبشارة رسلمهم به وشؤونهم في التلاعب بدينهم وشؤونهم مع المؤمنين - بين في هذه الآيات وما بعدها ما يستند إليه الاسلام ونبي الاسلام من أصل ونسب يجله أهل الكتاب والعرب جميعاً وهو ملة إبراهيم ونسبه ، فهو في هذا السياق يمين لأهل الكتاب ولا سيما اليهود المحترين للوحي في قومهم والمفضلين لأنفسهم على العرب بأنفسهم أن هذا لو كان حجة لما قامت هذه الحجة على عهد ﷺ وقومه ، إذ الملة في الأصل واحدة والنسب واحد ولكنهم كفروا بالنعمة بما تقدم ذكره من أعمالهم نجاء النبي الموعود به لإصلاح حالهم وحال غيرهم وسيأتي قوله تعالى في هذا السياق (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وجرى شيخنا في الدرس على طيبته في التناسب بين هذا السياق وما قبله فقال ما مثاله :

كان الكلام في أول السورة إلى هذه الآية بأسلوب واحد في سياق واحد : ذكر حقيقة الكتاب وكونه من نصوص البرهان بحيث يدفع ريب المرءين أن يدنو منه أو يتسامى إليه ، ثم ذكر أصناف الناس في أمر الإيمان به وعدم الإيمان به وأطال الحجاج والمناظرة في خطاب أهل الكتاب خاصة لما تقدم من أنهم كانوا موضع الرجاء في المبادرة إلى الإيمان بالنبي وما جاء به لأنه وافقهم في أصل الدين وصدق أنبياءهم ، وكتبهم وذكركم بما نسوا ، وعلمهم ما جهلوا ، وأصلح لهم ما حرفوا وزادهم معرفة بأسرار الدين وحكمته ، كما أنهم كانوا في موضع الشبهة عند المشركين والمنافقين بما كفروا ، وفي موضع الحجة عليهم بما آمنوا ، قال تعالى في الاحتجاج على المشركين (٢٦: ١٩٧) أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) وقد جاءت بحاجة أهل الكتاب على طريقة الإطناب لما كانوا عليه من جمود القرائح والبعث عن البلاغة كما حكى عنهم أنهم قالوا « قلوبنا غلف » ومن فساد الأذهان بالتعود على التأويل والتحريف ، فكان يبدأ لهم المعنى ويعاد ، ويساق إليهم القول بطرق بيّنة ، ويؤكد بضرب من التأكيد ، تبعده عن قبول التأويل والتحويل ، وكان مما حجوا به التذكير بحال سلمهم الأنبياء وبحالهم معهم من عصيانهم وإيذائهم بل قتلهم في عهدهم ، والفرور بانتظار شفاعتهم والاستغناء بها من بعدهم ثم إن الكلام في هذه الآية « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » وما بعدها موجه إلى

مشركي العرب ، ووجه الاتصال بينها وبين مناقيلها أن ذلك كان يتضمن الاحتجاج على أهل الكتاب بسلفهم الصالح ، وهذا يتضمن الاحتجاج على مشركي قريش وأمثالهم بسلفهم الصالح ، فانهم ينتسبون إلى إسماعيل وإبراهيم ويفتخرون بأنهما بنيا لهم الكعبة معبدهم الأكبر ، وكانوا في عهد التنزيل قد اختلطوا بالأمم المجاورة التي تعرف لهم هذا النسب .

و إنك لتري الكلام هنا جازيا على طريقة الايجاز والإشارة لما كان عليه العرب من حدة الفكر وصفاء الأذهان ، ودقة الفهم ورقة الوجدان ، على أن هذه الآيات تصالح حجة على الفريقين لأن أهل الكتاب كافة يجعلون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويعتقدون نبوته ، والأسرائيليون منهم ينتسبون إليه ، ولكن الخطاب في قصته موجه إلى العرب أولا وبالذات ، فتلك حجج القرآن على أهل الكتاب الذي جاء لإصلاح دينهم وترقيتهم فيه ودين الله واحد في جوهره ، وهذه حججه على أهل الشرك والوثنية الخاصة التي جاء لمحوها من الأرض وإثبات تقيضها وهو التوحيد والتنزيه وإثبات البعث والنشور ، وقد أقام الحجج على هذين الأصلين من الطرق العقلية والسكونية في مواضع كثيرة ولا سيما في السور المكية .

قال تبارك اسمه ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أقول أشهر الأقوال وأظهرها في متعلق « إذ » هنا قولان (١) أنه ، قدر معلوم من السياق ومن أمثاله وهو « أذكر » ، وإذا جعل الخطاب للرسول ﷺ أي « وأذكر » لأهل الكتاب ولقومك وغيرهم (إذ ابتلى إبراهيم ربه) الخ وإذا جعل الخطاب للكافرين (وأذكروا) وتقدم نظيره في خطاب بنى إسرائيل (٣) أنه متعلق بقوله (قال إني جاعلك للناس إماما) والكلمات جمع كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الجمل المفيدة من الكلام . والمراد منها عنا مضمونها من أمر ونهي ، روى عكرمة عن ابن عباس قال : لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم ابتلاه الله بثلاثين خصلة من خصال الاسلام . واستنبطها ابن عباس بالعهد من أربع سور ليس فيها خطاب له عليه الصلاة والسلام . وقال شيخنا في الدرر : جعل التشكيك بالكلمات لأنها تدل عليها وتعريفها إعادة ولم يذكر الكلمات ما هي ولا الاتمام كيف كان ، لأن العرب تفهم المراد بهذا الأسماء والاجمال

وأن المقام مقام إثبات أن الله تعالى عامل ابراهيم معاملة المبتلى أى المختبر له لتظهر حقيقة حاله ويترتب عليها ما هو أثرها ، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله بإتمامه ما كلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال . هذا هو المبادر ولكن المفسرين لم يألوا في تفسير الكلمات والخبط في تعيينها فقال بعضهم: إنها مناسك الحج ، وقال آخرون: إنها خصال الايمان واستخرجوها من آيات من القرآن ، وذهب بعضهم إلى أن الإشارة بالكلمات إلى الكوكب والقمر والشمس التي رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى ، وكان قائل هذا يمتقد أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان يظن أن هذه الكواكب أربابا وحاش لله ما كان منه إلا أن قال (هذاري) تمهيداً للحجة والبرهان ولذلك قال تعالى بعد حكاية ذلك عنه (٦: ٨٢) وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) وذهب قوم إلى أن المراد بها جعل الله إياه إماما وتكليفه بإقامة البيت وتطهيره وأن بقية الآية مفسر للايهام فيها . وادعى بعضهم أن المراد أمره في المنام بدبح ولده وإنما هذا الأمر كلمة واحدة فكيف جعلوها عشرًا ؟ وزعم آخرون أن الكلمات هي الخصال العشر التي تسمى خصال الفطرة : وهي قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وتقليم الأظفار وحلق العانة والختان وتنف الإبط والاستحداد وقيل غير ذلك .

قال الأستاذ الامام عند إيراد قول المفسر (البلال) في تفسير الكلمات إنها الخصال العشر: إن هذا من الجراءة الغريبة على القرآن ولا شك عندي في أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين ليبتغوا دينهم هزواً ، وأى سخافة أشد من سخافة من يقول: إن الله تعالى ابتلى نبياً من أجل الأنبياء بمثل هذه الأمور وأتقى عليه بإتمامها وجعل ذلك كالتمهيد لجسده إماماً للناس وأصلاً لشجرة النبوة — وإن هذه الخصال لو كلف بها صبي ممزق سهل عليه إتمامها ولم يمد ذلك منه أمراً عظيماً .؟ والحق أن مثل هذا يؤخذ كما أخبر الله تعالى به ولا ينبغي تعيين المراد به إلا بنص عن المصوم

هذا ملخص ما قاله شيخنا في الدرس وهو صفة الحقيقة ، ولكن كتب إليه رجل من المشتغلين بالعلم في سوربة كتاباً عقب قراءته ذلك في المنار يقول فيه: إن

تفسير الكلمات بمخصال الفطرة مروى عن ترجمان القرآن ابن عباس رضى الله عنهما فكيف يخالفه فيه؟ وشدد النكير في ذلك وأطنب في مدح ابن عباس . وقد أرسل إلى الأستاذ كتابه عند وصوله وكتب عليه : الشيخ رشيد يجيب هذا الحيوان .. فكتبت إليه وكان صديقاً لى كتاباً لطيفاً كان مما قلته فيه على ما أتذكر : إننا لم نر أحداً من المفسرين ولا من أئمة العلماء التزم موافقة ابن عباس في كل ما بروى عنه وإن صح سنده عنده ، فكيف إذا لم يصح ؟ وقد قال الشيخ محمد عبده إنه يجمل ابن عباس عن هذه الرواية ولا يصدقها ، ولما كانت مثل هذه الشبهة أو الطعن في أى عالم بأنه خالف فلاناً الصحابى أو الامام فلاناً مما يروج في سوق العوام نذكر هنا ما قاله شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى بعد ذكر رواياته المختلفة في تفسير (الكلمات) عن ابن عباس وغيره من مفسرى السلف ونقله عنه ابن كثير مقرآله ، قال هذا : قال أبو جعفر ابن جرير ما حاصله : إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجاز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشئ منها أنه المراد على التعيين إلا بجديت أو إجماع (قال) ولم يصح في ذلك خبر ينقل الواحد ولا ينقل الجماعة الذى يجب التسليم له أه المراد منه وهو عين ما ذهب إليه شيخنا وهذه الحجة يدلى بها ابن جرير في مواضع كثيرة من تفسيره وهي الحق

ذكر تعالى أن إبراهيم أمم الكلمات وأنه تعالى ﴿ قال ﴾ له ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ وقد فصلت الجملة عما قبلها لأنها جواب عن سؤال مقدر تدل عليه القرينة قال شيخنا ولم يقل فقال إني جاعلك : للاشعار بأن هذه الامامة بحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات ، فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة وهي لا تنقل بكسب الكاسب . وليس في الكلام دليل على أن الابتلاء كان قبل النبوة . وأما فائدة الابتلاء فهي تعريف إبراهيم عليه السلام بنفسه وأنه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يرضه إليه وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص . وكانت الوثنية قد عتمهم وأحاطت بهم . فقام على عهد الخنيفية وهي لايمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك وإثبات الرسالة ، وتم لسل ذلك في ذرته خاصة فلم ينقطع منها دين التوحيد ، ولذلك وصف الله الإسلام بأنه ملة إبراهيم .

وماذا قال إبراهيم لما بشره الله تعالى بجهله إماما للناس ﴿قال ومن ذريتي﴾
 أى قال: واجعل من ذريتي أئمة للناس، وهو إيجاز في الحكاية عنه لا يعهد مثله
 الا في القرآن. وقد جرى ابراهيم عليه السلام على سنة الفطرة في دعائه هذا فان
 الانسان لما يعلم من أن بقاء ولده بقاء له يجب أن تكون ذريته على أحسن حال
 يكون هو عليها، ليكون له حظ من البقاء جسدا وروحا. ومن دعاء ابراهيم الذى
 حكاه الله عنه في السورة المسماة باسمه (١٤: ٤٠ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى)
 وقد راعى الأدب في طلبه، فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل لبعضها، لأنه الممكن
 وفي هذا مراعاة لسنة الفطرة أيضاً. وذلك من شروط الدعاء وآدابه فمن يخالف
 في دعائه سنة الله في خلقته أو في شريعته فهو غير جدير بالإجابة، بل هو سىء
 الأدب مع الله تعالى، لأنه يدعو لان يبطل لأجله سنته التى لا تقبل ولا تتحول
 أو ينسخ شريعته بعد ختم النبوة وإتمام الدين.

وبماذا أجاب الله ابراهيم حين دعاه هذا الدعاء؟ ﴿قال لا ينال عهدى الظالمين﴾
 أى إننى أعطيك ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ولكن عهدى
 بالامامة لا ينال الظالمين. لأنهم ليسوا بأهل لأن يقتدى بهم، وفي العبارة من الإيجاز
 ما يناسب ما قبلها. وإنما اكتفى في الجواب بذكر المانع من منصب الامامة
 مطلقا وهو الظلم لتغيير ذرية إبراهيم من الظلم وتبغيضه اليهم ليتعاهوه وينشئوا
 أولادهم على كراهته، ويربوه على التباعده عنه لكيلا يقعوا فيه فيجرموا من
 هذا المنصب العظيم الذى هو أعلى المناصب وأشرفها، ولتغيير سائر الناس من الظالمين
 وترغيبهم عن الاقتداء بهم، فان الناس قد اعتادوا الاقتداء بالرؤساء والملوك
 الظالمين لأنفسهم ولغيرهم بانخروج عن الشريعة إلا ما يوافق أهواءهم، ويجرفون
 أو يؤولون الاحكام لتطابق شهواتهم، وقد درجوا على ذلك في كل عصر ما عدا
 عصر النبوة وما قاربه، كحصر خلافة النبوة كما يعلم من شهادة التاريخ التى لا ترد
 أقول: وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالظلم هنا أشد أنواعه قبحا وضراها وهو
 الشرك والكفر، ومنه (٣١: ١٣) إن الشرك اظلم عظيم (٢: ٢٥٤) والكافرون هم الظالمون
 ولكن لا دليل هنا على الحصر أو القصر، ومن يظلم الناس من الموحدين المقربين

(البقرة: من ٢) الامامة المنوية للناس واشتراط العدالة في الخلافة ٤٥٧

بالرسالة غير أهل لاماتهم لأنه قدوة باطل وشر يفسد عليهم دينهم ودينهم . وإذا كان فقهاؤنا يقولون بأن الامام لا ينفذ عهده إلا بالكفر الصريح دون الظلم والفسق فانما يقولون ذلك خوفاً من وقوع الفتنة ، لا لأن الظالم أهل للامامة ، ألم تر أنهم يشترطون في اختياره وبيعته العدالة ، ومن قوا عدمه أنه يغتفر في البقاء والاستمرار ما لا يغتفر في الابتداء ، وليس هذا في كل شيء أيضاً

(قال الأستاذ) الامامة الصحيحة والأهوية الحسنة هي فيما تكون عليه الأرواح من الصفات الفاضلة والملكات العلمية التي تملك على صاحبها طرق العمل فتسوقه إلى خيرها وتزعه عن شرها ، ولا حظ للظالمين في شيء منها ، وإنما هم أصحاب الرسم وأهل الخداع والانخداع بالظاهر ، ولذلك يصفون أعالمهم وأحكامهم بالرسمية . وقد جعل الله إبراهيم إماماً للناس وذكر لنا في كتابه كثيراً من صفاته الجليلة كقوله تعالى (١٦ : ١١٩) إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً) الآيات وقوله (١١ : ٧٤) إن إبراهيم لحليم أواه منيب) ولم يذكر لنا شيئاً من زيه وصفة ثيابه ، ولا وصف أنواع طعامه وشرابه ، بل أرشدنا إلى أن دعوته الصالحة لا يدخل فيها ولا يفتنح بها أحد من ذريته إلا من اجتنب الظلم لنفسه وللناس

قال : وقد أخذوا من هذه الآية حكماً أصولياً وهو أن الظالم لا يجوز أن يولى منصب الامامة العظمى ، واشتروا الصحة الخلافة فيما اشترطوا العلم والعدل ، ونقل أن أبا حنيفة (رح) كان يفتي سراً بجواز الخروج على المنصور ويساعد علياً بن الحسن على ما كان ينزع إليه من الخروج عليه . اكتفى الأستاذ الامام من الدرس بهذا القدر من الاستشهاد . ومن الناس من يعمل إباء أبي حنيفة وغيره من الأئمة منصب القضاء في زمن المنصور وأمثاله من الامراء باعتقاد عدم صحة إمامتهم ، وعدم انعقاد ولايتهم ، ويروى أن أبا حنيفة كان يرى يومئذ أن الامامة يجب أن تكون للعلويين خاصة

ثم ذكر الأستاذ الامام هنا أئمة العلم وقال : إن الناس لم يعرفوا عن الاقتداء بالظالمين حتى بعد هذا التحذير الذي أوجاه الله إلى إبراهيم ثم أعلم به محمداً عليهما

الصلوة والسلام فانهم ظلوا على دين ملوكهم وهم اليوم وقبل اليوم يدعون الافتداء بالأئمة الأربعة رضی الله عنهم وهم كاذبون في هذه الدعوى فانهم ليسوا على شيء من سيرتهم في التخلق بأخلاق القرآن، وتحري اتباع الكتاب والسنة في جميع الأعمال. اكتفى الأستاذ الإمام بهذه الإشارة في الدرس ونزیدها إيضاحاً فنقول: قد غلبت على الناس أهواء السلاطين والحكام الظالمين، حتى إن هؤلاء الأئمة الأربعة لم يسلموا من أولئك الظالمين، فقد سجن أبو حنيفة وحاولوا إكراهه على قبول القضاء لما رأوا من إقبال الناس على الأخذ عنه فلم يقبل، فضربوه وحبسوه ولم يقبل كما هو مشهور. وضرب الإمام مالك سبعين سوطاً لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان، نقله ابن خلدكان عن شذور العقود لابن الجوزي، ونقل عن الواقدي أنه لم يكن في آخر عهده يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة وكان يقول ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بمنزله. وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس (رضي الله عنهما) وهو عم أبي جعفر المنصور وقالوا له إنه لا يرى إيمان بيمينكم هذه بشيء، ففضض جعفر ودعا به وجرده وضرب به ~~بشيء~~ وممدت يده حتى انحلمت كتفه وارتكبت منه أمراً عظيماً. وخبر طلب هارون الرشيد الشافعي للقضاء وإبائه واختفائه ثم هر به مشهور وسببه الورع، وأشهر منه بحنة الإمام أحمد وحبسه وضرب به الضرب المبرح ليقول بخلق القرآن. فهكذا عامل الملوك الظالمون هؤلاء الأئمة وبلغوا منهم ومن الناس بظلمهم ما أرادوا من إفساد الدين والدنيا وكاننا يعلم أن أولئك الذين ظلموا الأئمة الذين يدعى الأمراء والحكام اليوم اتباعهم كانوا أقل توغلاً وإسرافاً في الظلم من أكثر الملوك والأمراء المتأخرين، وانك لترى أكثر الناس تبعاً لأهواء هؤلاء الرؤساء إلا من وفقه الله وهداه وقليل ما هم بل هم الغرباء في الأرض.

والعبرة في مثل ما أشرنا إليه من الأخذات أن الظالمين من حكام هذه الأمة بدأوا بتحكيم أهوائهم السياسية في الدين وأهله من القرن الأول، وكانوا إذا رأوا الناس قد أقبلوا على رجل من رجال الدين استمالوه، فان لم يعمل إليهم آذنه وأهانه. ولكن كان الدين وطلب الحق غالباً على أمر المسلمين، فقد نقل المؤرخون أن

الامام مال كما لم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة ، وكأنما كانت تلك السياط حلياً حلى به . ولو أمر أحد السلاطين المتأخرين بضرب عالم من أعلم أهل العصر لأنه لا يرى عهد بيعته صحيحاً أو لأنه أفنى بما لا يوافق غرضه (كما نقل عن مالك) لما رأيت له رفعة ولا احتراماً عند الناس ، ولأعرض الجميع عنه . فأما العقلاء العارفون بفضله فيعرضون عنه بوجوههم ، وأما الغوغاء من العامة ومن في حكمهم فيعرضون عنه بقولهم ووجوههم ، ويمتقدون كفره أو فسقه وابتداعه .

ذلك أن الظالمين من الأمراء قد استعانوا بالظالمين من الفقهاء على إفساد العامة بأنهم أئمة الذين الذين يجب اتباعهم حتى في الأمور الدينية وحلوا بينهم وبين كتاب الله الذي ينطق بأن عهد الله بالأمامة لا ينال الظالمين . وغشروهم بأن أئمة الفقه الأربعة يحكمون بذلك ، ولو عرف الناس سيرتهم مع خلفاء زمنهم لما تيسر غشهم . هذا وإن الحكام على عهدهم كانوا على علم بالكتاب والسنة واتباع لها في أكثر أعمالهم وأحكامهم . وأما المتأخرون فلا يعرفون من ذلك أكثر مما يعرفه السوقة ويعملون بخلاف ما يعلمون ، بل يشرعون للناس أحكاماً جديدة يأخذونها من قوانين الأمم تخالف الشريعة ولا توافق مصلحة الأمة ويازمون عملهم وقضائهم الحكم بها باسمهم لا باسم الله تعالى (٥: ٥٥ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)

(١٢٥) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ
إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالسُّكُوتِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٦) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آدَمَ مَنَّمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِنَہٗ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّوہٗ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ معطوف على ما قبله

والمعنى واذا ذكر أيها الرسول - أو أيها الناس - إذ جعلنا البيت الحرام مثابة للناس وأمنا أى ذا أمن ، بأن خلقنا بما لنا من القدرة في قلوب الناس من الميل إلى حجه والرجلة إليه المرة بعد المرة من كل فيج وصبوب ما كان به مثابة لهم ، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان به أمنا ، ولفظ «البيت» من الأعلام الغالبة على بيت الله الحرام بمكة كالنجم على الثريا ، كان كل عربي يفهم هذا من إطلاق الكلمة .

يذكر الله تعالى العرب بهذه النعمة أو النعم العظيمة وهي جعل البيت الحرام مرجعاً للناس يقصدونه ثم يشوبون إليه ، وأمنا لهم في تلك البلاد بلاد المخاوف التي يتخطف الناس فيها من كل جانب ، وبدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام للبيت وأهله المؤمنين ، وفي هذا التذكير ما فيه من الفائدة في تقرير دعوة النبي ﷺ وبيان بنائها على أصول ملة إبراهيم ، الذي تحترمه قریش وغيرها من العرب وقد اختار المثابة على نحو القصد والمزار ، لأن لفظ المثابة يتضمن هذا وزيادة فإنه لا يقال : تاب المرء إلى الشيء إلا إذا كان قصده أولاً ثم رجع إليه . ولما كان البيت معبدًا وشماراً عاماً كان الناس الذين يدينون بزيارته والقصد إليه للعبادة يشتابون الرجوع إليه ، فمن سهل عليه أن يشوب إليه فعل ، ومن لم يتمكن من الرجوع إليه يجتأه ، رجع إليه بقلبه ووجدانه ، وكونه مثابة للناس أمر معروف في الجماعة والإسلام ، وهو يصدق برجوع بعض زائريه إليه ، وحينئذ غيرهم وتمنيهم له عند عجزهم عنه . وكذلك جعله أمناً معروفاً عندهم فقد كان الرجل يرى قاتل أبيه في الحرم فلا يزعجه ، على ما هو معروف عندهم من حب الانتقام والتفاخر بأخذ الثأر (الأستاذ الإمام) قد يقال : ما وجه المنة على العرب عامة بكون البيت أمناً للناس والفائدة فيه إنما هي للجنة والضعفاء الذين لا يقدرّون على المدافعة عن أنفسهم؟ والجواب عن هذا : أنه ما من قوى إلا ويوشك أن يضطر في يوم من الأيام إلى مفزع يلجأ إليه لدفع عدو أقوى منه أو لهدنة يصطليح في غضوناتها مع خصم يرى سلمه خيراً من حربته ، وولاه أولى من عدائه ، فبلاد كلها أخطار ومخاوف لراحة فيها لأحد . وقد بين الله المنة على العرب إذ جعل لهم مكاناً آمناً بقوله في سورة العنكبوت (٢٩: ٦٧) أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من

حولهم ، أفيالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟)

قال تعالى ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قرأ نافع وابن عامر « واتخذوا » بفتح الخاء على أنه فعل ماضٍ معطوف على « جعلنا » والباقون بكسرها على أنه أمر أي وقلنا اتخذوا أو قائلين اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . فحذف القول للإيجاز وفائدته أن يستحضر ذهن التالي أو السامع المأمورين حاضرين والأمر يوجه إليهم ، فهو تصوير الماضي بصورة الحاضر ليقع في نفوس المخاطبين بالقرآن أن الأمر يتناولهم ، وأنه موجه إليهم كما وجه إلى سلفهم في عهد أبيهم إبراهيم ، وهم ولده إسماعيل وآل بيته ومن أوجب دعوتها إلى حج البيت ، لأنه حكاية تاريخية سبقت للفكاهة والتسلية بل شريعة ودين . وهذا القول أحسن من قول بعضهم إن « اتخذوا » أمر لامة محمد ﷺ لأن ذلك القول يقتصر على معنى صيغة الأمر ومافلنا يتضمن مع ذلك معنى القراءة بصيغة الماضي الدالة على أن إبراهيم ومن معه قد اتخذوا مقامه مصلى ، ولأنه أبلغ لما فيه من تحريك شعور الخلف بشرف عمل السلف وبعثهم على الاقتداء بهم

و «مقام» اسم مكان من القيام ، وقد اختلف المفسرون في مقام إبراهيم ، فقال بعضهم إنه الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة . قاله ابن عباس وجابر وقتادة وغيرهم ورواه البخاري ، وعليه مفسرنا (الجلال) وقال آخرون : إنه الحرم كله وهو مروى عن النخعي ومجاهد . وروى عن ابن عباس وعطاء أنه مواقف الحج كلها ، وقال الشعبي : إنه عرفة ومزدلفة والحجر . واختلفوا أيضا في تفسير المصلى فقال من فسر المقام بالحجر إنه مكان الصلاة أي صلاتنا المحصورة وعليه الجلال واستدلوا له بحديث جابر عند مسلم قال « إن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ الآية » وذهب الآخرون إلى أن المراد بالمصلى موضع الصلاة بمعناها اللغوي العام وهو الدعاء والتوجه إلى الله تعالى وعبادته مطلقا . والأستاذ الإمام يرجح قول هؤلاء وذكر من دليله أن الحجر لا يسع الصلاة المحصورة ولذلك قال جابر « إن النبي صلى خلفه » فكيف يتخذ منه محل للصلاة ؟ وأجاب عن حديث مسلم وحديث أبي نعيم مرفوعا « هذا مقام إبراهيم »

بأنه ليس فيهما ما يدل على أن الحجر هو المراد بمقام إبراهيم في الآية دون غيره وإنما صلاته تدل على أن الصلاة هناك مشروعة . على أن في سند حديث أبي نعيم مقالا ، والخطاب في الأصل للمؤمنين في زمن إبراهيم عليه السلام ولم تكن صلاتنا هذه صلاتهم ، فحمل المقام على جميع شعائر الحج التي قام فيها إبراهيم والصلاة على معناها اللغوي الذي يشمل صلاة إبراهيم ومن كان معه على عبادته كما يشمل صلاتنا ومناسكنا أظهر ، كما قال الأستاذ الإمام . والصلاة عند العرب وغيرهم من الأمم تشمل الدعاء والثناء على الله والتوسل إليه بكل قول وعمل يدل على التوجه إليه سبحانه ، ويقول المحققون من الفقهاء : حينما صليت من المسجد فقم مقام إبراهيم . والناس يتحرون صلاة ركعتي الطواف خلف البناء المرتفع الذي وضع فيه الحجر الذي فيه أتر قدم إبراهيم صلى الله عليه وسلم إن أمكن ، والمروى أنه كان ملاصقا للكعبة فأخره إلى ذلك المكان عمر (رض) كما رواه عبد الرزاق بسند قوى عندهم ، وروى ابن مردويه عن مجاهد بسند ضعيف أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أخره . وسيأتي في تفسير آل عمران من أول الجزء الرابع مزيد كلام في هذا المقام

قال تعالى ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي﴾ الخ عهد إليه بالشيء وصاه به ، والمراد أن الله كفها أن يظهر ذلك المكان الذي نسيه إليه وسماه بيته لأنه جعله معبداً يعبد فيه العبادة الصحيحة . ولم يذكر ما يجب أن يطهره منه ليشمل جميع الرجس الحسي والمعنوي كالشرك وأصنامهم والافو والرفث والتنازع . وتخصيص الله تعالى ذلك البيت بالنسبة إلى ذاته المتزهة عن صفات الأجسام ليس لخصوصية في موقعه ولا في أحجاره ، وإنما كان بيتا لله لأن الله تعالى سماه بيته وأمر بأن يتوجه إليه المصلون ، وبأن يعبد فيه عبادة خاصة . والحكمة في ذلك أن البشر يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبي مطلق لا يتقيد بمكان ولا ينحصر في جهة وهم في حاجة إلى التوجه إلى خالقهم وشكره والتوسل إليه والثناء عليه واستمداد رحمته ومعرفته لما في ذلك من الفائدة لهم لأنه يعمل مداركهم عن التقيد في دائرة الأسباب المعروفة على ضيقها وعن الاستخذاء للمالا يعرفون له سبباً ، ويرفع نفوسهم عن الرضى بالحياة الحيوانية . فله الحمد والمنة أن عين لهم مكانا نسيه إليه فسماه بيته

رمزاً إلى أن ذاته المقدسة تحضره ، فاذا كان الحضور الحقيقي محالاً عليها ، فانها تحضره رحمته الإلهية ، ولذلك كان التوجه إليه بمنزلة التوجه إلى تلك الذات العلية ، لو وجد العبد إلى ذلك سبيلاً . ولو كلف الله عباده بعبادته مطلقاً - وقد علمهم بنظر العقل وإرشاد الشرع أنه ليس كمثل شئ لوقعوا في الحيرة والاضطراب لا يدرون كيف يتوجهون إلى ذات غيبية مطلقة . ولو اختار بعضهم لنفسه عبادة تليق بهذا التنزيه الذي أرشد إليه الكتاب وصدقه العقل لما اهتدى إليه الآخرون وبذلك يفقد المؤمنون الجامعة التي تجمعهم على أفضل الأعمال التي تؤلف بين قلوبهم ، لذلك قلنا: إن الله رحيم إذ جعل لنفسه بيتاً يقصدونه ويشربون إليه عند الإمكان ، ويتوجهون إليه في صلاتهم وإن بعد المسكان ، ولا يخشى على المؤمن توهم الخلول في ذات الله بنسبة البيت إليه بعد ما نفى سبحانه كل إيهاً بقوله (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) .

أقول : ولا يرد على هذا كون السماء قبلة الدعاء لاشعارها بعلوه تعالى على جميع خلقه للفرق الظاهر بين الصلاة والدعاء .

وقوله تعالى ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْمَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ يؤيد ما رجحه الأستاذ الامام من جعل المصلي بالمعنى العام أى المعبود ، فانه بعد أمر الناس باتخاذ مقام ابراهيم مصلي ، بين لنا أن ابراهيم واسماعيل طهرا بأمرة لاداء أنواع من العبادات فيه كالطواف وفي معناه السعى بين الصفا والمروة والمكوف في المسجد والركوع والسجود وهما من أعمال الصلاة . والركع السجود جمع الراكع والساجد والآية تدل على أن ابراهيم كان مأموراً هو ومن آمن به بهذه العبادات ، ولكن لا دليل فيها على أنهم كانوا يؤدونها على الوجه المشروع عندنا

﴿ وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ هذه الآية معطوفة على ما قبلها مسوقة لبيان منة أو منة أخرى على أهل الحرم وهي ما تضمنه دعاء ابراهيم من جعل البلد آمناً في نفسه ، وهو غير ماسبقت به المنة من جعل للبيت آمناً . وقد فسر الجلال (آمناً) بقوله : ذا أمن : مع أن المعنى ظاهر وهو أن يكون محفوظاً من الأعداء الذين يقصدونه بالسوء ، وهو غير معنى كونه ذا أمن ، أى إن من يكون فيه يكون آمناً

من يسطو عليه فيظلمه أو ينتقم منه . وقد استجاب الله دعاء إبراهيم في ذلك ، ومن تعدى على البيت لم يطل زمن تعديه بحيث يقال : إنه قدم زمن طويل لم يكن البيت فيه آمناً ؛ بل لم ينجح أحد تعدى عليه لذاته ، وإنما كان التعدى القصير هو التعدى العارض على بعض من اعتصم فيه * وارتق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر * فسر الجلال الرزق من الثمرات بنقل جبريل الطائف من حوران في بلاد الشام أو من فلسطين إلى مكانه الآن في أرض الحجاز مع أن الكلام في البيت وبلده مكة لا في الطائف . ورتق أهل هذا البلد الأمين من الثمرات ظاهر معروف بالمشاهدة والاختبار المصدقين لما جاء به الكتاب في سورة القصص بقوله (٥٧ : ٢٨) أو لم تمكن لهم حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء) فالثمرات تجي وتجمع من حيث تكون وتساق إلى مكة ، ولا فرق في ذلك بين كونها من الطائف أو من الشام أو مصر أو الروم مثلاً ، وكونها تجمع من أقطار متفرقة أظهر في صدق الآية وأدل على التسخير . وحديث نقل الطائف لا يصح ولكنهم أصدقوه بكتاب الله وجملوه تفسيراً له وهو برى منه وغير محتاج في صدقه إليه

وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين كما هو اللائق به ، ولكن الله واسع الرحمة وقد جعل رزق الدنيا عاملاً للمؤمن والكافر (١٧ : ٢٠) كلاً عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً) ولكن تمتيع الكافر محدود بهذا العمر القصير ، ومصيره في الآخرة إلى شر مصير ، وذلك جواب الله تعالى لإبراهيم قال * ومن كفر فأمته قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير * أي وارتق من كفر أيضاً فأمته بهذا الرزق قليلاً وهو مدة وجوده في الدنيا ثم أسوقه إلى عذاب النار سواً اضطراراً لا يقصده هو ولا يعلم أن كفره ينتهي به إليه ، وذلك أن لجميع أعمال البشر الاختيارية غايات وآثاراً اضطرارية تفضي وتنتهي إليها بطبيعتها بحسب نظام الأسباب والمسببات ، كما يفضي الإسراف في الشهوات أو التعمب أو الراحة إلى بعض الأمراض في الدنيا . فالكفار والفساق مختارون في كفرهم وفسقهم ، فعقابهم عليها إنما هو عقاب على أعمال اختيارية ، وهو أن كفرهم بآيات الله سيسوقهم إلى عذاب الله بما أقام الله تعالى عليه الإنسان من السنن الحكيمة ،

وأساسها أن علم الإنسان وأعماله النفسية والبدنية لها الأثر الذي يفضى به إلى سمادته أو شقاءه اضطراباً ، ولما كانت هذه السنة بقضاء الله وتقديره صح أن يقال : إن الله قد اضطر الكافر إلى العذاب وألجأ إليه إذ جعل الأرواح المدنسة بالعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة محل سخطة وموضع انتقامه في الآخرة ، كما جعل أصحاب الأجساد القذرة عرضة للأمراض في الدنيا .

ولما كانت هذه العقائد والمعارف والأخلاق والأعمال كسبية وكان الإنسان متمكناً من اختيار الحق على الباطل والطيب على الخبيث ، وقد هداه الله إلى ذلك بما أعطاه من العقل ، وما نزله من الوحي - صح أن يقال : إنه ظلم نفسه وعرضها للعذاب والشقاء بأعماله التي مبدؤها كسبي ، وأثرها ضروري

وفي قوله تعالى (ومن كفر) الخ إيجاز بالعطف على محذوف علم منه أنه تعالى استجاب دعاء إبراهيم في المؤمنين ، فجعل لهم هذا الخير في الدنيا وأعد لهم ما هو أفضل منه في الآخرة . وهو إيجاز لم يكن يعمد في غير القرآن جار على الأصل الذي تقدم بيانه في خطاب القرآن للعرب خاصة دون ما كان يخاطب به بنو إسرائيل وإن كان كل مافي القرآن عبرة عامة لجميع المعتمدين ، كما تكرر عن الاستاذ الامام

(١٢٧) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا
تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٩) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ .

ذكر الله تعالى العرب أولاً بنعمته عليهم بهذا البيت : أن جعله مثابة للناس
وأمناء ، وبدعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لبلد البيت واستجابة الله تعالى دعاءه

إذ جعله بلداً آمناً تجي إليه الثمرات من البلاد البعيدة فيتمتع أهله بها ، وهي نعم يعرفونها لا ينكرها أحد ، وانتقل منها إلى التذكير بالنعم المعنوية فذكر عهده إلى ابراهيم واسماعيل بأن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود لبيهم بإضافة البيت إلى نفسه أنه لا يلبق أن يعبد فيه غيره ، وبتطهيره لأجل الطواف والاعتكاف والصلاة أنه يجب تنزيهه عن الاصنام والتماثيل وعبادتها الفاسدة وعن سائر الأعمال الذميمة كطواف العريان وكانوا يفعلونه

ثم ذكرهم بعد هذا بأن ابراهيم هو الذي بنى هذا البيت بمساعدة ابنه اسماعيل وذكر لهم من دعائهما هنالك ما يرشدهم إلى العبادة الصحيحة والدين الحق ويجذبهم إلى الاقتداء بذلك السالف الصالح الذي يتمون إليه ويفاخرون به ، فإن قرىشا كانت تنسب إلى ابراهيم واسماعيل بحق وتدعى أنها على ملة ابراهيم ، ولذلك كانت ترى أنها أهدي من الفرس والروم . وسائر العرب تبع لقرىش

قوله تعالى ﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ﴾ ظاهر في أنهما هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى في تلك البلاد الوثنية ولكن القصاصين ومن تبعهم من المفسرين جاءونا من ذلك بغير ما قصه الله تعالى علينا وتفنتوا في رواياتهم عن قديم البيت وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه وعن ارتفاعه إلى السماء في وقت الطوفان ثم نزوله مرة أخرى ، وهذه الروايات يناقض ، أو يعارض بعضها بعضاً ، فهي فاسدة في تناقضها وتعارضها ، وفسدة في عدم صحة أسانيدها ، وفسدة في مخالفتها لظاهر القرآن ، ولم يستح بعض الناس من ادخالها في تفسير القرآن وإساقها به وهو يرى منها . ومن ذلك زعمهم أن الكعبة نزلت من السماء في زمن آدم ووصفهم حج آدم إليها وتعارفها بجواء في عرفة بعد أن كانت قد ضلت عنه بعد هبوطهما من الجنة ، وحاولوا تأكيد ذلك بتزوير قبر لها في جدة . وزعمهم أنها هبطت مرة أخرى إلى الأرض بعد ارتفاعها بسبب الطوفان وحليت بالحجر الأسود ، وأن هذا الحجر كان ياقوتة بيضاء - وقيل زمردة - من يواقيت الجنة أو زمردها وأنها كانت مودعة في باطن جبل أبي قبيس فتمخض الجبل فولدها . وأن الحجر إنما اسود لملامسة النساء الحيض له ، وقيل لاستلام المذنبين إياه ، وكل

هذه الروايات خرافات اسرائيلية بثها زنادقة اليهود في المسلمين ليشوهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه

(الأستاذ الامام) لو كان أولئك القصاصون يعرفون الماس اقالوا إن الحجر الأسود منه لأنه أبهج الجواهر منظراً وأكثرها بهاء ، وقد أراد هؤلاء أن يزينوا الدين ويرقشوه برواياتهم هذه ولكنتها إذا راقت للبله من العامة فانها لا تروق لأهل العقل والعلم الذين يعلمون أن الشريف هو الضرب من الشرف المعنوي هو ما شرفه الله تعالى ، فشرف هذا البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إياه بيته ، وجعله موضعاً لضروب من عبادته لانتكون في غيره كما تقدم ، لا يكون أحجاره تفضل سائر الأحجار ، ولا يكون موقعه يفضل سائر المواقع ، ولا يكونه من السماء ، ولا يانه من عالم الضياء ، وكذلك شرف الأنبياء على غيرهم من البشر ليس لمزية في أجسامهم ولا في ملابسهم ، وإنما هو لاصطفاء الله تعالى إياهم ، وتخصيصهم بالنبوة التي هي أمر معنوي . وقد كان أهل الدنيا أحسن زينة وأكثر نعمة منهم

وقد أفصح عن هذا المعنى الذي قرره الأستاذ الامام أمير المؤمنين ومشيد دعائم الاسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إذ قال عند استلام الحجر الأسود « أما والله إنني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك : ثم دنا فقبله » رواه أبو بكر بن أبي شيبة والامام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم من عدة طرق . وروى ابن أبي شيبة والدارقطني في العلل عن العليل عن عيسى بن طلحة عن رجل رأى النبي ﷺ وقف عند الحجر فقال « اني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ثم قبله ، ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال : اني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا اني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك » وحديث عمر يؤيد الرواية المرفوعة ، وإنما قدمناه لأنه أصح سنداً . وما روى من مراجعة على لعمر في ذلك غير صحيح ، فلا يعول عليه . والحديث يرشدنا إلى أن الحجر لا مزية له في ذاته فهو كسائر الحجارة ، وإنما استلامه أمر تعبدى في معنى استقبال الكعبة وجعل التوجه إليها توجهاً إلى الله الذي لا يحدده مكان ولا تحصره جهة من الجهات ، على

أنه قد غرّز في طبائع البشر تكريم البيوت والمعاهد والآثار والمشاهد، التي تنسب للاحياء، أو تضاف إلى العظام

أمر على الديار ديار ليلى

وما حب الديار شغفن قلبي

وإنما يكون التعظيم والتكريم للديار، في حال غيبة الساكن والديار، لأن

النفس إذا حرمت من المشاهدة التي تذكر نار الحب، وتمهيج الاحساس والشعور

بإذة القرب، تحاول أن تذكر تلك النار، بالتعلم بالاطلال والآثار، ولا يقل

لماذا خصص الحجر الأسود بالتقبيل؟ فان كل مشعر من تلك المشاعر قد خص بمزية

تثير شعوراً دينياً خاصاً يلبق به، فلا يقال: لماذا كان الوقوف والاجتماع، وتعارف

أهل الآفاق والاصقاع، مخصوصا بعرفة دون غيرها من البقاع. ولهذا المشاعر

والشعائر معان وأسرار أخرى عند بعض الخواص، لا ينبغي شرحها لعامة الناس

وقد جهل القصاص تلك الاحاديث والآثار، وهذه المعاني والأسرار،

وجعلوا مزية البيت الحرام ومشاعره وحجره المكرم محصورة في مخالفتها لسائر

الحجارة وكون أصلها من جواهر الجنة التي هي من عالم الغيب، ولو كان ذلك

صحيحاً لبقيت حجارتها كما كانت عندما نزلت من الجنة بزعمهم وقد راجت بضاعتهم

المرجاة عند أهل العلم والعقل عند من لا يعرف من الدين إلا هذه الرسوم الظاهرة،

ومنها كسوة السكبة الحريرية المزركشة فإنها عند عامتنا في هذه الأزمنة من أعظم

شعائر الدين؛ وإن حرم حضور احتفالها أو رؤيتها ببعض علماء الأزهر المتأخرين

(كالباجورى) وليس هذا التحريم لذاتها فإنها مشروعة بل لما في الاحتفال بها

من البدع وما عليه العوام من اعتقاد البركة فيها وفي جعلها الذي يقبل بقوده الأمرء

والوزراء ورؤساء العلماء الرسميين المدعنين لهم، وهكذا كل واحد يفهم الدين،

ويأخذ من كتب الأولين والآخرين، ما يناسب استعداد عقله، ويحسن في

نظر جيرانه وأهله، حتى يخرج المسلمون من هذه الفوضى في الدين والعلم؛ ويدير

شئونهم الاجتماعية أهل الحكمة والفهم، فيضعون لهم نظاما يتبع في تعميم التربية

والتعليم (٣: ١٠١) ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم

ومن مباحث اللفظ في الجملة : أن القواعد جمع قاعدة وهي ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس أو من الساقات، ورفعها إعلاء البناء عليها أو إعلائها بنفسها على الخلاف و«من البيت» قال الجلال إنه متعلق برفع، وهذا إنما يصح إذا أريد بالبيت العرصة أو البقعة التي وقع فيها البناء، والا كثرون على أن «من» للبيان وعليه يكون البيت بمعنى نفس البناء والجدران، وهناك قول ثالث وهو أن «من» للتبويض بناء على أن البيت مجموع العرصة والبناء، قال الاستاذ الامام : وفي الكلام نكتة لطيفة وهي أن ذكر القواعد أولاً ينبه الذهن ويجرّكه إلى طلب معرفة القواعد ما هي؟ وقواعد أي شيء هي؟ فإذا جاء البيان بعد ذلك كان أحسن وقعا في النفس، وأشدّ تمكنا في الذهن، وأما النكتة في تأخير ذكر اسماعيل عن ذكر المفعول، مع أن الظاهر أن يقال : وإذ يرفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت : فهي الاماع إلى كون المأمور من الله ببناء البيت هو ابراهيم، وإنما كان اسماعيل مساعداً له وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة

وقوله تعالى ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ الخ حكاية لدعاء ابراهيم واسماعيل عند البناء وهو أنهما كانا يقولان ذلك ، حذف القول للايجاز الذي عهد من القرآن في خطاب العرب كما تقدم ، وجملة القول بيان حالهما وقتئذ . وتقبل الله العمل : قبله ورضى به ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لاقوالنا ﴿ العليم ﴾ بأعمالنا وبنيتنا فيها

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ المسلم والمسلم والمستسلم واحد وهو المقاد الخاضع والمراد بالكلمة ما يشمل التوحيد والاخلاص لله تعالى في الاعتقاد والعمل جميعا ومعنى الأول - أي الاخلاص في الاعتقاد - أن لا يتوجه المسلم بقلبه إلا إلى الله ولا يستعين بأحد فيما وراء الأسباب الظاهرة إلا بالله ، ومعنى الثاني أن يقصد بعمله مرضاة الله تعالى لا اتباع الهوى وإرضاء الشهوة ، وإنما يرضيه تعالى منا ان نركي نفوسنا بكمال الأخلاق ، ونزقي عقولنا بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبرهان ، فبذلك نكون محل عنايته تعالى ومستودع معرفته وموضع كرامته ، ومن يقصد بأعماله إرضاء شهوته واتباع هواه لا يزيد نفسه إلا خبثاً ، وبذلك يكون بعيداً عن الإسلام ويصدق عليه قوله (٢٥: ٤٣) رأيت من اتخذ الهه هواه أفانت تكون عليه وكيلا؟

وقد يقال: إن الإنسان يدفع لمعظم الأعمال بسائق طلب المنفعة واللذة وهو سائق فطري، فكيف يتفاهيه الإسلام وهو دين الفطرة. ومثاله طلب الغذاء لغوام الجسم يسوق إليه التلذذ بالطعام، ومنل ذلك طلب اللذات العقلية والأدبية فكيف يمكن أن يكون ما يطلب للذة خالصاً لله وحده؟ والجواب: أن الإسلام قد حل هذه المسألة حلاً لا يجده الإنسان في ديانة أخرى، ذلك أنه لم يحرم علينا إلا ما هو ضار بنا، ولم يوجب علينا إلا ما هو نافع لنا، وقد أباح لنا ما لا ضرر في فعله ولا في تركه من ضروب الزينة واللذة إذا قصد بها مجرد اللذة، وأما إذا قصد بها مع اللذة غرض صحيح، وفعلت بنية صالحة فهي في حكم الطاعات التي يشاب عليها، ومن نية المرء الصالحة في الزينة والطيب أن يسر اخوانه بلقائه، وأن يظهر نعم الله عليه، وأن يتقرب إلى امرأته ويدخل السرور عليها، وأما الهوى المدموم في الإسلام هو الهوى الباطل كأن يتزين الرجل ويتطيب للمفاخرة والمباهاة أو ليستميل إليه النساء الأجنبية عنه، وبذلك تكون الزينة مذمومة شرعاً «وأما الأعمال بالنيات»

دعا هذا النبيان العظيمان لأنفسهما بحقيقة الإسلام ثم دعوا بذلك لذريتهما فقالا ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴿١﴾ أي واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك كإسلامنا ليستمر الإسلام لك بقوة الأمة وتعاون الجماعة. قال الاستاذ الامام: أضافا الذرية إلى ضمير الاثنين للدلالة على أن المراد الذرية التي تنسب إليهما ما وهى ما يكون من ولد اسماعيل، اللفظ ظاهر في هذا المعنى ويرجحه الحال والحل الذي كانا فيه: وعزم ابراهيم على أن يدع اسماعيل في بلاد العرب داعياً إلى توحيد الله، وإسلام القلب اليه، ويرجع هو إلى بلاد الشام، وكذلك الدعاء لهذه الذرية بأن يبعث الله فيهم رسولا منهم كما سيأتى. وقد استجاب الله تعالى دعاء ابراهيم وولده عليهما السلام، وجعل في ذريتهما أمة الإسلام، وبعث فيهما من خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، وإلى هذا الدعاء الإشارة بقوله في سورة الحج (٢٢: ٧٨) ألمة أيبكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) (١) وعلم مما تقدم أن المراد بالإسلام

(١) ظاهر استشهد شيخنا بالآية: أنه كان يفهم من الضمير في قوله (هو سماكم المسلمين) يرجع إلى ابراهيم. والتحقيق أنه يرجع إلى الله تعالى

معناه الذي شرحناه فمن قام به هذا المعنى فهو المسلم في عرف القرآن وليس المراد به اسم في حكم الجامد يطلق على أمة مخصوصة حتى يكون كل من يولد فيها أو يقبل لقبها مسلماً ذلك الإسلام الذي نطق به القرآن ، ويكون من الذين تنالهم دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد جرى ابراهيم وولده على سنة الفطرة في هذا الدعاء أيضاً فخصاه ببعض الذرية لأنه قد يكون منها من لا يتناول الإسلام

﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أي علمنا إياها علماً يكون كالرؤية البصرية في الجلاء والوضوح ، والمناسك جمع منسك بفتح السين في الأفتح من النسك (بضمتين) ومعناه غاية العبادة ، وغلب استعمال النسك في عبادة الحج خاصة ؛ والمناسك في معالمة أو أعماله ﴿ وتب علينا ﴾ أي وفقنا للتوبة لنتوب ونرجع إليك من كل حال أو عمل يشغلنا عنك . ويدل عليه قوله تعالى (٩: ١٨) ثم تاب عليهم ليتوبوا) أو المعنى اقبل توبتنا ، ومنه الحديث « ويتوب الله على من تاب » وتاب - بالمشناة - كتاب (بالثلثة) ومعناه رجع . ويقال : تاب العبد إلى ربه أي رجع إليه لأن اقرار الذنب إعراض عن الله أي عن طريق دينه وموجبات رضوانه ، ويقال : تاب الله على العبد : لأن التوبة من الله تتضمن معنى الرحمة والعطف كأن الرحمة الإلهية تنحرف عن المذنب باقترافه أسباب العقوبة فإذا تاب عادت إليه ، وعطف ربه عليه ، والتوبة تختلف باختلاف درجات الناس فعبودك يتوب إليك من ترك ما أمرته بفعله ، أو فعل ما أمرته بتركه ؛ وصديقك يتوب إليك و يعتذر إذا هو قصر في عمل لك فيه فائدة عمافي إمكانية واستطاعته ؛ وولدك يتوب إذا قصر في أدب من الآداب التي ترشده إليها ليكون في نفسه عزيراً كريماً . وكذلك تختلف توبات التائبين إلى الله تعالى باختلاف درجاتهم في معرفته ، وفهم أسرار شريعته ، فعمامة المؤمنين لا يعرفون من موجبات سخط الله تعالى وأسباب عقوبته إلا المعاصي التي شددت الشريعة في النهي عنها ، وإذا تابوا من عمل سييء فإما يتوبون منها ، وخواص المؤمنين يعرفون أن لكل عمل سييء لومة في النفس تبعدها عن الكمال ، ولكل عمل صالح أثراً فيها يقربها من الله وصفاته ، فالتقصير في الصالحات يمد عند هؤلاء من الذنوب التي تهبط بالنفس وتبعدها عن الله تعالى ، فهي إذا

قصرت فيها تتوب، وإذا شمرت لا تأمن النقائص والعيوب، ويختلف اتهام هؤلاء الأبرار لأنفسهم باختلاف معرفتهم بصفات النفس وما يعرض لها من الآفات في سيرها، ومعرفتهم بكال الله جل جلاله ومعنى القرب منه واستحقاق رضوانه، ولذلك قال بعض العارفين: حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومن هنا نفهم معنى التوبة التي طلبها إبراهيم وإسماعيل، عليهما وعلى آلهما الصلاة والتسليم، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي إنك أنت وحدك الكثير التوب عن عبادك وإن كثرت نحوهم عن سبيلك بنو فيقهم للتوبة اليك، وقبول توبتهم منهم الرحيم بالتائبين ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي من أنفسهم ويتضمن هذا الدعاء لهم بالارتقاء الذي يؤهلهم ويعدم ظهور النبي منهم. وقد أجاب الله تعالى هذه الدعوة بخاتم النبيين والمرسلين ﷺ كما ورد في حديث أحمد «أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى» الخ، ثم وصف هذا الرسول بقوله ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ الدالة على وحدانيتك وتزريك وعظمة شأنك، والدالة على صدق رسلك إلى خلفك، فالمراد بالآيات الآيات الكونية والعقلية، أو المراد آيات الوحي التي تنزلها عليه فتكون دليلاً على صدقه، ومشملة على تفصيل آيات الله في خلقه، كبراهين التوحيد والتزكية، ودلائل النبوة والبعث، وتلاوتها. ذكرها المرة بعد المرة لترسخ في النفس، وتؤثر في القلب

﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ قال الأستاذ الامام: فسروا الكتاب بالقرآن والحكمة بالسنة والثاني غير مسلم على عمومه، أما الأول فله وجه، وعليه يكون المراد بالآيات فيما سبق دلائل العقائد وبراهينها كما تقدم فيما سبق دون الوحي وإلا كان مكرراً. وفيه وجه ثان وهو أن المراد بالكتاب مصدر كتب يقال: كتب كتاباً وكتابة: وإنما الدعاء لأمة أمية لا بد في إصلاحها وتهذيبها من تعليمها الكتابة وقد كانت الأمم المجاورة لها من أهل الكتاب فلا يتيسر لها اللحاق بها أوسبقها، حتى تكون من الكاتبين مثلها، وأما الحكمة فهي في كل شيء معرفة سره وفائدته والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ومقاصدها، وقد بين النبي ﷺ ذلك بسيرته في المسلمين، وما فيها من الفقه في الدين، فإن أرادوا من السنة هذا

المعنى في تفسير الحكمة فهو مسلم ، وهو الذى كان يفهم من اسمها في الصدر الأول وإن أرادوا بالسنة ما يفسرها به أهل الأصول والمحدثون فلا تصح على إطلاقها فالحكمة مأخوذة من الحكمة - بالتحريك - وهى ما أحاط بمخفى الفرس من اللجام وفيها العذاران ، وفي ذلك معنى ما يضبط به الشيء ، ومن ذلك إحكام الأمر واتقانه . وما كل من يروى الأحاديث بحقق له هذا المعنى ، ولكن الذى يتفقه في الدين ويفهم أسرارهم ومقاصدهم يصح أن يقال : إنه قد أوتي الحكمة التى قال الله فيها (٢ : ٢٦٩) ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) ولن يكون أحد داخل في دعوة إبراهيم حتى يقبل تعليم الحكمة من هذا النبي الكريم .

علم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن تعليم الكتاب والحكمة لا يكفي في إصلاح الأمم وإسعادها ، بل لابد أن يقرن التعليم بالتربية على الفضائل والحمل على الأعمال الصالحة بحسن الأسوة والسياسة فقلا ﴿ ويزكيتهم ﴾ أى يطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة ، وينزع منها تلك العادات الرديئة ، ويعودها الاعمال الحسنة التى تطبع في النفوس ملكات الخير ، ويبغض اليها الأعمال القبيحة التى تقر بها بالشر ، ثم ختم الدعاء بهذا التثناء ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ العزيز هو القوي الغالب على أمره فلا ينال بضيم ، ولا يغلب على أمر ، والحكيم هو الذى يضع الأشياء أحسن موضع ، ويتقن العمل ويحسن الصنع ، والسرف في ذكر هذين الوصفين هنا إزالة ما ربما يعلق بالذهن ، أو يسبق إلى الوهم ، من أن هذه الأمور التى دعى بها للعرب منافية لطبائعهم ، بعيدة من أحوالهم ومعايشهم ، فإنهم جمدوا على بدواتهم ، وألفوا غلظتهم وخشونتهم ، فهم أعداء العلم والحكمة ، خصماء التهذيب والتربية ، لا يخضعون لنظام ، ولا يؤخذون بالأحكام ، ولا استعداد فيهم للمدنية والحضارة ، التى هى أثر تعليم الكتاب والحكمة ، وتزكية أفراد الأمة ، فكان يتوقع أن يقول قائل : من يقدر أن يغير طباع هذه الأمة المعروفة بالخشونة والقسوة ، فيجعلها من أهل العلم والمدنية والحكمة ؟ لولا أن علم أن المدعو والمسئول هو العزيز الذى لا مرد لأمره ، والحكيم الذى لا معقب لحكمه

(١٣٠) وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
 أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣١) إِذْ قَالَ لَهُ
 رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣٢) وَوَصَّيْنَا بِهِمَا إِبْرَاهِيمَ بِبَيْتِهِ
 وَيَعْقُوبَ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ
 (١٣٣) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ
 مِن بَعْدِي ؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٤) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ
 مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

الكلام في هذه الآيات متصل بما سبقه من ابتداء قوله (وإذ ابتلى ابراهيم
 ربه بكلمات) فقد ذكر أنه تعالى ابتلى ابراهيم بكلمات فأتمهن ، وأنه جملة إماما
 للناس وجعل من ذريته أئمة ، وأنه عهد اليه ببناء بيته وتطهيره لعبادته ففعل ، وكان
 يومئذ يدعو بما علم منه ما هي ملته ، وإن هي إلا توحيد الله وإسلام القلب إليه
 والاخلاص له بالأعمال ، وتعظيم البيت بتطهيره وإقامة المناسك فيه عن بصيرة
 بأسرارها تجعل المعنى المتصور ، كالحسوس المبصر . ثم قال بعد هذا * ومن يرغب
 عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه * أي امتنها واستخف بها . كأنه تعالى
 يقول : هذه هي ملة أبيكم ابراهيم الذي تمتسبون اليه وتفخرون به ، فكيف ترغبون
 عنها ، وتنتحلون لانفسكم أولياء لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرراً ولا يملكون موتاً ولا
 حياة ولا نشوراً لا بالذات ولا بالوساطة .

قال * ولقد اصطفيناه في الدنيا * بهذه الملة فجعلناه إماماً للناس وجعلنا في
 ذريته الكتاب والنبوة * وإنه في الآخرة لمن الصالحين * لجوار الله بعمله بهذه
 الملة ودعوته إليها وإرشاده الناس بها . فله جعلت لابراهيم هذه المسكنة عند الله

تعالى في الدنيا والآخرة لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وجنى على إدراك عقله فاستحب العمى على الهدى ، وإن خسر الآخرة والأولى

ومن مباحث اللفظ في الآية: قول الجلال في تفسير (سفه نفسه) أي جهل أنها مخلوقة لله : قال الأستاذ الامام: ولم يقل بهذا أحد من المفسرين الذين يعتمد بهم والسياق لا يقتضيه ، وسفه يستعمل لازماً ومتعدياً ومعنى المتعدى استخف وأمتن وأخره الجلال وهو الراجح . وفي الكشاف أن (نفسه) تمييز لفاعل (سفه) ولا يمنع من ذلك الإضافة إلى الضمير لأنه تعريف لفظي ، والمعنى أنه لا يرغب عن ذلك إلا من سفهت نفسه أي حقت . وقدم هذا القول كأنه رجحه على ما قبله اه وأقول: سفه بالضم - كضخم - سفاهة صار سفيهاً ؛ وسفه بالكسر - كتعب - سفها هو الذي قيل : إنه يستعمل لازماً ومتعدياً ، وقيل بل هو لازم دائماً وأن أصل سفه نفسه بالرفع ، فنصب على التمييز كسفه نفساً ، فأضيفت النفس إلى ضميره كما تقدم ومثله غبن رأيه . وسيأتي توضيح معناه في تفسير (سيقول السفهاء)

﴿ إذ قال له ربه أسلم ﴾ أي اصطفاه إذ دعاه إلى الإسلام بما أراه من آياته ونصب له من بيناته ، فأجاب الدعوة و ﴿ قال أسلمت لرب العالمين ﴾ والجلال قدر كلمة « اذكر » متعلقاً للظرف « إذ » كما هي عادته في مثله وإن وجد في الكلام ما يتعلق به ، كقوله هنا « اصطفيناه » وقد نشأ إبراهيم عليه السلام في قوم يعبدون الكواكب ويتخذون الأصنام ، فأراه الله حجته ، وأثار بصيرته ، فنفذت أشعتها من العالم الشمسي ، وأدركت أن لجميع العالمين رباً واحداً منفرداً بالخلق والتدبير وحاجه قومه فيهرم ببهانه ، وأخفهم ببيانه ، وقد قص الله تعالى خبره معهم في سورة الأنعام ، وسيأتي تفسير الآيات إن شاء الله تعالى

﴿ ووصى بها ﴾ أي بالملة أو الخصلة التي ذكرت أخيراً ﴿ إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ بنيه أيضاً ، إذ قال كل منهما لولده ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ أي اختاره لكم بهدائتكم إليه وجعل الوحي فيكم ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أي فحافظوا على الإسلام لله والاخلاص في الانقياد إليه بحيث لا تتركوا ذلك لحظة

واحدة لثلاث تموتوا فيها فتعوتوا غير مسلمين ، فإن الإنسان لا يضمن حياته بين الشهيق والزفير . ويتضمن هذا النهي إرشاد من كان منحرفاً عن الإسلام إلى عدم اليأس ، وأن يبادر بالرجوع إليه والاعتصام بحبله لئلا يموت على غيره .
وفي هذه الآية انتقال إلى إشراك أهل الكتاب وغيرهم من العالمين مع العرب في التذكير والإرشاد إلى الإسلام ولذلك ذكرت وصية يعقوب ، واختلف الأسلوب ، فقد كان جارياً على طريقة الإيجاز ، فانتقل إلى طريقة الإطناب والإلحاح ، لما تقدم الإلماع إليه من مراعاة الأولى في خطاب العرب والثانية في خطاب أهل الكتاب ، الذين لا يكتبون بالإشارة والعبارة المختصرة لجود أذهانهم واعتيادهم على التأويل والتحريف . وفصل بين العاطف والمعطوف بالمفعول ولم يقل : ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما ، لئلا يتوهم أن الوصية كانت منهما في وقت واحد أو أنها خاصة بأبناهما معاً وهم أولاد يعقوب على نحو ما تقدم في تفسير (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)

ذكر ملة إبراهيم وحكم الراغب عنها ووصية بنيه بها ووصية حفيده يعقوب بنيه بها أيضاً ، وذلك يشعر بأن بنى إبراهيم كانوا يوصون بما أوصاهم أبوه . فإن يعقوب أخذ الوصية عن أبيه اسحق . وذلك من ضروب الإيجاز الدقيقة . ثم أراد أن يقرر أمر هذه الوصية ويؤكدها ويقم الحجج بها على أهل الكتاب

فقال ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ﴾ أقول: هذا إضراب عما قبله وانتقال إلى استفهام إنكارى وجه إلى اليهود عن وصية جدكم يعقوب لأبائهم الأسباط ، ويجوز أن يكون معناه أ كنتم غائبين أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب فسأل بنيه عما يعبدون من بعده سؤال تقرير يشهدوه على أنفسهم بالتوحيد الخالص والسؤال بما أعم من السؤالين لأن هذا خاص بمن يعقل وما نزل منزلته بسبب يحيز ذلك ، والسؤال بكلمة « ما » يعم العاقل وغيره ، وتعين « ما » في السؤال عن العاقل إذا أريد وصفه نحو (قال فرعون وما رب العالمين ؟) وهذا الاصطلاح للنحاة لا يدل على جواز وصف الله تعالى بلفظ « العاقل » شرعاً لأن أسماء وصفاته تعالى توقيفية ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل

واسحق * عرفوا الاله بالاضافة إلى آباؤهم لأنهم هم الذين انفردوا بعبادة رب العالمين خالق السموات والأرض وحده ، ودعوا الامم إلى ذلك في وقت فشت فيه عبادة آلهة كثيرين من الكواكب والاصنام والحيوانات وغيرها ، ولذلك قال سحرة موسى عند ما آمنوا (آمنوا برب العالمين * رب موسى وهارون) واسماعيل عم يعقوب ذكر مع آباؤه للتغليب أو لتشبيهه العم بالأب ، كما في حديث « عم الرجل صنو أبيه » رواه الشيخان . والجمع بين الحقيقة والحجاز جائز يكثر في القرآن وفاقا للشافعي وابن جرير الطبري وخلافا لجمهور الاصوليين * إلها واحداً * أى نعبده حال كونه إلها واحداً ، أو نخص بالعبادة إلها واحداً لا نشرك معه أحداً بديلاً ، ولا توجه في قضاء حاجة ولا غير ذلك من العبادات * ونحن له مسلمون * أى والحال أننا نحن منقادون مذعنون مستسلمون له وحده دون غيره كما يدل عليه تقديم الظرف « له » وقال الأستاذ الامام في الآية مامعناه :

خلاصة هذه الوصية عقيدة الوجدانية في العبادة واسلام القلب لله تعالى والاخلاص له . وتكرار لفظ (الاسلام) في هذه الآيات يراد به تقرير حقيقة الدين . ذلك أن العرب كانت تدعى أن لها ديناً خاصاً بهما وأنه الحق ، وإن اختلفت فيه القبائل والشعوب ، ومنهم من كان ينتمى إلى ابراهيم على وثنيتهن ، وكذلك اليهود والنصارى كل يدعى ديناً خاصاً به وأنه الحق ، فبينت هذه الآيات أن هذه الدعاوى من التعصب للتعالييد وأن دين الله تعالى واحد في حقيقته ، وروحه التوحيد والاستسلام لله تعالى والخضوع والاذعان له بداية الانبياء ، وبهذا كان يوصى أولئك النبيون أبناءهم وأممهم . فبين أن دين الله تعالى واحد في كل أمة وعلى اسان كل نبي ، ولذلك قال في آية أخرى (٤٣ : ١٣) شرع الحكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فالفرق في الدين ما جاء إلا من الجهل والتعصب للاهواء ، والحفاظة على الحظوظ والمنافع المتبادلة بين المرء وسين والرؤساء ، فالقرآن يطالب الجميع بالاتفاق في الدين والاجتماع على أصلية . العقلية وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، والقلبي وهو الاسلام والاخلاص لله في جميع الأعمال .

وعلم من هذا أن لفظ الاسلام والمسلمين في كلام ابراهيم واسماعيل ويعقوب يراد به معناه الذي تقدم ، فمن لم يكن متحققاً بهذا المعنى فليس بمسلم أى ليس على دين الله القيم الذى كان عليه جميع أنبياء الله . وأما لفظ الاسلام في عرفنا اليوم فهو لقب يطلق على طوائف من الناس لهم مميزات دينية وعادية تميزهم عن سائر طوائف الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى . ولا يشترط في إطلاق هذا اللقب العرفي عند أهله أن يكون المسلم خاضعاً مسلماً لدين الله مخلصاً له أعماله ، بل يملقونه أيضاً على من ابتدع فيه ما ليس منه ، أو ما ينافيه ، ومن فسق عنه واتخذ إنفه هواه . ومعنى الاسلام الذى دعا إليه القرآن تقوم به الحجة على المشركين ، ويعترف به اليهود والنصارى لأنه روح كل دين ، وهو الذى دعا إليه النبي ﷺ ، والدعوة إلى اللقب لا معنى لها . قال الأستاذ الامام : بعد تقريره هذا المعنى : ووجه يظهر خطأ من خصص الرغبة عن ملة ابراهيم بليل إلى اليهودية أو النصرانية ومن مباحث اللفظ في الآية أن « أم » تستعمل في الاستفهام إذا كان مبنياً على كلام سابق كما هنا لما فيها من الاشارة بالانتقال ففيها معنى الاضراب

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾
أقول : الامة هنا الجماعة من الناس والمشار إليه يعقوب وآبؤه وأبناؤه . وإذا بدأت بالافضل قلت ابراهيم وأولاده وأحفاده المذكورون في الآية السابقة . (قد خلت) مضت وذهبت من هذا العالم (لها ما كسبت) من عمل تجزى به ، (ولكم ما كسبتم) من عمل تجزون به ، ولا يجزى أحد بعمل غيره (ولا تسألون) يوم الحساب والجزاء (عما كانوا يعملون) سؤال حساب وجزاء ، ولا يسألون عما تعملون كذلك ، بل كل يسأل عن عمله ويجازى به دون عمل غيره ، فلا ينتفع أحد بعمل غيره ولا يتضرر به من حيث هو عمله ، إلا أنه قد ينتفع أو يتضرر بعمل غيره إذا كان هو سبباً له لأنه أرشده إليه وكان قدوة له فيه

(الأستاذ الامام) جاءت هذه الآية الكريمة بعد الكلام عن وصية ابراهيم لبنيه واسماعيل واسحاق ويعقوب لبنينهم استدراكاً على ما عساه يقع في أذهان ذراري هؤلاء الانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام من أن هذا السلف الذى له

عند الله هذه المسكنة يشفع لهم فينجون ويسعدون يوم القيامة بمجرد الانتساب اليهم . فبين الله في هذه الآية أن سنته في عباده أن لا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله . وقد بين في سورة النجم أن هذه القضية من أصول الدين العامة التي جاء بها الأنبياء من قبل (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفي * أن لا تزوا وازرة وزر أخرى * وأن ليس للانسان إلا ما سعى) الخ . وبين في آيات متعددة في سور متفرقة ، أن المرسلين لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن بهم وعمل بما يرشدون اليه كان ناجياً ، وإن بعد عنهم في النسب ، ومن أعرض عن هديهم كان هالكا وإن أدلوا إليهم بأقرب سبب (قال ١١: ٤٥ يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) وإذا لم تنتفع بهم ذرياتهم الذين لم يقتدوا بهم فكيف ينتفع بهم أولئك البعداء الذين ليس بينهم وبينهم صلة إلا الأقوال الكاذبة التي يعبر عنها أهل هذا العصر (بالحسوية) ويقولون في مخاطبة أصحاب القبور عند الاستغاثه بهم « المحسوب كالمسوب » وما أحسن قول الإمام الغزالي : إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه ، والظمان يروى بشرب والده وإن لم يشرب فالعاصي ينجو بصلاح والده . والآيات التي تؤيد هذه الآية كثيرة جداً فهي أصل من أصول الدين الإلهي لا يفيد معها تأويل المغرورين ، ولا غرور الجاهلين

(١٣٥) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٦) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٧) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٨) صِبْغَةَ اللَّهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً؟ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ

بين في الآيات السابقة حقيقة ملة إبراهيم في سياق دعوة العرب إلى الاسلام ثم أشرك معهم أهل الكتاب لأنهم أقرب إلى الإيمان بإبراهيم وأجدر بإجلاله واتباعه ، وانتقل الكلام بهذه المناسبة إلى بيان وحدة الدين الإلهي واتفاق النبيين في جوهره ، وبيان جهل أهل الكتاب بهذه الوحدة ، وقصر نظرهم على ما يمتاز به كل دين من الفروع والجزئيات ، أو التقاليد التي أضافوها على التوراة والإنجيل فبعد بها كل فريق من الآخر أشد البعد ، وصار الدين الواحد ككفرًا وإيمانًا ، كل فريق من أهله يحتكر الايمان لنفسه ويرمى الآخر بالكفر والإلحاد . وإن كان نبيهم واحدًا وكتابهم واحدًا .

فقوله تعالى ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا ﴾ بيان لمقيدة الفريقين في التفرق في الدين والضمير في (قالوا) لأهل الكتاب و « أو » للتوزيع أو التنوع ، أى إن اليهود يدعون إلى اليهودية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها والنصارى يدعون إلى النصرانية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها — وهذا الأسلوب معهود في اللغة — ولو صدق أى واحد منهما لما كان إبراهيم مهتدياً لأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، وكيف وهم متفقون على كونه إمام الهدى والمهتدين لذلك قال تعالى ملقنا نبيه البرهان الأقوى في محاجتهم ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ أى بل نتبع أو اتبعوا ملة إبراهيم الذى لانزاع فى هداه ولا فى هديه ، فهى الملة الحنيفية القائمة على الجادة بلا انحراف ولا زيغ . العريقة فى التوحيد والاخلاص بلا وثنية ولا شرك .

والحنيف فى اللغة : المائل . وإنما أطلق على إبراهيم . لأن الناس فى عصره كانوا على طريقة واحدة وهى الكفر ، فخالفهم كلهم وتنكب طريقتهم ولاسمى المائل حنيفاً إلا إذا كان الميل عن الجادة المعبدة وفى الأساس : من مال عن كل دين أعوج . ويطلق على المستقيم ، وبه فسر الكلمة بمضهم وأورد له شاهداً من اللغة وهو أقرب . ومن التأويلات البعيدة : ماروى من تفسير الحنيف بالحاج ووجه القول به أنه مما حفظ من دين إبراهيم .

الاستاذ الإمام : قال بعض المشغلين بالعربية من الافرنج إن الحنيفية هى

ما كان عليه العرب من الشرك واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى في زمن الجاهلية « إن فعلت هذا أكون حنيفيا » وإثباتها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة وقد ناظرت بعض الأفرنج في هذا فلم يجد ما يحتج به إلا عبارة ذلك النصراني وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها ، ولا دليل في كلمة النصراني العربي على أن الكلمة تدل لغة على الشرك ، وإنما مراده بكلمته البراءة من دين العرب مطلقا . ذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء وينتسبون إلى إبراهيم ويزعمون أنهم على دينه ، وكان الناس يسمونهم الحنفاء أيضا ، والسبب في التسمية والدعوى أن سلفهم كانوا على ملة إبراهيم حقيقة ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها . نسوا بعضها بالمرّة وخرجوا ببعض آخر عن أصله ووصفه كالحنج ، ونفى الشرك عن إبراهيم في آخر الآية اختراس من وهم الواهين ، وتكذيب للدعوى المدعين . أقول : لا بدع أن ينسى الأميون ما كانوا عليه فان أهل الكتاب خرجوا بدينهم عن وضعه الأول فنسوا بعضها وحرفوا بعضها وزادوا فيه ونقصوا منه . فاليهود أضافوا التهود إلى ما عندهم من التوراة وسموا مجموع ذلك مع تفاسيره وآراء أحبارهم فيه باليهودية . وأما النصارى فقد ظهر دينهم بشكل لوراء الحواريون الذين أخذوا الدين عن المسيح مباشرة للماعرفوا أى دين هو . وهؤلاء المسلمون على حفظ كتابهم في الصدور والسطور يعملون باسم الدين أعمالا يظنها الجاهلون بدينهم أعظم أركان الدين ، وماهى من الدين وإنما هى بدع المضلين ، فالأفرنج يكتبون في رحلاتهم أن رقص المولوية ، من أعظم العبادات الإسلامية ، وأن ما يكون في جامع القلعة في ليالى المولد والمعراج ونصف شعبان من الرقص والعزف بالطبول والدفوف وغيرها من أهم الشعائر الإسلامية ، وسمها بعضهم (الصلاة الكبرى) ولولا أن القرآن محفوظ وسنة الرسول وسيرة السلف الصالح مدونتان في الكتب لنسينا الأصل واكتفيننا بهذه البدع فان مئات الألوف التى تهج مشاهد أهل البيت والجيلانى بالعراق والبدوى وأمثاله بمصر كل عام لا يقيم الصلاة

« تفسير القرآن الحكيم » « ٣١ » « الجزء الأول »

ويؤتى الزكاة ويحج البيت منهم إلا أقلمهم ، ولهم في عبادتهم الباطلة أخشع منهم في عبادتهم المشروعة ، ولكن الله أراد بقاء هذا الدين وحفظه وسيرجعه إلى كتابه الراجعون ، ويهتدى به المهتدون ولو كره المقلدون ، وعند ذلك تنقشم ظلمات هذه البدع التي هم فيها يتخطبون .

وقد توهم بعض العلماء أن هذا الجواب « بل ملة إبراهيم » الخ جاء على طريقة الإقناع وليس حجة حقيقية، ووجهه بقولهم : إن أهل الكتاب يعاندون الحق ويكابرون في معجزة النبي ﷺ فأمر الله نبيه بأن يلزمهم بالدلائل الإقناعية التي لا يقدر على مكابرتها والمراء فيها . والحق أن هذا الجواب حجة حقيقية ، وقد أشرنا إلى وجهها الوجه أول الكلام في تفسير الآية . وقد تجرأ كثير من العلماء على مثل هذا الكلام في كثير من الآيات التي احتج بها القرآن حتى في إثبات الوحدة . والسبب في ذلك : افتتانهم بالطريقة النظرية التي أخذوها عن كتب اليونان ، ولقد اهتدى بمحجج القرآن الألوفا وألوف الألوفا ولما اهتدى بتلك الأدلة النظرية المحضة أحد من الناس وإنما تفيد في دفع شبهاتهم التي يوردونها على العقائد ، ولا فائدة فيها سوى المراء والجدل . وقد بحيث في عصرنا تلك الشبهات ، ورغب الناس عن هاتيك النظريات ، وقام بناء العلم على أسس الوقائع والحوادث والخبرات .

وقال الجلال : إن الآية نزلت في يهود المدينة ونصارى نجران فهم القائلون ما ذكر . والنحقيق أن الآية في بيان طبيعة أهل الملتين كاتقدم ، وقول يهود المدينة ونصارى نجران ما ذكر - إن صح - لا يقتضى التخصيص فإنهم ما قالوا إلا ما هو لسان حال ملتهم . وغيرهم يقول مثل قولهم ، أو يصدق التاملين باعتقاده وسيرته أمر الله النبي بأن يدعو إلى اتباع ملة إبراهيم ثم أمر المؤمنين بمثل ذلك فقال

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط ﴾ أي لا تكن دعوتكم إلى شيء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الأديان السماوية بل انظروا إلى جهة الجمع والاتفاق ، وادعوا إلى أصل الدين وروحه الذي لا خلاف فيه ولا نزاع ، وهو التسليم بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين ، مع

الاسلام لرب العالمين ، لانعبد إلا الله ، ولا نفرق بين أحد من رسل الله .
والأسباط أولاد يعقوب والفرق أو الشعوب الإثني عشر المتشعبة منهم . قال
تعالى (٧: ١٥٩ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما) وقد ورد أن أولاد يعقوب كانوا
أنبياء. ولم يرد أنهم كانوا مرسلين فان صح هذا كما يفهم من إطلاق الأستاذ الامام
في الدرس فالمراد بالأسباط الاطلاق الأول و إلا كان في الكلام تقدير مضاف أى
أنبياء الأسباط ، كأنه قال : وسائر أنبياء بنى إسرائيل وهو المختار ، ولم يصح في
نبوة غير يوسف من أبناء يعقوب شيء .

﴿ وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ﴾ قال الأستاذ الامام
وهنا نكتة دقيقة في اختلاف التعبير عن الوحي الذي منحه الله الأنبياء إذ عبر
بأنزل تارة وبأوتى تارة أخرى ، وهى أن التعبير بأنزل ذكر هنا في جانب الأنبياء
الذين ليس لهم كتب تؤثر ، ولا صحف تنقل ، وذلك أن إنزال الوحي على نبي
لا يستلزم إعطائه كتاباً يؤثر عنه ، وهذا ظاهر إذا كان النبي غير مرسل فان الوحي
إليه يكون خاصاً به ، ويكون إرشاده للناس أن يعملوا بشرع رسول آخر إن كان
بعث فيهم رسول وإلا كان قدرة في الخير ومعداً للنفوس لبعثة نبي مرسل ، وأما
النبي المرسل فقد يؤمر بالتبليغ الشفاهي ولا يعطى كتاباً باقياً وقد يكتب ما يوحى
إليه في عصره فيضيع من بعده ، فهؤلاء الرسل الكرام الذين عبر عنهم بقوله (وما
أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) لا يؤثر عن أحد منهم
كتاب مسند صحيح ولا غير صحيح، وإنما يؤمن بأنهم كانوا أنبياء . وأن ما نزل
عليهم هو دين الله الحق ، وأنه موافق في جوهره وأصوله لما أنزل على من بعدهم .
وما ذكر الله من ملة إبراهيم بالنص هو روح ذلك الوحي كله . وقد جاء في سورة
النجم وسورة الأعلى ذكر صحف لإبراهيم . وقال الجلال هنا: إنها عشر . فنؤمن أنه
كان له صحف ولا تزيد على ماورد شيئاً، وأما اسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط
فلم يثبت أن لهم صحفاً ولا كتباً ، فنؤمن بما أنزل إليهم بالاجمال ونعتقد أنه عين
ملة إبراهيم وجاء التعبير عن وحي الذين كان لهم كتب تؤثر بقوله (وما أوتى
موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم) فهو يشير بالإتيان إلى أن ما أوحى إليهم

له وجود يمكن الرجوع إليه والنظر فيه فان أقوامهم يؤثرون عنهم كتبنا .
وأقول الآن : إن المراد الإيمان بما أنزل الله تعالى وما أعطاه لأولئك النبيين
والمسلمين إجمالاً ، وأنه كان وحياً من الله فلا تكذب أحداً منهم بما ادعاه ودعا
إليه في عصره ، بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعض .
فان ذلك لا يضرنا ، لأن الإيمان التفصيلي والعمل مقصور على ما أنزل إلينا ، فقد
روى البخاري من حديث أبي هريرة « أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة
بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال النبي ﷺ لا تصدقوا أهل
الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا (آمنوا بالله) الآية » وروى ابن أبي حاتم في تفسيره
عن معقل بن يسار مرفوعاً « آمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وليسمعكم القرآن »
وأما ما ذكره شيخنا من نكتة اختلاف التعبير فيشكل بقوله في أول الآية (وما
أنزل إلينا) أي معشر المسلمين وهو القرآن وقوله بعمد (وما أوتى النبيون) ولم
يعلم أنه كان لغير داود منهم كتاب منزل . على أن عدم العلم بكتب أنزلت على
إبراهيم وإسماعيل وإسحق لا يدل على عدم تلك الكتب . ولعل نكتة اختلاف
التعبير أن يشمل ما أوتى موسى وعيسى تلك الآيات التي أيدهما بها كما قال (ولقد
آتينا موسى تسع آيات بينات) وقال (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) ثم قال (وما
أوتى النبيون من ربهم) ليدل على أن ذلك لم يكن خاصاً بموسى وعيسى والله أعلم
وقال بعد ما ذكر الفريقين ❀ لا نفرق بين أحد من رسله ❀ أي سواء منهم
من له كتاب يؤثرون من ليس له ذلك ، تؤمن بالجميع إجمالاً وناخذ التفصيل عن
خاتمهم الذي بين لنا أصل ملتهم التي كانوا عليها وزادنا من الحكم والأحكام .
ما يناسب هذا الزمان وما بعده من الأزمان ، والعمدة في الدين على إسلام القلب
لله تعالى ❀ ونحن له مسلمون ❀ أي مدعونون منقادون كما يقتضى الإيمان الصحيح
واسم كذلك أهل الكتاب وإنما أنتم متبعون لأهوائكم وتقاليدكم لا تحولون عنها
❀ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ❀ قال صاحب الكشاف : إن الآية
تعريض بأهل الكتاب وتبكيك لهم ، وقال الجلال : إن لفظ « مثل » زائد واستنكر
الأستاذ الإمام ذلك واستكبره كعادته فانه بخطى كل من يقول : إن في القرآن كلمة

زائدة أو حرفاً زائداً ، وقال : إن لمثل هنا معنى لطيفاً ونكتة دقيقة. وذلك أن أهل الكتاب يؤمنون بالله و بما أنزل على الأنبياء ولكن طرأت على إيمانهم بالله نزغات الوثنية ، وأضاعوا لباب ما أنزل على الأنبياء وهو الإخلاص والتوحيد وتركيز النefs والتأليف بين الناس ، وتمسكوا بالقشور وهي رسوم العبادات الظاهرة ونقصوا منها وزادوا عليها ما يبعد كلا منهم عن الآخر ويزيد في عداوته و بغضائه له ، ففسقوا عن مقصد الدين من حيث يدعون العمل بالدين . فلما بين الله لنا حقيقة دين الأنبياء وأنه واحد لا خلاف فيه ولا تفریق ، وأن هؤلاء الذين يدعون اتباع الأنبياء قد ضلوا عنه فوقعوا في الخلاف والشقاق ، أمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوهم إلى الإيمان الصحيح بالله و بما أنزل على النبيين والمرسلين بأن يؤمنوا بمثل ما تؤمن نحن به لا بما هم عليه من ادعاء حلول الله في بعض البشر ، وكون رسولهم إلهاً أو ابن الله ومن التفرق والشقاق لأجل الخلاف في بعض الرسوم والتقاليد . فالذي يؤمنون به في الله ليس مثل الذي تؤمن به ، فنحن نؤمن بالتنزيه ، وهم يؤمنون بالتشبيه ، وعلى ذلك القياس ، فلو قال : فإن آمنوا بالله و بما أنزل على أولئك النبيين وما أوتوه ، فقد اهتدوا . لكان لهم أن يجادلونا بقولهم : إننا نحن المؤمنون بذلك دونكم ، ولفظ «مثل» هو الذي يقطع عرق الجدل .

على أن المساواة في الإيمان بين شخصين بحيث يكون إيمان أحدهما كإيمان الآخر في صفة وقوته وانطباقه على المؤمن به وما يكون في نفس كل منهما من متعلق الإيمان يكاد يكون محالاً فكيف يتساوى إيمان أمم وشعوب كثيرة مع الخلاف العظيم في طرق التعليم والتربية والفهم والإدراك . ولو كانت القراءة : فإن آمنوا بما آمنتم به . كما روى عن ابن عباس في الشواذ لكان الأولى أن يقدر المثل فكيف نقول وقد ورد لفظ مثل متواتراً : إنه زائد ؟

﴿ وإن تولوا ﴾ أي أعرضوا عما تدعوهم إليه من الرجوع إلى أصل دين الأنبياء ولبابه بإيمان كمايمانكم ﴿ فإنما هم في شقاق ﴾ أي إن أمرهم محصور في العداوة والمشاقة أي الإيذاء والإيقاع في المشقة أو شق العصا . بتحري الخلاف والتعصب لما يفصاهم ويبيئهم منكم ﴿ فسيكفكهم الله وهو السميع العليم ﴾ أي يكفكك إيذاءهم ومكرهم

السبى . ويؤيد دعوتك ، وينصر أمتك ، فهذا الوعد بالكفاية عام للمؤمنين وإن كان الخطاب خاصاً . فإن أهل الكتاب وغيرهم ماشاوا النبي لذاته وما كان لهم حظ في مقاومة شخصه ، فالإيذاء كان متوجهاً إليه من حيث هو نبي يدعو إلى دين غير ما كانوا عليه . وقد أنجز الله وعده للنبي والمؤمنين عند ما كانوا على ذلك الإيمان وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انصرفوا من بعدهم عنه خرجوا عن الوعد ، ولو عادوا لما دأب الله عليهم بالكفاية والنصر (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز)

﴿صبغة الله﴾ أى صبغنا بما ذكر من ملة إبراهيم صبغة الله وفطرته فطرننا عليها وهى ماصبغ الله به أنبياءه ورسله والمؤمنين من عباده على سنة الفطرة فلا دخل فيها للتقاليد الوصفية ولا لأراء الرؤساء وأهواء الزعماء ، وإنما هو من الله تعالى بلا واسطة متوسط ولا صنع صانع . والصبغة فى أصل اللغة صبغة لاهيئة من

صبغ الثوب إذا لونه بلون خاص ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أى لا أحسن من صبغته فهى جماع الخير الذى يؤلف بين الشعوب والقبائل ، ويزكى النفوس ويطهر العقول والقلوب . وأما ما أضافه أهل الكتاب إلى الدين من آراء أبحارهم ورهباتهم فهو من الصنعة الإنسانية ، والصبغة البشرية ، قد جعل الدين الواحد مذاهب متفرقة مفرقة ، والأمة الواحدة شيعاً متنافرة متمزقة ﴿ويحون له﴾ وحده ﴿عابدون﴾ فلا تتخذ أبحارنا وعلماءنا أرباباً يزيدون فى ديننا وينقصون ، ويحلون لنا بأرائهم ويحرمون ، ويمحون من نفوسنا صبغة الله الموجبة للتوحيد ، ويثبتون مكانها صبغة البشر القاضية بالشرك والتنديد .

قال الأستاذ الإمام : والآية تشير إلى أنه لا حاجة فى الإسلام إلى تمييز المسلم من غيره بأعمال صناعية كالمعمودية عند النصارى مثلاً ، وإنما المدار فيه على ماصبغ الله به الفطرة السليمة من الإخلاص وحب الخير والاعتدال والقصد فى الأمور (٣٠ : ٣٠ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

(١٣٩) قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلِنَا عَمَلُنَا .

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخَاصُّونَ (١٤٠) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى ؟ قُلْ
مَا أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ . وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤١) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَأَنَّكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

هذا ضرب آخر من محاجة أهل الكتاب جاز على نسق سابقه مؤتلف معه
منصل به غير منقطع ولا نازل في واقعة خاصة للرد على كلمات قائلها اليهود كاذب
اليه (الجلال) وغيره، إذ قالوا : إن اليهود قالوا يجب أن يكون جميع الناس تابعين
لنا في الدين لأن الأنبياء منا والشريعة نزلت علينا ولم يعهد في العرب أنبياء
ولا شرائع . نعم لا ننكر صدور هذا القول من اليهود فانهم كانوا يقولون مثله دائما
وإنما نقول إن الآيات متناسقة مع ما قبلها متممة له مزيلة للشبهات كانت فاشية في
القوم في كل مكان ، لا خاصة برد قول لأحد يهود الحجاز .

الآيات السابقة بينت أن الملة الصحيحة هي ملة إبراهيم وهي لم تكن يهودية
ولا نصرانية ، وإنما هي صبغة الله التي لا ضلع لأحد فيها ، بل هي بريئة من
اصطلاحات الناس وتقاليدهم الرؤساء ، فهي الجديرة بالاتباع ، ولكن التقاليد
والأوضاع قد طمسها بعد ماجرى الأنبياء عليها ، وحملت تلك التقاليد محلها حتى
ذابت هي فيها وخفيت فلم تعد تعرف ، ولذلك جاء محمد عليه الصلاة والسلام
ببيئتها ، ودعوة الناس إلى الرجوع إليها ، فبين تعالى بتلك المحاجة الحق الذي يجب
التعويل عليه ، ثم أخذ في هذه الآيات يزيل الموانع ويبطل الشبهات المعترضة في
طريق ذلك الحق ، فأمر نبيه بما ترى من الحججة في قوله :

﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ بدعواكم الاختصاص بالقرب منه وزعمكم أنكم أبناء
الله وأحبائه ، وأنه إن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، ومن أين
جاءكم هذا القرب والاختصاص بالله دوننا ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ ورب العالمين ، فنسبة

الجميع إليه واحدة: هو الخالق وهم المخلوقون، وهو الرب وهم المربرون، وإنما يتفاضلون بالأعمال البدنية والنفسية ﴿ولنا أعمالنا﴾ التي تختص آثارها بنا إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ولكم أعمالكم﴾ كذلك، وروح الأعمال كلها الإخلاص فهو وحده الذي يجعلها مقربة لصاحبها من الله تعالى ووسيلة لمرضاته ﴿ونحن له مخلصون﴾ من دونكم، فانكم اتكلمتم على أنسابكم وأحسابكم، واغترتم بما كان من صلاح آبائكم وأجدادكم، واتخذتم لكم وسطاء وشفعاء منهم تعتمدون على جاههم، مع انحرافكم عن صراطهم، وما هو إلا التقرب إلى الله تعالى باحسان الأعمال، مع الإخلاص المبني على صدق الإيمان، وهو ما ندعوكم إليه الآن، فكيف تزعمون أن الإدلاء إلى ذلك السلف الصالح بالنسب، والتوسل إليهم بالقول هو الذي ينفع عند الله تعالى، وأن الاستقامة على صراطهم المستقيم والتوسل إلى الله تعالى بما كانوا يتوسلون إليه به من صالح الأعمال والإخلاص في القلب لا ينفع ولا يفيد، وما كان سلفكم مرضياً عند الله تعالى إلا به؟ هل كان إبراهيم مقرّباً من الله تعالى بأبيه آزر المشرك، أم كان قرّبه وفضله بإخلاصه وإسلام قلبه إلى ربه؟ فكما جعل الله النبوة في إبراهيم وجعله إماماً للناس في الإسلام والإخلاص جعلها كذلك في محمد صلوات الله عليه وآله، فاذا صح السك إنكار نبوة محمد لأنه لم يكن في سلفه العرب أنبياء فأذكروا نبوة إبراهيم، فان العلة واحدة، فكيف لا يتجد المعلول؟

وحاصل معنى الآية: ابطال معنى شبهة أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحبّاءه وأنه لا ينجو من كان على غير طريقتهم وإن أحسن في عمله وأخلص في قصده، وأنهم هم الناجون الفائزون وإن أساءوا عملاً ونية، لأن أنبياءهم هم الذين ينجونهم ويخلصونهم بجاههم، فالغور عندهم بعمل سلفهم، لا بصلاح أنفسهم ولا أعمالهم وهذا الاعتقاد هدم لدين الله الذي بعث به جميع أنبيائه ودرج عماليه من اتبع سبيلهم، فان روح الدين الألهي وملاكه هو التوحيد والإخلاص المعبر عنه بالإسلام وكل عمل أمر به الدين فانما الغرض منه اصلاح القلب والعقل بسلامة الاعتقاد وحسن القصد، فاذا زال هذا المعنى وحفظت جميع الأعمال الصورية فإنها لا تفيد شيئاً، بل إنها تضر بدونه، لأنها تشغل الإنسان بما لا يفيد، وتصدّه عن المفيد

ولاشك أن أهل الكتاب كانوا قد أزهقوا هذا الروح الالهي من دينهم فسواء كان محافظوه من التقاليد والأعمال ماثوراً عن أنبيائهم أم غير ماثور ، إنهم ليسوا على دين الله ، ومن كان على بصيرة منهم عرف أن مجاه به محمد ﷺ هو إحياء لروح الدين الذي كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين . وتكميل لشرائعه وآدابه بما يصلح لجميع البشر في كل زمان ومكان .

ثم إن من تأمل هذا وتأمل حال المسلمين يظهر له أنهم قد اتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وسيرجع من يريد الله بهم الخير إلى دين الله تعالى بالرجوع إلى كتابه الذي حرم عليهم تقليد آراء الناس تجاوزوه بأن حرموا العغل به ، كما رجع الألو ف وألو ف الألو ف من أهل الكتاب إلى ذلك في القرون الأولى من ظهور الإسلام وسيرجع غيرهم من سائر البشر إليه فيم العالمين (ولتعلمن نبأه بعد حين)

﴿ أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ ﴾ قال الأستاذ الامام : ان «أم» هنا معادلة لما قبلها خلافاً للجلال ومن على رأيه القائلين : إنها بمعنى بل - كأنه قال : أتقولون إن هذا الامتياز لكم علينا والاختصاص بالقرب من الله دوننا هو من الله والحال أنه ربنا وربكم الخ ؟ أم تقولون : إن امتياز اليهودية أو النصرانية التي أنتم عليها بأن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا عليها ؟ إن كنتم تقولون هذا فان الله يكذبكم فيه ، وأنتم تعلمون أيضاً أن اسمى اليهودية والنصرانية حدثا بعد هؤلاء ، بل حدث اسم اليهودية بعد موسى واسم النصرانية بعد عيسى كما حدث لليهود تقاليد كثيرة صار مجموعها مميزاً لهم . وأما النصراني فجميع تقاليدهم الخاصة بهم المميزة للنصرانية حادثة ، فان عيسى عليه السلام كان عدو للتقاليد ، ولهذا كان النصراني على كثرة ما أحدثوا أقرب إلى الإسلام ، لأنهم لم ينسوا جميعاً كيف زلزل روح الله تقاليد اليهود الظاهرة ما كان منها في التوراة وما لم يكن ، ولكن الذين ادعوا اتبناعه زادوا عليهم من بعده في ابتداع التقاليد والرسوم .

وزعم بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في الرد على اليهود ، إذ كانوا يقولون : إن ابراهيم كان يهودياً ، وعلى النصراني إذ كانوا يقولون : إنه كان نصرانياً . قال

الأستاذ الامام: وهذا غير صحيح . كلا إن الآية نزلت في إقامة الحججة عليهم بأنهم يعتقدون أن ابراهيم كان على الحق وأن ملته هي الملة الالهية المرضية عند الله تعالى وإذا كان الأمر كذلك وكانت هذه التقاليد التي تقلدها غير معروفة على عهد ابراهيم فما بالهم صاروا ينوطون النجاة بها ويزعمون أن ما عداها كفر وضلال ؟ فهو لا يثبت لهم القول بأن ابراهيم كان يهودياً أو نصرانياً وإنما يقولون أنهم لا يقدرّون على القول بذلك لان البدهة قاضية بكذبهم فيه ، ولذلك قال لنبيه ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾ أى إذا كان الله قد ارتضى للناس ملة ابراهيم باعتباركم وتصديق كتبكم وذلك قبل وجود اليهودية والنصرانية فلماذا لا ترضون أنتم تلك الملة لأنفسكم ؟ أنتم أعلم بالمرضى عند الله أم الله أعلم بما يرضيه وما لا يرضيه ؟ لاشك أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون . وقد صرح ابن جرير الطبرى بأن قراءة (أم يقولون) بالتحية شاذة وعلى القول بأنها سبعية يكون فى الكلام التعلات (وأقول) قراءة التاء هي لابن عامر وحمزة والكسائى وحفص وهي للخطاب ، وقراءة الياء للباقرين فلا عبرة بعد ابن جرير اياها شاذة

﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ ﴾ فى هذا الاستفهام وجهاً أحدهما أنه متمم لما قبله من إقامة الحججة بملة ابراهيم ، يقول إن عندكم شهادة من الله بأن ابراهيم كان على حق وكان مرضياً عند الله تعالى فإذا كنتم ذلك لأجل الطعن بالإسلام فقد كنتم شهادة الله وكنتم أظلم الظالمين ، وإذا اعترفتهم به فاما أن تقولوا إنكم أنتم أعلم من الله بما يرضيه ، أو إما أن تقوم عليكم الحججة وتحقق عليكم الكلمة ان لم تؤمنوا بما تدعون اليه من ملة ابراهيم ، وأحد الأمرين ثابت ، لا يقبل مراوغة مباحث . والوجه الثانى - وهو أظهر - أن الشهادة المكتومة هي شهادة الكتاب المبشرة بأن الله يبعث فيهم نبياً من بنى اخوتهم وهم العرب أبناء اسماعيل ، وكانوا ولا يزالون يكتمونها بالانكار على غير المطلع على التوراة وبالتحريف على المطلع ، فهو يبين هنا - بعد إقامة الحججة بابراهيم على أن زعمهم حصر الوحي فى بنى اسرائيل باطل - أن هناك شهادة صريحة بأن الله سيبعث فيهم نبياً من العرب ، فكان هذا دليلاً ثالثاً وراء الدليل العقلى المشار اليه بقوله (وهو ربنا وربكم) والدليل الاثرى المشار اليه بقوله (أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل) الخ ، فكانه يقول :

(البقرة : س ٢) النفع في الدنيا بالاسباب والامر في الآخرة لله وحده ٤٩١

إن هؤلاء إلا مجادلون في الحق بعد ما تبين ، مبهاتون للنبي مع العلم بأنه نبي ، اذ ما كان لهم أن يشكبهوا في أمره بعد شهادة كتابهم له ، فاذا كان ظلمهم أنفسهم قد انتهى بهم إلى آخر حدود الظلم ، وهو كتمان شهادة الله تعالى تمصبا لجنسيتهم الدينية التي ارتبط بها الرؤساء بالمرؤسين بروابط المنافع الدنيوية من مال وجاه فكيف ينتظر منهم أن يصنعوا الى بيان ، أو يخضعوا لبرهان ؟ والاستفهام هنا يتضمن التوبيخ والتفريع ، المؤكدين بالوعيد في قوله ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وإنما الجزاء على الأعمال ، ثم ختم المحاجة بتأكيدهم بالعمل وعدم فائدة النسب فقال ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولستم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ وإنما تسألون عن أعمالكم وتجاوزون عليها ، فلا ينفعكم ولا يضركم سواها ، وهذه قاعدة يثبتها كل دين قويم ، وكل عقل سليم ، ولكن قاعدة الوثنية القاضية باعتماد الناس في طلب سعادة الآخرة و بعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين تغلب مع الجهل كل دين وكل عقل ، ومنبع الجهل التقليد المانم من النظر في الأدلة العقلية والدينية جميعا ؛ اللهم إلا مكابرة الحس والعقل ، وتأويل نصوص الشرع ، تطبيقا لها على ما يقول المقلدون المنبوعون (بفتح اللام والياء) وقد أول المؤولون نصوص أديانهم تقريراً لاتباع رؤسائهم والاعتماد على جاههم في الآخرة لذلك جاء القرآن يبالغ في تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها ونفي الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم ينأس بهم في العمل الصالح ، ولذلك أعاد هذه الآية بنصها في مقام محاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الأنبياء العظام ، المعتمدين على شفاعتهم وجاههم وإن قصر واعن غيرهم في الأعمال . وفائدة الاعادة تأكيدهم تقرير قاعدة بناء السعادة على العمل دون الآباء والشفعاء ، بحيث لا يطعم في تأويل القول طامع ، والاشعار ، بمعنى إعطيه السياق هنا وهو أن أعمال هؤلاء المجادلين المشاغبين من أهل الكتاب مخالفة لأعمال سلفهم من الأنبياء فهم في الحقيقة على غير دينهم وقد سبق القول بأن الآية أفادت في وضعها الأول أن إبراهيم وبنيه وحفدته قد مضوا إلى ربهم بسلامة قلوبهم وإخلاصهم في أعمالهم ، وانقطعت النسبة بينهم وبين من جاء بعدهم ، فتنكب طريقتهم وانحرف عن صراطهم ، وإن أدلى اليهم بالنسب

فكل واحد من السلف والخلف مجزى بعمله لا ينفع أحداً منهم عمل غيره من حيث هو عمل ذلك الغير ولا شخصه بالأولى ، وذلك أنها جاءت عقب بيان ملة إبراهيم وإيصال بعضهم بعضها بها وبيان دروهم عليها ، ثم جاء بعد ذلك الاحتجاج على القوم بمن يعتقدون فيهم الخير والكمال وكونهم لم يكونوا على هذه اليهودية ولا هذه النصرانية اللتين حدثتا بعدهم ، فجاءت قاعدة الأعمال في هذا الموضوع تبين أن المتخالفين في الأعمال والمقاصد لا يكونون متحدين في الدين ولا متساوين في الجزاء ، فأفادت هنا ما لم تفده هناك . وللمسلمين أن يحاسبوا أنفسهم ، ويحكموا قاعدة العمل والجزاء بينهم وبين سلفهم ، ولا يفتروا بالتسمية إن كانوا يقولون وأزيد على ما تقدم أن انتفاع الناس بعضهم ببعض في الدنيا إنما يكون بمقتضى سنن الله تعالى في الأسباب والمسببات ، ومن المعلوم شرعاً وعقلاً : أن الميت ينقطع عمله بخروجه من عالم الأسباب إلى البرزخ من عالم الغيب ، وأما الآخرة فلا كسب فيها ، وأمرها إلى الله وحده ظاهراً وباطناً ، كما قال تعالى (٨٢ : ١٩ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله)

استدراكات وبيان لأغلاط معنوية في هذا الجزء ﴿

(١)

في أواخر ص ٤٨ : أقول إن هذه الأمثلة تؤيد ما قاله الأستاذ الإمام الخ وهذا القول لا يصح على إطلاقه فان كلام ابن القيم مخالف لكلام شيخنا من بعض الوجوه كما يعلم من بياننا الكل منها وزد على ذلك ان اسم «الرحمن» جاء في التنزيل ثانياً باسم الذات «الله» فهو لا يلاحظ فيه تعلق الرحمة بالرحومين فعلا كما يدل عليه استعماله في مقامات ليست من موضوع الرحمة بل بعضها عام وبعضها في موضوع العذاب كقوله تعالى في حكاية إنذار إبراهيم لأبيه (يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) وقوله (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) وقوله (وخشى الرحمن بالغيث) وقوله (إن يردن الرحمن بضر) ومن الآيات التي موضوعها عام ما ورد في الرد على من قالوا « اتخذ الله ولداً » فحكى قولهم باسم الرحمن كما حكاه باسم الله

(٢)

أشرفنا في ص ٥٤ إلى حديث الأجر على حروف القرآن في التلاوة ولم نذكر تخريجهم كعادتنا، وهو في الترمذى من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً عن طريق محمد بن كعب القرظى بلفظ « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول « ألم » حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . ثم قال: روى من غير هذا الوجه عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رفعه بعضهم ووقفه بعض . اهـ أقول : وهو في مستدرک الحاكم بلفظ « إن هذا القرآن مادة الله فاقبلوا من مادته ما استطعتم . إن هذا القرآن جبل الله والنور المبين والشفاء النافع، عصمتين تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يربح فيستعيب ولا يعوج فيقوم، ولا تنقض عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، أتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنة، أماني لا أقول « ألم » حرف ولكن ألف ولام وميم » قال الحاكم هذا حديث صحيح ولم يخرجه بإسناد صحيح . اهـ . أقول: رواه من طريق صالح بن عمرو عن إبراهيم بن مسلم الهجرى - بفتح الهاء والجيم - قال الحافظ الذهبي في تلخيصه: صالح ثقة خرج له مسلم ولكن إبراهيم بن مسلم ضعيف اهـ أقول: ومما أخذ عليه رفع عدة أحاديث موقوفة وفي ص ٥٨ الاستشهاد بحديث « من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » من سياق شيخنا غير مخرج وهو في الكبير للطبراني من حديث ابن عباس وسنده ضعيف

(٣)

قولنا في القاعدة الأولى (في ص ١١١) ولكنه في الدنيا اضافى مطرد في الأمم الخ فيه ضعف وإبهام اجمال، والمراد به الوعد بسعادة متبع هدى الله عز وجل باعتبار متعلقه، أعنى أن الأمم المهتدية بالدين تكون سعيدة بالنسبة إلى الأمم غير المهتدية باطراد، وأما الأفراد فتكون سعادتهم حتى بالإضافة إلى غير المهتدين غير مطرد، فإن منهم من يصيبه من الأمراض وشدة الفقر والبؤس ما يكون به أسوأ حالاً من بعض غير المهتدين إلا أن يعتبر في المقابلة بين كل فردين من المهتدين وغير المهتدين تساويهما في الأحوال البدنية والاجتماعية والمعاشية حيثئذ يكون المهتدى أسعد من غيره بالحالة النفسية لأنه يكون أصبر على البؤس والضراء من غير المهتدى. وهذا أمر خفي لا يظهر به سعادة بعض الأفراد على بعض للناس، ويراجع ما يدل على هذه القاعدة من هذا الجزء بالاستعانة بالفهرس العام، ككلمة السعادة في حرف السين وكلمة الدين في حرف الدال

(٤)

قولنا في السطر الرابع من ص ١٢٠ « وكأله من ثمرات الايمان » جملة خبرية معترضة بين قولنا « ان الايمان » وما عطف عليه وبين خبر ان الذي هو « سيبان من أسباب نصر العدد القليل على العدد الكثير » وقولنا في السطر الثامن من هذه الصفحة « ومنها تعليل تحريم الربا » خطأ صوابه ومن أدلتها تعليل الخ وقولنا في السطر العاشر « فان الذي يفرض المحتاج » الخ صوابه : فان الذي كان يفرض المحتاج إلى أجل كان يقول له إذا حل الأجل : إما أن تقضى الخ

(٥)

في ص ٢٠٩ إيراد في ادعاء كهنة أهل الكتاب أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة، والجواب عنه، وإن كان الجواب لم يبين فيه كل ما يجب بيانه ولا أهمه، وهو أن علماء اللاهوت لا يدعون ما ذكر في الإيراد بل يصرحون بأن فيها مسائل كثيرة مخالفة لما هو مقرر في العلوم والفنون والتاريخ ولكن هذه المخالفة لا تنافي عندهم صحة الدين ولا قداسة هذه الكتب لأن المسائل المذكورة ليست من أمور الدين التي تتعاقبها عصمة الأنبياء عليهم السلام. وقد طرقت أبواب هذا البحث في (المنار) مراراً وتغلغلنا فيها أحياناً. ومن ذلك مقال نشرناه في الجزء الثاني من المجلد السادس (صفحة ٣٢١) عقب ما كتب في شأنه بعض علماء الآثار العادية من الألمان على شريعة حموربي منقوشة على عمود من صم الصفا في العراق، فقد ظهر لهم أن معظم شريعة التوراة موافقة لهذه الشريعة، كما ظهر لبعض المحققين منهم أن أسفار هذه التوراة مستمدة على المثبات أو الألوف من الألفاظ البابلية المحضة، فجزم الأحرار من هؤلاء الباحثين بأن التوراة منقولة ليست وحياً من الله تعالى. وقد صرح بذلك العلامة اللاهوتي الأيرني (ديلتش) أحد أعضاء جمعية الشرق في خطبة له (محاضرة) حضرها قيصر ألمانية (غليوم الثاني) والقيصرة وجاهير العلماء والكبراء وقد صرح هذا العالم الألماني الكبير في خطبته - أو محاضراته - هذه بما استنتجته مما ذكره، وهو أنه لا حاجة إلى دين وراء وجدان الخير المغروس في الفطرة فائلاً « إنما نضع أيدينا على قلوبنا ولا نحتاج إلى وحى غير الوحي الذي يصدر عنها » وقد أكرت الصحف الدينية عليه طعنه، وعلى القيصر المشهور بالتدين أنه جالس به بد

إلقاء الخطبة ولا طقه ولم ينكر عليه هدمه لصرح الدين من أساسه فكتب القيصر إلى صديقه الأميرال (هولن) كتابا طويلا يثبت فيه تمسك بالدين كما اشتهر عنده وما قاله فيه :

« من البديهي عندي أن التوراة تحتوي على غنة فصول تاريخية . وهي من البشر لأن وحي الله ، ومن ذلك الفصل الذي ورد فيه أن الله أعطى موسى على جبل سيناء شريعة بنى إسرائيل فأنى أعتقد أنه لا يمكن اعتبار تلك الشريعة موحى بها من الله إلا اعتباراً شعوريا رمزياً لأن موسى قد نقل تلك الشرائع عن شرائع أقدم منها على الأرجح ، وربما كان أصلها مأخوذاً من « شرائع حوربى » - إلى أن قال : - وإنى أستنتج بما تقدم ما يأتى :

« (١) إنى أؤمن بالله واحد (٢) إننا مشر الرجال نحتاج في معرفة هذا الإله إلى شىء يمثل إرادته ، وأولادنا أشد احتياجاً منا إلى ذلك (٣) إن الشىء الذى يمثل إرادة الله عندنا هو التوراة التى وصلت إلينا بالتقليد . وإذا فندت المكتشفات الأثرية بعض رواياتنا وذهبت بشىء من رونق تاريخ الشعب المختار - شعب إسرائيل - فلا ضير فى ذلك لأن روح التوراة يبقى سليماً مهما يطرأ على ظاهرها من الاعتلال والاختلال . وهذا الروح هو الله وأعماله .

« إن الدين لم يسكن من محدثات العلم فيختلف باختلاف العلم والتاريخ ، وإنما هو فيضان من قلب الإنسان ووجدانه بما له من الصلة بالله » اه المراد منه

وقد بينا فى تعليقنا على كتاب القيصر هذا وفى مقالات أخرى فى المنار وفى تفسيرنا هذا بأن مجموع ما ثبت عند علماء التاريخ والآثار العادية وسائر العلوم فى شأن التوراة - وكذا الانجيل - يؤيد حكم القرآن فىهما وفى أهلها وهو أن الفريقين أتوا نصيباً من الكتاب الإلهى لا الكتاب كانه ، وأنهم نسوا حظاً عظيماً منه ، وأنهم حرفوا ما عندهم منه . فمقلد الأفرنج وعلماءهم المنتديون يرون أن ما بقى فيه من النور والهدى وسيرة الأنبياء تجب المحافظة عليه والاهتداء به . ولولا الجهل بحقيقة الاسلام من بعضهم والعصبية السياسية من بعض لآمنوا بالقرآن الذى سبقهم كلهم إلى تصفية سيرة أولئك الأنبياء الكرام من الشوائب ، وبيانه لخلاصة هدايم وطرحه ما عدا ذلك ثم تكيله لهدى والنور المأثور عنهم حتى كانت النسبة بين نورهم ونوره كالنسبة بين نور سراج الزيت ونور الكهرباء بل نور الشمس على أنه أوحى إلى رجل أمى لم يقرأ من تلك الكتب ولا غيرها شيئاً

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قبلاً

لا تذكروا الكتب السوائف عنده طلع الصباح فأطقاً القنديلا
على أنهم سيلجؤون أو سوف يأوون إلى حظيرة الاسلام ونور القرآن على
حين نرى مقلداتهم من ملاحدة المسلمين يرقون من الاسلام تقليدا لأحرارهم
الذين سرقوا من النصرانية بعد أن عجزوا عن التوفيق بين حقائق العلم ونصوص
كتبهم ، فانظر إلى هذا العمى والارتباك في قوم يبنون الدين الذي أبده العلم
والتاريخ بما يعده معجزة له ، تقليداً لقوم يبنون دينهم لمخالفة العلم والتاريخ له
عنى القلوب عموا عن كل فائدة لأهم كفروا بالله تقليداً
(وليراجع القارىء في هذا البحث نفسه ص ٢١٢ - ٢١٤ من هذا الجزء نفسه)

(٦)

ذكرت في ص ٢٩٤ ماقاله الأستاذ الامام في تفسير (واركعوا مع الراكعين) بعد
الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وقاتني ان أذكر ما أفهمه أنا في هذا الأمر
بعد الأمرين ، هو أنه أمر بصلاة الجماعة أى وصلوا مع المصلين لا فرادى ، وهو
يؤيد بظاهره قول من قال بوجودها . ويصح الجمع بينه وبين ما قاله شيخنا رحمه
الله تعالى . ويأتى مثله في أمر مريم عليها السلام بذلك وحينئذ لا يحتاج إلى بيان
حكمة أو نكتة لقوله تعالى (مع الراكعين) دون الراكعات لأن تغليب الذكور
في صلاة الجماعة أظهر من تعليمهم في الصلاة مطلقاً .

(٧)

تكرر في هذا الجزء ويشكر في سائر الأجزاء الكلام في جعل الدين حصية
جنسية وراية من الروابط السياسية وأن اليهود والنصارى قد فعلوا هذا من قبل
فاتبع المسلمون حقيقتهم فيه . وأن هذا لا يقع أمحابه في الآخرة وقد يضرهم إذا
خالقوا الحلق أو اتبعوا الباطل لحض المصيبة وإنما يفهم هؤلاء الأيمان الصحيح
والعمل الصالح وتزيد على ذلك : أن الجمع بين هذا وبين التمسك بالجنسية الدينية
يخلق لا بالمصيبة الجماعية مما تتم به قوة الحلق والدين . والله يتولى المتقين .

تم طبع هذا الجزء لأول مرة بفضل الله وبحمده في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٤٦ هـ
وكان قد نشر مختصراً متفرقاً في مجلدات المنار من الثالث (كما تقدم في
فاتحنا) إلى الجزء الثاني من المجلد السابع الذى صدر في غرة صفر سنة ١٣٢٢
وقد ظهر لنا بعد طبعه بعض الخطأ والابهام فبيناه فيما ترى .

وتمت الطبعة الثمانية في شهر ذى الحجة ١٣٦٦ هـ

القرآن: الاهتداء وضرور الإيمان به ١٣٢	٧٢	قوائد في تفسير الفاتحة
» الإيمان به الذي يعتد به ١٥٣	٤٣٤	القبلة حكمتها وتحويلها
» ايثار كتب البشر عليه ٤٠٧	١١٧	القتال دفاع عن النفس والدين والحكم
» البسمة آية من كل سورة منه ٣٩ و ٥٢	٩٣	القراءات المتواترة لاتعارض
» البعد عنه بعد عن الله تعالى ١٨٢	٥-٢	القرآن آيات منه في صفته ومقاصده
» بعض ما بينه من المسائل الجهولة للبشر قبله ٢١٠	»	آيته على النبوة علمية فهي أقوى دلالة من الآيات الكونية ٢١٦ و ٤٤١، ٢٢١
» بقاء الاسلام به وبلغته ٢٩	»	إبطاله للتقليد ٤٢٩، ٤٢٥
» بلاغته بوضع الكلم في مواضعه ١٦١	»	أخباره وقصصه في الفاتحة ٣٨
» بوضع أسماء الله في مواضعها ٤١٨	»	أساليبه الخاصة به ٤٤٣، ٤٢٣
» بالتعبير عن العصيان بتبديل قول خير الذي قيل لهم ٣٢٤	»	استفتاح اليهود به على المشركين ٣٨٠
» بلاغة تناسبه ٢٨٩	»	أسماء الله ومناسبتها لمواضعها منه ٦٤١
» بلاغته في ترتيب ما ذكر به اليهود ٣١٨	»	إصلاحه العرب ٦
» في الحال الجملة والمفردة ٣٨٣	»	إطنايه في خطاب اليهود وإيجازه في خطاب العرب للنفوت بينهما فهمها وبلاغته ٥٥٢
» في استعمال اشتراء الضلالة بالهدى ١٦٥	»	إطلاقه اللغة من عقلمها وأبداعه الأساليب الجديدة فيها ٤٣٥
» بلاغته في وصف الحجارة التي شبه بها قلوب الناس بالصفات الثلاث ٣٥٣	»	إعجازه وتحدى البشر بسورة منه والجزم بعجزهم ١٩٠-٣٨٦، ٢٢٨
» بلاغته في المبهمات والضمائر ٤٣٧	»	إعجازه من ٧ وجوه ١٩٨-٢١٥
» بيانه لحقيقة النور اذ هو الإنجيل ٢١٢، ٤٩٥	»	إلحاحه بتأكيد النظر والتفكير في العالم ٢٥٠ امتياز به بنون الاستدراك والاحتراس ٤٣٥ أمر اليهود بالإيمان به
» بيانه لطبايع الخلق وسننه ٢٣	»	انتفاء الزيادة في حروفه وكلماته ٤٦٦
» تأثيره في جذب العرب للإسلام ٢٨	»	إنزاله للهداية للجرد التلاوة ٤٤٧
» تدبره وجعله غاية كل علم ١٨١	»	أول ما أنزل منه ٢٤
» تدبره ٤٤٧، ٣٧٠، ٤٤	»	الاشتغال بما أمر به وأرشد إليه من العلوم والعبر اشتغال به ١٨٢
» ترجمته المحرمة ٣٠		
» ترك هدايته لضلالة التقليد ٤٤٨		
» تطبيقه على الواقع في المسلمين من أمثاله في المنافقين ١٧٩ و ٣٤١		

- القرآن : عموم أحكامه ١٥٣
- « الفرق بينه وبين التوراة والانجيل ٢٦ »
- ٩٢ -
- « فهم العرب الخالص له ٣٢ ، ٢٨ »
- « قصصه عبرة لاتاريخ وطريقته فيها ورجوع بعض الأمم الراقية إليها ٣٢٧ ، ٣٤٦ ، ٣٩٩ »
- « كتابة بعضه لشفاء الأمراض والوقاية من الجن ٢٦ »
- « الكفر به لاينافي هدايته ١٣٩ »
- « الكفر به كفر بسائر الكتب ٣٩٤ »
- « الكفر به هو الحسران للسعادة ٤٤٧ »
- « كونه الخير الأعظم ٤١٢ »
- « كونه ليس فيه لفظ زائد لامعنى له ٢٦ »
- « كونه لا يرب فيه هدى للمتقين ١٤٢ »
- « كون أهله هم المقاجين ١٣٧ »
- « ما يتوقف عليه فهمه ٢١ ، ٢٣ »
- « ما يقصه عن الأمم أو الأفراد للعبرة لا يبعد تصديقا ولا إقرارا لهم ٣٩٩ »
- « مثل من يتغنى به ولا يعملون به ٣٤١ »
- « مجيئه لبني اسرائيل وكفرهم به ٣٨١ »
- « مطالبته بالبرهان وانفراده بذلك ٤٢٤ »
- « معرفة المسلمين به وبالله ٢٦ »
- « معنى إنزاله ١٣٢ »
- « معنى كونه آيات بينات ٣٩٥ »
- « مقارنته الايمان بالعمل ٤٢٦ »
- « مقاصده وكتايبه الخمس ٣٦ »
- « من حاولوا معارضته ٢٢٤ »
- « مواضع فهمه أربعة ٤٤٨ »
- القرآن التعبد بتلاوته والاهتداء به ٤٤٩
- « تعظيمنا عامتنا له وسؤال الله عنه ٢٦ »
- « تفسير بعضه لبعض ٢٢ »
- « تفسيره وما يحتاج اليه ١٧٤٤ »
- « تفاسيره شاغلة عن هدايته ١٨٤٧ »
- « التناسب بين آياته (يراجع أول كل سياق من تفسيرنا له)
- « تنوع أساليبه ٣٨٥ »
- « توقف فهمه والاعتاظ به على معرفة بلاغة الكلام العربي وذوقها ١٨٢ »
- « تلاوته حق التلاوة والمراد منها ٤٤٧ »
- « جاهلينا بعد عنه من الجاهلية الأولى ٢٧ »
- « حاجة العرب الى تفسيره اليوم ٢٥ »
- « حجة الله البالغة على خلقه ٢٩ »
- ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ٣٤١
- « حظ العوام من فهمه ١٠ ، ٢٠ »
- « حكمة التشريع فيه ٢٥ »
- « خطابه للناس بر فهم ليفهموه وإن لم يفهموا ما فيه من الحقائق الحقية التي لا تخل بفهمهم ٣٩٩ »
- « دقائق البلاغة فيه ٤١٧ »
- « رجوع منصفى علماء النصارى إلى قوله في المسيح ٢١٣ »
- « زوال ملك المسلمين بالاعراض عنه ٣١ »
- « ضرب مثل لدلالته على نبوة نبينا ٢١٨ »
- « ضرب مثل لقارنهم مع العقلة عنه ٤٥٠ »
- « عجز الزمان عن نقض شيء منه ٢٠٨ »
- « عدم الانغناء عنه بالفقه وكون أكثر ما فيه أعلى من علم الفقه ١٩ »

- القرآن . النسخ فيه وأوهام العلماء ٤١٤
 « وجه دلالاته على نبوة محمد ﷺ »
 ٢٢١ - ٢١٦
- « وجوب الأدب معه وفي مجلسه ٤١٢ »
 « وجوب الاهتداء به ٤٥٠ و ٢٠ »
 « وزن عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا به ١٨٣ »
 « وصفه السحر بأنه تخييل وكيد وخداع ٤٠٠ »
- قصة آدم وتأويلها بطريقة التخييل ٢٨٠ و ١٥١
 القضاء والقدر الاعتدال بهما عن المعاصي والتقصير والانتكال عليهما ٣١٠
 القلوب تشبيه قساوتها بالحجارة ٥٢ .
 « مرضها النفاق وفساد الاخلاق ١٥٣ »
 « نكتة جمعها كالأبصار مع أفراد السمع ومعانيها ١٤٤ »
 القول الحسن للناس ٣٦٨
 القوى الروحانية لنظام العالم ٢٦٩
 القياسى والمعاى فى العربية ٤٣٨
 (ك . ل)
- الكافرون عداوة الله لهم ٣٩٤
 « الفاقد والاستعداد للإيمان ١٤٠ »
 الكتاب الالهى . وجوب أخذه بقوة ٣٤١
 « والإشارة اليه قبل نزوله كله ١٢٣ »
 « والسنة سؤال الله عنهما وعن الاهتداء بهما ١٦٦ ترجيح المقلدين كتب مذاهمم عليها ٤٠٧ لولا حفظهما لما عرف الإسلام ٤٨١ »
- الكتاب الاقدس ، اخفاء الهائية له ٢٢٨
 كتب الكلام والفقہ . دعوى الاستغناء بها عن فهم القرآن ٤٠٧ و ١٩
 « دعوى أنها من عند الله ٣٦١ »
 الكذب . مفسده وتوهم النفع به ٢٩٩
 الكسب والتوكل ٦١
 كسب كل أحد له أو عليه ٤٩١
 كسوة الكعبة وما يحتف بها من البدع ٦٤٨
- كعب الاجبار ورواياته ١٧٥ و ٠٨
 الكعبة (راجع البيت الحرام)
 الكفر ببعض الكتب أو الرسل أو الكتاب الواحد والایمان ببعض ولو بالعمل به وتركة ٣٧٣ ، ٣٩٤
 « يرد دعوة الرسل وبالابتداع فيها ١٩٧ »
 « بسوء الادب مع الرسول ٤١٠ »
 « ببعض صفات الله ، استغرابه ٢٤٥ »
 « جعله بدلا من الايمان ٤١٦ »
 « معناه لغة وشرعا ١٣٩ »
 « وقوعه بمقتضى سنن الله فى أسبابه ليس اجباراً عليه ١٧٠ ، ٤٦٤ »
 الكلمات التى ابتلى ابراهيم بها ربه ٤٥٤
 كلمة التكوين (كن فيكون) ٢٨١ ، ٤٣٨
 الكنائس . امتناع هدمها ٤٣٢
 الكهرباء انارة اتصال نوعها كالتور والزرعد والصواعق ١٧٦
 « تقریها فهم عالم الغیب ٢٥٦ »
 (لعل) معناها فى كلام الله ١٨٦

الملائكة تعريف المتكلمين لهم غير مفهوم	٢٢٥	مسيلة . معارضته لسورة السكوتر	٢٢٥
٢٧١		المشرق والمغرب لله فيتوجه اليه العبد	
٢٧٣ » تقارب عقائد الأمم فيهم	٤٣٤	حيث كان	
» تقريب الايمان بهم من عقول	٤٤٠	المشركون . اقتراحهم تكليم الله لهم	
الماديين	٢٦٧	» نقضهم لعهد الله وقطعهم بأمر به	
» جنود غيبية وعالم روحاني	٢٦٦، ١٢٧	أن يوصل	٢٤٢
» حقيقتهم وأصنافهم وإسناد إلهام الخير		المصالح . مراعاتها من أصول الشرع	١١٩
اليهم ونوط نظام العالم بهم	٢٦٦-٢٧٤	المصلحة العامة والشخصية وأثر إيثار كل	
» حكمة سؤالهم عن جعل آدم خليفة		منهما في بقاء الأمة	١١٣
في الأرض وقول السلف والخلف		المصريون تقاليد قدامهم في الموتى	٣٠٦
فيهم	٢٥٥	» كبراهتهم للغرباء كالاسرائيليين	٣١٢
الملك تمثله للنبي عند الوحي	٢٢٠	معارضة نصراني للفاتحة	٧٨
الملوك والأمراء الظالمون جزاؤهم في		المعاصي اعتذار مرتكبها بعدم العصمة	٣٠٠
الدنيا والآخرة وشقاء الأمم بهم	٥٥	» الاعتماد فيها على العفو والشفاعة	
عبادتهم وسببها	٥٧	المعجزات . ثبوتها ومنكرها وانتهاء زمانها	
على استبدالهم	٤٥٦	ببعثة خاتم النبيين وكونها لاتتافي اطراد	
ملة إبراهيم وسفه من يرغب عنها	٤٧٤	سنة الله سواء كانت خوارق للسنة الدنيوية	
موسى مواعده لربه وإيتاؤه الكتاب		موافقة لسنة غيبية أم لا	٣١٤-٣١٨
٣١٧، ٣٧٦		المغاربة المنتحلون لخرافات السحر وتسميته	
ميثاق الله العام وهو عهده الكوني وعهده		بالروحاني	٤٠٤
الديني	٢٤٢، و ٣٦٥	المفضوب عليهم والضالون	٩٧ و ٦٨
ميزان الهداية والضلال	٧١	مقابلة بين الفاتحة والصلاة الربانية	٨٢
الناقضون : أقوالهم الكاذبة	١٤٨	مقام إبراهيم واتخاذهم مضلي	٤٦١
الصحیح النبي عنهم	١٤٩	المقلدون : إيجابهم العمل بكتبهم دون كتاب	
الله بجهلهم خداع لأنفسهم	١٥٣	الله وشبهتهم على ذلك	٤٠٧
مرض قلوبهم	٥٣	المقلدون شبهاتهم وجودهم ومثلهم	١٥٧، ٨٠
فسادهم إصلاحا	١٥٦	١٧٠، ١٧٣، ١٧٩	
المؤمنين بها	١٥٩	الملائكة أقوى الأدلة على وجودهم	٢٧٣

- اللغة العربية تحكيم السماعي في القياسى
 منها ٤٣٨ وسيلة لفهم القرآن ٢١٠٧
- « وجوب صيانتها وحفظها وتوقف
 إعادة مجد الاسلام على ذلك ٢٨-٣١
 (م)
- المال إيفاقه في سبيل الله وقاية من التهلكة
 ١١٠ أنواعه ١٣٠
- « جرمة أكله بالباطل ١٢٠
 مالك وملك يوم الدين ٥٤
- « الامام . امتناعه من الزام الخلفاء
 الناس بالعمل بكتبه ١١٨ ، ١٣٨
- المتدبرون لكتاب الله والمقلدون ٤٤٧
 المتشابهات ومذهب السلف والخلف ٢٥٠
- مثل للدلالة القرآن على نبوة نبينا ٢١٨
 مثل المناققين كمثل من استوقد ناراً ١٦٧
- « « احجاب الصيب ١٧٢
 المثل . معناه وضربه للشئء وبلاغته ٢٣٦
- مذهب السلف في الصفات ٢٦٦ ، ٢٥٠
 المذاهب والآراء في الدين : حملها على القرآن
 دون الكس ٧١
- مرض القلوب ، وكونه كمرض الابدان ١٥٤
 المساجد ظلم مانع ذكر الله فيها والساعى
 في خرابها ٤٣٠
- « ما يتحتم على داخلها من خوف الله
 المسخ في اليهود معنوى لاصورى ٣٤٣
- المسلم معناه لغة وشرطاً ٤٦٩
 المسلمون اتباعهم سنن من قبلهم ٤٤٩
- « أشد إنذار الله لهم ٤٤٥
- المسلمون : توقف وحدتهم على لغة
 الاسلام الجامعة لهم ٢٩
- « حلهم مع أهل الكتاب ٤٢١
 « حجة الله عليهم ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦٠ .
 ١٧٩ ، ٣٤١
- « سعادتهم بالاسلام ثم شقاؤهم بالاعراض
 عنه ٤ ، ١١٠ ، ٣١٤ ، ١١٧
- « سقوطهم بعد العلم والمدنية في شر
 من الجاهلية الأولى ٢٧ ، ٢٥٠
- « شهادتهم باليهود السابقين ٢٩٧ ، ٣٥٩
 ٣٦١ ، ٤٧٨
- « صدق أمثال المناققين على كثير من
 علمائهم وعوامهم ١٧٩
- « ضعفهم وزوال ملكهم وسببها ٣١٠
 « عصبيتهم الجنسية تنافي الاسلام ٣٠
 و ٣١٢ ، ٣٣٧ (راجع الدين)
- « غرورهم بدينهم كأهل الكتاب ٣٣٦
 ٣٧٠ ، ٤٨٨
- « فقد جمهورهم الاستعداد لفهم القرآن
 وطلبه بمجد ١٤ ، ٢٣
- « مخالفتهم للاسلام والقرآن ٤٠٦
 ٤٢٥ ، ٤٤٩
- « « عن تصديق أهل الكتاب ٤٨٤
 مسيح الهند الدجال ١٠٢
- المسيح : زلزله انتقاله اليهود وابتداع
 النصارى بعده أكثر منها ٤٨٩
- « وحدتهم وماضيهم وحاضرهم وما
 يجب عليهم ١٨١ ، ٣١٠

٤٤٣	نبينا : عدم رضا أهل الكتاب عنه حتى يتبع ملتهم	١٨٤ و ١٦٢	المنافقون . دعواهم الايمان
٣٢١٠ ، ٣١٧	« كافر أهل الكتاب به »	١٦٣	استهزاءهم واستهزاء الله بهم
٤٢٩ ، ٣٤٤	« محاجته لأهل الكتاب »	١٦٤	مدم في طغيانهم يعمهون
٤٨٧	« وجوب الأدب في خطابه »	١٧٢ ، ١٦٧	الأمثال لهم ذهاب الله بنورهم وبلاغته
٤١٠	نحو ابن هشام	١٧١	اصم بكم عمى
١٨٢	نساء الجنة مطهرات من كل عيب	١٧٩	انطباع جميع صفاتهم والأمثال المضروبة لهم على كثير من علماء المسلمين وعاتمهم
٢٢٣	النسب في الآخرة		﴿ ن ﴾
٤٩١ ، ٤٨٨ ، ٣٣٤	النسخ لغة وشرعاً وأقسامه	٣٤١	الناسي للإيمان وأمور الدين كالكافر بها
٤١٣	« لمعجزات (آيات) الرسل »	٤١١	النبات مؤلف من كل شيء موزون
٤٤٥	نصر الله لأهل العلم والهدى	٤٤١ ، ٣٥٦ ، ٢٢٨ - ١٩١	نبينا . آية نبوته
النصارى . تقاليدهم الخاصة بهم كلها بعد المسيح		٢٤٢	« إرساله بالحق بشيراً ونذيراً »
٤٨٩	انظر والتفكر لمعرفة سنن الله في الأمم وأسراره في خلقه	٣١٥	« انتهاء زمن المعجزات ببعثته »
٢٣	نعم الله عموم شكرها بعمومها	٤٠٨ ، ٣٩٧ ، ٢٩٥	« بشارة التوراة به »
١٨٥	النفس : تأثيرها في غيرها	٤٩٠ ،	
٤٠٠	نور الحق والاسلام	٤١٧	« تشكيك اليهود في رسالته »
١٧٠	﴿ ه ﴾	٤٧٢	« تعليمه أمته الكتاب والحكمة وتركيبته إياهم »
٣٩٨	هاروت وماروت والسحر	٢٩٥ ، ٢٩٠ ، ١٥٨ ،	« حال اليهود معه »
٧١	هداية العلم والدين	٤٣٤ ، ٤٢٩ ، ٣٩٢ ، ٣٨١ ، ٣٥٦	« حجته على اليهود »
٣٩٧	« مجد أكل الهدايات »	٣٧٨	« خطابه بما يراد به أمته »
٦٢	« الوجدان »	٤٤٥	« دعاء إبراهيم ببعثته »
٢٢٣ ، ٦٣	« الحواس والعقل »	٧٢	« دلالة القرآن على رسالته »
٢٨٨ ، ٦٣	« الدين »	١٩٨ - ٢١٥ ، ١١٦ ، ١٢١	« ضرب مثل لهذه الدلالة »
٦٢	« الصراط المستقيم »	٤٧٢	« صفاته ووظائف رسالته »
٦٤ ، ١٢	الهداية للمعتقين	٢٧٨	« عدم تكذيب الكفار الجاحدين له »

٤٢٦	يعقوب وصيته لبنية بالاسلام	٤٤٤٠٢٨٥٠١١٧٠١١١	هدى الله وعمرته
٢٢٩٠١٣٣	اليقين معناه لغة وعرفا	١١٥	الهلكة تحريم التعرض لها
	اليقين خلقها بالله على الباطل دون الأولياء		(و)
١٣٤	والمشايخ		الواعظ أمثل الطرق لقبول وعظه ٣٠٢
٤٠٥	اليهود . استحلهم السحت والربا	٠٣٦٦	الوالدان الاحسان بهما
	حلمهم مع النبي ﷺ - راجع نبينا	٤٢٧	الوثنية إنارتها المخاوف والأوهام
٣٩٢	« مع مسلمي عصرنا		« أساسها الاعتماد على الشتماء والوسطاء
٢٩٥	« في دينهم والعمل بكتابتهم		عند الله في كل أمر أخروي أو دنيوي
٣٥٧	ذبذبهم مع النبي وأصحابه	٤٩١٠١٣٤	عز مطلبه
٣٣١	ضرب الذلة والفضب عليهم	٦٠٠٦	« خرافاتها المذلة للنفس
٣٥٤	طمع الصحابة في إيمانهم	٥٩	« عباداتها
	« والنصارى تعصبهم على الرسول وعدم	٦٢	الوجدان والالهام الفطري
٤٤٣	رضاهم عنه حتى يتبع ملتهم	٢٧٤	وجود الله أقوى دلالة
٤٤٤	جعلهم الدين جنسية سياسية	١١٣	الوحدة والاتفاق ثمرة الايمان
	اليهود والنصارى: طعن كل منهما في الآخر	٢٢٠ و ١٣٢	الوحي
٤٢٤		٢٦٧	وسوسة الشمر إسنادها إلى الشيطان
	« كفرهما بحمد ككفر كل منهما	٤٧٨-٤٧٥	وصية إبراهيم وآله بالاسلام
٤٢٨	بدين الآخر	٣٧	الوعد والوعيد في القاتحة
	« المغضوب عليهم والضالون ٩٧٠٦٦	٠٤٤٥	ولاية الله لأهل الحق
٣٦١٠٣٥٩	يهود عصر النبي ومسلمو عصرنا	٤٣٦	الولد: بطلان جعله لله تعالى
	يوم القيامة . لا يملك فيه أحد لأحد	١١٣	الولاية الشرعية حق المؤمنين العادلين
	نقما ولا دفع ضر بسبب ولا نسب		الولي معناه اللغوي الشرعي ومعناه العرفي ٢١
	ولا شفاعاة ولا فداء ولا نصرا	١٧٥٠٩٠٨	وهب بن منبه خرافاته
٤٥١ و ٣٠٥			(ي)
	اليونان عقائد قدامهم في الآلهة والأرباب	١١٥	اليسر ورفع الحرج من الدين
٢٧٣			

خطأ وصواب

تفسير المنار جزء أول

صفحة سطر	خطأ	صواب	صفحة سطر	خطأ	صواب
٢ ١٠	صا قين	صادقين	٨٠ ٤	لا يضح	لا يصح
٤ ١٢	الدين	الذين	٨٩ ١٣	يستحضر	فلم يستحضر
٥ ١٧	الآيات	لآيات	٩٤ ٢	فيعد	فيعد
٩ ٢٠	حرفوا فيه	حرفوا فيها	١٠١ ٩	أبو قاسم	أبو القاسم
١٦ ٤	إرث	إرث الله	١٠١ ١٩	وأخذ الثالثة	وأخذ في الثالثة
١٦ ٦	فصيح	صحيح	١٠٩ ١٤	والأفزين	والأفريين
١٧ ١٥	تابع له ودا	تابع له	١١٣ ٨	اتبوا	اتبوا
١٩ ١٢	طالب	طلب	١١٤ ٥	آباءنا	آباءنا
١٩ ١٦	الإصلاح	الإصلاح	١١٤ ٢٢	يجعل	يجعل
٢٣ ١٠	الواحدة	الوحدة	١١٥ ١١	أمرتم	أمرتكم
٣١ ٥	واجب	فهو واجب	١٢٠ ١٨	وضعها	بوضعها
٣٢ ٢٠	وللفاتحة	والفاتحة	١٢٢ ٤	رضى الله عنه	كرم الله وجهه
٣٩ ١٩	قال	قال قال	١٣٣ ٢٠	قوله: ويتضمن	الى قوله: على
٤٢ ١٢	مسميات	مسمياتها		الاعمال سطر ٢١	مكرر
٤٤ ٦	ما يقرره	ما يقرر	١٣٨ ١٠	رضى الله عنه	كرم الله وجهه
٥٩ ٤	من مخ	مخ	١٣٩ رأس الصفحة	س ١	س ٢
٦٨ ٨	والعملية	والعملية	١٣٩ ٤	أبلغ	بلغ
٧٢ ١٩	إيتسار	إيتسار	١٣٩ ٩	الإيمان	الإيمان به
٧٣ ٢٥	بذاته	لذاته	١٤٠ ٣	بعد	بعدم
٧٥ رأس الصفحة	صفة	صفتي	١٤٠ ١٢	واستهزاء	أو استهزاء
٧٧ ٢٢	إن الله	إن لله	١٤٠ ١٨	شبهه	شبهته

خطأ وصواب الجزء الأول من التفسير

٢

صواب	خطأ	صفحة سطر	صواب	خطأ	صفحة سطر
المئين	المئين	١٧ ١٩٩	لرسوخهم	فرسوخهم	٧ ١٤٢
وتقول	وتقول	٥ ٢٠٠	تنحامي	تحامي	٦ ١٤٥
تفكر	تفكير	٧ ٢١٢	التهج	التهج	٤ ١٥١
المثقفين	المنفقين	١١ ٢١٦	إلى تحسين	لا إلى تحسين	١ ١٥٣
بعمل غريب	بعمل	٩ ٢١٩	ينطبق	ينطق	١٧ ١٥٣
يخلو	يخلوا	٢١ ٢١٩	المقلدين	المقلد	٨ ١٥٧
بأنه من قبل	من قبل	١٣ ٢٢٠	سنتهم	سنتهم	٦ ١٦٠
الحق	الحق	٦ ٢٢٢	أم من لاسلف	أم لاسلف	٨ ١٦٠
المؤمنون	المؤمنين	١٠ ٢٢٧	اشترأ	اشترأ	١ ١٦٧
المتفنين	المصنفين	٣ ٢٣٠	ينفعه	لينفعه	٧ ١٧٠
دارا الخلود	دار الخلود	٢٤ ٢٣١	وعاقوا	وعاقوا	١١ ١٧١
اللكل	لكل	٥ ٢٣٢	قرار	قراره	١١ ١٧٢
اثنتين	اثنين	١٢ ٢٣٤	ويجنون	ويجمون	٢٠ ١٧٢
ينفر	ينفرد	٢٤ ٢٣٦	الكهرباء	الكهله باء	١٧٦ رأس الصفحة
المتظرفين	المتظرفين	١١ ٢٣٨	الفصل	للفصل	٢٥ ١٧٦
ذكرنا	ذكرنا	١٩ ٢٣٩	المعنيين	المعنين	٤ ١٧٩
وأن	أن	١ ٢٤٠	مخصوصين	مخصوصون	٢٠ ١٧٩
بلذات	بلذات	١٥ ٢٤٤	أتباعهم	أتباعهم	٤ ١٨١
وحياتكم	وحياتكم	١١ ٢٤٥	لا يمكن	لا يمكن	٢٥ ١٨٥
إن وجوه	أن وجوه	٢٢ ٢٤٦	ببعض	بعض	١٦ ١٨٧
والتوجه	والتوجيه	٦ ٢٤٦	إعجاز	إعجاز	١٥ ١٩٤
فدمرهم	فدمرهم	١٥ ٢٥٨	بمدارة	بمدارة	٣ ١٩٦
لعدم	بعدم	١٧ ٢٦٢	يخذو	يخذوا	١٤ ١٩٦
تمتاز	تمتاز	١٩ ٢٦٤	تأليفه	تألفها	١٩٩ رأس الصفحة
وخطأه	وخطأه	١١ ٢٦٦	ما أبدوا	ما أبدوا	١٤ ١٩٩
لا تنطبق	لا تنطبق	١٣ ٢٧٧			
وزوجه	وزوجه	٢٧٨ رأس الصفحة			

صواب	خطاً	صفحة سطر	صواب	خطاً	صفحة سطر
موضوع	موضع	٣٦٥ رأس الصفحة	ما يقاربه	ما يقربه	١١ ٢٨٤
ج ١	١	» ٣٧٠	تستشبع	ستشبع	٨ ٢٨٧
بلاغة	بيلاعة	» ٣٧٧	هداي	هدى	١٨ ٢٨٧
بمفهومها	بمفومها	١ ٣٧٨	تجعلها	تجعلها	٢ ٢٨٨
تقليلا	تقليلا	١٦ ٣٨٠	الحجة	الحجج	٢ ٢٩٠
واحد	واحدا	١٨ ٣٨٢	إخوات	إخوات	٢٩ ٢٩٥
فيه	وفيه	١١ ٣٩٢	والحرقة	والحرقة	٢١ ٣٠٦
لا يتوجهون	يتوجهون	٨ ٣٩٥	مطلقا	مطلقة	٧ ٣٠٧
الفقيه	الفقة	٢٤ ٣٠٧	المفرد	الفرود	٢٢ ٣٠٨
يشكك	يشك	١٢ ٤١٧	اصطلاح	اصلاح	٢ ٣١١
فانكم	فانكا	٨ ٤٢١	ويتسلسل	ويتسلل	٥ ٣١٣
الاقتناع	الاقتناع	١٨ ٤٢٢	أرشد	أرشد	٧ ٣١٥
غيره	غير	٢٥ ٤٢٧	آباءم	آبؤم	٧ ٣٢٨
الذين	الذين خلوا	١٦ ٤٤٠	الذلة	الذل	٢ ٣٣٠
مكابر	مكار	١ ٤٤١	ويقتلون	يقتلون	٢١ ٣٣٢
تسلية	سلية	٢٤ ٤٤٢	ظاهرة	ظاهرة	٢ ٣٣٧
ذكرهم	وذكرهم	١٤ ٥٥٠	فرعهم	فرعهم	٣ ٣٤٠
هذا الضرب	هو الضرب	٦ ٤٦٧	ذلك الاطماع	الاطماع	٨ ٣٤٠
ووصيته بنيه	ووصية بنيه	١٣ ٤٧٦	الحجة	الحجة	٢٠ ٣٤١
(وقالوا)	(قالوا)	١٠ ٤٨٠	لا أنم	لأنم	١٩ ٣٥٦
ببند	مسند	١٨ ٤٨١	بها	بها	٢٠ ٣٥٦
يأثرون	يؤثرون	١ ٤٨٤	إلا نسخة	الأ نسخة	٣ ٣٦٠
الوضعية	الوصفية	٩ ٤٨٦	لا يحيط	لا يحيط	١١ ٣٦٣
يعد	يعد	٦ ٤٩٦	الآجال	الآجال	١٦ ٣٦٤
سنتهم	سنتهم	١٨ ٤٩٦	أخذنا	أخذنا	١٧ ٣٦٤
فيما ترى من	فيما ترى	٢٥ ٤٩٦			
الاستدراكات					